ديوان

ابن درّاج القسطلي

(المتوفى سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م)

حققه وعلق عليه وقدم له

الدكتور محمود علي مكي

طبع على نفقة

صاحب السمو العالم الجليل الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني حفظه الله

الطبعة الاولى

١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م

منشورات المكتب الاسلامي بدمشق

هذا الكتاب

وقف لله تعالى

من صاحب السمو

الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني

حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة الشيخ محمد بن مانع

ذكر ديوان أحمد بن دراج وبيان الجهود التي بذلت في تحصيله

كان صاحب السمو الشيخ علي بن الشيخ عبد الله بن قاسم الثاني حريصاً على تحصيل العلوم الشرعية من الحديث والتفسير والفقه وما يستعان به على فهمها من العلوم اللغوية والشعرية ويديم سماعها وقراءتها وكان حاذقاً ناقداً يفهم جيداً ما يسمع وما يقرأ وكانت مجالسه ليلاً ونهاراً عامرة بقراءة فنون العلم وكان يبذل الأموال الطائلة في نشر كتب العلم وتوزع بأمره على المستحقين من أهل العلم وقفاً لله تعالى . وأمر بانشاء عدة مكاتب في قطر وغيره وأمر أن يجمع لها الكتب النافعة المفيدة تسهيلاً لنشر العلم وإعانة للمطالعين المستفيدين .

وكان أدام الله له السعادة والسيادة محباً لأهل العلم مديما للبحث والمذاكرة معهم وكان يرتاح لسماع الأشعار العربية الجيدة القديمة والحديثة كما أنه يكره سماع الأشعار الهزلية والركيكة ولا يأذن لاحد في قراءتها عنده كما أنه يكره كتب أهل البدع

المحتوية على الشرك والدعـوة اليه والتجهم والاعتزال ولا يسمح بادخالها في مكاتبه جزاه الله خيرا .

ومما قرىء في مجلسه عدة مرات رائية الشاعر المجيد أحمد بن دراج الأندلسي التي عارض بها رائية أبي نواس وربما أمر بقراءة القصيدتين وكانت تعجبه رائية ابن دراج وكان يسأل عن ديوانه لأنه يعلم مما قرأه من كتب التواريخ أن ديوان ابن دراج في جزأين وكان يراجع كل من ظن أن لديه علماً في شأن هذا الديوان حتى زاره عالم فاضل جزائري فسأله عنه فقال إنه يوجد في أحد مكاتب المغرب الأقصى ثم سأل رجلاً آخر من ذوي الشأن عن الديوان فأجابه بنحو ما أجاب به الجزائري فحينئذ أمر الاستاذ الشيخ عبد البديـع صقر بالسفر إلى المغرب الأقصى للبحث عن ديوان ابن دراج ، فوصل الى مدينة الرباط وبحث في مكاتبها وبعد جهد شديد عثر على الديوان فاستأجر من يصوره وبعد شهور قليلة وصل اليـه الديوان مصوراً .

ولـكنه بخط مغربي قل من يستطيع قراءته من المشارقة فأمر بـكتابته بالخط المعروف وعند ما قرأ بعض قصائده أمر بطبعه على نفقته جزاه الله خيراً وحيث ان طلب هذا الـكتاب الأدبي شبيه بما نقرؤه في مقدمة الـكتـاب الأدبي المعروف بكليلة ودمنة من الرحلة في طلبه .

فقد التمست من الأستاذ الشيخ عبد البديع أن يصف لنا رحلته الى المغرب في طلب هذا الديوان ففعل بارك الله فيه [1] .

---

(١) وهي مثبتة بعد كلمة العلامة الشيخ محمد بن مانع .

ابن دراج صاحب الديوان

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الأندلسي القسطلي كان كاتب المنصور ابن أبي عامر وشاعره قال ابن خلكان وهو معدود من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين وقد ذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر وقال في حقه كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام وذكره ابن بسام في الذخيرة وساق طرفاً من أخباره قال ابن خلكان ونقلت من ديوانه وهو جزآن

ان المنصور بن أبي عامر أمره أن يعارض قصيدة أبي نواس الحكمي التي مدح بها الخصيب بن عبد الحميد صاحب الخراج بمصر والتي أولها .

أجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

فعارضها بهذه القصيدة البليغة من الطويل التي يقول فيها :

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى ... وأن بيوت العاجزين قبور

تخوفني طول السفار وإنه ... لتقبيل كف العامري سفير

دعيني أرد ماء المفاوز آجناً ... إلى حيث ماء المكرمات نمير

فان خطيرات المهالك ضُمَّن ... لراكبها ان الجزاء خطير

قال ابن حزم الأندلسي لو لم يكن لنا من الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي . مات ابن دراج سنة ٤٢١ بعد وفاة المنصور ابن أبي عامر بمدة طويلة فان المنصور مات في إحدى غزواته المظفرة سنة

٣٩٢ وقيل ٩٤ قال المقري في نفح الطيب مكتوب على قبر المنصور .

آثاره تنبيك عن أخبـاره حتى كأنك بالعيـان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه

ومن الغريب أن مثل هذا الديوان الذي نوه العلمـاء بناظمه كابن حزم والثعالبي وابن بسام وصاحب الشذرات وغيرهم يبقى هذه المدة الطويلة ولم يبحث عنه أحد ولم ينوه بشأنه مع أن رائيته مشهورة بين الناس ونحن لا نشك أن هذه فضيلة ذخرها الله لصاحب الفواضل والفضائل صاحب السمو الشيخ علي بن الشيخ عبد الله الثاني حاكم قطر سابقاً وكم له من الأيادي على المستحقين فبـارك الله في حياته وشكر له سعيه وضاعف جزاءه بمنـه وكرمه .

١١ / ٩ / ١٣٨٠ محمد بن عبد العزيز بن مانع

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لقد عرف الناس ما لصاحب السمو الشيخ علي بن عبد الله الثاني حاكم قطر السابق من عناية بالشعر والأدب ! وما يمتاز به سموه من ذاكرة واعية وحافظة عجيبة وإحاطة شاملة بالتاريخ والأدب قديمه وحديثه بشكل لا نكاد نعرف له مثيلا في عصرنا الحاضر !

فضلا عن حفظه للقرآن الكريم وفقهه في الدين . . كما أن له عناية بانشاء المكتبات وتنسيقها على أحدث الطرق الفنية ، فله في كل قصر من قصوره مكتبة خاصة . وقد أنشأ المكتبة العامة سنة ١٣٧٦ هـ بالدوحة عاصمة بلاده ومنها توزع آلاف الكتب والمصاحف على طلبة العلم بالمجان ابتغاء مرضاة الله تعالى . وأمر بانشاء مكتبة عامة في الأحساء على نفقته الخاصة كما أن لسموه مندوبين لتوزيع كتب العلم في كل من القاهرة ودمشق وجدة وبيروت والأحساء . وفي خلال مراجعاته لأدباء الأندلس وشعرائها اطلع على قصيدة رائية لابن دراج القسطلي وهي التي مطلعها :

دعي عزمات المستضام تسير   فتنجد في جوف الفلا وتغور

فاستدل منها على قوة هذا الشاعر . . . وجعل يبحث عن ديوانه فلم يقف له على أثر . فاستدعاني ذات يوم الى جنيف وقال :

« إن التتار الذين اكتسحوا ديار الاسلام وأحرقوا وأغرقوا تراثهم العلمي والأدبي لم يصلوا الى بلاد المغرب بل ردهم العرب وهزموهم في « عين جالوت » وإني أتوقع أن تكون في خزانات الكتب المغربية بعض المخطوطات النادرة فاذهب الى هناك وأخبرني عما لديهم من نفائس لتزويد مكتباتنا بها وإن وجدت ديوان ابن دراج فاحرص على تصويره وإحضاره » فقمت من جنيف إلى المغرب ومررت في طريقي ببعض مكتبات ألمانيا . وزرت المكتبة الوطنيه بباريس ونقلت أسماء أهم مخطوطاتها العربية بمعاونة الدكتور محمد حميد الله .

ثم زرت مدريد باسبانيا (الأندلس) وهناك تقابلت مع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد وعرفني بالدكتور محمود مكي وكيل المعهد وعلمت منهما أن ديوان ابن دراج مفقود وتتمنى كثير من الأوساط الأدبية لو عثرت عليه لتنشره في الحال .

وزرت المكتبة النادرة القديمة بدير الاسكوريال بضواحي مدريد ونقلت قائمة مخطوطاتها العربية . ثم توجهت الى الدار البيضاء ثم الى الرباط حيث نزلت في ضيافة جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله الذي كان حفياً بنا مشجعاً للغاية التي حضرنا من أجلها وفعلاً وجدت كل شيء ميسراً وقد أعجبت بالمكتبة العامة بالرباط التي تعتبر من أكبر المكتبات في المغرب وأحسنها نظاماً وقد انتفعت بمساعدة السيد أحمد بنَّاني رئيس التشريفات ببلاط الملك الذي عرفني بالشيخ محمد أبو بكر التطواني ويسمى (بالفقيه التطواني) وهو من أفاضل علماء المغرب .

وعندما سألت الفقيه التطواني عن مخطوطة ديوان ابن دراج قال : « أتذكر أني رأيتها في المكتبة الزيدانية بمكناس . ولكن يجب أن نبحث في مكتبة القرويين بفاس أيضاً . » وتوجهت الى مدينة فاس وقد كانت عاصمة المغرب في القديم وفيها استقبلنا السيد عبد الرحمن النازي باشا المدينة واجتمعنا في منزله بعدد من علماء المغرب منهم الشيخ أحمد الجبالي مدير معهد الفتيات

وزرت جامعة القرويين وتحدثت فيها الى الشباب المغربي ثم زرت مكتبة القرويين الشهيرة وألقيت فيها حديثا آخر . وقد أطلعنا قيِّم المكتبة الشيخ العابد الفاسي على مافيها من نوادر[1] — ولكننا لم نجد فيها الديوان المطلوب ثم رجعنا الى مكناس وهي العاصمة السابقة وقابلنا فيها الشيخ محمد داود المؤرخ بتطوان والشيخ محمد المُنُوني الذي تعلمت منه الخط المغربي ثم قابلنا الشيخ مصطفى زيدان ناظر الأحباس[2] الكبرى وصهر جلالة الملك . فرحب بنا وذهب بنا الى المكتبة فوجدنا بها بعض الأجانب والأجنبيات ولم نجد لها فهرساً ولم تكن مرتبة على الطريقة العلمية فلم نستطع أن نهتدي الى الديوان نفسه ! وإنما أكدوا لنا أنه موجود عندهم وأبدوا استعدادهم لإرسال (الفيلم) المصور الينا وتعهد بذلك الفقيه التطواني ثم وفى بوعده . . وأرسل لنا مصورة الديوان فيما بعد كما أرسل نسخة أخرى الى معهد الدراسات بمدريد لأنهم كانوا يبحثون عن نفس المخطوطة أيضاً .

ثم رجعت الى الرباط ! والتقيت فيها بعدد من الشخصيات منهم الزعيم علال

---

(١) لقد أحصى معهد المخطوطات بالجامعة العربية بالقاهرة — هذه المخطوطات وغيرها في (مجلة معهد المخطوطات) .

(٢) الأوقاف .

الفاسي رئيس حزب الاستقلال والسيد أحمد علوي (وزير الأنباء حالياً) والسيد مكي بدو وزير الأوقاف والدكتور توفيق الشاوي مستشار المحكمة العليا والأستاذ العلامة خير الدين الزركلي السفير السعودي وغيرهم من رجالات الشرق والغرب .

كما قابلت في طنجة الشيخ عبد الله الجابر الصباح وزير المعارف والعدل بالكويت وكذا العلامة الشيخ محمد جُنُّون[1] الذي أهدى لمكتبتنا اثني عشر كتاباً من مؤلفاته .

واثناء مروري بمدريد عائداً الى الشرق أوضحت للدكتور حسين مؤنس أني وجدت مخطوطة ديوان ابن دراج ! وأن سمو الشيخ علي بن ثاني سيقوم بطبع الديوان على نفقته الخاصة على كل حال ! فيحسن أن نوحد المجهود . وقد قبل الدكتور محمود علي مكي أن يقوم بتحقيق الديوان بعد نسخه الى الخط الشرقي وكتابة مقدمة باعتباره من المختصين بدراسة البيئة التي نشأ فيها الشاعر وقيل فيها شعر الديوان . وقد تم كل ذلك بفضل الله حتى جاء البحث وافياً على الوجه الذي يراه القارىء الكريم بين دفتي هذا الكتاب والذي يستحق الدكتور مكي من أجله الشكر والتقدير .

ويجمل بنا أن ننوه بما أتم سمو الشيخ علي بن عبد الله إنجازه حتى الآن من طبع ونشر الكتب التي تربو على ثلاثين كتاباً من المخطوطات القيمة على نفقته الخاصة والتي يقع بعضها في سبع مجلدات ؛ مما أضاف الى المكتبة العربية ثروة جديدة تعد من مفاخره الكريمة في هذه البقعة من بلاد العروبة والإسلام .

فاللهم أجزل له الأجر والمثوبة . والحمد لله رب العالمين .

عبد البديع السيد صقر

مدير المكتبات

---

(١) جُنُّون في اللغة البربرية معناه القمر .

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

كان للأندلس دائماً في نفوس الناس في الشرق العربي مكانة خاصة ، وما زال ذكر هذه الكلمة يثير فينا مشاعر كثيرة من الذكريات الحزينة والحنين إلى ماضي هذه البلاد التي كانت جزءاً من أعظم أجزاء العالم العربي وأعزه عليه طوال فترة غير قصيرة من تاريخها :

ومن أجل هذا وجّه الباحثون في الأدب العربي وتاريخه في الوقت الحاضر مزيداً من جهودهم لبحث مختلف مظاهر الحياة الأدبية والفكرية في هذا « الفردوس المفقود » ، وكان للشعر الأندلسي من هذه الجهود نصيب كبير ، إذ اشتد إقبال الأدباء على دراسته في السنوات الأخيرة .

وقد كان من الطبيعي أن يوجّه الباحثون اهتماماً خاصاً إلى نشر مالا يزال مخطوطاً من آثار الشعراء الأندلسيين ، فهذا أمر لاغنى عنه إذا أردنا أن تتم

دراسة الأدب الأندلسي على أساس علمي سليم . على أن مابقي من دواوين هؤلاء الشعراء يعتبر شيئاً ضئيلاً إذا قيس بإنتاج الأندلسيين في ميدان الشعر ، إذ لايكاد المنشور منها حتى الآن يتجاوز أربعة دواوين أو خمسة .

وقد كنت منذ أن اتصلت بالأدب الأندلسي مهتماً بشعر ابن دراج القسطلي متتبعاً له ، غير أن القليل الذي بقي منه متفرقاً في المراجع الأدبية لم يكن يعين على القيام بدراسة وافية له مما صرفني عن ذلك ، لاسيما وأن ديوان ابن دراج كان في حكم المفقود لا يكاد أحد يعرف له مستقراً .

حتى كان شتاء العام الماضي حين دُعِيَ أستاذنا الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد إلى الرباط لإلقاء سلسلة من المحاضرات على طلبة الجامعة المغربية ، وكان من الصدف السعيدة أن يلتقي هناك بالعالم المغربي الفاضل الأستاذ الشيخ الفقيه محمد التطواني ، ويطلع لديه على النسخة المخطوطة التي كانت في حوزته من ديوان ابن دراج .

وقد كان مجرد اكتشاف نسخة مخطوطة من ديوان ابن دراج حدثاً جليلاً في ذاته ، فقد كان الرأي السائد بين الباحثين في تاريخ الأدب العربي أن هذا الديوان قد فقد في كثير مما ذهب من تراث ثقافتنا العربية ، ولهـذا فقد بادر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس باستئذان الشيخ الفقيه التطواني في تصوير هذه النسخة المخطوطة تمهيداً لنشرها ، فأذن له العـالم المغربي الـكريم في ذلك ، وما إن قدم الدكتور مؤنس إلى مدريد حتى تـكرم بإهدائي تلك النسخة المصورة لـكي أشرع على الفور في تحقيقها ونشرها .

ومنذ ذلك الوقت توفرت على العمل في « ديوان ابن دراج » حتى انتهيت من تحقيقه وإعداده للنشر ، ثم كان أن أبدى سمو الأمير العالم

الشيخ علي ابن الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني

(حاكم قطر السابق)

رغبته في أن يتم طبع هذا الديوان على نفقته ، فلم يكن لديّ إزاء هذه اللفتة الكريمة من سمو الأمير الجليل حفظه الله إلا أن أقبل بمزيد من الشكر والامتنان .

وأنا أغتنم هذه الفرصة لكي أقدم جزيل الشكر لأستاذي الدكتور حسين مؤنس الذي أدين له بفضل هذا العمل ، ثم إلى من تكرموا بإعانتي عليه ، وأذكر في مقدمتهم أستاذيّ الكريمين : الدكتور شوقي ضيف الذي كان لتشجيعه ومعونته أجمل الأثر في نفسي ، والدكتور عبد العزيز الأهواني الذي تفضل عليّ بكثير من الآراء السديدة والتصويبات القيمة .

كذلك أسجل شكري للأخ الكريم الأستاذ عبد البديع صقر مدير المكتبات العامة في حكومة قطر على ما تجشمه من متاعب في سبيل إخراج هذا الديوان إلى النور .

وبعد ؛ فهذا مجهود أرجو أن أكون قد ساهمت به في وضع لبنة في بناء دراسة الأدب الأندلسي ، ولأذكر أن « ديوان ابن دراج » الذي أقدمه الآن هو أول ديوان ينشر لشاعر أندلسي متقدم ، فقد عاش شاعرنا في القرن الرابع الهجري ، ولسنا نعرف ديواناً مجموعاً لشاعر أندلسي منذ الفتح العربي لهذه البلاد

حتى هذا القرن قبل ذلك الديوان الذي يسرنا أن نقدمه الآن إلى القراء ، ثم إن لشعر ابن دراج — إلى جانب قيمته الأدبية العظيمة — أهمية كبيرة من الناحية التاريخية ، فإننا نرى فيه مرآة تسجل لنا حياة الأندلس في فترتين من تاريخ تلك البلاد على طرفي نقيض : الأولى هي أزهر عصور التاريخ الأندلسي في ظل دولة الحاجب العبقري المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر ، والثانية هي فترة انهيار الدولة الإسلامية منذ سقوط الدولة العامرية وقيام ملوك الطوائف بعد تحطيم الوحدة وانصداع شمل الجماعة ؛ ولعل لنا في شعر ابن دراج في هذه وتلك موعظة تحسن الانتفاع بها من ماضينا لحاضرنا .

وأرجو أخيراً أن يكون الله قد وفقني في هذا الجهد المتواضع ، وينفع به العاملين في ميدان الأدب الأندلسي .

وهو المستعان ؟

مدريد في يناير سنة ١٩٦١

محمود علي مكي

تصدير عام

ابْن دَرّاج القسطلي*

(٣٤٧ - ٤٢١هـ / ٩٥٨ - ١٠٣٠م)

---

* مراجع ترجمة ابن دراج وأخباره :

الحميدي : جذوة المقتبس ، ترجمة ١٨٦ ؛ الثعالبي : يتيمة الدهر (ط . الشيخ محيي الدين عبد الحميد) ٢/١٠٣ - ١١٦ ؛ أبو الوليد الحميري : البديع في وصف الربيع ، ص ٥١ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ٤٣ - ٧٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٤ ، ٣٢٣ ، ٣٩٤ ؛ ٢/٣٧٧ ؛ ق ٢ (مخطوطة بغداد) ص ٣٠٧ ، ٤٢٩ ؛ ق ٣ (مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد) ٢ آ - ٣ آ ؛ ق ٤ - ١/ ١٦٥ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ٧٥ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ترجمة ٣٤٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢/٦٠ - ٦٢ ، ٢٩٩ ، ٤٣٥ ؛ ابن سعيد : رايات المبرزين ص ٧٣ من النص العربي و ٢٣٢ من الترجمة الإسبانية ؛ ابن سعيد : عنوان المرقصات والمطربات ص ٢٠ من النص و ٢١ من الترجمة الفرنسية و ٦٣ من التعليقات ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/١١٦ - ١٢٢ ؛ ابن دحية : المطرب ص ١٥٦ - ١٥٧ ؛ عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣٩ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ٢/٢٧٤ ، ٣/٩ ، ٢٠ - ٢١ ، ٣٥ ، ١٢٤ ؛ ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ١١٥ - ١١٦ ، ١٦٠ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٩٧ - ٢٠٠ ، ٢١٢ - ٢١٥ ، ٢٢٢ - ٢٢٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (الطبعة الأولى) ٢/٧١ ؛ الإحاطة (مخطوطة الأسكوريال) ص ١٨٣ ، ١٨٦ ،

٢٩١ ، ابن خير الإشبيلي : فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٤١٤ - ٤١٥ ؛ صفوان ابن إدريس : زاد المسافر ص ٧ ، ١٠٢ - ١٠٣ ؛ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٦ - ٤٦٧ ؛ الشريف الغرناطي : شرح مقصورة حازم القرطاجني ١/ ٤٣ ، ١٠٣ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ؛ الشريشي : شرح مقامات الحريري ١/ ٣٧ ، ١١٣ ، ٣٢٨ - ٣٢٩ ؛ المقري : نفح الطيب (ط . ليدن) ١/ ٢٦٤ ، ٣١٦ ، ٢ / ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، ٢٣٠ - ٢٣١ ، ٤٨٠ ؛ ابن عبد الحليم : مفاخر البربر (تحت عنوان : نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى) ص ٣٢ - ٣٣ ، ٦٣ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٧ / ٨٦ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٣ / ٢١٧ - ٢١٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ١١ / ٢٧٦ ، ٢٨٦ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٤ / ٢٧٢ - ٢٧٣ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (مخطوطة دار الكتب) ١١/ ٢٠١ - ٢٠٤ .

ومن الأبحاث الحديثة : الأستاذ أحمد ضيف : بلاغة العرب فى الأندلس ص ٩٤ - ١٠٠ ؛ الدكتور زكي مبارك : الموازنة بين الشعراء ص ٢٢١ ، ٢٤٣ - ٢٥٢ ؛ عبقرية الشريف الرضي ١ / ١٠٣ - ١٠٤ ؛ الدكتور إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ١٩١ - ٢١٣ ؛ الدكتور أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٣٣٩ - ٣٥٧ .

ومن الدراسات الأوربية : جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٦١ ، ٦٥ - ٦٦ ، ٢٤٠ ؛ بلاشير : ابن دراج ، حياته وأدبه (المجلد السادس عشر من مجلة Hespéris سنة ١٩٣٣ ، ص ٩٩ - ١٢١) ؛ نيكل : الشعر الأندلسي ص ٥٦ - ٥٨ ؛ هنري بيريس : الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر ص ٣٤ ، ٤٧ - ٥٠ ، ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ غرسية غومس : الشعر الأندلسي (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٣٨ ، ١٤٨ .

حيـــاته

آ — منذ مولده حتى اتصاله بالمنصور

— ١ —

على الرغم من أن ابن دراج القسطلي كان من الشعراء الذين نالوا الشهرة في الشرق والغرب على السواء ، فإن الكتب التي ترجمت له أو اقتطفت بعض أشعاره لم تحتفظ لنا بالكثير عن أخبار حياته الطويلة التي زادت على سبعين سنة .

ونحن نعرف عن ابن دراج أن اسمه الكامل أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج [1] ، وأن كنيته أبو عمر [2] .

---

(١) المترجمان الوحيدان اللذان احتفظا لنا بهذا الاسم كاملاً هما ابن خلكان في الوفيات (١ / ١٢٢) وابن تغري بردى في النجوم (٤ / ٢٧٢) ، ومن الغريب أن من ترجموا له من الأندلسيين لم يهتموا بتحقيق ذلك ، على أننا نستطيع أن نثق في صحة ما ذكره ابن خلكان ، فقد كان يتحرى الدقة لاسيما في أسماء الأعلام والمواضع ، ولاسيما أن بعض هذه النسبة التي ذكرها تتفق مع ما ذكره ابن حزم في الجمهرة عن عائلة ابن دراج ؛ ونلاحظ أخيراً أن ابن فضل الله العمري ذكره باسم « ابن الدراج » بإضافة أداة التعريف ، وهو ينفرد بذلك دون جميع مترجميه .

(٢) وقد حرّفت هذه الكنية في كثير من الكتب التي ترجمت له إلى « أبي —

ولسنا نعرف عن آبائه المباشرين شيئاً كثيراً إلا أننا نرى ابن حزم يخص أباه بالذكر في حديثه عن رهط الشاعر فيقول : « وكان منهم محمد بن العاصي بن أحمد ابن سليمان من ولد ذر بن عيسى بن دراج »(١) .

أما أسرة ابن دراج فكانت بشهادة كثيرين ممن ترجموا له أسرة نبيلة مرموقة الشأن ، حتى إن بلده قسطلة كانت معروفة في كتب الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين باسم « قسطلة دراج » ، ويقول ابن سعيد إن دراجاً جد الشاعر الأعلى وبنيه تداولوا على رياستها(٢) .

وقد كان بنو دراج ينتمون إلى قبيلة صنهاجة البربرية ، ويبدو أن دخول هؤلاء إلى الأندلس كان يرجع إلى الوقت الذي افتتح فيه طارق بن زياد هذه البلاد في سنة ٩٢ هـ . (٧١١ م .) ؛ فابن حزم — الذي يرجع إليه فضل

— عمرو » ؛ ويذكر صاحب كتاب « مفاخر البربر » (ص ٦٣) أن كنيته « أبو محمد » ، ويظهر أن هذا مجرد خطأ وقع فيه ناشر الكتاب ؛ نضيف إلى ذلك أن المستشرق الفرنسي الأستاذ بلاشير في بحثه عن « ابن دراج ؛ حياته وأدبه » (ص ١٠٠ حاشية ١) يقول إن المقري كنى ابن دراج في أحد المواضع التي تحدث فيها عنه « بأبي الوليد » (نفح الطيب ٢ / ٤٦٧ ط . ليدن) ؛ غير أنه قد فات الأستاذ بلاشير أن « أبا الوليد القسطلي » المذكور في ذلك الموضع شاعر آخر غير ابن دراج ، إذ أن اسمه الكامل هو يونس بن محمد ، وهو من « قسطلة » أخرى من عمل الجزيرة الخضراء ، وليست « قسطلة دراج » التي ينتمي إليها شاعرنا ، وهذا الشاعر توفي في سنة ٥٧٦ (انظر ترجمته في ابن سعيد : المغرب ١ / ٣٢٨ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ترجمة ٢١٠٢) .

(١) جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٦ — ٤٦٧

(٢) المغرب ٢ / ٦٠

إيراد نص عظيم القيمة عن أصل بني دراج[1] — يشير إلى منازل الصنهاجيين في الأندلس ، فيخص بالذكر منهم بني الغالظ (كذا ولعلها الغليظ) ، وبني عبد الوهاب بأشونة وهم من ولد ميمون بن أبي جميل[2] ابن أخت طارق بن زياد ، ثم بني دراج الذين كان إليهم انتماء شاعرنا القسطلي .

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الصنهاجيين من البربر كانوا قلة فى الأندلس إذا قيسوا بغيرهم من البطون البربرية مثل زناتة ، إذ أن الدولة الأموية الأندلسية كانت منذ قيامها أميل إلى البربر الزناتية منهم إلى الصنهاجيين ، وقد كان من مظاهر ذلك أن أصبحت السياسة التقليدية التي كان الزناتيون يدينون بها دائماً في الشمال الإفريقي هي موالاة الأمويين ، بينما كان الصنهاجيون هم عماد معظم الحركات الشيعية هناك[3] ، ويعلل ابن خلدون ذلك بأن صنهاجة كان لها ولاية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، بينما كان لمغراوة — ومعها سائر قبائل زناتة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، وإن كان ابن خلدون يعلق على ذلك بقوله إنه لا يعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها[4] ؛ ولم تتزايد هجرة الصنهاجيين إلى الأندلس إلا منذ أن أسرف المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر في

---

(١) الجمهرة ، في الموضع المشار إليه فيما سبق

(٢) انظر كذلك ابن خلدون : العبر ٦ / ١٥٣ ، وقد ورد الاسم هناك : « ميمون بن جبل » وهو تحريف .

(٣) انظر مقالنا عن « التشيع فى الأندلس » — صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد — المجلد الثانى سنة ١٩٥٤ ، ص ١٢٧ .

(٤) العبر ٦ / ١٥٢ — ١٥٣ .

استقدامهم في أواخر القرن الرابع الهجري ، حتى انتهى الأمر بهم إلى الأخذ بأوفى نصيب في هدم الخلافة الأموية في الأندلس .

ونعود إلى ابن دراج فنقول إنـه كان إذن ذا نسب بربري عريق ، فابن سعيد ـــ كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك — يقول إن عائلته تداولت على رياسة بلده « قسطلة » ، وابن عبد الحليم فى كتابه عن « مفاخر البربر » يتمدح بإنجاب الأمة البربرية لمثل هذا الشاعر العظيم [1] ، كما أننا نعلم أن واحداً من عشيرة ابن دراج هو يحيى بن الضريس ، وكان مقيما ببلـكونة ، كان له موقف مشهود في خلال الفتنة التى أثار المولَّد عمر بن حفصون نارها على الخلافة الأموية بقرطبة في أيام الأمير عبد الله بن محمد وعبد الرحمن الناصر ، فقد كان يحيى بن الضريس هذا هو الذي « صدم ابن حفصون ، فأبطل يده بالضربة المشهورة ، فلم يأكل ابن حفصون بيمينه بعدها ، وعاش بعد ذلك نحو ثلاثين سنة » [2] . وعلى الرغم من ذلك فإننا لانرى أثراً واضحاً لهذه البربرية في حياة ابن دراج ولا شعره ، وهو لا يتحدث عن نسبه على الإطلاق [3] ؛ والذي يتأمل ديوان ابن دراج دون أن

---

(١) ص ٦٣ .

(٢) ابن حزم : الجمهرة ص ٤٦٧ ؛ وقد نقل ليفي بروفنسال هذا النص في كتابه « تاريخ إسبانيا الإسلامية » ١ / ٣٧٠ .

(٣) هذا والاشارة الوحيدة التى نجد فيها مايوحي بالافتخار بنسب ابن دراج لانراها في شعره هو وإنما فى بيتين لواحد من ذوي قرباه هو ابن أخته أبو عمرو عثمان بن محمد اللخمي البشجي المرسي (المتوفى سنة ٥٨٠) إذ يروي له صفوان بن إدريس بيتين في مجلس القاضي ابن الحلال يقول في أحدهما :

أنا ابن الأكرمين من آل لخم   وأخـوالي ذوو عالي السنـاء

(انظر القصة في « زاد المسافر » ص ١٠٢ — ١٠٣)

يعرف نسبه البربري لا يكاد يحس فيه بأي أثر لذلك النسب ، ولعل هذا يرجع في الغالب إلى أن البربر الذين دخلوا الأندلس في الرعيل الأول من فاتحيها المسلمين لم يستقروا في هذه البلاد حتى « تأقلموا » بسرعة مذهلة ، وهكذا لم يمض قليل من الوقت حتى اندمجوا في المجتمع الأندلسي اندماجاً كاملاً (١) .

ويبدو أن هذا كان شأن عشيرة ابن دراج كما كان شأن كثير من الأسر البربرية ذات التاريخ المتأصل في الأندلس ، وهـذا بعكس الطوائف البربرية التي قدمت في أواخر القرن الرابع الهجري ممن انثالوا على الأندلس في عهد المنصور ابن أبي عامر وابنـه عبـد الملك المظفر ، فهؤلاء لم يتمثلهم المجتمع الأندلسي ولم يتمثلوه ، وكان الأندلسيون يشعرون نحوهم بكراهة شديدة ، لا سيما بعد أن شبوا نار الفتنة التي أتت على الخلافة الأموية وألقت على قرطبتهم من ضروب التدمير والتخريب ما لم تشهده العاصمة الأندلسية الجليلة في أي وقت مضى ، وقد اضطر ذلك البربر إلى التكتل والتجمع في الجزء الجنوبي الشرقي من الأندلس على مقربة من العدوة المغربية حتى يأمنوا على أنفسهم من عواقب ذلك البغض الشديد الذي كان الأندلسيون يكنونه لهم .

وهكذا نرى أن ابن دراج ولد ونشأ أندلسياً خالصاً ، فهو لم يشعر قط بعصبيته لنسبه الصنهـاجي البربري ، بل هو لا يرى بأساً في أن يهجو الزعيم البربري زيري بن عطية المغراوي حينما أعلن الثورة على المنصور بن أبي عامر ، مهدداً إياه بسوء المصير على يد الجيوش والأساطيل العامرية :

---

(١) انظر الفصل المكتوب عن البربر في المجتمع الأندلسي في « تاريخ إسبانيا الإسلامية » للمستشرق ليفي بروفنسال ٣ / ١٦٩ ؛ وكذلك كتابه « إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي » ص ١٩١ .

أراقم تقري ناقع السم ما لها　　بمـا حملت دون الغواة مقيل
إذا نفثت في زور زيري حماتها　　فويل له من نكزها وأليل
هنـالك يبلو مرتع المـكر أنه　　وخيم على نفس الـكفور وبيل

وقد كان من المنتظر — لو أن ابن دراج بقيت فيه بقية من عصبية بربرية — أن يجري ذلك على لسانه عندما تمهد أمر الخلافة لسليمان بن الحكم الملقب بالمستعين والذي نعرف أن دولته إنما قامت على أكتاف البربر ، غير أننا نرى ابن دراج — بدلاً من أن يمتّ إليه بماتته الصنهاجية — يكتفي بأن يقول :

قبائل من أبناء عاد وجرهم　　لهم صفو ما تنميه عاد وقحطان
أسود هيـاج ما تزال تراهم　　تطير بهم نحو الكريهة عقبان
بكل زناتي كأن حسامه　　وهامة من لاقاه نار وقربان
وأبيض صنهاج كأن سنـانه　　شهاب إذا أهوى لقرن وشيطان

وهو يشير في هذه الأبيات إلى ما يزعمه بعض نسابة البربر من اتصال نسبهم بعرب اليمن (١) ، ويتحدث عن فضل صنهاجة وزناتة في تأييد المستعين ، إلا أن قارىء هذه الأبيات لا يكاد يحس فيها بما يدل على أن بين قائلها وبين صنهاجة وشيجة قرابة أو لحمة نسب .

ونحو ذلك نراه في قوله يمدح المستعين :

في قبة الملك الذي صنهاجة　　وزناتة أطنابهـــا وعمودها

---

(١) انظر حول ذلك ابن خلدون : العبر ٦ / ٩٣ وما بعدها ؛ ابن حزم : الجمهرة ص ٤٦١ وما بعدها ؛ والسلاوي : الاستقصا ١ / ٦٠ وما يليها ؛ وقد أجمع ثقات المؤرخين على إنكار هذه النسبة .

أو قوله في مدحه أيضاً :

تبارى إلى الهيجا بأسد خفية | إذا هال وجه الموت هاموا به عشقا
عبيد ممـــاليك وأملاك بربر | وكل عظيم الفخر قد حزته رقا
هم فئة الإسلام إن شهدوا الوغى | وهم أفق للملك إن نزلوا أفقـا

كذلك لانلاحظ أيّ سمة « لبربرية » ابن دراج في أمداحه لعلي بن حمود وابنه يحيي المعتلي وأخيه القاسم ، إذ أن قصائده في هؤلاء الزعماء البرابر إنمـا هي أشعار يمكن أن يتوجه بها القائل إلى أي ملك من ملوك الطوائف ، إلا إذا استثنينا منها تلك المسحة الشيعية التي أراد ابن دراج أن يتوددبها إلى هؤلاء الخلفاء العلويين .

ثم إننا نرى أخيراً أن جل شعر ابن دراج إنما كان ـ منذ انهارت الدولة العامرية ـ في مدح أولئك الملوك الذين ناصبوا البربر العداء ، فهو تارة يتوجه بمدائحه إلى بقية الأمراء الأمويين الذين حاولوا إعادة خلافتهم دون أن يحالفهم النجاح من أمثال محمد بن هشام المهدي أو عبد الرحمن المرتضى ؛ وتارة يخطب ود « الفتيان » العامريين مثل مبارك ومظفر صاحبي بلنسية ، ولبيب صاحب طرطوشة ، ومجـاهد صاحب دانية والجزائر الشرقية ، وخيران صاحب المرية ؛ ثم أخيراً نجد شطراً كبيراً من شعره في مدح منذر بن يحيي التجيبي صاحب سرقسطة وابنه يحيي بن منذر ؛ وكل هؤلاء كانوا من ألدّ خصوم البربر ، بل إننا نراه لايتورع عن مهاجمة الحزب البربري في قصيدته التي مدح بها خيران العامري ، وكان خيران هذا هـو ومنذر ابن يحيي قد اضطلعا بتدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى ، وتأمل قوله في هذا المقام :

ففضت سيوف حاربته وأيمن | وشاهت وجوه فاخرته وتيجان
ورد بهـا يوم اللقـاء زناتة | كما انقلبت يوم الهبـاءة ذبيان

تراءاك حزب البغي منهم فأقبلوا   وفي كل أنف للغواية شيطان
فأي صقور قلبت أي أعين   إلى أي ليث ردها وهي خلدان

كما أنه مما يستوقف النظر أن ابن دراج — وهو الذي لم يكد يدع ملكاً من ملوك الطوائف إلا وفد عليه وأهدى إليه مدائحه — نراه قد أعرض إعراضاً كاملاً عن قصد الأمراء البرابرة من ملوك الطوائف باستثناء الحموديين ، فإننا نلاحظ أنه تجنب الوفود على أمراء أكبر مملكة بربرية في عصره ، وهي مملكة بني زيري الصنهاجيين في غرناطة ، هذا على الرغم من ماتته المباشرة إليهم ، وفي كل ذلك دليل على أن ابن دراج لم يعد يحس بأي صدى لهذا الأصل البربري الذي كان نسبه ينتهي إليه ، ولعل ذلك هو الذي جعل ابن حزم في رسالته في « فضل الاندلس[1] » والشقندي في رسالته حول الموضوع نفسه[2] — يفتخران بابن دراج « الأندلسي » ويلزمان أهل المغرب الحجة في أن أرض العدوة لم تستطع أن تنجب شاعراً في مثل نبوغه وعبقريته ، هذا على الرغم من معرفتهما بأن « متنبي الأندلس » إنما هو بربري الأصل والمحتد .

— ٢ —

أما « قسطلة » أو « قسطلة دراج » التي ينتمي إليها شاعرنا فقد اختلف حول تحديد موقعها المؤرخون الأندلسيون القدماء والباحثون المحدثون .

---

(١) المقري : نفح الطيب ٢ / ١٢١ .
(٢) نفس المرجع ٢ / ١٣١ — ١٣٢ .

أما ابن عبد المنعم الحميري فقد أفرد في معجمه الجغرافي مادة لقسطلة دراج ، فقال إنها قرية فى غرب الأندلس[1] ؛ وأما ابن سعيد فقد ترجم لابن دراج في الكتاب الثاني من الكتب التي يشتمل عليها كتاب المملكة الجيانية وهو كتاب « السراج فى حلي قسطلة دراج » ، ويجدر بنا أن نذكر أن ابن سعيد جعل جيان وأعمالها منتمية إلى موسطة الأندلس[2] ، ثم عاد فألح على كون قسطلة من عمل جيان في كتاب آخر له[3] .

والذي استقر عليه معظم الباحثين المحدثين هو ما قال به الحميري ، أما تحديد موقع قسطلة الذي أجمع عليه هؤلاء فهو أنها القرية الداخلة اليوم فى حدود البرتغال والتي تسمى الآن Cacella من أعمال منطقة Algarve (وهذا الاسم مأخوذ من كلمة « الغرب » العربية) ، وتقع هذه القرية على ساحل المحيط الأطلسي بين الحدود الإسبانيه ومدينة طبيرة Tavira ، وقد أضاف « ليفي بروفنسال[4] » إلى ذلك أن « قسطلة » هذه هي التي أشار إليها الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق[5] » .

(١) الروض المعطار ، مادة ١٤٣ ، ص ١٦٠ من النص العربي (و ١٩٢ من الترجمة الفرنسية)

(٢) المغرب ٢ / ٦٠ .

(٣) رايات المبرزين ص ٧٣ من النص العربي (و ٢٣٢ من الترجمة الاسبانية) ؛ أما ياقوت فإنه ذكر قسطلة دراج في معجمه دون أن يشير إلى تحديد موقعها (معجم البلدان ٧ / ٨٦) .

(٤) في حاشية هذا الموضع من ترجمته الفرنسية للروض ص ١٩٢

(٥) ص ١٧٩ من النص العربي .

وقد أخذ بهذا الرأي — فضلا عن ليفي بروفنسال كما ذكرنا — الأستاذ بلاشير في بحثه عن ابن دراج[1] ؛ ثم ردده المستشرق نيكل في كتابه « الشعر الأندلسي[2] » ؛ وأما الأستاذ غرسية غومز فقد أبدى في أول الأمر تردداً بين الرأيين[3] ، وأخيراً وافق من تقدموه من الباحثين على أن « قسطلة دراج » هذه هي Cacella البرتغالية ، وأن ابن سعيد أخطأ إذ اعتبرها من أعمال جيان[4] ؛ وكذا فعل بالنثيا في كتابه عن « تاريخ الفكر الأندلسي[5] » .

والذي نراه هو أنه ينبغي أولا أن نفرق بين ثلاثة مواضع تحمل اسم « قسطلة » في جغرافية الأندلس العربية :

آ — الموضع الأول قسطلة الواقعة في غرب الأندلس ، وهي التي أشار إليها الإدريسي في جغرافيته ، وهي الواقعة الآن في البرتغال ؛ وقد نبه عليها ابن سعيد المغربي أيضا ، فقال إنها من أعمال شلب Silves ، ولهذا أضاف إلى ذلك أنها هي المعروفة باسم قسطلة الغرب ، وقال إن منها الشاعر الأندلسي المعروف إدريس ابن اليمان[6] .

ب — والموضع الثاني هو قسطلة التابعة لعمل جيان ، وهي التي أشار إليها

---

(١) « الشاعر الكاتب ابن دراج القسطلي : حياته وأدبه » ص ١٠٠

(٢) ص ٥٦ .

(٣) في ترجمته الإسبانية لرسالة الشقندي في « فضل الأندلس » ص ٦٠

(٤) في ترجمته الإسبانية لرايات المبرزين ص ٢٣٢ .

(٥) (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٦٥ .

(٦) المغرب ١ / ٤٠٠ .

المقدسي[1] ، وابن سعيد في « المغرب » و « الرايات » ، وأخيراً المقري إذ يقول إن « من أعمال جيان : أبدة وبياسة وقسطلة[2] » ؛ أما اسم هذه القرية في الوقت الحاضر فينبغي أن يكون واحداً من اثنين :

— إما Cazalilla وهي الآن بلدة صغيرة من أعمال أندوجر Andujar (في إقليم جيان) وهي تبعد بنحو ثلاثة عشر ميلا إلى الشمال الشرقي من أرجونة Arjona ، وبنحو عشرين ميلا إلى شمال جيان[3] .

— أو Castellar de Santisteban إلى الشمال الشرقي من جيان[4] .

على أننا نرى أن الأرجح هو أن تكون قسطلة جيان هي الأولى التي تقابل الآن قرية Cazalilla ، فهي أقرب إلى أبدة Ubeda وبياسة Baeza اللتين يذكر المقري أنهما — مثل قسطلة — ينتميان إلى عمل جيان .

حـ — والموضع الثالث هو قسطلة من قرى « الجزيرة الخضراء » (وتسمى الآن Algeciras) في أقصى جنوب الأندلس على مضيق جبل طارق ، وقد أشار إليها ابن سعيد مفرداً لها فصلاً تحت عنوان « الأهلة في حلى قرية قسطلة » من كورة الجزيرة الخضراء ، وإلى قسطلة هذه ينتمي الشاعر أبو الوليد يونس بن محمد القسطلي[5] .

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٣٣ .

(٢) نفح الطيب ١ / ١٠٣ .

(٣) انظر قاموس مادوث الجغرافي ٦ / ٢٦٧ .

(٤) نفس المرجع ٦ / ١٠٠ .

(٥) المغرب ١ / ٣٢٨ ؛ وأبو الوليد القسطلي هذا هو الشاعر الذي أشرنا إلى خلط بلاشير بينه وبين ابن دراج .

أما أي هذه المواضع الثلاثة كان بلد ابن دراج فإننا أميل إلى رأي ابن سعيد في أن « قسطلة دراج » موطن شاعرنا هي التي من عمل جيان ، وأنها ليست قسطلة الغرب (التى تقع الآن في البرتغال) كما قال الحميري وتبعه على ذلك كل الباحثين المحدثين ؛ فابن سعيد كان يعرف المواضع الثلاثة بدليل تفريقه بينها في دقة ووضوح ، بينما لم يشر الحميري منها إلا إلى واحد فقط ، مما يحتمل معه أن يكون قد خلط بينها ؛ وينبغي ألا ننسى أن ابن سعيد ممن لا يشك في معرفتهم بجغرافية الأندلس ، فضلاً عن أنه أقدم من الحميري ، وربما كان ابن سعيد أعرف الناس بجغرافية إقليم جيان بوجه خاص ، فهو موطنه وموطن أسرته ، فنحن نعرف أنه من « قلعة يحصب » (وتسمى الآن Alcalá la Real) أو « قلعة بني سعيد » وهي تقع على بعد متوسط بين جيان وغرناطة ، ولا شك أن ابن سعيد أعلم بهذه المناطق المجاورة لبلده من غيره من الجغرافيين والمؤرخين .

— ٣ —

كان مولد ابن دراج في شهر المحرم من سنة ٣٤٧ (= مارس سنة ٩٥٨) على ما يذكر ابن بشكوال ؛ ولسنا نعرف شيئاً عن طفولة ابن دراج ولا عن صباه ولا الأساتذة الذين أخذ عنهم ، إذ أن أول ما احتفظت لنا به الكتب التي ترجمت له يبدأ بصلته بالمنصور بن أبي عامر ، وهكذا نرى فراغاً كبيراً يمتد بين مولد ابن دراج وظهوره فجأة في بلاط المنصور العامري ، وهو فراغ لا تلقي عليه المراجع أي بصيص من الضوء .

على أننا نستطيع أن نتصور حياة ابن دراج في مستهل حياته إذا تأملنا الظروف التي كانت الأندلس تعيش في ظلها في ذلك الوقت ، فقد ولد ابن دراج في السنوات الأخيرة من خلافة عبد الرحمن الناصر أول خلفاء بني أمية (حكم بين سنتي ٣٠٠ و ٣٥٠ هـ . / ٩١٢ — ٩٦١ م .) ، وقضى فترة تعليمه في السنوات التي وافقت خلافة الحكم المستنصر (بين سنتي ٣٥٠ و ٣٦٦ هـ . / ٩٦١ — ٩٧٦) وجانباً من خلافة ابنه هشام المؤيد . ونحن نعرف أن هذه الفترة من حياة الأندلس كانت أزهر عصور التاريخ الإسلامي في هذه البلاد على الإطلاق .

أما من الناحية السياسية فقد وافقت وصول الدولة الأندلسية إلى أوج عظمتها فالممالك المسيحية في شمال إسبانيا لا يكاد يذكر لها شأن بعد أن خضد عبد الرحمن الناصر شوكتها وأصبح هو — ومن بعده ابنه الحكم — المتحكمين في مصير إسبانيا ، بحيث كان الأمراء المسيحيون في الشمال يحتكمون إليهما فيما يشجر بينهم من خلاف ، وكان معظمهم يؤدون إليهما الجزية عن يد وهم صاغرون ، وملوك البلاد الأوربية المجاورة يهابونهما ويلطفون إليهما بالهدايا والسفارات ، حتى شمال إفريقية دان جانب كبير منه بالطاعة للخلافة الأندلسية ، وأصبح كثير من حكام الإمارات المغربية يناوئون سلطان الفاطميين معتمدين على تأييد قرطبة .

وأما المجتمع الأندلسي في هذه الفترة فقد أصبح بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الناصر والمستنصر مجتمعاً متكاملاً متسقاً لا مجال فيه للتمييز بين الطبقات ؛ ولهذا لم يكن من الغريب أن تزدهر الحياة الاقتصادية كذلك ، ويعم الرخاء بشكل لا نكاد نرى له مثيلاً في تاريخ الأندلس قبل هذين الخليفتين العبقريين .

وأما الحياة العلمية والثقافية فقد طالما تحدثت المراجع الأندلسية القديمة والدراسات الحديثة عن النهضة الرائعة التى قدرت للأندلس في هذا الميدان خلال ذلك العصر، مما نرى أن الحديث عنه يعود ترداداً وتكراراً لما قيل يغني عنه تصفح أي كتاب من كتب التراجم الأندلسية مثل « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي أو « جذوة المقتبس » للحميدي أو « صلة » ابن بشكوال ، لكي نرى كيف قيض للأندلس مكان بالغ العلو في جميع نواحي الثقافة العربية ، وكيف أصبحت قرطبة تقف على قدم المساواة مع كبريات العواصم الإسلامية مثل بغداد ودمشق والقاهرة .

وقد كان للأدب في هذه النهضة الثقافية أكبر نصيب ، حتى إن سوقه سرعان ما أصبحت أروج أسواق الثقافة ، ولم تلبث قرطبة أن صارت محوراً يجتذب كل من يأنس في نفسه اقتداراً في ميدان الأدب لا من الأندلسيين وحدهم بل ومن سائر الأقطار الإسلامية أيضاً . وقد كان استدعاء أدباء المشرق وشعرائه وظرفائه ومغنيه إلى بلاط قرطبة سنة جرت عليها الأندلس منذ أن ولي الأندلس الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي استقدم المغني البغدادي زرياب ، وكان لهذا نفوذ عظيم وتأثير هائل في حياة الأندلس الفنية والاجتماعية ، ثم ما زال الأمراء الأمويون يتوسعون في ذلك ، ولا يبخلون في سبيله بجهد ولا مال ، وكان منتهى ذلك هو استقدام عبد الرحمن الناصر للغوي البغدادي الكبير أبي علي القالي الذي كان له نصيب في التقدم بالنهضة الأدبية واللغوية بالأندلس .

على أنه يجب أن نذكر أن الثقافة الأندلسية في عصر الخلافة كانت تسير في طريق النضوج والاستقلال بخطى سريعة ، وكان العلماء الأندلسيون الذين لم يكفوا قط عن الرحلة إلى المشرق في سبيل العلم قد أرسوا قواعد هذا النضوج الثقافي

بحيث لم يعودوا بحاجة إلى « أساتذة » مشارقة يوجهونهم في هذا الميدان ، ولهذا فإن استقدام بعض علماء المشرق في عصري الناصر والمستنصر إنما كان ضرباً من ضروب الترف والمباهاة لا حاجة ماسة ضرورية ، حتى تأثير أبي علي القالي في الأندلس قد بولغ فيه إلى حد كبير ، فالواقع أن معظم ما أتى به القالي من كتب كان مما يعرفه الأندلسيون من قبل ، إذ أتى به من المشرق قبل ذلك علماء أندلسيون ؛ إلا أنه لم يكن هناك بأس على أية حال في أن تفاخر قرطبة أترابها من العواصم الإسلامية بأن هناك من علماء الشرق من يتخذونها ملاذاً ومستقراً ، وهذا أمر ينبغي أن نقدره في ظروف المنافسة الشديدة التي كانت قائمة بين الخلافات الثلاث التي كانت تتوزع العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري ، وهي : الخلافة العباسية في بغداد ، والفاطمية في مصر ، والأموية بقرطبة .

ونعود إلى الشعر في هذه الفترة ، فنلاحظ أولاً أن جيان ومنطقتها التي أنجبت ابن دراج كانت — على ما يبدو لنا — تربة خصبة للشعر والشعراء ، فقد كان منها أول شاعر أندلسي تميز بالأصالة وقوة الشخصية ، ونعني به يحيى بن الحكم الغزال الذي نبغ في أيام عبد الرحمن الأوسط خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري ؛ وأما في القرن الرابع فلعل أهم شعراء جيان كانوا بني فرج ، وهم ثلاثة إخوة : أحمد وسعيد وعبد الله أبناء محمد بن فرج ، وإلى أولهم يرجع فضل تأليف كتاب « الحدائق » الذي عارض به مؤلفه كتاب « الزهرة » لأبي داود الإصفهاني وجمع فيه من أشعار الأندلسيين ما أراد أن يظهر به للمشارقة أن الأندلس على حداثة عهدها بالإسلام لا تقل في هذا الميدان عن أي قطر عربي آخر .

— ٤ —

وأغلب الظن أن ابن دراج بدأ حياته الدراسية تلميذاً يتردد على مجالس الشيوخ وحلقاتهم في جيان ، ولعل دراسته في تلك الفترة المبكرة من حياته لم تكن تختلف عما يتلقاه أمثاله من الصبيان من حفظ للقرآن وإلمـام بمبادىء النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب والفقه ، هذا وإن كنا نعتقد أن تذوقه المبكر للأدب كان يحمله على متابعة ما كانت قرطبة تموج به من أخبار أدبائهـا وعلمائهـا على عهد الحكم المستنصر ثم في أيام الحـاجب المنصور بن أبي عامر الذي لم يلبث سلطانه أن استفحل حتى أصبح معقـد أمور الحـكم في يـده بعـد موت الحـكم المستنصر بعدة سنوات .

ولسنا نستبعد أن يكون ابن دراج — وهو فى غضاضة الصبا — قد قام بعدة رحلات إلى قرطبة حيث اطلع عن كثب على جوهـا الأدبي وجمعته منتدياتهـا بأمثاله من الشعراء الطامحين إلى شق طريقهم فى العاصمة الأندلسية عروس الغرب الإسلامي كله في ذلك الوقت ، على أننـا نرجح أنـه لم يكن قد عزم بعد على الانتقال إلى قرطبة ، والاستقرار فيهـا بصفة نهائية ، لا بهدف الدراسة ولا من أجل تولي بعض مناصب الكتابة كما ظن الأستاذ بلاشير[1] ، وإنما انتهينـا إلى

---

(١) في بحثه « ابن دراج القسطلي . . . » ص ١٠١ ؛ وقد افترض بلاشير أن يكون ابن دراج قد تولى عملاً من أعمـال كتابة الإنشاء في عهد الحكم المستنصر ، وهو أمر لا نجد عليه أي دليل .

ذلك من مطالعة شعره الذي يدل ما بقي منه على الأقل على أنه لم يتصل بحاكم أندلسي قبل المنصور بن أبي عامر ، ثم إننا نراه في قصيدته الهائية التي ينص جامع الديوان والحميدي [1] على أنها أول ما أنشده بين يدي المنصور — نقول إننا نرى ابن دراج يتحدث عن رحلته من بلده إلى قرطبة وعن وداعه لزوجه وابنته من أجل هذه الرحلة ؛ وقد يتبادر إلى الظن أن مثل هذه الرحلة قد تكون ضرباً من الخيال اصطنعه الشاعر ليستثير عطفاً أو يستدر إشفاقاً [2] ، إلا أن ما في تصوير ابن دراج من واقعية وتفصيل يشعر بأنه صادق مخلص ، وانظر إليه في قوله :

ولله عزمي يوم ودعت نحوه ... نفوساً شجاني بينها وشجاها
وربة خدر كالجمان دموعها ... عزيز على قلبي شطوط نواها
وبنت ثمان ما يزال يروعني ... على النأي تذكاري خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جد جده ... منوطاً بحبلي عاتقي يداها
تشكى جفاء الأقربين إذا النوى ... ترامت برحلي في البلاد فتاها

فما نظن أن الشاعر وهو في مجلس ينشد المنصور العامري فيه لأول مرة إنما لفق هذه القصة عن زوجة وابنة صغيرة في الثامنة من العمر إلى آخر ما أورد من وصف . ونود بهذه المناسبة أن نقدم حكماً عاماً على مدى صدق ابن دراج في شعره : فنقول إنه أصدق ما يكون عند الحديث عن أبنائه ، والذي يطالع هذا الديوان يرى كيف يستغرق جانباً عظيماً منه حديث الشاعر عن أبنائه وتصوير عاطفة الأبوة نحوهم .

---

(١) جذوة المقتبس ص ١٠٣ .

(٢) كما حسب الأستاذ أحمد ضيف في « بلاغة العرب في الأندلس » ص ٩٧

ويحملنا ذلك على الحديث عن هذه المسألة التي عرضت فى سياق تلك الأبيات الهائية التي أوردنا ، وهي مسألة زوجته وابنته التي كانت تبلغ حينئذ ثمان سنوات ، فإذا كنا نعرف أن هـذه القصيدة أنشدت في سنة ٣٨٢ هـ . فإننا نستنتج أن ابن دراج كان قد تزوج فى سنة ٣٧٤ على أقل تقدير ، أي وهو في سن السابعة والعشرين . ومتصفح الديوان سيرى كيف لا يكف ابن دراج عن الحديث عن أبنائه حتى يدركه الموت .

— ٥ —

بهذه القصيدة الهائية التي أشرنا اليها تبدأ صلة ابن دراج ببلاط المنصور العامري ، ولسنا نذهب فى ذلك إلى ما قاله الأستاذ بلاشير [1] من أن صلته بالمنصور أقدم من ذلك ، وقد استدل المستشرق الفرنسي في تأييد رأيه بما جاء فى كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة » لابن الخطيب [2] من أن ابن دراج كان من بين الشعراء الأربعين الذين رافقوا المنصور بن أبي عامر في غزوته المشهورة إلى برشلونة فى سنة ٣٧٤ (٩٨٤) .

والحقيقة أن هذا وهم من مؤلف الكتاب ، فإنه حتى لو كان صحيحاً أن كل الشعراء الذين ذكروا في هذا الموضع قد اتصلوا بالمنصور أو كانوا من شعرائه

---

(١) ابن دراج ... ص ١٠١ .

(٢) ٢/٧١ (ط . القاهرة سنة ١٣١٩) ، ومن المعروف أن هذا الكتاب الذي نشر تحت عنوان « الإحاطة » ليس إلا مختصراً لكتاب ابن الخطيب .

— وهو أمر لا يعلو على مستوى الشك — فإنه من المؤكد أن بعض هؤلاء لم يكن من الممكن أن يرافقوه في تلك الغزوة .

واضرب على ذلك مثلاً بصاعد بن الحسن البغدادي اللغوي الذي نعرف على وجه التأكيد أنه قدم إلى الأندلس في سنة ٣٨٠ (٩٩٠[1]) ، أي بعد هذه الغزوة بنحو ست سنوات ؛ وقد جاء أيضاً في قائمة الشعراء الذين اصطحبهم المنصور عندئذ اسم شاعر آخر هو عبد الرحمن بن أبي فهد الأشجعي ، ويذكر ابن شهيد عن هذا الشاعر أنه خرج عن الأندلس إلى المشرق فى أيام الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور العامري بعد سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) وهو لم يستوف بعد ثلاثاً وعشرين سنة[2] ، ومعنى هذا أن ابن أبي الفهد قد ولد في حدود سنة ٣٧٠ (٩٨٠) أو قبلها بقليل ، وأن سنه في وقت غزوة المنصور لم تكن تتجاوز سبع سنوات على أكثر تقدير ، وهي سن يستحيل معها أن يكون قد رافق المنصور باعتباره أحد شعرائه .

ويبدو أن ابن الخطيب — أو مختصر كتابه — إنما جمع أسماء عدد من الشعراء الذين اتصلوا بالدولة العامرية من قريب أو من بعيد ، فنسب إليهم خبر مرافقتهم

---

(١) انظر ترجمة « صاعد » فى جذوة المقتبس للحميدي رقم ٥٠٩ ؛ وكذلك البحث الذي أفرده له الأستاذ بلاشير في مجلة إسبريس Hesperis ، المجلد العاشر سنة ١٩٣٠ ، ص ٢٠ .

(٢) انظر ترجمته في الجذوة رقم ٦١٣ ، وقد جاء هذا التاريخ هناك « بعد الثلاث والسبعين » ، وهو خطأ صوابه « ... والتسعين »

للمنصور في غزوة برشلونة دون تحقق أو تحفظ ؛ ولعل حكم ابن دراج في ذلك لا يختلف عن حكم صاعد وابن أبي الفهد .

ويؤيد ما نزعمه ما سبق أن ذكرناه من اتفاق جامع الديوان والحميدي — وهو ينقل أخباره عن ابن حزم تلميذ ابن دراج — على أن صلة شاعرنا بالمنصور العامري تبدأ في سنة ٣٨٢ ، لاسيما وأننا لم نجد في شعر الديوان ما يسبق هذا التاريخ (١) ؛ ثم إننا نستطيع أن نؤكد أن هذه القصيدة الهائية التي ذكرنا لا يمكن أن تكون سابقة على سنة ٣٨٠ ، إذ أن الحميدي يقول إن ابن دراج عارض بها قصيدة لصاعد البغدادي ، وصاعد قدم إلى الأندلس كما ذكرنا في هذه السنة .

وقد كانت سن ابن دراج يوم أنشد المنصور العامري هذه القصيدة نحواً من خمس وثلاثين سنة ، غير أنها — وإن ظهرت فيها آثار من التقليد وقلة الأصالة — تدل على قدم ثابت في ميدان الشعر ، مما يحملنا على أن نفترض أنها لم تكن أول محاولة لقول الشعر من ابن دراج ، وأن له شعراً قليلاً أو كثيراً لم يثبت في ديوانه ، وربما كان السبب في ذلك هو أن الشاعر — وقد كان حريصاً على تنقيح شعره وتحكيكه وصقله — قد يكون تصرف في ديوانه بحذف ما لم يقع منه موقع الرضا من شعره بعد إذ تقدمت به السن واكتمل حظه من النضوج والشهرة كما سوف نرى بعد .

---

(١) لم نجد ما يلقي شكا على هذا الحكم إلا قصيدة فائية لابن دراج مدح بها المنصور بن أبي عامر بمناسبة تلقيبه ابنه عبد الملك بالحجابة ومطلع هذه القصيدة :

منكم إليكم مساعي المجد تنصرف ونحوكم عنكم الآمال تنعطف

فابن عذاري يذكر في البيان المغرب (٢ / ٢٩٣) أن المنصور رشح ابنه للحجابة والقيادة العليا في سنه ٣٨١ ، على أن هذا المؤلف لم يحدد متى تم ذلك بشكل فعلي ، مما يحتمل أن يكون تنفيذ هذا الأمر تم في السنة التالية .

وعلى أية حال فقد شق شاعرنا الفتى طريقه في بلاط الحاجب العامري ، وأتيحت له الفرصة للإنشاد بين يديه ، وكان ذلك وحده كسباً عظيما بالنسبة إليه ، فقد كانت سدة المنصور تزدحم بالشعراء وتغص بالنقاد الذين ما وفد عليهم شاعر أو أديب إلا تعقبوه بالنقد والتجريح ، وقد كان ابن دراج عندئذ في غضاضة الشباب إذا قسناه بمن كان في بلاط المنصور من فحول الشعراء وخضارمتهم ، ويكفيه مع ذلك أنه استطاع أن يلفت إليه أنظار الجميع ، فأقبلوا يتساءلون : من أين نجم عليهم هذا الشاب الناشيء الذي أتى يزاحم جلة الشعراء الواقفين على باب المنصور ؟ واستطالت ألسنة السوء : أتراه منتحلا لشعر غيره متلبساً بغير ثوبه ؟

ونحن نعلم كيف كان المنصور على الرغم من كثرة غزواته واتصال جهاده واضطلاعه بأعباء الحكم « محباً للعلم مؤثراً للأدب مفرطا في إكرام من ينتسب إليهما ويفد عليه متوسلا بهما بحسب حظه منهما وطلبه لهما ومشاركته فيهما »[1] ، وإذا كان كما يقول ابن بسام « غير ذي تحرير ولا بصر بالنقد مشهور »[2] — وهو حكم يبدو لنا بالغ القسوة — فإنه لم يكن يسمح لشاعر بالمثول بين صفوف حاشيته من أهل الأدب إلا بعد أن يجري عليه اختباراً قاسياً شديداً ، ونحن نعلم كيف تعرض صاعد البغدادي على الرغم من تجشمه الرحلة إليه من العراق لعدة

(١) الحميدي : جذوة ص ٧٣ ؛ وعبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣٠ — ٣١ .
(٢) ابن بسام الذخيرة ق ٤ — ١/٨ .

تجارب شديدة أخفق في بعضها ونجح في بعضها الآخر[1] . وقد كان امتحان الشعراء بين يدي المنصور يتم على صور مختلفة : إما أن يفاجأ الشاعر بالمنصور يقترح عليه ارتجال قطعة في موضوع يعن له ، وكثيراً ما كان الأمر يتعلق بوصف لشيء من أثاث أو زهر أو فاكهة مما يوجد في مجلسه[2] ، أو وصفاً لحادثة طارئة تقع تحت سمع المجتمعين وبصرهم[3] ، وإما أن يقترح على الشاعر أن يعارض قصيدة مشهورة لشاعر كبير من شعراء المشرق[4] ، وإما أن يعقد ندوة تضم الشاعر وبعض نقاده أو المعترضين عليه للجدال والمناظرة[5] ؛ وقد كان للمنصور مجلس معروف في يوم معين من كل أسبوع « يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيه بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة[6] » ، وكثيراً ما كان يتم اختبار الشعراء في أمثال هذه المجالس .

ويتوقف على هذه الامتحانات مصير الشاعر : فإذا أثبتت التجربة قوة عارضته

---

(١) انظر ترجمة صاعد في الجذوة رقم ٥٠٩ ؛ وابن بشكوال : الصلة رقم ٥٣٦ ؛ وابن بسام : الذخيرة ق ٤ – ١/٦ – ١٤ ؛ والمقري : نفح الطيب (ط . القاهرة) ٤/ ٧٦ – ٧٨ ، ٧٩ – ٨١ ، ٨٣ – ٨٤ ؛ وانظر كذلك مقال بلاشير الذي سلفت الإشارة إليه عن صاعد ص ٢١ – ٢٣ .

(٢) المقري : النفح ؛ وابن بسام : الذخيرة ، في المواضع المذكورة بالحاشية السابقة .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٤ – ١/ ٢٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/ ٣٢٢ ؛ المقري : النفح ، ٤ / ٩٣ – ٩٤ (ط . القاهرة) .

(٤) الذخيرة ق ٤ – ١/١٣ ؛ والنفح ٤/ ٩٥ .

(٥) الذخيرة ق ٤ – ١/٦ – ٨ .

(٦) الحميدي : الجذوة ص ٧٣ .

وحضور بديهته وذرابة لسانه في الجواب ورسوخه في علوم اللغة والأدب استحق أن يثبت فى « ديوان العطاء » ، وهكذا يصبح « شاعراً رسمياً » يجري عليه راتب منتظم[١] ؛ وقد كان للشعراء المثبتين في هذا الديوان « زمام » على ما يذكر الحميدي ، ويبدو أن هذه الكلمة يقصد بها ترتيب للشعراء في طبقات تتفاوت باختلاف مدى إجادتهم[٢] ، وقد كان « زمام الشعر » موكولاً في أيام المنصور إلى عبد الله بن مسلمة وكان رئيساً كاتباً جليلاً ناقداً للشعر ، وعلى أيديه كانت تخرج صلات الشعراء ورسومهم ، وعلى ترتيبه كانت تجري أمورهم[٣] .

ونعود إلى ابن دراج ، فنرى كيف ظفرت قصيدته بإعجاب المنصور مما يدل على أنه أمر بإثباته في ديوان العطاء ، وكيف أطلق ذلك من ألسنة الحاسدين والمنافسين ممن لا يخلو منهم بلاط أمير أو خليفة[٤] ، وقد رأينا كيف تفنن منافسو

---

(١) انظر ترجمة ابن دراج في الجذوة ص ١٠٣ ؛ وابن الخطيب : الإحاطة ٢/٧١ حيث يتحدث عن « الشعراء المرتزقين بديوانه » (أى ديوان المنصور) ؛ وابن بسام : الذخيرة ق ٤ — ١/١١ حيث يذكر أن المنصور أجرى على صاعد راتباً قدره ثلاثون ديناراً .

(٢) انظر قول ابن شهيد في الحديث عن الشاعر ابن أبي فهد والمقارنة بينه وبين عبادة بن ماء السماء : « وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام ، فأعجب ! » (الحميدي : الجذوة ص ٢٥٩).

(٣) الجذوة ص ٢٣٩ .

(٤) احتفظ المقري بقصة طريفة تصور لنا هذا الجو في بلاط المنصور بينه وبين الشاعر أبى عمر يوسف بن هارون الرمادي (النفح ٤/ ٣٣٦ - ٣٣٨ — ط . القاهرة) .

صاعد البغدادي في بث العقبات في طريقه ، وكان اتهام الشاعر بالسرقة والانتحال أمراً شائعاً تعرض له هذا الشاعر[1] ؛ وهكذا لم يكن هنالك بد من مجلس لنظر أمر شاعرنا القسطلي للتحقق من صدقه ؛ ويبدو أن ابن دراج قد استعد لذلك اليوم ، فأعد قصيدته البائية التي سنعرض لها بعد ذلك .

ويقول الحميدي — نقلاً عن ابن حزم — إن المنصور استحضر ابن دراج عشي يوم الخميس لثلاث خلون من شوال سنة ٣٨٢ (أول ديسمبر سنة ٩٩٢) واقترح عليه فبرز وسبق[2] ، إلا أنه لم يحتفظ لنا بتفصيل عن الموضوع الذي اقترح عليه ولا الشعر الذي قاله فيه ، وأغلب الظن أن المنصور أراد أن يختبر بديهته على الطريقة المتبعة مع غيره من الشعراء كما أشرنا إلى ذلك قبل .

ولم نجد في الديوان إشارة صريحة إلى هذه المناسبة ، غير أننا نرى فيه هذا النص :

« وله أيضاً في المنصور بن أبي عامر ولها قصة طويلة :

يا حبذا خجل التفاح في طبق منضد بجني الزهر متسق
فيه عيون بهار قد أحطن به نواظراً بجفون العاشق الأرق
كأن ما احمر من تفاحه خجلاً بدر بدا قطعاً من حمرة الشفق
في مجلس الملك المنصور يانعة كأنما غذيت من جوده الغدق »

---

(١) انظر مقال بلاشير عن صاعد البغدادي ص ٢١ — ٢٣ والمصادر التي اعتمد عليها .

(٢) الجذوة ص ١٠٣ — ١٠٤ .

ولسنا نستبعد أن تكون مناسبة « القصة الطويلة » التى قيلت فيها هذه الأبيات هى ذلك المجلس الذي أراد المنصور فيه أن يختبر شاعرية ابن دراج ويكشف عن صحة التهمة التي قذف بها وهي السرقة والانتحال ، إذ أننا نرى في تلك الابيات طابع ما يمتحن فيه الشعراء ، أي أن يتعمد صاحب المجلس من الامراء الإتيان بشيء ما على صورة مركبة ، ثم يقترح على الشاعر القول فى ذلك ارتجالاً ، وهو أمر كثيراً ما رأيناه في المجالس الأدبية الأندلسية عامة ولدى المنصور بن أبي عامر بصفة خاصة ، وأبيات ابن دراج التي اوردنا في وصف طبق تفاح احيط بأزهار البهار ، وهى صورة مركبة لا يستطيع وصفها — على سبيل الارتجال — إلا شاعر بَعُدَ على الأقل عن فطنة السرقة والانتحال . ثم إن هذه الأبيات يبدو عليها طابع الارتجال السريع ، وليس فيها تحكيك ابن دراج وصنعته وإحكامه مما نراه في سائر شعره ، ولو أن أبا عمر القسطلي أمهل أو ترك على سجيته فيها لأتى بغير ما أتى به .

والقطعة بوجه عام غير جيدة ، وهي تدلنا على أن الارتجال لم يكن بالميدان الذي يبرز فيه ابن دراج كما برز غيره من شعراء عصره مثل ابن حزم وابن شهيد وصاعد البغدادي ، غير أن المقام لمن يكن يقتضي كبير إجادة ، فحسب المنصور والحاضرين في مجلسه أن الشاعر لم يخيب الرجاء ، ولم يخلف الظن ، وهو غير مطالب بأكثر من ذلك ليدفع عن نفسه التهمة التى نسبت إليه .

وفي هذا المجلس — على ما يبدو من كلام الحميدي — أتبع ابن دراج نجاحه في ذلك الاختبار بإنشاء قصيدته البائية التى مطلعها :

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا وجود كفيك للحظ الذي انقلبا

وهي قصيدة يغلب على ظننا أنه عاد فيها إلى معارضة صاعد البغدادي الذي نرى من شعره في مدح المنصور قصيدة على بحرها ورويها في وصف قصر الزاهرة الذي بناه المنصور :

يأيهـا الملك المنصور من يمن ... والمبتني نسباً غير الذي انتسبا [1]

وقد أشار ابن دراج في قصيدته إلى « الامتحان » الذي عقدله ، وافتخر بظفره فيه وأنه لم يقصر في ميدان الارتجال :

ودسسوا لي في مثنى حبائلهم ... شنعاء بت بها حران مكتئبا

حتى هززت فلا زند القريض كبا ... فيما لديَّ ولا سيف البـديه نبا

ثم يعرض للمنصور بأنه مقتدر على النثر والكتابة والخطابة اقتداره على الشعر :

إن شئت أملى بديع الشعر أو كـتبا ... أو شئت خاطب بالمنثور أو خطبـا

ولعل هذه الإشارة لم تفت المنصور إذ لم يلبث بعدها أن اتخذه من كتاب الرسائل في ديوان إنشائه .

وعلى أية حال فالذي نعرفه أن المنصور كافأ ابن دراج على جوازه ذلك الاختبار بأن أثبته في ديوان شعرائه ، ووصله في ذلك المجلس بمائة دينار ، وكانت هذه بداية طيبة بغير شك لمستقبل شاعرنا الفتى .

---

(١) انظر ابن عذاري : البيان المغرب ٢/٢٧٧ ؛ والمقري : النفح ٢/١١٥ ؛ ويجدر بنا أن نذكر أن قصيدة ابن دراج البائية في ذلك المجلس لم تكن على سبيل الارتجال كما ظن بعض الباحثين (مثل بلاشير : ابن دراج ص ١٠٢) فنسجها يدل على أنه أحكم صنعته ورويته فيها إلى حد بعيد .

على أن هذا المجلس لم يكن آخر اختبار لابن دراج على ما يبدو ، فابن خلكان يذكر أن المنصور أمره بعد ذلك أن يعارض قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر[1] ، وهي القصيدة التي أولها :

أجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

وجدير بالذكر أن المنصور كان يستبد به الإعجاب بهذه القصيدة مما حمله على أن يقترح معارضتها كذلك على صاعد البغدادي ارتجالاً ، فأبى صاعد من ذلك « إجلالاً لأبي نواس » على زعمه أو لصعوبة الأمر فيما نعتقد وأنشد :

إني لمستحي عـــلا ... ك من ارتجال القول فيه

من ليس يدرك بالرويـــــة كيف يدرك بالبديه

على أن المنصور أصر عليه في ذلك، فجاءه صاعد من الغد فأنشده قصيدته :

جذال الشرى إني بكن بصير ... طوتكن عني خلسة وقتير[2]

ولعل المنصور أراد أن يجري الاختبار نفسه على ابن دراج ، فنظم هذا قصيدته التي أولها :

دعي عزمات المستضام تسير ... فتنجد في عرض الفلا وتغور

وقد بلغت هذه القصيدة شهرة هائلة في المشرق والمغرب حتى إنه لايكاد يخلو كتاب من كتب المنتخبات الأدبية من بعض أبياتها ، ويمكن أن نفترض أن

---

(١) وفيات الأعيان ١١٧/١ ؛ وابن فضل الله العمري : المسالك ٢٠٢/١١ .
(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ — ١٣/١ .

مكانة ابن دراج قد توطدت بعدها وأنه أصبح نجماً من النجوم الساطعة في فلك دولة المنصور ابن أبي عامر.

ب — في ظل الدولة العامرية

— ١ —

نحو من ستة عشر عاماً قضاها ابن دراج في ظل المنصور العامري وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن (٣٨٢ — ٣٩٩ / ٩٩٢ — ١٠٠٨) ، وهو زمن ليس بالقصير احتفظ لنا ديوان ابن دراج بجانب لابأس به من شعره خلاله. وشعر القسطلي في الدولة العامرية يعتبر من أروع ما نظم وأحقه بالتقدير، ولاسيما ما توجه به من مديح إلى المنصور، والذي يقرأ شعر ابن دراج في القائد العامري لا يملك تفكيره من أن يذهب إلى مدائح المتنبي لسيف الدولة، فهو مدح لا يقوم فقط على الطمع والرغبة — وأي امرىء شاعر أو غير شاعر تجرد منهما؟ — وإنما المصدر الأول فيه هو شعور قوي من الإعجاب بشخصية الممدوح، وإذا كان جهاد سيف الدولة وكفاحه للدفاع عن الثغور الشمالية للدولة العربية ضد مملكة البيزنطيين على قلة موارده وضآلة بلده — كان مما بث في نفس شاعره المتنبي شعوراً قوياً مضطرماً بالفتوة العربية [1]، فقد كان في حياة المنصور العامري

(١) انظر عن ذلك الصفحات الممتعة التي كتبها أستاذنا الدكتور طه حسين في كتابه « مع المتنبي » ص ١٧٣ وما بعدها (ط. دار المعارف سنة ١٩٤٩).

واتصال كفاحه في سبيل الإسلام ما هو كفيل بإثارة شعور مماثل في نفس ابن دراج . فابن أبي عامر هو الذي جعل من هذه الدولة العربية القاصية المنحصرة بين البحر وممالك أوربا المسيحية أقوى دول الغرب الإسلامي كله ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا ودول القارة الاوربية جمعاء . وإعجاب ابن دراج بشخصية هذا البطل الإسلامي إنما كان صورة لإعجاب الشعب الأندلسي المسلم جميعه به ، فقد كان المنصور رمزاً لمجد الإسلام في تلك البلاد ، ذلك المجد لم يقدر للمسلمين أن يستعيدوه مرة أخرى طول تاريخهم في إسبانيا بعد انتثار سلك الدولة العامرية ، وبعد أن أضاع ورثة هذه الدولة ما كان المنصور قد حرص على جمع شمله طوال عشرين سنة من الجهاد المتواصل والعمل الجبار والعزيمة التي لم تعرف نصباً ولا إعياء .

أما شعر ابن دراج في المنصور فقد احتفظ منه لنا ديوانه الذي بين أيدينا باثنتين وثلاثين ما بين قطعة وقصيدة ، وإن كنا نظن أن كثيراً مما ذهب في خروم النسخة الخطية للديوان إنما كان من مدائح ابن دراج العامرية ؛ على أن ما بقي مقدار لا بأس به ، وقد سجل شاعرنا فيه كثيراً مما مر على الدولة من أحداث ، ومعظم قصائده غير مؤرخة إلا أننا توصلنا إلى تحديد تواريخ الكثير منها مما يسمح لنا بتتبع فن الشاعر وتطوره فيها .

— ٢ —

ومن أولى قصائد ابن دراج في ابن أبي عامر تلك التي قالها في إحدى المناسبات التي كانت من أروع مظاهر عزة الإسلام في الأندلس ، ونعني بها وفود ملك

البشكنس (إمارة نبارة) شانجه بن غرسيه Sancho Garcés 11 على قرطبة محكماً للمنصور في نفسه ومملناً له بالطاعة والخضوع ، وكان شانجه قد جدد من قبل عهود السلم للمنصور ثم نقض تلك العهود ، فأوقع به العامري عدة هزائم قتل في إحداها ابن له في سنة ٣٧١ (٩٨١) ، وحينئذ لم ير الملك المسيحي بدا من العودة إلى إعلان طاعته للمنصور وتجديد العهد له ، بل إنه لم يلبث أن أهدى إلى المنصور ابنة له ، فأعتقها هذا وتزوج منها فأنجبت له ابنه عبد الرحمن الذي كان ينبز من أجل ذلك بلقب « شنجول » (بالإسبانية Sanchol أو Sanchuelo) وهو تصغير اسم شانجه جده لأمه . وفي سنة ٣٨٢ (٩٩٢) ورد إلى قرطبة نبأ مقدم الملك المسيحي صهر المنصور إلى قرطبة « محكماً له في نفسه » على حد قول جامع الديوان أو « زائراً مستصرخاً » كما قال ابن الخطيب[١] ، وكان وصول شانجه إلى قرطبة في ٣ رجب سنة ٣٨٢ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢) ، فاستقبله المنصور استقبالاً رائعاً فخماً أفاض في وصفه ابن الخطيب[٢] . وبهذه المناسبة قال ابن دراج قصيدته التي مطلعها :

ألا هكذا فليسم للمجد من سما ويحم ذمار الملك والدين من حمى

ولم تكن هذه السفارة هي الوحيدة لملك نصراني إلى سدة المنصور ، ففي سنة ٣٨٢ نفسها وفد على قرطبة أيضاً أمير قشتالة وولي عهد ملكها شانجه بن غرسية بن فرذلند Sancho Garcia I ، ولعله قدم موفداً من قبل أبيه غرسية قومس قشتالة Castilla ، ولم تتحدث كتب التاريخ الإسلامية ولا المسيحية عن

---

(١) أعمال الأعلام ص ٦٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٣ – ٧٤ ؛ وانظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٤٢-٢٤٣

تلك السفارة ، إلا أن ابن دراج يثبت لنا وقوعها في هذه القصيدة اللامية الفريدة التي يبدأها بقوله :

إليك منك فرار الخائف الوجل   وفي يديك أمان الفارس البطل

وفيها يقول :

وقد تيمم « شنج » منك عائدة   تجيره من سيوف الكرب والوهل
وقاد نحوك والتوفيق يقدمه   جيشاً من الذل ملء السهل والجبل
مستعطفاً لحياة جل مطلبها   عن مبلغ الكتب أو مستعطف الرسل
مستخذيا لسيوف النصر حين أبت   من دين طاعته قولاً بلا عمل

ثم يصف مثول شانجه بين يدي المنصور والعرض العسكري الهائل الذي أعده القائد المسلم لاستقباله ـ وهو عرض كان فيه من الإرهاب والإنذار أكثر مما فيه من الحفاوة والتكريم ـ وموقف شانجه وقد أخذت بنفسه هيبة المقام ورهبته .

ويصف ابن دراج في قصيدة ثالثة سفارة الأمير غند شلب Gonzalvo ابن شانجه بن غرسية ملك نبارة إلى المنصور في سنة ٣٨٣ (٩٩٣) بقصيدة أولها :

ورمى ابن شنج إليك نفس محكم   نهج الخضوع لها سبيل رشادها
مستعطفاً لحشاشة من ملكه   وثمالة قد آذنت بنفادها
فاستنقذته منك عودة منعم   قامت لمهجته مقام معادها
غازٍ لعطف العامري مجاهد   في طاعة « المنصور » حق جهادها
مستنجد منه مذلة خاضع   غنم الحياة أبوه باستنجادها

وهو يشير في هذا البيت الأخير إلى سفارة أبيه شانجه في السنة السابقة ، وهي السفارة التي وصفها ابن دراج من قبل في قصيدته الميمية .

— ٣ —

وبحن نعرف أن ملوك إسبانيا المسيحية كانوا يبدون للمنصور في كثير من الأحيان خضوعهم وانقيادهم ، إلا أنهم كذلك كانوا ينتهزون أي فرصة تسنح للإغارة على أرض المسلمين أو نقض العهود المبرمة بينهم وبين المنصور مما جعل حياة القائد العظيم جهاداً متواصلاً ، حتى إن المؤرخين يقدرون غزواته إلى الممالك المسيحية باثنتين وخمسين غزوة ، وقد رافق ابن دراج المنصور في كثير من هذه الغزوات ولعل أولها مما شهده شاعرنا القسطلي هي الغزوة التي وجهها المنصور في سنة ٣٨٤ (٩٩٤) إلى قشتالة التي كان يحكمها في ذلك الوقت غرسية بن فرذلند ، وفي هذه الغزوة فتح المنصورة قلعتي شنت إشتيبن San Esteban de Gormaz وقلنية Clunia وخرب أبلة Avila ؛ ولابن دراج بهذه المناسبه قصيدتان : الأولى مطلعها :

أنضيت خيلي في الهوى وركابي ... وعمرت كأس صبا بكأس تصاب

وفيها يسجل شهوده لتلك الغزوة ويتحدث عن بسالة عبد الملك بن المنصور وكان له في المعركة موقف مشهود :

وبرأي عيني منه يوم « قلنية » ... منه شهاب خاطف لشهاب
سيف الإله وحزبه المفني به ... شيع الضلال وفرقة الأحزاب

أما القصيدة الثانية فأولها :

أهلاً بمن نصر الإله وأيدا ... وحمى من الإشراك أمة أحمدا

وهي في مدح عبد الملك بن المنصور ، وفيها يتحدث ابن دراج عن هذه الغزوة التي رآها رؤية عيان :

ووقفت دون « الدير » فيها وقفة		كانت لنصر الله فيها موعدا
وبرأي عيني يوم خضت لفتحها		بحراً من البيض الصوارم مزبدا
فرأيت ما استنزلت من نجم هوى		وشهدت ما حدثت عن ليث عدا

. . . . .

وتركت « شنت اشتيبناً » وكأنما		حطت سيوفك من عداها الفرقدا
فقصرت مدتها بوقعة ساعة		أبقت لك الفخر الجليل مخلدا
شيدت عز المسلمين بهدم ما		قد كان عز الكفر منها شيدا
وتركت « غرسية » بنقمة غدره		بالروع في الأرض الفضاء مقيدا

وفي شوال سنة ٣٨٥ (نوفمبر سنة ٩٩٥) توجه المنصور على رأس حملة أخرى لعقاب مملكة « ليون León » التي كان يحكمها آنذاك برمند بن أردون Bermudo II ، فعاثت فيها جيوش المسلمين ، ويبدو أن ابن دراج قد شاهد أيضاً هذه الوقعة مما يتبين من قصيدته الرائية التي أولها :

إن تفخر الدنيا فأنت فخارها		أو تختر العليا فأنت خيارها

وفي هذه السنة تأسر جيوش المسلمين غرسية بن فرذلند قومس قشتالة الذي كان أصلب أعداء المنصور عوداً وأقواهم جلداً على قتاله ، وما كانت هذه المناسبة لتفوت ابن دراج ، كما لم تفت صاعداً البغدادي الذي كان من توفيقه أن تنبأ بأسر غرسية قبل وقوعه [1] ، أما قصيدة ابن دراج فأولها :

---

(١) كان صاعد قد بعث بأيل سماه غرسية هدية إلى المنصور وكتب معه بأبيات يتفاءل فيها بأسر الملك القشتالي ، فشاءت المصادفة أن يؤسر في ذلك اليوم (راجع القصة في ابن بسام : الذخيرة ق ٤ — ١ / ٢٢ - ٢٣ ؛ ابن الخطيب : —

تناضـــــل عنك أقدار السماء وتبطش عن يديك يد القضاء

وفيها تصوير رائع لشخصية غرسية لا يخلوا من إعجاب به ، وهو إعجاب الخصم بالخصم على ما كانت تقضي به سنن الفتوة والفروسية في العصور الوسطى .

— ٤ —

ولعل من أجل المناسبات التي رفع فيها ابن دراج لواء شعره في الإشادة بعظمة الإسلام وعزة الدولة العربية تلك الغزوة التي وجهها المنصور في جمـادى الثـانية سنة ٣٨٧ (يولية سنة ٩٩٧) إلى شنتياقب Santiago de Compostela في منطقة جليقية Galicia (في أقصى شمال غرب إسبانيا) ، وكانت هذه المدينة ـ ولا تزال ـ من أقدس بقاع المسيحية الإسبانية والأوربية عامة ؛ إذ كان إليها حجهم وتعبدهم[1] ونحن نعرف على وجه التحقيق أن ابن دراج شهد هذه الوقعة ، فالحميري يذكر أن له فيها رسالة مشهورة كتبها على لسان المنصور إلى الخليفة هشام بن الحـكم من هنالك ، وفيها يخبره بالفتح ويصف الـكنيسة وأرضها ، كما يضيف الحميري إلى ذلك أن لابن دراج في تلك الغزوة قصيدة مشهورة[2] .

ـ الأعمال ص ٦٨ – ٦٩) ، وعن أسر غرسية بن فرذلند انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٤٤ – ٢٤٥ ؛ بيريث دي أوربل : تاريخ إمارة قشتالة ص ٧٦٦ – ٧٧٠) .

(١) عن هـذه الغزوة انظر ابن عذاري : البيـان ٢ / ٣١٣ – ٣١٦ ، وليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٤٦ – ٢٥٠ .

(٢) الروض المعطار ص ١١٥ – ١١٦ .

أما الرسالة التي كتبها القسطلي بهذه المناسبة فقد أمدنا الحميدي عنها ـ نقلاً عن أستاذه ابن حزم ـ بأخبار أكثر تفصيلاً ، فقد ذكر أن المنصور استدعى أبا عمر ابن دراج وعبد الملك بن إدريس الجزيري[1] ، وكلفهما بإنشاء كتاب الفتح إلى الحضرة وسائر الأعمال . أما ابن الجزيري فإنه قال : سمعاً وطاعة ؛ وأما ابن دراج فقال إنه لا يتم له ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة . فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك ، فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل كتابه في ذلك ؛ وتركت لابن دراج فسحة من الوقت ليكتب كتابه على اختياره ، « ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح ووصف الغزاة من أولها إلى آخرها ومشاهد القتال وكيفية الحال بأحسن وصف وأبدع رصف ، فاستحسنت ووقع الإعجاب بها ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن ، وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر »[2] ؛ على أن رسالة القسطلي هذه لم تصل إلينا لسوء الحظ ، ولو أنها بقيت لكانت وثيقة تاريخية أدبية على أكبر جانب من القيمة .

وأما ما نظمه ابن دراج من شعر بهذه المناسبة فإنه ليس قصيدة واحدة على ما يذكر الحميدي ، بل إننا نرى في ديوان ابن دراج ثلاث قصائد حول هـذا الموضوع ، أولها بائيته في مدح المنصور وأولها :

---

(١) عن ابن الجزيري انظر : الحميدي : الجذوة ـ ترجمة ٧٥٧ ، ابن بسام : الذخيرة ق ٤ ـ ١ / ٣١ ـ ٣٦ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ٢٥ ـ ٢٦ ؛ ابن الخطيب : الأعمال ص ٧١ ـ ٧٢ ؛ المقري : النفح ٢ / ٧٠ ـ ٧١ ، ١١٩ ـ ١٢١ (ط . القاهرة) .

(٢) الجذوة ص ١٠٤ .

اليوم أنكص إبليس على عقبه مبرأ سبب الغاوين من سببه

ولعلها هي التي يعنيها الحميري ففيها وصف للكنيسة وتصوير لمقامها في نفوس النصارى ، وما يعنيه هذا الفتح من تأكيد لعزة الإسلام وإظهار بأسه وقوته .

أما الثانية فقد اختص ابن دراج بها ابني المنصور عبد الملك وعبد الرحمن وحسن بلائهما في هذه الغزوة ومطلعها :

لك البشرى ودمت قرير عين بشأوي كوكبيك الثاقبين

وأما الثالثة فإنها في عبد الرحمن المنصور خاصة ، ومن المعروف أن عبد الرحمن — على فتاء سنه — كان له مقام محمود في تلك الغزوة (١) ، وأول هذه القصيدة :

هو البدر في فلك الملك دارا فما غسق الخطب إلا أنارا

— ٥ —

ولو أننا تتبعنا شعر ابن دراج في غزوات المنصور والوقائع التي صورها في كل ذلك لاقتضى منا الحديث مجالاً أوسع بكثير مما تسمح به هذه العجالة ، فلنجتزىء بهذا القدر ، ولنمض مع ابن دراج في حياته في ظل عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبي عامر الذي خلف أباه على الحجابة للخليفة هشام بن الحكم المؤيد .

وقد ولي عبد الملك بعد وفاة أبيه المنصور سنة ٣٩٢ (١٠٠٢) حتى موته

(١) يقول الحميرى فى الروض (ص ١١٥) إن عبد الرحمن غزا شنتياقوب فأوسع أهلها قتلاً وأسرا وقراها وأسوارها هدما وإحراقاً .

سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) ، وفي عهده نعمت الأندلس بفترة من الرخاء والرفاهية كانت مضرب المثل في تاريخ اسبانيا الاسلامية كله ، ولا شك في أن الفضل في ازدهار الدولة الاندلسية في عهده إنما يرجع لهذه الجهود المتواصلة التي بذلها سلفه العبقري في توطيد دعائمها وتأمينها من أعدائها .

غير أن عبد الملك كان — على ما يذكر المؤرخ ابن حيان — أقل اهتماماً بالأدب وشغفاً بالشعر من أبيه المنصور ، وهو يعلل ذلك مرة بأنه كان ذا نصيب قليل من الثقافة الأدبية والتمييز بين جيد القول ورديئه (١) ، وتارة أخرى بالرغبة في توفير المال والقصد في الإنفاق (٢) ، على أنه برغم ذلك عمل على احترام رسوم أبيه ، فأقر الشعراء على مراتبهم « ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته » ، ويلاحظ ابن حيان أن هذا كان السبب في فتور أشعار مادحيه بوجه عام (٣) .

ويبدو أن ابن دراج خشي أن يؤثر زهد عبد الملك في الشعر والشعراء على مركزه في « ديوان العطاء » ، إلا أن عبد الملك كان أكرم من أن يخيس بعهود والده في بر الشاعر الذي ظل طوال عشر سنوات لساناً له ومسجلاً لأمجاده وانتصاراته ، ولهذا فإن عبـد الملك لم يلبث أن أثبت اسم ابن دراج في ديوان شعرائه ، ونستخلص هذا من قصيدة وجهها إليه شاعرنا القسطلي يقول فيها :

وخططت بالكف الكريمة ملحقي والفخر فخري منك إذ سميتني
حسبي فحين ذكرتني كرمتني وكفى فحين نطقت بي أغنيتني

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١ / ٦٠ .
(٢) ابن عذاري : البيان ٣ / ٣٦ .
(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١ / ٦٠ .

وقد اطمأنت نفس ابن دراج بعد ذلك ، فعاود حياته في ظل عبد الملك المظفر شاعراً من شعراء بلاطه وكاتباً في ديوان إنشائه ، ولعله كان أبرز هؤلاء وأولئك ، إذ أن مكانته منذ أيام المنصور كانت قد رسخت ، وبلغ شعره أقصى ما يمكن أن يطمح إليه شاعر .

وقد تغنى القسطلي بغزوات عبد الملك وفتوحه في أقطار المسيحية الإسبانية كما كان شأنه مع المنصور ، وكان من أبرز قصائده في ذلك ما قاله في الغزوة التي قادها عبد الملك ضد مملكة ليون في سنة ٣٩٥ (١٠٠٥) وهي رائيته التي أولها :

لئن سرت الدنيا فأنت سرورها … وإن سطعت نوراً فوجهك نورها

وفيها يذكر اقتحام الحاجب العامري لقلعة « لونة Luna » وتمزيقه لجيوش ملك ليون لديها :

وأنت الذي أوردت لونة قاهرا … خيولاً سماء الأرض فيها نحورها
وقد لاح بالنصر العزيز لواؤها … وأعلن بالفتح المبين بشيرها

ويعود مرة أخرى للحديث عن هذه الغزوة التي بطش فيها عبد الملك بأعداء الإسلام وأعلى كلمة المسلمين :

بعثت عليها منك دعوة واثق … صفا شاهد الإخلاص منه وغائبه
فسرعان ما أقوى الثرى من أسوده … وأبرز من حر الحجال كواعبه
ثلاثة آلاف حسابا ومثلها … وقد غل عازبه وأسار حاسبه
فيا ليت قوطا حين شاد بناءه … رآه وقد خرت إليك جوانبه

وكان عبد الملك قد توجه في أول ولايته سنة ٣٩٣ (١٠٠٣) على رأس حملة عظيمة إلى إمارة قطلونية التي كانت تحت حكم قومس برشلونة ريمند (الثالث)

بن بريل Ramón Borrell ، فأحرز على جيوش النصرانية انتصاراً عظيماً أعاد هيبة قرطبة إلى نفوس من ظنوا موت المنصور نهاية لمجد الأندلس الإسلامية ، وفي هذه الغزوة فتح حصن ممقصر Monmagastre وأسكنه المسلمين ودوخ بسيط برشلونة .
وفي هذه الغزوة قال ابن دراج قصيدته :

أللّه جارك ظاعنـــا ومقيما   ومثيبك التبجيل والتكريما

فضلاً عن قطعتين أخريين نظمهما في تهنئة الحاجب بعد إيابه .

— ٦ —

على أن مدائح ابن دراج في هذه الفترة لم تقتصر على عبد الملك المظفر كما قصر شعره من قبل على المنصور ، بل إنه اتصل — كما يبدو لنا من شعره — بوزير عبد الملك المقرب إليه : عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بالقطاع ، ولعل في هذا مظهراً يدل على عدم احتفال عبد الملك بالشعر احتفال أبيه مما ألجأ ابن دراج إلى التوجه بمدحه إلى عيسى بن سعيد ، وقد احتفظ لنا الديوان بقصيدتين فيه ، أولاهما مطلعها :

مكارمك اغتباقي واصطباحي   ومن ذكرك ريحاني وراحي

أما الثانية فهي لاميته التي أولها :

أفي مثلها تنبو أياديك عن مثلي ؟   وهذي الأماني فيك جامعة الشمل

ولعل هذه القصيدة هي أول ما يحمل طابع الشكوى الصريحة من شعر ابن

دراج ، فقد ظل هذا الشاعر متمتعاً بحياة رغدة لا قلق فيها طوال السنوات الماضية ، فما الذي أصابه في تلك الفترة من « خطوب شيبت مفرق الطفل » على حد قوله ؟ وما شأن الحديث عن « رجائه المقيد » و « حظه المغلول » ؟ وما باله يتكلم عن « اليأس » و « المطل » ؟ وعن ذلك الصديق الذي :

تذكرني في ساعة العلم والنهى وأنسيني في ساعة الجود والبذل

ولسنا نرى من هذه القصيدة إلا أن ابن دراج قد أصابه شيء في أيام حكم الوزير عيسى بن سعيد ، ونحن نعلم أن هذا الوزير بدأ حياته كاتباً للمنصور قبل ولايته الأمر ، ثم ارتفع شأنه حتى صار هو المتصرف في كل أمور الدولة على عهد عبد الملك ، ومعنى ذلك أنه كانت تربطه بابن دراج ماتة الأدب والكتابة ، وعلى الرغم من ذلك فقد أصاب أبا عمر القسطلي في ظل وزارته ما لم يصبه من قبل منذ أن اتصل بالمنصور . ترى الوزير ألقى أذنيه لما كان يلفظ به حساد ابن دراج وخصومه — ولعلهم كانوا كثيرين — من طعن عليه أو نيل من إخلاصه وولائه ؟ أرجح الظن لدينا أنه كان شيء من ذلك ، وأن ابن دراج قد أصابه من تلك المحنة قليل أو كثير .

إلا أن هذه الأزمة لا تلبث ن تنقشع ، إذ سرعان ما يتبين لعبد الملك أن وزيره القطاع لم يكن أهلاً لتلك الثقة التي أودعه إياها ، فقد نقل إليه أن عيسى ابن سعيد كان يسعى سراً إلى هدم الدولة العامرية ، وتنصيب الأموي هشام بن عبد الجبار على عرش الخلافة ، فبادر عبد الملك إلى القضاء على تلك الفتنة قبل أن تستطير نارها ، وهكذا قبض على عيسى بن سعيد وأمر بقتله في العاشر من ربيع الأول سنة ٣٩٧ (٤ ديسمبر سنة ١٠٠٦) ، ولنا أن نتصور بعد ذلك

كيف تنفس ابن دراج الصعداء بعد مقتل هذا الوزير ، وبهذه المناسبة قال قصيدته في تهنئة المظفر :

شكراً لمن أعطاك ما أعطاكا رب أذل لملكك الأملاكا

وفيها لا يخفي ابن دراج شماتته الصريحة بمصرع عيسى بن سعيد وسروره بمهلكه:

قل للمصرع لالعاً من صرعة وافيتها بغياً على مولاكا

تباً لسعيك إذ تسل معانداً لخلافة السيف الذي حلاكا

وإننا لنستشف من خلال أبيات القصيدة ما لعل ابن دراج لقيه من الشدة والعسف على يد الوزير المقتول :

حييت لموتك أنفس مظلومة كانت منيتهن في محياكا

— ٧ —

ولم يكن عبد الملك المظفر — على الرغم مما دمغه به ابن حيان — متجرداً من هذه الحساسية الفنية التي اتصف بها أبوه من قبل حينما كان يخلو إلى نفسه ويفرغ من أعباء عمله ، ويبدو أنه كان يستريح إلى المقطعات التي كان الشعراء يصفون فيها جمال الربيع والأزهار ، وأنه كان يحب أن يغنيه قيانه في ذلك [1] وقد تردد صدى هذا في شعر ابن دراج مما نراه في تلك القطع الروضية التي احتفظ لنا الديوان بها ، فضلاً عن بعض القطع الغنائية التي ألفها ابن دراج لقيانه مما يصلح للغناء .

(١) ابن عذاري : البيان ٣ / ١٨ .

حـ — ابن دراج والفتنـة

وفي سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) تحل المنية بالمظفر وهو بعـد في عنفوان شبابه ، ويتولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجول ، ويقول ابن دراج في ذلك مرثيته في المظفر معزياً أخاه ومهنئاً إياه بتنصيبه في مكانه :

ما أطبق الهم إلا ريثما انفرجا ... ولا دجا الخطب إلا وشك ما انبلجا

ولم يـكن ابن دراج ولا أهل الأندلس يقدرون ما قضي على الأندلس أن تلقاه على يد هذا الفتى المشئوم الذي بدأت بولايته النـكبات على الدولة الإسلامية الأندلسية بعد أن بلغت أوج القوة والعظمة في عهدي أبيه وأخيه من قبل .

وليس من شرطنا التحدث هنا عن تلك الفترة الحـافلة بالأحداث السياسية خلال هـذه « الفتنة » التي اضطرمت الأندلس بهـا ناراً ودماراً والتي كانت إيذاناً ببدء نهاية الإسلام في هذه البلاد ، ففي المراجع التاريخية من تفصيل ذلك مالا مجال لترداده في هذا التقديم (١) ؛ أما فيما يتعلق بشعر ابن دراج فيجدر بنا أن نشير إلى أن ديوانه لم يحتفظ لنـا بشيء في عهد عبد الرحمن « شنجول » إلا بهذه القصيدة التي عزاه بها عن موت أخيه وهنأه بالولاية ؛ وهذا أمر منطقي

---

(١) عن الفتنة القرطبية انظر : الدكتور حسين مؤنس : رسالة حـول سقوط الخلافة الأموية في قرطبة في سنة ١٠٠٩ (وهو بحث كتب باللغة الفرنسية ونشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٨) ؛ وليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢ / ٢٩١ — ٣٤٥ ؛ والمراجع المذكورة في هذين البحثين .

فعبد الرحمن لم يتمتع بالحكم إلا قرابة شهرين ، وقد حمله غروره وغفلته على الخروج على رأس غزوة إلى بلاد النصارى في الشمال تشبهاً بأبيه وأخيه وهو لم يوطد بعد ركان دولته ، واغتنمها محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي المتلقب بالمهدي ، فأعلن الثورة ، وخلع دولة العامريين ، ونادى بنفسه خليفة في جمادى الثانية سنة ٣٩٩ (فبراير سنة ١٠٠٩) .

وتلاحقت بعد ذلك الأحداث في سرعة مذهلة ، ولكأننا بأهل قرطبة ينظرون إلى هذه الدولة العتيدة التي سهرت على بنائها أجيال متتابعة من عباقرة الساسة وأفذاذ القواد طوال قرن كامل ، ليروها وهي تتقوض وتنهار في لحظات كأن لم تكن . وقد كان لكل ذلك أسبابه وعوامله بغير شك ، غير أن السرعة التي تواترت بها النكبات على عاصمة الخلافة الأندلسية ما كانت لتدع للناس حتى فرصة التفكير الهادىء أو التقدير السليم . وما قيمة أن يعرف الناس كيف حدث كل ذلك أو لماذا حدث وهم يرون حياتهم تعصف بها الثورات وتمزقها الأهواء والفتن ؟

وبقدر تخبط الساسة والشعب في غمرات تلك الفتنة الجائحة كان تخبط الأدباء والشعراء ، فهم لا يدرون إلى من يقبلون وعمن يدبرون ، يحيون حياتهم يوماً بيوم دون أن يعرفوا ماذا يكون من أمر غدهم ولا أي كارثة تتربص بهم الدوائر .

ولهذا فإننا لا نستغرب أن يساير ابن دراج تقلب الدول على قرطبة ، فما يعلن ابن عبد الجبار ثورته حتى يتوجه إليه مادحاً بقصيدته التي أولها :

قل للخلافة قد بلغت مناك ورأيت ما قرت به عيناك

وفي آخرها يجهر بشكواه ويبكي حظ أدبه المضيع :

وأنا الشريد وظل عزك موئلي ‏ ‏ وأنا الأسير وفي يديك فكاكي
أدب أضاء المشرقين وتحته ‏ ‏ حظ يئن إليك أنة شاك

غير أن هذا الأمير الأموي المشئوم لم يستقر في الخلافة إذ سرعان ما ثار عليه أموي آخر لم يكن أقل منه شؤماً على الأندلس المنكوبة ، وهو سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين ، ويستمر الصراع بين هذين حتى يقتل المهدي بتدبير أنصاره أنفسهم ، ويعتلي المستعين عرش الخلافة المرة الثانية في شوال سنة ٤٠٣ (مايو سنة ١٠١٣) .

ويبدو أن ابن دراج — شأنه في ذلك كشأن سائر شعراء الدولة العامرية — قد تلبث في قرطبة وهو يعلل نفسه برجاء انقشاع الأزمة وانجلاء الفتنة [١] ، ولنا أن نعتقد أنه ظل طوال هذه السنوات الثلاث راكد القريحة ، إذ أن الديوان لم يحتفظ لنا بشيء من شعره في خلال هذه الفترة ، حتى عادت إليه صبابة من أمل بعد ولاية المستعين . ويؤكد لنا ذلك قول ابن حيان [٢] :

« واغتنمته [أي سليمان المستعين] شعراء العامرية والدولة العامرية وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة ، واشتدت فاقتهم وحمت طباعهم ، وكانوا كالبزاة الفذة الجياع انقضت لفرط الضرورة على الجرادة ، فلم

(١) انظر مقال المستشرق الإسباني الأستاذ إميليو غرسية غومس : نظرات حول انهيار قرطبة الأموية (مجلة الأندلس — المجلد الثاني عشر — سنة ١٩٤٧ (ص ٢٦٧ — ٢٩٣) ؛ ص ٢٧٣) .

(٢) ابن الخطيب : الأعمال ص ١٢٢ .

يبلّ [1] صداهم ، ولا سد [2] خلتهم لاشتغاله بشأنه واشتداد حاجة سلطانه » .

ويروي لنا ابن بسام [3] أن ابن دراج دخل عليه أول مجلس كان له بالقصر فأنشده قصيدته الدالية التي مطلعها :

شهدت لك الأيام أنك عيدها   بك حن موحشها وآب بعيدها

ثم مدحه بنونيته المشهورة :

هنيئاً لهـذا الملك روح وريحان   وللدين والدنيا أمان وإيمان

وبثالثة أولها :

تخيرت فاستمسكت بالعروة الوثقى   فبشراك ان تفنى عداك وان تبقى

وهذه القصائد الثلاث من عيون شعره السياسي إذ أن ابن دراج ينطق فيها بلسان الحزب البربري الذي تزعمه سليمان بن الحكم ويروي مشاهد القتال بينه وبين الحزب الأندلسي الذي كان منضوياً تحت لواء المهدي .

على أن المستعين لم يبل صداه ولا سد خلته كما قال ابن حيان وكما نرى من تلك القطعة التي وجهها إليه مصرحاً بشكواه وآلامه :

بلغت عبدك الخطوب مداها   يوم تبليغك النفوس مناها

— ٢ —

ولا يلبث ابن دراج أن يقنط من سليمان المستعين ، وحينئذ يولي وجهه شطر أحد وزرائه : القاسم بن حمود العلوي ، وكان في ذلك الوقت وزيراً

---

(١) في الأصل : يبال .
(٢) في الأصل : شد .
(٣) الذخيرة ق ١ — ١ / ٥١ .

لسليمان في قرطبة ، ولعل ابن دراج أحس بما كان يدبره العلويون وعلى رأسهم علي بن حمود حاكم سبتة وأخوه القاسم من إطاحة بعرش سليمان وإقامة دولة علوية تخلف دولة المروانيين في حكم الأندلس .

ففي سنة ٤٠٤ (١٠١٤) يمدح ابن دراج القاسم الحمودي بقصيدة أولها :

كم أستطيل تضللي وتـلددي　　　وأروح في ظلم الخطوب وأغتدي

وفيها يصور ماحل به وبأسرته من أهوال الفتنة في أسلوب مؤثر نابض بالألم :

في ستة ضعفوا وضعف عدهم　　　حملا لمبهور الفؤاد مبـلد
شد الجلاء رحالهم فتحملت　　　أفـلاذ قلب بالهموم مبـدد
وحدت بهم صعقات روع شردت　　　أوطانهم في الأرض كل مشرد
لاذات خدرهم يرام لوجهها　　　كن ولاذو مـهدهم بممهـد
عاذوا بلمع الآل في مد الضحى　　　من بعد ظل في القصور ممدد
ورضوا لباس الجود ينهك منهم　　　بالبؤس أبشار النعيم الأرغد

ويبدو أن ابن دراج لم يجد لدى القاسم ما كان يؤمل ، وحينئذ قرر مغادرة قرطبة لأول مرة ، فتوجه في هذه السنة عابراً مضيق جبل طارق إلى أخيه علي ابن حمود بسبتة ، وهناك ينشده لاميته المشهورة التي فضلها ابن بسام على هاشميات الكميت وكـثير عزة وشيعيـات دعبل الخزاعي والسيد الحميري [1] ، وهي التي يستهلهـا بقوله :

---

(١) الذخيرة ق ١ – ١ / ٧٢ ؛ وانظر مقالنا عن « التشيع في الأندلس » – صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد – المجلد الثاني ص ١٣٨ – ١٣٩ .

لملك يا شمس عند الأصيل   شجيت لشجو الغريب الذليل

وقد كانت هذه أول رحلة لابن دراج خارج حدود الأندلس وآخرها على ما يظهر ، ونحن لا نراه يجاوز مدينة سبتة على ساحل الشمال الإفريقي إلى غيرها من بلاد المغرب ، ولا شك في أن سن ابن دراج — وكان قد قارب الستين سنة — وكثرة أبنائه وارتباطه الشديد بوطنه — رغم كل ما لاقاه فيه — كل ذلك لم يكن يسمح لابن دراج بهجرة طويلة المدى عن الأندلس [1] .

ولهذا فسرعان ما يعود من سبتة وقد انقطع رجاؤه أو كاد من الحموديين ودولتهم التي لم تستطع أن تفرض نفسها على الأندلس بل انحصرت في جزء صغير من جنوبي شرقي الجزيرة .

— ٣ —

ولم يجد ابن دراج بعد أن ضاقت به الحال بداً من أن يضرب في مناكب

---

(١) ذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه « عبقرية الشريف الرضى » (١/١٠٣ — ١٠٤) أن في شعر ابن دراج ما يدل على أنه رحل إلى المشرق واستشهد بقوله في مدح خيران العامري :

فإن غربت أرض المغارب موئلي   وأنكرني فيها خليط وخلان

فكم رحبت أرض العراق بمقدمي   وأجزلت البشرى عليّ خراسان

ولسنا نرى في هذين البيتين ما يدل على أية رحلة ، وإنما هى نفثة مصدور ضاقت به بلاده فضاق بها ، وعبر عن سخطه على مصيره بما يشير إليه من ضياعه في الأندلس على الرغم من سيرورة شعره وحفاوة بلاد المشرق به لو أنه عزم على الرحلة إليها .

شبه الجزيرة بحثاً عن مستقر جديد ، وقد اتجه نظره إلى دولة الموالي العامريين أو دولهم بتعبير أصح ، وكان هؤلاء الموالي من الصقالبة الذين خدموا في دولة بني عامر ثم وثبوا على بلاد شرق الأندلس حينما انفرط عقد الخلافة ، فاستبدوا بمدنها واستقل كل منهم بإحدى إماراتها (٢) .

ويظهر لنا أن الذي ساق ابن دراج إلى استرفاد هؤلاء العامريين كان هو الصلة القديمة التي كان يَمُتُّ بها إلى المنصور بن أبي عامر وذريته ، ولعله كان يعرف بعض هؤلاء في أثناء خدمته في بلاط المنصور مما أطمعه في أن يجد لديهم مستقراً يطمئن إليه .

وقد تردد ابن دراج ما بين سنتي ٤٠٤ (١٠١٤) و ٤٠٨ (١٠١٨) بين المرية Almeria وبلنسية Valencia وشاطبة Játiva وطرطوشة Tortosa مادحاً أمراء هذه المدن دون أن يظفر منهم بطائل .

ولعل أول من قصده من هؤلاء الفتيان العامريين كان خيران الذي انتزى على المرية في سنة ٤٠٥ (١٠١٥) وظل يحكمها حتى سنة ٤١٩ (١٠٢٨) ؛ فقد مدحه ابن دراج بقصيدة طارت شهرتها في المشرق والمغرب ، وهي النونية التي أولها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قد آواك عز وسلطان

وهي في الواقع من أجمل مانظم ابن دراج وأصدقه ، ولا نعني بصدقه هنا

---

(٢) عن هؤلاء الموالي العامريين ودولهم في الأندلس انظر بحث الدكتور أحمد مختار العبادي : الصقالبة في إسبانيا (نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٣) ؛ وبحث المؤرخ الإسباني بريتو ڤيقس عن « ملوك الطوائف » ص ٣٣ — ٤١ .

إخلاصه في مدح هذا الصقلبي الذي لم يكن على حظ كبير من تقدير الشعر أو العناية به ، وإنما نعني به تصوير ما جرته الفتنة على الأندلس من ويلات وكوارث ؛ أما خيران فإنه لم يكافىء ابن دراج على مدحه إياه إلا بقدر ماسمحت به جلافة الصقلبي وبعده عن تذوق الأدب ، إذ يذكر الحميدي [1] أنه بخس ابن دراج حظه في الجائزة ؛ فبلغ الخبر أبا جعفر ابن جواد الطبيب ، فقصد الشاعر بخمسة عشر مثقالاً دفعها إليه وقال له : أعذر أخاك فإنه في دار غربة . وقد سارت فعلة خيران هذه حتى ضرب بها المثل ، وبقي صداها يتردد في الأندلس ويتندر به أدباؤها حتى آخر عهد الإسلام بهذه البلاد ، حتى إننا نرى الشاعر الغرناطي الفقيه عمر الزجال يقول لأحد ممدوحيه :

ولا خير إن تجمل كفاء قصيدتي كفاء ابن دراج على مدح خيران[2]

وكان خيران ومنذر بن يحيى التجيبي قد اصطلحا في هذا الوقت سنة ٤٠٧ (١٠١٧) بأمر عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالمرتضى زعيم الحزب الأموي ، فبايعاه على الخلافة خالعين طاعة علي بن حمود ، وجمعا له جيشاً كبيراً انضم إليه بعض الافرنج من أهل برشلونة وتوجهوا إلى غرناطة حيث تجمع البربر تحت لواء زاوي بن زيري الصنهاجي ، وفي هذه المناسبة مدح ابن دراج عبد الرحمن المرتضى بداليته التي مطلعها :

جهادك حكم الله من ذا يرده ؟ وعزمك أمر الله من ذا يصده

وقد اختص الشاعر منذر بن يحيى بجانب كبير من هذه القصيدة ، ولعله كان

---

(١) جذوة المقتبس ص ٣٧٠ (ترجمة ٩٢٩) .

(٢) انظر المقري : أزهار الرياض ١ / ١٢٠ .

يبيت في نفسه منذ ذلك الحين التوجه إلى منذر في سرقسطة للاختصاص به .

ولم ير ابن دراج بدا من ترك المرية والتوجه إلى بلنسية حيث كان يحكم مبارك ومظفر ، وهما خصيان من موالي المنصور العامري كان شأنهما قد ارتفع حتى تسلطا على إمارة بلنسية ، ولعل ابن دراج أمل لديهما ما كان المتنبي قد أمله في كافور الإخشيدي حين قصده بعد مفارقته لسيف الدولة . وقد احتفظ لنا الديوان في مدحهما بقصيدتين مطلع الأولى :

أنورك أم أوقدت بالليل نارك   لباغ قراك أو لباغ جوارك

أما الثانية فقد قالها حينما دعيا إلى ولاية طليطلة Toledo [1] وأولها :

اهنيكما ما يهنىء الدين منكما   هدى وندى فليسلم الدين واسلما

ولم يقتصر ابن دراج على مدح هذين الصقلبيين أميري بلنسية ، بل إنه توجه كذلك إلى بعض أصاغر الأمراء ممن كانوا يدينون بالطاعة لهذين ، فإننا نرى في الديوان قصيدة له في مدح لبيب العامري صاحب طرطوشة مطلعها :

هل تثنين غروب دمع ساكب   من شام بارقة الغمام الصائب

---

(١) لم نجد في المراجع التاريخية التي كتبت عن هذه الفترة من حكم ملوك الطوائف تفصيلا لما ذكره جامع الديوان وما تدل عليه قصيدة ابن دراج هذه من دعوة مبارك ومظفر لولاية طليطلة ، ولعل ذلك حدث بعد خلع أهل طليطلة لعبد الملك بن عبد الرحمن بن متيوه ، فالمؤرخون يذكرون أنه قد أعقبت ذلك فترة من الاضطراب السياسي في هذه المدينة لم تنته إلا بولاية اسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون ، ولعل دعوة مبارك ومظفر لحكم طليطلة وقعت بين هذين الحدثين ، والذي نعرفه أن أميري بلنسية هذين لم يصلا في النهاية إلى حكم طليطلة (انظر ابن عذاري : البيان المغرب ٣/٢٧٦ - ٢٧٧) .

وفيها يذكر بما يربط بينهما من خدمة الدولة العامرية :

بيني وبينـك أن يابي دعوتي   داعي « لبيب » من مناخ ركائبي
وأشيم برق يمينه وجبينـه   ويشم ريح أواصري ومطالبي
وأهزه بشوافـع مـن عامر   تزري بكل قرابة ومناسب

كذلك مدح ابن دراج الفتح بن أفلح صاحب شاطبة بقصيدة أولها :

أرحلي محمول على العتق النجب   يؤمك أم سار على القتم النكب

وهكذا نرى كيف تردد القسطلي على هؤلاء الموالي العامريين دون أن يجد منهم أذناً مصغية أو يداً رفيقـة ، وما أحسن ما صور ابن بسام هذه الوفادات حين قال :

« . . . فـكم له من وفادة أخزى من وفادة البرجمي ، ووسيلة أضيـع من المصحف في بيت الزنديق الأمي ، بقصائد لومدح بها الزمان لما جار ، أو رواها الزبرقان لأمن من السرار . . . »(1)

د ـــ في بلاط التجيبيين ملوك سرقسطة

وأخيراً يتجه ابن دراج إلى سرقسطة حيث كان منذر بن يحيى التجيبي قائماً بالأمر بعد نحو ثماني سنوات من التغرب والتشرد ، ولعل هذه السنوات العجاف كانت أعصب فترة مرت على حياة ابن دراج ؛ أما منذر بن يحيى فقد رأينا كيف اتصل به أبو عمر القسطلي من قبـل وأسبغ عليه مدحه حينما قصد عبـد الرحمن

(1) الذخيرة ق ٣ ـــ ا ب (مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد) .

المرتضى في سنة ٤٠٧ (١٠١٧) ، وربما كانت هذه الصلة هي التي شجعت ابن دراج على التوجه إلى منذر بعد أن أعيت وسائله لدى الفتيان العامريين .

وقد كانت أول قصائده في مدح منذر عند قدومه على سرقسطة في سنة ٤٠٨ (١٠١٨) هي الرائية التي استهلها بقوله :

بشراك من طول الترحل والسرى صبح بروح السفر لاح فأسفرا

ولم يخب أمل ابن دراج في هذه المرة ، فقد أتيح له في سرقسطة جو من الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة ، وفي بلاط منذر التجيبي وابنه يحيى قضى ابن دراج نحو عشر سنوات تمتع خلالها ببعض الهدوء والنعمة ، وإلى هذين الملكين وجه ابن دراج شطراً كبيراً يبلغ نحو الثلث من إنتاجه الشعري .

وقد كان منذر على نصيب من الأدب حمله على العناية بالشعراء والعلماء ، ولا ريب أنه قدر ما في إيوائه لشاعر مثل ابن دراج من إشادة بذكره بين ملوك الطوائف ؛ أما ابن دراج فلعله رأى في حياته في ظل التجيبيين صورة — مصغرة بلا شك — من حياته الماضية في رحاب العامريين حين كان شاعر دولتهم « الرسمي » وكاتب الرسائل في ديوانهم .

على أن ابن دراج كان يستبد به — ولا سيما في فترة مقامه الأولى بسرقسطة — شعور الحنين إلى أيامه الذاهبة في قرطبة ، مما جعل قصائده الأولى على الرغم مما فيها من سرور بحياته الجديدة المستقرة تفيض بالألم والحزن :

قل للربيع اسحب ملاء سحائب فاجرر ذيولك في مجر ذوائبي
لا تكذبن ومن ورائك أدمعي مدداً إليك بفيض دمع ساكب

. . . . .

واجنح لقرطبة فعانق تربها عني بمثل جوانحي وترائبي

حيث استكانت للعفاء منازلي وهوت بأفلاذ الفؤاد ركائبي
من كل مفجوع بترحة راحل لم يسله طمع بفرحة آيب
كذبته بارقة المنى عن صادق من ظنه وصدقنه عن كاذب
ظعن سرين الليل ضربة لازم وسرى إليها الهم ضربة لازب
جمدت عليهن القلوب فأبرزت عن أعين بدمائهن سواكب

وهو ينظر إلى وراء ويستعرض حياته في خلال الفتنة وما لاقاه من شدة في تلك الأيام فلا يملك إلا أن ينفث هذه الزفرة :

ويالك من ذكرى سناء ورفعة إذا وضعوا في الترب أيمن جنبيا
وفاحت ليالي الدهر مني ميتا فأخزين أياماً دفنت بها حيا
وكان ضياعي حسرة وتندما إذا لم يفد شيئاً ولم يغنني شيا
وأصبحت في دار الغنى من ذوي الغنى وعوضت فاستقبلت أسعد يوميا
سوى حسرتي عرض ووجه تضمضما القارعة البلوى وكانا عتاديا

ثم يتعود ابن دراج على حياته الجديدة ويعيد في ظل منذر بن يحيى عهده مع المنصور بن أبي عامر ، فلا يكاد يدع مناسبة تمر إلا وأنشد فيها شيئاً ، وقد كان لمنذر نصيب من جهاد المسيحيين المصاقبين لملكته ، ووجد ابن دراج في ذلك متنفساً لشعره كما كان يجد في غزوات العامريين لمن جاورهم من الممالك النصرانية ومن أجمل قصائده في ذلك تلك التي يستهلها بقوله :

أهل بالبين فانهلت مدامعه وآنس النفر فاستكت مسامعه

وأخرى مدحه بها وقد انصرف من إحدى غزواته أولها :

نعم يبشر بدؤهـا بتمام فتح القـدوم ونصرة الإقـدام

وقد كانَ لسياسة منذر التجيبي مع جيرانه من الأمراء المسلمين والنصارى على السواء صدى في شعر ابن دراج ، ولعل أهم الأحداث التي وقعت في عهده ذلك الصهر الذي تولى منذر عقده بين جاريه المسيحيين قومس برشلونة ريمند بن بريل Ramón Borrell وقومس قشتالة شانجه بن غرسية بن فرذلند Sancho Garcés III على أساس أن يتزوج ابن الأول من ابنة الثاني ، ويذكر ابن حيان في معرض الحديث عن هـذا الصهر أن ألسنة المسلمين قرفت منذراً لتوسطه في تأليف شمل الإمارتين المسيحيتين ، على أن ابن حيان دافع عن منذر بهذه المناسبة وقال إنه كان أحصف ممن قدح فيه فقد وفر لبلاده جوا من السلام والطمأنينة ولم ينتفع الملـكان المسيحيان بصهرهما[1] .

وقد مدح القسطلي منذراً في هذه المناسبة بعدة قصائد من أروع شعره السياسي وأجمله ، ومن خيرها تلك الميميه الطويلة التي يبدو أنه أراد أن يعارض بها إحدى قصائد المتنبي[2] في سيف الدولة وأولها :

لعل سنا البرق الذي أنا شائم يهيم من الدنيا بمن أنا هائم

وقصيدته الأخرى التي أولها :

عمـرت بطول بقائك الأعمـار وجرت برفعة قـدرك الأقدار

كذلك وصف ابن دراج سفارات أمراء المسيحيين على سرقسطة كما فعل من

(١) انظر ابن بسام : الذخيرة ق ١ – ١ / ١٥٤ ؛ ابن عذاري : البيان ٣ / ١٧٧ .

(٢) على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

من قبل أيام المنصور ، ومن ذلك قصيدته في ذكر وفود الأمير ابن ميره عليه :

عجبـا لغي الحب لاح سبيله ولرشد حلمك كيف ضل دليله

ويبدو أن ابن دراج قد أتيح له شيء من اليسار والثروة في خـلال إقامته بسرقسطة ، فنحن نعرف من شعره أنه اقتنى ضياعاً وجنانا يتحدث عنهما في قصيدتين أرسلهما إلى قاضي سرقسطة يحتج على زيادة الضرائب على هذه الضياع ، وهمـا قصيدتان أشبه بالرسائل منهما بالشعر .

ولمـا مات منذر بن يحيي في سنـة ٤١٢ (١٠٢٢) وخلفـه على عرش سرقسطة ابنه يحيي[٣] بقي ابن دراج في كنف الأمير الجـديد على حاله الأول

---

(٣) حول منذر بن يحيى التجيبي وسنوات حكمه وحكم ابنه يحيى من بعده خلاف كبير بين المؤرخين واضطراب في أقوالهم مما أوقع الباحثين المحدثين كذلك في خلاف واضطراب أشد ، حتى ظن الكثيرون أنه لم يكن هناك من التجيبيين إلا ملك واحد هو منذر بن يحيى ، وجعل هؤلاء مدة حـكمه ممتدة بين سنتي ٤٠٨ و ٤٣٠ حين اغتاله على قولهم عبد الله بن حـكم ، وظن آخرون أنه لم يحكم سرقسطة إلا منذر هـذا ثم ابنه يحيي بن منذر دون أن يهتدوا إلى تحديد سنوات ولايتها ووفاتها ، وليس هذا مجال بحث الخلاف حول هذه المسألة ، ويكفي أن نذكر هنا أن التجيبيين ملوك سرقسطة قبل دولة بني هود كانوا ثلاثة : الأول منذر بن يحيى وقد استقل بحـكم سرقسطة منذ سنة ٤٠٨ حتى سنة ٤١٢ ؛ وخلفه بعده ابنه يحيى بن منذر الذي حكم بين سنتي ٤١٢ و ٤٢٧ ، وثالثهم هو منذر بن يحيى (الثاني) وحكم بين ٤٢٧ و ٤٣٠ حين اغتاله عبد الله بن حكم منهيا بذلك حـكـم التجيبيين في سرقسطة في خبر مشهور متناقل عن ابن حيـان (انظر الذخيرة ق ١ ـ ١ / ١٥٦ ـ ١٥٨ ؛ ابن عذاري : البيـان ٣/١٧٨ ـ ١٨١ ؛ ابن الخطيب : الأعمال ص ١٩٦ ـ ١٩٧) ، وقـد لبث ابن دراج في سرقسطة طوال مدة منذر الأول ثم شطراً من امارة يحيى بن منذر ، ــ

مادحاً له مسجلا كل ما وقع في عهده من أحداث مهمة من غزوة أو سفارة أو ما إلى ذلك ، هذا فضلا عما كان معتاداً عليه من شعر المناسبات والتهنئات ومقطعات أخرى غنائية .

وقد كان لابن دراج — فضلاً عن هذين الأميرين التجيبيين — صلة وثيقة ببعض رجالات سرقسطة نذكر منهم الكاتب ابن ازرق الذي كان من جملة من تولوا العمل في ديوان الرسائل هناك (١) ، وكذلك القائد ابن باق الذي كان على ما يبدو من شعر ابن دراج من أعظم القواد والوزراء على عهد التجيبيين (٢) .

على أن العلاقة بين ابن دراج ويحيى أصابها شيء من الفتور لأسباب لا نعرفها على وجه التحقيق ، ولعل الأمير لم يعامل الشاعر بمثل ما كان يعامله به أبوه منذر ابن يحيى ، وقد باح ابن دراج بذلك في قصيدة وجهها إلى صديقه القائد ابن

= أما منذر الثاني فلم يدركه القسطلي وإن كان قد أشار إليه في بعض مدائحه لأبيه يحيى وكان حينئذ ولي عهده . وأما هذا التحديد التاريخي وهو ما لم يرد في أي مرجع تاريخي من المراجع المنشورة حتى الآن فقد تفضل بإطلاعي عليه أستاذنا الكريم الدكتور عبد العزيز الأهواني نقلا عن مخطوطة للعذري يعدها الآن للنشر ، ونحن نغتنم هذه الفرصة لنقدم للأستاذ الدكتور الأهواني خالص الشكر على هذه الفائدة القيمة .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ١٧٧ ؛ وابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ١٥٤ .

(٢) لم يرد في المراجع التاريخية شيء عن القائد ابن باق هذا ، على أننا عثرنا على إشارة عابرة إلى قائد كاتب يدعى أحمد بن محمد بن باق كان واليا على « مدينة سالم Medinaceli » وبها قتل في سنة ٤١٩ أو ٤٢٠ ، وربما كان هذا هو الذي يعنيه ابن دراج (انظر ابن الأبار التكملة ص ٤١)

باق ، وتحدث فيها بكثير من الامتنان عن شعره الذي ظفر به « قِدْح مليكي نجيب » (يعني منذراً وابنه يحيى) ، إلا أنه يشكو من إضاعة يحيى لحقه وإلوائه بجزائه :

فهل في الورى غير سمع شهيد يلبيه كل فؤاد لبيب
بأن لم يفز قبلها مُلْكُ مَلْكٍ بقدح كقدح مليكي نجيب
فأنجب بمورثه من مليك وأسعد بوارثه من نجيب
وأعجب بأوفى مليك أضاع من الذكر والفخر أوفى نصيب

وقد بلغ به الضيق أن هدد بفراق جوار يحيى بن منذر ، وطلب من ابن باق أن ينهي ذلك إلى الأمير :

فإن تنه عني فأولى مجاب دعا للمكارم أهدى مجيب
وكنت بذلك أحظى مثاب له من ثنائي أوفى مثيب
ومن يمنع الضيف رحب الفناء فقد قاده للفضاء الرحيب

هـ — تغرب جديد

لا تمدنا المراجع بأي تفصيل عن الأيام الأخيرة لإقامة ابن دراج في سرقسطة ويفهم من نص لابن حيان أنه قضى آخر سنوات حياته في هذا البلد في كنف يحيى بن منذر التجيبي إذ يقول : « فلم يزل عنده [أي عند منذر] وعند ابنه بعده مادحاً لها ، مثنياً عليها غير باغٍ بدلاً بجوارهما إلى أن مضى لسبيله »[1] ؛

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ – ١ / ٤٤ .

غير أنه يبدو لنا أن ابن دراج قد ضاق أخيراً بمقامه في سرقسطة كما سبق أن أوضحنا ، وقد رأينا كيف جرى ذلك على لسانه في قصيدته التي أرسلها إلى ابن باق معرضاً له بمغادرة سرقسطة . ويظهر أنه اضطر أخيراً إلى ذلك بالفعل ، فنحن لا نلبث أن نراه بعد ذلك في دانية Denia مادحاً أميرها مجاهد العامري في سنة ٤١٩ (١٠٢٨) على ما نفهم من كلام جامع الديوان .

ولا بد أن شيئاً خطيراً هو الذي دفع ابن دراج إلى هذه الرحلة وهو قد ناهز السبعين من عمره ، ونحن نحس صدى لذلك في مطلع قصيدته في مدح مجاهد :

إلى أي ذكر بعد ذكراك أرتاح ؟ ومن أي بحر بعد بحرك أمتاح ؟

فهو يرى في مجاهد آخر أمل له بعد أن أدركه اليأس ، ولعل في قوله هذا تعريضاً بممدوحه السابق يحيى بن منذر الذي « أضاع من الفخر أوفى نصيب » كما قال بتضييقه على الشاعر وتقصيره في إيوائه .

وهو يعود إلى الحديث في هذه القصيدة عما ألم به من خطوب ألجأته إلى حضرة مجاهد :

إليها حدتني حادثات كأنها بوارح يحدوهن برح وأبراح

ولسنا نعلم كنه هذه « الحادثات » إلا أننا لا نستبعد أن تكون العلاقات قد ساءت بينه وبين يحيى بن منذر إلى حد أنه خافه على حياته ، فقرر الهجرة من سرقسطة ، وعاد مرة أخرى إلى الاستجارة بأحد الموالي العامريين ، وكان في هذه المرة مجاهداً العامري ، ولعل ابن دراج بلغته أنباء إكرام مجاهد للعلماء وحفاوته بهم ، مما هو ثابت في المراجع الأدبية الأندلسية ، فقد وفد عليه صاعد البغدادي

زميل ابن دراج في بلاط العامريين بقرطبة والتجيبيين بسرقسطة من قبل [1] ، وأبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني [2] ، وبلغ من إكرامه لأدباء دولته أن عرض على أحد علماء اللغة ألف دينار على أن يقول في مقدمة كتابه إنه مما ألفه له [3] بل إن مجاهداً نفسه كان من أكثر ملوك الطوائف علماً ومعرفة وأدباً ، ويذكر أنه شارك في التأليف إذ يقول الحميدي إن له كتاباً في العروض يدل على قوته فيه [4] ، ويضيف ابن حيان إلى ذلك أنه كان أشد الناس في الشعر لا يزال يتعقبه على القائل كلمة كلمة مما جعل الشعراء يقصرون عن مدحه [5] ، على أننا لا نظن ذلك كان مقعداً لابن دراج عن مدحه ، فقد كان له من مكانته الأدبية وشهرته لا سيما في آخر عمره مالا يتهيب معه قصد هـذا الأمير الناقد الأديب .

ولسنا نعلم كم من الوقت قضى ابن دراج في كنف مجاهد ، وربما كان الأرجح أنه توفى هناك في دانية ، وإذا صح ذلك فإن مقامه كان في هذه المدينة نحواً من سنتين ، فنحن نعلم أنه توفي في ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الثانية سنة ٤٢١ (٢٢ يونية سنة ١٠٣٠) [6] ؛ وربما كان مما يرجح

---

(١) الحميدي : الجذوة ص ١٧١ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١ / ٤ - ٥ .

(٢) الجذوه ص ١٧٣ ؛ والذخيرة ق ٤ - ١ / ٩٧ .

(٣) الجذوة ص ١٧٢ ، وابن بشكوال ، ترجمة ١٢٥ .

(٤) الجذوة ص ٣٣١ - ٣٣٢ (ترجمة مجاهد ، رقم ٨٢٩) .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ١٥٦ ، وانظر بحث الدكتور مختار العبادي : « الصقالبة في إسبانيا » ص ٢١ - ٢٦ .

(٦) احتفظ لنا بهذا التاريخ ابن خلكان في وفيات الأعيان ١ / ١٢٢ .

وفاة ابن دراج في دانية أن الابن الوحيد الذي احتفظت كتب التراجم لنا ببعض أخباره من ولد ابن دراج وهو الفضل بن أحمد كان من شعراء إقبال الدولة علي ابن مجاهد [1] الذي حكم دانية والجزائر الشرقية بعد وفاة أبيه ممدوح ابن دراج في سنة ٤٣٦ (١٠٤٤ — ١٠٤٥) .

* * *

وهكذا انتهت أيام ابن دراج « سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين » بعد أن « طرحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرته إلى النجعة ، فاستقرى ملوكهم أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى [2] » على حد قول ابن حيان ، مخلفاً لنا في ديوان شعره الذي نقدمه الآن ما يصور حياة الأندلس في « يومي نعيمها وبؤسها » ، في أوج عزتها وعظمتها على أيدي العامريين ثم عند انهيارها وإلواء المحن بها منذ أن ساقت نوازع البطر وتفرق الكلمة أهل الأندلس إلى تحطيم أركان الدولة العامرية .

---

(١) انظر : الحميدي : الجذوة ترجمة ٧٥٦ ؛ وابن بشكوال : الصلة ترجمة ٩٩٢ ؛ والضبي : بغية الملتمس ، ترجمة ١٢٨٢ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ٤٤ .

ديوان

ابن درّاج القسطلي

أ — روايات الديوان

ليس في نيتنا التحدث هنا عن فن ابن دراج [1] ، فموضع ذلك الدراسة التفصيلية التي نعدها عن الشاعر ، وانما سنكتفي بالإشارة إلى روايات ديوانه المختلفة كما نصت على ذلك المراجع التي تحدثت عنه .

وقد ذاع صيت ابن دراج وتنوقل شعره في حياته في جميع انحاء العالم الإسلامي كما يبدو من اختيار معاصره أبي منصور الثعالبي النيسابوري جملة كبيرة

---

(١) جمع الأستاذ بلاشير فى بحثه الذي تكررت الإشارة إليه في هذا التقديم أوفى بيان حتى الآن عن آراء النقاد القدماء المشارقة والأندلسيين والنقاد المحدثين في شعر ابن دراج (ص ١١٥ — ١٢١) ، وعلى بلاشير اعتمد من كتب بعد ذلك عن ابن دراج مثل جونثالث بالنثيا (تاريخ الفكر الأندلسي — ترجمة الدكتور حسين مؤنس — ص ٦١ ، ٦٥ — ٦٦ ، ٢٤٠) ، ونيكل : الشعر الأندلسي ص ٥٦ — ٥٨ ، وانظر من الأبحاث العربية الحديثة : الدكتور إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٢٠٥ — ٢١٣ ، والدكتور أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٣٤٣ — ٣٥٧ .

من شعره وهو بعد على قيد الحياة [1] ، إذ أن ذلك يدلنا على أن مجموعة من شعر ابن دراج كانت مدونة ومتداولة في ذلك الوقت ، وأن الأدباء الأندلسيين الراحلين إلى المشرق في ذلك الوقت كانوا يتزودون بها لتعريف المشارقه بمكانة شاعرهم الأندلسي « متنبي المغرب » كما كانوا يطلقون عليه .

وأوفى ما وصلنا عن الروايات المختلفة لديوان ابن دراج هو ما سجله أبو بكر ابن خير الإشبيلي (توفى سنة ٥٧٥ هـ .) في « فهرسة ما رواه عن شيوخه » [2] وسنورد جدولا تخطيطياً لروايات الديوان كما وصلت إلى ابن خير نفسه .

ومن هذا الجدول نرى أن ابن خير الإشبيلي الذي عاش في القرن السادس الهجري قد توفرت لديه ثلاث روايات للديوان :

أ — أولاها عن شريح بن محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي خطيب إشبيلية وقاضيها ، وكان من المكثرين من الرواية عن المفكر الأندلسي العظيم ابن حزم القرطبي ، وتوفي شريح هذا في سنة ٥٣٩ هـ [3] أما روايته للديوان فكانت بطريق الإجازة عن أستاذه ابن حزم الذي رواه بدوره عن ناظمه ابن دراج .

ب — والثانية عن أبي الحكم عبد الرحمن بن عبد الملك بن غشليان السرقسطي ، وكان والياً للأحكام في مالقة واشتغل بالتدريس في قرطبة ، وكانت وفاته في سنة ٥٤١ هـ . [4] أما ابن غشليان هذا فقد روى الديوان عن أبي عبد

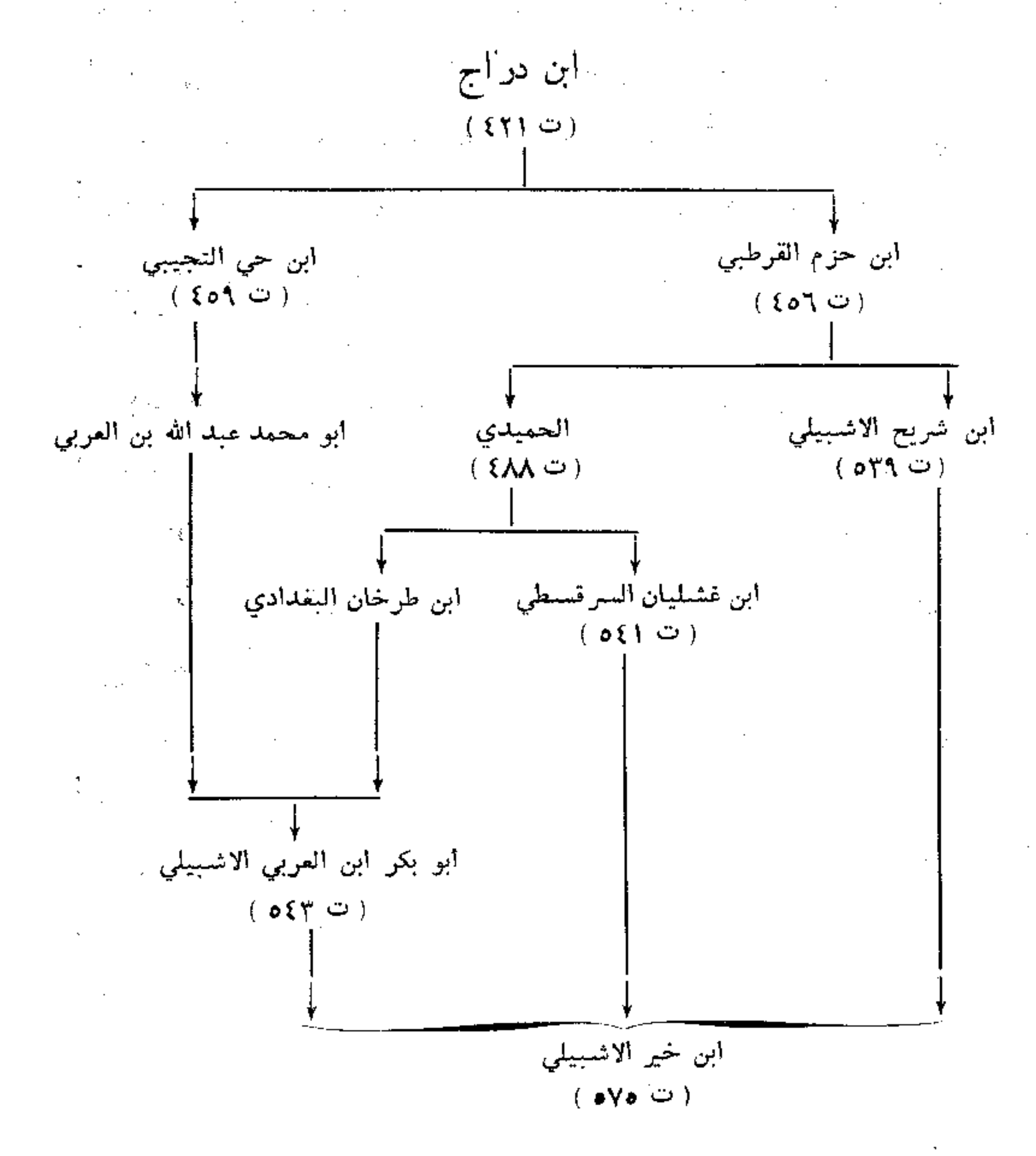
---

(١) انظر يتيمة الدهر ٢ / ١٠٣ — ١١٦

(٢) ص ٤١٤ — ٤١٥ .

(٣) انظر ترجمته في ابن بشكوال : الصلة ترجمة ٥٣١ ، الضبي : البغية ، ترجمة ٨٤٩ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ٧٥٠ ، الضبي : البغية ترجمة ١٠٣١ ، ابن الأبار : معجم أبي علي الصدفي ترجمة ١٥ .



روايات ديوان ابن دراج

كما وصلت الى ابن خير الإشبيلي

(في القرن السادس الهجري)

الله محمد بن فتوح الحميدي صاحب كتاب « جذوة المقتبس » ثم تلتقي هـذه الرواية بالتي ذكرناها قبل ، إذ أن كلتيهما ترتفع إلى ابن حزم القرطبي .

حـ — وأما الرواية الثالثة فيأخذها ابن خير عن العالم الأندلسي المعروف القاضي أبي بكر ابن العربي الإشبيلي . وقد ولد ابن العربي في سنة ٤٨٥ ودخل بغداد فسمع فيها من جماعة كبيرة من علماء المشرق ثم عاد إلى الأندلس فتوفي بها سنة ٥٤٣ (١) . ولابن العربي هذا روايتان للديوان :

إحداهما أندلسية خالصة ، إذ هو يرويه عن أبيه (٢) عن أبي عمر أحمد بن الحسين بن حي التجيبي ، وهو عالم قرطبي الأصل ولد في سنة ٣٨٩ ، وكان ينظر في الأحكام بقرطبة أيام الفتنة ثم انتقل إلى إشبيلية وانتهى به المطاف أخيراً إلى سرقسطة ، فتوفي بها سنة ٤٥٩ (٣) ، وقد نقل ابن حي الديوان عن ابن دراج نفسه .

وأما الثانية فإنها رواية مشرقية أندلسية معاً ، إذ أن أبا بكر ابن العربي أخذها عن العالم البغدادي أبي بكر محمد بن طرخان ، وكان من أساتذته في بغداد حين دخلها في رحلته التي أشرنا إليها ، أما ابن طرخان فقد أخذ الديوان عن أستاذه الأندلسي الحميدي الذي نعرف عنه أنه رحل إلى المشرق في سنة ٤٤٨ وأقام ببغداد حتى توفي بها سنة ٤٨٨ ، وهناك في العراق ألف كتابه « جـذوة

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١١٨١ .

(٢) كان عبد الله ابن العربي من المقربين إلى ابن عباد صاحب إشبيلية ، وتوفي في رحلته إلى المشرق أثناء إقامته بمصر - انظر الضبي : البغية ترجمة ٨٩١ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١٢٥

المقتبس[1] » ، ويروي الحميدي الديوان عن ابن حزم عن ابن دراج .

ونحن نستدل من الجدول الذي فصلنا الحديث عنه على الكثير : فمنه نعرف أن من أكثر روايات الديوان شهرة في القرن السادس الهجري — على الأقل فيما اعتمده أبو بكر ابن خير — روايتين تنتهيان إلى تلميذين من تلاميذ ابن دراج : أحدهما ابن حزم القرطبي ، وكان من أشد المتصلين بالشاعر تفضيلاً له وإعجاباً به ، وأما الآخر فهو ابن حي التجيبي السرقسطي .

أما ابن حزم فلسنا نعرف متى روى الديوان عنه ، ولعله روى بعض شعره في قرطبة قبل وقوع الفتنة ، وكان ابن دراج في ذلك الوقت قد جاوز حد الكهولة وكانت مكانته لدى العامريين قد رسخت وتوطدت ، أما ابن حزم فكان شاباً دون العشرين لا يزال في مرحلة الطلب ، على أننا نرجح أن صلة ابن حزم بابن دراج توثقت بين سنتي ٤٠٧ و ٤٠٨ في الوقت الذي انحصر بين توجه الشاعر إلى المرية لمدح خيران العامري واتصاله بعبد الرحمن بن محمد المتلقب بالمرتضى ممدوح ابن دراج أيضاً ، فنحن نعلم أن ابن حزم تنقل في هذه الفترة كذلك بين المرية وبلنسية مؤيداً عبد الرحمن الأموي في حركته التي حاول بها إعادة الخلافة الأموية[2] ، وهي تلك الحركة التي تحطمت أخيراً على أسوار غرناطة في سنة ٤٠٩[3] ، وإذا كان ما نفترضه صحيحاً فإن رواية ابن حزم هذه لديوان

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١١١٤ ؛ الضبي : البغية ترجمة ٢٥٧ ؛ المقري : النفح ٢ / ٣١٤ - ٣١٦ (ط . القاهرة) .

(٢) انظر طوق الحمامة ص ١١٨ ، وكذلك مقدمة الأستاذ غرسية غومس لترجمته الإسبانية لكتاب الطوق ص ١١ - ١٢ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ١٢٥ - ١٢٧ .

ابن دراج لم تكن كاملة إذ لم تتضمن ما قاله الشاعر في ظل التجيبيين أصحاب سرقسطة ، وهو جانب كبير من شعره إلا إذا افترضنا أن ابن حزم التقى بابن دراج بعد ذلك في ظروف لم نتحقق من الإلمام بها أو الاطلاع عليها ، أو أن يكون الشاعر قد كتب إلى ابن حزم مجيزاً له رواية ديوانه بغير أن يلقاه .

ونأخذ من جدول ابن خير أيضاً أن الحميدي تلميذ ابن حزم وصاحب « جذوة المقتبس » كان له فضل كبير في إذاعة ديوان القسطلي في المشرق والأندلس على السواء ، فقد تناقله عنه علماء بغداد حيث كان مستقره بعد هجرته من بلاده ، ومن بين هؤلاء فيما نعرف أبو بكر محمد بن طرخان الذي أشرنا إليه ، ومن الطريف أن نرى أندلسياً متأخراً هو أبو بكر ابن العربي الإشبيلي يقدم إلى بغداد ليأخذ عن ابن طرخان هذا ديوان شاعرنا الأندلسي ويعود به إلى بلاده ، وكأنه يعيد إلى ذاكرتنا ماسبق أن قاله الصاحب بن عباد حين اطلع على كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه : « بضاعتنا ردت إلينا » .

كذلك اهتم الأندلسيون الراحلون إلى المشرق بتتبع ديوانهم عن مواطنهم الحميدي هناك كما نرى من رواية ابن غشليان السرقسطي له عن هذا العالم .

وإذا كان لابن حزم فضل في نشر ديوان القسطلي في المشرق عن طريق تلميذه الحميدي ، فإليه كذلك يرجع جانب كبير من إذاعته بالأندلس ، فقد رواه عنه هناك ابن شريح الإشبيلي وعن طريقه تناقله العلماء الاندلسيون .

كذلك نرى من هذا الجدول أن أدباء سرقسطة بوجه خاص اهتموا برواية ديوان ابن دراج والعناية به ، فنحن نرى أن أحد رواته عن الشاعر نفسه كان أبا عمر أحمد بن الحسين بن حي التجيبي الذي أقام بالثغر الأعلى بأخرة من عمره

ولعل روايته كانت أكمل من رواية ابن حزم [1] ، فنحن نعرف أن ابن دراج قضى السنوات الأخيرة من حياته في هذا البلد ، ولعله كان يملي في ذلك الوقت الرواية النهائية لشعره بعد تهذيبه وتنقيحه .

فمن المحقق أن ابن دراج كان في آخر عمره قد تصدر لتدريس اللغة والأدب والأنساب في سرقسطة [2] ، وقد نقل إلينا ابن الأبار في كتابه « التكملة » أسماء عدد من أدباء هذا البلد ممن أحاطوا بابن دراج وأخذوا عنه هنالك : من بينهم محمد بن ميمون القرشي السرقسطي وكان من أهل العلم بالعربية والآداب [3] ، والكاتب أبو الفرج مظفر السرقسطي الذي استقر أخيراً في غرناطة [4] ، وعبد الملك بن هشام التجيبي السرقسطي [5] .

بل إن أديباً أصله من وشقة Huesca هو محمد بن ابراهيم القيسي عني في أثناء

---

(١) هذا ويجدر بنا أن نذكر أن ابن حي التجيبي المذكور كان له ولد اسمه الحسين خرج من الأندلس سنة ٤٢٢ ولحق بمصر واليمن والعراق ، وكانت وفاته باليمن سنة ٤٥٦ (انظر ابن الأبار : التكملة ـ ترجمة ٧٧) ، ولسنا نستبعد أن يكون الحسين بن حي هذا قد ساهم أيضاً في نشر ديوان ابن دراج في المشرق رواية عن أبيه .

(٢) يقول ابن فضل الله العمري في ترجمته : « إلى أن أقام بسرقطسة ... يعلم اللغة والنسب ، ويعيد ندى أندية العرب » (مسالك الأبصار ـ مخطوطة دار الكتب ١١ / ٢٠١) .

(٣) التكملة ـ ترجمة ٤٥٨ .

(٤) التكملة ـ ترجمة ١١٢٤ .

(٥) التكملة ـ ترجمة ١٦٩٥ .

إقامته بسرقسطة بجمع شعر ابن دراج وترتيبه على حروف المعجم ، وذلك في سنة ٤٦٧ ، ويضيف ابن الأبار إلى ذلك أن هذا الأديب زاد في الديوان كثيراً على ما بأيدي الناس ، وأنه (أي ابن الأبار) رآه بخطه في بلنسية سنة ٦٣٥ أي قبل سقوط المدينة في أيدي المسيحيين بفترة وجيزة [1] .

وقد نص ابن خلكان فيما ذكره بين يدي ما اختاره من شعر ابن دراج أنه نقله من ديوانه الذي يتألف من جزأين [2] ، ولعل نسخة هذا الديوان التي كانت سائرة متداولة في أيام ابن خلكان إنما كانت عن إحدى الروايات المشرقية المتناقلة هناك كما رأينا .

ب ـــ المخطوط

أما النسخة المخطوطة التي اعتمدنا عليها في نشر الديوان فلسنا نعرف على أي الروايات التي ذكرناها تستند ، إذ هي مبتورة الأول والآخر ، وقد ذهب منها لأجل ذلك اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، والشعر فيها غير مرتب لا على أساس الحروف الأبجدية ، ولا على أي أساس آخر تاريخي أو موضوعي ، وقد آثرنا أن نترك هذا الترتيب على ما هو عليه حتى لا ندخل كثيراً من التعديل على نظام الديوان ، ثم إن في الفهارس الملحقة به ما يغني عن ذلك .

وقد كانت هذه النسخة المخطوطة بالمكتبة الزيدانية في المغرب الأقصى ، وهي تحمل ورقة وضعت في أول الديوان يبدو أن أحد أمناء هذه المكتبة قد سجل فيها ملاحظة حول المخطوط ننقلها هنا بنصها :

---

(١) التكملة ـ ترجمة ٤٨٧ .

(٢) وفيات الأعيان ١ / ١١٧ .

ديوان

أحمد بن محمد بن دراج القسطلي

(المولود سنة ٣٤٧ هـ . المتوفى ٤٢١ / ٩٥٨ — ١٠٣٠)

« مبتور الأول والأخير ، يبتدىء من الورقة الرابعة بقوله :

كما رفع الآل الهوادج بالضحى غـداة استقلت بالخليط حمول

تنقصه أوراق من ٢١ إلى ٢٦ وورقة ٥١ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٩٠ ؛ الموجودة من ورقاته ١٢٣ ؛ مسطرته ٢٥ ؛ مقياسه ٢٥٠ × ١٩٠ [مليمتراً] ؛ مكتوب بخط مغربي جيد ؛ نسخة المكتبة الزيدانية .

تكلم عن صاحب الديوان ابن خلكان : الجزء الأول ص ٤٢ ؛ والذخيرة لابن بسام : الجزء الأول ص ٤٣ ؛ الأعلام للزركلي ، الجزء الأول ص ٢٠٤ » .

وهذه الملاحظة صحيحة فيما يتعلق بعدد أوراق المخطوطة ومقاييسها ومسطرتها أما الناقص من عدد أوراقها — فضلاً عن كون النسخة مبتورة الأول والآخر — فإنه يبدو لنا أكثر مما ذكر ، فهناك مواضع أخرى بخلاف ما نص عليه هنا سقطت فيها أوراق من الديوان بغير شك على الرغم من انتظام الترقيم وتسلسله (وقد نبهنا على ذلك في موضعه) ، وهذا يدلنا على أن الترقيم الذي وضع على الأطراف العليا من الأوراق حديث نسبياً .

وكذلك نلاحظ أن هناك خطأً في ترتيب الأوراق في موضعين من المخطوطة

وقد أشرنا إلى ذلك في أثناء التحقيق ، إذ أننا أعدنا ترتيب الأوراق إلى مارأيناه أنه الصواب المساير للمنطق المعقول .

وناسخ الديوان لا بأس به بوجه عام ، فالأخطـاء في النسخة المخطوطة قليلة إلى حد ما ، على أنه ترك بغير إعجام تلك الـكلمات التي لم يستطع التحقق من صحة كتابتها ، ويبدو ذلك بوجه خاص في أسماء بعض الأعلام الجغرافية المسيحية هذا إلى غير ذلك من بعض التحريفات والتصحيفات الأخرى ، وكثير من أخطاء الناسخ يرجع إلى اعتسافه في ضبط الألفاظ ، إذ أن التوفيق جانبه في كثير من ذلك ، ولهذا فقد ضربنا صفحاً عن ضبطه حيثما تبين لنا الخطأ فيه ، أما الأخطاء الأخرى فقد نبهنا عليها في مواضعها مع إثبات ما ورد في الأصل .

ويبدو أن هذه النسخة المخطوطة قد وقعت إلى أحـد العلماء المغاربة ، فعلق عليها في بعض المواضع تعليقات وتصويبات جيدة تدل على مكانه من العلم ، وقد نقلناها من حواشي الديوان إذ رأينا فيها ما يفيد القارىء مشيرين إلى مصدرها ، كذلك أشرنا إلى ما نظن الصواب قد جانبه فيها .

وهناك تعليقات أخرى بخط آخر أقدم من خط هذه التي أشرنا إليها وهي تعليقات لا تمت إلى هذا الديوان ولا إلى الأدب عامة بصلة ، إذ أن كلها كلام عن الطلسمات والقوى السحرية للحروف وما إلى ذلك ، وقد أعرضنا عن كل ذلك إذ رأينا عدم جدواه فيما نحن بصدده [1] .

---

(١) هذا وقد ضاق بهذه التعليقات الفارغة ذلك العالم المغربي الذي وقـع إليه الديوان ، فكتب في حاشية إحدى صفحاته ملاحظة فكهة ساخرة ننقلها بنصها هنا لطرافتهـا (ورقة ٤٢ ا) :

« قطع روى هذه القصيدة الذي هو الراء ، فصفح الله الموث هذا الديوان بمـا كتب في هامشه وقطع من أطرافه ، غفر الله لنا وله » .

هذا ونلاحظ أخيراً أن كثيراً من مواضع الأصل المخطوط قد أصابها تآكل ورطوبة ذهبت بفعلها أجزاء من أبيات الديوان ، وقد وصل الطمس في بعضها إلى حد تعذر استكمال النقص فيها بأي صورة ، وقد استطعت على الرغم من ذلك أن أهتــدي في أكثر هــذه المواضع إلى ما ظننت أنه الصواب ، وجعلت كل ما أضفته بين حواصر ، على أن هذه الإضافات لم تـكن اختراعاً ، بل إن كلها يعتمد على بقايا ألفاظ بدت بعض حروفها وامحى البعض الآخر ، وباب الاجتهاد في هذا مفتوح على أية حال .

ونضيف إلى ذلك أنه بعد أن بدأ طبع الديوان اعتماداً على النسخة الخطية الوحيدة المذكورة اتصل بنا أن هناك قطعة من ديوان ابن دراج محفوظة في مكتبة جامعة القرويين بمدينة فاس بالمغرب العربي ، ويعود فضل إبلاغنا بذلك إلى البحاثة الجليل الفاضل الأستاذ محمد عبد الله عنان صاحب المؤلفات الكثيرة حول تاريخ الأندلس ، وقد كان الأستاذ عنان قد قضى فترة في المغرب مطلعاً في مكتباته على المخطوطات المتعلقة بتاريخ الأندلس ، فرأى في مجموعة من الأوراق المختلطة (الدشت) في مكتبة القرويين أوراقا رجح أنها من ديوان ابن دراج ، فلما قدم إلى مدريد تـكرم بإنهاء ذلك إليّ ، فقمت على الفور بالكتابة إلى الأستاذ الفاضل محمـد العابد الفاسي القائم على مكتبة القرويين أرجوه أن يبعث إليّ بصور فوتوغرافيـة لهذه الأوراق ، وكان من تلطف الأستاذ الفاسي أن اجتهـد في الإسراع بذلك وأولى الأمر من العناية ما هو معهود فيه من كرم ونبل .

أما هذه الاوراق فهي تبلغ ثمانية وأربعين ورقة ، وهي قطع متفرقة من ديوان ابن دراج مبتورة الأول والآخر بغير ترقيم ، ويبدو أنها بقيت من نسخة كاملة

للديوان تتفق في ترتيب قصائده مع النسخة الريدانية التي اعتمدنا عليها أساساً للنشر .

وفيما يلي وصف إجماليٌّ لأوراق هذه القطعة :

مقاييس الورقة ٢١٠ × ١٥٠ ملايمتراً ، ومسطرتها ٢٠ ، وهي مكتوبة بخط مغربي لا يبلغ في جودته وإتقانه خط النسخة الريدانية ، والصفحات لاتحمل ترقيما .

وقد انتفعنا بهذه القطعة في استكمال بعض ما ذهب في خروم النسخة الريدانية ، ولو أن هذه الزيادات ليست كثيرة إذ ان معظم ما جاء في النسخة الفاسية كان مما احتفظت به المخطوطة الريدانية ، على ان هناك اختلافات يسيرة في بعض المواضع بين الأصلين ، وقد امكن لنا ان نستدرك ذلك في اثناء طبع الديوان .

ويسرني بهذه المناسبة ان اسجل شكري الخالص للعالمين الجليلين الاستاذ محمد عبد الله عنان والاستاذ محمد العابد الفاسي على كريم معونتهما .

حـ — منهجنا في العمل

من المعروف مدى صعوبة نشر أي نص على أساس مخطوط وحيد ، وقد واجهتنا هذه الصعوبة في نشر ديوان ابن دراج على أن قيمة الديوان وأهميته كانتا مما شجعنا على المضي في هذا العمل وبذل الجهد في إتمامه .

وقد بدأت بجمع كل ما ورد في المراجع الأندلسية والمشرقية من شعر ابن دراج ، وعنيت بمقابلة رواية الديوان على مختلف ما جاء في تلك المراجع مطبوعها ومخطوطها ، واجتهدت في استقصاء ذلك إلى أبعد حد ممكن .

وأعانني ذلك على استكمال بعض الناقص في خروم الديوان من شعر ابن دراج ، وجعلت هذه الإضافات بين حواصر مشيراً إلى المصادر التي نقلت عنها تمييزاً لها عما جاء في النسخة المخطوطة .

وبقيت بعد ذلك طائفة أخرى من شعر القسطلي لم ترد أصلاً في النسخة الخطية فألحقتها بآخر الديوان ناصاً على مصادرها كذلك ، وأضفت إليها جملة من نثره ومقتطفات من رسائله مما جاء في كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، إتماماً للفائدة منها .

أما التعليقات على النص ، فقد عمدت فيها إلى شرح ما غمض أو عسر على الفهم من ألفاظ الأبيات أو معانيها ، وأتيت من ذلك بقدر ما يحتاج إليه دون إسراف فيها وتوسعت إلى جانب ذلك في بيان المناسبات التاريخية التي قيلت فيها القصائد والترجمة للأعلام الواردة في الديوان ، وبيان المواضع الجغرافية ، ولا سيما ما يتعلق من ذلك بالناحية المسيحية ، إذ تبين لي صعوبة تتبع ذلك في المراجع المختلفة ؛ ثم إن كثيراً منها لا يمكن التعرف عليه إلا بالاطلاع على الكتب التاريخية والجغرافية التي تتناول تاريخ إسبانيا المسيحية في العصور الوسطى ، فاضطلعت بمئونة ذلك تخفيفاً على القارىء وإعانة له على تتبع ما يقصده الشاعر وفهم ما يرمي إليه .

وقد اجتهدت في ضبط ألفاظ الديوان على أوسع نطاق .

وأخيراً أرجوا أن أكون وفقت في تقديم هذا الديوان وإخراجه على هذه الصورة ، وبالله الاستعانة ومنه التوفيق ؟

الإشارات والرموز

نورد فيما يلي تفسيراً للرموز التي وردت في ثنايا تعليقاتنا المثبتة في حواشي الديوان :

ق : القطعة المخطوطة التي عثرنا عليها أخيراً من ديوان ابن دراج في مكتبة جامعة القرويين بمدينة فاس (المغرب الأقصى).

إح : الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب

أع : أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب

جذ : جذوة المقتبس للحميدي

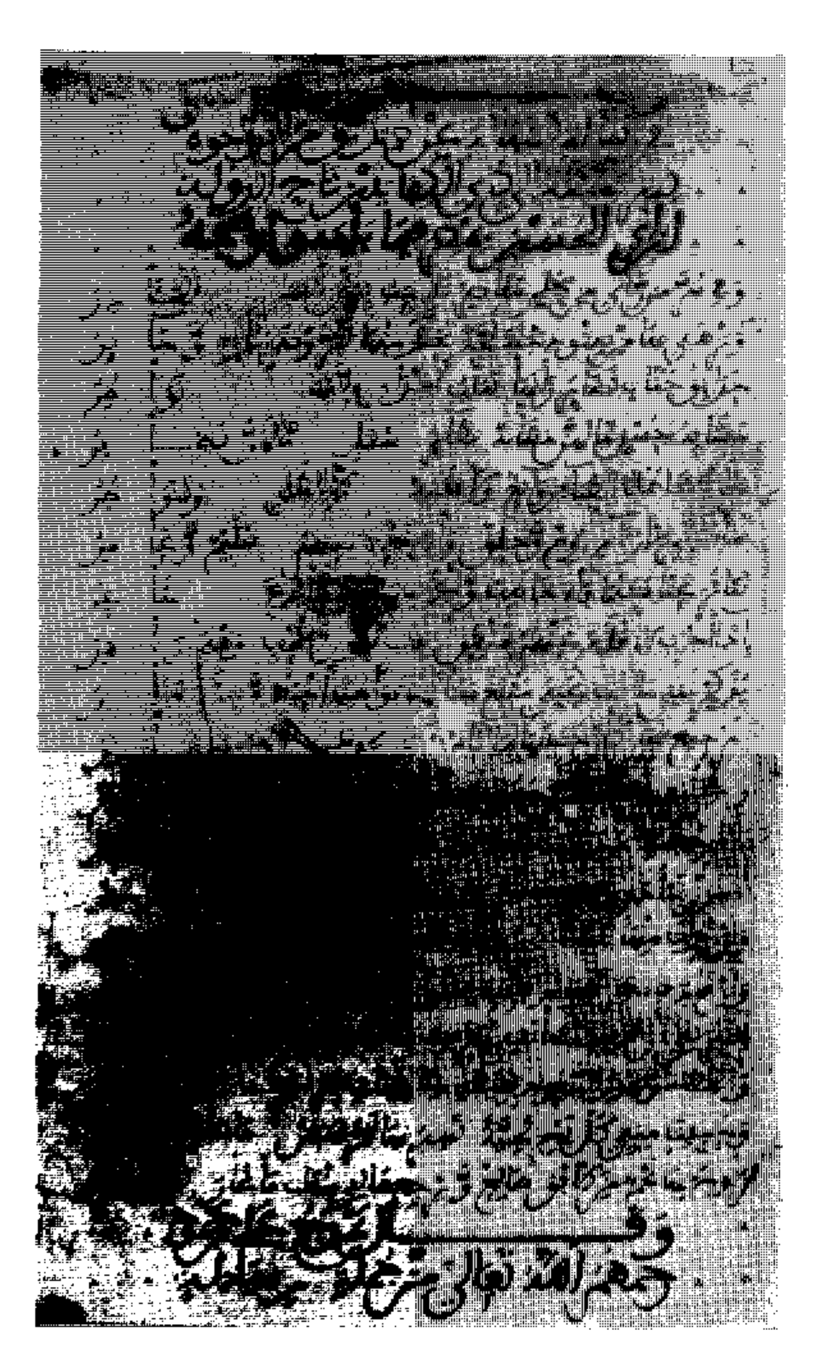
ذخ : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني

شذ : شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي

مس : مسالك الأبصار في ملوك الأمصار لابن فضل الله العمري

وف : وفيات الأعيان لابن خلكان

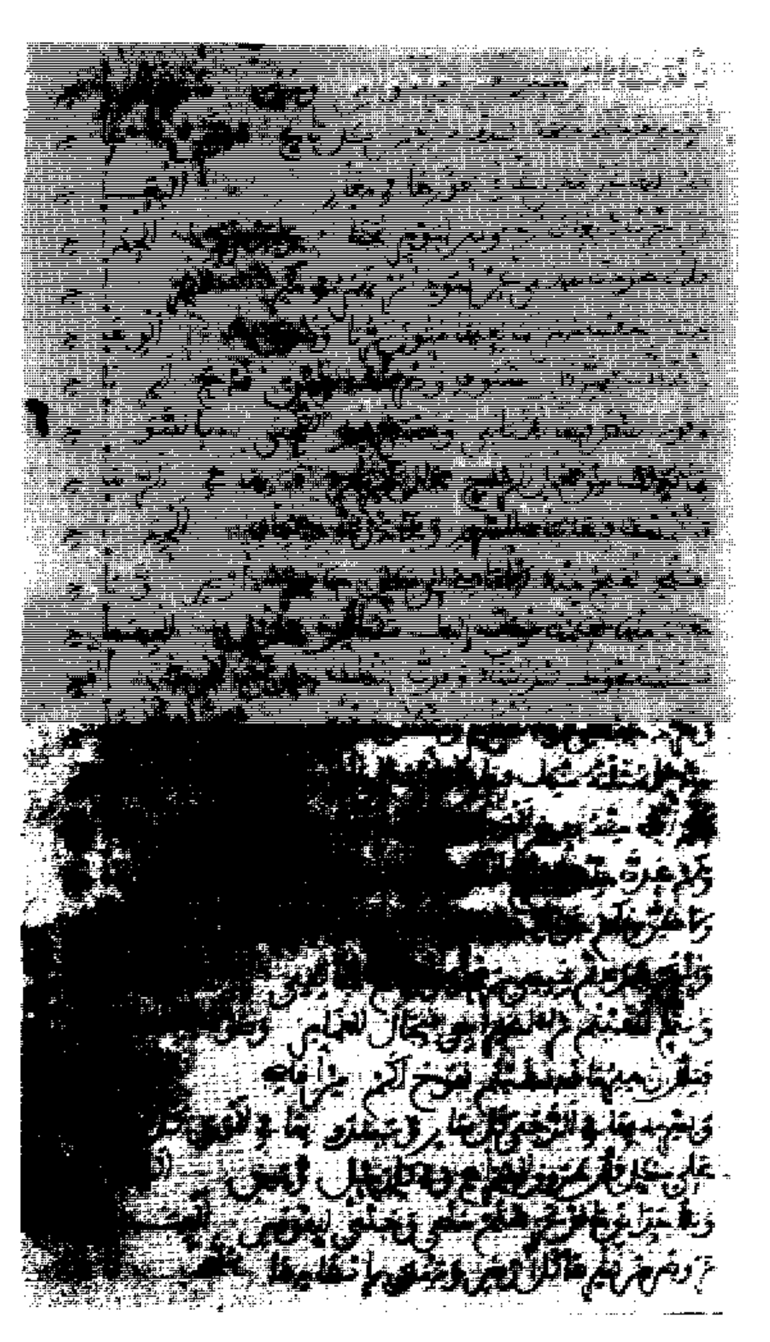
يت : يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي



صورة ظهر الورقة الاخيرة من المخطوطة (١٣٦ ب)

وهي تقابل ص ٥٣٢ من المطبوع

صورة لوجه الورقة رقم ١٢٩ (١٢٩ أ)
من الاصل المخطوط وهي تقابل
ص ٥٠١ من المطبوع



صورة لظهر الورقة رقم ١٢٨ (١٢٨ ب)
من الأصل المخطوط وهي تقابل
ص ٥٠٠ من المطبوع

صورة وجه الورقة الأولى من مخطوطة
المكتبة الزيدانية

الدّيوان

بدوي

— ١ —

قال ابن دراج القسطلي (١)

يمدح المنصور بن أبي عامر ويذكر تجهيزه الجيوش إلى زيري بن عطية (*)

[من الطويل]

لكَ اللهُ بالنصرِ العزيزِ كفيلُ   أَجَدَّ مُقامٌ أم أجدَّ رَحيلُ

(١) عنوان القصيدة والأبيات الخمسة عشر الأولى ساقطة من النسخة المخطوطة للديوان ، إذ أنها — كما نرى — تبدأ من الورقة الرابعة ، وقد رجعت في استكمال الناقص من هذه القصيدة إلى ثلاثة مراجع أوردت بعض هذه الأبيات الموضوعة بين الحاصرتين مع اختلاف في عددها وفي ترتيبها وفي رواية بعض ألفاظها : أما الأول فهو « يتيمة الدهر » لأبي منصور الثعالبي (بتحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد — ط . القاهرة سنة ١٩٤٧) ، ٢ / ١١٠ ؛ وأما الثاني فهو « نفح الطيب » للمقري (ط . ليدن سنة ١٨٥٥) ٢ / ٤٨٠ — ٤٨١ ؛ والثالث هو كتاب « نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى » ، بتحقيق المستشرق ليفي بروفنسال (ط . الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٣٢ — ٣٣ . وصاحب هذا المرجع الأخير هو الوحيد الذي ذكر مناسبة هذه القصيدة ، بينما يقتصر المقري على القول بين يدي ما اقتطفه منها إنها « في وصف أسطول أنشأه المنصور ابن أبي عامر » ، أما الثعالبي فانه لا يمدنا عنها بأي بيان .

(*) هوزيري بن عطية زعيم قبيلة مغراوة البربرية ، وكان قد وفد على —

هوَ الفتحُ أمّا يومُهُ فمُعَجَّلٌ إليكَ وأمّا صُنْعُهُ فجَزيلُ
وآياتُ نصرٍ ما تزالُ ولم تزَلْ بهنّ عماياتُ الضَّلالِ تزولُ
سيوفٌ تنيرُ الحقَّ أنّى انتضَيْتَها وخيلٌ يجولُ النصرُ حيثُ تجولُ
ألا في سبيلِ اللهِ غزوُكَ من غوَى وضلَّ بهِ في النّاكثينَ سَبيلُ (١)
لئِن صَدِئَتْ ألبابُ قومٍ بمَكرِهِمْ فسيفُ الهدَى في راحتَيْكَ صَقيلُ

ـ حضرة المنصور بن أبي عامر بقرطبة في سنة ٩٨٩/٣٧٩ فأغدق عليه المنصور الصلات ، وتعهد زيري له بالطاعة ، غير أن العلاقات بينهما لم تلبث أن فترت ، وفي سنة ٣٨٦ / ٩٩٧ أعلن زيري الثورة على المنصور متهما إياه باغتصاب الحكم من هشام المؤيد بن الحكم المستنصر واستبداده به دونه ، فأرسل ابن أبي عامر إليه جيشاً بقيادة الوزير عيسى بن سعيد القطاع ، ثم بعث إليه جيشاً آخر بقيادة واضح قائد الثغر الأوسط الذي تمكن من هزيمة زيري في سنة ٣٨٨ / ٩٩٨ ، ولم يكتف المنصور بذلك إذ أنه أرسل جيشاً آخر لإمداد واضح تحت قيادة ابنه عبد الملك المظفر ، وقد استطاع هذا أن يوقع بزيري هزيمة منكرة وأن يقتحم مدينة فاس ، على أن أمر زيري بن عطية لم ينته بذلك إذ أنه سار إلى الشمال ففتح تاهرت وتلمسان وتنس والمسيلة إلا أنه لم يلبث أن أرسل إلى ابن أبي عامر يطلب منه الصفح عنه وإثباته على ما بيده من البلاد متعهداً بالتزام طاعته ، فقبل منه المنصور وبقي زيري على الولاء له حتى توفي في سنة ٣٩١ / ١٠٠١ (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢ / ٢٦٤ – ٢٧٢) ؛ أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون بين سنتي ٣٨٦ و ٣٨٨ أي في الوقت الذي كان المنصور يستعد فيه للقضاء على ثورة زيري بن عطية .

(١) انفرد الثعالبي بإثبات هذه الأبيات .

فإنْ يَحْيَ فيهم بَغْيُ جَالُوتَ جَدِّهِمْ   فأَحجارُ دَاودٍ لَدَيْكَ مُثُولُ (١)
هُدًى وتُقىً يُودِي الظلامُ لَدَيْهِمَا   وحقٌّ بدفعِ المُبْطِلِينَ كَفِيلُ
بجمعٍ له من قائدِ النصرِ عاجِلٌ   إليه ومن حَقِّ اليقينِ دَلِيلُ (٢)
تحمَّلَ منه البحرُ بحراً من القَنَا   يروعُ بها أمواجَهُ ويَهُولُ
بِكُلِّ مُعَالاةِ الشِّراعِ كَأَنَّها   وقدْ حملَتْ أُسْدَ الحَقائِقِ غِيلُ (٣)
إذا سابَقَتْ شَأْوَ الرِّياحِ تَخَيَّلَتْ   خيولاً مدى فُرْسَانِهِنَّ خُيُولُ
سحائبُ تزجيها الرياحُ فإنْ وَفَتْ   أنافَتْ بأَجْيادِ النعامِ فُيُولُ (٤)
ظِباءُ سَمَامٍ ما لهُنَّ مَفَاحِصٌ   وزُرْقُ حَمَامٍ ما لَهُنَّ هَدِيلُ
سَوَاكِنُ في أوطانِهِنَّ كَأَنْ سَمَا   بها الموجُ حيثُ الرَّاسِيَاتُ تَزُولُ (٥)]

---

(١) أورد هذين البيتين الثعالبي وصاحب « النبذ التاريخية » مع اختلاف طفيف في الرواية : فقد جاء في صدر البيت الأول لفظ « ببغيهم » في رواية « النبذ » بدلاً من « بمكرهم » كما جاء في اليتيمة .

(٢) انفرد بإثبات هذين البيتين صاحب « النبذ » على أني أصلحت قراءة بعض ألفاظهما .

(٣) ورد هذان البيتان في كل من « النبذ » و « النفح » .

(٤) انفرد بذكر هذين البيتين المقري في « النفح » .

(٥) ورد هذان البيتان في كل من « النبذ » و « النفح » دون خلاف في روايتهما ، وأورد المقري بعد البيت الأخير بشكل مباشر البيت الذي تبدأ به هذه المخطوطة من الديوان وهو :

كما رفع الآل الهوادج بالضحى   غداة استقلت بالخليط حمول

وقد اتبعنا نحن هذا الترتيب .

[٤م] / كما رفع الآلُ الهوادجَ بالضحى غداةَ استقلَّتْ بالخليطِ حُمُولُ
أراقِمُ تَقْرِي ناقعَ السّمِّ ما لها بما حملت دون الغواة مقيلُ[1]
إذا نَفَثَتْ في زَوْرِ «زيري» حُماتَها فوَيْلٌ له من نَكْزِها وأليلُ[2]
هنالك يَبْلُو مرتعَ المكْرِ أنّهُ وَخِيمٌ عَلَى نفس الكفورِ وَبيلُ
كتائبُ تعتامُ النفاقَ كأنها شآبيبُ في أوطانه وَسُيولُ
بكُلِّ فتىً عاري الأشاجعِ مالَهُ سوى الموت في حَمْي الوطيس مَثِيلُ
خفيفٌ عَلَى ظهرِ الجواد إذا عدا ولكن عَلَى صَدْرِ الكَمِيِّ ثقيلُ[3]

---

(١) ورد هذان البيتان في كل من « نفح الطيب » و « النبذ التاريخية » مع اختلاف يسير في قراءة بعض الكلمات : فقد وردت في البيت الثاني كلمة — « تفري » بدلا من « تقري » في كلا المرجعين ، وكذلك كلمة « الغداة » بدلا من « الغواة » ، وقراءة الديوان التي أثبتناها أصوب . أما قوله « تقري ناقع السم » فمعناه « تجمع السم في شدقها ، يقال للناقة هي تقري إذا جمعت جرتها في شدقها .

(٢) جاء هذا البيت في « النبذ » غير أنه وردت فيه كلمة « ذكرها » في موضع « نكزها » ، ولعله تحريف من ناشر الكتاب ، ويقال نكزته الحية إذا طعنته بأنفها ، وخص بعضهم به الثعبان والدساسة ، والنكاز ضرب من الحيات ينكز بأنفه ولا يعض بفيه . والأليل هو الأنين والتوجع ، يقال يئل ويؤل أي رفع صوته بالدعاء .

(٣) هذا البيت والأبيات التي تليه حتى قوله « كريم التأني . . » ورد معظمها في اليتيمة مع بعض الاختلاف في رواية ألفاظ منها ، ورواية الديوان التي أثبتناها أصوب .

وَجرداءَ لم تبخلْ يداها بغايةٍ ولا كَرُّها نحو الطعانِ بخيلُ

لها من خوافي لِقْوَةِ الجَوِّ أربَعٌ وكشحانِ من ظبي الفلاَ وتَليلُ[1]

وبيضٍ تركْنَ الشِّرْكَ في كل مُنتَأًى فُلُولاً وما أزرى بهنَّ فُلولُ

تمورُ دماءُ الكُفرِ فى شَفَرَاتِها ويرجعُ عنها الطرفُ وهوَ كليلُ

وأسمرَ ظمآنِ الكعوبِ كأنما بهنّ إلى شُرْبِ الدماءِ غليلُ

إذا ما هوى للطعنِ أيقنتَ أنه لصرف الرَّدى نحو النفوس رسولُ

وَحنَّانةِ الأوتارِ فى كلِّ مهجةٍ لعاصيكَ أوْتَارٌ لها وذُحُولُ

إذا نبْعُها عنها أرَنَّ فإنما صداه نحيبٌ فى العدى وعويل

كتائبُ عِزُّ النصرِ فى جَنَبَاتِها فكلُّ عزيزٍ يَمَّمَتْهُ ذليلُ

يُسَيِّرُها فى البر والبحر قائدٌ يسيرٌ عليه الخطب وَهْوَ جليلُ

جوادٌ له من بهجة العزِّ غُرَّةٌ ومن شِيَمِ الفضلِ المبينِ حُجولُ

به أمِنَ الإسلامُ شرقاً ومغرباً وغالت غواياتِ الضلالةِ غُولُ

يَصُولُ بسيفِ اللهِ عَنَّا وإنما به السيف فى ضَنْكِ المقامِ يصولُ

حُسامٌ لداءِ المكرِ والغدرِ حاسمٌ وظلٌّ على الدين الحنيفِ ظليلُ

إذا انْشَقَّ ليلُ الحربِ عن صُبحِ وجهِهِ فقد آن من يومِ الضلالِ أصيلُ

كريمُ التأنِّي في عِقابِ جُنَاتِهِ وَلكِنْ إلى صوتِ الصَّريخِ عَجُولُ

---

(١) اللقوة بكسر اللام وفتحها هي العقاب الخفيفة السريعة الاختطاف ، والتليل صفحة العنق .

لِيَزْهُ بِه بَحرٌ كَأَنَّ مُدُودَهُ نوافِلُ من معروفه وفضُولُ

ويا رُبَّ نجمٍ في الدُّجى وَدَّ أنه من المركبِ الحاوي سناه بديلُ

[٤ب] / تهادت به أنفاس رَوْحٍ من الصَّبا وخَدٌّ من البحر الخِضَمِّ أَسيلُ

وقد أَوْمَتِ الأعلامُ نحوَ حُلُولِهِ وحنَّ من الغُرِّ الجيـاد صهيلُ

فحلَّ سناه العدْوَتَيْنِ وَبَشَّرَتْ خوافقُ راياتٍ لَهُ[1] وطبولُ

وأيقنَ باغِي حتفِهِ أَنَّ أُمَّه ـ وقد أَمَّهُ الليثُ الهصورُ ـ هَبُولُ

فواتح عِزٍّ مالها دونَ «زمزمٍ» ولا دُونَ سَعْيِ «المروتَيْنِ» قُفُولُ

وهل عائقٌ عنهـا ، وكل سَنِيَّةٍ إليـك تَسَامَى أو إليكَ تَئُولُ

سيوفٌ عَلَى الجُرْدِ العِتَاقِ عَزِيزَةٌ وأَرْضٌ إلى «البَيْتِ العَتيقِ» ذَلُولُ

فقد أَذِنَتْ تلك الفِجَاجُ ودُمِّثَتْ[2] حُزونٌ لِمَهْوَى مَرِّهَا وسُهُولُ

وقامَ بِها عند «المقامِ» مُبَشِّرٌ وشَامَ سناها «شَامَةٌ» و«طَفِيلُ»[3]

فَيَهنيك يا منصورُ مبدأُ أَنْعُمٍ عَوائده صنع لديكَ جَميـلُ

وفرعان من دوح الثناء نمتهما من المجد في التُّرب الزَّكيِّ أُصولُ

عقيبان بين الحربِ والمُلْكِ دولة وعزٌّ مُدَالٌ منهمـا ومُديلُ

---

(١) كذا في الأصل ، وقد يكون الأصوب « به » .

(٢) أي ذللت ومهدت .

(٣) « شامة » و « طفيل » جبلان قرب مكة ، انظر ياقوت : معجم البلدان ٥ / ٢٢٢ .

مايكانِ عَمَّ السَّالِمَ[1] الحربَ منهما		غِنىً وغَنَــاءٌ مُبْرَمٌ وسَحِيلُ
ويَهْنِيكَ شَهرٌ عند ذي العرش شاهدٌ		بأنك بَرٌّ بالصيــــام وَصُولُ
فَوُفِّيتَ أَجرَ الصابرين ولا عَدَا		مساعِيكَ فوزٌ عاجلٌ وقبُولُ

— ٢ —

وله فيه يسأله إنشاد هذه القصيدة رحمهما الله

[من البسيط]

هل أَنتَ مُدْرِكُ آمالي فمحييها		ومُبْدِلِي في الورى من ذِلَّتِي تِيها ؟
بلحظةٍ تقتضي منِّي مكارِمَهَـا		هدِيَّةً لك حازَ السبقَ مُهْدِيها
جواهراً من بحورِ العلمِ ليس لها		إلاّ أستماعكَهـا قدرٌ يُسَاويها
حتى ترى الطِّرْفَ في كَرَّاتِ فارِسِهِ		والكاعِبَ الرُّودَ في أثوابِ جَالِيها
عسىٰ الذين نَأَوْا عنِّي أُخَبِّرُهم		بأَنَّ نَفْسِيَ[2] مبلوغٌ أَمَانيهـا

---

(١) في الأصل : « السا » ثم بياض صغير ، ولعلها كما أثبتنا ، أي الذي يسلم من حربها .

(٢) في الأصل « النفس » على أن هناك تعليقاً في الحاشية كتبه أحد من اطلعوا على هذا الديوان وفيما يلي نصه : « بأن نفسي » به يستقيم الوزن ، وهي ملاحظة صائبة أصلحنا الأصل على أساسها .

— ٣ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله ، وهي أول ما أنشده[1]

[من الطويل]

أَضَاءَ لها فجرُ النُّهىٰ فَنَهاها … عن الدَّنِفِ المُضْنىٰ بحَرِّ هواها

وضَلَّلَها صبحٌ جلا ليلة الدُّجىٰ … وقد كان يَهْدِيها إليَّ دُجاها[2]

ويشفع لِي منها إلىٰ الوصل مَفْرِقٌ … يُهالُ إليه حَلْيُها وحُلاها

[٥ م] / فيا للشبابِ الغضِّ أَنْهَجَ بُرْدُهُ … ويا لرياضِ اللهو جَفَّ سَفَاها[3]

وما هِيَ إلاّ الشَّمْسُ حَلتْ بمفرقي … فأَعشىٰ عيونَ الغانياتِ سَنَاها

وعينَ الصِّبا عارَ المشيبُ سوادَها … فَمَنْ أَيِّ عينٍ بعد تلك أراها ؟

---

(١) تاريخ إنشاد هذه القصيدة هو سنة ٣٨٢ / ٩٩٢ كما يفهم من إشارة الحميدي إليها في « جذوة المقتبس » (ص ١٠٣) ، والحميدي يقول إنها « أول شعر مدحه - أي مدح المنصور - به » ، ويضيف إلى ذلك أن ابن دراج عارض بها قصيدة لأبي العلاء صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي .

(٢) ورد هذان البيتان دون خلاف في الرواية في « جذوة المقتبس » للحميدي (نشر الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي - القاهرة سنة ١٩٥٢) ص ١٠٣ ؛ وانظر كذلك الضبي : بغية الملتمس (ط . فرانسسكو كوديرا - مدريد سنة ١٨٨٤) ص ١٤٨ ؛ كما ورد أيضاً في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (ط . دار الكتب سنة ١٩٣٣) ٤ / ٢٧٣ مع خلاف يسير ، فقد جاءت كلمة « المذنف » بدلا من الدنف و « ليله » بدلا من ليلة .

(٣) السفا هو اسم كل ما تسفي الريح أي تحمل وتذرو .

سلامٌ عَلَى شرخ الشباب مُرَدَّدٌ ... وآهاً[1] لوصل الغانيات وآهـا
ويا لديار اللهو أقوت رُسُومُهَا ... ومَحَّتْ[2] مغانيهـا وصَمَّ صَدَاها
وخَبَّرَ عَنها سَحْقُ أَثْلَمَ خَاشِعٍ ... كهالةِ بدرٍ بَشَّرَتْ بحياهـا[3]
فيـا حبذا تلك الرسومُ وحبذا ... نوافحُ تُهْدِيهـا إليَّ صَبَاهـا
تهادِي المَها الوحشيِّ في عَرَصَاتِها ... يذكرنيـه آنسات مهاهـا
ومبتسِمِ الأَحبـاب في جنباتهـا ... أَقاحٍ كساهنَّ الربيع رُبَاهـا
دعوت لها سُقيا الحيا ودعا الهوى ... وبَرْحُ الهوى[4] دمعِي لها فسقاها
وقد أستقيد الحُورَ فيهـا بِلِمَّةٍ ... تَبَارَى نفوسُ العِينِ نحو فِدَاها
وأصبحُها الشَّرْبَ الكرامَ سُلافةً ... أهانت لهـــا أموالَهَا ونُهَاها
كُمَيْتاً كأَنَّ النجمَ حينَ تَشُجُّها ... تقحَّمَ كأْسٌ كأْسَهَا فعلاهـا
بأيدي سُقَاةٍ مثل قُضبانِ فِضَّةٍ ... جلَتْ أحمر الياقوت فَهْوَ جَنَاها
ونُزْهِي بسحرٍ من أحاديثَ بيننا ... كأَنَّ أسيرَيْ بابل نَفَثَاها[5]

---

(١) في الأصل « وآه » .

(٢) محَّت الدار أي عفت وبليت .

(٣) السحق هو الثوب البالي الخلق ، والأثلم كالأثلب التراب والحجارة .

(٤) كذا في الأصل ولعلها « الجوى » .

(٥) بابل على ماتذكر كتب الأخبـار هي أقدم بناء بعد الطوفان ، ونسب السحر إليها لأنه — على ما يُذْكَرُ — كان بها هاروت وماروت معلما السحر وكانا قد عصيا الله فباحا بالاسم الذي يرجعان به إلى السماء ، فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يعذبان ببابل ويعلمان السحر ، وإليهما أشار ابن دراج بقوله « أسيري بابل » (انظر شرح الشريشي على مقامات الحريري ١ / ٢٣٦ — ٢٣٧) .

وقد عَجَمَتْ مني الخطوبُ أبنَ حُرَّةٍ   أبيًّا محزَّاتي لِوقعِ مُدَاهـا
جديراً إذا أكْدَى الزمانُ برحلة   يُحَقِّرُ بُعْدَ الأرضِ عَرْضُ فلاها[1]
رَحَلْتُ لهـا أَدْماءَ وَجْنَاءَ حُرَّةً   وشيكاً بأوْباتِ السرورِ سُرَاها[2]
أقامت بمرعَى خصبِ أرضٍ مَريعَةٍ   أطاعَ لها تَنُّومُها وَأَلاهـا[3]
بما أفرغَ الفَرْغَانِ[4] ثُمَّتَ أتبعت   بنوءِ الثريا فالتقى ثَرَيَاهـا
أشُجُّ بها والليلُ مُرْخٍ سُدُولَه   سَبَارِيتَ[5] أرضٍ لا يُرَاعُ قطاها
أُسَائِلُ عن مجهولِها أَنْجُمَ الهُدَى   بِعَيْنٍ كأَنَّ الفرقَدَيْنِ قذاها
وَأُحْيِي نفوسَ الرَّكْبِ من ميتَةِ الكَرَى   ـ وقد عَطَفَ الليلُ التَّمَامُ طُلاَهَا ـ
بِذِكْرِ أيادِي العامِرِيِّ التي طَمَتْ[6]   عَلَى نَأْيِ آفاقِ البِلَادِ مُنَاهـا
ومُوحشَةِ الأقطارِ طامٍ جِمَامُهَا   مَرِيشٌ بأسرابِ القَطَا رَجَوَاهَا[7]

---

(١) في الأصل « يحقر عند الأرض » وقد يكون الصواب ما أثبتنا ، وإن يكن من المحتمل أن تكون أيضاً « تحقر عند الأرض » .

(٢) أدماء أي بيضاء ، والأدمة في الناس السمرة وفي الإبل والظباء البياض الشديد ، والوجناء هي الناقة التامة الخلق الغليظة لحم الوجنة .

(٣) في الأصل « ولاها » ولعلها كما أثبتنا ؛ والتنوم شجرة غبراء يأكلها النعام والظباء ، والألاء شجر يشبه الآس لا يزال أخضر صيفاً وشتاءً ، ويقال فيه أيضاً الألى بالألف المقصورة .

(٤) الفرغان (مثنى فرغ) منزلان من منازل القمر في برج الدلو .

(٥) سباريت جمع سبروت وسبرات وسبريت وهي الأرض القفر لا نبات فيها .

(٦) في الأصل « ظمت » ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٧) الرجوان مثنى الرجا مقصور وهو ناحية كل شيء .

[٥ب]/ أَهَلَّ إليها بعد خَمْسٍ ولَيلُنَا فعُجْنَا صدورَ العِيسِ نحوَ جَبَاها[1]
نُغِيثُ بقايا من نفوسٍ كأنّهـا بقايا نجوم القَذْفِ غـارَ سَنَاها
وقمنا إلى أنقاضِ سَفْرٍ كأنّها ـوقد رحلت شطراً ـشطور بُرَاها[2]
وقلتُ لنِضْوٍ في الزِّمام رَذِيَّةٍ[3] تَشَكَّى إلى الأَرْضِ الفضاءِ وَجَاها[4]
عسى راحةُ المَنْصُورِ تُعْقِبُ رَاحةً وحَتْمٌ لآمالِ العُفَـاةِ عساها
فلِلَّهِ منـه قائدُ الحَمْـدِ قادَهَا ومِنِّيَ مَحْـدُوٌّ الخطوبِ حَدَاهـا
ولله عزمي يوم وَدَّعْتُ نحوه نُفُوساً شجاني بَيْنُها وشجاها[5]
ورَبَّةُ خـدرٍ كالجُمَان دُمُوعُها عَزِيزٌ على قلبي شُطُوطُ نَوَاهـا
وبِنْتُ ثمانٍ ما يزال يَرُوعُني على النَّأْيِ تَذْكارِي خُفُوقَ حَشَاها

(١) الجبا بكسر الجيم وفتحها هو ما جمع في الحوض من ماء أو هو التراب الذي حول البئر أو الحوض يرى من بعيد .

(٢) في الأصل « سطور » ولعل الصواب ما أثبتنا ، والبرا جمع برة (بضم الباء وفتح الراء) هي الحلقة تجعل في أنف البعير ، وتشبيه البعير حال هزاله وضعفه بنصف البرة شائع في الشعر ، ومنـه قول ابن دراج نفسه في قصيدة أخرى :

خوض نفحن بنا البرا حتى انثنت أشلاؤهن كمثل أنصاف البرا

وانظر تعليق ابن بسام على هذا البيت (الذخيرة ، القسم الأول ١ / ٥٨ — ٥٩) .

(٣) في الأصل « رديـة » ولعل الصواب ما أثبتنا ، والرذية من الإبل الناقة المهزولة .

(٤) الوجا هو الحفى وهو أن يشتكي البعير باطن خفه .

(٥) أورد هـذا البيت والأبيـات الثلاثة التي تليـه الشريف الغرناطي في شرحه على مقصورة حازم القرطاجني (١ / ٤٤) .

وَمَوْقِفَهَـا والبَيْنُ قد جَدَّ جِدُّه ... مَنُوطاً بحبلَيْ عَاتِقَيَّ يَدَاهـا
تَشَـكّى جَفَاءَ الأَقْرَبين إذا النَّوىٰ ... تَرَامَتْ برحلي فى البلادِ فتَاها
وأُقسم جُودُ العَامِرِيِّ لَيَرْجِعَنْ ... حَفِيّاً بِها مَنْ كَانَ قَبْلُ جَفَاها
ورَامَتْ ثواءً من أَبٍ وثواؤه ... عَلى الضَّيْمِ بَرْحٌ من شماتِ عِدَاها
وأَنّىٰ لها مَثْوىٰ أَبيها وقد دَعَتْ ... بوارقُ كفِّ العـامِرِيِّ أَبَاها
بُنَيَّ إليكِ اليومَ عنّي فإنهـــا ... عزائمُ كفُّ العامريِّ مداها
فَحَطَّتْ بمغنى الجودِ والمجدِ رَحْلَهَا ... وأَلقت بِرَبْعِ المَـكْرُمَاتِ عَصَاها
لَدٰى مَلِكٍ إحدى لواحظِ طَرْفِهِ ... بعين الرِّضَا حَسْبُ المُنىٰ وكَفَاها
هو الحاجبُ المنصورُ والمَلِكُ[1] الذي ... سَعَى فتعــــالى جَدُّه فتَنَاهى
سليلُ الملوكِ الصِّيدِ من سَرْوِ حِمْيَرٍ ... توسَّطَ في الأَحساب سَمْكَ ذُرَاها
لبابُ معاليها وإنسـانُ عَيْنِها ... وبَدْرُ دَيَاجِيهَا وشمسُ ضُحَاها
مُعَظَّمُها مَنْصُورُهـا وجَوَادُها ... وفارسُهـا يومَ الوغى وفتاها
ووَارِثُ مُلْكٍ أَثَّلَتْهُ مُلُوكُهـا ... وجَامِـعُ شَمْلَيْ مَجْدِها وعُلاَها
نَمَاهُ لِقَوْدِ الخيل« تُبَّعُ » فخرها ... وأَوْرَثَـهُ سَبْيَ المُلُوكِ « سَبَاها »[2]
ذَوُو المُلْكِ والتِّيجَانِ والغُرَرِ التي ... جَدِيرٌ بها التيجانُ أَن تَتَبَاهى
شُمُوسُ اعتـلاءٍ تُوِّجَتْ بأَهِلَّةٍ ... وسُرْبِلَتِ الآجال فَهْو كساها

---

(١) في الأصل « الملك » ولا يستقيم الوزن إلا بنطق الألف ألف قطع ، وخير من ذلك إضافة الواو كما أثبتنا .

(٢) « سباها » يقصد سبأها بتسهيل الهمزة .

/ وقال أيضاً يمدحه رحمهما الله تعالى[1] [٦ أ]

[من الكامل]

أَنْضَيْتُ خَيْلِي في الهوى وَرِكَابِي وَعَمَرْتُ كَأْسَ صِباً بِكَأْسِ نِصَابِ[2]

---

(١) لسنا ندري ما إذا كانت القصيدة الهائية الواردة في الأوراق الماضية من الأصل قد انتهت عند آخر الورقة التي تحمل رقم ٥ أم أن لها بقية سقطت . وذلك لأن الورقة رقم ٦ تبدأ بتسعة أبيات أولها :

متشاكه الحالات من أدواته في حربه وخلاله في سلمه

وواضح أن هذه الأبيات إنما هي بقية لقصيدة أخرى كنا نظن أولها مفقوداً أو ساقطاً حتى وجدنا في الورقة رقم ٨٠ (ب) أبياتاً من بحرها ورويها أولها :

لو كان يعدل حاكم في حكمه أو كان يقصر ظالم عن ظلمه

ولاحظنا أن الأبيات التسعة الواردة في الورقة رقم ٦ (أ) ينسجم سياقها تماماً مع بيات هذه القصيدة بحيث ينبغي أن تكون تتمتها ، ولهذا فاننا أثبتنا هذه الأبيات التسعة في موضعها الطبيعي في آخر القصيدة الميمية التي سترد بعد . والذي حدث هو خطأ في ترقيم أوراق الديوان ، وهو أمر تكرر في موضع آخر سننبه عليه في مكانه .

(٢) تاريخ هذه القصيدة — كما نستنتج من الاشارة إلى الغزوة التي فتح فيها المنصور « قلنية » — ينبغي أن يكون في سنة ٣٨٤/٩٩٤ ، فهي بمناسبة الحملة التي وجهها ابن أبي عامر إلى قشتالة التي كان يحكمها آنذاك غرسية بن فرذلند Garci - Fernández منتهزاً فرصة الثورة التي اعلنها على غرسية ابنه شانجه Sancho في ٧ يونيه ٩٩٤ ، وفي هذه الغزوة فتح المنصور شنت اشتيبن وقلنية وخرب أبلة Avila (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الاسلامية ٢/٢٤٤) .

وَعُنيتُ مُغْرًى بالغواني وَالصِّبا والَّلهْوِ ، وَاللَّذّاتُ قد تغْرَى بي

في غَمرَةٍ لا تنقضي نَشَوَاتُها من صَرْفِ كَأْسٍ أو جُفونِ كَعَابِ

أيّامَ لا نَرْتاعُ من صَرْفِ النَّوَى أَمْناً ، ولا نُصْغِي لِنَعْبِ غُرَابِ

أيّامَ وَجْهُ الدهر نحوي مُشْرِقٌ وَمحاسِنُ الدُّنيا بغَيْرِ نِقَابِ

ولقد أضاءَ الشَّيْبُ لي سنَنَ الهُدَى فَثَنَى سِنِي دَدَني[1] على الأَعْقَابِ

ورأيتُ أَرْدِيَةَ النُّهَى منشورةً تسعى بِجِدَّتِها[2] إلى أَتْرَابي

ورَأيْتُ دارَ اللَّهوِ أَقْوَى ربعُها وخَلَتْ معاهدُها منَ الأَحبابِ

وخَلَتْ بيَ النَّكَباتُ تَرمي ناظري وخواطري بنوافِذِ النُّشَّابِ

ولَكَمْ أَصابتني الخطوبُ بِشَكَّةٍ تُعْيِي التجلُّدَ واحْتَسَبْتُ مُصابي

حِفْظاً لِعلمٍ حازَ صَدْرِيَ حفظه أَلاَّ أَخِيسَ بحُرْمَةِ الآدابِ

حتى تَركتُ الدهر وَهْوَ لِمَا بِهِ صَبْراً وغادرني السقامُ لِمَا بي

وصرفتُ عن صرفِ الزمان ملامتي وكففت عن سَعْيِ الحسودِ عتابي

علماً بأَن الحِرْصَ ليس بزائدٍ حَظّاً وأَنَّ الدهرَ غيرُ مُحَابِ

هِمَمُ الفتى نُكْبٌ تُبَرِّحُ بالمُنَى أَبداً إذا عَمَّ القضاءُ الآبي

[٦ب] / فقطعتُ يا منصورُ نحوَكَ نَازِعاً خُدَعَ المنى وعلائقَ الأَسبابِ

فَرِضَاكَ تأْميلي وقربُكَ هِمَّتي ونداكَ مَحْيَأْيي وحمدُكَ دَأْبِي[3]

---

(١) الددن هو اللهو .

(٢) في الأصل « بحدتها » .

(٣) محيأيي أي محياي بعد الألف المقصورة ، ودابي أي دأبي بتسهيل الهمزة .

وقد احتللْتُ لديكَ أمْنَعَ مَعْقِلٍ وحَطَطْتُ رحلي في أعَزِّ جنَابِ
في ذِمَّةِ المَلِكِ الذي آمالُنا من راحَتَيْهِ تحت صَوْبِ سحابِ
قَمَرٌ توسَّطَ من مناسِبِ يَعْرُبٍ قِمَمَ السنَاءِ وذِرْوَةَ الأنسابِ
صَدَقَتْ به في اللهِ عزمةُ مُخْلِصٍ تركت ذَمَاءَ[1] الشِّرْكِ رَهْنَ ذَهَابِ
بكَتَائِبٍ عَزَّتْ بها سُبُلُ الهُدَى ومَحَتْ رُسُومَ الكفرِ مَحْوَ كِتَابِ
غادَرْنَ أرضَهُمُ كأنَّ فضاءَها أغوالُ[2] قَفْرٍ أو سُهُوبُ يَبَابِ
تَحْتَثُّ سالِكَها بغيرِ هدايةٍ وتُجيبُ سائلَها بغيرِ جَوَابِ
يأيُّهَـــــا المَلِكُ الّذي عَزَمَاتُهُ في الدِّينِ أعظَمُ أنْعُمِ الوَهَّابِ
وَصَلَ الإِلٰهُ لديكَ عُمْراً يَقْتَضِي[3] أمَدَ السنينَ ومُدَّةَ الأحقــابِ
ولكَ السرورُ مضاعفاً أيَّامَــهُ ولَكَ النعيمُ مُجَدَّدَ الأثوابِ
وليَهْنِكَ الأضحٰى الذي أضحى به صُنْعُ الإِلٰهِ مُفَتَّحَ الأبوابِ
وأسْلَمْ لِسِبْطَيْكَ اللَّذَيْنِ تمَلَّكا رِقَّ السنــاءِ تَمَلُّكَ الأرْبَابِ
السابِقَيْنِ إلى مَقَامَاتِ العُــلَا ذا في الحروبِ وذاكَ في المِحْرَابِ
الحاجبُ الأعلى الذي زُهِيَتْ به رُتَبُ العُـلَا ومفاخرُ الأحسابِ
فلَكَمْ تدانى في مَكَرٍّ للوغى كالشمس في كِسَفِ العَجَاجِ الهابي

(١) الذماء هو بقية النفس .
(٢) الأغوال جمع غول وهو كل ما يهلك الانسان .
(٣) في الأصل « تقتضي »

وبِرأيِ عَيْنِي منه يومَ « قُلُنْيَةٍ »(٢) منه شهــــابٌ خاطفٌ لشهاب
سيفُ الإلٰهِ وحزبُهُ المُفْنِي به شِيَعَ الضَّلاَلِ وفِرْقَةَ الأحزابِ

— ٥ —

وقال أيضاً فى المظفر عبد الملك رحمهما الله تعالى

[من الكامل]

مِنَنٌ بأيسَرِ شُكْرِهَا أَعْيَيْتَنِي فمتى أقومُ بشكرِ ما أوليتَنِي ؟
أَعطيتَنِي ذُخْرَ الزَّمانِ وإنَّمَا شرفَ الحيـاةِ وعِزَّها أعطيتني
لَبَّيْكَ شاكرَ نعمةٍ أنت الذي لما دعوتُ غِيَاثَهــا لبَّيْتَنِي
فقَتَلْتَ هَمّاً ذُقْتُ حَدَّ سيوفِهِ بسيوفِ إنعامٍ بها استحيَيْتَنِي
وخَطَطْتَ بالكفِّ الكريمةِ مُلْحَقِي والفخرُ فخري منك إذ سمَّيْتَنِي
[٧ م] /حَسْبِي فحين ذكرتَنِي كرَّمْتَنِي وكفى فحين نطقتَ بِي أعييتني
ذِكراكَ أعظمُ نعمةٍ ألبستني ورضاك أعلى خُطَّةٍ وَلَّيتني

(٢) في الأصل : قنلية ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وقلنية ـ وتكتب في المراجع العربية أيضاً « قلونية » ـ كانت من أمنع المعاقل المسيحية في قشتالة مما يتاخم الأندلس الاسلامية ، وقد فتحها عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر وابنه المظفر مراراً عديدة (انظر ابن عذاري : البيان المغرب ٢/١٧٧ ؛ ٣/١٤ ، ١٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٨٧) . واسمها بالاسبانية Clunia .

ففداؤك الأملاكُ يومَ سمعتني لهفانَ فى أسرِ الأسى ففديتني
وسُقيتَ غيثَ النصرِ حين بَصُرت بي ظَمْآنَ ملتهبَ الحشا فسقيتني
آواكَ ظِلُّ اللهِ في سلطانِهِ ونعيمِهِ بجزاءِ ما آويتني
ورَعَى لكَ الرحمنُ ما استَرْعاكَهُ من دينِهِ أجْراً بما راعيتني
وشَفَى سُيُوفَكَ من عِداكَ وقد سَطَا همٌّ أموتُ بِدائِهِ فشَفَيْتَني
وكُفِيتَ ما استُكْفِيتَ يومَ ألَمَّ بي همٌّ أناخ بكلكلي فكفيتني
فكأنما استيقَنْتَ مالَكَ فى الحشا من طاعةٍ ونصيحةٍ فجزيتني
وعلمتَ أنِّي فى وفائك سابِقٌ فسَبَقْتَ بالنعم التي وَفَّيْتَني
فلو أن آمالي بقربِكَ أسْعَفَتْ ما قُلْتُ بعد بلوغها : يا ليتني !
حتى أُقَبِّلَ كلَّما قابلتُها كفّاً بجودِ عطائها أحْيَيْتَني

— ٦ —

وقال يمدحه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الطويل]

محلُّك بالدنيا وبالدينِ آهِلُ فعيدٌ وأعيادٌ وعامٌ وقابلُ
وسعدٌ وإقبالٌ ويمنٌ وغبطةٌ ونصرٌ وفتحٌ عاجلٌ ثم آجلُ
وصوم كريم بالمَبَرَّةِ راحِلٌ وفِطْرٌ عزيز بالمَسَرَّةِ نازلُ

وَرَفْعُ لواءٍ شَدَّدَ اللهُ عَقْدَهُ ... ليعلُوَ حَقٌّ أو ليَسْفُلَ باطِلُ

ألاَ في سبيلِ اللهِ عَزْمَتُكَ التي ... على الدينِ والإسلامِ منها دَلاَئِل

فقد نَطَقَتْ بالنصرِ فيها شواهدٌ ... وقد وَضَحَتْ للفتح منها مَخَائِلُ

فأَبْشِرْ فنجمُ الدين بالسعدِ طالِعٌ ... وأَيْقِنْ فنجم الشِّرْكِ بالخزيِ آفِلُ

وقد أصحبَ التسديدَ(١) ما أَنت قائل ... وأَيَّدَ بالتوفيقِ ما أنتَ فاعِلُ

وساعَدَ صُنْعُ اللهِ ما أَنت طالبٌ ... وأَسْعَدَ جُودُ اللهِ ما أَنت سائِل

فما تَصِلُ الأَيامُ من أَنت قاطِع ... ولا تقطع الأَيامُ من أَنت واصِلُ

وهل خَيَّبَتْ يمناكَ مَنْ جاءَ آمِلاً ؟ ... فيُكْذِبَ ربُّ العرش ما أَنت آمِلُ

وقد أفطرَ الإسلامُ والسيفُ صائِمٌ ... وعَلَّتْ ظِمَاءٌ والرماحُ نواهِلُ

[٧ب] / فأَوْرِدْ صواديها فقد طاب مَشْرَعٌ ... وقد حان مأْكولٌ وقد حَنَّ آكِلُ

فما أَنت إلا الشمسُ تطلع للعِدَى ... فظِلُّهُمُ حَتْماً بنُورِكَ زائِل

كَرُمْتَ فما يَعْيَا بحَمْدِكَ مُفْحَمٌ ... وسُدْتَ فما يَغْبَى بِقَدْرِكَ جاهِل

وجودُكَ في سِلْمٍ وبأْسُكَ في وَغىً ... بُحُورٌ طوامٍ ما لَهُنَّ سواحِل

فَلاَ خَذَلَ الرحمنُ مَنْ أَنت ناصِرٌ ... ولا نصرَ الرحمنُ من أَنت خاذِل

---

(١) في الأصل « التشديد » ، وما أثبتنا أصوب .

— ٧ —

وقال فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الطويل]

لَـئِنْ سَرَّت الدنيا فأنت سُرُورُهَا ... وإن سَطَعَتْ نُوراً فوجهُكَ نورُها
سلامٌ على الأيَّامِ ما شِمْتَ لِلْعُلاَ ... أَهِلَّتَهَـا واستقبلتْـكَ بُدُورُهَا
وبُورِكَتِ الأزمانُ ما أشْرَقَتْ لَنَا ... بوجْهِكَ هَيْجاوَاتُهَا وقُصُورُهَا
فَلاَ أَوْحَشَتْ من عِزِّ ذِكرِكَ دَوْلَةٌ ... إليكَ انتهى مأمورُهَا وأَميرُهَا
فما راقَ إلا فى جبينك تَاجُهَا ... ولا قَرَّ إلا إذ حواكَ سريرها
فلا راعها خَطْبٌ وسيفُكَ أُنْسُهَا ... ولا رامها ضيمٌ وأنتَ مُجِيرُهَا
ومَنْ ذا يُناويهَا وأنت أميرها ... ومن نسلِكَ الزاكي الـكريمِ وزيرها؟
فتىً طالَعتهُ بالسعود نجومُهـا ... وطارت له باليُمْنِ فينا طيورها
أَذَلَّ له «عبدُ المليكِ» ملوكَهَا ... وأَنْجَبَهُ «المنصورُ» فهْوَ نصيرها
بِحَارٌ أُمِرَّتْ للأعادى طُعومُها ... كما طاب فينا شُرْبُهَا وطَهُورُهَا
وأَربابُ مُلْكٍ فى رياسةِ أُمَّـةٍ ... لهم فى المعالي عِيرُهَا ونفيرها
وما يتساوَى موتُهَا وحياتُهَا ... ولا يَتَـكَافَا ظِلُّهـا وحَرُورُهَا

وأنت الذي أَوْرَدْتَ «لُونَةَ»[1] قاهِراً — خيولاً سماء الأَرْضِ فيها نُحُورُها
وقد لاح بالنصر العزيز لواؤُها — وأَعْلَنَ بالفتحِ المبين بَشِيرُهَا
وحلَّتْ حُلُول اللَّيلِ في كلِّ بلدةٍ — سَوَاءٌ بها إدْلاَجُها وَبُكُورُها
وقَدْ قَنَأَتْ[2] سُمْرُ القنا بِدِمَائِهَا — وغَالَتْ صُدُورَ الدارعين صُدُورُها
صَلِيتَ وقد أَذْكَى الطِّعَانُ وَقُودَهَا — وفَارَ بِنِيرَانِ السُّيُوفِ سَعِيرُهَا
وخُضْتَ وقد أَعْيَتْ نَجاةُ غَرِيقِهَا — وهالَتْ بأَمواجِ المنايا بُحُورُها
وقد ضربت خدراً على الشمس وانجلت — بها عن شموس الغانيات خدورها
[٨م] / عَقَائِلَ أبكاراً غَدَوْنَ نواكِحاً — وما أَصْبَحَتْ إلا السيوفَ مُهُورُهَا
فَلاَ مُحِيَتْ أَفْخَاذُهَا مِنْ سِمَاتِكُمْ — ولا عَرِيَتْ من ناصِرِيكُمْ ظُهُورُها[3]

---

(١) « لونة » (بالإسبانية Luna) اسم قلعة منيعة تقع على نهير يحمل هذا الاسم أيضاً وتسمى الآن باريوس دي لونا Barrias de Luna في مقاطعة ليون Léon الحالية ، وكان عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر قد توجه إليها وافتتحها في غزوة له إلى بلاد النصارى في سنة ٣٩٥ هـ . (١٠٠٥م .) ولابن دراج أكثر من إشارة له إلى هذه الغزوة التي يتحدث عنها في هذا البيت . (انظر ما كتبه حول الغزوة المذكورة ليفي بروفنسال في تاريخ إسبانا الإسلامية ٢ / ٢٨٧) .

(٢) قنأت أي اشتدت حمرتها .

(٣) هكذا في الاصل وهي تحتمل وجها من التأويل إذ يحتمل أن يكون قد قصد « فلا محيت سماتكم من أفخاذها » أي بتغيير مكان حرف الجر ، ويمكن أن تكون « أنجادها » أي جبالها ومرتفعاتها جمع نجد .

— ٨ —

وقال فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الطويل]

فَدَيْنَاكَ سَيْفاً لم تَخُنْهُ مَضَارِبُهْ   وبحرَ عَطاءٍ ما تَغِيضُ مواهِبُهْ

وبدراً تجلَّى في سماءِ رياسةٍ   كواكبُها آثارُهُ ومَنَاقِبُهْ

تقلَّدَ سيفَ اللهِ والْتَحَفَ النَّدى   فَسَدَّدَ رَاجِيهِ وَأَعْذَرَ هائِبُهْ

فها هُوَ ذَا في كلِّ قلبٍ مُمَثَّلٌ   وهاتيك عند الفَرْقَدَيْنِ مَرَاتِبُهْ

فما عَرَّجَتْ عنه سبيلٌ لِطَالِبٍ   ولا رَحُبَتْ أرضٌ بِمَنْ هو طالِبُهْ

خلائقُ مِنْ ماءِ الحياةِ وطالَمَا   يَغَصُّ بِهِ يَوْمَ الكريهةِ شَارِبُهْ

أَمُلْبِسَنَا النُّعْمَى ألارُبَّ مَلْبَسٍ   سَنِيٍّ وتاجٍ لِلْعُلَا أنت سالِبُهْ

وَلَيْلٍ كريعانِ الشبابِ قَذَفْتَهُ   بِهَوْلِ السُّرَى حتى أشِيبَتْ ذَوائبُهْ (١)

وَصَلْتَ به يوماً أَغَرَّ صَحِبْتَهُ   غُلاماً إلى أن طَرَّ بالليلِ شَارِبُهْ

بِكُلِّ مُذَلٍّ كَرَّمَتْهُ جُدُودُهُ   وكُلِّ كَمِيٍّ أَحْكَمَتْهُ تَجَارِبُهْ

وعَضْبٍ يَمَانٍ قد تَعَرَّفْتَ يُمْنَهُ   وإنْ يَنْتَسِبْ تَعطِفْ عَلَيْكَ مَنَاسِبُهْ

---

(١) ورد هذا البيت والذي يليه في « رايات المبرزين وغايات المميزين » لابن سعيد المغربي (نشر الأستاذ غرسية غومس ـ مدريد سنة ١٩٤٢) ص ٧٣ ؛ على أنه قد جاء في الرايات « بجهد السرى » مكان « بهول السرى » .

وسُمْرٍ لِدَانٍ كالكواكبِ سُقْتَهَا ... ليوم من الأعداء بَادٍ كَوَاكِبُهْ
صَلِيتَ ونارُ الحربِ يَذْكُو سَعِيرُهَا ... وخُضْتَ ومَوْجُ الموتِ تَطْفُو غَوارِبُهْ
ولا مثلَ يوم نحو « أُونَةَ » سِرْتَهُ ... وقد قَنَّعَتْ شَمْسَ النهارِ غَيَاهِبُهْ
رَفَعْتَ لها في عارضِ النَّقْعِ بَارِقًا ... تَسِحُّ شآبيبَ المنايا سَحَائِبُهْ
وعَذْرَاءَ لم يَأْتِ الزمانُ بكُفْئِهَا ... ولا رامها بَعْلٌ وإن عَزَّ جانبُهْ
معوَّذَةٍ[1] لم يَسْرِ خطبٌ بأرْضِهَا ... ولا عَرَفَتْ بالدَّهْرِ كَيْفَ نوائبُهْ
ثَوَتْ بَيْنَ أَحشاءِ الضَّلالِ وأُشْرِعتْ ... أَسِنَّتُهُ مِنْ دُونِهَا وَقَوَاضِبُهْ
وأَصْبَحْتَ يا عبدَ المليكِ مَلِيكَهَا ... وأَنْجَحَ سَاعٍ جَاءَ والسَّيفُ خاطِبُهْ
وَسُقْتَ لها صِدْقَ اللقاءِ مُعَجَّلاً ... صَدَاقًا إذاما هَلْهَلَ[2] الضَّرْبَ كاذِبُهْ
وجيشٍ أَضاءَ الخافِقَيْنِ رِمَاحُهُ ... وفاضت على رَحْبِ البلادِ كتائبُهْ
وقد ضَمَّهَا في نَفْنَفٍ[3] الجوِّ مَعْقِلٌ ... عَسِيرٌ على عُصْمِ الوُعُولِ مَرَاقِبُهْ
[٨ب] /بَعَثْتَ عليها منكَ دَعْوَةَ واثقٍ ... صَفَا شاهِدُ الإخلاصِ منه وغَائِبُهْ
فَسَرْعَانَ ما أَقْوَى الثَّرَى من أُسودِهِ ... وأَبْرَزَ من خُرِّ الحِجَالِ كواعِبُهْ
ثَلاثَةَ آلافٍ حِسَابًا وَمِثْلُهَا ... وقد غَلَّ عَازِبِهِ وأَسْأَرَ حَاسِبُهْ[4]

---

(١) في الأصل « معودة » ولعلها كما أثبتنا ، أي جعلت لها عوذة وهي الرقية .
(٢) هلهل الصوت أي رجعه ويقصد بهلهلة الضرب ترديده دون قطع أو إنفاذ .
(٣) النفنف هو الهواء .
(٤) غل من المغنم أي أخذ شيئاً منه في خفاء ، وعازبه أي من يتحرى –

فيا لَيْتَ « قُوطاً » حين شادَ بناءهُ   رآه وقد خَرَّتْ إِلَيْكَ جَوانبهُ
ويا ليت إذْ سَمَّاه بَدْراً مُعَظَّماً   رآه وفي كِسْفِ العَجاجِ مغَاربُهْ(١)
فيَعْلَمَ أنَّ الحقَّ دَافِعُ(٢) كَيْدِهِ   وأنَّكَ —حِزْبَ اللهِ— لاشَكَّ غَالِبُهْ
فلا خُذِلَ الدِّينُ الذى أنت سَيْفُهُ   ولا أُوحِشَ المُلْكُ الَّذى أنت حَاجِبُهْ

— ٩ —

وقال فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من المتقارب]

زَمانٌ جَديدٌ وصُنْعٌ جديدٌ   ودنيا تَرُوقُ ونُعْمى تَزِيدُ
وغيثٌ يَصُوبُ وعيشٌ يطيبُ   وعِزٌّ يدومُ وعِيدٌ يعودُ
ومُلْكٌ يُنِيرُ بِعَبْدِ المليكِ   كَشَمْسِ الضُّحَى سَاعَدَتْهَا السُّعُودُ(٣)

ـ نسبته ، وأسأر من الشراب أبقى منه شيئاً ، ويقصد الشاعر أن عدد السبايا بلغ ستة آلاف فضلا عما أخفى حسابه القائمون بمهمة تحري عدده .

(١) يريد في هذين البيتين أن من بنى هذا الحصن ـ حصن « لونة » ـ من ملوك النصارى ـ ويعبر عنهم بكلمة « قوط » ـ أطلقوا عليه لفظ Luna ومعناها باللاتينية « بدر » وكذلك في اللغة الإسبانية الحالية ، وهم لا يقدرون أن هذا « البدر » سيكون غروبه على يد عبد الملك المظفر .

(٢) في الأصل « دامع ».

(٣) وردت هذه الأبيات الثلاثة الأولى في البيان المغرب لابن عذاري (٣ / ٢١) دون أن ينسبها لابن دراج .

ونَصْرٌ كما تَتَمَنَّى الأَمَانِي وَمَوْلًى كما يتمنى العبيـدُ
حَيَاءٌ وحِـلْمٌ وفضلٌ وعـدلٌ وعَطفٌ وعَفْوٌ وبأسٌ وجُودُ
إذا سِيلَ كاد يذوبُ ارتياحاً وإنْ صالَ كادَ يذوبُ الحديدُ
فيا خيرَ من وَلَدَتْـهُ الملوكُ وأكرمَ من نَصَرَتْـهُ الجنودُ
وأشجعَ من حملته الخيولُ وأهْيَبَ من رَهِبَتْهُ الأسودُ
وأَصمدَ من جَرَّبَتْهُ السيوفُ وأجمَلَ من ظَلَّلَتْهُ البُنُودُ
ومَنْ هو للمُلكِ سورٌ منيعٌ ومن هو للدينِ رُكْنٌ مَشيدُ
تقبَّلْ هَدِيَّةَ عبدٍ حَدَاها لسانٌ شَكورٌ وقلبٌ وَدُودُ
جواهِرَ من نظمِ حُرِّ الثناء تبيدُ اللَّيالي وَمَا إنْ تبيدُ

— ١٠ —

وقال فيه أيضا رحمة الله عليهما

[من الكامل]

كلُّ الكواكبِ ماطَلَعْتَ سُعُودُ وإذا سَلِمْتَ فكلُّ يومٍ عِيدُ
وَافَاكَ يومُ المِهْرَجَانِ وَبَعْدَهُ للفِطْرِ يومٌ بالسرورِ جَدِيدُ
فصلٌ يُعاوِدُ كلَّ عامٍ والنَّدَى في كلِّ حينٍ من يَدَيْكَ يعودُ
إن أقلعَتْ دِيَمُ السَّحابِ فلم تَجُدْ فسحابُ كفِّكَ ما يزال يَجُودُ
[٢٩] / ولَئِنْ طوى عَنَّا الربيعُ ثيابَهُ فربيعُ جودِكَ شاهدٌ مَشْهُودُ
لازالت الدنيا وأنْتَ لأهلِهَا مولًى ونحن لِرَاحَتَيْكَ عبيدُ

وقال فيه حين ولّى ابنَهُ الوزارة رحمهم الله تعالى (١)

[من الكامل]

الْيَوْمَ أَبْهَجَتِ المُنَىٰ إِبْهَاجَهَا — وَتَوَسَّطَتْ شَمْسُ الضُّحَى أَبْرَاجَهَا
ما لِلْوِزَارَةِ لا تُضِيءُ لنا وقد — أَضْحَى سِرَاجُ العالَمِينَ سِرَاجَهَا
شَمْسٌ تبدَّتْ في ذَوَائِبِ يَعْرُبٍ — رَكِبَتْ إلى الرُّتَبِ العُلَى مِعْرَاجَهَا
لم تَنْتَقِلْ قِدَماً لأَوَّلِ مَنْزِلٍ — في المَجْدِ حَتَّى اسْتَقْبَلَتْ مِنْهَاجَهَا
أَنْجَبْتَهُ (٢) ذُخْرَ الخِلَافَةِ إِنْ شَكَتْ — أَلَماً تَضَمَّنَ بُرْءَهَا وعِلاَجَهَا
وسَلَلْتَهُ سيفاً لكلِّ مُلِمَّةٍ — يَفْرِي بأَوَّلِ ضَرْبَةٍ أَوْدَاجَهَا

---

(١) أورد معظم أبيات هذه القصيدة الثعالبي في يتيمة الدهر (٢ / ١١١ - ١١٢)، وقد قيلت في صدر سنة ٣٩٨ (اكتوبر سنة ١٠٠٧) بمناسبة صدور كتاب من الخليفة هشام المؤيد إلى عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر بتلقيبه « المظفر » وبتولية ابنه محمد أبي عامر خطة الوزارتين ، وذلك بعد غزوة قلنية التي فض فيها جموع النصرانية ، وقد أورد نص هذا الكتاب ابن عذاري في البيان المغرب (٣ / ١٦ – ١٧) وابن الخطيب في الأعمال (ص ١٠٢ –١٠٣) وانظر عن ذلك ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢ / ٢٨١ .

(٢) في الأصل « أنجبته » وقد اتبعنا في هذه الكلمة قراءة اليتيمة .

فنظمتَ في صدرِ الوزارة عِقْدَها — وعقدْتَ في رأسِ الرِّياسَةِ تاجَها
والخيلُ جانحةٌ إليه كلّما — رُفِعَ اللواءُ وأُوجِستْ إسْراجَها
وكأنّني بجبينِه في لُجّةٍ — للحرْبِ يخرقُ بالقنا أمْواجَها
حتّى يغيّبَ في النجومِ دماءَها — دفْناً ويرْفعَ في السماءِ عجاجَها
ويئُوبَ[1] بالفتحِ المُبِينِ وقد كسا — نَفَلُ[2] العُداةِ شِعابَها وفِجاجَها
يا قِبْلَةً للآملينَ وكعْبةً — تدْعُو بحَيَّ على النّدى حُجّاجَها
ومُبارِزَ الأُسْدِ الغِضابِ وقد غلَتْ — حربٌ توكّلُ بالحتوفِ هِياجَها
أنتَ الّذي فرّجْتَ عنّي كُرْبةً — للدهرِ قد سَدَّتْ[3] عليّ رِتاجَها
وجلوتَ لي فلَقَ[4] المُنى من ليلةٍ — طاولْتُ في ظُلَمِ الأسى إدْلاجَها
وسقيتَني من جودِ كفِّكَ مُنعِماً — كأْساً وجدتُ من الحياة مِزاجَها
فلألْبسنَّ الدهر فيك مَلابِساً — للحَمْدِ أُحكِمَ منطقي دِيباجَها
جُدُداً على طولِ الزمانِ أبى لَهُ — خَرْقُ التيقّظِ والنُّهى إنْهاجَها[5]
ما عاقَبَ الليلُ النهارَ ورجّعَتْ — وُرْقُ الحمائمِ بالضُّحى أهْزاجَها

---

(١) في الأصل « ويوت » ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٢) النفل هو الغنيمة .

(٣) في اليتيمة « شدت » .

(٤) في اليتيمة « قلق » ولا معنى لها هنا .

(٥) أي إبلاءها .

وله فيه أيضاً رحمهما الله

[من الطويل]

سلامٌ على البدرِ الّذي خلّفَ الشَّمْسَا   وكان لنا في يومِ وحشتِهِ أُنْسَا

سِراجانِ للدنيا وللدِّينِ أشرقا   فشمسٌ لمَنْ أضحى وبدرٌ لمن أمسى

[٩ب] / رمى في سبيلِ اللهِ غايةَ مُقْدِمٍ   جَديرٍ بأن يستعبدَ الجنَّ والإنْسَا

فسابَقَ حتى لم يَجِدْ للعُلا مَدىً   وجاهَدَ حتى لم يَجِدْ للعِدى حِسَّا

وسارَ ورُوحُ المُلْكِ في نُورِ وَجْهِهِ   وخلَّاكَ يا نَجْلَ الملوكِ له نَفْسَا

لتَعْتَصِبَ التاجَ السَّنيَّ الذي اكْتَسى   وتَرتَقِيَ الطودَ الرفيعَ الَّذي أرْسى

وتجلُو لنا منه شمائلَ لم تَغِبْ   وتُذْكِرَنا منه شمائلَ لا تُنْسى

وتكسُو ثيابَ العُرْفِ والجودِ والندى   أمانِيَّ لا زالت بأنعمه تُكْسى

فلا أوحشت هذي المنازلُ منكما   ولا فارقت أبراجُها البدرَ والشمسا

وله في إعذار ابن المظفر وشهود هشام أمير المؤمنين إياه رحمة الله تعالى على جميعهم (*)

[من مخلع البسيط]

بشيرُ يومٍ بمُلْكِ دهرٍ   وصِدْقُ فـألٍ بطولِ عُمْرِ
ودولةٌ بالسرورِ تَبْـأَى (١)   وأنجُمُ بالسعودِ تَجْري
وغُرَّةٌ بَشَّرَتْ بفتحٍ   وافاك واستبشَرَتْ بنصرِ
شاهدُ صُنعٍ وغيثُ فتحٍ   تواعَـدَا طُهْرَةً لِقَـدْرِ
فأقبلا سـابِقٌ وتَالٍ   طلوعَ شمسٍ بإِثْرِ فَجْرِ
فـآنَ يا نفسُ أَنْ تُسَرِّي   بـكلِّ ما شئتِ أَنْ تُسَرِّي
وحانَ يا عَيْنُ أَنْ تقَرِّي   بكلِّ ما شئتِ أَنْ تقَرِّي
غيثُ سحابٍ وغيثُ جودٍ   وطيبُ عَرْفٍ وطيبُ ذِكْرِ

(*) يعني بابن المظفر هذا محمداً أبا عامر بن عبد الملك المذكور في القصيدة السابقة ، وقد ولد محمد سنة ٣٩٢ (١٠٠٢ م) كما يفهم من نص لابن الخطيب (أعمال الأعلام ص ١٩٣) ، وكانت وفاته في سنة ٤٢١ (١٠٣٠) .
أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون بين سنتي ٣٩٢ و ٣٩٨ هـ .
(١) تبأى أي تفخر .

وراحــةٌ غيمَتْ علينــا تغدِقُ ساحاتِنــاَ بتِبْرِ
الأَرضُ قـد حُلِّيَتْ رياضــاً كـُلَلَ تيجانُهــاَ بزَهْرِ
كـأنمـا أنبتت رُباهــاَ زُمُرُّداً أثمرَتْ بِـــدُرِّ
وخيرُ شمسٍ « لعبَدِ شمْسٍ » أَحلَّهُ السعـــدُ خيرَ قَصْرِ
خليفــةُ اللهِ راح ضَيْفــاً لسيفِـهِ الحاجِبِ الأَغَرِّ
زارَ لتطهيرِ من كَسَاهُ وزارتَيْ مَفْخَـرٍ وخَطْرِ
فـأَيُّ ضيفٍ وأَيُّ سيفٍ وأَيُّ مُلْكٍ وأَيُّ فَخْرِ
وأَيُّ شِبْـلٍ لأَيِّ لَيْثٍ وأَيُّ نهرٍ لأَيِّ بحرِ
/ مُتَوَّجٌ قبـلَ يومِ مُلْكٍ مُطَهَّرٌ قبـل حـين طهر [١٠ أ]
أَدنَى إليه الطبيب عَطْفاً في مُرْتَقَى للخطوبِ وَعْرِ
فسُدِّدَتْ كفُّه بصنعٍ وأَدْهِشَت نفسُـهُ بذُعرِ
فيــا لَهُ رَامَ غَمْرَ ليثٍ ومدَّ كـفّاً لِلَمْسِ بَدْرِ
أَغْمِـــدَ عَنْهُ حُسامُ بَأْسٍ فقـــد تَـكَمَّى بدرعِ صَبْرِ
لِسُنَّـةٍ لــلإِلَهِ أَعْطَى قيـادَ رَاضٍ بها مُقِرِّ
يا لَوْعَـةً لِلْحَدِيدِ فازتْ طُلَّابُ أَعـدائها بوِتْرِ
وقطرةً من دمٍ ستَمْرِي دمَ العِدَى وابلاً بقَطْرِ
وجُنْـدُ أنصارِهَا شهودٌ لم يـُذْعِنُوا قَبْلَهـا لقَسْرِ
وأَبرَزُوا كلَّ شبلِ غابٍ بكُلِّ ذي لبدةٍ هِزَبْرِ
كلٌّ يُوَاسِي بنفسِ عَبْدٍ يقضي عليها بصَبْرِ حُرِّ

فَحُفَّ بدرُ السماءِ منه بأنْجُمٍ للسعودِ زُهْرِ
وأَصبحَ الدهرُ من كُسَاهُ في حُمْرِ إِستَبْرَقٍ وخُضْرِ
وأَشرقَ الملكُ والعَوَالِي في أَوْجُهٍ من نداه غُرّ

— ١٤ —

وقال فيه حين قتله لعيسى بن سعيد (*)

[من الكامل]

شُكْراً لمن أَعطاكَ ما أَعطاكا رَبٌّ أَذلَّ لمُلْكِكَ الأَمْلاكا (١)

(*) هو عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بالقطاع ، كان أول كاتب المنصور ابن أبي عامر قبل ملكه ولهذا حسنت منزلته لدى المنصور ، وفي سنة ٣٨٦ أرسله ابن أبي عامر على رأس جيش لإخضاع ثورة زيري بن عطية المغراوي ، وارتفعت درجة ابن القطاع بعد ذلك في عهد عبد الملك المظفر ابن المنصور حتى إن عبد الملك زوج ابنه من أخته الصغرى ، ثم لم يلبث أن تنكر له المظفر بعد أن نقل إليه أنه يسعى إلى الثورة على الدولة العامرية وتنصيب الأموي هشام بن عبد الجبار ، على أن المظفر عاجله بالقتل في العاشر من ربيع الأول سنة ٣٩٧ (٤ ديسمبر سنة ١٠٠٦) — انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ — ٢٨١ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ٢٤ - ٣٥ ، ٥٢ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١ / ١٠٢ — ١٠٧ ؛ ق ٤ — ١ / ٣٤ — ٣٥ ؛ ابن الخطيب : الأعمال ص ٧٥ .

(١) أورد ابن عذاري في « البيان المغرب » — نقلا عن ابن حيان — مطلع هذه القصيدة فيما أورده من قصائد الشعراء الذين هنأوا المظفر عبد الملك بن —

فَشَفَى الأَمَانِي من يمينكَ مِثْلَمَا   رَوَّى سيوفَكَ من دماء عِدَاكَا
شِيَمٌ بعَدْلِ اللهِ فيك تقسَّمَتْ   في العالَمِينَ مَعَايِشاً وهَلاَكَا
والله أَشْقَى جَدَّ من عاداكا   صُنْعاً وأَسْعَدَ جَدَّ مَنْ والاكا
يا حَيْنَ مختارٍ لسُخْطِكَ بعدما   ضاءت له الدنيا بنجمِ رِضَاكا
جَدَّتْ مساعِيهِ ليَحْفِرَ هُوَّةً   فهوَى إليها من سماء عُلاَكا
لَفَحَتْهُ نارٌ باتَ يقدحُ زَنْدَهَا   في روضةٍ ممطورةٍ بِنَدَاكا
أمسى وأصبح بَيْنَ ثوبَيْ غَدْرِهِ   سَلَبَتْهُ ما أَلْبَسْتَ من نُعْمَاكا
أَوَ مَا رأى المُغْتَرُّ عُقْبَى مَنْ سَعَى   في كُفْرِ ما أَسْدَتْ له يُمْنَاكا ؟
أَوَ مَا رآكَ قد اُسْتَعَنْتَ بذي العلا   فأعانَ واسْتَكْفَيْتَهُ فَكَفَاكا ؟
/أَوَما رأى أحكامَهُ وقضاءَهُ   يجري بِمَهْلِكِ مَنْ يشقُّ عصاكا ؟ [١٠ب]
أَوَما رأى إشراقَ تاجِكَ في الوَرَى   والمَكْرُمَاتِ الزُّهْرَ بعضَ حُلاَكا؟
أَوَما رأى مفتاحَ بابِ اليُمْنِ في   يُمْنَاكَ والميسورَ في يُسْرَاكا
ومتى رأى دَاءً جهِلْتَ دواءَهُ   أو خطبَ دهرٍ قَبْلَهُ أَعْيَاكا
ما كان أَبْيَنَ في شواهِدِ عِلْمِهِ   أنَّ الرياسةَ لا تُرِيدُ سِوَاكا
حتىَّ هَوَتْ قَدَمَاهُ في ظُلَمِ الرَّدَى   لما اهْتَدَى فيها بِغَيْرِ هُدَاكا

ـ المنصور بن أبي عامر بإيقاعه بعيسى بن سعيد القطاع وقتله إياه (٣ / ٣٥) . ونلاحظ أن في رواية ابن حيان لهـذا المطلع كلمة « ملك » في مـكان كلمة « ب » الواردة في الديوان .

وأراكَ فيه اللهُ مِن نَقَماتِهِ عاداتِهِ في حَتْفِ مَنْ عاداكا
قُلْ للمُصَرَّعِ لا لَعاً من صَرْعَةٍ وَافَيْتَهَا بغياً على مَوْلاكا
تبّاً لسعيكَ إذ تَسُلُّ مُعانِداً لِخلافِهِ السيفَ الذي حَلاّكا
وسقاكَ كأساً للحتوفِ وَكَمْ وكَمْ مِنْ قَبْلِهَا كأسَ الحياةِ سَقاكا
لا تَفْتُلِ الأيَّامُ سيفاً ماضياً فضَّ الإلهُ بشفرتَيْهِ فَاكا
حَيِيَتْ لموتِكَ أنفُسٌ مظلومَةٌ كانت مناياهُنَّ في مَحْيَاكا
فانْهَضْ بخِزْيِ الدينِ والدنيا بما قد قَدَّمَتْ في المسلِمِينَ يَدَاكا
هذا جزاءُ الغَدْرِ لا عَدِمَ الهُدى[1] مولى بسعيك في النفاق جزاكا
يأيُّهَا المولى الذي نَصَرَ الهُدى وحَمى الثغورَ وذَلَّلَ الإشْرَاكا
لا يُبْعِدِ الرحمنُ إلا مُهْجَةً ضَلَّتْ وفي يدها سِرَاجُ هُدَاكا
تَعْساً لِمَنْ ناواكَ بل ذُلاً لِمَنْ ساماكَ بَلْ خِزْياً لمن جاراكا
فابلُغْ مُناكَ فإنَّ غاياتِ المُنى المسلمين بِأَنْ تنالَ مُناكا
حتى ترى النَّجْلَ المُبَارَكَ رافِعاً عَلَمَ السيادة جَارِياً لِمَدَاكا
ويُرِيكَ في شِبْلِ المكارِمِ والهُدى والبِرِّ أفضَلَ ما أَرَيْتَ أباكا

(١) في الأصل : الهوى .

وقال فيه رحمة الله عليهما ويصف روضة سوسن في شهر شعبان[٢]

[من الكامل]

جَهِّزْ لَنَا في الأَرضِ[٣] غزوةَ مُحْتَسِبْ ... واندُبْ إليها من يُسَاعِدُ وانْتَدِبْ
واحمِلْ عَلى خيلِ الهوى شِيَمَ الصِّبَا ... واعقِدْ لجيشِ اللَّهوِ أَلْوِيَةَ الطَّرَبْ
واهتِفْ بأَجنادِ السرورِ وَقُدْ بِهَا ... نحوَ الرياضِ وأنتَ أَكرمُ مَنْ رَكِبْ
/ جيشاً تكونُ طبولُهُ عِيدانَهُ ... وقرونُهُ النَّاياتِ تُسْعِدُهَا القَصَبْ [١١م]
واهْزُزْ رِماحاً من تباشيرِ المُنَى ... واسلُلْ سيوفاً من مُعَتَّقَةِ العِنَبْ

---

(٢) وردت عشرة أبيات من هـذه القصيدة في كتاب « البديع في وصف الربيع » لأبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري ، بتحقيق الأستاذ هنري بيريس ، ط . الرباط سنة ١٩٤٠ ، ص ١٣٣ ؛ كذلك روى بيتين من أبياتها كل من ابن سعيد المغربي في كتاب رايات المبرزين وغايات المميزين بتحقيق الاستاذ غرسية غومز ، ط . مدريد سنة ١٩٤٢ ، ص ٧٣ من النص العربي و ص ٢٣٢ من الترجمة الإسبانية ، وفي عنوان المرقصات والمطربات (بتحقيق الاستاذ محداد عبد القادر ط . الجزائر سنة ١٩٤٩) ص ٢٠ من النص و ٢١ من الترجمة و ص ٦٣ من حواشي الكتاب ؛ والمقري في نفح الطيب (ط . ليدن) ٢ / ١٣٢

(٣) في « البديع » : الروض .

وانصِبْ مجانيقاً من النِّيَمِ التي أحجارُهُنَّ من الرَّواطِمِ والنخَبْ[1]
لمعاقلٍ من سَوْسَنٍ قد شَيَّدَتْ أيدي الربيع بِناءَها فوقَ القُضُبْ[2]
شُرُفَاتُها من فضَّةٍ وحُماتُها حولَ الأميرِلهم سُيوفٌ من ذَهَبْ[3]
مُتَرَقِّبِينَ لأَمره وقَدِ ارْتَقَى خَلَلَ البناءِ ومَدَّ صَفْحَةَ مُرْتَقِبْ
كأَميرِ« لُونَةَ » قد تطلَّعَ إذْ دَنَا عبدُ المليكِ إليه في جَيْشٍ لَجِبْ
فلَئِنْ غَنِمْتَ هناكَ أَمثالَ الدُّمَى فهُنَا بيوتُ المِسْكِ فاغْنَمْ وانْتَهِبْ
تُحَفاً لشعبانٍ جَلاَ لكَ وَجْهَهُ عِوَضاً مِنَ الوردِ الذيأَهْدَى رَجَبْ
فاقْبَلْ هدِيَّتَهُ فقد وَافَى بِهَا قدرا إلى أمد الصيام إذا[4] وجب

(١) النيم جمع نيمة (بكسر النون) وهي عند الأندلسيين القنينة أو الزجاجة (انظر : دوزي : ملحق القواميس العربية ٢ / ٧٤٣) ، وأما الرواطم فجمع رطومة ويقال فيها أيضاً « رضومة » ، ومعناها القنينة أيضاً ، وهو لفظ أندلسي مأخوذ من اللغة الاسبانية القديمة (اللاتينية الدارجة أو الرومانسية) ، وكان ينطق بهذه الصورة Rotoma أو Arraodoma (انظر ملحق القواميس لدوزي ١ / ٥٣٤ ؛ وأرنالد شتايجر : دراسة حول الأصوات الأندلسية ص ١٦٣ ، ٣٥٤) .

(٢) في رايات المبرزين وعنوان المرقصات : « ومعاقل » بدلا من « لمعاقل » وفي نفح الطيب « كمعاقل » ، أما الحميري في البديع فقد اتبع رواية الديوان ، وفي عنوان المرقصات « العذب » بدلا من « القضب » .

(٣) ورد هذا البيت في جميع المراجع التي سبق ذكرها دون خلاف في الرواية .

(٤) في الأصل : الذي ، وقد تكون كما أثبتنا ، أو لعلها « وقد » إذ أن الوزن لا يستقيم بكلمة « الذي » الواردة في الأصل .

واسْتَوْفِ[1] بهجتَهَا وطِيبَ نسيمِهَا فإذا دَنَا رمضانُ فاسْجُدْ واقترِبْ
وصِلِ الجهادَ إلى الصِّيامِ بِعَزْمَةٍ من ثائرٍ يُرْضِي الإلٰهَ إذا غَضِبْ
فالنَّصْرُ مضمونٌ عَلى بِرِّ الهُدٰى وعواقِبُ الرَّاحاتِ أثمارُ التَّعَبْ
وارفعْ رغائِبَ ما نَوَيْتَ إلى الذي ما زِلْتَ ترفعُهَا إليه فلَمْ تَخِبْ
حتَّى تثوبَ وقد نَظَمْتَ قلائداً فوقَ المنابِرِ لا تُغَيِّرُهَا الحِقَبْ
بِجواهرٍ من فخرِ يومِكَ في العِدٰى تَبْأَى بها في الدَّهْرِ تيجانُ العَرَبْ
فتح تكادُ سطورُهُ من نُورِهَا تبدُو فتقْرَأُ خَلْفَ طَيَّاتِ الكُتُبْ
واقبَلْ هَدِيَّةَ عبدِكَ الراجِي الَّذِي أَهدى إليك الدُّرَّ من بحرِ الأَدبْ

— ١٦ —

وقال أيضاً فيه رحمهما الله ويصف البهار[2]

[من المتقارب]

دُعِيتَ فأَصْغِ لِدَاعِي[3] الطَّرَبْ وطاب لَكَ الدهرفاشْرَبْ وَطِبْ

(١) في البديع : « فاستوف » .
(٢) جاءت هذه الأبيات كلها في « البديع » للحميري ص ١٠٠ ؛ وانظر كذلك ص ٥١ ؛ وقد أورد الثعالبي منها سبعة أبيات في « اليتيمة » ٢ / ١١٢ ونقل النويري منها بيتين في « نهاية الأرب » ١١ / ٢٨٦
(٣) في « البديع » : « لراعي » ورواية الديوان هي الصحيحة .

وهذا[1] بَشيرُ الربيعِ الجديدِ ... يُبَشِّرُنَا أَنَّـــهُ قـد قَرُبْ
بِهَارٌ يَرُوقُ بِمِسْكٍ ذَكِيٍّ ... وصُنْعٍ بَديعٍ وخَلْقٍ عَجَبْ
غصونُ الزَّبَرْجَدِ[2] قد أَوْرَقَتْ ... لنا فِضَّةً نَوَّرَتْ بالذَّهَبْ[2]
إذا جُمِعَتْ في حِبَالِ الحَريرِ[3] ... وقامَتْ أَمامَكَ مِثْلَ اللُّعَبْ
فَمِنْ حَقِّهـا أَنْ تَرَى الشَّارِبينَ ... وقد نَفَقَتْ سُوقُهُمْ بِالنُّخَبْ
[١١ ب] / وَأَنْ تَسْأَلُوا[4] اللهَ طولَ البَقَاءِ ... لِعَبْدِ المَليكِ مَليكِ العَرَبْ
فلولا مَحَاسِنُـهُ[5] لم تَرُقْ ... ولولا شمائِلُـهُ لَمْ تَـطِبْ

— ١٧ —

وله أيضاً رحمه الله في النرجس[6]

[من الكامل]

شكلانِ من راحٍ ورَوْضَةِ نَرْجِسٍ ... يَتَنَازَعَانِ الشِّبْهَ وَسْطَ المجلِسِ

---

(١) في « اليتيمة » : فهذا .

(٢) في « البديع » : « الزمرد » بدلا من « الزبرجد » ورواية الديوان أصح ؛ وفي نهاية الأرب : « موهت » بدلا من « نورت » .

(٣) في « البديع » : الحديد ولا معنى لها هنا .

(٤) في « البديع » : يسألوا .

(٥) في « البديع » مجالسه .

(٦) وردت هذه المقطوعة في « البديع » أيضاً ما عدا البيت الثالث منها ، وقد ذكر الحميري أنها في وصف النرجس الأصفر . انظر ص ١١٦

مُتَبَاهِيَيْنِ تَلَوُّنًا بِتَلَوُّنٍ ... متبارِيَيْنِ تنفُّساً بتنفسِ

لـكنَّ هَذِي بين أَحشاءِ الفتى ... نارٌ ، وهَـذَا جَنَّـةٌ للأنْفُسِ

فكأَنَّها من حَـدِّ سيفِكَ تَلْتَظِي ... وكأَنَّـهُ من طِيبِ خُلْقِكَ يَكْتَسِي

يا مَنْ عَلَا من رُتْبَـةٍ في رُتْبَـةٍ ... حتَّى غَدَا وَسْطَ النجومِ الخُنَّسِ

وابْنَ الذينَ هُدَاهُمُ ونُهَاهُمُ ... أَدبُ الملوكِ وأُسْوَةُ المؤتَسِي

— ١٨ —

وله أيضاً رحمه الله في الخيري[1]

[من المتقارب]

غـدا غَيْرَ مُسْعِدِنَا ثُمَّ رَاحَا ... يُسَاعِـــدُنَا طَرَبًا وارْتِيَاحَا

وخُيِّرَ فاختار دِينَ[2] الغَبُوقِ ... ولَجَّ فليسَ يَرَى الإِصْطِبَاحَا

فإنْ آنَسَ الصُّبْحَ نَامَ وشَحَّ ... وإنْ آنسَ الليلَ نَمَّ وَفَاحَا

كمـــا خَيَّرَ اللهُ عَبْدَ المَليـــكِ فَاخْتـــارَ في رَاحَتَيْهِ السَّمَاحَا

وفي صَهَوَاتِ الخُيُولِ الرِّجَالَ ... ومِنْ أَدَواتِ الرِّجَالِ السِّلَاحَا

فَعَمَّ القريبَ نَدًى والبَعِيـــدَ ... وروَّى السُّيُوفَ دَماً والرِّمَاحَا

(١) وردت هذه القطعة كلها أيضاً في « البديع » ص ١٠٩ — ١١٠ ، وورد البيتان الأولان منها في شرح الشريف الغرناطي لمقصورة حازم القرطاجني ١ / ١٥٥ .

(٢) في « البديع » شرب .

— ١٩ —

ولـه أيضاً رحمه الله في الخيري الأصفر[1]

[من السريع]

أَعارَهُ النَّرْجِسُ من لَوْنِــهِ ... تفضُّلاً وازدَادَ مِنْ طِيبِــهِ
ونـاسَبَ النَّمَّامَ لمـا انتَمْى ... إلى اَسْمِـهِ الأَدْنَى وتَركِيبِهِ
وما يُجَارِي واحـداً منهما ... إلا كَبَاً في رِيحِ[2] تَقْرِيبِهِ
ولَوْ رَجَا عبـدَ المليكِ الَّذي ... تَأَدَّبَ الدهرُ بتأْدِيبِهِ
لجـاءنا مُبْتَدِراً سَابِقاً ... يُزرِي بِمَنْ قد كانَ يُزْرِي بِهِ

— ٢٠ —

وله أيضاً رحمه الله في الورد[3]

[من الكامل]

ضَحِكَ الزمانُ لنا فهاكَ وهاتِـهِ ... أَوَ مَا رأَيتَ الوردَ في شجراتِـهِ ؟

(١) وردت الأبيات الثلاثة الأولى من هذه المقطوعة في « البديع » ص ١١٤ .
(٢) في البديع « حين » .
(٣) وردت هذه المقطوعة كلها في « البديع » ص ١٢٢ — ١٢٣ وجاءت الأبيات الثلاثة الأولى منها أيضاً في « البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي ٣ / ١٨

قد جاءَ بالنَّارَنْجِ [1] من أغصانِـهِ … وبخَجْلَةِ المعشوقِ من وَجَنَاتِـهِ

/ وكساهُ مولانا غلائِلَ سَيْفِهِ [2] … يوماً يُسَرْبِلُهُ دماء عُدَاتِـهِ [١٢م]

مِنْ بَعْدِ ما نَفَخَ الحيا مِنْ رُوحِهِ … فيـهِ وعَرْفُ المِسْكِ من نَفَحَاتِهِ

إنْ كان أبدعَ واصفٌ في وصفِهِ … فلقد تقاصَرَ عن بديعِ صِفـاتِه

كمديحِ سيفِ الدولةِ الأعلى الذي … أعيـا فأعْيا [3] في مَدى غاياته

مَلِكٌ يُنيرُ الجودُ في لَحَظَاتِهِ … واليُمْنُ والإيمانُ في عَزَماتِهِ

وحَيَاتِهِ إنْ كانَ أبقى حاجةً … لِمَنِ ارتجـاه غيرَ طُولِ حياتِهِ

— ٢١ —

وله أيضاً رحمه الله في السوسن [4]

[من المنسوخ]

إنْ كانَ وجـهُ الربيع مبتسماً … فالسَّوسَنُ المُجْتَلى ثناياهُ

---

(١) في « البديع » بالتاريخ ولا معنى لها .

(٢) في « البيان المغرب » : سندس .

(٣) في « البديع » : فأغيا والصواب ما أثبتنا ، و « أعيا » الأولى بمعنى أعجز الناس عن إدراكه والثانية من العي وهو الحصر والعجز عن التعبير .

(٤) أورد أبو الوليد الحميري خمسة من أبيات هذه المقطوعة في « البديع » ص ١٣٢ ، وأتى ابن عذاري في « البيان المغرب » بستة منها (٣ / ٢٠ – ٢١) كذلك روى منهـا ابن عبـد المنعم الحميري سبعة أبيات في « الروض المعطار » ص ١٦٠ ؛ ونقل النويري منها بيتين في « نهاية الأرب » (١١ / ٢٧٦) دون أن ينسبهما .

يا حسنهُ سِنّ [1] ضاحكٍ عَبِقٍ بطيبِ ريحِ الحبيبِ ريّاهُ
خافَ عليهِ الحسودَ عاشقُهُ فاشتقّ من ضِدّه فسمّاهُ
وَهْوَ [2] إذَا مُغْرَمٌ تنسَّمه خلّى عَلَى الأنْفِ [3] منه سيماهُ
كما يُخَلّي الحبيبُ غاليةً في عارِضَيْ إلْفِهِ لِذِكْرَاهُ
يا حاجِباً مُذْ بَرَاهُ خالِقُهُ توّجَهُ بالعُلى وحَلّاهُ
إذا رآه الزمانُ مبتسماً [4] فقدْ رأى كُلَّ ما تمنّاهُ
وإنْ رآه الهلالُ مُطّلِعاً يقول : رَبّي وربُّكَ اللهُ

— ٢٢ —

وله أيضاً رحمه الله في النيلوفر

[من المتقارب]

وَنَيْلُوفَرٍ قَمِنٍ بالذُّبُولِ بَرُوقُ فيذبلُ عَمّا قليلِ

(١) في « الروض المعطار » : بين والصواب ما أثبتنا ؛ وفي « نهاية الأرب » :
يا حسنه ضاحكا له عبق كطيب ريح الحبيب رياه
(٢) في الأصل « وهوى » وقد اتبعنا قراءة البديع والبيان والروض .
(٣) في الأصل « الألف » وقد أثبتنا قراءة المراجع التي سلفت الإشارة إليها لكونها أقرب إلى الصواب .
(٤) في « الروض » مبتهجاً .

يلاقي الصَّباحَ بيمنى جَوادٍ ويُخفِي الظَّلامَ بيمنى بخيلِ[1]

يُبيحُ الضُّحى ما حَوى من نسيمٍ ويمنعُهُ عند وقتِ الأُفُولِ

أَلم يرَ عبدَ المليكِ المليكَ مجيبَ الرَّجاءِ ومُعطِي الجزيلِ؟

لو ازدادتِ الأرضُ عَرْضاً بِعَرْضٍ ولو وصل الدهرُ طولاً بطولِ

لما زال يُوسِعُ هذا وتلك بفعلٍ كريمٍ وذكرٍ جميلِ

— ٢٣ —

وله في الوزير عيسى بن سعيد رحمهما الله[2]

[من الطويل]

أَفي مثلِها تنبو أَياديكَ عن مثلي؟ وهذي الأماني فيك جامعةُ الشَّمْلِ

وقدأوفتِ الدُّنيا بعهدِكَ واقتضَتْ وفاءك أَلاَّ زِلْتَ تُعْلِي وتَسْتَعلِي

(١) ورد هذا البيت والذي يليه في شرح مقصورة حازم للشريف الغرناطي (١ / ١٥٥) وقد جاء في اصل الديوان المخطوط كلمة « ويحي » بدلاً من « ويخفي » التي أثبتناها في البيت الأول ، وقد اخترنا رواية الشريف لأنها أكثر مناسبة المعنى المقصود .

(٢) أورد ابن بسام الشنتريني نحو نصف هذه القصيدة في كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » (القسم الأول ـ ١ / ٦٠ – ٦٣) ؛ كذلك اختار منها ابن فضل الله العمري أربعة أبيات (مسالك ١١ / ٢٠٢) ، أما عن عيسى بن سعيد فانظر ص ٢٠ والحاشية الواردة في ذلك الموضع .

[١٢ب]/وقد أَمَّنَ المقدارُ ما كنتُ أتَّقِي ... وأَرْخَصَتِ الأيَّامُ ما كنتُ أسْتَغْلِي
وأَذْعَنَ صرفُ الدَّهْرِ سمعاً وطاعةً ... لما فُهْتَ من قولٍ وأَمضَيْتَ من فعلِ
وناديتَ بالإنعامِ في الأرضِ فالْتَقَتْ ... بيمناكَ أشتاتُ الطَّرائقِ(١) والسُّبْلِ
وحلَّتْ بكَ الآمالُ في عَدَدِ الدَّبَى(٢) ... فوافَتْ أيادٍ منكَ في عَدَدِ الرَّمْلِ
وهذا مُقَامِي منذُ تِسْعٍ وأَرْبَعٍ ... رجائِيَ في قيــدٍ وحَظِّيَ في غُلٍّ
كأنِّيَ لم أَحْلُلْ ذَرَاكَ ولم أُقِمْ ... مُناخَ العطايا فيك مُرْتَهِنَ الرَّحْلِ
وأُغْضِ عن البرقِ الَّذي شِيمَ لِلحيَا ... وأَعقِدْ بِحَبْلٍ منكَ بينَ الورى حَبْلِي
ولم أَدَّخِرْ من راحتَيْكَ وسائِلاً ... رضيتُ بها كُفْئاً عن المالِ والأهْلِ
ولم تُصْفِنِي خُلْقاً أَرَقَّ من الهوى ... ولم تُولِنِي نُعْمَى أَلَذَّ من الوَصْلِ
ولم تَثْنِ عنِّي في مواطِنَ جَمَّةٍ ... سُيُوفاً حِدَاداً قد سُلِلْنَ على قَتْلِي
ولم أَطْوِ سِنَّ الإكْتِهَالِ مُحَاكِماً ... إليك خُطُوباً شَيَّبَتْ مَفْرِقَ الطفلِ
وكُنْتَ ومِفْتَاحُ الرغائبِ ضَائِعٌ ... ملاذِي فهذا بابُهــا ضائعُ القُفْلِ
وكم مُرْتَقًى وعرٍ جَذَبْتَ بساعِدِي ... إليه فقد أَفْسَحْتَ بالأَفْيَحِ السَّهْلِ
وأنهارِ راحٍ في رياضٍ أنيقَــةٍ ... مُوَطَّأَةِ الأكْنَافِ للنَّهْلِ والعَلِّ(٣)
حَرَامٍ عَلَى وِرْدِي حِمًى دُونَ مَرْتَعِي ... وقد بَرَّحَتْ في الناسِ بالطَّيِّبِ الحِلِّ

---

(١) في الأصل « الطريق » وقد أثبتنا قراءة « الذخيرة » إذ بها يستقيم الوزن والمعنى .

(٢) الدبى هو أصغر مايكون من النمل أو الجراد .

(٣) في الأصل « والنعل » ولا معنى لها هنا .

وقد شَفَّنِي رَشْفُ الثِّمَارِ أَوَاجِناً ... وأَنْضَى رِكَابِي مُجْذِبُ المرتَعِ المَحْلِ
وإنَّ عجيباً أَنَ عِزَّكَ مَوْئِلِي ... وأَكْظِمُ أَنفَاسِي عَلَى غُصَصِ الذُّلِ
وأَنِّيَ من ظُلْمِي بِعَدْلِكَ عَائِذٌ ... وكم مطلبٍ أَسامتهُ في يَدَيْ عَدْلِ
وأَنِّيَ في أفياءِ ظِلِّكَ أَشْتَكِي ... شَكِيَّةَ مُوسَى إِذْ توَلَّى إِلى الظِّلِّ
ففي حُكْمِكَ الماضي وسُلْطَانِكَ العَدْلِ ... تَمُرُّ لِيَ الدنيا وطَعْمِي لهَا مُحْلِ
وتقلِبُ لي ظهرَ المِجَنِّ تَجَنِّياً ... فَمَوْتِي بما يُحْيِي ومَوْتِي بما يُسْلِي
أَلَمْ تَرَنِي يومَ الرِّهَانِ مُبرِّزاً ... أَمامَ الأُلَى جاءوا إِلى الحَظِّ مِنْ قَبْلِي
فكَمْ باتَ هذا الملكُ مِنِّي مُعَرِّساً ... بفَتَّانَةٍ بِكْرٍ وبِتُّ عَلَى الثُّكْلِ
وأَثقَلْتُ أوقَارَ الرِّكابِ جَوَاهِراً ... عَلَى ثَمَنٍ يَغْدُو به مُحْوِلَ النَّمْلِ
وها أَنَذَا ما إن أَموت[1] من الأُلَى ... بوَقْرٍ عَلَى وَقْرٍ وثِقْلٍ عَلَى ثِقْلِ
/ وَلِيَّ النَّدَى أَصْبَحْتُ في دَوْلَةِ النَّدَى ... كأَنِّي عَدُوُّ البخلِ في دَوْلَةِ البُخْلِ [١٣م]
يُقَتِّلُ أَخْفَى اليَأْسِ[2] أَحْيَى مَطَالِبِي ... لَيَالِيَ جَلَّ الْوَعْدُ عن ريبةِ[3] المَطْلِ
وأُبْدِي لِلَسْعِ الدَّبْرِ وَجْهِي مُنَازِعاً ... وقد فازَ غيري سالماً بجَنَى النَّحْلِ
ومَوْلَّى يَخِرُّ البَأْسُ والحَمْدُ سَاجِداً ... إلى سيفِهِ الماضي ونَائِلِهِ الجَزْلِ

(١) في الأصل : أمو .
(٢) في « الذخيرة » أحفى الناس ، ورواية الديوان أصح .
(٣) في « الذخيرة » : رتبة ، على أن محققي هذا الكتاب ذكروا في الحاشية أن إحدى مخطوطاته روتها « ريبة » كما أثبت الديوان ، وهذه القراءه أفضل .

سَرِيعٍ إلى داعِي النَّدَى وشَفِيعِهِ وبَحْرُ عطاياهُ أَصَمُّ عن العَذْلِ
تَذَكَّرَنِي في ساعةِ العلمِ والنُّهى وأَنْسِيَنِي في ساعة الجودِ والبَذْلِ
وَبوَّأَنِي في قَصْرِهِ أَعْلَ[1] مَنْزِلٍ وحَظِّيَ مُلقًى يَسْتَغِيثُ من السُّفْلِ
فَأَكْسُوله الأَيَّامَ مِنْ حُرِّ مَا أَشِي[2] وأَمْلَأُ سَمْعَ الدهرِ من سِحْرِ ما أُمْلِي
أُوَاصِلُ آناءَ الأَصائِلِ بالضُّحى وزادِيَ من جُهْدِي وراحِلَتِي رِجْلِي
إِذَا أَحْفَتِ الفُرْسَانُ غُرَّ جِيادِهِ[3] خَصَفْتُ بوجهِي ما تَمَزَّقَ من نَعْلِي
وإِنْ أَقْبَلُوا والمِسْكُ يندَى عَلَيْهِمُ أَتيتُ وقد ضُمِّخْتُ مِسْكًا من الوَحْلِ
وإِنْ شُغِلُوا لَهْواً بأَنْعُمِ كَفِّهِ فخِدْمَتُه لَهْوِي وَطاعَتُهُ شُغْلِي
أُقِرُّ عيونَ الشامتِينَ ولَيْتَنِي أُبَرِّدُ ما تطوي الضلوعُ[4] من الغِلِّ
أَمُرُّ بِهِمْ أَلْقَى[5] القَّرَى وكأَنَّما فؤادِيَ من أَحداقِهِمْ غَرَضُ النَّبْلِ
إِذا الأَسد الضِّرْغَامُ أَنْفَذَ مقتَلِي فما فَزَعِي إِلَّا إِلى الأَرْقَمِ الصِّلِّ
وإِن ذابَ حُرُّ الوجْهِ من حَرِّ نارِهِمْ فما مُسْتَغَاثِي منه إِلَّا إِلى المُهْلِ
ومن شِيمَةِ الماءِ القَرَاحِ وإِنْ صَفَا إِذا اضطَرَمَتْ من تحته النَّارُ أَنْ يَغْلِي

---

(١) في الأصل « أعلى » ، وبها يختل الوزن إذ أنه لا يستقيم إلا بحذف الألف المقصورة .

(٢) في الذخيرة « فأكسو لك الأيام من حرما أثني » وما أثبتناه أصح .

(٣) في « الذخيرة » جيادهم ، ورواية الديوان أصوب .

(٤) في « الذخيرة » : الصدور .

(٥) في المسالك : أنتقي .

ولا وَرَدٌ إلا وزيرٌ له يدٌ تُمِلُّ عَلَى أيدِي الربيع فيَسْتَمِلي(1)

أبَا الأصبَغِ المَغنِيَّ هَلْ أنتَ مُصْرِخِي؟ وهلْ أنتَ لِي مُغْنٍ وهل أنتَ لِي مُعْلِ؟

وهل مَلِكُ الإنعامِ والجودِ عائدٌ بإحسانِ ما يُولِي على حُسْنِ ما أُبْلِي؟

وهل لِرِياضِ المُلْكِ في نفحَةِ الصَّبَا؟ وهل لِسَمَاءِ المجدِ في كَوْكَبِ النُّبْلِ؟

وحَتَّى مَتَى أُعطِي الزمانَ مقادَتِي؟ وقد قَبَضَتْ كَفِّي عَلَى قائِمِ النَّصْلِ

ونَادَيْتُ من عُلْيَا الوزارةِ ناصِراً يَرَى خاطفاتِ الشُّهْبِ تمشِي عَلَى رِسْلِ

فلا يَغْبِطِ الأعداءُ ما طُلَّ من دَمِي ولا يَهْنِيءِ الأيَّامَ ما فاتَ من ذَحْلِي

عسى مجدُ عيسى أن ينُوءَ ببارقٍ يُسِحُّ حَيَا الإفضالِ في روضةِ الفَضْلِ

/ فيابْنَ سعيدٍ هل لِسَعْدِكَ كَرَّةٌ عَلَى الهِمَّةِ العَلْياءِ في الأُفُقِ الغفْلِ ؟ [١٣ب]

طَوَتْ زَفَراتِ البَثِّ حتىٰ لقد أَنىٰ لذات مَخَاضٍ أن تُطَرِّقَ بالحَمْلِ

مطالبُ أبقى الدهرُ منها مَظَالِماً تُنَادِيكَ(2) بالشكوى وتدعُوكَ للفَضْلِ

وكُلٌّ عليها شاهِدٌ غيرُ شاهِدٍ وليسَ لها ـ حاشاكَ ـ من حَكَمٍ عَدْلِ

أيَحْتَقِبُ الركبانُ شرقاً ومغرِباً غرائِبَ أنفاسِي وأُلْقَاكَ في الرَّجْلِ ؟(3)

ويَنْتَقِلُ الشَّرْبُ الندامىٰ بدائِعِي وهَيْهَاتَ لي من لَذَّةِ الشُّرْبِ والنُّقْلِ؟!

وضَيْفٌ بحيثُ الطَّيْرُ تُدْعَى إلى القِرَى يضيقُ بِهِ رَحْبُ المَبَاءَةِ والنُّزْلِ

---

(١) في « الذخيرة » : فتستملي .

(٢) في الأصل « تناد » .

(٣) في الأصل : الرحل ، وقد آثرنا ماجاء في الذخيرة .

طَوٍ وَوُجُوهُ[1] الأَرضِ خِصْبٌ ومَطْعَمٌ وَعَيْمَانُ والجُلْمُودُ يَفْهَقُ بالرِّسْلِ[2]
وحَرّانُ أَوْفَى ظِمْءَ تِسْعٍ وأَرْبَعٍ بحيثُ تَلاَقَى دافِقُ البحرِ والوَبْلِ
وسَيْفٌ يَقُدُّ البَيْضَ والزّغْفَ[3] مُقْدِماً يروحُ بلا غِمْدٍ ويغدُو بلا صَقْلِ
وذُو غُرَّةٍ معروفَةِ السبقِ في المَدَى وقدقَرِحَ التَّحْجِيلُ من حَلَقِ الشُّكْلِ[4]
ودَوْحَةُ عِلْمٍ في السماءِ غُصُونُها تَرِفُّ بلا سُقْيَا سِوَى بَغَشِ[5] الطَّلِّ

— ٢٤ —

وله فيه أيضاً رحمها الله تعالى

[من الوافر]

مكارِمُكَ اغتباقِي واصطباحِي ومِن ذِكراكَ رَيحانِي وَرَاحِي

---

(١) في الأصل « وجوه »

(٢) طو أي جائع ، والعيمان هو الذي أصابته العيمة وهي شدة الشهوة إلى اللبن ، والرسل اللبن .

(٣) الزغف جمع زغفة وهي الدرع المحكمة السابغة .

(٤) الشكل جمع شكال وهو الحبل الذي تشد به قوائم الخيل . وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت في الذخيرة (ق ١ — ١ / ٣٠٤) هكذا : وقد قرح التحجيل من ألم الشكل .

(٥) البغش والبغشة المطر الضعيف الصغير القطر .

تُحَيِّينِي بِأَثْمَارِ الأَمَانِي وَأَرفُلُ منكَ في روضِ السَّمَاحِ
فَمَا هَاجَتْنِيَ الأَطْرابُ إلاَّ إليكَ نِزَاعُ نفسِيَ وارتياحِي
ولا غَنَّتْ لِيَ الآمالُ إلاَّ وحظُّ رضاكَ سُؤْلِي واقتراحِي
فإنْ أَصبحتُ مُنْتَشِياً بنُعْمَى تُوَالِيها فَشُكْرُ الحُرِّ صَاحِ
وقَـلَّ لِمَنْ جَلاَ الإِظْلاَمَ عَنِّي ولقَّى ناظِري وَجْهَ الصَّباحِ
ومَـنْ بيمينِهِ وَرِيَتْ زنادِي سَنًا وبِيُمْنِـهِ فازت قِدَاحِي
ومن نادَيْتُ : حَيَّ عَلَى التَّلاَقِي فلَبَّانِي بِحَيَّ عَلى النَّجَـاحَ
وآوانِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ وأَوْفَى بِي عَلَى أَمَلٍ مُتَاحِ
وزيرٌ قُـلِّدَ المَلِـكَانِ منـهُ حُسَامَ البأْسِ والنُّصْحِ المُبَاحِ
حمائِلُهُ لصدرِ المُلْكِ حَلْيٌ وحدَّاهُ عَتَادٌ للـكِفَاحِ
حياةٌ عنـد مُزْدَحَمِ الأَمانِي وموتٌ عند مُشْتَجَرِ الرِّمَاحِ
[١٤م] / ولَيْثٌ تحت سابِغَـةٍ دِلاَصٍ وغيثٌ بين أَثناءِ الوِشَاحِ
إذا الرَّاياتُ جَهَّزَها برأْيٍ فقد لَقِيَ العِدى شَاكِي السِّلاحِ
وإنْ لاَقى الخطوبَ بفَضْلِ حُكْمٍ فَقَـدْ أَبقاهُ ذُخْراً للصَّلاَحِ
بَعِيدُ الشَّأْوِ مُقْتَرِبُ الأَيَادِي عَزِيزُ القَدْرِ مخفوضُ الجناحِ
حسامٌ للـكواكِبِ في المعالي مُبَارٍ في المكارِمِ للرِّيَاحِ
فَمُـلِّيناهُ في دِينٍ ودُنيـا مَرِيعَ الروضِ مَحْلُولَ النَّوَاحِي

وله في المهدي محمد بن عبد الجبار أمير المؤمنين رحمهم الله (*)

[من الكامل]

قُـلْ للخِلافَـةِ قد بَلَغْتِ مُناكِ   ورأيْتِ ما قَرَّتْ بهِ عَيْنـاكِ
مَهْدِيُّ أُمَّـةِ أحمدٍ وكريمُها   وحليمُها يأوي إلى مأواكِ

(*) هو محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي الذي ثار على عبد الرحمن بن المنصور العامري الملقب بشنجول في أول إمارته وفي أثناء غيابه عن قرطبـة في أولى غزواته ضد إسبانيا المسيحية ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٣٩٩ (فبراير سنة ١٠٠٩) ، معلناً نفسه خليفة للمسلمين ، على أنه لم يلبث قليلاً حتى ثار عليه سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين وقد انضم إليه البربر ، والتقى المهدي والمستعين في معركة « قنتيش » التي انتصر فيها سليمان وقواته البربرية (١٣ من ربيع الأول سنة ٤٠٠ / ٥ نوفمبر سنه ١٠٠٩) ، وهرب المهدي إلى طليطلة حيث جمع له قائده واضح قوات جديدة ، ثم التقى بسليمان مرة أخرى في « عقبة البقر » (٥ شوال سنة ٤٠٠ / ٢٢ مايو سنة ١٠١٠) وانتصرت قوات البربر المنـاصرة لسليمان المستعين مرة ثانية ، إلا أن سليمان ـ وكان يظن الهزيمة قد لحقت به لاذ بالفرار وهكذا دخل المهدي قرطبة وأعلنت خلافته للمرة الثانية ، غير أن دولته الثانية لم تطل إذ أن قائده واضحاً غدر به فدبر مؤامرة لاغتياله ، فقتل في ٨ من ذي الحجة سنة ٤٠٠ (٢٣ يوليه سنة ١٠١٠) . انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٩٨ — ٣١٥ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ٤٩ — ٦٥ ، ٧٤ — ٩١ ، ٩٥ — ١٠٠ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٠٩ — ١١٦ . أما تاريخ قول هذه القصيدة فنرجح أنه في دولة المهدي الاولى .

وسليلُ نفس إمامها وشهيدِها[1] قَمَرَيْكِ في الدنيا ، وما قمراك !
هٰذا تَعَجَّلَ من كرامةِ ربِّهِ في الخلد مثوًى جَلَّ عن مثواكِ
ودعوتِ : يالثاراتِهِ ! فمُحَمَّدٌ بالسيفِ أوَّلُ سامعٍ لبّاكِ
الخائضُ الغمراتِ غيرَ مُرَوَّعٍ بالموتِ زاحمَهُ إلى مَحْياكِ
فأضاءتِ الدنيا لأوَّلِ وَهْلَةٍ وَصَلَ الإلٰهُ سناءَهُ بِسَناكِ
ما كُنْتِ قابلةً سواه ولم يَكُنْ يوماً يريد حياتَهُ لِسِواكِ
ولكم شجاهُ منكِ في جنحِ الدجى إعوالُ محزونٍ وزفرةُ باكِ
حتَّى تلافى مادهاكِ بعزمةٍ لم يُعْيِها الدّاءُ الذي أعياكِ
في كفِّهِ السيفُ المُقلَّدُ جَدُّهُ «بالمَرْجِ» إذ تَبَّتْ يدُ «الضحّاكِ»[2]
وَسَعى فأدْرَكَ بعد تَأرِكِ ثأرَهُ من كلِّ ممتنعٍ من الإدراكِ

---

(١) يقصد بهذا الشهيد أبا الممدوح : هشام بن عبد الجبار المهدي الذي كان عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر قد قتله حينما اتهمه بالقيام عليه في المؤامرة التي دبرها عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع لخلع الدولة العامرية وتنصيب هشام المذكور ، وقد كان مصرع هشام على يد المظفر من الاسباب التي دعت ابنه محمداً إلى الثورة على عبد الرحمن شنجول بن المنصور (انظر ابن عذاري : البيان ٣ / ٣٤ — ٣٦ ، ٦١ — ٦٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال ص ١٠٩) .

(٢) يشير ابن دراج هنا إلى انتصار مروان بن الحكم على الضحاك بن قيس الفهري في موقعة مرج راهط سنة ٦٥ هـ . وبذلك انتقلت الخلافة الاموية من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني الذي انتمى إليه أيضاً الأمراء الأمويون في الاندلس .

وأباحَ كُلَّ[3] حِمًى لكلِّ مُضلِّلٍ ... غاوٍ أباحَ حِمَى الهُدَى وحِمَاكِ
فشَفَى نفوسَ المسلمينَ ونفسَهُ ... لَمَّا سَقَى الدنيا دِمَاءَ عِدَاكِ
بشهيدِ آلِ اللهِ والمَلِكِ الذي ... لا كُفْءَ من دمِهِ الكريمِ الزَّاكِي
لَبِسَتْ عليه الأرضُ ثوبَ حِدَادِها ... وبدت نجومُ الليلِ وَهْيَ بَوَاكِ
فحَوَى الخلافةَ والسناءَ وليُّهُ ... رَغْماً لكلِّ مُعاندٍ أفَّاكِ
حُكْماً من الحَكَمِ العليِّ لطالبٍ ... أبداً دَمَ الخلفاءِ والأمْلاكِ
[١٤ب] / حتى تنجَّزَ موعِدَ اللهِ الذي ... لم تَخْفَ فيه مَوَاعِدُ الإيشاكِ
يا لابِساً لعدوِّهِ ووليِّهِ ... بطشَ الأُسودِ وعِفَّةَ النُّسَّاكِ
ما أبهجَ الدنيا لَدَيْكَ بعِزَّةِ الدِّينِ الحنيفِ وذِلَّةِ الإشراكِ
إن غَصَّ يومُ القُوطِ منكَ برُسْلِهِمْ ... فَغَداً بيوم الرُّومِ والأتراكِ
سمعوا بدعوتِكَ التي نادَتْهُمُ ... أوطانُهُمْ منها : تَرَاكِ ! تَرَاكِ !
فالرَّوْعُ منقطعٌ إليهم واصِلٌ ... ليلَ البيَاتِ لهم بيومِ عِرَاكِ
بمثالِ طعنٍ في الكُلَى متتابعٍ ... وخيالِ ضَرْبٍ في الرقابِ دِرَاكِ
فتيمَّمُوكَ ومن أشكِّ سلاحِهِمْ ... سِيمَى الخضوعِ وبِزَّةُ الهُلاَّكِ
مُتَعَوِّذِينَ من الفَنَاءِ بصفحَتَيْ ... سيفٍ لمثلِ دمائِهِمْ سَفَّاكِ
فكأنَّما خاضتْ إليك وجوهُهُمْ ... ناراً تَضَرَّمُ في غضاءِ أرَاكِ

---

(٣) في الاصل « لكل » ، وقد كتب أمامها على الحاشية بخط مغاير ملاحظة نصها : « اللام زائدة . الوزن » ، وهي ملاحظة صائبة ، إذ بوجود اللام يختل الوزن والمعنى ، وقد أصلحنا الاصل على هذا الاساس .

حتى اجتلَوْا قمر الخلافةِ حولَهُ أمثال زَهْرِ كواكبِ الأفلاكِ

فاغلِبْ ولا تَزَلِ الخلافةُ والهدى من سعدِ جَدِّكَ في سلاحٍ شاكِ

واشربْ بأكواسِ السرورِ وسَقِّها رِفْهاً مدى الأيامِ هاتِ وهاكِ

وأنا الشَّريدُ وظلُّ عزِّكَ موئِلي وأنا الأسيرُ وفي يديكَ فَكاكي

أَدَبٌ أضاءَ المشرقَيْنِ وتحتَهُ حظٌّ يَئِنُّ إليك أَنَّةَ شـاكِ

— ٢٦ —

وقال في سليمان المستعين بالله أمير المؤمنين (*) رحمهم الله تعالى[1]

[من الطويل]

(*) هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، الملقب بالمستعين ، ولد سنة ٣٤٨ هـ . / ٩٥٠ م . وهو الثائر على محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي في شوال سنة ٣٩٩ (يونيه سنة ١٠٠٩) ، وكان المهدي وأهل قرطبة قد أمعنوا في الإساءة إلى البربر ، فانحاز هؤلاء إلى سليمان وطلبوا من شانجه بن غرسية صاحب قشتالة عونه فأمدهم ، وساروا إلى قلعة رباح Calatrava حيث بايعه أهلها ثم دخلوا وادي الحجارة وساروا إلى وادي شرنبة Rio garama وجمع لهم واضح قائد المهدي أهل الثغور فالتقى الجمعان قرب قلعة عبد السلام التي تسمى —

(١) أورد لسان الدين بن الخطيب هذه القصيدة كاملة في « أعمال الاعلام » (بتحقيق ليفي بروفنسال — ط . بيروت سنة ١٩٥٦) ص ١٢٣ — ١٢٥ مع اختلافات سننبه عليها في موضعها . كذلك اختار ابن بسام الشنتريني في « الذخيرة » منها ثمانية عشر بيتاً (القسم الاول - ١ / ٥٣ — ٥٤) ، وقد اختار منها ابن فضل الله العمري أيضاً ستة أبيات (مسالك الابصار — مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ — ١١ / ٢٠١ - ٢٠٢) .

هَنيئاً لهذا الدَّهرِ [1] رَوْحٌ وَرَيْحَانُ ... وللدِّينِ والدنيا أَمَانٌ وإيمَانُ
بأَنَّ [2] قَميدَ الشِّرْكِ [3] قد ثُلَّ عَرْشُهُ ... وأَنَّ [4] أميرَ المؤمنينَ سُلَيْمَانُ

— الآن Alcalá de Henares ودارت موقعة هناك في أواخر ذي الحجة سنة ٤٠٠ (أغسطس ١٠٠٩) وكان لسليمان والبربر الظفر فيها ، ثم توجهوا إلى قرطبة فاشتبكوا بقربها مع جيوش المهدي في وقعة « قنتيش » في ٥ نوفمبر من هذه السنة ، وأعقب ذلك إعلان سليمان نفسه خليفة في قرطبة المرة الاولى في ١٧ ربيع الاول سنة ٤٠٠ (٨ نوفمبر سنة ١٠٠٩) بعد فرار المهدي منها بيوم واحد ، على أن المهدي ظل يترقب الفرص للعودة ، فجمع له واضح من أهل طليطلة والثغور جيشاً انضم إليه نصارى الإفرنج (من أتباع قومس برشلونة) ، فسار إليهم البربر والتقى الجمعان في عقبة البقر El Vacar حيث انهزم المهدي ومن معه من الإفرنج في شوال سنة ٤٠٠ (مايو سنة ١٠١٠) ، إلا أن سليمان الذي ظن في أول المعركة أن الدائرة دارت على البربر كان قد لاذ بالفرار ، وهكذا دخل المهدي قرطبة وأعلن خلافته للمرة الثانية ، ولكن واضحاً لم يلبث أن دبر مؤامرة انتهت باغتياله في ٨ من ذي الحجة سنة ٤٠٠ (٢٣ يولية ١٠١٠) ، وأعلنت خلافة هشام بن الحكم المؤيد ، ثم عاد سليمان بفضل أشياعه من البربر فدخلها في ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ (٩ مايو ١٠١٣) فخلع هشاماً وأعلن خلافته مرة ثانية ، وظل حتى ثار عليه قائده عليّ بن حمود الذي فتح قرطبة في ٢٢ من محرم سنة ٤٠٧ (١ يوليه ١٠١٦) ، وقتل الحمودي سليمان وأخاه وأباه (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٣٠٤ – ٣٢٦ ؛ ابن عذارى : البيان ٣ / ٨٣ – ١١٩ ابن الخطيب : أعمال ١١٣ – ١٢٨ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ١ – ١ / ٢٤ – ٣٤) .

(١) « الأعمال » و « الذخيرة » : الملك .

(٢) « الأعمال » و « الذخيرة » : فإن .

(٣) « أ ع » و « ذخ » : الخزي ؛ أما « قميد الشرك » فيقصد به الشاعر محمد بن هشام المهدى .

(٤) « أ ع » و « ذخ » : وإن .

سَمِيُّ الَّذِي انقَادَ الأَنَامُ لأَمْرِهِ فلم يَعْصِهِ في الأَرْضِ إنسٌ ولا جَانُ
وباني العُلاَ للمجدِ غادٍ ورائِحٌ وحِلْفُ التُّقى في الله[1] رَاضٍ وغَضْبانُ
بِهِ رُدَّ في جَوِّ الخلافــةِ نُورُهَا وقد أظلمَتْ منها قصورٌ وأوطانُ
وأَنقَذَ دينَ اللهِ من قبضةِ العِدَى وقد قاده للشِّرْكِ[2] ذُلٌّ وإذعانُ
وقـــامَ فقامَتْ للمَعَالي معالِمٌ وللخيرِ أسواقٌ وللعدلِ مِيزَانُ
وجَدَّدَ للإسلامِ ثوبَ[3] خلافةٍ عليها من الرحمٰنِ نورٌ وبُرْهَانُ
[١٥م] / وأَكَّدَها عهدٌ لأَكرمِ من وَفَى بعهدٍ، زَكَتْ فيه[4] عهودٌ وإيمَانُ
به شُدَّ أَزْرُ المُلكِ وابْتَهَجَ الهُدَى[5] وفاضَ على الإسلامِ[6] حُسْنٌ وإحْسَانُ
فَتًى نَــكَصَتْ عنهُ العيونُ مَهَابَةً فليسَ لَهُ إلاَّ الرَّغَائِبَ أقْرَانُ
يَهُونُ عليه يومَ يُرْوِي سيوفَهُ دماً أَنْ يُوَافِيهِ الدُّجى وَهْوَ ظَمْآنُ
سَمِيُّ[7] النَّبِيِّ المصطفى وابْنُ عَمِّهِ ووَارِثُ ما شَادَتْ قُرَيْشٌ وعَدْنَانُ

(١) « أ ع » : لله .
(٢) « أ ع » : للشر .
(٣) « ذ خ » : سور .
(٤) « أ ع » : منه .
(٥) « أ ع » : « به شد أزر العدل والعلم والهدى » .
(٦) « أ ع » : الأيام .
(٧) « ذ خ » : قريب ، وقد ذكر محققو الذخيرة أنها جاءت في بعض مخطوطاتها « سمّي » كما هي في الديوان .

وماسَاقَتِ الشُّورَى وأَوْجَبَتِ[1] التقَى وأَوْرَثَ ذُو النُّورَيْنِ عَمُّكَ عُثْمَانَ

وماحَاكَمَتْ[2] فيه السُّيُوفُ وحَازَهُ إِلَيْكَ أَبو الأَمْلَاكِ جَدُّكَ مَرْوَانُ

مَوَارِيثُ أَملاكٍ وتوكيدُ بَيْعَةٍ جَدِيرٌ بها فَتْحٌ قَرِيبٌ ورِضْوَانُ

ودوحَةُ مَجْدٍ في السَّماءِ كأنَّما[3] كَوَاكِبُها منهـا فروعٌ وأغصانُ

لَئِنْ عَظُمَتْ شَأْنًا لقد عَزَّ نصرها بكَرَّاتِ فُرْسَانٍ لأقدارِها شَانُ

قبائلُ من أبناءِ عَادٍ وَجُرْهُمٍ[4] لَهُمْ صَفْوُ مَا تَنْمِيهِ عادٌ وقَحْطَانُ

بَنُو دُوَلِ المُلْكِ الذي سَلَفَتْ بِهِ لآبائهم فيها قُرُونٌ وأَزْمَانُ

هُمُ[5] عَرَفُوا مثواكَ في هَبْوَةِ الرَّدَى وقد رَابَ معهودٌ وأَنْكَرَ عِرْفَانُ

ولِلْمَوْتِ في نَفْسِ الشُّجَاعِ تَخَيُّلٌ وللذُّعْرِ في عَيْنِ[6] المُخَاطِرِ أَلْوَانُ

فأَعْطَوْكَ واسْتَعْطَوْكَ في السِّلْمِ والوَغَى[7] مَوَاثِيقَ : لَوْ خَانَتْكَ نفسُكَ ما خَانُوا

كأَنَّ السَّمَاءَ بدرَهـا ونجومَهَا سُرَاكَ[8] وقد حَفُّوكَ : شِيبٌ وشُبَّانُ

---

(١) « ذخ » : وأوجبه .

(٢) « ذخ » : حكمت .

(٣) « أ ع » : كأنها .

(٤) « أ ع » : وجوههم .

(٥) « أ ع » : فهم .

(٦) في الأصل : نفس ، وقد آثرنا رواية ابن الخطيب في الأعمال .

(٧) « أ ع » في حومة الوغى .

(٨) « أ ع » سداك .

وقد لمَعَتْ حَوْلَيْكَ منهمْ أسنةٌ[1] تُخَيِّلُ أنَّ الحَزْنَ والسَّهْلَ نِيرَانُ
أُسُودُ هِيَاجٍ ما تزالُ تَرَاهُمُ تطيرُ بِهِمْ نَحْوَ[2] الكريهةِ عِقْبَانُ
وأقمارُ حَرْبٍ طَالِعَاتٌ كأنَّما عَمَائِمُهُمْ في موقِفِ الرَّوْعِ تِيجَانُ
دَلَفْتَ بِهِمْ للفتحِ[3] تحتَ عَجَاجَةٍ كأنَّ مُثِيرَيْهَا عَلِيٌّ وهَمْدانُ[4]
ويَوْمَ اقْتِحَامِ الحَفْرِ أيقَنْتَ أنَّهُمْ يريدونَ فيهِ أنْ تعزَّ ولَوْ هانُوا
بِكُلِّ[5] زِنَانِيٍّ كأنَّ حُسَامَهُ وهامَةَ من لاقاهُ نارٌ وقُرْبَانُ
وأبيضَ صِنْهَاجٍ كأنَّ سِنَانَهُ شِهابٌ إذا أهْوَى لِقِرْنٍ وشَيْطَانُ
وقد[6] عَلِمُوا يا مُسْتَعِينُ بِأنَّهُمْ لِرَبِّهِمُ لا ... أعانوكَ أعوانُ

---

(١) « مس » : وقد بلغت حوليك ثم أسنة .
(٢) « أ ع » : يوم .
(٣) « أ ع » : للحرب .
(٤) يشير ابن دراج هنا إلى الأبيات التي تنسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا نواصيها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام
تيممت همدان الذين هم هم إذا ناب دهر جنتي وسهامي

(انظر ابن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر ونقده ـ ط . القاهرة سنة ١٩٠٧ ، ١ / ١٤) .
(٥) « ذ خ » : وكل .
(٦) « أ ع » : لقد .

وَلَوْلاَكَ والبِيضُ التي نَهَدُوا[1] بِها لما قام للإسلامِ في الأَرض سُلْطَانُ
[١٥ب]/ولاستَبْدَلَتْ قَرْعَ النواقيسِ بالضُّحَى مَنَارٌ وقامت في المَحَارِيبِ صُلْبَانُ
وهم سَمِعُوا داعِيك لمَّا دَعَوْتَهُمْ وهم أَبْصَرُوا والنَّاسُ صُمٌّ وعُمْيَانُ
تصاوِيرَ نَاسٍ مُهْطِعِينَ لِصُورَةٍ يُكَلِّمُهُمْ منها سَفِيهٌ ومَيَّانُ
فلِلَّهِ عَزْمٌ رَدَّ في الحقِّ رُوحَهُ وأَوْدَى به في الأَرضِ زُورٌ وبُهْتَانُ
وَقُلْتَ[2] لَعاً للعاثِرِينَ كَأَنَّهُ نُشُورٌ لقومٍ حَانَ منهم وقد حانوا
وأَصْبَحَ أَهلُ الحَقِّ في دارِ حَقِّهِمْ ونحنُ لهم في الله أَهلٌ وإِخْوانُ
فحَمْداً[3] لِمَنْ رَدَّ النُّفُوسَ فأَصبحَتْ لهم كالذي كُنَّا وَهُمْ كالذي كانوا
وأَنْسَ[4] شَمْلٌ بالتفرُّقِ مُوحِشٌ وحَنَّ خليطٌ بالصبابةِ حَنَّانُ
وَرَدَّ جِمَاحَ الغَيِّ[5] مِنْ غَرْبِ شَأْوِهِ وبُرِّدَ قلبٌ بالحفيظَةِ حَرَّانُ
وقد أَمِنَ التثريبَ إِخوةُ يُوسُفٍ وأَدرَكَهُمْ لِلَّهِ عفوٌ وغُفْرانُ
وأَعْقَبَ طولُ الحربِ أَبناءَ «قَيْلَةٍ»[6] زَكاةً وَرُحْماً فيه أَمْنٌ وإِيمَانُ

---

(١) « أ ع » : مهدوا .

(٢) في الأصل « وقل » والصواب ما أثبتنا ، وهكذا جاءت في « الذخيرة » وفي « الأعمال » .

(٣) « أ ع » : محمد من .

(٤) « أ ع » : وآنس .

(٥) في الأصل « جماع الغل » وقد اتبعنا قراءة « الأعمال » .

(٦) يقصد بأبناء « قيلة » الاوس والخزرج قبيلتي الانصار ، وقيلة بنت كاهل هي أمهم التي يلتقي فيها نسبهما .

وحَنَّتْ لِدَاعِي الصُّلْحِ بَكْرٌ وتغلبٌ — وشَفَّعَتِ الأَرْحَامَ عَبْسٌ وذُبْيَانُ
وفازَتْ قِدَاحُ المُشْتَرِي بسُعُودِهَا — وسالَمَ بَهْرَامٌ وأَعْتَبَ كِيوَانُ
وعُرِّفَ معروفٌ وأُنكِرَ مُنْكَرٌ — وطَارَ مع العَنْقَاءِ ظُلْمٌ وعُدْوَانُ
وأُغْمِدَ سيفُ البَغْيِ عَنَّا[1] وعُطِّلَتْ — قُيودٌ وأَغلالٌ وسِجْنٌ وسُجَّانُ
وما كانَ مِنَّا الحيُّ في ثَوْبِ ذُلِّهِ — بأَنْهَضَ مِمَّنْ ضَمَّ قَبْرٌ وأَكْفَانُ
ومُنَّ عَلَى المُسْتَضْعَفِينَ وأُنجِزَتْ — مواعِيدُ تمكينٍ وآذَنَ إِمْكَانُ
بِيُمْنِ الإِمامِ الظَّافِرِ الغافرِ الَّذي — صفَا منهُ للإِسلامِ سِرٌّ وإِعْلَانُ
مُجَرِّدُ سيفِ الإِنْتِقَامِ لِمَنْ عَتَا — فمالَ[2] به في الدِّينِ زَيْغٌ وإِدْهَانُ
فَمَنْ سَرَّهُ المَحْيَا فسمعٌ وطاعَةٌ — ومن يَحْسُدِ المَوْتَى فكُفْرٌ وعِصْيَانُ

— ٢٧ —

وله فيه رحمهما الله في عيد أضحى سنة ثلاث وأربعمائة [3]

[من الكامل]

---

(١) هذه الكلمة ناقصة في الأصل ، وقد استكملناها نقلا عن « الأعمال » .
(٢) « أ ع » : حماه .
(٣) أورد ابن بسام أربعة وثلاثين بيتاً من هذه القصيدة (الذخيرة ق ١ — ١ / ٥١ — ٥٣) .
وقد ذكر بين يديها — نقلاً عن ابن حيان — أن ابن دراج أنشد سليمان ابن الحكم المستعين هذه القصيدة في أول مجلس كان له بالقصر بعد توليه الخلافة —

شَهِدَتْ لَكَ الأعيادُ[1] أنّكَ عيدُهَا ... بِكَ[2] حَنَّ مُوحِشُهَا وآبَ بَعيدُهَا
وأضاءَ مُظْلِمُهَا وأفْرَخَ رَوْعُهـــا ... وأطاعَ عاصِيهَا ولانَ شَديدُهَ
وصَفَتْ لنا[3] الدُّنيَا فشَبَّ كَبيرُهَا ... في إثْرِ ما قد كان شَابَ وَليدُهَا
ما كانَ أَجْمَدَ قَبْلَ يَوْمِكَ[4] بَحْرَها ... فالآن فُجِّرَ بالنَّدى جُلْمُودُهَا
[١٦م] / والرِّيحُ للإقبالِ تُزْجِي للمُنَى ... دِيَمًا تَدَفَّقُ بالحياةِ مُدُودُهـــا
ولَقَدْ تَغيمُ وما لَنَا من وَدْقِهـا ... إلا خواطفُ برقِهَا ورُعُودُهـــا
وارتَاحَ بيتُكَ في أباطِحِ مَكَّةٍ ... لمَعادِ أيامٍ دنا مَوْعُودُهـــا
لمواكبٍ صَهَلَتْ إليكَ خُيُولُها ... وكتائبٍ خَفَقَتْ عليك بُنُودُهَا
شَغَفًا بِدَعْوَتِكَ[5] الَّتِي قَدْ طالَمَا ... عَمَرَتْ تهائمُهـا بها ونُجُودُهـا
وأهَلَّ مُحْرِمُهـــا ولَبَّى رَكْبُهَا ... وتلاحَقَتْ حُجَّابُها ووفُودُهـا
فالآنَ أَنْجَزَ مَوْعِـــدُ الدُّنْيَا لَنَا ... ولَهَا وأخْلَفَ رَوْعُهَا ووَعِيدُهـا

— وإذا كنا نعلم أن سليمان المستعين ولي الخلافة في دولته الثانية في شوال سنة ٤٠٣ (مايو سنة ١٠١٣) فإن تاريخ إنشاد هذه القصيدة يكون قد تم بعد ذلك بنحو شهر ونصف شهر (في ذى الحجة - يونيه من هذه السنة) .

(١) « ذ خ » : الايام .
(٢) « ذ خ » : لك .
(٣) « ذ خ » : بك .
(٤) « ذ خ » نوئك .
(٥) هذه الكلمة غير واضحة في الاصل ، وقد أثبتنا ماجاء في الذخيرة ، على أن ما بقي في أصل الديوان من حروفها يحتمل أن تكون « دولتك » .

حينَ اسْتَقَلَّ بِكَ السريرُ وفَوْقَهُ | بَأسُ الخلائفِ مُنْجِبيكَ وجُودُهَا
وبهاؤُهَا وسَنَاؤُهـا ووَفاؤهـا | وصُفُوفُهـا وسيوفُهَا وجُنُودُها
وتلبَّسَتْ منك الخلافةُ تاجَهـا | وتلألأتْ لَبَّاتُهـا وعُقُودُهـا
أَعْظِمْ بِهَا نِعَماً وَفَيْتَ بِشُكْرِهَا | فوَلِيُّ عَهْدِ المسلمين مَزِيدُهَا
تاليكَ تحْتَازُ المَدٰى فَيَحُوزُهُ[1] | وتَؤُودُ شاهقةَ الرُّبَا فيَؤُودُهَا
إنْ تَزْرَعِ المعروفَ فَهْوَ غمامَةٌ | أو تَبْدَأ النَّعْمَاءَ فَهْوَ مُعِيدُهَا
تستفتِحُ السَّرَّاءَ وَهْوَ يُسِيرُهَا | وتُشَيِّدُ العَلْيَاءَ وَهْوَ يَشِيدُهَا
وإذا ازْدَهَتْكَ من المحامدِ زَهْرَةٌ | في رَوْضَةٍ غَنَّاءَ فهو يَرُودُهَا
وإذا تَقَحَّمَتِ العُدَاةُ مَوَارِداً | فَلَنِعْمَ طَعَّانُ الكُمَاةِ يَذُودُهَا
فَطَرَتْهُ من قُطْبِ النجومِ وِلَادَةٌ | وَكَلَتْ إِلَيْهِ الخَيْلَ فهو يَقُودُهَا
واختصَّهُ بَدْرُ السَّماءِ بنِسبَةٍ | حَكَمَتْ عَلَى السَّادَاتِ أنْ سَيَسُودُهَا
وسَرَتْ إليهِ من يَدَيْكَ شَمَائِلٌ | أَغْرَتْهُ بالآفاقِ فَهْوَ يَجُودُهَا
وكسوتَهُ ثَوْبَيْ وَغًى ورياسةٍ | زُهِيَتْ عليهِ سُيُوفُهَا وبُرُودُهَا
أيَّامَ أزْهَرَتِ البلادُ كواكِباً | بقِبابِ جُنْدِلَةَ والرَّجاءِ عَبِيدُهَا
حِجَجاً ثَلَاثاً ما تَأَنَّسَ حَضْرُهَا | شوقاً إليكَ ولا تَوَحَّشَ بِيدُهَا
وسُرَادِقُ النصرِ العزيزِ عَلَيْكُمَا | مرفوعُ أرْوِقَةِ الهُدٰى مَمْدُودُهَا

(١) في الاصل : فيجوزه .

حتّى ارتقَيْتَ من المنابرِ رُتبةً غرّتْ بها غُرُّ الرجالِ وَصِيدُهَا
في قُبّةِ المُلْكِ الذي « صِنْهاجةٌ » و « زِنَاتَةٌ » أطْنابُها وعَمُودُها
[١٦ب] / وسَرَاتُها ودُعَاتُها ورُعَاتُها وبُنَاتُها وحُمَاتُها وأُسُودُهَا
هُمْ نَوّرُوا لكَ لَيْلَ كلِّ مُضِلَّةٍ سُمْراً وبيضاً ما تَجِفُّ غُمُودُهَا
نُورٌ لِمَنْ وَالاكَ فَهْيَ وَقِيدُهُ أَوْ نَارُ مَنْ عَادَاكَ فَهْوَ وَقُودُهَا
أَذْهَلْتَهـا بِمُلاَكَ عَمّا أَوْرَثَتْ من مُلْكِها آباؤُهَا وجُدُودُهَا
وتعوَّضَتْ بذَرَاكَ مِنْ أوطانِهَا أُمْنِيّةً حَسْبُ النفُوسِ وُجُودُهَا
صَدَقَتْكَ أَيّامَ النِّزَالِ[1] سُيُوفُهَا ضَرْباً وفي يَوْمِ النِّفَارِ عُهُودُهَا
في[2] ساعةٍ مقطوعةٍ أَرْحَامُهَا لا البِرُّ[3] شاهِدُهَا ولا مَشْهُودُهَا
يومٌ[4] أُذِلَّ كِرَامُهُ لِلِئَامِهِ وسَطَتْ بأحرارِ الملوكِ عَبيدُهَا
وتَوَاكَلَتْ أبطالُهَا في كُرْبَةٍ أَعْيَتْ[5] بها سَادَاتُها ومَسُودُهَا
لا يهتَدِي سَمْتَ النَّجَاةِ دَلِيلُهَا دَهَشاً ولا وَجْهَ السَّدَادِ سَدِيدُهَا
حتى طَلَعْتَ لَهُمْ بأَسْعَدِ غُرّةٍ طَلَعَتْ عليهم في السّماءِ سُعُودُهَا
فَتَنَسَّمُوا نَفَسَ الحياةِ لأَنْفُسٍ قد حانَ من حَوْضِ الحِمَامِ وُرُودُهَا

---

(١) « ذ خ » : النوال ولا مني لها .
(٢) « ذ خ » : يا .
(٣) « ذ خ » : الستر .
(٤) « ذ خ » : يوماً .
(٥) « ذ خ » : عيت .

وتَبَيَّنَ الغيَّ المُبِيرَ غَوِيُّهـَا ... وارتاحَ للرُّشْـدِ المبينِ رَشِيدُهَا
وتبادَرُوا يُمْنَى يَدَيْكَ بِبَيْعَةٍ ... يَبْلَى الزمانُ ويَسْتَجِدُّ جَدِيدُهَا
يَدُ رَبِّهِمْ فيهـا عَلَى أَيْدِيهِمُ ... والـكاتبُونَ الحافظونَ شُهُودُهَا
أَوْفَوْا بِهـا فوَفَتْ بأُلْفَةِ شملِهِمْ ... في دولَةٍ مستقبَلٍ تأْييدُهـــــا
ضَمِنَتْ لَهُمْ أَلاَّ تُسَلَّ سُيُوفُهَا ... في مَعْرَكٍ حتى تُسَلَّ حُقُودُهَا
وسَقَتْهُمُ بكئوسِ عَطْفٍ أَخْمَدَتْ ... منهم ذُحُولاً لا يُرَامُ خُمُودُهَا
فبِسِلْمِهَا أَصْفَى السلامَ أَبِيُّهـَا ... وبأَمنِها أَلِفَ العُيُونَ هُجُودُهَا
وتصافَحُوا بَعْدَ السيوفِ بأَوْجُهٍ ... مُتَقَارِضٍ مَوْدُودهـا ووَدُودهَا
هي دعوةٌ بسيوفِهِمْ تثبيتُهـا ... في بَيْعَةٍ أَيْمَانُهُمْ توكيدُهَا
ومعـــالمٌ لشريعةٍ بجهادِهِمْ ... وجيـــادِهِم وجِلادِهِم توطيدُهَا
أَنْ جاهدوا في اللهِ حقَّ جهادِهِ ... وعلى النفُوسِ لِرَبِّهَا مجهودهَا
لِيزيدَ عِزّاً بالجهادِ عزيزُهَا ... ويزيدَ سَعْداً باليقينِ سَعِيدهَا
حَلَفُوا بربِّهِمُ لمقـدِ خلافةٍ ... أُوصـــــاهُمُ أَلاَّ تُحَلَّ عقودُهَا
/وبها استَقَادَ لهم مُلُوكَ عُدَاتِهِمْ ... وعَنَا لهم جَبَّارُها وعَنِيدُهَا[1] [١٧ظ]
واستَوْدَعُوا جَنْبَيْ[2] «شَرَنْبَةَ» وَقْعَةً ... هدَّ الجبالَ الراسياتِ وَئِيدُهَا[3]

(١) في الاصل : وعتيدها ، ولعل ما أثبتناه أفضل .
(٢) « ذ خ » : جي . وشرنبة هو النهر الذي يسمى الآن Rio garama وهو فرع من نهر تاجه El tajo .
(٣) « ذ خ » : رعودها .

دَلَفُوا إلى شَهْبَاءَ حانَ حَصَادُهَا ... بِظُبًى[1] رُؤُوسُ الدَّارِعِينَ حَصِيدُهَا

وشِعَابُ قَنْتِيشٍ[2] وَقَدْ حَشَرَتْ لَهُمْ ... أُمَمٌ بُغَاةٌ لا يُكَتُّ[3] عَدِيدُهَا

فكأنَّما مَرِضَتْ قلوبُهُمُ لَهُمْ ... غِـلاًّ فجاءوا بالرِّماحِ تَعُودُها

تَرَكُوا بها ظَهْرَ الصعيدِ وقد غَدَا ... بطنًا وأَجْسَادُ الغُوَاةِ صَعِيدُهَا

وكَتَائِبُ الإفْرَنْجِ إذْ كادَتْكَ في ... أَشْيَاعِهَا واللهُ عنكَ يَكِيدُها[4]

بسوابِحٍ في لُجِّ بحرٍ سَوَابِغٍ ... فاضَتْ على الأَرْضِ الفَضَاءِ مُدُودُها

ولقد أَضَافُوا نسرَهَا وغُرَابَها ... وقِرَاهُمَا[5] طاغوتُها وعَمِيدُها

شِلْوٌ لِأَرْمَنْقُورِهَا[6] حُشِرَتْ[7] بِهِ ... للزَّحْفِ ثُمَّ إلى الجَحِيمِ حُشُودُها

---

(١) « ذخ » وطلى .

(٢) قنتيش هو المكان الذي دارت فيه المعركة الشديدة التي تحمل هـذا الاسم بين سليمان بن الحكم المستعين في دولته الاولى ومن معه من جيوش البربر ومحمد المهدي وحلفائه من الإفرنج في ١٣ من ربيع الاول سنة ٤٠٠ (= ٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩ م .) . انظر عن هذه الموقعة مانقله ابن بسام عن ابن حيان في الذخيرة ق ١ – ١ / ٣٠ – ٣١ وليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢ / ٣١٠ ومابعدها .

(٣) « ذخ » : يكف ، والصواب ما أثبتنا ، ويكت أي يمد أو يحصى .

(٤) « ذخ » : يعيدها .

(٥) « ذخ » وقوامها .

(٦) يعني بأرمنقود القومس قائد خيل الإفرنج وحليف محمد المهدي خصم سليمان الحكم وهو أخو رامون بريل Ramón Borrell قومس برشلونة ، وتسميه المراجع الإسبانية Ermen gaid أو Armengol ، وقـد قتل في موقعة عقبـة البقر ، وقد تسميه المراجع العربية أيضاً « أرمقند » (انظر ابن عـذارى المراكشي : البيان المغرب ٣ / ٩٥) .

(٧) « ذخ » : حشدت .

وَدَنَتْ[1] لها في «آرٍ»[2] تحت صَوارِمٍ ... وَرِيَتْ بعزِّ المسلمينَ زُنُودُها

مِنْ بَعْدِ مَا قصفوا الرماح وأصلتوا ... بيضاً يُشَيِّعُ[3] حَدَّها توحيدُهَا

فكأنَّما رُفِعَتْ لها صُلْبَانُهَا ... في ظِلِّ هَبْوَتِهَا فَحَانَ سُجُودُهَا

وبجانِبِ الغَرْبِيِّ إذْ أَقْدَمْتَهَا ... شَعْثَاءَ بُشِّرَ بالفُتُوحِ شَهِيدُهَا[4]

ضَرَبُوا على الأُخْدُودِ هَامَ حُمَاتِهِ ... حتَّى عَبَرْتَ[5] وجِسْرُهُنَّ خُدُودُهَا

في وَقْعَةٍ قامت بعُذْرِ سيوفِهِمْ ... لو ذابَ من حَرِّ الجِلادِ حديدُهَا

ويَضِيقُ فيها العُذْرُ عن خَطِّيَّةٍ ... سمراءَ لم يُورِقْ بكفِّكَ عُودُهَا

فَبِهَا رأَيْنَا العزَّ حيثُ تودُّهُ[6] ... وسوابِغَ النَّعْمَاءِ حيثُ تُرِيدُهَا

إلاَّ كرائِمَ من كرائِمِكَ الَّتِي ... بِكَ كُرِّمَتْ أَخطارُهَا وجُدُودُهَا

ذُعِرَتْ بِحُكْمِ الجاهليَّةِ أَنْ تُرَى ... قد دُسَّ في تُرْبِ الثَّرَى مَوْءُودُهَا

---

(١) « ذخ » : ودنوا .

(٢) يعني « وادي آر » (بالاسبانية الآن Guadiaro) وفيه وقعت معركة أخرى بين سليمان المستعين ومحمد المهدي في ٦ من ذي القعدة سنة ٤٠٠ (٢١ يونية سنة ١٠١٠) . انظر ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢ / ٣١٣ – ٣١٤ .

(٣) « ذخ » : يشايع .

(٤) ورد هذا البيت في الذخيرة هكذا :

وبجانب إذ قدمتها .... شعثاً يبشر بالفتوح شهيدها

(٥) « ذخ » : عبرن .

(٦) « ذخ » : فيها رأيت العز حيث تريده .

أن مَلَّكَتْ مَنْ في يَدَيْهِ تَمَامَهَا | ونَأَتْ على مَنْ في يديهِ خُلُودُهَا
فَاقْبَلْ فقد سَاقَتْ إليكَ مُهُورَهَا | أَكْفَاءَ حَمْدٍ لا يُذَمُّ حَمِيدُهَا
بِدْعاً من النظمِ النفيسِ تَشَاكَهَتْ[1] | فيها الجواهِرُ دُرُّهَا وفَرِيدُهَا
وَلتَهْنِنَا[2] أَيَّامُ عِزٍّ كُلُّهَا | عِيدٌ وأنتَ لِمَنْ أَطَاعَكَ عِيدُهَا
ولقَدْ يَحُولُ عَلَى وَلِيِّكَ حَوْلُهَا | في مُشْفِقِ الأَهْلِينَ وَهْوَ فَقِيدُهَا
[١٧ب] / إن يَطْرُقِ الأَوْطَانَ فهو أَسِيرُهَا | أَو يُشْعِرِ الأَعْدَاءَ فهو طَرِيدُهَا
لا حُرْمَةُ الرحمنِ ناهِيةٌ وَلاَ | معلومُ أَيَّامٍ ولا مَعْدُودُهَا
عن مُسْلِمٍ ضَحَّى به غَاوٍ وَعَنْ | نَفْسٍ حرامٍ والعُدَاةَ تَصِيدُهَا
قَدْ عَانَدُوا الرَّحْمنَ في حُرُمَاتِهِ | أَن تُعْتَدَى في المُسْلِمِينَ حُدُودُهَا
بيضُ السُّيوفِ عَلَيَّ فيكَ حِدَادُهَا | مُتَوَقِّدُ الأَكبادِ تحوِي سُودُهَا
هذا جَنَايَ وغَارَةٌ مشهودَةٌ | عَدَلَتْ بِحُبِّ «المُسْتَعِينَ» شُهُودُهَا
وكَفَاكَ من نَفْسٍ كَفَيْتَ رَجَاءَهَا | ذُخْراً فَهَانَ طَرِيفُهَا وتَلِيدُهَا
كَانَتْ وَحِيدَةَ دَهْرِهَا من نَكْبَةٍ | مَنْكُوبُهَا فَذُّ الدهورِ وحِيدُهَا
وَلَئِنْ أَجَدَّ لِيَ الحَسُودُ نَفَاسَةً | أَنْ قَدْ دَعَاكَ لِنِعْمَةٍ تَجْدِيدُهَا
فَأَنَا الذي لم تُغْضِ عَيْنُ الدَّهْرِ عَنْ | نُعْمَى ولا نُقْمَى ينَامُ حَسُودُهَا
ولِذَاكَ في عُنُقِي مُوَثَّقُ غُلِّهَا | بَاقٍ وفي القَدَمَيْنِ بعْدُ قُيُودُهَا

(١) « ذ خ » : تشابهت .
(٢) « ذ خ » : وليهنها .

— ٢٨ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى :

[من الطويل]

تَخَيَّرْتَ فاستمْسَكْتَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى ... فَبُشْرَاكَ أَنْ تَفْنَى عِدَاكَ وأَنْ تَبْقَى
فما أَبطلَ الرحمنُ باطِلَ من بَغَى ... عَلَى الحَقِّ إلا أَنْ يُحِقَّ بِكَ الحَقَّا
وما لاح هٰذا المُلْكُ بَدْراً لِتِمِّهِ ... بِوجهِكَ إلا أَن يُبِيرَ العِدَى مَحْقَا
وما كُنْتَ عند اللهِ أَكْرَمَ مَنْ حَبَا ... خِلاَفَتَهُ إلاَّ وأَنْتَ له أَتْقَى
لِيجلُوَ عنِ الدنيا بِكَ الهَمَّ والأَسَى ... ويجمعَ في سلطانِكَ الغَرْبَ والشَّرْقَا
رَدَدْتَ نظامَ المُلْكِ في عِقْدِ سِلْكِهِ ... وما كانَ إلا صُوفَةً في يَدَيْ خَرْقَا
وأَضْحَكْتَ سِنَّ الدهرِ من بعدِ مُقْلَةٍ ... مدامِعُها شَوْقاً إلى الحَقِّ ما تَرْقَا
وقلَّدْتَ والِيَ العهدِ[1] سَيْفاً إلى العِدَى ... فَسَارَ كأَنَّ الشمْسَ قُلِّدَتِ البَرْقَا

(١) يعني به ابنه محمد بن سليمان بن الحكم ، وكان المستعين قد ولاه عهده عند توليه الخلافة ، فلما قتل علي بن حمود أباه سليمان هرب والتجأ إلى منذر ابن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة والثغر الأعلى طامعاً في أن ينصره لميل أبيه إليه واستحجابه إياه ، فغدر به التجيبي وقتله صبراً (انظر ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٩٤) ؛ وقد حدد ابن الخطيب تاريخ عقد سليمان بولاية العهد لابنه محمد هذا ، إذ قال إنه كان في منتصف جمادى الآخرة سنة ٤٠٠ (أعمال الأعلام ص ١٢٥) .

وَسيطَيْ سَماءٍ قد جَعَلْتَ نُجُومَهَا ... صفائحَ بِيضِ الهِنْدِ والأَسَلَ الزُّرْقَا
بَوَارِقَ لَوْ لَمْ تَخْطَفِ الهَامَ فِي الوَغَى ... لَخَرَّتْ جُسُومٌ من رَوَاعِدِهَا صَعْقَا
كأَنَّ المَلاَ مِنْهُنَّ أَحشاءُ عاشِقٍ ... تُبَكِّي دَماً عَيْنَاهُ مِنْ حَرِّ مَا يَلْقَى
هَوَادِيَ في ضَنْكِ المَكَرِّ وَلاَ هُدًى ... نَوَاطِقَ بالفَتْحِ المُبِينِ ولا نُطْقَا
يُخَبِّرْنَ عن إلْحَاحِ سَعْيِكَ فِي العِدَى ... كأَنَّ «سَطِيحاً» في سَنَاهُنَّ أو «شِقًّا»[1]
[١٨م]/ويَجْلُونَ عن لَيْلِ العَجَاجِ كأَنَّمَا ... تُقَلِّبُ إِحْدَاهُنَّ نَاظِرَتَيْ «زَرْقَا»[2]
وَجُرْداً ينازِعْنَ الكُمَاةَ أَعِنَّةً ... يُفَرِّغْنَها جُهْداً ويَمْلأْنَهَا عِتْقَا
تَكِرُّ وِرَاداً مِنْ دِمَاءِ عُدَاتِهَا ... وإِنْ أَقْدَمَتْ شُهْباً عَلَى الطَّعْنِ أَوْ بُلْقَا
رَوَائِعَ يَوْمَ الرَّوْعِ تَعْدُو سَوَابِحاً ... كِرَاماً وتُمْسِي في دِماءِ العِدَى غَرْقَى
ضَمَانٌ عليها نَفْسُ كُلِّ مُنَازِعٍ ... ولو حَمَلَتْهُ الغُولُ أَو رَكِبَ العَنْقَا
تَبَارَى إلى الهَيْجَا بِأُسْدٍ خَفِيَّةٍ ... إذا هَالَ وَجْهُ المَوْتِ هَامُوا بِهِ عِشْقَا
وإِنْ فَزِعُوا نحو الصَّرِيخِ فلا وَنًى ... وإن وَرَدُوا حَوْضَ المَنَايَا فَلاَ فَرْقَا
عَبِيدٌ مَمَالِيكٌ وأَمْلاَكُ بَرْبَرٍ ... وكلُّ عظيمِ الفَخْرِ قد حُزْتَهُ رِقَّا
هُمُ فِئَةُ الإِسلامِ إِنْ شَهِدُوا الوَغَى ... وهُمْ أُفُقٌ لِلْمُلْكِ إن نَزَلُوا أُفْقَا
عَمَمْتَهُمُ نُعْمَى جَزَوْكَ[3] بها هَوًى ... وأَوْزَعْتَهُمْ حِلْماً جَزَوْكَ بِهِ صِدْقَا

---

(١) سطيح وشق كانا من المعروفين بالكهانة في الجاهلية .
(٢) يشير الى زرقاء اليمامة التي كانت معروفة بحدة البصر .
(٣) في الأصل : جروك .

وأوْرَيْتَهُمْ زَنْداً يُنيرُ لهُمْ هُدًى وأقبلتَهُمْ كَفًّا يُنيرُ لَهُمْ رِزْقَا
وعَزْماً لنصرِ الدينِ والمُلْكِ مُنْتَضًى ورأياً من التوفيقِ والسَّعدِ مُشْتَقَّا
شَمَائِلُ إنعـامٍ شَمِلْتَ بِهِ الوَرٰى وأخلاقُ إكرامٍ عممتَ به الخَلْقَا
فَجَدُّكَ ما أعلٰى، وذِكْرُكَ ما أبْقٰى، وراجيكَ ما أَغْنٰى، وشانيكَ ما أشْقٰى
ويمناكَ بالإحسانِ حَسْبُ مَنِ اعْتَفٰى وسُقياكَ بالمعروفِ حَسْبُ مَنِ اسْتَسْقٰى
ونادِاكَ عبدٌ يقتضيكَ ودائماً وإن عَظُمَتْ خَطْراً فَأَنفِسْ بِهِ عِلْقَا
به أنْسَتِ الدنيا أساطيرَ مَنْ مَضٰى وأتعبَتِ الأيّامُ أقلامَ مَنْ يَبْقٰى
إذا ما شَجَا الأعداءَ في قِمَمِ الذُّرٰى شفَاهَا بحَظٍّ تحتَ أقدامِهَا مُلْقٰى
وإنْ يَكُ مسبوقاً فيَارُبَّ سَابِقٍ بعيدِ المَدٰى لا يَدَّعِي مَعَهُ سَبقَا
وإنَّ له في رَاحَتَيْكَ وسـائلاً تُنادِيهِ من جَوِّ السَّمَاءِ: ألاَ تَرْقٰى؟!
فسِرْ في ضَمَانِ اللهِ ناصِرَ دَوْلَةٍ كأنَّ عمودَ الصُّبْحِ عن وَجْهِها انْشَقَّا
وحسبُكَ مَنْ حَلاّكَ تاجَ خلافةٍ رآكَ لهـا أهْلاً فأعطاكَها حَقَّا

— ٢٩ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الخفيف]

بَلَّغَتْ عَبْدَكَ الخطوبُ مَدَاهـا يومَ تبليغِكَ النُّفُوسَ مُنـاها

[١٨ب]/وتناهى جَهْدُ الحَياةِ بِمَنْ لَمْ يَسْعَ فيما رَضِيتَ إلاَّ تناهى
وعَجِيبٌ أَنْ يُفْنِيَ الظَّمْء نَفْساً أَبْحُرُ الأَرْضِ في يَدَيْ مَوْلاَها
مَلِكٌ نافَسَتْ بِأَدْنَى رِضاهُ بَشَرَتُـهُ (١) رِبْحاً بِأَقْصَى رِضاها
بَذَلَتْ كُلَّ طـارِفٍ وتليدٍ لَوْ شَفاها مِنْ لَيْتِها وعَساها
ولقد شافَهَتْ سيوفَ عِـداهُ لو كَفاها بهـا شَمَاتَ عِدَاها
إِنْ تَلاَفَيْتَها فأَنْفَسُ نَفْسٍ لَكَ أَسْنَى حُلِيِّهــا وحُلاَها
أَوْ فَأَدْنَى مواعِدِ المَوْتِ منهـا إِنْ تُضِعْها عَشِيَّةً أَوْ ضُحـاها

— ٣٠ —

وله في القاسم بن حمود بقرطبة (*) وهو وزير يسأله أن يكتب إلى أخيه علي بسبتة رحمهم الله ورضي عن سلفهم

[من الكامل]

كَمْ أَستَطِيلُ تَضَلُّلِي وتَـلَدُّدِي وأَرُوحُ في ظُلَمِ الخطوبِ وأَغْتَدِي

---

(١) فى الأصل : فبشرته ، وفي الحاشية تعليق بخط مغاير لخط الناسخ نصه : بشرته بلا فاء ، وهي ملاحظة صائبة إذ أن وجود الفاء يؤدي إلى اختلال الوزن .

(*) هو القاسم بن حمود بن ميمون بن حمود الإدريسي الحسني ، ولد في سنة ٣٤٨ (٩٦٠) وكان هو وأخوه علي من جملة قواد سليمان بن الحكم المستعين —

وَالأَرضُ مُشْرِقَةٌ بِنُورَيْ رَبِّها		والفجرُ مُنْبَلِجٌ لِعَيْنِ المُهْتَدِي
بِأَغَرَّ من بيتِ النُّبُوَّةِ والهُدٰى		كالبدرِ من وَلَدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

— حينما ولي الخلافة للمرة الثانية في سنة ٤٠٣ (١٠١٣) إذ كانا من أمراء المغاربة الذين شايعوه، فنزلا بشقندة (من ضواحي قرطبة) ثم قدم سليمان على بن حمود على سبتة، وولى القاسم على طنجة وأصيلا، على أنه يبدو أنه ظل بقرطبة، ثم انتقل منها إلى إشبيلية بعد أن جاز أخوه علي من سبتة إلى قرطبة وقتل سليمان المستعين واستأثر بالخلافة، فلما قتل علي بن حمود في أول ذي القعدة سنة ٤٠٨ (٢١ مارس سنة ١٠١٨) توجه الى قرطبة من اشبيلية وبويع فيها بالخلافة، ثم ضعف أمره وثار عليه أبناء أخيه يحيى بن علي القائم بسبتة وإدريس بمالقة وجاز يحيى البحر، فلما رأى القاسم عجزه عن مقاومته فر إلى إشبيلية في الثاني والعشرين من ربيع الثاني سنة ٤١٢ (٥ أغسطس سنة ١٠٢١)، وأعلن يحيى نفسه خليفة بقرطبة، ثم ضعف أمر يحيى فاضطر إلى الفرار، واستدعى أهل قرطبة القاسم مرة ثانية فعاد إلى قرطبة وولي الأمر للمرة الثانية حتى ثار عليه القرطبيون مرة أخرى فهرب إلى إشبيلية في الواحد والعشرين من جمادى الثانية سنة ٤١٣ (٩ سبتمبر ١٠٢٣) فمنعه أهلها من دخولها بتدبير من القاضي ابن عباد، فانصرف منها إلى شريش وتوفي بها محبوساً عند ابن اخيه إدريس بن علي سنة ٤٢٧ (١٠٣٦). انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٢ / ٣٢٣ — ٣٣٣؛ ابن عذاري: البيان ٣ / ١١٩ — ١٣٥؛ ابن الخطيب: أعمال ص ١٣٠ ١٣٥.

أما تاريخ قول هذه القصيدة فينبغي أن يكون في أثناء خلافة سليمان ابن الحكم المستعين حينما كان علي بن حمود والياً له على سبتة والقاسم ما زال بقرطبة في سنة ٤٠٤ (١٠١٤)، وذلك في الوقت الذي كان يهم علي فيه بخلع طاعة سليمان والجواز إلى الأندلس (انظر ابن عذاري: البيان ٣ / ١١٥).

« القاسِمِ » المقسُومِ راحَةُ كَفِّهِ		في بَسْطِ معروفٍ وقَبْضِ مُهَنَّدِ
الهاشِميِّ الطَّالِبيِّ الفاطِميِّ الوَارِثِ العَلْيا بأَعْلى قُعْدُدِ
أَهْدى إلى الدنيا « عَليٌّ » هَدْيَهُ		في طَيِّ أَرْدِيَةِ النُّهى والسُّؤْدَدِ
حتى تَجَلَّى للمكارِمِ والعلا		بَدْراً تَنَقَّلَ في بُرُوجِ الأَسْعُدِ
مُتَقَدِّماً مِنْ مَشْرِقٍ في مَشْرِقٍ		مُتَنَقِّلاً من سَيِّدٍ في سَيِّدِ
من كُلِّ رُوحٍ بالعَفافِ مُقَدَّسٍ		في كلِّ جِسْمٍ بالسَّناءِ مُقَلَّدِ
بَعُدُوا عنِ الرِّجْسِ الذَّميمِ وطُهِّرُوا		في مَنْشَأٍ للمُنْجِبينَ وَمَوْلِدِ
ولَرُبَّ موجودٍ ولَمَّا يُوجَدِ		منهُمْ ومفقودٍ كَأَنْ لَمْ يُفْقَدِ
ما بُشِّرُوا بالفَوْزِ حتّى بَشَّرُوا		بِأَبَرِّ مَنْ خَلَفَ الجُدُودَ وأَمْجَدِ
لَهُمُ زَكِيُّ صَلاَتِنا ودُعاؤُنا		في كلِّ خُطبةِ مِنْبَرٍ وتَشَهُّدِ
ومكانُهُمْ من قلبِ كُلِّ كتيبةٍ		كمكانِهِمْ من قلبِ كُلِّ مُوَحِّدِ
هُمْ أَنْجبوكَ لسانَ صدقٍ عنهُمُ		فَرعاً يطيبُ لَنَا بِطيبِ المَحْتِدِ
وهُمُ رَضُوكَ لكلِّ خطبٍ فادحٍ		واستخلَفُوكَ لكلِّ غاوٍ مُعتَدِ
[١٩م] / ولصوتِ داعٍ بالصَّريخِ مُثَوِّبٍ		ولفَكِّ عَانٍ بالخطوبِ مُقَيَّدِ
مَلِكٌ تشاكَهَ جُودُهُ وجَوَادُهُ		إنْ كرَّ نحوَ مُبارِزٍ أو مُجْتَدِ
أَعْيا عَلَيَّ : أَهَادِياتُ جِيادِهِ		في الرَّوْعِ أَهْدى أَمْ نداه في النَّدِي؟
لا الفارِسُ الأَقْصى بمُعْجِزِهِ ولا		جَدْوَاهُ للأَدْنَيْنِ دونَ الأَبْعَدِ
سيفُ الخِلاَفَةِ في العِدى وأَمينُها		دونَ الغُيُوبِ وزَيْنُها في المَشْهَدِ

يُبْلي جَوَانحَها بنفسِ مُخاطِرٍ ويُنيمُ أَعينَها بعَيْنِ مُسَهَّدِ
جَهِدَ الكرامُ وما دَنَوْا من غايَةٍ أَحرزْتَها متأَنِّياً لم تَجْهَدِ
بكَ أُخمِدَتْ نيرانُها منْ فتنةٍ لولاكَ يابْنَ نَبِيِّنا لم تُخْمَدِ
مَنْ ذا سِواكَ إذا الرجالُ تدافَعُوا رَأْياً يُؤَلِّفُها برَأْيٍ أَوْحَدِ
وإذا الصَّوَارِمُ جُرِّدَتْ في فتنةٍ عَمْياءَ تُغْمِدُها بسيفٍ مُغْمَدِ
ولَرُبَّ مُشْعَلَةِ الرِّمَاحِ كَفَفْتَها عَفْواً وما زَعْزَعْتَ حَبْوَةَ مُرْتَدِ
يا مَنْ إذا عَلِقَتْ يَدي بيمينِهِ فالكاشِحُونَ أَقَلُّ ما مَلَكَتْ يَدي
وإذا عَقَلْتُ رَوَاحِلي بفنائِهِ فقد اقْتَضَيْتُ ضَمانَ يومي عَنْ غَدِ
وَعَدَتْنِيَ الدُّنْيا شقيقَكَ مَفْزَعاً من سُوءِ عادِيَةِ الزَّمانِ الأَنْكَدِ
وكَفَى بِبِشْرِكَ لي بَشيراً بالمُنَى وقبولِ وَجْهِكَ مُنْجِزاً للمَوْعِدِ
يابْنَ الشفيعِ بِنا وأَكْرَمَ أُسْوَةٍ للمُقْتَدِينَ وأَنْتَ أَجْدَرُ مُقْتَدِ
أُمْدُدْ يَمِينَكَ شافِعاً ومُشَفَّعاً تَحُزِ الثَّناءَ مُخلَّداً بمُخَلَّدِ
يابْنَ الوَصِيِّ عليِّ أَوْصِ سَمِيَّهُ أَلاَّ يضيعَ سَمِيُّ جَدِّكَ أَحْمَدِ
يا صَفْوَةَ الحَسَنَيْنِ[1] كَمْ قد أَحْسَنا إصغاءَ وُدِّ النازحِ المتوَدِّدِ
يأَيُّها القمرانِ أَيْنَ سَناكُما عن مُطْبِقٍ في ليلِ هَمٍّ أَسْوَدِ ؟
يأَيها الغَيْثانِ هلْ لكُما إلى روضِ النُّهَى والعِلْمِ في التُّرْبِ الصَّدِي

---

(١) في الأصل : الحسنيين .

يا فرقَدَيْ قُطْبِ الخلافةِ جهِّزا   مُهْدي السَّلامِ لفرْقَدٍ مِنْ فَرْقَدِ

فَلأَجْعَلَنَّ ثناءَ ما أَوْلَيْتُما   زاداً لِكُلِّ مُكَوَّفٍ أَوْ مُنْجِدِ

حتَّى يُسَمَّعَ طِيبَ ما أُثْنِي بهِ   قَبْرٌ بِطَيْبَةَ أَو بِصَحْنِ المَسْجِدِ

وإذا وَرَدْنا حَوْضَ جَدِّكَ فاسْتَمِعْ   وأَبُوكَ يَسْقِي للرُّوَاه السَّرْمَدِ

[١٩ب] / شُكْرَ الذي أَرْحَبْتُما من مَنْزِلي   وثناءَ ما رَفَّهْتُما مِن مَوْرِدِ

في سِتَّةٍ ضَعُفُوا وضُعِّفَ عَدُّهُمْ   حَمْلاً لمبهورِ الفُؤَادِ مُبَلَّدِ

شَدَّ الجلاءُ رِحالَهُمْ فتَحَمَّلَتْ   أَفْلاذَ قَلْبٍ بالهُمُومِ مُبَدَّدِ

وحَدَتْ بهم صَعَقاتُ رَوْعٍ شَرَّدَتْ   أَوطانَهُمْ في الأَرضِ كُلَّ مُشَرَّدِ

لا ذاتُ خِدْرِهِمُ يُرَامُ لوَجْهِها   كِنٌّ ولا ذُو مَهْدِهِمْ بِمُمَهَّدِ

عاذُوا بلَمْعِ الآلِ في مَدِّ الضُّحَى   مِنْ بَعْدِ ظِلٍّ في القُصُورِ مُمَدَّدِ

وَرَضُوا لِباسَ الجُودِ يَنْهَكُ مِنْهُمُ   بالبُؤْسِ أَبْشارَ النَّعِيمِ الأَرْغَدِ

واسْتَوْطَنُوا فَزَعاً إلى بَحْرِ النَّدَى   أَهْوَالَ بَحْرٍ ذِي غَوَارِبَ مُزْبِدِ

مِنْ كُلِّ عارٍ بالتَّجَمُّلِ مُكْتَسٍ   ومُزَوَّدٍ بالصَّبْرِ غيرِ مُزَوَّدِ

ولَنِعْمَ جَبْرُ الفَقْرِ من بَعْدِ الغِنَى   والذُّلِّ بَعْدَ العِزِّ آلُ مُحَمَّدِ

وقال يمدح علي بن حمود (*) رحمهم الله بسبتة حين قصده من الأندلس إليها سنة أربع وأربعمائة [1]

[من المتقارب]

لَعَلَّكِ يا شمسُ عِنْدَ الأَصِيلِ   شَجِيتِ لِشَجْوِ الغَرِيبِ الذَّلِيلِ

(*) هو علي بن حمود بن ميمون الإدريسي الحسني، ولد في سنة ٣٥٢ / ٩٦٣ وكان هو وأخوه القاسم في أيام الفتنة من زعماء الحزب البربري ، وفي سنة ٤٠٠ (١٠١٠) كان جوازه إلى سبتة وانتزاؤه فيها باسم سليمان بن الحكم المستعين ، وفي سنة ٤٠٣ (١٠١٣) كان هو وأخوه القاسم في جملة قواد البربر الذين دخلوا قرطبة في دولة سليمان الثانية ، ثم أثبته سليمان على سبتة فظل بها حتى سنة ٤٠٥ (١٠١٥) حين جاز إلى مالقة خالعاً طاعة المستعين ومعلناً أن هشام بن الحكم المؤيد قد عهد إليه بولاية الأمر بعده وأخذ ثأره من قتلته ، وتوجه إلى قرطبة فخرج إليه سليمان فهزم وقتله علي بن حمود ، ثم بويع له في ٢٢ من محرم سنة ٤٠٧ (١ يولية ١٠١٦) وبقي حتى قتله بعض عبيده الصقالبة في الحمام في أول ذي القعدة سنة ٤٠٨ (٢١ مارس سنة ١٠١٨) . انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٣٢٣ — ٣٢٨ والمراجع المذكورة) .

(١) أورد ابن بسام ستة وأربعين بيتاً من هذه القصيدة (انظر الذخيرة القسم الأول ١ / ٧٠ — ٧٣) ؛ وانظر كذلك المقري : نفح الطيب (ط . ليدن) ١ / ٣١٦ ؛ وابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ٣ / ١٢٤ ؛ وابن الخطيب الغرناطي : الإحاطة في أخبار غرناطة (مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣) ص ٢٩١

فكوني شفيعي إلى ابن(١) الشفيعِ ... وكوني رسولي إلى ابنِ(١) الرسولِ

فإمّا شهدتِ فأزكى شهيدٍ ... وإمّا دللتِ فأهدى دليلِ

على سابقٍ في قيودِ الخطوبِ ... ونجمٍ سناً في غُثاءِ السيولِ

يُنادي الندى(٢) لسقامِ الضياعِ ... ويشكو إلى المُلكِ داءَ الخمولِ

وعزَّ على العلمِ مثواهُ أرضاً ... على حُكمِ دهرٍ ظلومٍ جهولِ

ويعجبُ كيفَ دنا منْ « عليٍّ » ... ولم تنفصمْ حلقاتُ الكبولِ

وكيفَ تنسّمَ آلَ النبيِّ ... وأبطأَ عنهُ شفاءُ الغليلِ

وأطوادُ عزِّهمُ ماثلاتٌ ... لهُ وهوَ يرنو بطرفٍ كليلِ

وأبحُرُهُمْ زاخراتٌ إليهِ ... ويرشُفُ في الثمدِ المستحيلِ

وقد آذنوهُ الخصيبَ المريعَ ... ومرتعهُ في الوخيمِ الوبيلِ

تجزّأ من جنّتيْ مأربٍ ... بخمطٍ وأثلٍ وسدرٍ قليلِ

غريبٌ وكم غرّبتْ راحتا ... هُ في الأرضِ منْ وجهِ بكرٍ بتولِ

[٢٠م] مُكرّمةٍ ما نأتْ عنْ بلادٍ ... ولا قرّبتْ من شبيهٍ مثيلِ

تضيءُ لها مظلماتُ النفوسِ ... وتُزوى بها ظامئاتُ العقولِ

وتطلعُ في زاهراتِ النجومِ ... ومطلعُها جانحٌ للأفولِ

شريدُ السيوفِ وفلُّ الحتوفِ ... يكيدُ بأفلاذِ قلبٍ مهولِ

---

(١) في « النفح » : لابن

(٢) « ذخ » : الثرى .

تهاوتْ بهمْ مُضْمِقاتُ الرَّوَاعِـــــدِ[1] في مُدْجنات الضحى والأصيلِ
بوارقُ ظَلْمَـاء ظُلْمٍ تُبيحُ[2] دُمًى مِنْ حِمًى أَوْ دَماً مِنْ قتيلِ
فأَذْهَلَ مُرْضِعَةً عَنْ رَضيعٍ وأَنْسَى الحَمائمَ ذِكْرَ الهَديلِ
وشَطَّ الصَّريخُ على ذِي الصُّرَاخِ وفـاتَ المُعَوِّلُ ذَاتَ العَويلِ
فمـا تَهْتَدِي العَيْنُ فيهـا سَبيلاً سِوَى سَبَلِ العَبَرَاتِ الهُمُولِ
ولا يَعْرِفُ المَوْتُ فيهـا طَرِيقاً إلى النَّفْسِ إلاَّ بعَضْبٍ صَقيلِ
رَكِبْتُ لهـا مَحْمَلاً للنَّجاةِ وصيَّرْتُ قَصْدَكَ فيـهِ عَديلي
فَرُدَّتْ عَلَى عَقِبَيْها المَنُونُ بِوَاقٍ مُجِيرٍ وَرَأْيٍ أَصيلِ
وقـد مُنِّتُهـا بِنَفِيسِ التِّلَادِ عَلَى أَنْفُسٍ ضـائِعاتِ الذُّحُولِ

---

(١) « ذ خ » : الرعود .

(٢) في الأصل : تسح ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وقد ورد هذا البيت في الذخيرة هكذا :

بوارق ظلمـــا تسح دما من حمأ أو دما من قتيل

ولم يغب على محققي الذخيرة مافي هذا البيت من اختلال ، فقد ذكروا في الحاشية أنه يحتمل أن يكون :

بوارق ظلمـــائها تستبيح ذمام حمى أو دماً من قتيل

على أن ما أثبتناه أقرب إلى الأصل وأكثر وفاء بالمعنى ؛ وربما يحتمل أيضاً أن يكون :

بوارق ظلمـــاء ظلم تسح دماً من حمىً أو ذَماً من قتيل

ويكون المقصود بكلمة « ذما » ـ ذماء (بالمد) وهو بقية النفس .

فَهِبْنَ اليَسَارَ بِيُسْرَى جَوَادٍ ... وحُطْنَ الذِّمارَ بِيُمْنَى بَخِيلِ
نُفُوساً(١) حَنَتْ قَوْسُ عَطْفِي عَلَيْهَا ... فَكُنَّ(٢) سِهامَ قِسِيِّ الخُمُولِ
ومِنْ دُونِنا آنِساتُ الدِّيارِ ... نِهابَ الحِمَى مُوحِشاتِ الطُّلُولِ
يُهَيِّجُ فِيها زَفِيرُ الرِّياحِ ... مدامِعَ شَجْوِ السَّحابِ المُخِيلِ
وتَلطِمُ فيها أكُفُّ البُرُوقِ ... خُدُودَ عِرَاصٍ عَلَيْنا ثُكُولِ
تَظَلَّمُ مِن هاطِلاتِ الغَمامِ ... وتَشْكُو مِنَ الرِّيحِ جَرَّ الذُّيُولِ
مغانِي السُّرُورِ لَبِسْنَ الحِدَادَ ... عَلَى لابِساتِ ثِيابِ الذُّهُولِ
خطيباتِ خَطْبِ النَّوى والمُهُورُ ... مَهارَى عليها رِحالُ الرَّحِيلِ
فَمِنْ حُرَّةٍ جُلِيَتْ بِالجَلاَءِ ... وعَذْرَاء نُصَّتْ بِنَصِّ الذَّمِيلِ
ولا حَلْيَ إلاَّ جُمانُ الدُّمُوعِ ... يَسِيلُ(٣) عَلَى كُلِّ خَدٍّ أَسِيلِ
فَبُدِّلْنَ مِنْ بَعْدِ(٤) خَفْضِ النَّعِيمِ ... بِشَقِّ الحُزُونِ وَوَعْثِ السُّهُولِ
ومِنْ قِصَرِ اللَّيْلِ تَحْتَ الحِجالِ ... بِهَوْلِ السُّرَى تَحْتَ لَيْلٍ طَوِيلِ
[٢٠ب] / وَمِنْ عَلَلِ الماءِ تَحْتَ الظِّلاَلِ ... صِلاَءَ القُلُوبِ بِحَرِّ الغَلِيلِ
ومِنْ طِيبِ نَفْحٍ بِنَوْرِ الرِّياضِ ... تَلَظِّيَ لَفْحٍ بِنارِ المَقِيلِ

---

(١) « ذخ » : نفوس
(٢) في الأصل : فكنا ، والتصويب عن الذخيرة .
(٣) « ذخ » : تسيل .
(٤) « ذخ » : طول .

ومن أُنْسِها بَيْنَ ظِئْرٍ وتِرْبٍ | سُرَى لَيْلِهَا بَيْنَ ذِيبٍ وَغُولِ
ومن كُلِّ مَرْأى مُحَيًّا جَمِيلٍ | تَلَقِّي الخُطُوبِ بِصَبْرٍ جَمِيلِ
لَعَلَّ عواقِبَهُ أَنْ تَتِمّ (١) | فَيُهْدَى الغَرِيبُ سَوَاءَ السَّبِيلِ
إلى الهاشِمِيِّ إلى الطَّالِبِيِّ | إلى الفاطِمِيِّ العَطُوفِ الوَصُولِ
إلى ابْنِ الوَصِيِّ إلى ابْنِ النَّبِيِّ | إلى ابْنِ الذَّبِيحِ إلى ابْنِ الخَلِيلِ
إلى المُسْتَجارِ مِنَ المُسْتَجِيرِ | إلى المُسْتَقالِ مِنَ المُسْتَقِيلِ
إلى المُسْتَضافِ المَلِيكِ العَزِيزِ | من المُسْتَضِيفِ الغَرِيبِ الذَّلِيلِ
سلامٌ وأنتَ ابْنُ بَدْءِ السَّلاَ | مِ مِنْ ضَيْفِهِ المُكْرَمِينَ الدُّخُولِ
غَدَاةَ يُضَيِّفُ أَهْلَ السَّمَاءِ | إلى مَنْزِلٍ آلِفٍ (٢) لِلنَّزِيلِ
فَرَدَّ سَلامَ حَلِيمٍ مُنِيبٍ | وجَاءَ بِعِجْلٍ كَرِيمٍ عَجُولِ
وأَعْطانَهُ مَأْلَفٌ لِلضُّيوفِ | ومَوْطِنُ ذِي عَيْلَةٍ أَوْ مُعِيلِ (٣)
شرائِعُ خَلَّدَها في الأَنَا | مِ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ وَفِي كُلِّ جِيلِ
وما زَالَ مِنْ آلِهِ حافِظٌ | معالِمَها حِفْظَ بَرٍّ وَصُولِ
بأَنْفُسِ مَجْدٍ سِرَاعٍ إِلَيْهَا | وأَيْدٍ عليها شُهُودٍ عُدُولِ

---

(١) في البيان المغرب : تتم .

(٢) في الأصل : ألف ، ولعلها كما أثبتنا ، وقد تكون أيضاً : مألف .

(٣) في الاصل : مغيل ؛ والعيلة هي كثرة العيال ، والمعيل اسم فاعل من « أعال » أي افتقر .

فسُمِّيَ جَدُكَ « عَمْرَو الكِرَامِ » بِهَشْمِ الثَرِيدِ زَمَانَ المُحُولِ (1)
و «شَيْبَةُ» ساقي الحَجِيجِ الكَفِيلُ بمأوى الغريبِ وقُوتِ الخَلِيلِ (2)
وضَيَّفَ حتّى وحوشَ الفَلاةِ وأهْدَى القِرَى لهضابِ الوُعُولِ
وإنَّ أبا طالبٍ للضُيُوفِ لأطْلَبُ مِنْ ضَيْفِهِ للحُلُولِ (3)
ولا مِثْلَ والدِكَ المُصْطَفَى لرَكْبٍ وُفُودٍ وحَيٍّ حُلُولِ
يبادِرُهُمْ بابْتِناءِ القِبابِ ويُكْرِمُهُمْ بدُنُوِّ النُّزُولِ
ويَخْلَعُ عن مَنْكِبَيْهِ الرِّدَاءَ سُروراً وفَرْشاً لضَيْفِ القُيُولِ
يروحُ عليهِمْ بغُرِّ الجفانِ ويغدُو لهم بالغَرِيضِ النَّشِيلِ (4)
قِرًى عاجِلاً يقتضِي شربَهُ من الكَوْثَرِ العَذْبِ والسَّلْسَبِيلِ (5)
[فأنْتُمْ هُدَاةُ حياةٍ ومَوْتٍ وأنتُمْ أئمةُ فِعْلٍ وقِيلِ
وساداتُ من حَلَّ جَنَّاتِ عَدْنٍ جميعِ شبابِهِمُ والكُهُولِ

---

(1) يشير هنا إلى هاشم بن عبد مناف واسمه « عمرو » وقول الشاعر فيه :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

(2) شيبة هو اسم أبي طالب عم النبي ﷺ .

(3) « ذ خ » : للنزول .

(4) الغريض أي الطري ، والنشيل هو المستخرج سريعاً من القدر .

(5) يتلو هذا البيت في الاصل خرم خمس ورقات ، فالترقيم ينتقل هنا من ٢٠ إلى ٢٦ ، على أننا أثبتنا بعد هذا البيت ثمانية أبيات نقلناها عن الذخيرة (١ / ٧٣) .

وأَنتُمْ خلائِفُ دُنْيا ودِينٍ ... بِحُكْمِ الكِتابِ وحُكْمِ العُقُولِ

ووالِدُكُمْ خاتَمُ الأنبياءِ ... لَكُمْ منه مَجْدُ حَفِيٍّ كَفِيلِ

تَلَذُّ بِحَمْلِكُمُ عاتِقـاهُ ... عَلَى حَمْلِهِ كُلَّ عِبْءٍ ثَقِيلِ

ورَحْبُ عَلَى ضَمِّكُمْ صَدْرُهُ ... إذا ضاقَ صَدْرُ أَبٍ عن سَلِيلِ

ويطرُقُهُ الوحْيُ وَهْناً وأَنتُمْ ... ضَجِيعاهُ بَيْنَ يَدَيْ جِبْرَئِيلِ

وزَوَّدَكُمْ كُلَّ هَدْيٍ زَكِيٍّ ... وأَوْدَعَكُمْ كُلَّ رَأْيٍ أَصِيلِ!

. . . .

— ٣٢ —

[وقال رحمه الله يمدح المرتضى (*) آخر ملوك بني مروان] (١)

[من الطويل]

[جِهادُكَ حُكْمُ اللهِ، مَنْ ذا يَرُدُّهُ؟ ... وعَزْمُكَ أَمْرُ اللهِ، مَنْ ذا يَصُدُّهُ؟

(*) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وكان قد ألجأته الفتنة القرطبية الى بلنسية حيث قام بأمره خيران العامري ومنذر بن —

(١) عنوان هذه القصيدة والجزء الأول منها ساقطان من الأصل في الخرم الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة ، وقد نقلنا العنوان وسبعة أبيات منها عن الذخيرة (ق ١ — ١ / ٦٤) حيث أورد ابن بسام منها اثني عشر بيتاً .

وطائِرُكَ اليُمْنُ الَّذِي أَنْتَ يُمْنُهُ وطَالِعُكَ السَّعْدُ الَّذِي أنْتَ سَعْدُهُ

. . . .

وبَيْعَةُ رِضْوَانٍ رَعَى اللهُ حَقَّها لمَنْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ إذْ غابَ جَدُّهُ
فأَصْبَحَ في رَأْسِ الرِّيَاسَةِ تاجُـهُ وَنُظِّمَ في جِيـدِ الخِـلافَةِ عِقْدُهُ
مَسَرَّتُـهُ مَأْوَى الغَرِيبِ وسِـتْرُهُ ولَذَّتُـهُ خَـيْرُ المُقِلِّ ورِفْـدُهُ
وأَجنادُهُ في موقِفِ الرَّوْعِ رَوْضُهُ وأَعْلامُـهُ في مَوْرِدِ المَوْتِ وِرْدُهُ
تُلاعِبُ آرَامَ الفَلاَ من هِباتِـهِ وآرَامُـهُ غُرُّ الطِّرَادِ وَجُرْدُهُ]
[٢٧م] /وتَفْـتَرِشُ[1] الدِّيباجَ مِنْ جُودِ كَفِّهِ وما فَرْشُـهُ إلا الجَـوَادُ ولِبْدُهُ

– يحيى التجيبي في سنة ٤٠٧ (١٠١٧) ، وفي العاشر من ذي الحجة سنة ٤٠٨ (٢٩ أبريل سنة ١٠١٨) بايعاه على الخلافة خالعين طاعة علي بن حمود ، وجمعا له جيشاً كبيراً انضم إليه بعض الأفرنج (من أهل برشلونة) وساروا الى قرطبة لمحاربة الخليفة العلوي بها ، وكان بها حينئذ القاسم بن حمود الذي خلف أخاه علياً بعد قتله ، إلا أن المرتضى – بمشورة خيران ومنذر – عرج قبل المسير الى قرطبة على غرناطة لمحاربة البربر بها ، وكان عليها آنذاك زاوي بن زيري الصنهاجي فخرج له الصنهاجيون وأوقعوا به هزيمة شنعاء قتل فيها ومزقت جيوشه ، وذلك في سنة ٤٠٩ وكان سبب هزيمته هو غدر مواليه العامريين به بتدبير من خيران العامري ومنذر التجيبي (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٣٢٨ – ٣٣١ والمراجع المذكورة) .

أما تاريخ قول هذه القصيدة فينبغي أن يكون بين سنتي ٤٠٧ و ٤٠٨ هـ .

(١) في الأصل : ويفترش ، والتصويب عن الذخيرة .

وَمَنْ بَرَّحَ البِيضُ الحِسانُ بِوَجْدِهِ فَبالبِيضِ في الهَيْجاءِ بَرَّحَ وَجْدُهُ
وقَرَّبَنا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ هَدْيُهُ ورَغَّبَنا في طاعَةِ اللهِ زُهْدُهُ (١)
وعلَّمَنا بَذْلَ النُّفُوسِ لِنَصْرِهِ نَدَى كَفِّهِ المُرْبِي عَلَى القَطْرِ عَدُّهُ
ولَوْ لَمْ يُوافِ الوافِدُونَ قِبابَهُ لأَصْبَحَ مِنْ زُهْرِ الكَواكِبِ وَفْدُهُ
وأَيَّامُهُ الموصُولُ طُولُ صِيامِهِ بِلَيْلٍ تَحَلَّى بالتِّلاوَةِ سُهْدُهُ
وأَبْلَجَ من قَحْطانَ قُرْبُكَ عِزُّهُ ومُلْكُكَ مَحْياهُ ونَصْرُكَ مَجْدُهُ (٢)
شَدِيدُ مِحالِ الرُّمْحِ فِيكَ أَبِيُّهُ مُبِرُّ خِصامِ السَّيْفِ عَنْكَ أَلَدُّهُ
رِضاكَ له يا مُرْتَضَى دِينُ وَاثِقٍ بِأَنَّكَ الدِّينِ الحَنِيفِ تعدُّهُ
وما يَزْدَهِيهِ مِنْكَ دهرٌ يَسُودُهُ إِذَا لَمْ تُجَرِّدْهُ لِثَغْرٍ يَسُدُّهُ
يُوَقِّرُ عَنْكُمْ سَمْعُهُ فَيُصِيخُهُ ويَقْصُرُ عَنْكُمْ طَرْفُهُ فَيَمُدُّهُ
وعهدُكَ بالآمالِ تَصْرِفُ عَنْكُمُ ورَدَّاكُمُ عَهْدَ السَّمَوْأَلِ عَهْدُهُ
وكَمْ حَلَّ مَوْتُ الحَقِّ من شَدِّ عَقْدِكُمْ ويُحْيِي « ابْنُ يَحْيِي » عَقْدَكُمْ فَيَشُدُّهُ
وإِنْ ماتَ مَوْتَ اليَأْسِ منكُمْ رَجاؤُهُ تَنَسَّمَ فِيكُمْ رُوحَهُ فَيَرُدُّهُ
ونادَيْتَ في الإِسْلامِ حَيَّ عَلَى الهُدَى فَيالَكَ مِنْ ظَمْآنَ قد حانَ وِرْدُهُ

---

(١) في هذه الأبيات وما بعدها مصداق قول ابن حزم عن عبد الرحمن المرتضى هذا إنه كان « رجلاً صالحاً متقشفاً مائلاً الى الفقة لم يلبس في ولايته خزاً إلى أن قتل » (جمهرة الأنساب ص ٩٣) .

(٢) الإشارة هنا إلى منذر بن يحيى التجيبي أحد القائمين بأمر المرتضى .

فقلّدتَهُ سيفاً لزحفٍ يقودُهُ ... لخزيِ عِداكَ أو لزغفٍ يقدُّهُ

فإن لم يكن للهندِ يوماً حديدُهُ ... فمن يعرُبَ العلْيا شَباهُ وحدُّهُ

وإن يكُ في سَرْوِ اليمانينَ أصلُهُ ... فطاعتُهُ في عبدِ شمسٍ ووُدُّهُ

وإن أنجبَتْهُ أزدُهُ وتُجيبُهُ ... فصفوتُهُ عدنانُهُ ومعدُّهُ

أما وتحلّى دونَ مُلكِكَ نصلُهُ ... لقِدماً تخلّى من سنائكَ غِمدُهُ

لمُلكٍ نمى عبدُ المليكِ ملوكَهُ ... وأنجُمِ نورٍ من هشامٍ تمدُّهُ

بكلِّ(1) إمامٍ ناصرٍ أنتَ صِنوُهُ ... وكلِّ مليكٍ قاهرٍ أنتَ نِدُّهُ

نَمَوْكَ إلى بيتِ النبوّةِ وابتنَوْا ... لكَ الشرفَ الفردَ الذي أنتَ فردُهُ

فأفخِرْ بمن قُرْبُ النبيّينَ فخرُهُ ... وأمجِدْ بمن مجدُ الخلائفِ مجدُهُ

ومن كلُّ حقٍّ في الخلافةِ حقُّهُ ... وكلُّ إمامٍ في البريّةِ جدُّهُ

[٢٧ب] /ومن أمُّهُ «أجيادُ» والرُّكنُ ظئرُهُ ... ومُرضِعُهُ البطحاءُ والحِجرُ مهدُهُ

لهُ حرَمُ الإتهامِ، والغورُ غورُهُ ... ومَنهجُ سُبْلِ الحجِّ، والنَّجدُ نجدُهُ

وحيثُ اعتلى صوتُ المُلبّي وحجُّهُ ... وحيثُ انتهى صدرُ الحجيجِ ووفدُهُ

مناقبُ سارتْ(2) في معالمِ كُنهِها ... عُقولُ بني الدنيا وما حُدَّ حدُّهُ

وفخرٌ لو استنجدتُ في وصفِهِ الورى ... لأسأرَ من عدّ الحصى من يعدُّهُ

ولم يُبلِ ما أبلاهُ آباءُ «مُنذرٍ» ... لأوّلهم، بل مفخرٌ تستجدُّهُ

---

(1) «ذخ»: وكل.

(2) كذا في الأصل، وربما كانت: حارت.

وأَلْقَوْا عَلَى مَرْوَانَ صَفْوَةَ أَنْفُسٍ … تَعالىٰ بها جَدُّ الزمانِ وجَدُّهُ

وسيفُكَ منهُمْ سَهْمُكَ الصَّائِبُ الَّذِي … يَزِيدُ غَناءً كُلَّما زادَ بُعْـدُهُ

رَمَيْتَ به آفاقَ رُومَـةَ فانْثَنىٰ … يقودُ بُنُودَ الرُّومِ نحوَكَ بَنْدُهُ (١)

فَرُبَّ حَمِيِّ الغلِّ في غِيلِ مُلْـكِها … بَعيدٍ عَلَى شأْوِ الجنائِبِ قَصْدُهُ

متىٰ يَرْمِ صَرْفَ الدَّهْرِ لا يَعْدُ نَفْسَهُ … وإن يَرْمِهِ صَرفُ المكارِهِ يَعدُهُ

تجلَّى ابْنُ يَحيىٰ في سَناكَ لِغَيِّهِ … فبَصَّرَهُ أنَّ اصطناعَكَ رُشْدُهُ

فما أَبْطَـأَتْ إِذْ أَبطَـأَتْ يَدُ قادِحٍ … أَتاكَ وقد أَورى لك النُّجْحَ زَنْدُهُ

ولا غابَ من وافاكَ من أَرْضِ رُومَةٍ … بغابٍ من الخَطِّيِّ تَزْأَرُ أُسْدُهُ

كتائِبُ لو يُرْمىٰ بها الدَّهْرُ قَبْلَنـا … لزُلْزِلَ ذُو القَرْنَيْنِ منها وسَدُّهُ

كأَنَّ فضاءَ الأَرْضِ أُلْبِسَ منهُمُ … لَبُوساً من الماذِيِّ (٢) قُدِّرَ سَرْدُهُ

تُهَدُّ بهم شُمُّ الجبالِ فإن هَفَوْا … فلَحْظُكَ يَرْمِي جَمْعَهُمْ فيَهُدُّهُ

فما ينظُرُ الأَعْدَاءُ إلا عَجاجَـةً … يَسيرُ بها الرَّحْمٰنُ فيهـا وعَبْدُهُ

إلى يومِ فَلْجٍ ساطِعٍ لكَ نُورُهُ … وميقاتِ فتحٍ صادقٍ لك وَعْـدُهُ

عَلَى بادِئِ الإنعامِ فيهِ تَمامُهُ … وحَقٌّ على سِبْطِ الخلافَةِ حَمْدُهُ

---

(١) يشير في هذه الأبيات وما بعدها إلى ما كان في جيوش المرتضى من رجال الإفرنج ممن أمـده به قومس برشلونة رايمند Ramón Borrell III (انظر ابن عذاري : البيان ٣ / ١٢٦) .

(٢) الماذي الدرع اللينة البيضاء .

وحَقٌّ عَلَى يُمْنَى يَدَيَّ بقاؤُهُ   جَديداً على مَرِّ الزَّمانِ وخُلْدُهُ
بغَرْبِ لسانٍ لو أُبارِي بِهِ الْوَرَى   مَدَى الدَّهْرِ لم يَبْلُغْ نَصِيفِيَ مُدُّهُ
عَلِيماً بأَنْ مَنْ[1] أَلْحَدَتْ فيكَ نَفْسُهُ   ففي لَهَوَاتِ الذِّيبِ والذَّبْحِ لَحْدُهُ
ومَنْ يَبْغِ في الآفاقِ عنكَ مُرَاغِماً   فوِجْدَانُهُ في مُلْتَقَى الخَيْلِ فَقْدُهُ
ومن يَتَّخِذْ في غيرِ بَحرِكَ مَوْرِداً   فلم يَتَّخِذْ إِلاَّ لنَعْلَيْكَ خَدُّهُ
[٢٨ م] / فلا أَمَلٌ إلا إِلَيْكَ انتهاؤُهُ   ولا مَآلٌ إلا إِلَيْكَ مَرَدُّهُ

— ٣٣ —

وله في خيران العامري(*) رحمهما الله تعالى[2]

[من الطويل]

لكَ الخيْرُ ، قد أَوْفى بعَهْدِكَ خَيْرانُ   وبُشْرَاكَ ، قد آوَاكَ[3] عِزٌّ وسُلْطانُ

---

(١) في الأصل : ما ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(*) خيران العامري الصقلبي كان من جلة فتيان المنصور بن أبي عامر ، فلما —

(٢) احتفظ ابن بسام في « الذخيرة » من هذه القصيدة بأربعة وستين بيتاً (ق ١ — ١ / ٧٤ – ٧٨) ؛ ونقل ابن الخطيب في « أعمال الأعلام » منها واحداً وستين بيتاً (ص ٢١٢ — ٢١٥) ؛ واختار منها الثعالبي في « يتيمة الدهر » ثمانية وثلاثين بيتاً (٢ / ١٠٦ – ١٠٧) ؛ واحتفظ المقري منها بخمسة أبيات (نفح الطيب . ط . القاهرة ٤ / ٤٠٥) .

(٣) « ذ خ » : وافاكَ .

هو النُّجْحُ[1] ، لا يُدْعَى إلى الصُّبْحِ شاهِدٌ
هو الفَوْزُ[2] ، لا يُبْغَى عَلَى الشَّمْسِ بُرْهانُ

إِلَيْكَ شَحَنَّا الفُلْكَ تَهْوِي كَأَنَّها
— وقَدْ ذُعِرَتْ[3] عَنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ — غِرْبانُ

عَلَى لُجَجٍ خُضْرٍ إذا هَبَّتِ الصَّبا تَرامَى بنا فيها ثَبِيرٌ وَثَهْلانُ
مَوائِلَ[4] تَرْعَى في ذُراها مَوائِلاً كما عُبِدَتْ في الجاهِلِيَّةِ أَوْثانُ
وفي طَيِّ أَسْمالِ الغَرِيبِ غَرائِبٌ سَكَنَّ شَغافَ القَلْبِ شِيبٌ وَوِلْدانُ

– نشبت الفتنة كان من بين من أيدوا محمد بن هشام المهدي حتى بدا لهم في أمره فغدروا به ، ولما دخل سليمان المستعين قرطبة فر منها ، ثم كان ممن أعانوا علي ابن حمود في ثورته على سليمان إلا أنه حين دخل قرطبة معه كان يطمع في أن يجد هشاماً المؤيد حياً ، فلما لم يجده استراب من ابن حمود وفر من قرطبة واشترك مع منذر بن يحيى في تدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى ولكنه عاد فغدر به ودبر قتله بعد هزيمته أمام أسوار غرناطة سنة ٤٠٩ ، وكان خيران قد استقل بالمرية في سنة ٤٠٥ (١٠١٥) ، واستولى كذلك على أريوله ومرسية ، وبقي على المرية حتى توفي سنة ٤١٩ (١٠٢٨) . انظر ابن عذارى : البيان المغرب وابن الخطيب : الأعمال (الفهرس) . أما تاريخ هذه القصيدة فقد نص ابن الخطيب على أنه قالها في سنة ٤٠٧ (أعمال ص ٢١٢)

(١) « ذخ » و « أع » : النجم .
(٢) « ذخ » و « أع » : النور .
(٣) « ذخ » و « أع » : من ؛ وفي النفح : « ركبنا » بدلا من « شحنا » .
(٤) « ذخ » و « أع » : موائل ؛ وكذلك في النفح .

يُرَدِّدْنَ في الأَحْشاءِ حَزّ[1] مَصائِبٍ ... تَزيدُ ظَلاماً لَيْلَها وهْيَ نِيرانُ
إذا غِيضَ ماءُ البَحْرِ منْها مَدَدْنَهُ ... بدَمْعِ عيونٍ يَمْتَرِيهِنَّ[2] أَشْجانُ
وإنْ سَكَنَتْ عَنّا[3] الرياحُ جَرَى بِنا ... زَفيرٌ إلى ذِكْرِ الأَحِبَّةِ حَنّانُ
يقُلْنَ[4] — ومَوْجُ البَحْرِ والهَمِّ والدُّجَى
تَموجُ بِنا فيها عُيُونٌ وآذانُ — :
أَلاَ هَلْ إلى الدُّنْيا مَعادٌ وهَلْ لَنا ... سِوى البَحْرِ قَبْرٌ أو سِوى الماءِ أَكْفانُ؟
وهَبْنا رأينا مَعْلَمَ الأَرْضِ هَلْ لَنا ... من الأَرْضِ مَأْوًى أو من الإِنْسِ عِرْفانُ؟
وصَرْفُ الرَّدَى من دونِ أَدْنَى مَنازِلٍ ... تَباهَى إلَيْنا بالسُّرورِ وتَزْدانُ
تَقَسَّمَهُنَّ السَّيْفُ والحَيْفُ والبِلَى ... وشَطَّتْ بِنا عنها عُصورٌ وأَزْمانُ
كما اقْتَسَمَتْ أَخْدانَهُنَّ يَدُ النَّوَى ... فَهُمْ للرَّدَى والبَرِّ والبَحْرِ أَخْدانُ[5]
ظَعائِنُ عُمْرانُ المَعاهِدِ مُقْفِرٌ ... بِهِنَّ، وقَفْرُ[6] الأَرْضِ مِنْهُنَّ عُمْرانُ

(١) «ذخ» و «أع» : حر
(٢) «ذخ» و «أع» : تعتريهن
(٣) «ذخ» و «أع» : عنها
(٤) في النفح : مقاتل موج ...
(٥) «ذخ» و «أع» : إخوان ؛ وقد ورد الشطر الأول في النسخة المخطوطة من المجلد الثالث لكتاب الذخيرة (نسخة جايانجوس المحفوظة في مكتبة المجمع الملكي التاريخي بمدريد) على هذه الصورة : «كما قسمت أحداثهم بيد النوى». (انظر الورقة ١ و).
(٦) «ذخ» و «أع» : قمر .

هَوَتْ أُمُّهُمْ ماذا هَوَتْ بِرِحالِهِمْ[1] إلى نازِحِ الآفاقِ سُفْنٌ وأَظْعانُ ؟
كَوَاكِبُ ، إلاَّ أَنَّ أفلاكَ سَيْرِها زِمامٌ ورَحْلٌ ، أو شِرَاعٌ وسُكَّانُ
فإنْ غَرَّبَتْ أَرْضُ المغارِبِ مَوْئِلِي[2] وأَنْكَرَني فيها خَليطٌ وخِلاَّنُ
فكَمْ رَحَّبَتْ أَرْضُ العِرَاقِ بِمَقْدَمِي وأَجْزَلَتِ البُشْرى عَلَيَّ خُرَاسانُ
وإنَّ[3] بِلاداً أَخْرَجَتْني لَعُطَّلٌ وإنَّ زماناً خان عَهْدِي لَخَوَّانُ
سَلاَمٌ عَلَى الإِخْوَانِ! تَسْليمَ آيِسٍ[4] وسَقْياً لِدَهْرٍ كانَ لي فِيهِ إِخْوَانُ
ولا عَرَّفَتْ بِي خَلَّةً دَارُ خُلَّةٍ[5] عَفَا رَسْمَها مِنْها جَفاءٌ ونِسْيانُ
[٢٨ب] /وغَرَّتْ بِبَرْقِ المُزْنِ مِنْ ذِكْرِ صَعْقِهِ ومن ذِكْرِ رَبٍّ كُلَّ يَوْمٍ لَهُ شانُ
ويا رُبَّ يومٍ بانَ صَدْعُ سَلاَمِهِ بِصَدْعِ النَّوى أَفْلاَذَ قَلْبِيَ إِذْ بانُوا[6]
نُوَدِّعُهُمْ شَجْواً بِشَجْوٍ كَمِثْلِما أَجابَتْ حَفيفَ السَّهْمِ عَوْجاءُ مِرْنانُ
ويَصْدَعُ ما ضَمَّ الوَدَاعُ تَفَرُّقٌ كما انْشَعَبَتْ تحتَ العَوَاصِفِ أَغْصانُ
إذا شَرَّقَ الحادِي بِهِمْ غَرَّبَتْ بِنا نَوًى يَوْمُها يومانِ والحِينُ أَحْيانُ

---

(١) « بت » : برجالهم .
(٢) « أع » : موطني .
(٣) « أع » : فإن .
(٤) « ذخ » : يائس .
(٥) « أع » : ولا عرفت خلات دار خليلة .
(٦) « أع » : بصدع النوى أفلاك قلبي إذ كانوا (!) .

فلا مُؤْنِسٌ إلا شهيقٌ وزَفْرَةٌ ... ولا مُسْعِدٌ إلا دُمُوعٌ وأَجْفانُ[1]

وما كانَ ذاكَ البَيْنُ بَيْنَ أَحِبَّةٍ ... ولٰكِنْ قلوبٌ فارَقَتْهُنَّ أَبْدانُ

فَيا عَجَباً للصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّنا ... لَهُمْ غَيْرُ مَنْ كُنَّا، وهُمْ غَيْرُ مَنْ كانُوا

قَضَى[2] عَيْشُهُمْ بَعْدِي وعَيْشِيَ بَعْدَهُمْ ... بأَنِّيَ[3] قَدْ خُنْتُ الوَفاءَ وَقَدْ خانُوا

وَأَفْجِعْ بِمَنْ[4] آوَى صَفِيحٌ وجَلْمَدٌ ... وَوَارَتْ رِمالٌ بالفَلاَةِ وكُثْبانُ

وُجُوهٌ تَناءَتْ في البِلادِ قُبُورُها ... وإنَّهُمُ في القَلْبِ مِنِّي لَسُكَّانُ

وما بَلِيَتْ في التُّرْبِ إلاَّ تَجَدَّدَتْ ... عَلَيْها مِنَ القَلْبِ المُفَجَّعِ[5] أَحْزانُ

هُمُ اسْتَخْلَفُوا الأَحْبابَ أَمْوَاجَ لُجَّةٍ ... هِيَ المَوْتُ أَوْ في المَوْتِ عَنْهُنَّ سُلْوَانُ

بَقايا نُفُوسٍ مِنْ بَقِيَّةِ أَنْفُسٍ ... يُمِيتُونَ أَحْزَانِي، فَدِينُوا بِما دَانُوا

أَقُولُ لَهُمْ صَبْراً لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمُ ... عَسَى العَيْشُ مَحْمُودٌ أَوِ المَوْتُ عَجْلاَنُ

وَلاَ[6] قَنَطٌ، واليُسْرُ لِلعُسْرِ غالِبٌ[7] ... وفي العَرْشِ رَبٌّ بالخَلاَئِقِ رَحْمٰنُ

ولا يَأْسَ مِنْ رَوْحٍ وفي اللهِ مَطْمَعٌ ... ولاَ بُعْدَ مِنْ خَيْرٍ وفي الأَرْضِ «خَيْرَانُ»

---

(١) «ذخ» و «أع»: وأشجان.

(٢) «يت»: مضى.

(٣) «يت»: كأني.

(٤) «ذخ» و «يت»: من.

(٥) «ذخ» و «أع»: الموجع.

(٦) «أع»: فلا.

(٧) «أع»: والعسر لليسر غالب (!).

سَتَنْسَوْنَ أَهْوَالَ العَذَابِ وَمَالِكاً إِذَا ضَمَّكُمْ في جَنةِ الفَوْزِ رِضْوَانُ
مَتَى تَلْحَظُوا قَصْرَ «المَرِيَّةِ» تَظْفَرُوا[1] بِبَحْرٍ حَصَى[2] يُمْنَاهُ دُرٌّ وَمَرْجانُ
وَتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجِ بَحْرٍ شَجاكُمُ بِبَحْرٍ[3] لَكُمْ مِنْهُ لُجَيْنٌ وعِقْيانُ
فَتًى سَيْفُهُ لِلدِّينِ أَمْنٌ وإيمانُ ويُمْناهُ لِلآمالِ[4] رَوْحٌ ورَيْحانُ
تَقَلَّدَ سَيْفَ اللهِ فِينا[5] بِحَقِّهِ فَبَرَّتْ عُهُودٌ بالوفاءِ وَأَيْمانُ
وحَلّى بِتاجِ العِزِّ مَفْرِقَ مُخْبِتٍ يُقَلِّبُهُ[6] داعٍ إلى اللهِ دَيَّانُ
وبالخَيْرِ فَتَّاحٌ، وبالخَيْرِ عائِدٌ، وبالخَيْلِ ظَعَّانٌ، ولِلْخَيْلِ طَعَّانُ
فَقُضَّتْ سُيُوفٌ حارَبَتْهُ وأَيْمُنٌ، وشاهَتْ وُجُوهٌ فاخَرَتْهُ وتِيجانُ
/ لَهُ[7] الكَرَّةُ الغَرَّاءُ عَنْ كُلِّ شارِدٍ أَضاءَتْ لَهُمْ مِنْها[8] دِيارٌ وأَوْطانُ [٢٩أ]
وَرَدَّ بِها يَوْمَ اللِّقاءِ «زِناتَةً»[9] كما انْقَلَبَتْ[10] يَوْمَ «الهَباءَةِ» ذُبْيانُ

---

(١) «ذخ» و «أع» : تنزلوا .
(٢) «ذخ» و «أع» : ندى .
(٣) «ذخ» و «أع» : بموج .
(٤) «ذخ» : وإعانه الاهل (!) .
(٥) «أع» : عنا
(٦) «أع» : يوجهه .
(٧) «ذخ» : لها .
(٨) «أع» : لنا منه .
(٩) «يت» : وأوردتها يوم اللقاء فراته .
(١٠) «يت» : انصرفت .

بِكُلِّ كَمِيٍّ عامِرِيٍّ يَسُوقُهُ[1] لِحَرِّ الوَغى قَلْبٌ عَلَى الدِّينِ حَرّانُ
حُلِيُّهُمُ بِيضُ الصَّوارِمِ والقَنا لَها وحُلاَها سابِغاتٌ وأَبْدانُ
تَراءاكَ حِزْبُ البَغْيِ منهمُ[2] فَأَقْبَلُوا وفي كُلِّ أَنْفٍ لِلغَوايَةِ شَيْطانُ
فَأَيُّ صُقُورٍ قَلَّبَتْ أَيَّ أَعْيُنٍ إلى أَيِّ لَيْثٍ رَدَّها وَهْيَ خِلْدانُ
عُيُوناً بِها كادُوا الهُدى فَفَقَأْتَها[3] فَهُمْ في شِعابِ الغَيِّ والرُّشْدِ عُمْيانُ[4]
وما لَهُمُ في ظُلْمَةٍ بَعْدُ كَوْكَبٌ وما لَهُمُ في مُقْلَةٍ بَعْدُ إِنْسانُ
يَضِيقُ[5] بِهِمْ رَحْبُ القُصُورِ وَوُدُّهُمْ لَوِ اخْتارَهُمْ عَنْها كُهُوفٌ وغِيرانُ
وَأَنْسَيْتَهُمْ حَمْلَ القَنا فَسِلاحُهُمْ[6] عَلَيْكَ إِذا لاقَوْكَ ذُلٌّ وإِذْعانُ
وأَنّى لِفَلِّ[7] القِبْطِ في مِصْرَ مَوْئِلٌ وقَدْ غِيلَ فِرْعَوْنٌ وأُهْلِكَ هامانُ
فَيا ذُلَّ أَعْلامِ الهُدى يَوْمَ عِزِّهِمْ ويا عِزَّ أَعْلامِ الهُدى بِكَ إِذْ هانُوا
حَفَرْتَ لَهُمْ في يَوْمِ قَبْرَةَ[8] بالقَنا قُبُوراً هَواءُ الجَوِّ مِنْهُنَّ مَلْآنُ

---

(١) «أع» : يقوده .
(٢) «أع» : الغي فيهم .
(٣) «ذخ» و «أع» : بمائها .
(٤) «ذخ» و «أع» : فهم في سبيل الرشد والغي عميان .
(٥) «ذخ» : تضيق .
(٦) «ذخ» : بسلاحهم .
(٧) «ذخ» : لغل .
(٨) «يت» : ثبرة .

يَطِيرُ بِهَا هامٌ ونَسْرٌ وناعِبٌ ... ويَغْدُو بِها ذِيبٌ وذِيخٌ وسِرْحانُ(1)
فَلَوْ شَهِدَ(2) الأمْلاكُ يَوْمَكَ فِيهِمُ ... لأَلْقَى إليكَ التَّاجَ كِسْرَى وَخاقانُ
ولَوْ رُدَّ في «المَنْصُورِ» رُوحُ حَياتِهِ ... غداةَ لقيتَ المَوْتَ والمَوْتُ عُرْيانُ(3)
[وَنادَيْتَ لِلهَيْجاءِ أَبْناءَ مُلْكِهِ ... فَلَبَّاكَ آسادٌ عَبِيدٌ وفِتْيانُ](4)
جِبالٌ إذَا أرْسَيْتَها حَوْمَةَ الوَغَى ... وإنْ تَدْعُهُمْ(5) يوماً(6) إلَيْكَ(7) فعِقْبانُ
يَقُودُهُمُ دَاعٍ إلى الحَقِّ مُجابٌ ... عَلَى البَغْيِ يُرْضِي رَبَّهُ وَهُوَ غَضْبانُ
كَتائِبُ بَلْ كُتْبٌ بِنَصْرِكَ سُطِّرَتْ ... وَوَجْهُكَ «باسْمِ اللهِ» والسَّيْفُ عُنْوانُ
هو السَّيْفُ لا يَرْتابُ أنَّكَ سَيْفُهُ ... إذا نازَلَ الأَقْرانَ في الحَرْبِ أَقْرانُ
كَأَنَّ العِدَى لَمَّا اصْطَلَوْا حَرَّ نارِهِ ... أَصْحابَ هَوَادِيهِمْ مِنَ الجَوِّ حُسْبانُ(8)

---

(1) «يت»: يطير بهم باز ونسر وناعب * ويغدو بهم ذئب رميح وسرحان

(2) «ذخ» و «أع» و «يت»: تشهد.

(3) «ذخ» و «يت»: غرثان؛ «أع»: ألوان.

(4) هــذا البيت ساقط من الأصل، وقد أضفناه ملتزمين رواية الذخيرة والأعلام، وقد ورد أيضاً في اليتيمة مع اختلاف يسير، إذ أنه جاء فيها: ونادبت في الهيجاء... الخ.

(5) «يت»: تدعها.

(6) «يت»: يوماك (!).

(7) «ذخ» و «أع»: إليها.

(8) الحسبان هو البلاء والعذاب.

وأَسْمَرُ يَسْرِي في بِحارٍ من النَّدى
بيُمْناكَ[1] لـكِنْ يغتَدِي[2] وَهْوَ ظَمْآنُ

تَـلأْلأَ نوراً مِنْ سَناكَ سِنانُهُ
وقد دَعَتِ الفُرْسانَ لِلحَرْبِ فُرْسانُ

لَحَيّاكَ[3] مَنْ أَحْيَيْتَ مِنْهُ[4] شَمائلاً
يَموتُ بها في الأَرْضِ ظُلْمٌ وعُدْوانُ

وناجاكَ[5] إسْراراً وناداكَ مُعْلِناً[6]
وَحَسْبُ العُلى مِنْهُ سِرارٌ وإعْلانُ[7]

[٢٩ب] / أَلا هـكَذا فَلْيَحْفَظِ العَهْدَ حافِظٌ
أَلا هـكَذا فَلْيَخْلُفِ المُلْكَ سُلْطانُ

فَـلِلّه ماذا أَنْجَبَتْ مِنْكَ عامِرٌ !
ولِلّه ماذا ناسَبَتْ مِنْكَ قَحْطانُ !

ولِلّه مِنّـا أَهْلَ بَيْتٍ رَمَتْهُمُ
إلى يَدِكَ العُلْيا بُحُورٌ وبُلْدانُ[8]

وكُلُّهُمُ يَزْهى عَلَى الشَّمْسِ في الضُّحى[9]
وبَدْرِ الدَّياجِي أَنَّهُمْ لَكَ جيرانُ

وقد زادَ[10] أَبْناءَ السَّبيلِ وَسيلَةً
وحَلُّوا فَزادُوا[11] أَنَّهُمْ لَكَ ضِيفانُ

فما قَصَّرَتْ بي عن عُلاكَ شَفاعَةٌ
ولا بِكَ عن مِثْلي جَزاءٌ وإحْسانُ

---

(١) «يت» : بكفك .

(٢) «ذخ» : تغتدي .

(٣) «يت» : فحياك .

(٤) «أع» : قد أحييت منا .

(٥) «يت» : وناداك .

(٦) «أع» : معلما .

(٧) «يت» : وحسب المعالي منه سر وإعلان .

(٨) في الأصل : وأبدان ، وقد اتبعنا هنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة والأعلام واليتيمة .

(٩) «ذخ» : بالضحى .

(١٠) «ذخ» و «أع» : راد .

(١١) «ذخ» : فرادوا ، «أع» : فودوا .

— ٣٤ —

وله في بعض رؤساء الكتاب أيضاً رحمهما الله[1]

[من الطويل]

أَرَحْلِيَ مَحْمُولٌ عَلَى العُتُقِ النُّجْبِ ... يَؤُمُّكَ، أَمْ سارٍ عَلَى القُتُمِ النُّكْبِ ؟
يقودُ بها هادٍ إلى الأَمْرِ والمُنى ... ويَحْدو بها حادٍ عَلَى الخوفِ والرُّعْبِ
غرائبُ مِمَّا أَغربَ الدهرُ أَطْلَعَتْ ... عليكَ[2] هلالَ العلمِ من أُفُقِ الغَرْبِ

(١) لم يفصح جامع الديوان عن اسم هذا « الكاتب الرئيسي » الذي مدحه ابن دراج بهذه القصيدة ، على أن ابن بسام صرح به في الذخيرة (القسم الثالث ا ـ ظ من النسخة المخطوطة المحفوظة في مكتبة المجمع التاريخي الملكي بمدريد) ، وهو الفتح بن أفلح ، وقد أورد ابن بسام في هذا الموضع ثلاثة عشر بيتا من تلك القصيدة ؛ وقد أشار ابن الخطيب في حديثه عن ملوك الطوائف (أعمال ص ٢٢٦) إلى رجل سماه عبد العزيز بن أفلح السلطاني وقال إنه كان نائباً لمبارك العامري صاحب بلنسية وإنه تفرد بضبط شاطبة وتدبيرها بعد أن مات صاحبها خيرة الصقلبي مسموماً بيد مبارك ، وإنه كان له انحطاط إلى مبارك فلم يهجه وخلاه على حاله وقنع منه بذلك حتى تصير أمر شاطبة بعد ذلك إلى يد مجاهد العامري . هذا ونظن أن عبد العزيز بن أفلح هذا هو نفسه الذي يسميه ابن بسام « الفتح بن أفلح » ، ولعل « الفتح » كان لقباله .

(٢) « ذخ » : عليها .

طَوَتْ فَلَوَاتِ الأَرضِ نَحْوَكَ[1] وانْطَوَتْ
كَبَدْرٍ إلى مَحْقٍ بشهرٍ[2] إلى عُقْبِ
كئوساً تساقَتْها الليالي تنادُماً
فجاءتكَ كالأقداحِ رُدَّتْ عن[3] الشُّرْبِ

تعاوَرَهُنَّ البرُّ والبحرُ مثلَما ... تُرَدُّ بأيدي الرُّسْلِ أجوبَةُ الكُتْبِ
فليْلٌ إلى صُبْحٍ، وصبحٌ إلى دُجىً ... وكَرْبٌ إلى رَوْحٍ، وروحٌ إلى كَرْبِ
وسهلٌ إلى حَزْنٍ، وحزنٌ إلى فَلاً ... وسُهْبٌ إلى بَحْرٍ، وبَحْرٌ إلى سُهْبِ
يُكَتِّبْنَ صَفْحاتِ السُّعودِ نواظِراً ... وينفُضْنَ من أقلامِهِنَّ عَلَى القَلْبِ
ويَقْضِمْنَ أطرافَ الهشيمِ تبَلُّغاً ... إلى الروضةِ الغنَّاءِ في المَشْرَبِ العَذْبِ
تُنيخُ فتَلْقي في الصُّخورِ كلاكِلاً ... تنوءُ لأرضِ المِسْكِ زَهْواً عن التُّرْبِ
ويَفْحَصْنَ في رَضْمِ الحصى بمناسِمٍ ... تهيمُ إلى حصْباءَ من لُؤْلُؤٍ رَطْبِ
أُنَسِّمُها رَيَّاكَ في نفحةِ الصَّبا ... وأَجلُو لها سِيماكَ في أَوْجُهِ الشُّهْبِ
وأُسْمِعُها داعيكَ في كُلِّ مَنْهَلٍ ... هَلُمَّ إلى الإكرامِ والمنزلِ الرَّحْبِ
ولاحَ لها البَرْقُ الَّذي أَغْدَقَ[4] الثَّرى ... فَهُنَّ[5] إليهِ مُوفِضاتٌ[6] إلى نُصْبِ

---

(١) هذه الكلمة ناقصة في الذخيرة.

(٢) «ذخ»: وشهر.

(٣) «ذخ» على.

(٤) في الأصل: أغدى، وقد اخترنا ما أثبته ابن بسام في «الذخيرة».

(٥) «ذخ»: فهز.

(٦) أي مسرعات.

مُوَفَّرَةً مِنِّي إليكَ وسائلاً ... تفوحُ لأنفاسِ الركائبِ والرَّكْبِ
ولو عَجَزَتْ عن هِمَّتي لتبلَّغَتْ ... بذي قَدَمٍ تصبو إلى ذِي يَدٍ تُصْبِي
فَقَلَّ لِمَنْ عاذَ الهُدَى بسيوفِهِ ... ودارت نجومُ المُلْكِ منه عَلَى قُطْبِ
/ وضاءَ بنُورِ الحقِّ غُرَّةُ وجهِهِ ... فأَطفأَ نيرانَ الضَّغائنِ والشَّغْبِ — [٣٠ أ]
أَخُو الكَهْلِ وابْنٌ للكبيرِ ووالدٌ ... لأبنائِهِمْ في مُعْتَزَى غيرِ ذي تُرْبِ
عطاءٌ بلا مَنٍّ، وحكمٌ بلا هَوًى ... وملكٌ بلا كِبْرٍ، وعزٌّ بلا عُجْبِ
وَمولًى كما تجلو المصابيحُ في الدُّجَى ... ورأْيٌ كما يشفي الهِناءُ مِنَ النُّقْبِ [1]
سَما فاشْتَرَى مَثْنَى الوزارةِ سابقاً ... بِعَثْنَى الأيادِي البيضِ والخُلُقِ النَّدْبِ
وحازَ عنانَ الدهرِ سَمْعاً وطاعةً ... بكشْفِ قناعِ الصبرِ والسُّمْرِ والقُضْبِ
غمامٌ أَظَلَّ الأرضَ وانهلَّ بالحيا ... ضَمانٌ عَلَى النُّعْمَى أمانٌ مِنَ الجَدْبِ
تفجَّرَ للأيامِ بالجودِ والنَّدَى ... وأَثمرَ للإسلامِ بالحَزْمِ واللُّبِّ
فتًى يتلقَّى الرَّوْعَ بالبيضِ والقَنا ... ومُعْتَفِيَ الأضيافِ بالأهْلِ والرَّحْبِ
مُسَمًّى « بِفَتْحِ اللهِ [2] » أَرْضَ العِدَى بِهِ ... مُكَنًّى « بِنَصْرِ اللهِ » والدِّينِ والرَّبِّ
وأَيُّ وليدٍ للمكارِمِ والعُلا ... وأَيُّ رضيعٍ للوقائعِ والحَرْبِ
وأيُّ فَتًى في مَشْهَدِ الرَّأْيِ والنُّهَى ... وأَيُّ فتًى في مَوْقِعِ الطعنِ والضربِ

---

(١) الهناء هو القطران ، والنقب الجرب .

(٢) في هذا البيت ما يؤكد صحة قول ابن بسام إن اسم ممدوح ابن دراج هذا هو « الفتح » .

وأَيَّ عَرُوسٍ بالسِّيادَةِ لم يَسُقْ | سوى السيفِ من مَهْرٍ إليها ولا خَطْبِ
وَأَيٌّ[1] رَجاءٍ قادَ رَحْلِي إليكما | وَقد أَصْعَقَتْنِي[2] مثلُ راغيةِ الصَّقْبِ[3]
بعيدٌ مِنَ الأَوطانِ مُسْتَشعِرُ العِدَى | غَرِيبٌ عَلَى الأَمْوَاهِ مُتَّهَمُ الصَّحْبِ
أَقَلُّ من الرِّئْبالِ في الأَرضِ آلِفاً | وَإِنْ كانَ تَحْمي للخُسُودِ وَلِلْخِبِّ[4]
وَأَعْظَمُ تأْنيساً لدَهْري[5] مِنَ المُنَى | وَأَوْحَشُ مِنهُ من فَتى الجُبِّ في الجُبِّ[6]
وَللهِ من عَزْمٍ إليكَ اسْتَقادَني | فأَفرَطَ في بُعْدٍ وَفَرَّطَ[7] في قُرْبِ
حياءٌ مِنَ الحالِ التي أَنْتَ[8] عالِمٌ | بها كَيْفَ عاثَتْ في سناها يَدُ الخَطْبِ
وَتسويفَ يومٍ بعدَ يومٍ [تَخَوُّفاً][9] | لَعَلِّيَ لا أَلقاكَ مُنْشَرِحَ القَلْبِ
وَشُحّاً بباقي[10] ماءِ وَجْهٍ بذلْتُهُ | لعلِّيَ أَقضي قَبْلَ إِنْفادِهِ نَحْبِي

---

(١) «ذخ» : فأي .

(٢) «ذخ» : أضعفتني .

(٣) «ذخ» : السقب . وكلا الكلمتين صواب إذ أن السين والصاد لغة فيها ، والصقب هو ولد الناقه .

(٤) «ذخ» : وإن كان يحيى للأسود وللنجب .

(٥) «ذخ» : لدهر .

(٦) يعني بفتى الجب سيدنا يوسف عليه السلام . وفي الذخيرة : وأوحش فيهم من فتى الحب للحب .

(٧) «ذخ» : وأفرط .

(٨) «ذخ» : أنا .

(٩) هذه الكلمة ناقصة في الأصل ، وقد استكملناها من الذخيرة .

(١٠) «ذخ» : بمائي .

وَتأْخِيرَ رِجْلٍ بعدَ تقديمِ أُخْتِها حِذَاراً لدهرٍ لا يُغَمِّضُ عن حَرْبِي(١)
كما مَسَّني الشيطانُ نحوكَ ساعِياً بطائفِ سُقْمٍ من عذابٍ وَمن نَصْبِ
وَبارِقَـةٍ منْ مُقْلَتَيْ أُمِّ مِلْدَمٍ (٢) ثَنَتْـنِي صريعاً لِلْيَدَيْنِ وَللجَنْبِ
مُحَجَّبَةٍ لا تُتَّقَى بِشَبا القَنـا وَلا تُخْتَفَى منها ببابٍ وَلا حُجْبِ
/ يَدِقُّ عنِ القَلْبِ الْمُؤَنَّبِ قَدْرُها وَقدْ جَلَّ ما لاقيْت منها عنِ الْعَتَبِ [٣٠ب]
طَوَتْظِمْءَ عشرٍ بعدَعشرٍ وَأَوْرَدَتْ عَلَى النَّفْسِ لا تَرْضَى عن الوِرْدِ بالْغِبِّ
إذا كَرَعَتْ في حَوْضِ نفسيَ خَضْخَضَتْ فَفاضت نواحيـهِ بمُنْهَمِرٍ سَـكْبِ
فَمطعَمُها لحمي ، وَمَشْرَبُها دَمي وَتَرْتَعُ في جِسْمي ، وَتأوي إلى قَلْبي
كَأَنَّ لها عندي مَخاريفَ جِنَّةٍ وَأَصْلَى بها نارَ المُعَذَّبِ بالذَّنْبِ
إذا أَوْقَدَتْ جِسْمي هَجِيراً تَظَلَّلَتْ فَحَلَّتْ كِناساًمن شَغافيَ أَوْخِلْبِي(٣)
تَحَمَّلْتُها في حُرِّ صَدْري ، وَأَضْلُعي وَتَحملُ أَحشائي على المركَبِ الصَّعْبِ
أَلُاوذُ عنها قلبَ مكتئبٍ شَجٍ وَتَحْفِزُ نَحْوي قلْبَ ذي لَوْعَةٍ صَبِّ
وَتـكذِبُني عنها الأماني ، وَإنَّها إليَّ لَأَهْدَى من قطاةٍ إلى شِرْبِ

(١) « ذخ » : حزب .
(٢) أم ملدم كناية عن الحمى ، والأبيات التالية في وصفها .
(٣) الخلب هو حجاب بين القلب وسواد البطن .

وإنْ كانَ أَضْنَى الحُبُّ فالعقْلُ حاكِمٌ
بأنَّ ضَنَى الشَّنْآنِ فوقَ ضَنَى الحُبِّ

وفي راحَتَيْ عبدِ الفعيلِ بْنِ فاعِلٍ (١) شِفائي ، وفي نُعْمَى مكارِمِهِ طِبِّي
دَعَوْتُ فلَبَّاني وآوَى تَغَرُّبي إلى كَرَمٍ للعِزِّ ذِي مُرْتَقَى صَعْبِ
وجَلَّى هُمُومي منْ سَناه ببارِقٍ أَضاءَ به ما بَيْنَ شرقٍ إلى غربِ
وأَسبلَ لِي من سِتْرِهِ فوق ستَّةٍ (٢) أُهِيمُ بِهِمْ في الأَرْضِ مثلَ القطا الزُّغْبِ
فأَصْبَحْتُ في إِكْرَامِهِ مانِعَ الحِمَى وأَمْسَيْتُ في سلطانِهِ آمِنَ السِّرْبِ
وحَمْداً لِمَنْ هَدَّى لساني لحَمْدِهِ وحَسْبِي لَهُ مَنْ قَدْ قَضَى أَنَّهُ حَسْبِي

---

(١) واضح أنه يقصد إخفاء اسم على زنة هذه الكلمات ، على أننا ذكرنا أن اسم ممدوح ابن دراج في هذه القصيدة هو « الفتح بن أفلح » وهو لا يستقيم على وزن ما ذكره هنا ، وربما كان هذا دليلا آخر على أن الشخص المراد هنا هو عبد العزيز بن أفلح الذي أشار إليه ابن الخطيب كما ذكرنا (وبهذا الاسم يستقيم الوزن) وعلى أن « الفتح » إنما كان لقباً له ، أو لعلهما اخوان مدحهما ابن دراج بهذه القصيدة .

(٢) يعني بالستة أبناءه أو عياله الذين كانوا يبلغون هذا العدد .

وله أيضاً في مبارك ومظفر صاحبي بلنسية (*) رحمهم الله تبارك وتعالى (1)

[من الطويل]

أَنُورُكِ أَمْ أَوْقَدْتِ بالليلِ نارَكِ   لِباغٍ قِراكِ أَو (2) لباغٍ جوارَكِ ؟

(*) من موالي بني عامر، وكانت بلنسية في أول فتنة ابن عبد الجبار المهدي بيد مجاهد العامري فثار عليه مبارك ومظفر هذان، فخرج مجاهد الى دانية وسلم بلنسية لهما فاشتركا في حكمها ثم مات مظفر وبقي مبارك حتى توفي في سنة ٤٠٨ أو ٤٠٩ (١٠١٨ — ١٠١٩) . (انظر ابن عذاري : بيان ٣ / ١٥٨ — ١٦٣ ، ٣٠٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال ص ٢٢٢ — ٢٢٦) .

(١) نقل ابن الخطيب أجزاء كبيرة من هذه القصيدة في كتابين له : « الاحاطة في أخبار غرناطة » (النسخة المحفوظة بالاسكوريال ص ١٨٦ — ١٨٧) حيث أتى باثنين وستين بيتاً منها ؛ و « أعمال الأعلام » ص ٢٢٣ — ٢٢٥ ؛ كذلك اختار ابن بسام منها خمسة أبيات في « الذخيرة » (القسم الثالث — مخطوطة المجمع الملكي التاريخي بمدريد) ورقة ا — ظ . ونلاحظ أن روي هذه القصيدة جاء بكاف مفتوحة تتبعها ألف أي باستعمال ضمير المخاطب المذكر في أعمال الأعلام والذخيرة بينما هو في الديوان وفي ما اختاره ابن الخطيب منها في الإحاطة بكاف مكسورة أي باستعمال ضمير المخاطبة وهو الصواب .

(٢) « أ ع » و « لم ح » : أم

وَرَيَّاكِ أم عَرْفُ المَجامِرِ أشْعَلَتْ بِعُودِ الكِباءِ وَالأَلُوَّةِ[1] نارَكِ ؟
وَمَبْسِمُكِ الوَضَّاحُ أم ضوءُ بارِقٍ حَدَاهُ دُعائي أَن يجودَ دِيارَكِ ؟
وخَلْخالُكِ اسْتَنْضَيْتِ أم قمرٌ بدا ؟ وشمسٌ[2] تبدَّتْ أم أَلَحْتِ سِوَارَكِ ؟
وَطُرَّةُ صُبْحٍ أم جبينُكِ سافِراً أَعَرْتِ الصَّباحَ نورَهُ أَمْ أَعارَكِ ؟
وَأَنْتِ أَجَرْتِ[3] الليلَ إذ هَزَمَ الضُّحى كتائِبَهُ وَالصُّبْحَ لمَّا اسْتَجارَكِ
فلِلصُّبحِ فيما[4] بَيْنَ قرطَيْكِ مطلعٌ وقد سَكَنَ الليلُ البهيمُ خِمارَكِ
[٣١م] / فيا لِنَهارٍ لا يغيضُ[5] ظلامُهُ ويا لظلامٍ لا يُغيضُ[5] نَهارَكِ
وَنَجْمُ الثُّرَيَّا أم لآلٍ تقسَّمَتْ يمينَكِ إذ ضَمَّخْتِها أَم يَسارَكِ ؟
لِسُلطانِ[6] حسنٍ في بديعِ محاسنٍ يصيدُ القلوبَ النَّافِراتِ نِفارَكِ
وَجُنْدِ غرامٍ في دروعِ[7] صبابَةٍ تقلَّدْنَ أقدارَ الهوى وَاقتدارَكِ
هوالمُلْكُ لا « بَلْقِيسُ » أَدْرَكَ شَأْوُها مَداكِ ولا « الزَّبَّاء » شقَّتْ غُبارَكِ

---

(١) الكباء ضرب من العود يتبخر به ، وكذلك الألوة .
(٢) في الأصل : أو ، والصواب ما أثبتنا ، وفي الحاشية ملاحظة يفهم منها مثل هذا التصويب .
(٣) إح : هجرت .
(٤) في الأصل : فيها ، وقد آثرنا قراءة ابن الخطيب في كل من الإحاطة والأعمال .
(٥) أع : يغيظ .
(٦) أع : بسلطان
(٧) أع : ضلوع .

وَقادِمةُ الجوزَاء راعَيْتُ مَوْهِناً | بِحَرِّ هواكِ[1] أم تَرَسَّمْتُ[2] دارَكِ؟
وَطيفُكِ أسْرى فاستثارَ تَشَوُّقي | إلى العهدِ أمْ شوقي إليكِ استثارَكِ
وَمُرْتَدُّ[3] أَنفاسي إليكِ استطارَني | أَم الرُّوحُ لما رُدَّ فيَّ اسْتطارَكِ؟
فكَمْ جُزْتِ من بحرٍ إليَّ وَمَهْمَهٍ | يكادُ يُنَسِّي المستهامَ ادِّكارَكِ
أَذُو[4] الحظِّ من علمِ الكتابِ حَدَاكِ لي | أَم الفَلَكُ الدَّوَّارُ نحوي[5] أدارَكِ؟
وَكيفَ كَتمْتِ اللَّيلَ وَجهَكِ مُظْلِماً | أَشَعْرَكِ أغشَيْتِ[6] السَّنا أم شِعارَكِ؟
وَكيفَ اعْتَسَفْتِ[7] البِيدَ لا في ظَعائِنٍ | وَلا شَجَرُ الخَطِّيِّ حَفَّ شِجارَكِ[8]؟
وَلا أَذَّنَ الحَيُّ الجميعُ برحلَةٍ | أَراحَ لها رَاعِي المخاضِ عِشارَكِ[9]
وَلا أَرْزَمَتْ[10] خُوصُ[11] المهاري مُجيبةً | صهيلَ جيادٍ يكتَنِفْنَ قِطارَكِ[12]

---

(١) في الأصل : هويها ، وقد آثرنا ما اتفقت عليه الإحاطة والأعمال .
(٢) أع و إح : توسمت .
(٣) إح : وموقد .
(٤) أع : اذا .
(٥) أع : يحمي ادكارك .
(٦) إح : أعشيت .
(٧) أع : عسفت .
(٨) الشجار بفتح الشين وكسرها هو خشب هوادج النساء .
(٩) العشار من الإبل الحوامل التي مضت عليها عشرة أشهر .
(١٠) أع : أزحت .
(١١) في الأصل : خوض ، والصواب ما أثبتنا .
(١٢) القطار هو أن تشد الإبل على نسق واحداً خلف واحد .

وَلا أذْكَتِ الرُّكْبانُ عنكِ عيونَها[1] حِذارَ عيونٍ لا يَنَمْنَ حِذارَكِ
وَكيف رضيتِ الليلَ ملبَسَ طارقٍ ؟ وَما ذَرَّ قَرْنُ الشمسِ إلا استنارَكِ
وَكم دونَ رحلي من قصورٍ[2] مشيدَةٍ تُحَرِّمُ[3] من قربِ المزارِ مَزارَكِ
وَقد زأَرَتْ حولي أُسودٌ تهامَسَتْ لها الأُسْدُ أَنْ كُفِّي عن السمعِ زَارَكِ
وَأَرْضِي سيولٌ من خُيولِ «مُظَفَّرٍ» وَلَيْلِي نجومٌ من سَماءِ[4] «مُبارَكِ»
بِحَيْثُ وَجدتُ الأَمْنَ يَهْتِفُ بالمُنى هَلُمِّي إلى عينَيْنِ[5] جادا سَرارَكِ[6]
هَلُمِّي إلى بَحْرَيْنِ قد مَرَجَ النَّدى عبابَيْهِما لا يَسْأَمانِ انتظارَكِ
هَلُمِّي إلى سيفينِ وَالحدُّ وَاحِدٌ يُجِيرانِ من صَرْفِ الحوادِثِ جارَكِ
هلمي إلى طِرْفَيْ رِهانٍ تقدَّما إلى الأَمَدِ[7] الجالي عليكِ اختيارَكِ
وَحَيِّ[8] عَلَى دَوْحَيْنِ جادَ[9] نداهُما ظِلالَكِ واستدْنى[10] إلَيَّ[11] ثمارَكِ

---

(١) إذكاء العيون هو إرسال الطلائع .
(٢) أع وإح وذخ : بروج .
(٣) ذخ : تحوم .
(٤) أع وإح : سيوف ، وذخ : رماح .
(٥) أع وإح : غيثين .
(٦) سرار الأرض هو أوسطها وأكرمها .
(٧) في الأصل : الأمل ، والتصويب عن الاحاطة والأعمال .
(٨) أع : وحي ، وإح : وحيا .
(٩) أع : مد .
(١٠) إح : وستندى .
(١١) أع وإح : إليك .

وَبُشْراكِ قد فازَتْ قِداحُكِ بالمُنى[1] وَأُعْطِيتِ من هذا الأنامِ خِيارَكِ[2]

/ شريكانِ في صِدْقِ المُنى وَكِلاهُما إذا بارَزَ[3] الأَقْرانَ غيرُ مُشارَكِ [٣١ب]

هُما سَمِعا دعواكِ[4] يا دعوةَ الهدى وَقد أَوْثَقَ الدهرُ الخئونُ إسارَكِ

وَسَلاَّ سيوفاً لم تَزَلْ تلتَظِي أَسىً[5] بِثَأْرِكِ حَتّى أَدْرَكا لَكِ ثارَكِ[6]

وَيهنيكِ يا دارَ الخِلافَةِ منهُما هِلالانِ لاحا يَرْفَعانِ مَنارَكِ

كِلا القَمَرَيْنِ بَيْنَ عينَيْهِ غُرَّةٌ أَنارَتْ كُسُوفَيْكِ وَجَلَّتْ سِرارَكِ[7]

فقادَ إِلَيْكِ الخيلَ شُعْثاً شَوازِباً[8] يُلَبِّينَ بالنَّصْرِ العزيزِ انْتِصارَكِ[9]

سوابِقَ هيجاءٍ كَأَنَّ صهيلَها يُجاوِبُ[10] تحتَ الخافِقاتِ شِعارَكِ

بكلِّ سَرِيٍّ العِتْقِ سَرَّى عنِ الهدى وكلِّ حَمِيِّ الأَنفِ أَحْمَى ذِمارَكِ

تحلَّوْا مِنَ «المنصُورِ» نصْراً وعزةً فأَبْلَوْكِ في يومِ البَلاءِ اخْتِيارَكِ[11]

---

(١) إح : بالعلا .

(٢) أع و إح : اختيارك .

(٣) إح : قارن

(٤) في الأصل : دعويك .

(٥) أع : أذى .

(٦) أع : فثارك حتى أدركاك فثاركا .

(٧) السرار هو الليلة التي يستسر أي يختفي فيها القمر .

(٨) في الأصل وفي الاحاطة : شوازبا ، والشوازب من الخيل الضامرات .

(٩) إح : شعارك .

(١٠) في الأصل : تجاوب ، وقد اخترنا ما جاء في الاحاطة .

(١١) إح : اختبارك .

إذا انْتَسبُوا يومَ الطِّعانِ لِعامرٍ فَعُمْرُكِ يا هامَ العِدٰى لا عَمارُكِ !
يَقُودُهُمُ منهمْ سِراجا كتائبٍ يقولان للدنيا : أجِدِّي افتِخارَكِ
إذا افْتَرَّتِ الرّاياتُ[1] عن غُرِّتَيهْما فيا لِلْعِدٰى أَضْلَلْتِ منهمْ فِرَارَكِ
وإنْ أشْرَقَ النَّادِي بنورِ سَناهُما فَبُشْرٰى الأَماني: عَيْنَكِ[2] لا ضِمارَكِ
وكم كَشَفا من كُرْبَةٍ بَعْدَ كُرْبَةٍ تقولُ لها النِّيرانُ : كُفِّي أُوارَكِ !
وَكم لَبِّيا من دعوةٍ وَتدارَكا شَفٰى رَمَقٍ ما كانَ بالمُتَدارَكِ
وَيا نَفْسَ غاوٍ كم أَقَرّا نفارَكِ وَيا رِجْلَ هاوٍ كم أَقالا عِثارَكِ
وَلستُ بِبِدْعٍ حينَ قلتُ لِهمَّتي : أَقِلِّي لإِعْتابِ الزّمانِ انْتِظارَكِ
فللهِ صدقُ العَزْمِ ، أَيَّةُ غِرَّةٍ إذا لم تطيعي في « لَعَلَّ » اغتِرارَكِ !
فإنْ غالَتِ البيدُ اصطبارَكِ والسُّرٰى فما غالَ ضَيْمُ الكاشِحينَ اِصْطِبارَكِ
وَيا خُلَّةَ التَّسْويفِ قُومِي فأَغْدِفي[3] قناعَكِ من دُوني وَشُدِّي إِزارَكِ

---

(١) في الأصل : الدنيا ، وبها لا يستقيم الوزن ولا المعنى ، وقد آثرنا رواية الاحاطة .

(٢) كذا في الأصل وفي الاحاطة ، ونلاحظ أنه لكي يستقيم الوزن فإنه ينبغي أن تنطق هذه الكلمه باشباع كسرة الكاف حتى تبدو كأنها متبوعة بياء ساكنة أي هكذا : « عينكي » إذ لم يجىء في عروض الطويل « فعلن » مكان « فعولن » أي بحذف الثالث الساكن ، فالزحاف لا يدخل في شيء من الأوتاد وإنما يدخل في الأسباب خاصة ، أما معنى « عينك لاضمارك » فان الضمار هو خلاف العيان .

(٣) أي : فأرسلي .

وَحسبلَكِ بي يا خُلَّةَ النَّأي ، خاطِري بِنَفْسِي إلى الحَظِّ النَّفِيسِ خِطارَكِ
فقد آنَ إعْطاء النَّوىٰ صَفْقَةَ الهوى وَقَوْلُكِ لِلأَيَّامِ : حُورِي مَحارَكِ [1]
وَيا سُتْرَ البيضِ النَّوَاعِمِ أَعْلِني إلى اليَعْمَلاتِ وَالرِّحالِ سِرَارَكِ [2]
نَواجِيَ وَاسْتَوْدَعْتِهُنَّ نَوَاجِياً حِفاظَكِ يا هٰذي بِذي وَازْدِهارَكِ [3]
وَدُونَكِ أَفْلاذَ الفؤادِ فشَمِّري وَدونَكِ يا عينَ اللبيبِ اعتبارَكِ
/ صَرَفْتُ الكَرىٰ عنها بِمُغْتَبِقِ [4] السُّرىٰ [٣٢م]
وَقُلْتُ : أَدِيري وَالنُّجُومَ عُقَارَكِ
فإنْ وَجَبَتْ للمَغْرِبَيْنِ [5] جُنُوبُها [6] فداوِي بِرَقْرَاقِ السَّرابِ خُمارَكِ
وَأَوْرِي [7] بِزَنْدَيْ سُدْفَةٍ وَدُجُنَّةٍ إذا كانَتا لي مَرْخَكِ وَعَفارَكِ [8]

---

(١) الحور هو التغير من حال إلى حال . وفي الأعمال والاحاطة : جوري مجارك ، من الجور أي الظلم ، وهذه القراءة تصلح أيضاً لمعنى البيت .

(٢) أ ع و إح : أعملي . . . . بدارك ، وبها يستقيم المعنى أيضاً . وقد جاء في الأعمال « والرجال » بدلا من « الرحال » .

(٣) الازدهار بالشيء هو الاحتفاظ به .

(٤) إح : بمغتبق .

(٥) إح : المقوين .

(٦) أ ع : وجوبها .

(٧) إح : فأوري .

(٨) المرخ والعفار ضربان من الشجر ، وانما اختصها بالذكر لأن النار تقتدح من أغصانها ولهذا فالعرب تضرب بها المثل في الشرف العالي . ونلاحظ هنا أن « مرخك » ينبغي أن تنطق باشباع كسرة الكاف حتى يستقيم الوزن كما سبق أن ذكرنا في بيت سابق .

وَإنْ خَلَعَ اللَّيْلُ الأصائلَ فاخلَعِي | إلى المَلِكَيْنِ [1] الأكرَمَيْنِ عِذارَكِ
« بلَنْسِيَةٌ » مَثْوَى الأماني فَطايِبي | كُنوزَكِ في أقطارِها [2] وَادِّخارَكِ
سيُنْبيكِ زَجْري عَنْ « بَلاءِ نَسِيئَةٍ » | إذا أصْبَحَتْ تلكَ القُصورُ قُصارَكِ
وَأُظْفِرَ سَعْيُ بالرِّضا من « مُظَفَّرٍ » [3] | وبُورِكَ لي في حُسْنِ رَأْيِ « مُبارَكِ »
فَطِمْهُ [4] المُنَى قد شامَ بارِقَةَ الحَيا | وَأَنْشِقِي [5] ياظِئْرَ الرَّجاءِ حُوارَكِ [6]
وَحَمْداً يميني قد تَمَلَّأتِ بالمُنَى | وَشُكْراً يساري قد حَوَيْتِ يَسارَكِ
وَقُلْ اسمَاءِ المُزْنِ : إنْ شئتِ أقْلِعِي | وَياأرْضَنا [7] إن شئتِ غيضِي بحارَكِ
وَلا توحِشِي يادَوْلَةَ العِزِّ [8] وَالنَّدَى [9] | مساءَكِ من نُورَيْهِما وَابتِكارَكِ

---

(١) إح : المالكين .

(٢) أع و إح : أعطانها ، وبها يستقيم المعنى أيضاً .

(٣) ورد هذا الشطر في « المغرب في حلي المغرب » لابن سعيد (ط . الدكتور شوقي ضيف) ٢ / ٢٩٩ هكذا : وأظفرت آمالي بقصد مظفر .

(٤) إح : قصي .

(٥) هذه الكلمة ناقصة في الاحاطه .

(٦) إح : جوارك . والظئر هي المرضعة ، والحوار هو ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يفطم . وأنشق الدابة ولدها أي قربه إليها حتى تشمه .

(٧) أع و إح : وياأرضها .

(٨) أع : البأس .

(٩) إح : والمنى .

وله في لبيب العامري (*) رحمهما الله بطرطوشة فتحها الله

[من الكامل]

هَلْ تَثْنِيَنَّ غُرُوبَ دمعٍ ساكِبِ   مَنْ شامَ بارِقَةَ الغمامِ الصَّائِبِ

أَبَتِ العزيمةُ من فؤادٍ جامِدٍ   أن تَسْتَقِيدَ لماءِ جفنٍ ذَائِبِ

من تَرْمِهِ حَدَقُ المكارِمِ تُضْنِهِ   عن مُصْبِياتِ أَحِبَّةٍ وَحَبائِبِ

(*) لبيب الصقلبي كان من موالي الدولة العامرية ، اشترك مع خيران العامري ومنذر التجيبي في القيام بأمر عبد الرحمن بن محمد المرتضى حتى قتل في سنة ٤٠٩ ، ثم استولى على طرطوشة ويبدو أنه كان يدين بلون من التبعية لمبارك صاحب بلنسية إذ يذكر ابن الخطيب أنه استغاث به حينما طمع منذر بن يحيى صاحب سرقسطة في بلده طرطوشة ، فخرج إليه مبارك وهزم منذراً هزيمة شديدة (أعمال ص ٢٢٦) ، ولما مات مبارك في سنة ٤٠٩ اتفق أهل بلنسية على تقديم لبيب عليها فأحدث أحداثا مقتوه بها ولاذ بأمير الافرنج (قومس برشلونة) حتى صير نفسه كبعض أتباعه ، فثار عليه البلنسيون وأمروا عليهم عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن أبي عامر ، وهرب لبيب إلى طرطوشة وانفرد بها حتى عزل عنها في تاريخ غير معروف قد يكون سنة ٤٢٧ / ١٠٣٦ (انظر بريتو إي ڤيڤس : ملوك الطوائف ص ٣٧ — ٣٩ والدكتور أحمد مختار العبادي : الصقالبة في إسبانيا ص ١٩ — ويلاحظ أن هذين المرجعين يسميانه « نبيلا » بدلا من « لبيب »)

فِراقُ رَبَّاتِ الخُدُورِ مُكَفِّرٌ		بلقـاء نَجْمِ المكرُماتِ الثَّاقِبِ
قالَتْ وقد مَزَجَ الوداعُ مدامعاً		بمـدامعٍ وترائباً بترائبِ[1] :
أَتَفَرُّقٌ حتّى بمنزلِ غُرْبَةٍ ؟		كمْ نَحْنُ للأيَّامِ نُهْبَةُ ناهِبِ !
في كُلِّ يومٍ مُنْتَوًى[2] مُتباعِدٌ		يرمي حُشاشَةَ شملِنا المُتَقارِبِ
وَثَنَتْ تُذَكِّرُ مُقْرَباتِ سفائِنٍ		عُذْنا بهـا مِن مُقْفِراتٍ سَباسِبِ
أيامَ تؤنِسُنا فلاً وَسواحِلٌ		عن آنساتِ مقاصِرٍ وَملاعِبِ
نَعَبَ الغرابُ بها فطارَ بأهلِها		سِرْباً عَلَى مثلِ الغُرابِ النَّاعِبِ[3]
خَرِقُ الجَناحِ إلى الرِّياحِ[4] مُضَلَّلٌ		بِشَمائِلٍ[5] لعبَتْ بِهِ وَجَنائِبِ
يهوي بِذِي طِمْرَيْنِ مَزَّقَ لبسَها		أَيْدِي لَوَاهِفَ للنفوسِ نَوَادِبِ
في غَوْلِ ذي لُجَجٍ لَبِسْنَ دياجِياً		تركَ الحياةَ لنا كأمسِ الذَّاهِبِ
[٣٢ب] / قاسيتُهُنَّ غوارِباً كغياهِبٍ		وَسريتُهُنَّ غياهِباً كغوارِبِ
نَجْلُو ظلامَ اللَّيلِ قبلَ صَباحِهِ		بِلَظَى زفيرٍ أَوْ برأسٍ شائِبِ
يا هٰـذِهِ لله تِلْكَ حدائقاً		زَهَرَاتُهُنَّ مفارِقِي وَذوائِبِي

---

(١) ورد هذا البيت والذي يليه في نفح الطيب المقري (١ / ١٣٢) .
(٢) في الأصل : منثوى .
(٣) ورد هذا البيت والذي يليه في شرح الشريف الغرناطي على مقصورة حازم (١ / ١٤٠) ، إلا أنه جاء فيه « بنا » بدلا من « بها »
(٤) في الأصل « الرياض » ، وقد آثرنا رواية الشريف الغرناطي .
(٥) في شرح المقصورة : لشمائل .

مثلَ الرِّياضِ تفتَّحَتْ أَكمامُها ... عن مُحْكَماتِ بصائري وَتجاربي

فذخَرْتُ للألبابِ كِفّةَ حابِلٍ[1] ... وَلأَشْطُرِ الأيّامِ كَفَّيْ حالبِ

وَرَمَيْتُ آفاقَ العِراقِ بشُرَّدٍ ... ليسَ العجائبُ عندَها بِعَجائبِ

من كل ساحِرَةٍ كأَنَّ رَوِيَّها ... في أَلْسُنِ الرّاوِينَ رِيقَةُ كاعِبِ

وَلَكَمْ وَصلتُ تنائفاً بتنائفٍ ... حتى وَصَلْتُ مشارِقاً بمغارِبِ

فكأنّما قَفَّيْتُ إِثْرَ بدائعي ... في الأَرْضِ أَو ناوَيْتُ شأْوَ غرائبي

أَوْ رُمْتُ حظّي في السماءِ وَقد جرى ... لمداهُ في فَلَكِ الفضاءِ الغائبِ

وَلئن دَجَتْ لي الحادثاتُ فما أَرى ... نُورَ اليقينِ بطرفِ ظنٍّ كاذبِ

صدقَتْنِيَ الأَنباءُ ضربةَ لازمٍ ... أَن لَيْسَ هَمُّ الدهرِ ضربةَ لازبِ

فشفَيْتُ في حُرِّ التجمُّلِ غُلّتي ... وَقضيتُ من حسنِ العزاءِ مآربي

وَحَرَسْتُ عِرْضي بالتوكُّلِ، مَنْ نَأَى ... عني بجانِبِهِ نأَيْتُ بجانبي

وَلقد رأَيتُ الجِدَّ ليس ببالِغٍ ... وَالعَجْزَ ليسَ عن الصِّراطِ بناكِبِ

كم قد سعدتُ بما تَمَنّى حاسِدي ... قدراً وَخِبْتُ بما تخيَّرَ صاحبي

وَوَجدتُ طعْمَ السُّمِّ في شهدِ الجَنَى ... وَأُجاجَ شُرْبِي في نميرِ مشاربي

وَرفلتُ في النِّعَمِ السوابغِ، مُلْبِسِي ... أَثوابَها الدهرُ الذي هُوَ سالبي

يا ربَّةَ الخِدْرِ استَجِدّي سَلْوَةً ... جَدَّ النَّجاءُ بهائمٍ بِكِ لاعِبِ

(١) كفة الحابل هي شباك الصائد.

إِنَّا شَجِيتَ بِرِحلتي فاستبشري	بجميلِ ظني من جميلِ عواقبي
وَلئن جنيت[1] عليكِ تَرْحَةَ[2] راحلٍ	فأنا الزَّعيمُ[3] لها بِفَرْحَةِ آيبِ
هل أَبْصَرَتْ عيناكِ بَدْراً طالِعاً	في الأُفْقِ إلاَّ من هلالٍ غاربِ
وَاللهُ من بَعْدي عليكِ خليفَتي	وَخليفةٌ هُدِيَتْ إليه مَذاهبي
بَيْني وَبينكِ أَنْ يُلَبِّيَ دعوتي	داعي « لَبيبٍ » من مُناخِ ركائبي
وَأُهِلَّ نَحْوَ فِنائِهِ وَعَطائِهِ	فيُهِلَّ نحو وَسائِلي وَرغائبي
[٣٣م] / وَأَشِيمَ بَرْقَ يمينِهِ وجبينِه	وَيَشُمَّ رِيحَ أَوَاصِري وَمَطالبي
وَأَهُزَّهُ بشوافِعٍ من عامرٍ	تُزْرِي بِكلِّ قرابةٍ وَمَناسِبِ
فَهُناكَ جاءَتْكِ الخطوبُ خواضِعاً	وَمشى إليكِ الدهرُ مِشْيَةَ تائبِ
وَأَنابَ سُلْطانُ النوائبِ وَانْثَنَتْ	ذُلُلاً وَأَعْتَبَ كلُّ مولًى عاتبِ
ملِكٌ متى أَرْمِ الحوادِثَ باسمِهِ	تَقْتُلْ أَفاعِيَها سُمُومُ عقاربي
الرَّافعُ[4] الأَعلامَ فَوْقَ خوافِقٍ	وَالقائدُ الآسادَ فوق شَوازِبِ
مَلِكٌ تكَرَّمَ عن خلائقِ غادرٍ	فَأَثابَهُ الرحمنُ قدرةَ غالبِ

---

(١) في الأصل : حنيت ، وقد آثرنا رواية المقري في نفح الطيب (١ / ١٣٢) وابن سعيد : المغرب في حلي المغرب (ط . الدكتور شوقي ضيف) ٢ / ٦١ .

(٢) في النفح : نزحة .

(٣) في المغرب : الضمين .

(٤) في الأصل : الدافع ، والصواب ما أثبتنا ، وهكذا جاءت في ق .

يقضِي فيُمْضِي كُلَّ حقٍّ واجبٍ   إلاَّ إذا أعْطى فَفَوْقَ الواجبِ
قُفْلٌ عَلَى الإسلامِ ممنوعٌ لَهُ   عن قلبِ كلِّ مُعانِدٍ وَمُناصِبِ
لا يخلَعُ الإسـلامُ حُلَةَ آمِنٍ   منـهُ وَلا الإشْرَاكُ رِبقَةَ هائِبِ
حَرَمُ الهُدٰى ، سُمُّ العِدٰى ، أُمْنيةٌ   لمُسالِمٍ ، وَمَنيَّةٌ لِمُحـارِبِ
وَقْفٌ على عَلَمِ الثُّغُورِ ، مُقارِبٌ   لمبـاعِدٍ ، وَمُبـاعِـدٌ لمقـارِبِ
فَمُرَاقِبُ الإسـلامِ غَيْرُ مُرَاقِبٍ   وَمُصاقِبُ الأَعـداءِ غيرُ مُصاقِبِ
مُوفٍ بِعَلْيـاءِ الثُّغُورِ لِرَغْبَـةٍ   من رَاغِبٍ[1] ، أوْ رَهْبَةٍ مِنْ راهِبِ
تُضْحِي عطـاياهُ تحيَّـةَ زائِرٍ   وَتبيتُ روعتُـهُ نَجيةَ هـارِبِ
يا من يُلاَقِي[2] النَّازِلِينَ قِبابَـهُ   بجبينِ مَوْهُوبٍ وَرَاحَةِ وَاهِبِ
وَإذا التقى الجَمْعانِ أوَّلُ طاعِنٍ   وَإذا اسْتَحَرَّ الطَّعْنُ أوَّلُ ضارِبِ
وَإذا تَثُوبُ الخيلُ آخِرُ نازِلٍ   وَإذا دعا الدَّاعِي فأوَّلُ راكِبِ
كَرُمَتْ أيادِيكَ التي أنشأْتَهـا   أترابَ كُلِّ مؤمِّلٍ أوْ راغب
من كُلِّ بِكْرٍ في يمينِكَ حُرَّةٍ   يرفُلْنَ بينَ قلائدٍ وَجَلاَبِبِ
هٰـذِي لِأَوَّلِ خاطِبٍ وَلِدَاتُهـا   يَهْتِفْنَ في الآفاقِ : هَلْ مِنْ خاطِبٍ ؟
وَيَجِلُّ قَدْرُكَ عن ولادةِ « يافِثٍ »   أو قَيْصَرٍ أوْ عن أُرُومِ صَقالِبِ

(١) في الأصل : رغبـة ، والصواب ما أثبتنا ، وهكذا جاءت في « ق » .
(٢) في الأصل : يلاقي .

بَلْ أنتَ بِكْرُ غمامَةٍ من بارِقٍ   لَقِحَتْ به أو صَعْدَةٍ من قاضِبِ

قَبَلَتْكَ أَيْدِي هِمَّـةٍ وَسِيادَةٍ   وَرَضَعْتَ دَرَّ مكارِمٍ وَمَواهِبِ

في عزِّ مَهْدٍ ما استقَرَّ مكانُهُ   إلاَّ بقربِ مَنـابِرٍ وَمَحـارِبِ

[٣٣ب]/ وَفُطِمْتَ يومَ فُطِمتَ في رَهَجِ[1] الوَغَى   عند التفـافِ كتـائبٍ بكتـائبِ

حتَّى خَلَتْ من السماءِ مراتِباً   تَرَكَتْ كواكِبَها بغيرِ مَرَاتِبِ

فلَـئِنْ طَلَبْتَ هُناكَ حقّاً صاعِداً   فلأَنتَ أَقربُ من وَرِيدِ الطَّالِبِ

وَلئن وَهَبْتَ لقد وَهبتَ مساعِياً   أصبحْنَ حَلْيَ مآثِرِي وَمَناقِبِي

شِيَماً بها حَلَّيْتُ غُرَّ قصائِدي   وَجعلتُهُنَّ أَهِلَّةً لِكواكِبِي

وَذَخَرْتُ الأَزمانِ من حَسَناتِهـا   مثلَ القلائِدِ في نحورِ كواعِبِ

ولأَشفِيَنَّ بهـا سَقـامَ تَغَرُّبِي   ولآسُوَنَّ بهـا جِراحَ مَصائِبِي

ولأَجْمَلَنْ منهـا تمـائِمَ خائِفٍ   من طائِفٍ أو مِنْ رجاءِ خائبِ

ولأَتْرُكَنَّ ثناءَهـا وجزاءَها   قوتَ المُقيمِ غداً وزادَ الرَّاكِبِ

وسرورَ محزونٍ وأُنْسَ مُغَرَّبٍ   وحُلِيَّ أَوْتارٍ وروضَـةَ شارِبِ

ولقد نَثَرْتُ عليكَ شكلكَ جَوْهَراً   لا ما قَمَشْتُ[2] وضَمَّ حَبْلُ الحاطِبِ

---

(١) في الأصل : وهج ، والتصويب عن « ق » .

(٢) قمش أي جمع الشيء من هاهنا وهاهنا .

وله في بعض رؤساء الكتاب رحمهما الله

[من المتقارب]

سلامٌ وَهُنِّيتُ فيكَ السَّلامَهْ وَعُمْراً أُهَنِّي الليالِي دَوَامَهْ
وَمَقْدِمُ يومٍ تَجَلَّيْتَ فيهِ كريماً تحلّى بتاجِ الكرامَهْ
كما رُفِعَتْ مُظْلِماتُ العيونِ إلى قَمَرٍ طالعٍ في غمامَهْ
وَمُلِّيتَ مُلْكَ الرِّضا من مليكٍ إذا سَلَّ رأيَكَ أمْضَى حُسامَهْ
مُفيقَ[1] سِهامٍ تُبارِي القَضاء وَقائدَ خيلٍ تُبارِي سِهامَهْ
إلى غَزْوةٍ ما عدَا أن أطاعَ بها ربَّهُ ثُمَّ أرْضَى إمَامَهْ
تَسَرْبَلَ بأْساً يكادُ الحِمامُ إذا صالَ يَرْهَبُ فيهِ حِمامَهْ
فـلا نَسِيَ اللهُ والمُسْلِمو ن والملكُ والدينُ فيها مَقامَهْ
وَقد هاج مُصْعَبَ هيجائِها بِرَيْبِ المَنونِ وأَحْمَى خِطامَهْ
فأَيْمِنْ بيُمْناكَ موصولةً بكفٍّ تعالَتْ فَجَبَّتْ سَنامَهْ
وزيراً تحمَّلَ أعباءَ مُلْكٍ كما نِيطَ بالسَّيْفِ أذيالُ لامَهْ

---

(١) أفاق السهم أي وضعه في الوتر ليرمي به .

وللّه سعيُكَ في اللّهِ يوماً تقنَّعَتِ الشمسُ منه غَمامه

تُفَلِّلُ[1] خدًّا تعالَتْ ذُرَاهُ وتُطْفِيءُ جمْراً يَشُبُّ اضطرامَهْ

[٣٤ أ] / بما أنبت الخطُّ إلا شَباهُ وما يُنْبِتُ الخطُّ حتّى نظامَهْ

سِناناً سَنَنْتَ له المأْثُرَاتِ وثَقَّفَهُ العدلُ حتى أَقامَـهْ

فأوقدَ في كُلِّ نجـدٍ سَناهُ وأهْدَى إلى كُلِّ أَمْتٍ[2] قِوامَهْ

وَأتبعَـهُ قـلمٌ ما ينـالُ مُساجِلُهُ في مـداه قـلامَه

فصيحُ الشَّبا ما استَمَدَّ الرَّضاعَ وَأَعْجَمُ ساعَةَ تَنْوي فِطامَهْ

يُريكَ ظلامَ الدُّجى مُشْرِقاً إذا مَجَّ في وجهِ صُبْحٍ ظلامه

وإن أَمْطرَ المِسكَ كافورَ أرضٍ فقد فَضَّ عن كُلِّ طيبٍ خِتامه

تَجَهَّزَ للخطْبِ فَصْلُ الخطابِ فلَّكَ أيدي الأماني زِمامَهْ

وَوُشِّجَ للسِّلْمِ منكَ السّلامى فأهْدَى له كُلُّ أُفْقٍ سلامه

وقلَّدْتَهُ سيفَ رأْيٍ وحزمٍ يضيءُ الظلامَ ويأْبى الظُّلامَهْ

سلاحاً قتلْتَ بِهِنَّ الحُقُودَ وخيلاً غنِمْتَ بِهِنَّ السَّلامَهْ

فَرُبَّ تلاقٍ أباحَتْ حِماهُ وَرُبَّ اعتناقٍ أَحَلَّتْ حرامه

ولَيْسَ بأوَّلِ شَعْبٍ رَأَبْتَ[3] ولا صَدْعِ شَمْلٍ ضَمِنْتَ الْتِئامَهْ

---

(١) في الأصل : تعلل ، والتصويب عن « ق » .

(٢) الأمت هو العوج .

(٣) في الأصل : رأيت .

فما دَوِيَ الثَّغْرُ إلا بَعَثْتَ إلَيْـهِ شَمَائِلَ[1] تشفِي سَقامَهْ
وَلا ظَمِئَ الدَّهرُ إلا سَكَبْتَ عليه سَحائِبَ تروي أُوَامَهْ
ذَكاءٌ زَكَا فاحْتَبَى[2] ثوبَ حِلْمٍ كما احْتَبَتِ الماءَ نارُ المُدامَهْ
وَآدابُ عِلْمٍ تحلَّتْ بِهَدْيٍ كهادي الجوادِ تحلَّى لِجامَهْ
كأنَّ العُلاَ خُيِّرَتْ في الوُلاَةِ وَأُعْطِيَ سلطانُهُنَّ احتكامَهْ
فأَعطاكَ حُرُّ الخطابِ القيادَ وَوَلاَّكَ دُرُّ المقالِ انتظامَهْ
فلو غِبْتَ يومَ استباقِ الكرامِ لوافاكَ ذو السَّبْقِ منها أَمامَهْ
وَكيفَ وَما ضاع حَقٌّ لِحُرٍّ تُرَاعِي حِماهُ وَتَرْعَى سَوَامَهْ ؟
وكيف يقَصِّرُ عن غايةٍ فَتًى شَدَّ طِفْلاً إليها حِزَامه ؟
وَعندكَ أَبْلـغَ ساعٍ مداهُ وَعندكَ أَدْرَكَ جفنٌ منامه
وَكَمْ من يدٍ حُرَّةٍ عندَ حُرٍّ تُطَوِّقُها منكَ طوقَ الحمامه
وَأنت غفرتَ ذنوبَ الزمانِ إليَّ وكفَّرْتَ عِندي أثامه
/فإن ذَكَّرَتْني ليالي المُقامِ لديكَ نعيماً بِدارِ المُقامَهْ [٣٤ب]
فكَمْ لُجِّ بحرٍ وضحضاحِ قفْرٍ تمثَّلَ لي فيه هَوْلُ القِيامَهْ
ليالِيَ أُمْسي صَدى قفْرَةٍ أَجُولُ الفَلاَ بَيْنَ غُولٍ وهامَهْ
مُعَنًّى بأفلاذِ قلبٍ حَوَامٍ تُباري إلى كلِّ ماءٍ سَمامَهْ[3]

(١) كلمة مطموسة في الأصل، وقد أضفناها نقلاً عن « ق ».
(٢) في الاصل : فاحتوى ، وقد آثرنا ما ورد في « ق ».
(٣) السمام ضرب من الطير نحو السماني .

وكـلهُمْ نَمِريٌّ وإنيّ ... لِـكُلٍّ هُنالِكَ «كَعْبُ بْنُ مامه »[1]

وأَعْذَرَ مُبْلِغُهُمْ حيثُ أَلْقَوْا ... عِصِيَّ النَّوَى ورِحالَ السَّآمَهْ

وأَنْسُوا بِبَحْرِكَ مَوْجَ البحارِ ... ومَيْدَ السَّفِينِ بِهـا وارْتِطـامَهْ

وظِلُّكَ أَنسـاهُمُ لَيْلَ هَمٍّ ... يُقاسُونَ في ليلِ يَمٍّ غَرامَهْ

ونُورُكَ أَنساهُمُ آلَ قَفْرٍ ... وحَرَّ الهجيرِ بِها واحْتِدامَهْ

وَوَعْـدُكَ بالفضلِ أَنْساهُمُ ... وَعيدَ الرَّدَى حيثُ حَلُّوا خِيامَهْ

وَلَيْسَ على زمنٍ قادني ... إِلَيْكَ — وَإِنْ شَفَّ نفسي — مَلامه

وَأَنتَ كَسَوْتَ نجومي سَناهـا ... فلاحَتْ ، وأَمطَرْتَ روضِي غَمامه

وَأَدْنَيْتَ من [مَدِّ][2] كَفِّي جَناها ... وَقَرَّبْتَ من مَرِّ سَهْمِي مَرامَهْ

وَأَنْتَ أَسَوْتَ على حُرِّ وَجْهِي ... [جِراحَ أَكُفٍّ أَضاعَتْ][3] ذِمامه

فإِنْ يَصْدُقِ الجَدُّ صِدْقَ [الوَفا ... ءِ][2] مِنْكَ فَقَدْ نالَ بدرٌ تَمامَهْ

وَأَرْطَبَ زَهْوُ الأَماني فجاءَتْ ... مُباكَرَةُ الحَمْدِ تبغِي صِرامَهْ[4]

وَصِدْقُ الوفاءِ بِصِدْقِ الرَّجاءِ ... فَهَلْ يَنْظُرُ الدهرُ إِلاَّ تمامَهْ ؟

---

(١) يشير ابن دراج هنا إلى ما يذكر عن كعب بن مامة الايادي — أحـد أجواد العرب المشهورين — من إيثاره رفيقه النمري بالماء حتى مات عطشا ونجا النمري (انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد — ط . القاهرة سنة ١٩٤٨ — ١ / ٢٩٣) .

(٢) هذه الكلمة ناقصة في الأصل ، وقد استكملناها عن « ق » .

(٣) هذه الكلمات مطموسة تماماً في الأصل ، والإضافة عن « ق » .

(٤) صرام الثمرة هو اجتناؤها وقطعها .

وقال يرثي السيدة أم هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله (*)
رحمهم الله تعالى وعفا عنهم [1]

[من المتقارب]

بَقاء الخلائقِ رَهْنُ الفَنَاء وَقَصْرُ التَّدَاني وَشِيكُ التَّنَائي
لقد حَلَّ مَنْ يَوْمُـهُ لاقترابٍ وَقد حان مَنْ عُمْرُهُ لِانْتِهـاء
هلِ المُلْكُ يَمْـلِكُ ريبَ المَنُونِ ؟ أَمِ العزُّ يَصْرِفُ صَرْفَ القَضاء ؟
هُوَ [2] الْمَوْتُ يصدَعُ شَمْلَ الجميع وَيَـكْسُو الرُّبُوعَ ثيابَ العفَاء

(*) هي صبح زوجة الحكم المستنصر وأم ولده هشام المؤيد كانت بشكنسية الأصل وكانت حظية لديه مما جعل نفوذها كبيراً في تسيير أمور الدولة لاسيما بعد أن ولدت له هشاماً في سنة ٣٥٤/٩٦٥ ، وينسب إليها بعض الفضل في ترقية المنصور بن أبي عامر في مناصب الدولة ، ثم ساءت العلاقات بينها ، وتوفيت صبح في أثناء حجابة المنصور في ٢٩ من ذي الحجة سنة ٣٨٩ (١١ ديسمبر سنة ٩٩٩) . والقصيدة الواردة هنا ينبغي أن تكون في هذا التاريخ . (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢/٢٠٢ — ٢٠٤ ، ٢٠٨ — ٢١١ ، ٢١٥ — ٢١٩ ، ٢٣٠ — ٢٣١) .

(١) اختار الثعالبي في « يتيمة الدهر » من هذه القصيدة خمسة وعشرين بيتاً ، انظر ٢/١٠٩ — ١١٠ .

(٢) يت : أرى .

يَبزُّ(1) الحياةَ ببطشٍ شديدٍ   وَيَلْقَى النفُوسَ بِدَاءٍ عَيَاءِ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ استباحَتْ يَدَاهُ   كريمَ(2) الملوكِ وَعِلقَ السَّنَاءِ(3)؟
[٣٥م] / وَوَافَى بِسَيِّدَةِ السَّيِّدَا   تِ مأْوَى البِلَى وَمُنَاخ الفناءِ؟
هُوَ الرُّزْءُ أَوْدَى بعزمِ القلُوبِ(4)   مُصاباً ، وَأَوْدَى بِحُسْنِ العَزَاءِ
فَما في العويلِ له من كَفِيءٍ(5)   وَلا في الدُّمُوعِ لَهُ من شِفَاءِ
فَهَيْهَاتَ فيه غَنَاءُ الزَّفِيرِ   وَهيهاتَ مِنْهُ(6) انتصارُ البُكاءِ
وَأَنَّى يُدَافَعُ سُقْمٌ بِسُقْمٍ؟   وَكيفَ يُعَالَجُ داءٌ بِدَاءِ؟
فَتِلْكَ مَا فِي جُفونٍ رِوَاءُ   مُفَجَّرَةٍ مِن قلوبٍ ظِمَاءِ
فلاَ صدرَ إلاَّ حريقٌ بِنَارٍ   وَلا جَفْنَ إلا غَرِيقٌ بِمَاءِ
فقد كادَ يَصْدَعُ صُمَّ السِّلامِ   وَيُضْرِمُ نارَ الأَسَى في الهواءِ
وَجِيبُ القلوبِ، وَشَقُّ الجُيُوبِ،   وشَجْوُ النَّحيبِ ، ولَهْفُ النِّدَاءِ
فمن مُقْلَةٍ شَرِقَتْ بالدُّمُوعِ   ومن وَجْنَةٍ شَرِقَتْ(7) بالدِّماءِ

(1) يت : يبيد .
(2) يت : حريم .
(3) كذا في الأصل وفي « ق » ، وفي اليتيمة « النساء » ، وربما كانت أقرب إلى المراد .
(4) يت : هو الرزء أودى بعزم الملوك .
(5) يت : كفاء .
(6) يت : فيه .
(7) يت : غرقت .

وَسافِرَةٍ من قِناعِ الحيـاءِ ... ونابِذَةٍ صَبْرَهـــا بالعَزاءِ

وبِيضٍ صَبَغْنَ بِلَوْنِ الحِدَا ... دِ حُمْرَ البُرُودِ[1] وبِيضَ المُلاءِ

نَوَاشِجَ في سابِغاتِ المُسُوحِ ... وضافِي الشُّعورِ بلُبْسٍ سَواءِ

أَنَجْماً هَوى في سماءِ المعـالي ... لِتَبْكِ عَلَيْكَ[2] نُجُومُ السَّمـاءِ

فحاشى[3] لِرُزْئِكِ أَنْ يَقْتَضِيهِ ... عويلُ الرِّجالِ ولَدْمُ[4] النِّساءِ

لِبِيضِ أياديكِ في الصَّالحـاتِ ... تَمَسَّكَ وَجْـهُ الضُّحى بالضِّيـاءِ

وقَلَّ لفقـدِكِ[5] أَنْ يَحْتَبِي ... عليـه الصَّباحُ بثوبِ المسـاءِ

فيا أَسَفَ المُلْكِ من ذاتِ عِزٍّ ... تعوَّضَ منهـا بِعِزِّ العَزاءِ

وَرَوْحَ القبورِ لمجـدٍ مُقيمٍ ... وَتَرْحَ القصورِ لِرَبْعٍ خَـلاءِ

وَلو قَبِلَ الموتُ منهـا الفِداءَ ... لضاقَ الأَنامُ لهـا عن فِداءِ

لئِنْ حُجِبَتْ تحتَ رَدْمِ اللُّحُودِ ... وَمِنْ قَبْلُ في شُرُفاتِ العَلاءِ

فتلكَ مآثِرُهـا في التُّقى ... وَبَذْلِ اللُّهى ما لَها[6] من خَفاءِ

جزاكِ بأَعمالِكِ الزَّاكيـا ... تِ خَيْرُ المُجازِينَ خَيْرَ الجزاءِ

---

(١) يت : البرود .

(٢) في الأصل : عليه وقد آثرنا رواية اليتيمة و « ق » .

(٣) يت : وحاشى .

(٤) اللدم هو ضرب المرأة صدرها .

(٥) يت : فقل لفقيدك .

(٦) يت : بها .

وَلُقِّيتَ في ضَنْكِ ذاكَ الضَّرِيحِ   نسيمَ النعيمِ وطيبَ الثَّواءِ
فيا رُبَّ زُلْفَى لَدَى المَشْرِقَيْـــن أَبْضَعْتَ فَابْتَعْتَها بالْعَلاءِ
[٣٥ ب] / وَعارِي الجَناحَيْنِ نُبِّئْتَ عَنْهُ   فأَمْسَى وقــد رِشْتَه بالعطاءِ
وَدَعْوَةِ عانٍ بأقصى الدُّروبِ   سمعتَ لوجْــهِ سميعِ الدُّعاءِ
وَذِي حُبْوَةٍ بفِنـاءِ المَقـامِ   سَنَحْتَ له بِسِجـالِ الحِبـاءِ
فلِلّهِ من طارِقٍ لِليـالي   رماكَ بيَوْمٍ كيَوْمِ «البَراءِ»(١)
فوَدَّعْتَ فيـه إمامَ الهُدى   وَدَاعَ نَوًى ما لَها من لِقاءِ
نَجِيبَكَ والمصطفى للخلافـــــةِ من سَلَفَيْ خاتَمِ الأنبياءِ
وما رَدَّ عنك سِهامَ الحِمامِ   بحِرْزِ الجَنابِ وعِزِّ الفِناءِ
وَدهرٍ مُطيعٍ وسورٍ منيعٍ   وَقصرٍ رفيعٍ مشيدِ البِنـاءِ
وَزَأْرِ الأُسودِ وَخَفْقِ البُنُودِ   وَجمعِ الحُشودِ بِمِلْءِ الفَضاءِ
بكلِّ كَمِيٍّ جريءِ الجَنانِ   وكلِّ أَميرٍ مُنيفِ اللِّواءِ

---

(١) لعله يعني بيوم البراء يوم الكلاب الثاني - من أيام العرب المشهورة في الجاهلية - وهو الذي كان بين قبائل اليمن وأحلافها من قضاعة وتميم ، وكان رئيس كندة - من اليمنية - هو البراء بن قيس بن الحارث ، وفيه حلت الهزيمة على مذحج وأحلافها من القبائل اليمنية (انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥ / ٢٢٤ وما بعدها ؛ وأبا الفرج الإصبهاني - ط . الساسي - ١٥ / ٧٠ وبعدها ؛ وابن الأثير : الكامل - ط . منير الدمشقي سنة ١٣٤٨ هـ - ١ / ٣٧٨ وما يليها) .

وَوالٍ رَعَى اللهُ ما قد رَعَاهُ ... فأبْلاَهُ في الصُّنْعِ خَيْرَ البَلاَءِ
تبلَّجَ عنه سنا يَعْرُبٍ ... تَبَلُّجَ قَرْنِ الضُّحى عَنْ ذُكَاءِ
وَهُزَّتْ مضارِبُهُ عن حُسامٍ ... وَفُرَّتْ نواجِذُهُ عن ذَكَاءِ
فَتًى قارضَ اللهَ عن نَفْسِ حُرٍّ ... بَرَاها لِتَخْليدِ حُرِّ الثَّناءِ
وَأقْحَمَها مُخْطَرَاتِ الحُرُوبِ ... وأحْبَسَها في سبيلِ السَّوَاءِ(1)
وَجاهَدَ في اللهِ حقَّ الجِهادِ ... وَأغْنَى عنِ المُلْكِ حَقَّ الغَنَاءِ
وَشدَّ عَلى الدِّينِ سورَ الأَمانِ ... وَسدَّ عنِ الشِّرْكِ بابَ النَّجاءِ
وسيفٌ إذا لألأتْهُ الحُرُو ... بُ طارَ العُدَاةُ بِهِ كالهباءِ
وَألْبَسَهُ النصرُ ثوبَ الجَلاَلِ ... وَتوَّجَهُ الصبرُ تاجَ البَهاءِ
فلَوْ أفصحَ الدهرُ عمَّا يُكِنُّ ... لناداه : يا صَفْوَةَ الأَوْلِيـاءِ !
هُ [وَالمَلِـ](2)ـكُ العامِرِيُّ المُسَمَّى ... يَدَاهُ كَفِيلَيْ حياةِ الرَّجاءِ
عزاءَ إمامَ الهُدَى فالنفُو ... سُ ما إنْ سِواكَ لها مِنْ عَزاءِ
وَعُوِّضْتَ مِنْها جزيلَ الثَّوابِ ... وَمَدَّ لكَ اللهُ طُولَ البَقاءِ

---

(1) في « ق » : الوفاء .

(2) غير واضحة في الاصل ، والتكملة عن : « ق » .

— ٣٩ —

وله في المَنْصُورِ مُنْذِرِ بنِ يحيَ* حينَ قُدُومِهِ عليه سَرَقُسْطَةَ وهو حينئذٍ حاجِبٌ سَنَةَ ثمانٍ وأربعمائة(١)

[من الكامل]

[٣٦ م] / بُشْرَاكَ من طُولِ التَّرَحُّلِ والسُّرى   صبحٌ بِرَوْحِ السَّفْرِ لاحَ فأسْفَرَا

(*) أبو الحكم منذر بن يحيى التجيبي كان قد ترقى إلى القيادة في الثغر الأعلى (سرقسطة) في آخر الدولة العامرية ثم اشترك في الفتنة القرطبية وأيد سليمان بن الحكم المستعين في دولته الثانية (سنة ٤٠٣ / ١٠١٣) فأقره على سرقسطة ثم قام مع خيران العامري بتدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى حتى غدرا به وتسببا في مصرعه (٤٠٩/١٠١٩) ، ووقعت أحداث كثيرة بينه وبين جيرانه من ملوك الطوائف على أنه ظل متسلطاً على سرقسطة والثغر حتى وفاته سنة ٤١٢ / ١٠٢٢ ، وخلفه ابنه يحيى . وفي المراجع العربية اختلاط واضطراب كثير —

(١) انتخب ابن بسام من هذه القصيدة ثلاثين بيتاً (انظر الذخيرة ق ١ - ٥٦/١ - ٥٨ وأوردها لسان الدين بن الخطيب كاملة باستثناء بيت واحد في « الإحاطة » (مخطوطة الاسكوريال) ص ١٨٣ — ١٨٤ ؛ كما أنه اختار منها أيضاً واحداً وخمسين بيتا في « أعمال الأعلام » ص ١٩٨ - ٢٠٠ ؛ كذلك اختار منها ابن فضل الله العمري بيتين (مسالك ١١ / ٢٠٢) ؛ هذا وقد سقط من هذه القصيدة بيت في الديوان فألحقناه بها كما سيأتي في موضعه .

مِنْ حاجِبِ الشَّمْسِ الذي حَجَبَ الدجى فَجْراً [1] بأنهارِ النَّدى مُتفَجِّرا

نادى يحيَ [2] على النَّدى ثُمَّ اعْتَلى سُبُلَ [3] العُفاةِ مُهَلِّلاً ومُكَبِّرَا

لَبَّيْكَ أَسْمَعَنا نِدَاكَ ودُونَنا نَوْءُ الكواكِبِ مُخْوِياً [4] أو مُمْطِرَا

مِنْ كُلِّ طارِقِ لَيْلِ همٍّ [5] يَنْتَحِي وَجْهي بوجهٍ من لقائِكَ أزْهَرَا

سارٍ لِيَعْدِلَ عن سَمائِكَ أنجُمِي وقدِ ازْدَهاها عَنْ سَنائِكَ مُحَيِّرَا [6]

ــ حول الدولة المنذرية في سرقسطة ومرد ذلك إلى الخلط بين منذر بن يحيى هذا وحفيد له يحمل نفس الاسم تولى سرقسطة أيضاً بعد ذلك (انظر بريتو إي فيفس : ملوك الطوائف ص ٤٣ ــ ٤٤) ؛ وقد سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن ذلك في مقدمة الديوان فليراجع هناك (ص ٧٥ ــ ٧٦ من ترقيم التصدير العام) .

وأما تاريخ هذه القصيدة فهو كما يبدو من نص الديوان سنة ٤٠٨ ، ويجعلها ابن الخطيب في أعمال الأعلام سنة ٤٢٨ (ص ١٩٨) ، وهو خطأ تناقله كثير من المؤرخين والصواب ما أثبت جامع الديوان .

(١) أ ع و إح : فجرى .

(٢) أ ع : ناديت حي .

(٣) أ ع : سيل .

(٤) في الأصل : محويا ، وقد آثرنا رواية « ق » وابن الخطيب في « الإحاطة » و« الأعمال » وابن بسام في « الذخيرة » ، ويقال خوت النجوم وأخوت إذا أمحلت أو سقطت ولم تمطر في نوئها .

(٥) إح : هم .

(٦) في الأصل : مخبرا ، وقد اخترنا رواية « الإحاطة » .

فَكَأَنَّما[1] أَغْرَتْهُ أسبابُ النَّوى | قَدَراً لِبُعْدِيَ عَنْ يَدَيْكَ مُقَدَّرا
أَوْ غارَ مِنْ هِمَمِي فَأَنحى شَأْوَها | فَلَكَ البروجِ مُغَرِّباً ومُغَوِّرا
حَتَّى عَلِقْتُ النَّيِّرَيْنِ فَأَعْلَقا | مَثْنى يَدِي مَلِكَ المُلوكِ النَّيِّرا
فَسَرَيْتُ في حَرَمَ الأَهِلَّةِ مُظْلِماً | وَرَفَلْتُ[2] في خِلَعِ السَّمُومِ مُهَجِّرا
وَشَعَبْتُ أَفلاذَ الفُؤادِ وَلَمْ أَكَدْ | فَحَذَوْتُ من حَذْوِ الثُّرَيَّا مَنْظَرا
سِتٌّ تَسرَّاها الجَلاءُ مُغَرِّباً | وَحدَا بِها حادِي النَّجاءِ[3] مُشَمِّرا
لا يَسْتَفِيقُ الصُّبْحُ منها ما بَدَا | فَلَقاً[4] وَلا جَدْيُ الفَراقِدِ ما سَرى
ظُعُنٌ أَلِفْنَ القَفْرَ[5] في غَوْلِ الدُّجى | وَتَرَكْنَ مألوفَ المعاهِدِ مُقْفِرا
يَطْلُبْنَ لُجَّ البَحْرِ حيثُ تقاذَفَتْ | أمواجُهُ وَالبَرَّ حيثُ تَنَكَّرا
هِيمٌ وَما يَبْغِينَ دونَكَ مَوْرِداً | أَبَداً وَلا عن بَحْرِ جُودِكَ مَصْدَرا
من كُلِّ نِضْوِ الآلِ مَحْبُوكِ المُنى | يُزْجِيهِ نَحْوَكَ كُلُّ مَحْبُوكِ القَرا[6]

---

(١) إح : وكأنما أعدته أسباب النوى .

(٢) في الأصل : ورفمت ، وقد اخترنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة والإحاطة والأعمال .

(٣) أع : النواء .

(٤) إح : قلقا .

(٥) في الأصل : الفقر ، والصواب ما أثبتنا ، وهو ما اتفق عليه الذخيرة والإحاطة والأعمال .

(٦) القرا هو الظهر .

بُدُنٌ فَدَتْ مِنَّا دِماءَ نُحُورِها ... بِبِغائِها[1] في كُلِّ أُفْقٍ مَنْحَرَا
نَحَرَتْ بِنا صَدْرَ الدَّبُورِ فَأَنْبَطَتْ ... فَلَقَ المَضاجِعِ تحتَ جَوٍّ أَكْدَرَا
وَصَبَتْ إلى نَحْوٍ[2] الصَّبافاستَخْلَصَتْ ... سَكَنَ اللَّيالي والنَّهارَ المُبْصِرَا
خُوصٌ نَفَخْنَ بنا البُرا حَتّى انثَنَتْ ... أَشلاؤُهُنَّ كَمِثْلِ أنصافِ البُرَا
نَذَرَتْ لَنا أَلاَّ تُلاقِيَ راحَةً ... مِمَّا تُلاقِي أَوْ تُلاقِيَ « مُنْذِرَا »
وَتَقاسَمَتْ أَلاَّ تُسِيغَ حَياتَها ... دُونَ «ابْنِ يَحْيَى» أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا
لِلَّهِ أَيُّ أَهِلَّةٍ بَلَغَتْ بِنا ... يُمْناكَ يا بَدْرَ السَّماءِ المُقْمِرَا
بَلْ أَيُّ غُصْنٍ في ذَراكَ هَصَرْتَهُ ... نَخْرٍ[3] فأَوْرَقَ في يَدَيْكَ وَأَثْمَرَا
/ فَلَئِنْ صَفا ماءُ الحَياةِ لَدَيْكَ لي ... فَبِما شَرِقْتُ إِلَيْكَ بِالماءِ الصَّرَى[4] [٣٦ب]
[وَلَئِنْ خَلَعْتَ عَلَيَّ بُرْداً أَخْضَراً ... فَلَقَدْ لَبِسْتُ إِلَيْكَ عَيْشاً أَغْبَرَا[5]]
وَلَئِنْ مَدَدْتَ عَلَيَّ ظِلاًّ بارِداً ... فلَكَمْ صَلِيتُ إِلَيْكَ جَوّاً[6] مُسْعَرَا

---

(١) ذخ و أع : ببقائها ، والبغاء هنا هو الطلب .
(٢) ذخ و أع : نحر .
(٣) اح و أع : فجرى .
(٤) في الأصل : فبما شرقت إليك عيشا أغبرا . والصواب ما أثبتنا وهو ما ورد في الذخيرة والاحاطة والأعمال ؛ والماء الصرى هو الذى طال استنقاعه .
(٥) سقط هذا البيت من الأصل ، وقد استكملناه نقلا عن المراجع الثلاثة المذكورة فضلاً عن النسخة الخطية «ق» .
(٦) اح و أع : حرا .

وَكَفاكَ مَنْ [1] جَعَلَ الحياةَ بِضاعَةً وَرأى رِضاكَ بها رخيصاً فاشْتَرى
فَمَنِ المُبَلِّغُ عن غريبٍ نازِحٍ قَلْباً يكادُ عَلَيَّ أَنْ يتفطَّرا
لَهْفانَ لا يَرْتَدُّ طَرْفُ جفونِهِ [2] إلاَّ تذكَّرَ عَبْرَتي فاستَعْبَرا
أَبُنَيَّ لا تَذْهَبْ بنفسِكَ حَسْرَةً عن غَوْلِ رَحْلِي مُنْجِداً أو مُغْوِرَا
فلَئِنْ تَرَكْتَ اللَّيلَ فَوْقِيَ دَاجِياً فلقد لقيتُ الصُّبْحَ بعدَكَ أَزْهَرا
وَلَقَدْ وَرَدْتُ مياهَ «ماربَ» حُفَّلاً وَأَسَمْتُ خَيْلي وَسْطَ جَنَّةِ عَبْقَرا
وَنَظَمْتُ للغيدِ الحسانِ قلائداً من تاجِ كِسْرى ذي البَهاءِ وَقَيْصَرا
وَحَلَلْتُ أَرْضاً بُدِّلَتْ حَصْباؤُها ذَهَباً يَرِفُّ لناظِرَيَّ وَجَوْهَرا
وَلْيَعْلَمِ [3] الأَمْلاكُ أَنِّيَ بَعْدَهُمْ أَلْفَيتُ كُلَّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَا
وَرَمَى عَلَيَّ رِداءَهُ مِنْ دُونِهِمْ مَلِكٌ تَخُيِّرَ للعُلا فَتَخَيَّرا
ضَرَبُوا قِداحَهُمُ عَلَيَّ فَفازَ بي مَنْ كان بالقِدْحِ المُعَلَّى أَجْدَرا
مَنْ فَكَّ طَرْفِي من تكاليفِ الفَلا وَأَجارَ طَرْفي من تباريحِ السُّرى
وَكَفَى عِتابِي من أَلامَ مُعَذِّراً وَتَذَمُّمي مِمَّنْ تَحَمَّلَ مُعْذِرَا
وَمُسائِلٍ عَنِّي الرِّفاقَ وَوُدُّهُ لو تنبذُ السّاداتُ [4] رَحْلِيَ بِالعَرا

(١) إح و أ ع : وكفى لمن .
(٢) إح و أ ع : لهفان لايرتد في أجفانه .
(٣) ذخ و أ ع : ولتعلم .
(٤) أ ع : الساحات .

وَبَقِيتُ في لُجَجِ الأَسى مُتَضَلِّلاً	وعَدَلْتُ عَنْ سُبُلِ الهُدٰى مُتَحَيِّرَا
كَلاَّ وقد آنَسْتُ من« هُودٍ» هُدًى	ولَقِيتُ«يعْرُبَ»في القَيُولِ و«حِمْيَرَا»
وَأَصَبْتُ في«سَبَإٍ» مُورِّثَ مُلْكِهِ[1]	يَسْبِي المُلُوكَ ولا يَدِبُّ لها الضَّرَا
فكَأَنَّمَا تابَعْتُ « تُبَّعَ » رافِعاً	أَعلامَهُ مَلِكاً يدينُ له الوَرٰى
وَ«الحارِثَ الجَفْنِيَّ» مَمْنُوعَ الحِمٰى	بالخيلِ والآسادِ مَبْذولَ القِرٰى
وَحَطَطْتُ رَحْلِي بين نارَيْ[2] « حاتِمٍ »
أَيَّـامَ يَقْرِي مُوسِراً أَو مُعْسِرَا
وَلَقِيتُ « زَيْدَ الخيْلِ » تحتَ عَجاجَةٍ	يكسُو[3] غلائِلُها الجِيادَ الضُّمَّرَا
وَعَقَدْتُ في « يَمَنٍ » مَواثِقَ ذِمَّةٍ	مشدودةِ الأَسبابِ مُوثَقَةَ العُرٰى
وَأَتيت « بَحْدَلَ »[4] [وهو][5] يَرْفَعُ مِنبراً
للدِّينِ والدُّنيـــا ويخفِضُ مِـــنْبَرَا

---

(١) ذخ : ملكها . ونلاحظ أن هـذا هو البيت الوحيد الذي لم يرد في الاحاطة من هذه القصيدة .

(٢) إح : نادى .

(٣) ذخ و أع و إح : تكسو .

(٤) ذخ : بحدك ، ولا معنى لها هنا ، وإنما يقصد بحدل بن أنيف الـكلبي الذي تزوج معاوية بن أبي سفيان (رضه) من بنته ميسون والدة ابنه يزيد ، وقد كان لقبيلة كلب اليمنية التي ينتسب إليها بحـدل هذا أعظم البلاء في نصرة الدعوة الأموية (انظر تاريخ الطبري ـ ط . القاهرة ـ ٤ / ٢٤٣)

(٥) هذه الكلمة ناقصة في الأصل .

[٣٧ م] / وَخَطَطْتُ[1] بَيْنَ جِفانِها وجُفونِها حَرَماً أَبَتْ حُرُماتُهُ أَن تُخْفَرَا

تِلْكَ البُحُورُ[2] تتابَعَتْ وخَلَفْتَها سعياً فكُنْتَ[3] الجوهَرَ المُتَخَيَّرَا

وَلقَد نَمَوْكَ وِلادَةً وسِيادَةً وكَسَوْكَ عِزًّا وابتَنَوْا لَكَ مَفْخَرَا

فَعَمَرْتَ بالإقبالِ[4] أَكْرَمَ أَكْرَمٍ مُلْكاً وَرِثْتَ عُلاهُ أَكْبَرَ أَكْبَرَا

وَشمائِلٍ عَبِقَتْ[5] بها سُبُلُ الهُدٰى وَذَرَتْ عَلَى الآفاقِ مِسْكاً أَذْفَرَا

أَهْدٰى إلى شَغَفِ القُلُوبِ مِنَ الهَوٰى وَأَلَذَّ في الأَجْفانِ من طَعْمِ[6] الكَرٰى

وَمَشاهِدٍ لَكَ لَمْ تَكُنْ أَيَّامُها ظَنًّا يَرِيبُ وَلا حَدِيثاً يُفْتَرٰى

لاقَيْتَ فيها المَوْتَ أَسْوَدَ أَدْهَماً فَذَعَرْتَهُ بالسَّيْفِ أَبيضَ أَحْمَرَا

وَلَوِ اجْتَلٰى في زِيٍّ قِرْنِكَ مُعْلَماً لتركْتَهُ تحتَ العَجاجِ مُعَفَّرَا

يا مَنْ تَكَبَّرَ بالتَّكَرُّمِ قَدْرُهُ حتّٰى تكرَّمَ أَنْ يُرٰى مُتَكَبِّرَا

و« المُنْذِرُ » الأَعْداءَ بالبُشْرٰى لَنا صَدَقَتْ صِفاتُكَ مُنْذِراً وَمُبَشِّرَا

ما صُوِّرَ الإيمانُ في قَلْبِ امْرِئٍ حتّٰى يَرَاكَ اللهُ فيهِ مُصَوَّرَا

فارْفَعْ لها عَلَمَ الهُدٰى فَلِمِثْلِها رَفَعَتْكَ أَعْلامُ السِّيادَةِ في الذرى

(١) في الأصل : وحططت ، وقد اتبعنا قراءة الذخيرة والأعمال .

(٢) ذخ و أع : البدور .

(٣) إح : فكنت .

(٤) إح : بالآمال .

(٥) في الأصل : عنقت ، والصواب ما أثبتنا وهو ما جاء في الاحاطة .

(٦) أع و إح : سنة .

وَانصُرْ نَصِرْتَ من السماءِ فإنَّما ... ناسَبْتَ (1) أنْصارَ النَّبِيِّ لِتُنْصَرَا

وَاسْلَمْ وَلا وَجَدُوا لِجَوِّكَ مَنفَساً (2) ... في النَّائِباتِ وَلا لِبَحْرِكَ مَعْبَرَا

— ٤٠ —

وقال فيه أيضاً رحمهما الله

[من البسيط]

بُشْرَاكِ أيَّتُها الدُّنيا وَبُشْرَانا ... أَحْياكِ بالعَدْلِ مَنْ بالأَمْنِ أَحْيانا

لعلَّ آمالَنا في اللهِ قد صَدَقَتْ ... وَصدقَ موعِدِهِ بالفتحِ قَدْ آنا

وَعَوْدَةً تَمْتَرِي عَفْواً وَعافِيَةً ... وَدعوةً تَقْتَضِي صَفْحاً وَغُفْرَانا

تنسَّمي رِيحَ رَوْحِ اللهِ مُنْشِئَةً ... غُيُوثَ رحمتِهِ سَحًّا وَتَهْتانا

وَاسْتَقْبِلي زَهْرَةَ العُقْبَى مُنَوَّرَةً ... بالنُّورِ في رَوْضَةٍ تَهْتَزُّ رِضْوَانا

لَتُورِقَنْ شَجَرُ الدنيا لَنا وَرِقاً ... بِسَعْدِها وَتُرِيقُ (3) الأَرْضُ عِقْيانا

وَتَعْبَقُ الأَرْضُ من مِسْكٍ وَغالِيَةٍ ... وَتُمْطِرُ (4) المُزْنُ ياقوتاً وَمَرْجانا

وَقُلْ لِمَنْ قد أَضَلَّ الشمسَ طالِعَةً ... لا تَسْرِ من بَعْدِها في لَيْلٍ حَيْرَانا

(١) اح : ناصبت .

(٢) اح : لجودك مقبسا .

(٣) لا تظهر من هذه الكلمة في الأصل إلا : ود ق .

(٤) مطموسة لايتبين منها إلا : حر .

وَيا غَرِيباً شَرِيداً عَن مواطِنِهِ   لِتَهْنِكَ الأَرْضُ ٱلآفاً وَأَوْطانا

[٣٧ب]/وَيا مَرُوعَ الضُّحَى يُزْجِي ظَعائِنَهُ   عَرِّسْ بِجَوْزِ الفَلا أَمْناً وَإِيمانا

هاتِيكَ شَمْسُ الهُدَى[1] في بُرْجِ أَسْعُدِها

وَدِينُنا مُشْرِقٌ في عِزِّ دُنْيانا

وَدَوْحَةُ اللهِ زَكَّى غَرْسَها فَزَكَتْ   أُكْلاً وَظِلاً وَأَشْجاراً وَأَغْصانا

أَوشِكْ بِها نِعْمَةً راقَتْ لِتُحْيِينا   نُعْمَى وَيُثْمِرَ ذاكَ الحُسْنُ إِحْسانا

خِلافَةُ اللهِ في مَثْوَى نُبُوَّتِهِ   وَحِفْظُهُ قد تَوَلَّى مَن تَولاَّنا

وَدولَةٌ سَبَقَتْ آمالَنا كَرَماً   كَأَنَّ ما قَدْ تَمَنَّيْنا تَمَنَّانا

وَعودَةٌ أَعْلَنَ الدَّاعِي فَأَسْمَعَها   مِنْ قَصْرِ «قُرْطُبَةٍ» أَقْصَى خُراسانا

وَبَيْعَةٌ عَرَفَ الإِسلامُ آيَتَها   فَلَمْ يَخِرُّوا لَها صُمّاً وَعُمْيانا

كادَتْ تُحَرِّكُ لِلأَشْجارِ أَلْسِنَةً   تَدْعُو وَتَخْرِقُ لِلأَحْجارِ آذانا

لِلقاسِمِ القائِمِ الهادِي الَّذي هُدِيَتْ   إِلَيْهِ طاعَتُنا سِرّاً وَإِعْلانا[2]

---

(١) في الأصل : ا . . . ى .

(٢) يشير في هذا البيت إلى القاسم بن حمود ، ويبدو أن منذراً التزم طاعته في مبدأ الأمر ، وينبغي أن يكون ذلك في سنة ٤٠٨ﻫ ، فنحن نعلم أن القاسم ولي الأمر بعد مقتل أخيه علي في أول ذي القعدة من هذه السنة (٢١ مارس سنة ١٠١٨) ، وأن منذراً خلع طاعة القاسم بعد ذلك وقام مع خيران بتدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى (في العاشر من ذي الحجة من هذه السنة / ٢٩ أبريل سنة ١٠١٨) . ولهذا فإن قول هذه القصيدة ينبغي أن يكون بين هذين التاريخين .

وَابنِ الذي كُتِبَتْ في اللَّوْحِ طاعَتُهُ وَوُدُّ قرباهُ عنـدَ اللهِ قُرْبانا

إمامُنا وَابنُ مَنْ أَمَّ الإلٰهُ بِـهِ أهلَ السماءِ وَمَنْ في أرضِهِ دانا

تلكَ المنابِرُ لَمْ تُثْبَتْ قواعِدُها حَـتَّى تحلَّيْنَ مِنْ ذكراهُ تيجانا

بلِ الكَتائِبُ لم تُنْشَرْ صحائِفُها حتَّى رأتْـهُ لِفَتْحِ اللهِ عُنْوانا

مقلَّداً نصلَ هٰذا السيفِ مِنْ يَمَنٍ في السِّلْمِ وَالحرْبِ تمكيناً وَإمكانا

نصيحةٌ عَمَّتِ الدُّنيا وَساكِنَها نوراً وَأضرمَتِ الأَعْداءَ نيرانا

فأَصْبَحَ «المُنْذِرُ» المَنْصُورُ والِيَنا وَالقاسِمُ المَلِكُ المَأْمُونُ مَوْلانا

من بعدِ فَتْرَةِ أَزْمَانٍ مَطَلْنَ بِهِ وَدِدْنَ ألاَّ نُسَمِّيهِنَّ أزْمانا

يُمْناهُ في قائِمِ السَّيْفِ[المُقامِ[1]] لَهُ في العَدْلِ وَالقِسْطِ عندَ اللهِ ميزانا

رَدَّ الإلٰهُ إِلَيْهِ حَقَّ والِدِهِ فَكُلُّ حَقٍّ بِهِ رَدٌّ لِمَنْ كانا

أَحْيا بِهِ لابْنِ يَحْيٰى حَقَّ أَوَّلِهِ في نُصْرَةِ الحَقِّ إقْراراً وإذْعانا

حُكْماً بِما نَطَقَتْ فيهِ وَما صَدَقَتْ شهادَةُ اللهِ تَـنْزِيلاً وَفُرْقـانا

وَأُسْوَةً بِرَسُولِ اللهِ والِدِهِ فيمَنْ تَخَيَّرَ أنصاراً وَجيرانا

فَحَسْبُ مُؤْثِرِ هٰـذا الحُكْمِ مَعْدِلَةً وَحَسْبُ ناصِرِ هٰذا الدِّينِ بُرْهَانا

فَتًى نَماهُ إلى نصرِ الهُدٰى نَسَبٌ لَوْ قُدِّرَ البَدْرَ لَيْلَ[2] التِّمِّ لازْدَانا

(١) في الأصل في موضع هذه الكلمة : الذي أقيم ، وهـو ما لا يستقيم به الوزن ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٢) في الأصل : ليلة ، وبها لا يستقيم الوزن .

[٣٨ م] / مِنَ الَّذِينَ وَفَتْ لِلّهِ بَيْعَتُهُمْ ... فأَخلَصُوا العهدَ إيمانا وأَيْمانا

باعُوا نفُوسَهُمُ من رَبِّهِمْ فَجُزُوا ... خُلْدَ الثَّناءِ وَخُلْدَ الفَوْزِ أثمَانا

فأشْرَقَتْ سُبُلُ الدنيا بِهَدْيِهِمُ ... وَالأَرْضُ قد شَرِقت كُفراً وأَوْثانا

تَلْقَى شبابَهُمُ في السِّلْمِ إنْ نَطَقُوا ... شِيباً وَشيبَهُمُ في الحَرْبِ شُبَّانا

هُمُ المُلَبُّونَ وَالأَبصارُ ناكِصَةٌ ... نَبِيَّهُمْ يَوْمَ نادَى : يالَقَحْطانا

وَالمُطْلِعُونَ نُجُومَ المُلْكِ إذْ أَفَلَتْ ... والكافِلُونَ بِعِزِّ الحَقِّ إذْ هَانا

لَهُمْ مَدَى السَّبْقِ في « بَدْرٍ » وَفي « أُحُدٍ »
وَآلِ حَرْبٍ وَحِزْبَيْ قَيْسِ عَيْلاَنا

وَفي « تَبُوكَ » وَ« أَوْطَاسٍ » وَ« مُصْطَلِقٍ »
وَمَنْ عَصَى اللهَ من أَبْنَاءِ عَدْنَانا

لَهُمْ بَرَاءَةُ وَالأَنفالُ إذْ خُتِمَتْ ... وَالنِّصْفُ قِسْمُهُمُ مِنْ آلِ عِمْرَانا

وَيومَ «صِفِّينَ» لم تَخْذُلْ سُيُوفُكُمْ ... آلَ الرَّسُولِ [بِهِ[(١)]] يا آلَ هَمْدَانا

فَلْيَهْنِكُمْ نَصْرُ مَنْ أَهْدَى الهُدَى لَكُمُ
وَنَصْرُ أَبْنَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ الآنا

سَعْيَ الَّذِينَ هُمُ آوَوْا وَهُمْ نَصَرُوا ... وَأَنْجَبُوا ناصِراً لِلدِّينِ آوَانا

أَسْرَى إِلَى الرَّوْعِ في تأْمِينِ رَوْعَتِنا[(٢)] ... وَساوَرَ المَوْتَ في تَمْهِيدِ مَحْيَانا

---

(١) إضافة يقتضيها الوزن .

(٢) في الأصل : روعتها ، ولعل الأصح ما أثبتناه حتى يتم التقابل بين الشطرين .

وَأَتْعَبَ الخَيْلَ إِيثَاراً لِراحَتِنَا وَفَرَّقَ المالَ إِكْراماً لِمَثْوَانا

كَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ غَيْرَ الوَغَى وَطَناً وَلا سِوَانا لِمَا يَحْوِيهِ خُزَّانَا

سَيْفاً ، وَلٰكِنْ عَلَى الأَعْدَاءِ مُحْتَكِماً بَحْراً ، وَلٰكِنْ إِلَى الظَّمْآنِ ظَمْآنا

أَعْطَى الرَّغَائِبَ حَتَّى كَادَ يُوهِمُنا لَوْ سائِلٌ سَالَنَا مِنْهُ لأَعْطَانا

وَساجَلَ الدَّهْرَ حَتَّى لَمْ تَدَعْ يَدُهُ في الجُودِ كُفْئاً وَلا في الحربِ أَقرانا

إِذا المراتِبُ جالَتْ في أَعِنَّتِها وَجَرَّرَتْ خُطَطُ العَلْياءِ أَرْسَانا

فاضْمُمْ إِلَيْكَ أَقاصِيهِنَّ مُذْعِنَةً حَقًّا لِسَعْيِكَ لا بَغْياً وَعُدْوَانا

فَكَمْ ضَرَبْتَ عَلَيْها مِنْ قِداحِ وغًى بالبِيضِ وَالسُّمْرِ ضَرَّاباً وَطَعَّانا

وَكَم سَبَقْتَ إِلَيْها وَاحْتَوَيْتَ لها مَدًى جَعَلْتَ إِلَيْها الصِّدْقَ ميدانا

رياسَتَيْنِ كَمِثْلِ الشِّعْرَيَيْنِ سَناً وَكالرَّبِيعَيْنِ روحاناً(١) وَرَيْحانا

وَتاجَ نَصْرٍ وَإِعْظامٍ وَتَكْرِمَةٍ حَلاَّكَها(٢) مَنْ بِأَمْنِ الأَرْضِ حَلاَّنا

فَإِنْ وَلَدْتَ لها أَقمارَ مَمْلَكَةٍ أَسْباطَ مَلْحَمَةٍ أُسْداً وَفُرْسانا

/ فَقَدْ خَلَعْتَ عَلَى « يَحْيَى »(٣) حِجابَتَها مَحْفُوفَةً مِنكَ إِعْزازاً وَسُلْطانا [٣٨ب]

---

(١) في الأصل : روحاما ، ولعلّ الصواب ما أثبتنا ، والروحان : الطيب .

(٢) في الأصل : حلاك . . . ، وباقي الكلمة مطموس .

(٣) الإشارة هنا إلى « يحيى بن منذر بن يحيى » ابن ممدوح ابن دراج وولي عهده وهو الذي ولي ملك سرقسطة بعد وفاة أبيه منذر في سنة ٤١٢ (١٠٢٢) وظل ملكا عليها حتى سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) .

ثُمَّ احْتَوَى «حَكَمٌ»[1] مُثْنَى وِزَارَتِهَا فَقُزْتُمُ بِالعُـــلاَ مَثْنَى وَوِحْدَانَا
كُلٌّ حَبَاكُمْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ بِهِ كَمَا بِقُرْبِكُمُ الرَّحْمنُ حَابَانَا
مَزِيَّةٌ جَالَتِ الدُّنْيَا فَمَا وَجَدَتْ سِوَاكُمُ لِنُفُوسِ المُلْكِ أَبْدَانَا
وَهِمَّةٌ لَكَ يَا «مَنْصُورُ» مَا هَدَأَتْ حَتَّى رَأَتْكَ لِعَيْنِ الدِّينِ إِنْسَانَا
فَهَدَّمَتْ بِكَ بُنْيَانَ العِدَى فَرَقًا وَشَيَّدَتْ لَكَ فَوْقَ النَّجْمِ بُنْيَانَا
يُنْسِي بِنَاؤُكُمُ صَنْعَاءَ بَلْ إِرَمًا ذَاتَ العِمَادِ وَسِنْدَاداً وَغُمْدَانَا
وَالأَبْلَقَ الفَرْدَ وَالأَبْرَاجَ مِن أَجَإٍ وَالسَّيْلَحِينَ وَسَدًّا كَانَ مَا كَانَا[2]

---

(١) هو حكم بن منذر بن يحيى ، ويدلنا هذا البيت على أن أباه لقبه بذي الوزارتين ، وسترد إشارات أخرى إلى حكم هذا في مواضع مختلفة من هذا الديوان ، ونحن نعرف من هذه الاشارات أنه قد وكل إليه بقيادة الجيوش في عهد أبيه منذر ثم أخيه يحيى بن منذر .

(٢) يشير ابن دراج هنا إلى ما شاده اليمنيون في الجاهلية من قصور وحصون ، وقد نسج الكتاب والقصاص العرب حول ما ذكره من معالم كثيراً من الأساطير والخرافات ، أما إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم فذلك لقب لقبيلة عاد ، وهم جيل من العرب العاربة البائدة على ما يذكر المفسرون ، وسنداد هو موضع منازل بني إياد في أسفل سواد الكوفة وكان عليه قصر تحج إليه العرب ، وقد ذكره الأسود بن يعفر في داليته المعروفة ، وقصر غمدان كان بصنعاء أسسه أزال بن قحطان بأمر أخيه يعرب على ما يذكر ، والأبلق الفرد حصن ينسب إلى السموأل بن عادياء بين الحجر والشام وقد افتخر به السموأل في لاميته المشهورة ، وأجأ جبل لبني طيء يذكر دائما مقرونا بجبل سلمى ، والسيلحين ويقال فيه أيضاً السيلحون قصر بناه الحارث الرائش أحد ملوك اليمن بين صنعاء ومارب ، ويريد بالسد سد مارب المشهور .

بِنِسْبَةٍ من رَسُولِ الله شَدَّ بِها ... ربُّ العُلاَ للهُـدٰى وَالدِّينِ أَرْكانا

صِهْراً يكادُ وَقد لاحَتْ مَعالِمُـهُ ... يَشْدُو بِهِ الدَّهْرُ إفْصاحاً وَتِبْيانا

جزاه رَبُّكَ بالحُسْنىٰ لِذِي حُرَمٍ ... أَضْحىٰ على حُرَمِ الإسْلاَمِ غَيْرَانا

وَحفظُ مَنْ لم يَزَلْ بالعدلِ يحفظُنا ... وَرَعْيُ من لم يزل بالبِرِّ يَرْعانا

وَصِدْقُ ما قد عَهِدْتُمْ في كَرائِمكُمْ ... إنْ لَمْ يُمَلَّكْنَ أَكْفاءً[1] فَأَكْفانا

فَلْتَهْنِكُمْ نِعْمَةٌ يحيا السُّرُورُ بها ... وَغبطَـةٌ حانَ فيها يومُ مَنْ حَانا

ففازَ بالعِزِّ مَنْ نادٰى بِبَيْعَتِكُمْ ... وَباءَ بالخِزْيِ هَيَّـانُ بْنُ بَيَّـانا

— ٤١ —

وله فيه أيضاً رحمه الله تعالى[2]

[من البسيط]

أَهَلَّ بالبَيْنِ فانْهَلَّتْ مَدَامِعُـهُ ... وَآنَسَ النَّفْرَ فاسْتَكَّتْ مَسامِعُـهُ

وَوَدَّعَ المَنْزِلَ الأَعْلَى فَأَوْدَعَـهُ ... في القَلْبِ لاعِجَ بَثٍّ لا يُوادِعُـهُ

---

(١) في الأصل : أكفاناء.

(٢) اختار ابن بسام من هذه القصيدة عشرين بيتاً . الذخيرة ق ١ ـ ١ / ٦٨ ـ ٦٩ ؛ كذلك اختار منها ابن فضل الله العمري ثلاثة أبيات (مسالك ١١ / ٢٠٢) ، وابن سعيد بيتين (المغرب ٢ / ٦١) .

يا مَعْهَداً لَمْ يُضِعْ عَهْدَ الوَفَاءِ لَهُ		مُكَسَّفُ النُّورِ عافِي القَدْرِ ضائِعُهُ
وَلا ثَنَى عَبَرَاتِي عَنْ تَذَكُّرِهِ		دَهْرٌ تَقَارَعُ في صَدْرِي قوارِعُهُ
حَسبِي ضُلُوعٌ ثَوَتْ فيها مَصَائِبُهُ		وَمُقْلَةٌ[1] رَبَعَتْ فيهـا مَرَابِعُهُ
سَقَاكَ مِثْلُ الَّذِي عَفَّى رُبَاكَ عَسَى		يُنْبِيكَ[2] كيفَ غَرِيبُ الرَّحْلِ شاسِعُهُ
صَبًّا كَتَصْعِيدِ أَنفاسِي وصوبُ حياً		تُرِيكَ عَبْرَةَ أجفانِي مَدَامِعُهُ
سَحٌّ إذا شَفَّ صَحْنَ الخدِّ ضَائِرُهُ		شَفَى تَبارِيحَ مَا في القَلْبِ نافِعُهُ
[٣٩ م] / لِلّه من وَطَنٍ قَلْبِي لَهُ وَطَنٌ		يَبْلَى وَأَبْلَى وَما تَبْلَى فَجائِعُهُ
لا يَسْأَمُ الدَّهْرُ مِنْ شَوْقٍ يُطَالِعُنِي		مِنْهُ ومن زَفْرَةٍ مِنِّي تُطَالِعُهُ
فطالَمَا قَصَّرَتْ لَيْلِي مَقَاصِرُهُ		لَهْواً وَما صَنَعَتْ صُبْحِي مَصانِعُهُ
وَطالما أَيْنَعَتْ حولِي حدائِقُهُ		وَالعيشُ غضٌّ أَنيقُ الرَّوْضِ يانِعُهُ
وَكَم أَظلَّ مَقِيلِي وَسْطَ جَنَّتِهِ		بِكُلِّ فرعٍ حَمامُ الأَيْكِ فارِعُهُ
إِنْ تُسْعِدِ اليومَ أَشجانِي نَوَائِحُهُ		فَكَمْ وكَمْ ساعَدَتْ شَجْوِي[3] سَوَاجِعُهُ
وكَمْ وَفَى لِيَ فيهِ من حبيبٍ هَوًى		خَلَعْتُ فيه عِذَارِي فَهْوَ خالِعُهُ

---

(١) هذه الكلمة والتي تسبقها قد طمست في الأصل بعض حروفها لتآكل في موضعها .

(٢) طمست بعض حروف هذه الكلمة للتآكل الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة.

(٣) ربما كانت كلمة « شدوي » أصلح في هذا الموضع .

رَوْضٌ لِعَيْنِ الهَوى راقَتْ أَزاهِرُهُ وَمَشْرَبٌ للصَّبا طابَتْ مَشارِعُهُ
وكم صَدَعْتُ فؤادَ اللَّيْلِ عَنْ قَمَرٍ له هوًى في صَميمِ القَلْبِ صادِعُهُ
خالَسْتُ فيه عُيُونًا غيرَ هاجِعَةٍ والحَزْمُ عَنِّي غضيضُ الطَّرْفِ هاجِعُهُ
وَفي نِجادي جَرِيٌّ الإِلْفِ مُقْدِمُهُ وَفي عِنانِي مُشيحُ الجِذْلِ دارِعُهُ(١)
فما تَجاوَزْتُ قَرْنَ الموتِ مُعْتَسِفًا إِلا وقِرْني رخيمُ الدَّلِّ بارِعُهُ
تَحِيَّتي مِنْهُ تَقْبِيلٌ ومُعْتَنَقٌ يَشُدُّني غُلُّهُ فيهِ(٢) وَجامِعُهُ
لم أَخْلَعِ الدِّرْعَ إلاَّ حِينَ شَقَّقَهُ
عَنْ صَفْحِ صَدْرِيَ ما تَحْوِي مَدارِعُهُ(٣)
وَلاَ تَوَقَّيْتُ سَهْمًا مِنْ لَوَاحِظِهِ يُذِيبُ سَيْفِي وفي قَلْبِي مَوَاقِعُهُ
غُصْنٌ تَجَرَّعَ أَنْداءَ النَّعِيمِ(٤) فَمَا يُطَوَّقُ الدُّرَّ(٥) إلا وَهْوَ جارِعُهُ
غَضُّ القَباطِيِّ تَحْتَ الوَشْيِ ناعِمُها مُخَلْخَلُ الجِيدِ فَوْقَ العِقْدِ رادِعُهُ(٦)

---

(١) في الأصل : جزى الالف . والشاعر يتحدث في الشطر الأول عن السيف وفي الثاني عن الجواد . والمشيح هو الجاد الحذر ، والجذل هو أصل الشيء ، وهو كذلك انتصاب عنق الجواد ورأسه .

(٢) ذخ : عنه .

(٣) ذخ : عن صبح صدري ما تحمي مدارعه .

(٤) ذخ : الغمام .

(٥) ذخ : تطوق الدر (بفتح الدال) .

(٦) القباطي ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل بمصر ، ورادع أي ممتلىء .

يَميسُ طَوْراً وسُكْرُ الدَّلِّ عاطِفُـهُ ... وتَارَةً وانْثِنَاءُ الوَشْيِ لاذِعُهُ[1]

فَاسْتَفْرَغَ[2] الخَصْرُ كُثْبَاناً تُبَاعِدُهُ ... وأَنْبَتَ الصَّدْرُ رُمَّاناً تُدَافِعُهُ[3]

وَفي السَّوَالِفِ خَوْفُ الصُّدْغِ يَجْرَحُهُ ... تِمْثَالُ صُدْغَيْهِ مِسْكاً فَهْوَ مَانِعُهُ

فَبِتُّ تَحْتَ رِوَاقِ اللَّيْلِ ثَانِيَـهُ ... والشَّوْقُ ثَالِثُهُ والوَصْلُ رَابِعُهُ

وَالسِّحْرُ يُسْحَرُ من لَفْظٍ يُنَازِعُنِي ... والمِسْكُ يَعْبَقُ من كَأْسٍ أُنَازِعُهُ

راحاً يَمُدُّ سَنَاهَا نُورُ رَاحَتِـهِ ... لَوْلا المَهَا[4] لَجَرَتْ فيها أَصَابِعُهُ

كَأَنَّمَا ذَابَ فيها وَرْدُ وَجْنَتِـهِ[5] ... وشَجَّهَا رِيقُـهُ المَعْسُولُ مائِعُـهُ

جَنَى حَيَـاةٍ دَنَتْ مِنِّي مَطَاعِمُهُ ... مِنْ بَعْدِ ما قَدْ نَأَتْ عَنِّي مَطَامِعُهُ

[٣٩ب] / قَدْ أَنْهَبَ المِسْكَ والكَافُورَ خَازِنُـهُ ... وأَرْخَصَ الوَرْدَ والتُّفَّاحَ بَائِعُـهُ

فَيا ضَلالَ[6] نُجُومِ اللَّيْلِ إِذْ عَدِمَتْ ... بَدْرَ السَّماءِ وفي حِجْرِي مُضَاجِعُهُ

وَيا حَنِينَ ظِبَاءِ القَفْرِ إِذْ فَقَدَتْ ... غَزَالَهُـنَّ وَفي رَوْضِي مَرَاتِعُـهُ

---

(١) ورد هذا البيت في المغرب لابن سعيد (٢ / ٦١) هكذا :

يجر سكرا وسكر الدال عاطفة ... وقـاره وانثناء الوشي لاذعـه

ورواية الديوان أفضل ، وتتفق معها رواية الذخيرة .

(٢) في المغرب : ففرع .

(٣) ذخ : يدافعه .

(٤) المها : هو البلور .

(٥) في الأصل : جنته ، وقد اتبعنا قراءة الذخيرة و « ق » .

(٦) ذخ ومس : فيا ظلام .

مَجالُ[1] طَرْفِي وَماحازَتْ لواحِظُـهُ وَحَرُّ[2] صَدْرِي وَما ضَمَّتْ أَضالِعُـهُ

وَالطَّرْفُ مِرْآةُ عَيْنِي أَسْتَدِلُّ بِهِ[3] عَلَى الصَّباحِ إذا ما خِيفَ ساطِعُهُ

جَوْناً أَزيدُ بِهِ لَيْلَ الرَّقِيبِ دُجًى وَيَسْتَثِيرُ[4] لِيَ الإِصْباحَ لامِعُهُ

فَباتَ يَعْجَبُ مِنْ ظَبْيٍ يُصارِعُنِي وَقَد يَحِنُّ[5] عَلَى لَيْثٍ أُصارِعُهُ

وَما رَأى قَبْلَهـا قِرْناً أُعانِقُهُ إِلاَّ وَوَدَّعَ نَفْساً لا تُراجِعُـهُ

حَتَّى بَدَا الصُّبْحُ مُشْمَطّاً ذَوائِبُهُ يُطارِدُ اللَّيْلَ مَوْشِيّاً[6] أَكارِعُهُ

كَأَنَّ جَمْعَ ضَلاَلٍ حانَ[7] مَصْرَعُهُ وَأَنْتَ بِالسَّيْفِ يا مَنْصُورُ صارِعُهُ

أَوْ كاشْتِجارِ[8] رِماحٍ أَنْتَ مُشْرِعُها في بابِ فَتْحٍ مُبِينٍ أَنْتَ شارِعُهُ

جَيْشٌ يَجِيشُ بِرَعْدِ المَوْتِ يَقْدُمُهُ إِلى عِدَاكَ قَضاءٌ حُمَّ وَاقِعُهُ

صَبـاحُ بارِقَةٍ لولا عَجاجَتُهُ وَلَيْلُ هابِيَةٍ لولا لَوَامِعُـهُ

دَلائِلُ اليُمْنِ في الهَيْجا أَدِلَّتُهُ وَأَنْجُمُ السَّعْدِ بِالبُشْرى طَلاَئِعُهُ

---

(١) ذخ : فجال .

(٢) ذخ : وحن .

(٣) ذخ : بها .

(٤) ذخ : يستنير .

(٥) ذخ : يرق .

(٦) مس : موسيا ،

(٧) مس : حاز .

(٨) في الأصل أو كأشجار ، ولا يستقيم الوزن ولا المعنى إلا بما أثبتنا ، وهو ما ورد كذلك في « ق » .

يُهْدَى بِهَدْيِ لِوَاءٍ أَنْتَ عاقِدُهُ لِلَّهِ ، وَاللهُ بالتَّأْييدِ رَافِعُهُ

لِمَوْعِدٍ غيرِ مَكْذوبٍ عواقِبُهُ في مَتْجَرٍ غَيْرِ مُرْجاةٍ بَضائِعُهُ

مَثْنَى جِهادٍ وَصَوْمٍ ضَمَّ شَمْلَهُما عَزْمٌ يُسايِرُهُ صَبْرٌ يُشَايِعُهُ

فلا ظَلاَمُ قَرَارٍ أَنْتَ ساكِنُهُ وَلا نَهارُ مُغارٍ أَنْتَ وادِعُهُ

تَرِمُ في الأَرْضِ عن حِصْنٍ تُنازِلُهُ وَتَخْرِقُ البِيدَ عَنْ جَيْشٍ تُقارِعُهُ

حَتَّى جَدَعْتَ أُنُوفَ الشِّرْكِ قاطِبَةً بأنْفِ مَعْقِلِ كُفْرٍ أَنْتَ جادِعُهُ

غابُ الأُسودِ الَّذِي غُرَّ الضَّلاَلُ بِهِ فَخادَعَ اللهَ مِنْهُ وَهْوَ خادِعُهُ

فإنْ شَجَتْ ثَغْرَكَ الأَقْصَى مَرَابِضُهُ فَقَدْ شَجَتْ أَرْضَهُ القُصْوَى مَصارِعُهُ

وَإِنْ يَرُعْ نازِحَ الأَوْطانِ عَنْكَ فَقَدْ راعَ العِدَى مِنْهُ يَوْمٌ أَنْتَ رائِعُهُ

صَبَّحْتَهُ من رِياحِ النَّصْرِ عاصِفَةً لا تَتَّقِي بَعْدَها خَسْفاً بَلاقِعُهُ

كأَنَّ نافِخَ صُورِ المَوْتِ أَصْعَقَهُ فَهَدَّ أَسْوَارَهُ العُلْيا صَوَاقِعُهُ

[٤٠م] / فَمُقْعَصٌ ناشِزٌ عنهُ حَلاَئِلُهُ وَمُرْضَعٌ ذاهِلٌ عَنْهُ مَرَاضِعُهُ (١)

وَهامَ تَحْتَ بُرُوقِ المَوْتِ كُلُّ رَشاً اللَّيْثُ كافِلُهُ وَاللَّيْثُ فاجِعُهُ

هٰذا مُعانِقُهُ يَأْساً فَمُسْلِمُهُ وَذَا مُعانِقُهُ إِلْفاً فَشافِعُهُ

عَوَاطِلاً أَنْتَ حَلَّيْتَ الخُيُولَ بِها جَيْشاً غَدَائِرُها فيهِ بَرَاقِعُهُ

أَوْرَدْتَها المِصْرَ وَالأَبْصارُ طامِحَةٌ لِصُنْعِ ما لَكَ رَبُّ العَرْشِ صانِعُهُ

---

(١) أقمصه بالرمح أي طعنه طعنا متتابعا سريعا ، ونشزت الزوجة أي خرجت عن طاعة زوجها .

وَالأَرْضُ تَلْبَسُهُ طَوْراً وَتَخْلَعُهُ	والجِسْرُ حامِلُهُ كُرْهاً فواضِعُهُ
طَوْدٌ منَ الخَيْلِ أَعْلاَهُ وَأَسْفَلُهُ	بَحْرٌ من السَّيْلِ مُلْتَجٌّ دَوَافِعُهُ [1]
وَالشَّمْسُ لابِسَةٌ مِنْهُ قِناعَ دُجًى	وَالْيَوْمُ أَزْهَرُ وَجْهِ الجَوِّ ماتِعُهُ [2]
بِيُمْنِ حاجِبِكَ المَيْمُونِ طائِرُهُ	وَسَعْدِ قائِدِكَ المَسْعُودِ طالِعُهُ
أَنْجَبْتَهُ كاسْمِهِ تَحْيا عُـلاَكَ بِهِ	كَهْلُ التَّجارِبِ شَرْخُ العَزْمِ يافِعُهُ
ساقِي الحياةِ لِمَنْ سالَمْت، مُطْعِمُها	ذُعافَ سُمٍّ لِمَنْ حارَبْتَ ناقِعُهُ
أَوْفَى بِهِ في رِدَاءِ الحِلْمِ لابِسُهُ	وَعَلَّهُ بِلِبانِ الحَرْبِ رَاضِعُهُ
مَنْ أَشرقَتْ بسجاياهُ مَقاوِلُهُ	وَأَعْرَقَتْ في مَساعِيهِ تَبابِعُهُ [3]
وقَلَّدَتْهُ « تُجِيبٌ » حَلْيَ سابِقِهَا	حَتَّى غَدَا السَّابِقَ المَتْبُوعَ تابِعُهُ
وَاحْتازَ إِرْثَ الأُلَى آوَوْا [4] وَهُمْ نَصَرُوا	باسمٍ يُصَدِّقُهُ فِعْلٌ يُضارِعُهُ
فإِنْ تَضايَقَتِ الدُّنْيا بِمُغْتَرِبٍ	« فَمُنْذِرٌ » بَعْدُ رَحْبُ الصَّدْرِ واسِعُهُ
وَإِنْ دَجا فَلَقٌ يوماً بِذِي أَمَلٍ	فَذُو الرِّياساتِ طَلْقُ اللَّيْلِ ناصِعُهُ
وَمَنْ سِوَاهُ لِمَقْطُوعٍ أَواصِرُهُ ؟	وَمن سواهُ لِمَرْدُودٍ شَوَافِعُهُ ؟
وَمن سواهُ لخطبٍ جَلَّ فادِحُهُ ؟	وَمن سواهُ لِخَرْقٍ قَلَّ راقِعُهُ ؟

(١) في الأصل : دوامعه ، وقد آثرنا ما جاء في « ق » .

(٢) متع النهار أي ارتفع وطال .

(٣) يقصد بالمقاول الأقيال جمع قيل ، وهم ملوك اليمن في الجاهلية ، والتبابع آل تبع .

(٤) في الأصل : إرث الألى هم آووا وهم نصروا ، ولا يستقيم الوزن إلا بحذف « هم » الأولى ، وقد جاءت في « ق » كما أثبتنا .

وَمَنْ يُسِيمُ نَدَاهُ فِي خَزَائِنِهِ ... كأَنَّهُ فِي أَعادِيهِ وَقائِعُـهُ ؟
وَاسْتَوْدَعَ اللهُ لِلإِسْلاَمِ فِي يَدِهِ ... مكارِماً حُفِظَتْ فيهـا وَدَائِعُـهُ
يا واصِلاً بالنَّدَى ما اللهُ واصِلُهُ ... وقاطِعاً بالظُّبَى ما اللهُ قاطِعُهُ
اِسْعَدْ بِفَخْرٍ وفِطْرٍ أَنت حاصِدُهُ ... مِنْ بِرِّ فَتْحٍ[1] وصَوْمٍ أَنْتَ زارِعُهُ
ومَشْهَدٍ لِلْمُصَلَّى قد طَلَعْتَ لَهُ ... كالبدرِ مُشْرِقَةً مِنْـهُ مَطالِعُهُ
في جيشِ عِزٍّ ونَصْرٍ أَنت غُرَّتُـهُ ... وشملِ دينٍ ودُنْيا أَنْتَ جامِعُهُ
[٤٠ب] / مُعَظَّمُ القدْرِ في الأَبصارِ باهِرُهُ ... وخافِضُ الطَّرْفِ للرَّحْمٰنِ خاشِعُـهُ
ومَوْقِفٍ لَكَ في الدَّاعِينَ رَفَّعَهُ ... إلى السَّمٰوَاتِ رَائِيهِ وسامِعُهُ
بكَ اسْتُهِلَّ بِهِ فَصْلُ الخطابِ وَما ... أَسَرَّ ساجِدُهُ الدَّاعِي وراكِعُهُ
وَسَلَّمُوا من صَلاَةِ العيدِ وافْتَتَحُوا ... إِلَيْكَ أَزْكَى سَلاَمٍ شاعَ شائِعُـهُ
جَمْعاً يَؤُمُّ إِلَيْكَ القَصْرَ مُسْتَبِقاً ... الحَمْدُ قائِدُهُ والحَمْدُ[2] وازِعُهُ
حيثُ المكارِمُ مَرْفُوعٌ معالِمُها ... ونَيِّرُ الدِّينِ مَعْمُورٌ شَرَائِعُـهُ
وتالِدُ المُلْـكِ محفوظٌ بِخاتَمِـهِ ... من طِينَةِ المَجْدِ والرَّحْمٰنُ طابِعُـهُ
وَاسْلَمْ لَهُمْ ولِمَنْ أَوْفَى بِـهِ أَمَلٌ ... فاتَ المنايا إِلى يُمْناكَ نازِعُهُ
يعلُو الجِبالَ بِأَمْثالِ[3] الجِبالِ أَسًى ... يَحْدُوهُ جِدٌّ عَثُورُ الجَدِّ طالِعُـهُ

---

(١) في الأصل كلمة مطموسة وقد استكملناها عن « ق » .

(٢) في « ق » : والطوع .

(٣) في الأصل : بمثل الجبال ، ولا يستقيم بها الوزن ، وقد أصلحنا ذلك بما أثبتناه ، وهو ما جاء أيضاً في « ق » .

وَرُبَّ لُجَّـةِ بحرٍ تحتَ بَحْرِ دُجًى قَاسَى إلى بَحْرِكَ الطَّامي يَنَابِعَـهُ
وَمِنْ شمائِلِكَ المُعْيِي بَدَائِعُهَا في الأَرْضِ جاءتْكَ تَسْتَمْلي بَدَائِعَهُ
فَلاَ تَوَاضَعَ قَـدْرٌ أَنتَ رافِعُـهُ ولا تَرَفَّعَ قَـدرٌ أَنت واضِعُهُ

— ٤٢ —

وله فيه رحمهما الله عند انصرافه عن بنبلونة (١)

[من البسيط]

سَعْيٌ شَفَى بالمُنَى قبلَ انتِهَا أَمَدِهْ ويَوْمُ سَعْدٍ أَرانا الفَتْحَ قَبْلَ غَدِهْ
بمُقْـدِمٍ والقَنَا مِـلْءُ الفَضَاءِ بِهِ وقادِمٍ وعَتادُ الشِّرْكِ مِلْءُ يَدِهْ
داعٍ إلى دَعْوَةِ الإِسْلاَمِ يَنْصُرُهَا فَأَيُّ مُعْتَمَدٍ مِنْ شَأْوِ مُعْتَمِدِهْ
وَكَمْ فُؤَادٍ وكَم جِسْمٍ وكَم بَصَرٍ لَبَّاهُ من قُرْبِهِ سَعْيًا ومِنْ بُعُدِهْ
جمعًا غَدَا الحاجِبُ المَيْمُونُ قائِدَهُ والنَّصْرُ والصَّبْرُ والإِيمانُ مِنْ مَدَدِهْ
لمِثْلِها كُنتَ يا «مَنْصُورُ» وَالِدَهُ ومِثْلَهَا سَيُرِيكَ اللهُ في وَلَدِهْ
أَنْجَبْتَهُ وَسْطَ رَوْضِ المُلْكِ تَظْأَرُهُ بواسِقٌ لِلْعُلاَ تَهْتَزُّ في ثَأَدِهْ (٢)
أَثْمارُها من جَنَى الجانِبَينِ دانِيَـةٌ ووَرْدُ زَهْرَتِها قد راقَ في نَضَدِهْ

---

(١) في « ق » : منبلونة ، والصواب ما أثبتناه ، و بنبلونة Pamplona هي عاصمة مملكة البشكنس أو مملكة نبرة Navarra ، وهي الآن عاصمة لهذه المقاطعة من مقاطعات إسبانيا .

(٢) الثأد هو المكان الندي الرطب .

فأرْضَعَتْهُ ثُدِيَّ الحربِ في كَلَلٍ ... من القنا فوقَ مَهْدٍ من شَبا قِصَدِهْ

حيثُ تلاقَتْ نواصِي الخَيْلِ واعْتَنَقَتْ ... صدورُ غَيْظٍ يذوبُ الصَّخْرُ من وَقَدِهْ

سَرْى لأَمْرِكَ لا لَيْلٌ بِوَاجِدِهِ ... عَلَى الحَشَايا[1] ولا نَجْمٌ بِمُفْتَقِدِهْ

مُجَهِّزاً في سبيلِ اللهِ جَيْشَ هُدًى ... السَّمْعُ والطَّوْعُ للمَنْصُورِ مِن عُدَدِهْ

[٤١م] / لِمَنْ بَنَى قُبَّةَ العَلْيا نَدًى ووَغًى ... فأصبحَ المُلْكُ مَرْفوعاً عَلَى عُمُدِهْ

مُوَرِّثِ المُلْكِ من عُلْيا « تَبَابِعِــه » ... والسَّيْفِ من «عَمْرِهِ» والسَّيْبِ من « أُدده »

والنَّصْرِ من سَعْيِ أعمامٍ له فَطِرُوا ... لنَصْرِ ذي العَرْشِ في « بَدْرٍ » وفي « أُحُدِهْ »[2]

مُشَدِّداً عُقَدَ الإسْلامِ إنْ نُـكِثَتْ ... ولا تَحُلُّ خطوبُ الدَّهْرِ من عُقَدِهْ

وقائِـدُ الخيـلِ مُزْجَاةً مُجَهَّزَةً ... للحربِ من صَبْرِهِ فيها ومن جَلَدِهْ

---

(١) في الأصل : الحشا . . . وباقي الكلمة مطموس ، وفي « ق » : الحشيا .

(٢) في الأصل : والنصر من سي . . . ، وقد آثرنا قراءة « ق » ويشير ابن دراج في هذا البيت والذي قبله إلى مآثر عرب اليمن (الذين ينتمي إليهم ممدوحه منذر بن يحيى التجيبي) في الجاهلية والاسلام : فهو يتحدث عن ملوك التبابعة ، وأما « عمرو » المذكور فلعلَّه يعني به عمرو بن معدي كرب الزبيدي الفارس المشهور ، وأما « أ د د » فهو ابن زيد بن كهلان بن سبأ بن حمير أبو قبيلة من اليمن ، وفي البيت الثاني يشيد بما قام به الأوس والخزرج من نصرة للاسلام ، ويخص بالذكر موقعتي بدر وأحد .

هادٍ هواديَها والليـلُ معتكِرٌ ... يهدي مَنْ أرشدَ الإسلامُ في رَشَدِهْ

كم بين لَيْلِكَ يا «منصورُ» تَرْكُضُها ... وليلِ مُرْتَكِضٍ في لهوِهِ وَدَدِهْ[1]

ما صُبْحُ مصطَبِحٍ في روضةٍ أُنُفٍ ... من صُبْحِ مَنْ يَنْعَمُ الإسلامُ في كَبَدِهْ

سارٍ إلى غِرَّةِ الأعداءِ يَطْلُبُها ... إذا تقلَّبَ ساهي العَيْشِ في رَغَدِهْ

مسهَّداً في سبيلِ اللهِ يكلأُهُ ... ربٌّ أنامَ عُيونَ الدِّينِ في سُهُدِهْ

مُوفٍ عَلَى كَتَدَيْ طاوِي الحُزُونِ بهِ ... والمُلْكُ والدِّينُ والدنيا على كَتَدِهْ[2]

تُقَصِّرُ الرِّيحُ عن مَسْرَى كتائِبِهِ ... كما تقاصَرَتِ الأملاكُ عن أَمَدِهْ

بُحُورُ جَدْوَاهُ في الآفاقِ زاخِرَةٌ ... وقد يُزاحِمُ هِيمَ الطَّيْرِ في ثَمَدِهْ

شَرَّابُ أنقُعِ أَجْوَازِ الفلاةِ إذا ... ما كان شُرْبُ دمِ الأعداءِ من صَدَدِهْ[3]

حتى يَئُودَ القنا في كلِّ معركَةٍ ... أَوْداً يُقيمُ قناةَ الدِّينِ من أَوَدِهْ

وَيُنْهِبَ الموتَ أرواحَ الكُماةِ كما ... يُبيحُ في السِّلْمِ جَدْواهُ لِمُنْتَقِدِهْ

حَيْثُ يُعِلُّ أديمَ القِرْنِ من دَمِـهِ ... وَيَحْتَبِي جَسَدُ الجبَّارِ في جَسَدِهْ

وَتَلْحَظُ الشَّمْسُ من أثناءِ هَبْوَتِـهِ ... كما يُغَضْغِضُ جَفْنُ العَيْنِ من رَمَدِهْ

لا يُبْعِدُ الجودَ من يومِ الجِلادِ ولا ... يُغِبُّ يَوْمَ نداهُ يَوْمُ مُجْتَلَدِهْ

كأنَّهُ من دَمِ الأعداءِ في حَرَجٍ ... فإنْ يَمُتْ ذو سلاحٍ من يَدَيْهِ يَدِهْ[4]

---

(١) في الأصل : ووده والصواب ما أثبتنا ، وهكذا وردت أيضاً في «ق» .

(٢) الكتد هو مجتمع الكتفين من الانسان والفرس أو ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٣) في «ق» قصده .

(٤) يده أي يؤد إليه الدية ، مضارع ودى .

وَمُعْتَفُوهُ لَدَيْهِ أولياءُ دَمٍ … نَدَاهُ ذُو عَقْلِهِ فِيهِمْ وذو قَوَدِهْ

مساعِياً كُتِبَتْ في اللَّوْحِ واكْتُتِبَتْ … فينا بِسَعْيِ «ابْنِ يَحْيَى»(١) واعتلاءِ يَدِهْ

يَخُطُّها بِصُدورِ الخَطِّ مُنْصَلِتاً … في كلِّ صَدْرِ حليفِ الكُفْرِ مُعْتَقِدِهْ

وَيَنْثَنِي في صِفاحِ العُجْمِ يُعْجِمُها … بِصَفْحَتَيْ كُلِّ ماضِي الغَرْبِ مُتَّقِدِهْ

والمُلْكُ يَنْسَخُها في أُمِّ مَفْخَرِهِ … والدهرُ يَقْرَأُها في مُنْتَهَى أَبَدِهْ

[٤١ب] / راعَ الملوكَ فمخنوقٌ بِجِرَّتِهِ … يهيمُ في الأرضِ أولاجٍ إلى سَنَدِهْ

فتِلْكَ نَفْسُ «ابْنِ شَنْجٍ»(٢) لا مآلَ لَها … مِن مِيتَةِ السَّيْفِ أَوْ عَيْشٍ عَلَى نَكَدِهْ

---

(١) كلمة مطموسة لاتبدو منها إلا بقايا من حروف وقد جاءت في «ق» كما أثبتنا.

(٢) يقصد ابن دراج بـ «بابن شنج» في أكثر المواضع التي ورد فيها هذا الاسم بالديوان شانجه بن غرسية بن شانجه بن غرسية الذي تعرفه المصادر المسيحية باسم Sancho Garces III، وهو خامس ملوك البشكنس أصحاب بنبلونة وثالث من يتسمى منهم بهذا الاسم، كذلك تلقبه كتب التاريخ المسيحي «بالأكبر EL Mayor»، وقد حكم مملكة نبرة Navarra بين سنتي ٣٩١ و ٤٢٧ هـ (١٠٠٠ – ١٠٣٥ م)، ووصلت مملكته في عهده إلى أوج امتدادها وعظمتها حتى أصبحت مركز النشاط السياسي في إسبانيا المسيحية، وكانت تضم بعض المناطق الواقعة في شمال جبال البرتات (البيرينيه) ومقاطعات أرغون Aragon وشبرب Sobrarbe ورباغورثا Ribagorza، وكان قوامس برشلونه وغشقونية Gascuna (في جنوب فرنسا) يدينون له بالطاعة، ثم إن زواجه من إلبيره Elvira بنت سميه ومعاصره شانجه بن غرسية بن فرذلند قومس قشتالة أغراه بالاستيلاء على قشتالة بعد اغتيال غرسية بن شانجه في ليون سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ دون أن يترك وريثا شرعياً لإمارة قشتالة، وهكذا احتل الجانب الأكبر منها باسم زوجته، ولم تقف أطماع شانجه —

ما يَرْتقِي شَرَفاً إلا رَفَعْتَ لَهُ وجهاً من الرَّوْعِ مَرْفُوعاً عَلَى رَصَدِهْ

ولا انْتَحَى بَلَداً إلا قَرَنْتَ بِهِ هَمّاً يُبَلِّدُهُ عن مُنْتَحَى بَلَدِهْ

وقد تَوَجَّسَ من يُمْناكَ بارِقَةً في عارِضٍ لا يفُوتُ الطَّيْرُ من بَرَدِهْ

جيشاً إذا آدَ مَتْنَ الأَرْضِ تَعْدِلُهُ بِحِلْمٍ أَرْوَعَ رَاسِي الحِلْمِ مُتَّئِدِهْ

كالبَحْرِ تَنْسِجُهُ رِيحُ الصَّبا حُبُكاً إذا تَرَقْرَقَ في الماذِيِّ من زَرَدِهْ

بحرٌ سفائِنُهُ غُرٌّ مُسَوَّمَةٌ وَالبَيْضُ وَالبيضُ وَالرَّاياتُ من زَبَدِهْ

وَجاحِمٌ من حريقٍ لا خُمُودَ لَهُ إلا وَنَفْسُ «ابن شَنْج» وَسْطَ مُفْتَأَدِهْ

كتائِباً تَرَكَتْ عُبَّادَ مِلَّتِهِ لا تعرفُ السَّبْتَ في الأَيَّامِ من أَحَدِهْ

إنْ ضاقَ عَنْ مَرِّها رَحْبُ الفَضاءِ فَقَدْ نَفَذَتَ من قَلْبِهِ فيها إلى كَبِدِهْ

فَتَتَّ منها قَوَاصِيَ «بَنْبِلُونَتِهِ»[1] بالهَدْمِ وَالنَّارِ فَتّاً فَتَّ في عَضُدِهْ

وَقُدْتَ منها مَطاياهُ مُوَقَّرَةً بأَهْلِ كُلِّ رفيعِ القَدْرِ أو وَلَدِهْ

سَما لَهُمْ رَهَجُ «المنصورِ» فانقَلَبُوا نَحْلاً جَلاهُ دُخانُ النَّارِ عَنْ شُهُدِهْ

وراحَ كُلُّ مَنيعٍ مِنْ معاقِلِهِمْ غاباً خَلا لِمُبِيرِ الأُسْدِ من أَسَدِهْ

يَرْمِي إلى الخَيْلِ والأَبْطالِ مُقْتَدِياً بِكُلِّ أَغْيَدَ زادَ الذُّعْرُ في غَيَدِهْ

— عند ذلك بل إنه احتل ليون أيضاً متحديا بذلك ملكها برمند الثالث Vermudo III ، وتوفي شانجه في سنة ٤٢٧ / ١٠٣٥ مقسما مملكته على أبنائه الثلاثة. وقد كان قرب مملكة نبرة من سرقسطة مهد حكم الدولة المنذرية عاملا على قوة العلاقات بين الدولتين .

(١) في «ق» منبلونه .

ثُمَّ اتَّقَى أَعْيُنَ النُّظَّارِ يَنْقُدُهـا   من عَيْنِـهِ كالحَصَى عَدا ومِنْ نَقَدِهْ

فَرُبَّ ذِي قَنَصٍ زُرْقٍ حَبائِـلُهُ   قد صادَ ظَبْياً وكانَ اللَّيْثُ من طَرَدِهْ

وقد تَرَكْتَ « ابْنَ شَنْجٍ » فَلَّ مُعْتَرَكٍ   إنْ لم يَمُتْ من ظُباهُ ماتَ من كَمَدِهْ

مُشَرَّداً في قَوَاصِي الْبِيدِ مُغْتَرِباً   وقد مَلأْتَ فِجاجَ الأَرْضِ من خُرُدِهْ

و« فِرْذَلَنْدُ[1] » رَدَدْتَ المُلْكَ في [يَدِهِ[2]]

وما رَجا غَيْرَ رَدِّ الرُّوحِ في جَسَـدِهْ

شِبْلٌ دَعاكَ لِأُسْـدٍ فَوْقَهُ لِبَـدُ   فَأَقْشَعَتْ عنه والأَظْفارُ في لِبَدِهْ

وطارَ نَحْوَكَ سَبْحاً في مَدَامِعِهِ   وقد تَزَوَّدَ مِلْءَ الصَّدْرِ من زُؤُدِهْ[3]

ثم انْثَنَى وملوكُ الشِّرْكِ أَعْبُدُهُ   إِذْ جاءَ عَبْدَ يَدٍ أَلْقَى لهـا بِيَدِهْ

وآبَ مَنْصُورُ قَحْطانٍ بِعِزَّتِـهِ   أَوْباً تَذُوبُ مُلُوكُ الأَرْضِ مِنْ حَسَدِهْ

[٤٢م] / فاللهُ يَنْقُصُ من أَعْدَائِـهِ أَبَداً   ويَسْتَزِيدُ من الإِسْلامِ في[عَدَدِهْ[4]]

---

(١) لم نهتد للتحقق من شخصية « فرذ لند » هذا ، وربما كان أحد الأمراء المستقلين على بعض الإمارات المسيحية الصغيرة المحيطة بمملكة نبرة والتي كان « ابن شنج Sancho Garces III » يبذل كل جهوده للاستيلاء عليها واحدة بعد الأخرى .

(٢) مطموسة في الأصل لقطع أصاب الورقة ، وهي في « ق » كما أثبتنا .

(٣) الزؤد السرور .

(٤) هذه الكلمة ناقصة في الأصل ، وقد استكملناها عن « ق » .

ولهِ[1] فيه رحمهما الله عند إيابه من الغزوة التي عقد
فيها الصهر بين ابن فرذاند وابن راي مند (*)

[من الكامل]

عَمُرَتْ بطولِ بقائِكَ الأَعمارُ   وجَرَتْ بِرِفعَةِ قَدْرِكَ الأَقدارُ

---

(١) في الطرف الأيسر من هذه الصفحة قطع ذهب بروي أبيات القصيده ، وفي الحاشية تعليق لمن وقع في يده الديوان هـذا نصه : « قطع روي القصيدة الذي هو الراء ، فصفح الله للموث هذا الديوان بما كتب في هامشه وقطع من أطرافه غفر الله لنا وله » ! .

(*) يريد الشاعر بابن فرذلند : شانجه بن غرسية بن فرذلند قومس قشتالة وثالث من حملوا منهم هذا الاسم ، ويعرفه المؤرخون المسيحيون باسم Sancho Garcés III ، تولى حكم قشتالة بعد موت أبيه غرسية في أسر المنصور بن أبي عامر من سنة ٣٨٥ إلى ٤٠٨ هـ (٩٩٥ — ١٠١٧ م) معاصراً للمنصور وابنيه المظفر وشنجول وسنوات الفتنة القرطبية وأول إمارة منذر بن يحيى على الثغر الأعلى . أما « ابن راي مند » فيقصد به قومس برشلونة رعند بن بريل (رامون الثالث Ramón Borrell III) الذي حكم إمارة قطلونية (وعاصمتها برشلونة) بين سنتي ٣٨٢ و ٤٠٩ هـ (٩٩٢ — ١٠١٨ م) . وأما الصهر الذي عقـده بينهما منذر بن يحيى في سرقسطة فقد تم على أساس أن يزوج قومس برشـلونه ابنه وولي عهده برنجار بن رعند Berenguer Ramón من ابنة قومس قشتالة المعروفة باسم شانجه Sancha. وقد تحدث عن هذا الصهر ابن حيان (فيما نقله عنه ابن بسام في —

وَدَنَتْ لَكَ الدُّنْيا بقاصِيةِ المُنىٰ ... وتَخَيَّرَتْ لك فَوْقَ ما تختـــارُ
فإذا النُّجومُ تَطَلَّعَتْ لَكَ أَسْعُداً ... بَدَرَ البُدُورُ بِهِنَّ والأَقْمـــارُ
وإذا زَجَرْتَ لِيُمْنِ يَوْمِكَ طائِراً ... حُشِرَتْ إلَيْكَ بِيُمْنِها الأَطْيارُ
وإذا المُنى بَدَأَتْكَ غَرْسَ رِياضِها ... حَيَّتْكَ في أغْصانِها الأَثْمارُ
سَبْقاً كما سَبَقَتْ فعالُكَ كُلَّمـا ... أَعْيَتْ بِهِ الأَوْهـامُ والأَفْكارُ
وتَجَلِّياً للذَّارِعِينَ تَصِيدُهـا ... بِطُيُورِ خَيْلِكَ والعقولُ تُطارُ
بشمائِلٍ مشمولَةٍ بمكارِمٍ ... ما للخَطائِرِ عندَها أَخطارُ
ومعالِمٍ لِنَدَى يَدَيْكَ وإنَّها ... سُرُجٌ إلَيْكَ لِحائِرٍ وَمَنارُ
فإذا عَوانُ المَجْدِ رُدَّ خَطِيبُها ... فَلَكَ الأَيامى مِنْهُ والأَبْكارُ
وإذا الحُرُوبُ تساجَلَتْ أَيَّامُها ... فَقَتِيلُ سَيْفِكَ في المُلُوكِ جُبارُ(١)
ولقد عَضَضْتَ على الخُطُوبِ بناجِذٍ ... للدَّهْرِ منهُ سَكِينَةٌ وَوَقارُ
لٰكِنْ شمائِلُ في النَّدى وكَّلْتَها ... بِعُفاةِ جُودِكَ فِتْيَةٌ أَغْمارُ

—

— الذخيرة ق ١ — ١ / ١٥٣ — ١٥٦) ، وكان كثير من المؤرخين المسيحيين يظنون أن قومس برشلونة إنما زوج ابنه من ابنة قومس غشقونية Gascuña (في جنوب فرنسا) حتى استطاع العلامة دوزي أن يثبت — معتمدا على نص ابن حيان المذكور — صحة الامر في ذلك (Dozy : Recherches ..., I, PP. 203 - 10) وقصيدة ابن دراج الواردة هنا تؤيد رأيه .

أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون بهذه المناسبة أي في سنة ٤٠٨ (١٠١٦) .

(١) جبار أي مهدر الدم لادية له .

ما البَحْرُ في الأَرْضِ المَرِيضَةِ بَعْدَما ... فاضَتْ عليها مِنْ نَدَاكَ بِحَارُ ؟ !
أَوْ ما غَناءُ المِسْكِ في الدُّنيا وقَدْ ... مُلِئَتْ بِطِيبِ ثنائِكَ الأَمْصارُ
فَبِهِ تأَنَّقَتِ الحدائِقُ وازْدَهَى ... زَهْـرُ الرُّبَى وتَفَتَّحَ النُّوَّارُ
وتَنافَحَتْ بنسيمِها رِيحُ الصَّبا ... وتفاوَحَتْ برياضِها الأَسْحارُ
وتَعاطَتِ النُّدَماءُ كَأْسَ مُدَامِها ... وسَرَتْ بها الرُّكْبانُ والسُّمَّارُ
فكأَنَّ للدُّنْيا بِحَمْدِكَ أَلْسُناً ... تُصْغِي لها الآفاقُ والأَقطارُ
وكأَنَّما الأَيَّامُ فيكَ مدائِحٌ ... نُظِمَتْ كما نُظِمَتْ لكَ الأَشعارُ
وَاللهُ جارُكَ كَمْ أَجَرْتَ عِبادَهُ(١) ... من كُلِّ خَطْبٍ لَيْسَ مِنْهُ جارُ
وضَرَبْتَ عنهمْ كُلَّ جبَّارٍ عَتَا ... فَحَبَاكَ(٢) بَيْضَةَ مُلْكِهِ الجَبَّارُ
٤٢ب] / في جَحْفَلٍ كاللَّيْلِ جَرَّارٍ لَهُ ... من عِزِّ نَصْرِكَ جحفلٌ جَرَّارُ
أَمْدَدْتَ فيهِ بالملائِكَةِ التي ... نُصِرَتْ بِهـا أعمامُكَ الأَنصارُ
وكَسَوْتَ فيهِ الشَّمْسَ بُرْدَ عجاجَةٍ ... للموتِ تحتَ ظلامِها إِسْفَارُ
والجَوُّ يَحْمَى والدِّماءُ سواكِبٌ ... والأَرضُ رَيَّا والسَّماءُ غُبَارُ
والمُقْفِرَاتُ سوابِقٌ وخَوافِقٌ ... والشَّاهِقَاتُ أَسِنَّةٌ وشِفَارُ
كلٌّ رَفَعْتَ صُدُورَهُنَّ لغـارَةٍ ... ما إِنْ لها قَبْلَ الصُّدُورِ مُغَارُ
وقد ادَّرَعْتَ لها سوابِقَ عَزْمَةٍ ... البِرُّ والتَّقْوَى لَهُنَّ شِعارُ

(١) في الأصل : عبا . . . والباقي مطموس ، وقد وردت في « ق » كما أثبتنا .
(٢) في الأصل : فـ . . باك .

بَهَرَتْ فَهُنَّ على «ابْنِ يَحْيَى» في الوَغَى ... نورٌ لَهُ وعلى « ابْنِ شَنْجٍ » نارُ
تَحْمِي فَيُودِعُها[1] جوانِحَ صَدْرِهِ ... كَيْ لا تُبَيِّنَهُ لَكَ النُّظَّارُ
أَسَدٌ حَطَمْتَ سِلاحَهُ فتركْتَهُ ... بالبِيدِ : لا ظَفَرٌ ولا أَظْفارُ
رَهْناً بإِلقـــاءِ اليَدَيْنِ لقاهِرٍ ... أَعْلَى يَدَيْـهِ الواحِـدُ القَهَّـارُ
مَلِكٌ كَأَنَّكِ يا مَحاسِنَ فِعـالِهِ ... من سَيِّئَاتِ زمانِكِ اسْتِغْفارُ
خُصَّتْ بِهِ «سَبَأٌ» وعُمَّ بِنَصْرِهِ ... عُلْيَا قُرَيْشٍ في الهُـدَى ونِزَارُ
رَبِذُ القِدَاحِ من الرِّماحِ ومَالَهُ ... إلا السِّباعَ وطَيْرَها أَيْسَارُ[2]
ونَدِيمُ بِيضِ الهندِ يَوْمَ دَمُ العِدَى ... خَمْرٌ لَهُ والمَأْثُرَاتُ خُمـــارُ
آياتُ نَصْرٍ في الوَرَى بِسُيُوفِهـا ... أَمِنَ الهُدَاةُ وآمَنَ الكُفَّارُ
جاهَرْتَ حُرَّ بلادِهِمْ بِجِهَادِهِمْ ... حـتَّى غَدَوْا وهُمُ لهـا أَسْرَارُ
وسَرَيْتَ حتى ظَنَّ من صبْحَتَهُ ... أَنَّ الظلامَ عَلَى سُرَاكَ نَهَارُ
ولَـكَمْ أَطارَهُمُ لِسَيْفِكَ بارِقٌ ... حتَّى دَعَوْتَهُمُ إِلَيْكَ فَطـارُوا
وجَنَحْتَ للسِّلْمِ التي جَنَحُوا لَهـا ... وقضاء رَبِّكَ في العِبادِ خِيارُ
فأَتَوْكَ مُسْتَبِقِينَ قَدْ قَرُبَ المَدَى ... منهُمْ إِلَيْكَ وذُلِّلَ المِضْمـــارُ

---

(١) في الأصل : تحمى فيوذعها .

(٢) ربذ أي خفيف سريع ، ويقال ربذت يده بالقداح أي خفت ، والايسار جمع ياسر ويسر (بفتحتين) وهو اللاعب بالقداح أو المتقامر .

وَدَنَا «ابْنُ رُذْمِير» (*) يُزَلْزِلُ (١) خَطْوَهُ أَمَلٌ تَقَدَّمَ نَفْسَهُ وحِذَارُ
فَفُؤَادُهُ من ذُعْرِ سيفِكَ طائِرٌ طَوْراً ومن عَجَلٍ إليكَ مُطَارُ
وَلقَبْلُ أيْقَنَ «فِرْذِلَنْدٌ» مَا لَهُ إلاَّ إليكَ من الحِمَامِ فِرَارُ
كلٌّ يَخِرُّ لِأَخْمَصَيْكَ وطالَمَا سَامَوْكَ في رَهَجِ الخَمِيسِ فَخَارُوا
/ فَهُناكَ أُخْلِصَتِ النفوسُ وأُكِّدَتْ عُقَدُ (٢) العُهُود وشَدَّتِ الأَنْصَارُ [٤٣م]
وَتَوَاصَلَ البُعَدَاء منكَ بِطاعَةٍ وُصِلَتْ بها الأَرْحَامُ والأَصْهَارُ
فَعَقَدْتَ في عُنُقِ الضَّلاَلِ مَوَاثِقاً دانَتْ بها الرُّهْبَانُ والأَحْبَارُ
وكأَنَّمَا كانَتْ عُقُودَ تَمَائِمٍ سَكَنَتْ بها الأَوْجالُ والأَذْعَارُ
أَحيَيْتَ منها مُلْكَ «رُذْمِير» وَقَدْ مَشَتِ الدُّهُورُ عَلَيْهِ والأَعْصَارُ
وأَقَمْتَ تاجَ جَبِينِهِ مِنْ بَعْدِما عَفَتِ المَعَالِمُ منه والآثارُ
وبَسَطْتَ من «قَشْتِلَةٍ» يَدَ آمِنٍ لِرِضَاكَ فيها يَارَقٌ وسِوَارُ (٣)

(*) يقصد بابن رذمير ملك ليون ، وإنما نسبه إلى جد أبيه ، إذ أن اسمه هو ألفنش (الخامس) بن برمند (الثاني) بن أردون (الثالث) بن رذمير (الثاني) وهو المعروف لدى مؤرخي المسيحيين الإسبان باسم « ألفونسو النبيل Alfonso el Noble » ولي حكم مملكة ليون بين سنتي ٣٩٠ و ٤١٨ (٩٩٩ - ١٠٢٧)

(١) في هذا الموضع قطع ذهب ببعض حروف هذه الكلمة بحيث لا يبدو منها إلا « ير . . . » وقد أثبتنا ما جاء في « ق » .

(٢) في الأصل : عقود ، وبها لا يستقيم الوزن والتصويب عن « ق » .

(٣) قشتلة هي المنطقة المعروفة باسم Castilla في وسط إسبانيا ، والشائع أن تكتبها المراجع العربية هكذا : قشتالة ، وأقل من ذلك شيوعاً « قشتيلة » وإن كانت —

ثُمَّ انثنوا يبأون منكَ بطاعَةٍ رَفَعُوا بها أعلامَهُمْ وأنارُوا
ولهُمْ بذِكْرِكَ في العُدَاةِ تبجُّحٌ وَبِقُبْلِ كَفِّكَ في البلادِ فَخَارُ
ورفعتَ أجيادَ الجيادِ لأوبَةٍ رُفِعَتْ لها الآمالُ والأبصارُ
فكأنَّما البُشْرى بذلِكَ عندَنَا كأسٌ علينا بالسُّرورِ تُدَارُ
والأرضُ أرضُكَ كُلُّها لكَ روضَةٌ أُنُفٌ وأنتَ سماؤُها المِدْرَارُ
حتَّى قَدِمْتَ وما تقلَّبَ ناظِرٌ إلاَّ لهُ بقُدومِكَ استِبْشَارُ
حُرُّ المكارِمِ حقُّ قدرِكَ أنْ ترَى وعَبيدُكَ السَّادَاتُ والأحْرَارُ
ومُجاهِداً في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ واللهُ أبْصَرَ فيكَ ما يَختَارُ
واسْأَلْ بِضَيفِكَ كيفَ بَعْدَكَ حالُهُ وقدِ اقْتَضَتْهُ بعدَ دارٍ دارُ
غَدَرَتْ بِهِ أيَامُ عامٍ قَدْ وَفَى أنَّ الوفاءَ بِعَهْدِهِ غَدَّارُ
ودنَا بِهِ أَجَلُ الرَّحيلِ كأنَّهُ أَجَلُ المماتِ دَنَا بِهِ المقدارُ
عامٌ كعُمْرِ الوَصْلِ ليلَةَ زائرٍ وأسًى تقاصَرُ دُونَهُ الأعمارُ
طالَتْ لياليهِ الزَّمانَ بِهَمِّهِ وكأنَّهنَّ من السُّرُورِ قِصارُ
بِمُشَرَّدٍ قَلِقِ الثَّوَاءِ بِمَنْزِلٍ لا يَنْثَنِي فيهِ لَهُ الزُّوَّارُ
مثواي فيهِ تَقَلْقُلٌ وتَأَهُّبٌ وقِرَايَ فيهِ ذِلَّةٌ وصَغَارُ

هذه القراءة وما جاء في ديوان ابن دراج أقرب لنطقها الإسباني ، واليارق ضرب من الأسورة .

وحسابُ أيَّامٍ كأنَّ متاعَها　　　نَوْمٌ عَلَى وَجَلِ البيَاتِ غِرَارُ

وطِلابُ مَأْوًى قبلَ حِينِ أَوَانِهِ　　　فَالدَّهْرُ أَجْمَعُهُ لِيَ اسْتِنفَارُ

لِلَّهِ من عامٍ جَرَى عَنِّي بِهِ　　　جَرْيُ الأَهِلَّةِ فيهِ والأَقْمَارُ

/ في أَهْلِ دَارٍ كالكَوَاكِبِ والنَّوَى　　　بَعْدَ النَّوَى فَلَكٌ بِهِمْ دَوَّارُ [٤٣ب]

كانُوا جَمَالاً للزَّمانِ فأَصْبَحُوا　　　وَهُمْ عَلَيْهِ بالتَّغَرُّبِ عَارُ

تَنْبُو الدِّيارُ بِهِمْ وتِلْكَ ديارُهُمْ　　　غَرَضُ المصائِبِ ما بها دَيَّارُ

قد أَقْفَرُوا وَطَنَ الأَنيسِ وَآنَسَتْ　　　بِهِمُ مفاوِزُ بالفَلاَ وقِفارُ

يتأَوَّهونَ إذا رَمَتْ أَوهامُهُمْ　　　داراً لساكِنِها بها اسْتِقْرَارُ

ويَهِيجُهُمْ عِينٌ لَهُنَّ مرابِضٌ　　　ويَشُوقُهُمْ طَيْرٌ لها أَوْكَارُ

وإِلَيْكَ يا «مَنْصُورُ» حَطُّوا أَرْحُلاً　　　لَعِبَتْ بِهِنَّ تَنَائِفٌ وبِحَارُ

فَزَعًا إِلَيْكَ من الجَلاَءِ بأَوْجُهٍ　　　في كُلِّ عامٍ للجَلاَءِ تُثَارُ

ورأَوْا بقُرْبِكَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا النَّوَى　　　فاسْتُحْيِيَتْ ولها عَلَيْهِمْ ثَارُ

قد طُيِّرَتْ غِرْبَانُ كُلِّ مُغَرِّبٍ　　　وغُرَابُهُمْ للبَيْنِ لَيْسَ يُطَارُ

جُرْأَةً (١) عَلَيْكَ وما رَأَتْ من قَبْلِها　　　خَطْباً له فيمَنْ أَضَفْتَ خِيَارُ

وعَلَى اللَّيَالِي مِنْكَ عَهْدٌ ثابِتٌ　　　أَلاَّ يُبَاحَ لِمَنْ حَمَيْتَ ذِمَارُ

واللهُ قدْ أَعْلَى مَحَلَّكَ أَنْ تُرَى　　　مكشوفَةً في سِتْرِكَ الأَسْتَارُ

---

(١) كذا ضبطها ناسخ الديوان ، وهكذا وردت في «ق» ، ولم أهتد إلى تأويل صالح لها .

وحباكَ بالمُلْكِ الذي لَوْ شِئْتَ لَمْ ... تَضِقِ القُصُورُ بِنَا ولا الأحيار[1]

وأَجَارَ قَدْرَكَ أن يَسُوغَ لِقَائِلٍ ... «جَارَ الزَّمَانُ» وأَنْتَ مِنْهُ جَارُ

ولَحَقٌّ مَنْ أَبْقَى ثَنَاءَكَ في الوَرَى ... أَنْ تَسْتَقِرَّ بِهِ لَدَيْكَ الدَّارُ

— ٤٤ —

وله فيه رحمهما الله حين وصَّل بنت ابن فرذلند إلى زوجها ابن راي مند

[من الطويل]

لَعَلَّ سَنَا البَرْقِ الَّذِي أَنا شَائِمُ ... يَهِيمُ مِنَ الدُّنيا بِمَنْ أَنَا هائِمُ

أَمَا في حَشَاهُ مِن جوايَ مخايلٌ ... أَمَا في ذُرَاهُ من جُفُونِي مَيَاسِمُ

لقد بَرَّحَتْ منه ضُلُوعٌ خوافِقٌ ... وقد صَرَّحَتْ منه دموعٌ سواجِمُ

ونَفْحُ صَبًا يَهْفُو على جَنَبَاتِهِ ... كتَصْعِيدِ أنفاسِي إذا لامَ لائِمُ

وتحنانُ رَعْدٍ صادِعٍ لمُتُونِهِ ... كما زَفَرَتْ نَفْسِي بِمَنْ أنا كاتِمُ

---

(١) الأحيار لعلها جمع حير والحير (بفتحة فسكون) في الأصل شبه الحظيرة أو الحمى ، على أنه في الأندلس اتخذ هذا اللفظ معنى مختلفا ، إذ كان يطلق على الحديقة الكبيرة ، انظر في هذا المعنى والمواضع التي ورد فيها من النصوص الأندلسية : دوزي : ملحق المعاجم العربية ١ / ٣٤٤ — العمود الثاني .

وَمِيضٌ تَشُبُّ الرِّيحُ والرَّعْدُ نارَهُ كما شَبَّ نيرانَ المَجُوسِ الزَّمازِمُ(1)

حَمِيل بِحَمْلِ الرَّاسِياتِ إلى الذي تَحَمَّلَني عنه القِلاصُ الرَّوَاسِمُ(2)

/ وما أَنْجَدَتْ فيه النُّجُودُ تَصَبُّري ولا اتَّهمَتْ وجدي عليه التَّهائِمُ(3) [93ظ]

سوى لَوْعَةٍ لو يَغْلِبُ الصَّبْرُ نارَها لشامَنِيَ البَرْقُ الذي أنا شائِمُ

فإنْ يَسْقِ مَنْ أَهْوى فَدَمْعِيَ مُسْعِدٌ وإنْ يَلْقَهُ دُوني فأَنْفِيَ راغِمُ

كفاني الْتِماحَ الشَّمْسِ والبَدْرِ وَجْهُهُ وما اقْتَبَسَتْ مِنْهُ النُّجومُ العواتِمُ

---

(1) الزمازم جمع زمزمة وهي تراطن المجوس دون إفصاح بأصوات يديرونها في خياشيمهم.

(2) الحميل هو السيل وما يجيء به من الغثاء والطين، والقلاص جمع قلوص وهي الناقة الشابة، والرواسم هي الإبل التي خطت على وجوهها علامات.

(3) لاحظنا في هذا الموضع اختلالا فى ترتيب أوراق المخطوط، فالورقة التي تلي هذه مباشرة (أي رقم 44) تبدأ بأربعة أبيات هي ختام هـذه القصيدة وأولها:

ولانظم الأعداء ما أنت ناثر ولا نثر الأعداء ما أنت ناظم

وواضح أن السياق لايستقيم، مما استنتجنا معه أن ورقة أو أكثر سقطت من المخطوط على الرغم من تسلسل ترقيم الاوراق وانتظامه، على أننا رأينا بعد ذلك أن أبيات الورقتين 93 و 94 ليست إلا التكلة المنشودة لهـذه القصيدة، وآخر بيت في هذه الورقة الاخيرة وهو:

ولا ختمت عنك الليالي سريرة ولا فضت الايام مـا أنت خاتم

ينسجم تماما مع أول أبيات الورقة رقم 44 الذي أوردناه، ولهذا فقد أعدنا لأبيات القصيدة ترتيبها الطبيعي المنطقي كما يرى، هذا وقد تأكد لنا ذلك بعد أن رأينا المخطوطة «ق» تورد هذه القصيدة كلها على النسق الذي أوردناها به.

وما تَجْتَني من طِيبِ أَرْدَانِهِ الصَّبا ومن وَرْدِ خَدَّيْهِ الرِّيَاضُ النَّوَاعِمُ
فَلَهفي على قَرْنٍ من الشَّمْسِ ساطِعٍ تَجَلَّلَهُ كِسْفٌ من اللَّيْلِ فاحِمُ
إذا زارَني أَعْشَى جُفُونَ رَقيبِهِ وأَخْرَسَ عَنِّي ما تقولُ اللَّوَائِمُ
وآذَنَ أنفاسِي ونَفْسِي بِنَشْرِهِ ورَيَّاهُ أنفاسُ الرِّياحِ النَّوَاسِمُ
وبَشَّرَني مِنْ قَبْلِهِ صَوْتُ حَلْيِهِ تُجَاوِبُهُ فوقَ الغصونِ الحمائِمُ
إلى مُلْتقىً قَلْبَيْنِ ضَمَّ عَلَيْهما جوانِحَهُ جُنْحٌ مِنَ الليلِ عاتِمُ
ومُعْتَنَقٍ كالجَفْنِ أُطْبِقَ نائِماً على ضَمِّ إنسانَيْنِ والدَّهْرُ نائِمُ
فَبِتْنَا وقاضِي الوَصْلِ يَحْكُمُ في الهوى وغانِمُ قلبي بالحكومَةِ غارِمُ
أَمُصُّ من الكافورِ مِسْكاً وأَجْتَني من الوَشْيِ رُمَّاناً زَهَتْهُ المَقَادِمُ
وَيَرْجِعُ رُوحَ النَّفْسِ ما أنا ناشِقٌ ويَجْبُرُ صَدْعَ القلبِ ما أنا لاثِمُ
وأَرْشُفُ من حَصْبَاءِ دُرٍّ وجوهَرٍ رحيقَ مُدامٍ سُكْرُهُ بِيَ دائِمُ
وفي كَبِدِي حَرٌّ مِنَ الشَّوْقِ لاعِجٌ وفي عَضُدِي غُصْنٌ من البانِ ناعِمُ
يُقِرُّ هواهُ أَنَّهُ لِيَ قاتِلٌ وقَلْبِي لَهُ مِنْ جَفْوَةِ الشَّوْقِ راحِمُ
أُجَنِّبُ أنفاسِي أزاهِرَ حُسْنِهِ لِعِلْمِيَ أَنَّ النَّوْرَ بالنَّارِ ساهِمُ
وأُغْمِضُ لَحْظِي عَنْ جَنَى وَجَنَاتِهِ مَخافَةَ أَنَّ السَّهْمَ لِلوَرْدِ حاطِمُ
وما صَرَعَ القتلى كَعَيْنَيْهِ صارِعٌ ولا كَلَمَ الجرحى كَصُدْغَيْهِ كالِمُ
فإنْ أَشْفِ وجدي من تباريحِ ظلْمِهِ بِضَمِّي لَهُ أَيْقَنْتُ أَنِّيَ ظالِمُ

وإنْ أخي نفسي فيه من ميتةِ الهوى … بلثْمي لهُ لمْ أعْدُ أنّيَ آثِمُ

فكيفَ وقد غارتْ به أنجُمُ النوى … وقيِّدَ دُونَ الماءِ حرّانُ هائمُ

متاعٌ من الدنيا أراني فِراقُـهُ … بعيْنِ النُّهى والحِلْمِ أنّيَ حالِمُ

وقـد صرَمَتْـهُ حادِثاتٌ كأنَّهـا … بيُمْناكَ يا«مَنْصُورُ» بيضٌ صوارِمُ

/ يُضَرِّمُها أمثالَهُنَّ كتائِبٌ … يُقَدِّمُهـا أشْباهُهُنَّ عَزائِمُ [٩٣ ب]

أسِنَّتُهـــا لِلمُهْتَـدِينَ كواكِبٌ … وأعلامُهَا لِلمُسْلِمِينَ مَعالِمُ

وآثارُهـا في الأرْضِ أشْلاءُ كافِرٍ … وغاوٍ وفي جوِّ السماءِ غمائِمُ

وفي كَبِدِ الطّاغُوتِ منها صوارِعٌ … وفي فِقَرِ الشَّيْطانِ منها قواصِمُ

بكل تُجيبِيٍّ إليكَ انْتِسابُـهُ … وإنْ أنْجَبَتْـهُ تَغْلِبٌ والأراقِمُ

ومُختارِ يمناكَ العَلِيَّةِ نِسْبَـةً … وانْ سَفَرَتْ يَرْبُوعُ عنها ودارِمُ

وأذْهَلَهُمْ جِدْوَاكَ عن كلِّ مَفْخَرٍ … وإن فَخَرَتْ ذُهْلٌ بها واللَّهازِمُ (١)

أُسُودٌ إذا لاقَوْا وَطَيْرٌ إذا دُعُوا … أيَامِنُهُمْ لِلمُعْتَدِينَ أشائِمُ

تَلَمَّظُ في الأيْسَارِ مِنْهُمْ أساوِدٌ … وتَهْتَزُّ في الأيْمانِ منهم أراقِمُ

ظِماءٌ وما غَيْرَ الدماءِ مشارِبٌ … لَهُنَّ ولا غَيْرَ القلُوبِ مطاعِمُ

غَرَسْتَ الفلاَ منها غِياضاً أرُومُهَا … حُماةُ الحِمَى والصّافِنَاتُ الصَّلادِمُ (٢)

---

(١) اللهازم مجموعة من القبائل العربية تتألف من عجل وتيم اللات وقيس ابن ثعلبة وعنزة .

(٢) الصلادم جمع صلدم بكسر الصاد والدال ويعني بها الخيل الشديدة الصلبة .

إذا مادَنَتْ مِنْ شِرْبِهَا أَجْنَتِ الرَّدى ... وكان جَنَاهُنَّ الطُّلى والجَماجِمُ

فأَنْسَتْكَ يا «مَنْصُورُ» رَوْضَ حَدائِقٍ ... تُلاعِبُ فيهِنَّ المُنَى وتُنَادِمُ

يضاحِكُ في أَرْضِ الزُّمُرُّدِ شَمْسَهَا ... دنانيرُ من ضَرْبِ الحَيَا ودَرَاهِمُ

وأَلْهَتْكَ عن لَيْلٍ كواكِبُهُ المَهَا ... وعَنْ أَبْرُجٍ أَقمارُهُنَّ الكَرائِمُ

وما شُغِلَتْ يُمْنَاكَ عن بَذْلِ ما حَوَتْ ... وإنْ غارَ مِنْهُنَّ النَّدى والمَكارِمُ

فخاصَمْنَ بِيضَ الهِنْدِ فيكَ إلى العُلا ... وحَقٌّ لِمَنْ في القُرْبِ منكَ يُخَاصِمُ

فإِنْ عَزَّها من صِدْقِ بَأْسِكَ شاهِدٌ ... فقدسَنَّها مِنْ عَدْلِ حُكْمِكَ حاكِمُ

بِيَوْمٍ إلى الهَيْجَا ويومٍ إلى النَّدى ... وما عالَ مَقْسُومٌ ولا جارَ قاسِمُ (١)

ونُودِيتَ يَوْمَ الجودِ للسِّلْمِ في العِدى ... فَجُدْتَ بِهِ والمُرْهَفَاتُ رَوَاغِمُ

حِذاراً عَلَى إِلْفِ الهَوى غُرْبَةَ النَّوى ... وما إِلْفُها إلاَّ الوَغَى والمَلاحِمُ

وعَوَّدْتَهَا طُعْمَ السِّبَاعِ فأَشْفَقَتْ ... بإِغبابِهِ أَنْ تَدَّعِيهِ البَهَائِمُ

وكَلَّفْتَها رِزْقَ الذِّئابِ فأَحْشَمَتْ (٢) ... لِذيبٍ عَوَى تحتَ الدُّجى وَهْوَ صائِمُ

ومَنَّيْتَهَا نَفْسَ «ابْنِ شَنْجٍ» فأَسْمَحَتْ ... مُسَالَمَةً من بَعْدِهِ مَنْ تُسَالِمُ

عَلَى أَنَّ بَعْضَ العَفْوِ قَتْلٌ ومَغْنَمٌ ... وما رَدَّ رِبْحَ المُلْكِ في الحَرْبِ حازِمُ

[٩٤ أ] / فإِنَّ قتيلَ السَّيْفِ للذِّيبِ مَطْعَمٌ ... وإِنَّ قتيلَ العَفْوِ للمُلْكِ خادِمُ

فيَا أَبْرُوقٍ لم يَزَلْنَ صواعِقاً ... عَلَى الكُفْرِ غَيْثُ الأَمْنِ منهنَّ ساجِمُ

---

(١) عال أي نقص.

(٢) أحشم أي أغضب وأخجل.

تُقَطَّعُ بالأمْسِ الرِّقَابَ وَوُصِّلَتْ بِهَا اليَوْمَ أَرْحَامٌ لَهُمْ ومَحَارِمُ
غَدَتْ وَهْيَ أَعْرَاسٌ لَهُمْ وَعَرَائِسٌ وبالأَمْسِ مَوْتٌ فِيهِمُ ومآتِمُ
بِعَقْدٍ بِنَاهِ أَنْتَ شِدْتَ بِنَــاءَهُ وليسَ لَهُ في الأَرْضِ غيرَكَ هادِمُ
«فِرَنْجَةُ» أَعْلاهُ و«قَشْتِلٌ» أُسُّهُ[1] وسَلْمُكَ أَرْكانٌ لَهُ وَدَعائِمُ
فَمَلَّكْتَ تاجَ المُلْكِ تَاجَ مَلِيكَةٍ لتاجَيْهِما تَعْنُو الملوكُ الخَضَارِمُ
وَتَوَّجْتَها فَوْقَ الأَكاليلِ والذُّرَى خَوَافِقَ تَغْشَاها النُّسُورُ القَشَاعِمُ
وحَلَّيْتَها بَعْدَ الدَّمَالِيجِ والبُرَا حُلِيًّا لآلِيــهِ القَنَا والصَّوارِمُ
وَضَمَّخْتَها من طِيبِ ذِكْرِكَ في الوَرَى بأَضعافِ ما تُهْدِي إِلَيْهَا اللَّطائِمُ[2]
ونَظَّمْتَ آفاقَ الفَــلاَ لِزِفَافِهـا خيولاً حَمَتْ ما قَلَّدَتْها النَّوَاظِمُ
مُنًى كانَ فيها «لابْنِ شَنْجٍ[3]» مَنِيَّةٌ يُغَرْغِرُ منها رَاهِقُ الرُّوحِ كاظِمُ[4]

---

(١) يكرر ابن دراج هنا الاشارة إلى كون الذكر في هذا الصهر الذي أتم عقده منذر بن يحيى كانت من « فرنجة » ويعني الاندلسيون بهذه الكلمة في الغالب نصارى إمارة برشلونة ، أما الأنثى فكانت من قشتالة (انظر تعليقنا على القصيدة السابقة ص ١٥١ – ١٥٢) .

(٢) جمع لطيمة وهي العير التي تحمل المسك والطيب .

(٣) « ابن شنج » المقصود هنا هو « شانجه بن غرسية » ملك نبره Navarra ويبدو من هذا البيت أن الصهرين أميري برشلونه وقشتالة والحلف بينهما بتدبير منذر لم يكن يتمشى مع سياسته ولامصالحة ، وهو ما لا تسهب في الحديث عنه المراجع المسيحية .

(٤) الغرغرة هي تردد الروح في الحلق ، وراهق أي هالك .

مَرَجْتَ عَلَيْهِ لُجَّ بَحْرَيْنِ يَلْتَقِي ... عَلَى نَفْسِهِ تَيَّارُهُ المُتَلاطِمُ
وغادَرْتَهُ ما بَيْنَ طَوْدَيْنِ أَطْبَقَا ... حُتُوفاً تُصَادِي[1] نَفْسَهُ وتُصَادِمُ
وأَسْلَمَهُ الأَشْيَاعُ بَوَّا بِقَفْرَةٍ ... سَرَايَاكَ أَظْآرٌ عليه رَوَائِمُ
فَلَيْسَ لهُ مِنْ « ناصِرِ الدِّينِ » ناصِرٌ ... وليس له من عاصِمِ المُلْكِ عاصِمُ
وقد صَدَرَتْ عَنْهُ خيولُكَ آنِفاً ... وأَحْشَاؤُهُ فَيْءٌ لها ومَغَانِمُ
أَقاطِيعُ مِلْءَ الأَرضِ أَصْوَاتُ خَيْلِها ... وأنعامِها عَمَّا يُكِنُّ تَرَاجِمُ
يُناجِي نُفُوساً حازَهُنَّ غَنائِماً ... بأَمْنِكَ قد حانَتْ عَلَيْها المغارِمُ
وأَفْعَالُ خَفْضٍ كنت تَشْكُلُها لَهُ ... بِرَفْعِكَ قد أَوْفَتْ عَلَيْها الجَوَازِمُ
بغَزْوَةِ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ ثائِرٍ ... عزائِمُهُ في النَّاكِثِينَ هَزَائِمُ
وكم طَمَسَتْ عَيْنَيْهِ بَرْقَةُ مُقْدِمٍ ... تَلأْلأُ فيها مَجْدُكَ المُتَقَادِمُ
تَجَلَّلَها جَدَّاكَ : عَمْرُو وتُبَّعٌ ... وأَعْقَبَها عَمَّاكَ : كَعْبٌ وحَاتِمُ
ومَنْ أَعْرَبَتْ فيهِ أَعاظِمُ يَعْرُبٍ ... فَمُسْتَصْغَرٌ في أَصْغَرَيْهِ العَظَائِمُ
مآثِرُ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِنَّ سابِقٌ ... ولا رامَها من قَبْلِ سَعْيِكَ رائِمُ
[٩٤ب] / كَسَا العَرَبَ العَرْبَاءَ مِنْهُنَّ مَفْخَرٌ ... تُصَلِّبُ مِنْهُ الوُجُوهِ الأَعاجِمُ
وشِدْتَ بها في الرُّومِ والقُوطِ رِفْعَةً ... تُسَامِي بها عِنْدَ السُّهَا وتُزَاحِمُ
وصَرَّتْ بِها أَقْلامُ ضَيْفِكَ صَرَّةً ... تُصِرُّ[2] لها الآذانَ بُصْرَى وجَاسِمُ

---

(١) أي تعارض .
(٢) صر بأذنه وأصر بها أي سواها ونصبها للاستماع .

فَزَوَّدَهَا الرُّكْبَانَ شَرْقاً ومَغْرِباً ... ووافَتْ بها جَمْعَ الحَجِيجِ المَوَاسِمُ
وما لِيَ لا أُبْلِي بِذِكْرِكَ في الوَرَى ... بَلاءً تَهَادَاهُ القُرُونُ النَّوَاجِمُ
وأُطْلِعُهُ شَمْساً عَلى كُلِّ أُمَّـةٍ ... يُـكَذِّبُ فيها عن سَنَا الشَّمْسِ زَاعِمُ
فَيَحْسُدُنِي فيكَ العِرَاقُ وشَامُهُ ... وإيَّاكَ فِيَّ عَبْدُ شَمْسٍ وهاشِمُ
بُخِسْتُ إذَنْ سَعْيِي إلَيْكَ وهِجْرَتِي ... وما حَمَلَتْ مِنِّي إلَيْكَ المَنَاسِمُ[1]
وبَيْنَ ضُلُوعِي بِضْعَ عَشْرَةَ مُهْجَةً ... ظِماءٌ إلى جَدْوَى يَدَيْكَ حَوَائِمُ
تَلَذُّ الليالي لَحْمَهَا ودِمَاءَهـا ... وطَعْمُ اللَّيَالِي عِنْدَهُنَّ عَلاَقِمُ
قطعتُ بِهِنَّ الليلَ والليلُ جامِدٌ ... وخُضْتُ بِهِنَّ الآلَ والآلُ جاحِمُ
إذا مَلأَ الهَـوْلُ المُميتُ صُدُورَهَا ... تَحَرَّكَ من ذِكْرَاكَ فيها تَمَائِمُ
عَلى شَدَنِيَّاتٍ[2] تَطِيرُ بِرُكْنِها ... إلَيْكَ خُطوبٌ في القلوبِ جَوَاثِمُ
فكم غالَ من أجسامِها غَوْلُ قَفْرَةٍ ... وخَرَّمَ من أَلْبَابِهِنَّ المَخَارِمُ[3]
وكم عَجَزَتْ عنَّا ذواتُ قوائِمٍ ... فَعُجْنَا بِعُوجٍ ما لَهُنَّ قوائِمُ
جآجِىءُ[4] غِرْبَانٍ تطيرُ لَنَا بِهـا ... عَلَى مثلِ أَطْوَادِ الفَيَافِي نَعَائِمُ

---

(١) جمع منسم وهو طرف خف البعير.
(٢) هي الإبل المنسوبة إلى شدن اسم موضع باليمن.
(٣) جمع مخرم (بفتح الميم وكسر الراء) وهو الطريق في الجبل.
(٤) جمع جؤجؤ وهو الصدر.

لها من أَعاصِيرِ الشِّمالِ إذا هَوَتْ خَوَافٍ ومن عَصْفِ الجَنُوبِ قوادِمُ

يُحَاجَى بِها : ما حَامِلٌ وَهْوَ راقِدٌ ؟ وما طائِرٌ في جَوِّهِ وَهْوَ عائِمُ ؟

سَرَتْ مِنْ عَصَا مُوسَى إِلَيْهِ قَرَابَةٌ فَطَبٌّ بِفَلْقِ البَحْرِ والصَّخْرِ عالِمُ

وشاهَدَ لَقْمَ الحُوتِ يُونُسَ فاقْتَدَى فعَادٍ وسارٍ وَهْوَ للسفْرِ لاقِمُ

أُعُوذُ بِقَرْعِ المَوْجِ في جَنَبَاتِها إِلَيْكَ بِنَا أَن يَقْرَعَ السِّنَّ نادِمُ

وما عَبَّرَتْ عَنْهُ جُسُومٌ نَوَاحِلٌ وما حَسَرَتْ عَنْهُ وجوهٌ سَوَاهِمُ

وما كَتَبَتْ في واضِحَاتٍ وُجُوهِنا إِلَيْكَ الدَّيَاجِي والرِّياحُ السَّمائِمُ

فلا رَجَعَتْ عَنْكَ الأَماني حَسِيرَةً ولا فُزِّعَتْ مِنَّا لَدَيْكَ التَّمَائِمُ

ولا خَتَمَتْ عَنْكَ اللَّيالِي سَرِيرَةً ولا فَضَّتِ الأَيَّامُ ما أَنْتَ خاتِمُ

[٤٤م] / ولا نَظَمَ الأَعْدَاءُ ما أَنْتَ ناثِرٌ ولا نَثَرَ الأَعداءُ ما أَنْتَ ناظِمُ

ولا عَدِمَ الإِشْرَاكُ أَنَّكَ ظافِرٌ ولا عَدِمَ الإِسْلَامُ أَنَّكَ سالِمُ

ولا زَالَ للسيفِ الحَنِيفِيِّ قائِمٌ وأَنْتَ بِهِ في طاعَةِ اللهِ قائِمُ

جِهادٌ عَلَى الكُفَّارِ بالنَّصْرِ مُقْدِمٌ ووَجْهٌ عَلى الإِسْلَامِ بالفَتْحِ قادِمُ

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى[١]

[من الكامل]

قُلْ للرَّبيعِ اسْحَبْ مُلاَءَ سحائِبِ[٢] فاجْرُرْ ذُيُولَكَ في مَجَرِّ ذَوَائِبِي
لا تُكْدِيَنَّ[٣] ومن وَرَائِكَ أَدْمُعِي مَدَداً إليْكَ بِفَيْضِ دَمْعٍ ساكِبِ
وصَبَابَةٌ أَنفاسُهَا لَكَ أُسْوَةٌ إنْ ضاقَ ذَرْعُكَ بالغَمامِ الصَّائِبِ
وامزِجْ بِطِيبِ تَحِيَّتِي غَدِقَ الحَيَا فاجْعَلْهُ سَقْيَ أَحِبَّتِي وحَبائِبِي
عهداً كَعَهْدِكَ من عِهَادٍ طَالَمَا كَسَتِ البُرُودَ معاهِدِي ومَلاَعِبِي
واجْنَحْ لِقُرْطُبَةٍ فَعانِقْ تُرْبَهَا عَنِّي بِمِثْلِ جوانِحِي وتَرَائِبِي
حَيْثُ اسْتَكَانَتْ للعفَاءِ منازِلِي وهَوَتْ بأفلاذِ الفؤادِ نَجَائِبِي
ذُلُلاً تَعَسَّفْنَ الدُّجى بأَذِلَّةٍ ولواغِباً جُبْنَ الفَلاَ بلَوَاغِبِ
وكواكِبٌ ناءَتْ بِغُرْبَتِها النَّوى فقَضَتْ مدامِعُها بِنَوْءِ الغارِبِ
من كُلِّ مَفْجُوعٍ بِتَرْحَةِ راحِلٍ لم يُسْلِهِ طَمَعٌ بفَرْحَةِ آيِبِ

---

(١) أورد الحميدي من هذه القصيدة مطلعها وأربعة أبيات أخرى . انظر « جذوة المقتبس » ص ١٠٥ ؛ ونقلها عنه الضبي في بغية الملتمس ص ١٥٠ .

(٢) في الجذوة : سحائبي .

(٣) في الجذوة : لاتكذبن ولا معنى لها هنا ، وأكدي المطر أي قل وبخل .

كَذَبَتْهُ بارِقَةُ المُنَى عن صادِقٍ | من ظَنِّهِ وصَدَقْتَهُ عن كاذِبِ
ظُعُنٌ سَرَيْنَ الليلَ ضَرْبَةَ لازِمٍ | وسَرَى إلَيْهَا الهَمُّ ضَرْبَةَ لازِبِ
جَمُدَتْ عليهِنَّ القُلوبُ فَأَسْبَلَتْ | فَوْقَ المحاجِرِ كُلَّ قَلْبٍ ذائِبِ
وتخازَرَتْ عنها العُيُونُ فأبْرَزَتْ | عن أَعْيُنٍ بِدِمَائِهِنَّ سَوَاكِبِ
وتَقَطَّعَتْ أسبابُهُنَّ لِطِيَّةٍ | وَصَلَتْ بِهِنَّ سباسِباً بِسباسِبِ
يَطْلُبْنَ شَأْوَ غرائبٍ لِيَ كُلَّمَا | نَأَتِ البلادُ حَلَلْنَ غَيْرَ غَرائِبِ
لَحِقَتْ بأَسْبَابِ السَّمَاءِ فَأُعْطِيَتْ | فيها خُلُودَ أَهِلَّةٍ وكَوَاكِبِ
وأَعَدَّتِ الأَزْمَانُ مَاءَ شَبَابِهـا | لِحُنُوِّ ظَهْرٍ أَوْ لِرَأْسٍ شائِبِ
وعَقَدْنَ بالأَبَدِ الأَبيدِ وإنْ نَأَى | حِلْفَيْنِ : حِلْفَ مُسايِرٍ ومُعاقِبِ
ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً وتقاذَفَتْ | أَمْوَاجُـــهُ بشَمَائِلٍ وجَنائِبِ
[٤٤ب] / هَدَماً إلى هَدَمٍ وحِفْظَ دَمٍ دَماً[1] | حَدَبٌ بعَطْفِ مُشَاكِهٍ[2] ومُنَاسِبِ
زُهْرٌ طوالِعُهـا لِكُلِّ غَدٍ غَـدٌ | وجَزَاؤُهَا رَهْنٌ بأَمْسِ الذَّاهِبِ
تَشْدُو بِهَا خُضْرُ الحَمَامِ وَحَظُّهَا | عَنْقَاءُ رِيعَتْ بالغُرَابِ النَّاعِبِ[3]

---

(١) الهدم هو القبر ، والعرب تقول : دمي دمك وهدمي هدمك وذلك عند المعاهدة والنصرة ، ومنه قول النبي (ﷺ) : بل الدم الدم والهدم الهـدم أنا منكم وأنتم مني .

(٢) في الاصل : متشاكه وقد قومناها بما أثبتنا حتى يستقيم الوزن ، وهكذا وردت في «ق» .

(٣) في الاصل : ... وحطها عنقاء ...

حَلَّيْتُهَا الأرْضَ الَّتِي هِيَ فارِكِي ... وكَسَوْتُهَا الدَّهْرَ الذي هُوَ سالِبِي
ومَلأْتُ مِنْهُنَّ العُقُولَ عَجَائِباً ... ولَنَقْصُ حَظِّي مِنْ تَمَامِ عَجَائِبِي
مَيْتُ الرَّغَائِبِ والمَسِيحُ مُوَرِّثِي ... إحْيَاءَ آثَـــارِي وخُلْدَ مَنَاقِبِي
بِشَوَارِدٍ في الأَرْضِ غيرِ أوابِدٍ ... وطوالِـعٍ في الجَوِّ غَيْرِ غَوارِبِ
ولقد قَضَيْتُ من الصَّبَابَةِ حَقَّهَا ... فَقَضَتْ من الأَمَلِ البعيدِ مآرِبِي
قَنَّعْتُهَا الصَّبْرَ الجَمِيلَ فَأَسْفَرَتْ ... في آلِ «يَحْيَى» عن جميلِ عواقِبِ
وشَدَدْتُ عَقْدَ خِتَامِها فاسْتَفْتَحَتْ ... بمكارِمِ «المنصورِ» ضِيقَ مَذَاهِبِي
فَهَلْ أنتَ يا زَمَنَ الرَّبيعِ مُبَلِّغٌ ... بالمَغْرِبَيْنِ أَحِبَّتِي وأقارِبِي
— أنَّ الربيعَ لَدَيَّ شِيمةُ قاطِنٍ ... وحَيا الغمامِ عَلَيَّ دِيمَةُ دائِبِ
من بعدِ ما غَمَّ الصَّباحُ لِناظِرِي ... واشْتَفَّ مِنِّي البَحْرُ جَرْعَةَ شارِبِ
وأَنِسْتُ بالأهوالِ حَتَّى لَمْ أُبَلْ ... أَلِقاءُ أُسْدٍ أَمْ لقـــاءُ ثَعالِبِ
كَمْ أَنْشَبَتْ فِيَّ الخطوبُ مخالِباً ... حتى انْثَنَتْ عَنِّي بغيرِ مخالِبِ
وشَفَيْتُ سُمَّ عَقارِبٍ بأَساوِدٍ ... ودَفَعْتُ سُمَّ أَساوِدٍ بعقـارِبِ
حتى نَزَفْنَ سُمومَهُنَّ فلَمْ يَرُعْ ... من نافِثاتِ السُّمِّ ليلُ الحاطِبِ
وسَدِكْتُ (١) بالغَمَرَاتِ حتى بَلَّدَتْ ... فَرَمَيْنَ حَبْلِي فوقَ ذِرْوَةِ غارِبِ
وتدارَكَتْنِي ذِمَّةٌ من يَعْرُبٍ ... مَطَرَتْ عَلَيَّ ثِمارَ جَنَّةِ مارِبِ

---

(١) سدك بالشيء أي لزمه.

فهناكَ أَنْصَلْتُ الأَسِنَّةَ وانْتَحَى سيفي بها مَسْحاً بِسُوقِ ركائبي
ورفَعْتُ ناراً للعيونِ وقُودُهَا أَقْتَابُ أَحْدَاجِي وَوَقْرُ[1] حقائبي
نَعَمْ تكاد تَرُدُّ أَيَّامَ الصِّبَا وتُعيدُ أَزْمَانَ النَّعِيمِ الذَّاهِبِ
أَيَّامَ أَلْقى الصُّبْحَ تِرْبَ كواكِبِ أَدَباً وأُحْيِي اللَّيْلَ خِلْبَ كواعِبِ
والمَكْرُمَاتُ منازِلِي ومشاهِدِي والمُقْرَبَاتُ مراكِبِي ومَرَاقِبِي[2]
إِذْ أَنْتَ يا زَمَنَ الرَّبِيعِ مُخَيِّمٌ في ساحِلِي ومُغَيِّمٌ من جانِبِي
[٤٥ م] / عَبِقُ الرَّوائِحِ من نَثِيرِ غدائِرِي غَدِقُ السَّحَائِبِ من فُضُولِ مشارِبِي
وتَرُوحُ مُغْتَبِقاً شَمُولَ شمائِلِي وتعُودُ مُصْطَبِحاً ضَرِيبَ ضَرَائِبِي[3]
تَغْدُو فتَسْتَمْلِي بديعَ محاسِنِي وتَرُوحُ تَسْتَقْرِي نفيسَ غرائِبِي
وتبيتُ تنشُرُ في الأَبَاطِحِ والرُّبَى[4] زَهْراً يُخَبِّرُ عنكَ أَنَّكَ كاتِبِي
مِمَّا تَرِفُّ بِهِ رياضُ حدائِقِي ويُفِيضُ جَوْهَرَهُ عُبَابُ غوارِبِي
فَنَظَمْتُهَا في كُلِّ أُفْقٍ نازِحٍ وبعَثْتُهَا مَعَ كُلِّ نَجْمٍ ثاقِبِ
ونَظَمْتُ يا «مَنْصُورُ» ذِكْرَكَ وَسْطَهَا نَظْمَ العُقُودِ على تَرَائِبِ كاعِبِ
ذِكْرٌ على الأَلْبابِ أَكْرَمُ نازِلٍ وعَلَى فِجَاجِ الأَرْضِ أَوْضَحُ راكِبِ
سُوَرٌ لِمَجْدِكَ رَفَّعَتْ آياتِهَا أَعْلامُ آدابِي وذِكْرُ مناقِبِي

(١) في الاصل : ووفر .
(٢) في (ق) : ومراتبي .
(٣) الضريب هو اللبن ، والضرائب جمع ضريبه وهي الخليقة والسجية .
(٤) في الجذوة : وانشر على تلك الاباطح والربى .

بفواتِـحٍ من كُلِّ مَدْحٍ سائِرٍ وخواتِمٍ من كُلِّ حَمْدٍ ذاهِبِ[1]
فاسْتَشْرَفَ الثَّقَلانِ أَخْطَبَ شاعِرٍ وأَصاخَتِ الدُّنيا لأَشْعَرِ خاطِبِ
فَخَطَبْتُ والعَوَّاء[2] بَعْضُ منابِرِي وأَمَمْتُ والجوزاء بعض محَارِبي
وكَتَبْتُ منهـــا لِلَّيَالِي مُصْحَفاً تتلوهُ أَلسِنَةُ الزَّمانِ الدَّائِبِ
حتى تركتُ سَنَاءَ مُلْـكِكَ حاضِراً في كُلِّ أُفْقٍ عن بلادِكَ غائِبِ
وجَلَوْتُ للدنيا مثالَكَ في الوَغَى تختـــالُ بين ذوابِلٍ وقَواضِبِ
وأَرَيْتُكَ الأُمَمَ الخُلُوفَ مُتَوَّجاً بخوافِقٍ ومُكَلَّلاً بكتـــائِبِ
ورفَعْتُ سِتْرَ الليلِ عنكَ لِغَابِرٍ ومُقَدَّمٍ ومُبــاعِدٍ ومُقارِبِ
حتَّى أَرَيْتُهُمُ السَّنَا تحتَ الدُّجى وخيالَ سَارٍ في مَخِيلَةِ سارِبِ
طَيَّارَ بَارِقَةِ الوَغَى بِقَـــادِمٍ كَقَوَادِمٍ ومَوَاكِبٍ كَمنـــاكِبِ
حَتَّى «ابْنُ شَنْجٍ» يَوْمَ أَمَّكَ خاضِعاً تَسْعَى إِلَيْكَ بِهِ نَدَامَـــةُ تائِبِ
مِنْ بَعْدِ مَا رَازَ[3] البلادَ فَلَمْ يَجِدْ في الأَرْضِ عن مأْواكَ مَهْرَبَ هارِبِ
ورأَى الضَّلاَلَ عَلَيْكَ أَضْعَفَ ناصِرٍ ورأَى الفِرَارَ إِلَيْكَ أَيْمَنَ صَاحِبِ

---

(١) في الاصل وفي «ق» : واصب ، ولا معنى لها هنا ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٢) العواء هي أربعة كواكب ثلاثة متفرقة والرابع قريب منها وبه سميت العواء كأنه يعوي إليهـا عواء الذئب ، وقد أراد الشاعر أن يقابل بهـا الجوزاء في الشطر الثاني ، وهي بروج السماء .

(٣) راز أي امتحن وجرب ، وقد تكون «راد» ، وفي «ق» : زار .

وَدعاكَ مُعْتَرِفاً بِذِلَّةِ مُذْنِبٍ ... وأتاكَ مُشْتَمِلاً بِلِبْسَةِ راهِبِ
ولقد تَراءَتْ في ذَراكَ مطالِعِي ... حينَ اسْتَبَدَّ تَغَرُّبِي بِمَغَارِبِي
فَخَتَمْتَ طُولَ تَقَلُّبِي بِتَقَبُّلِي ... وجَزَيْتَ غُرَّ غرائِبِي بِرَغَائِبِ
[٤٥ب] / وأجَرْتَنِي من كُلِّ خَطْبٍ طارِقٍ ... حتَّى مُناجاةِ الرَّجاءِ الخائِبِ
ووَجَدْتُ عند يَدَيْكَ سَدَّ مَفَاقِرِي ... وسُلُوَّ أَحزانِي وبُرْءَ مصائِبِي
ولقد تَجَلَّى العيدُ عَنْكَ بِغُرَّةٍ ... جَلاَّءَةٍ لِفَوَادِحٍ وغَيَاهِبِ
يتلوكَ حاجِبُكَ الذي أَنْجَبْتَهُ ... كالشَّمْسِ إِذْ ضَرَبَتْ إِلَيْكَ بِحاجِبِ (١)
في مَشْهَدٍ بِسَنَا جبينِكَ مشرقٍ ... شَرِقٍ بآسادٍ وجُرْدٍ سَلاَهِبِ
غُرٍّ تَوَاعَدُ للطِّعَانِ صَواهِلٍ ... تختالُ بَيْنَ مُخَاطِبٍ ومُجاوِبِ
حتَّى ارْتَقَيْتَ سريرَ مُلْكِكَ حَفَّهُ (٢) ... نُورُ السرورِ جوانباً بِجوانِبِ
ومَدَدْتَ للتَّقْبِيلِ راحَةَ مُنْعِمٍ ... تَنْهَلُّ أَنمُلُها بُحُورَ مَوَاهِبِ
وتكادُ تهتِفُ عَنْكَ: هَلْ مِنْ راغِبٍ ... أو راهِبٍ أو خائفٍ أو طالِبِ؟
فاسْلَمْ وكُنْ للأَرْضِ آخِرَ عامِرٍ ... ولغالِبِ الأَعْداءِ أَوَّلَ غالِبِ

---

(١) يشير هنا إلى يحيى بن منذر بن يحيى .
(٢) في الاصل : حقه ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

وله فيه أيضا[1] وذكر قدوم الاستاذ صاعد أبي العلاء البغدادي عليه رحمة الله تعالى عليهم (*)

[من الطويل]

أَبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يرى يَدَكَ العُلْيا ... فَيُبْلِيَها سَعْداً وتُبْلِيَهُ سَعْيَا
ويُوسِعَها سَقْياً ورَعْياً كَمِثْلِ مَا ... سَمَتْ للمُنى سَقْياً وسامَتْ بها رَعْيَا
وأيُّ حياً في الشَّرْقِ والغربِ للوَرَى ... وأيُّ حِمًى للملكِ والدِّينِ والدُّنْيا
وأيُّ فتًى والنفسُ كاذِبَةُ المُنى ... وأيُّ فتًى والحربُ صادِقَةُ الرُّؤْيا
عَلاَ فَحَوَى ميراثَ عادٍ وتُبَّعٍ ... بِهِمَّتِهِ العُلْيا ونِسْبَتِهِ الدُّنْيا

---

(١) اختار ابن بسام من هذه القصيدة تسعة وعشرين بيتا (انظر الذخيرة ق ١ — ١ / ٥٤ — ٥٦) وأورد الحميدي منها أربعة أبيات (الجذوة ص ١٠٥) .

(*) هو أبو العلاء صاعد بن أحمد الربعي البغدادي ورد من المشرق إلى الاندلس في نحو سنة ٣٨٢ في عهد المنصور بن أبي عامر وكان مقربا إليه وإلى ابنه المظفر من بعده ، وقد أزعجته الفتنة عن قرطبة فتردد على بعض ملوك الطوائف ، ويبدو أنه قصد منذر بن يحيى بسرقسطة في سنة ٤٠٨ (١٠١٨) ، ثم خرج إلى صقلية فمات بها سنة ٤١٧ (١٠٢٦) . انظر جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي — ترجمة الدكتور حسين مؤنس — ص ٦٦ ؛ : وبحث الأستاذ بلاشير عن صاعد البغدادي في مجلة « إسبريس » ، المجلد العاشر ، سنة ١٩٣٠ ، ص ١٥ — ٣٦ .

فأَعْرَبَ عن إِقْدَامِ (١) يَعْرُبَ واحْتَبى ... فلَمْ يَنْسَ من هُودٍ سَناءً ولا هَدْيا

ومِنْ «حِمْيَرٍ» رَدَّ القَنا أَحْمَرَ الذُّرى ... ومِنْ سَبَإٍ » قادَتْ كَتائِبُهُ السَّبْيا

وما نامَ عنهُ عِرْقُ «قَحْطَانَ» إذْ فَدى ... عُروقَ الثَّرى من غُلَّةِ القَحْطِ بالسُّقْيا

ولا أَسْكَنَتْ عَنْهُ «السَّكُونُ» سِيادَةً (٢) ... ولا رَضِيَتْ « طَيٌّ» لراحَتِهِ طَيًّا (٣)

ولا كَنَدَتْ (٤) أسيافُهُ مُلْكَ «كِنْدَةٍ» ... فيَتْرُكَ في أَرْكانِ عِزَّتِها وَهْيَا

ولا أَقْعَدَتْهُ عن إجابَةِ صارِخٍ ... «تُجيبُ» ولو حَبْواً إلى الطَّعْنِ أو مَشْيا

وكائِنْ لَهُ في «الأَوْسِ» من حَقِّ أُسْوَةٍ ... بنَصْرٍ (٥) الهُدى جَهْراً أو بَذْلِ النَّدى خَفْيا

هُمُ أَوْرَثُوهُ نَصْرَ دينِ مُحَمَّدٍ ... وحازُوا له فَخْرَ النَّدى والقِرى وحْيا

[٤٦ م] / وَهُمْ أوجَدُوهُ الجودَ أعذبَ مطعَماً ... منَ الرِّيقَةِ الشَّنْباءِ في الشَّفَةِ اللَّمْيا

مَناقِبُ أَدَّوْهـا إِلَيْـهِ وِراثَـةً ... فكانَ لها صَدْراً وكانَتْ له حَلْيا

وَرَوْضَةُ مُلْكٍ عاهَدَتْها عِهادُهُ ... فأَغْدِقْ بِها رِيًّا، وأَعبِقْ بِها رَيَّا

وصَوْتُ ثناءٍ أَسْمَعَ اللهُ ذِكْرَهُ ... لِيُسْمِعَ مِنْهُ الصُّمَّ أَوْ يَهْدِيَ العُمْيا

---

(١) ذخ : أقوام .

(٢) ذخ : زيادة .

(٣) استخدم ابن دراج في هذا البيت وما قبله وما بعده جناس الاشتقاق مستنداً إلى أسماء القبائل اليمنية كحمير وقحطان والسكون وطيء وكندة وتجيب والاوس .

(٤) كند أي جحد أو كفر النعمة .

(٥) ذخ : بنصب .

لِمَنْ يَلْحَظُ الأَعْلَيْنَ في المَجْدِ مِنْ عَلٍ   وجارى فأعْيا السَّابِقِينَ وما أَعْيا
أَنِيسُ القُلُوبِ في الصُّدُورِ وَلَمْ يَكُنْ   لِيُوحِشَ مَثْوَاهُ الفَرَاقِدَ والجَدْيا
وَمَوْرِدُ مَنْ أَظْمَا ، وإِصْبَاحُ مَنْ سَرى   وَمَبْرَكُ مَنْ أَعْيا ، وغَايَةُ مَنْ أَغْيا(١)
فَقُصْرُ(٢) مُلُوكِ الأَرْضِ سُدَّةُ قَصْرِهِ   وإِنْ سَحَقُوا بُعْداً ، وإِنْ شَحَطُوا نَأْيَا
وأَهْدَتْ لَهُ بَغْدَاذُ دِيوانَ عِلْمِهَا(٣)   هَدِيَّــةَ مَنْ وَالى ، وَنُخْبَةَ(٤) مَنْ حَيَّا
فَكانَتْ كَمَنْ حَيَّا الرِّيَاضَ بِزَهْرِها   وأَهْدى إلى صَنْعاءَ من نَسْجِها(٥) وَشْيا
وَحَسْبُ رُوَاةِ العِلْمِ أَنْ يَتَدَارَسُوا   مآثِرَهُ حِفْظاً ، وآثارَهُ وَعْيَا
وَيَكْفِي مُلُوكَ الأَرْضِ من كُلِّ مَفْخَرٍ   إِذا امْتَثَلُوا من بَعْضِ أَفْعَالِهِ شَيَّا
وأَنْ يَسْمَعُوا من ضَيْفِهِ في ثَنَائِهِ   غَرَائِبَ حَلْيٍ مِنْ جَوَاهِرِها الدُّنْيا
وأَنْ يَنْظُرُوا كَيْفَ ازْدَهى مَفْرِقُ العُلاَ   بِعَقْدِي لَهُ تاجاً من الكَلِمِ العُلْيا
أَوابِدُ حالَفْنَ اللَّيَالِيَ أَنَّهــا   تَموتُ الليالي وَهْيَ باقِيَــةٌ تَحْيا
لِمَنْ كَفَلَ الإِسْلاَمَ أَمَّ سِيادَةٍ   فَبَرَّتْ به حِجْراً ، ودَرَّتْ لَهُ ثَدْيا

(١) أغيا مشتق من الغياية وهي كل ما أظل الإنسان فوق رأسه مثل السحابة والغبرة ، وأغيا عليه السحاب أي أظل عليه .

(٢) أي قصارى .

(٣) يشير هنا إلى قدوم صاعد اللغوي البغدادي على منذر بن يحيى .

(٤) ذخ : وتحفة .

(٥) في الأصل : وشيها ، وقد آثرنا قراءة « ق » والذخيرة .

وَمَنْ ذَعَرَ الأَعْدَاءَ حتىّ توهّمُوا ... به الصُّبْحَ جَيْشاً والظَّلامَ لَهُ دَهْيا
لطاعَةِ من وَصَّى المنايا بطَوْعِهِ ... فلم تَعْصِهِ في الشِّرْكِ أَمْراً ولا نَهْيا
فكَمْ رَأْسِ كُفْرٍ قد أنافَتْ بِرأْسِهِ ... من الصَّرْعَةِ السُّفْلى إلى الصَّعْدَةِ العُلْيا
فأَوْفَتْ بِهِ في مَرْقَبِ السُّورِ كالحاً ... يُؤَذِّنُ بالأَعْدَاءِ : حَيَّ هَلاَ حَيّاً (١)
وتَفْلِي الصَّبَا مِنْهُ ذوائِبَ لِمَّـــةٍ ... تفاخَرُ أَيْدِي المُصْبِياتِ بِهَا فَلْيا
فَهَامَتُهُ لِلْهامِ تَسْتَامُها القِرى ... وأَشْلاؤُهُ للرِّيحِ تَسْتامُها السَّفْيا (٢)
وكَمْ رَدَّ عَنْ نَفْسِ «ابْنِ شَنْجٍ» سِهامَها ... وقد أَغْرَقَتْ نَزْعاً وأَمْكَنَها رَمْيا
طَليقَكَ من كَفِّ الإِسَارِ وقَدْ هَوَتْ ... بِهِ الرَّقِمُ الرَّقْماءُ (٣) والمُوبِدُ الدَّهْيا
فَحَكَّمْتَ فيهِ حَدَّ سَيْفِكَ فاقْتَضى ... وشاوَرْتَ فيهِ الفَضْلَ فاسْتَعْجَمَ الفُتْيا
[٤٦ب] / فأَخَّرْتَ عَنْهُ حُكْمَ بَأْسِكَ بالرَّدى ... وأَمْضَيْتَ فيهِ حُكْمَ عَفْوِكَ بِالبُقْيا
ووَقَّيْتَـــهُ حَرَّ الحِمَامِ لَوِ اتَّقى ... وزَوَّدْتَهُ بَرْدَ الحياةِ لَوِ اسْتَحْيا
فأَفْلَتَ يَنْزُو في حَبائِلِ غَـدْرَةٍ ... بأَوْتَ بِها عِزّاً ، وباءَ بِها خِزْيا
فأَتْبَعْتَهُ تَحْتَ العَجاجَةِ رَايَـةً ... بَهَرْتَ بِهـا رَأياً وأَعْيَتْهُ رَأْيا

---

(١) حيَّ هل صيحة يقصد بها التعجيل ، وهو يعني أنه ينادي الاعداء أن عجلوا بالفرار .

(٢) في الاصل : السقيا ، ولعل الاصح ما أثبتنا ، والسفي مصدر سفى ، وهوما تسفيه الريح أي ما تذروه .

(٣) يقال : وقع في الرقم الرقماء إذا وقع فيما لا يقوم به ، وهو مثل قولهم بالداهية الدهياء .

وجَرَّدْتَ سَيْفَ الحَقِّ مُدَّرِعَ الهُدٰى | لِمَنْ سَلَّ سَيْفَ النَّكْثِ وادَّرَعَ البَغْيا
وأَعْلَيْتَها في دَعْوَةِ الحَقِّ دَعْوَةً | كَفاكَ بها بُشْرٰى وأَعْداءها نَعْيا
فجاءَتْكَ تحتَ الخافقَاتِ كَتَائِباً | كما حَدَتِ الأَفْلاكُ أَنْجُمَها جَرْيا
مُهلِّينَ بالنصرِ العزيزِ لِمَنْ دَعَا | مُلَبِّينَ بالفتحِ المبينِ لمن أَيَّا[1]
بِكُلِّ أميرٍ طَوْعِ يُمْنَاكَ جَيْشُهُ | وطاعَتُكَ العَلْيَاءُ غايَتُهُ القُصْيا
وكُلِّ كَمِيٍّ في مَنَاطِ نِجَادِهِ | دواءٌ لِدَاءِ النَّاكِثِينَ إذا أَعْيا
وإنْ لَمْ يُفِقْ دَاءَ «ابْنِ شَنْجٍ» بِطِبِّهِ | فَقَدْ بَلَغَتْ أَدْوَاؤُهُ النَّارَ والكَيَّا
بسابِحَةِ الأَجيادِ في كُلِّ لُجَّةٍ | تُرِيكَ عُبابَ البَحْرِ مِنْ هَوْلِها حِسْيَا
قَدَحْتَ بأَيْدِيهَا صَفَا الشِّرْكِ قَدْحَةً | جَعَلْتَ ضِرَامَ المَشْرَفِيِّ لها وَرْيَا
خَوَاطِفَ إِبْرَاقٍ جَلَاهُنَّ عارِضٌ | من النَّقْعِ لا يُونِي دِمَاءَ العِدٰى مَرْيا[2]
عُقِدْنَ بأَيْمَانِ الضِّرَابِ وعُوقِدَتْ | بأَيْمَانِ عَهْدٍ لا انْثِنَاءَ وَلاَ ثُنْيَا[3]
وزُرْقًا تَشَكَّى من ظِمَاءٍ كُعُوبُهَا | وتَسْقِي رُبُوعَ الكُفْرِ من دَمِهِ رِيَّا
إذا غَرَبَتْ ناءَتْ بِمُنْهَمِرِ الكُلٰى | وإن طَلَعَتْ فاءَتْ بِمِلْءِ المَلَا فَيَّا
فأَبْتَ بأَعْدَادِ النُّجُومِ مَسَاعِياً | وأَمثالِهَا سُمْراً وأَضعافِهَا سَبْيَا

---

(١) يقال : أيا بالابل إذا زجرها يقول لها : أيا أيا .

(٢) المري مصدر مرى ويقال مرى الناقة إذا مسح ضرعها لتدر ، ومرى الدم أي استخرجه .

(٣) الثنيا من المصطلحات الفقهية ، وهي أن يستثنى من الشيء المبيع شيء مجهول فيفسد البيع ، وهي محرمة من أجل ذلك .

وُجُوهاً سُلِبْنَ العَصْبَ (1) والحَلْيَ فاكْتَسَتْ
مَحاسِنَ أَنْسَيْنَ المَجاسِدَ والحَلْيـــا

كأَنْ لَمْ تَدَعْ بالْبِيدِ أَيْـكاً ولا غَضَى ... ولا في شِعَابِ الرَّمْلِ خِشْفاً ولا ظَبْيَا
إِيَابَ مليكٍ قُلِّدَتْ عَزَمَاتُـهُ ... من الرُّشْدِ والتَّوْفِيقِ ما دَمَّرَ الغَيَّا
يُقِرُّ عيونَ الخَيْلِ في حَوْمَةِ الوَغَى ... إِذا ماقُدُورُ الحَرْبِ فَارَتْ بِها غَلْيا
ويُعْرِضُ عَنْ فُرْشِ القُصورِ وَثِيرَةً ... لِيَرْكَبَ ظَهْرَ الحَرْبِ مُحْدَوْدِباً عُرْيا
ويَحْسُو ذُعافَ السُّمِّ فِي جاحِمِ الوَغَى ... لِيُرْوِيَ آمالَ النُّفُوسِ بِها أَرْيا (2)
ويُصْلِي بِحَرِّ الشمسِ حُرَّ جبينِهِ ... لِيَبْسُطَ لِلإِسْلامِ من نُورِهِ فَيَّا (3)
[٤٧م] / ويا شامِتاً أَنِّي طَرِيدُ حِجـابِهِ ... لِيُخْزِكَ أَنِّي حُزْتُهُ بَيْنَ جَنْبَيَّا
ويا حاجِباً قَدْ رَدَّ طَرْفِيَ دُونَهُ ... تَأَمَّلْ تَجِدْهُ وَهْوَ إِنسانُ عَيْنَيَّا
صَفاء وِدَادٍ إِنْ رَمى فَوْقَهُ القَذَى ... ظُنُوناً من الإِشْفاقِ طَيَّرَها نَفْيا
وصِدْقُ رَجاء كُلَّما مُتُّ رَحْمَةً ... عَلَى مِثْلِ أَفْرَاخِ القَطا رَدَّنِي حَيَّا
ظِماء وما يَدْرُونَ في الأَرْضِ مَشْرَباً ... سِوى كَبِدِي الحَرَّى ومُهْجَتِيَ الظَّمْيا
وكم عَسَفُوا بَحْراً ولا بَحْرَ لِلنَّدى ... وخاضُوا سَرابَ البِيدِ نِهْياً ولا نِهْيا (4)

---

(١) العصب في الاصل سن دابة بحرية يتخذ منها الخرز وغيره من حلي النساء.
(٢) الأري هو الشهد.
(٣) الفيء هنا الظل.
(٤) النهي بكسر النون وفتحها هو الغدير وكل موضع يجتمع فيه الماء.

ومانُوا يُرَاعُونَ النجُومَ وقَدْ رَأَتْ — وسائِلَهُمْ أَلاَّ حِفاظَ وَلاَ رَعْيا
ولا خُلَّةٌ إلاَّ الهَجِيرُ إِذَا الْتَظَىٰ — فَكَانَ لَهُمْ جَمْراً وكانوا لَهُ شَيَّا
ولا نَسَبٌ إلاَّ الثُّرَيَّا إذا انْتَحَتْ — فَكانَتْ لَهُمْ نِصْفاً وكانُوا لَهَا ثِنْيا (١)
وكم زَجَرُوها بِاسْمِها وخُفُوقِهـا — فما صَدَقَتْهُمْ لا ثَرَاءً ولا ثَرْيا (٢)
ولا صِدْقَ إلاَّ للرَّجاءِ الَّذِي سَرىٰ — فقَصَّرَ طُولَ اللَّيْلِ واسْتَقْرَبَ النَّأْيا
وباريٰ هُوِيَّ الرِّيحِ يَسْبِقُها هَوىً — وغالَ قِفارَ البِيدِ يَنْسِفُهـا طَيَّا
إلىٰ سابِقِ الأَمْلاكِ عَلَّمَ سَيْفُهُ — نَدىٰ كَفِّهِ أَنْ يَسْبِقَ الوَعْدَ والوَأْيا (٣)
أَبُو الحَكَمِ المُمْضِي لِحُكْمٍ عُفاتِهِ — رغائِبَ لا يَعْرِفْنَ سَوْفاً ولا لَيَّا
ومَثَّلَ لِي في الحَرْبِ حَشْرُ ذِرَاعِهِ — بِحَشْرِيَ في حَرْبِ الخُطُوبِ ذِرَاعَيَّا
إذا لَمَعَتْ بِيضُ الصَّوَارِمِ (٤) حَوْلَهُ — كَإِضْرَامِ نِيرَانِ الهمومِ حَوَالَيَّا
وقد عاذَ (٥) أَبْطالُ الجِلاَدِ بِعِطْفِهِ — كما عاذَ (٥) أَطْفالُ الجَلاَءِ بِعِطْفَيَّا
وقد قَصَّرَتْ عنهُ رِماحُ عُدَاتِهِ — كما قَصَّرَتْ عَنْهُمْ رِياشُ جَناحَيَّا
وَلٰكِنْ أُوَاسِي بَيْنَ عارٍ وَلاَبِسٍ — أُقَلِّصُ عَنْ دَيًّا لِأُثْنِي عَلَى تَيَّا
وإِنْ لَوَتِ اللَّأْوَاءُ مِنْ شَأْوِ هِمَّتِي — وأُلْحَقَ ذُلُّ العُسْرِ وَجْهِي بِنَعْلَيَّا

---

(١) ثنيا الجبل طرفاه .
(٢) الثري مصدر ثري (بفتحة فكسرة) ويقال ثري بالشيء إذا سر به وفرح .
(٣) الوأي مرادف للوعد .
(٤) ذ خ : زرق الأسنة .
(٥) ذ خ : لاذ .

فَلَمْ تَأْوِ عَنْ مَدْحِ « ابْنِ يَحْيىٰ » مَدَائِحي
بِأَطْيَبِ ذِكْرٍ في المَمَاتِ وفي المَحْيَا

يُصِيخُ إلَيْهِ كُلُّ سَمْعٍ مُوَقَّرٍ ... ويَجْلُو سَنَاهُ كُلَّ نَاظِرَةٍ عَمْيا
وأَنْشِيكَ[1] عَنْهُ المِسْكَ ما عِشْتَ يا وَرٰى ... وأَكْسُوكَ مِنْهُ الدُّرَّ ما دُمْتِ يا دُنْيا
وإنْ بَرَتِ الأَيَّامُ مِنْ حَدِّ هِمَّتي ... وفَلَّتْ سِلَامُ الحَادِثاتِ غِرَارِيَا
فَهَلْ قَلَمٌ خُطَّتْ بِهِ الأَرْضُ كُلُّها ... نِظاماً ونَثْراً يُنْكِرُ القَطَّ والبَرْيا
[٤٧ب] / وزَنْدٌ يُنِيرُ الشَّرْقَ والغَرْبَ قَدْحُهُ ... جَدِيرٌ بأَنْ يَسْتَلْحِقَ المَحْقَ والوَهْيا
ويَا لَكِ[2] مِنْ ذِكْرىٰ سَنَاءٍ ورِفْعَةٍ ... إذا وَضَعُوا في التُّرْبِ أَيْمَنَ جَنْبَيَّا[3]
وفَاحَتْ لَيَالِي الدَّهْرِ مِنِّيَ مَيِّتاً ... فأَخْزَيْنَ أَيَّاماً دُفِنْتُ بِهَا حَيَّا
وكَانَ ضَيَاعِي حَسْرَةً وتَنَدُّمَا ... إذا لَمْ يُفِدْ شَيْئاً ولم يُغْنِنِي شَيَّا
وأَصْبَحْتُ في دارِ الغِنَىٰ عَنْ ذَوِي الغِنَىٰ ... وعُوِّضْتُ فاسْتَقْبَلْتُ أَسْعَدَ يَوْمَيَّا
سِوىٰ حَسْرَتَيْ عِرضٍ ووَجْهٍ تَضَعْضَعَا ... لِقَارِعَةِ البَلْوىٰ وكَانَا عَتَادِيَّا
ولِلسِّتْرِ والصَّبْرِ الجَمِيلِ تَأَخَّرَا ... فأَمَّهُمَا حِرْصِي وكَانَا إمَامِيَّا
فيا عَبْرَتِي سُحِّي لَعَلِّي مُبَلِّلٌ ... بِبَحْرَيْكِ[4] ما أَنْزَفْتُ من مَاءِ عَيْنَيَّا

(١) أي أشمك ، مشتق من نشى الرائحة إذا استنشقها وشمها .
(٢) ذ خ : فيالك .
(٣) ذ خ : مسقيا (!) ، وفي الجذوة : شقيا .
(٤) ذ خ : بجريك .

ويا زَفْرَتِي هَلْ في وَقُودِكِ جَذْوَةٌ تُنِيرُ لَنَا صُبْحاً ثَنَاهُ الأَسى مُسْيَا(1)

ويا خَلَّتِي إنْ سَوَّفَ الغَوْثُ بالمُنى ويا غُلَّتِي إِنْ أَبْطَأَ الغَيْثُ بالسُّقْيَا

فَقُومَا إِلى رَبِّ السَّمَاءِ فَأَسْعِدَا تَقَلُّبَ وَجْهِي في السَّمَاءِ وَكَفَّيَا

عَسى مَيِّتُ الأَظْمَاءِ في رَوْضَةِ النَّدى سَيَرْجِعُ عَنْ رَبِّ السَّمَاءِ وَقَدْ أَحْيَا(2)

ويا أَوْجُهَ الأَحْرَارِ لاَ تَتَبَدَّلِي بِظِلِّ «ابْنِ يَحْيى» بَعْدُ ظِلاً ولا فَيَّا

ويا حَلْبَةَ الآمَالِ زِيدِي عَلَى المَدى بَقَاءَ «ابْنِ يَحْيى» ثُمَّ حَيِّي عَلَى «يَحْيى»

— ٤٧ —

وله فيه أيضاً رحمها الله (3)

[من الكامل]

أَوْجَفْتُ(4) خَيْلِي في الهَوى ورِكَابِي وقَذَفْتُ نَبْلِي بالصِّبَا(5) وحِرَابِي

وسَلَلْتُ في سُبُلِ الغَوَايَةِ صَارِمًا عَضْباً تَرَقْرَقَ فيهِ مَاءُ شَبَابِي

---

(1) ذخ : نساه الأسى نسيا.

(2) ذخ : حيا.

(3) انتخب الثعالبي من هذه القصيدة اثنين وثلاثين بيتا (يتيمة الدهر ٢ / ١١٤ - ١١٦).

(4) يت : أوجمت.

(5) يت : في الصبا.

وَرَفَعْتُ لِلشَّوْقِ المُبَرِّحِ رايَةً خَزَّاقَةً بِهَوَائِجِ[1] الأَطْرَابِ
وَلَبِسْتُ لِلُّوَّامِ لأْمَــةَ خالِعٍ مَسْرُودَةً بِصَبَابَــةٍ وتَصَابِ
وبَرَزْتُ لِلشَّكْوَى بِشِكَّةِ مُعْلَمٍ نَـكَصَ المَلامُ بِها عَلَى الأَعْقابِ
فاسْأَلْ كَمِيَّ الوَجْدِ كَيْفَ أَثَرْتُهُ بِغُرُوبِ دَمْعٍ صائِبِ التَّسْكَابِ[2]
واسْأَلْ جُنُودَ العَذْلِ كَيْفَ لَقِيتُهَا في جَحْفَلِ البُرَحَاءِ والأَوْصَابِ
ولَقَدْ كَرَرْتُ عَلَى المَلامِ بِزَفْرَةٍ ذَهَلَ العِتَابُ بِها عَنِ الإِعْتَابِ
حتَّى تَرَكْتُ العـاذِلِينَ لِمَا بِهِمْ شَغَفًا بِحُبِّ التَّارِكِيَّ لِمَا بِي
من كُلِّ مَمْنُوعِ اللِّقَـاءِ اغْتَالَهُ صَرْفُ النَّوَى فَنَـأَى بِهِ وَدَنَا بِي
٤٨] / في لَيْلَةٍ لُقِّيتُ من تِلْقَائِــهِ دَعْوَى مُجِيبٍ لِلمَزَارِ مُجَابِ
سِرٌّ سَرَى لِجَوانِحِي فَسَرَى بِهَا وَهَوًى هَوَيْتُ لِطَوْعِهِ فَهَوَى بِي
فكَسَوْتُ خَيْلَ الشَّوْقِ لَيْلَ مُخَالِسٍ ما كادَ يَشْعُرُ أَنَّـهُ جِلْبَــابِي
وهَتَفْتُ في جُنْدِ الصِّبَا فأَجابَنِي في كُلِّ صَبٍّ بالأَحِبَّةِ صَابِ
فَزَحَفْتُ والإِقْدَامُ يَحْمِـلُ رَايَتِي وخَوَاطِرُ الإِحْجَامِ تَحْتَ رِكَابِي
وحَمَائِلِي تَهْفُو بِلُحْمَةِ[3] بارِقٍ لولا الوفاءُ بِذِمَّتِي لَوَشَى بِي
وكِنَانَتِي ما شِئْتُ في إِكْنَانِهَــا مِنْ مُلْتَظَى جَمْرٍ وحَرِّ شِهَابِ

---

(١) يت : بهزائج .
(٢) يت : التكساب .
(٣) اللحمة هي القرابة والمخالطة .

كُلٌّ يَشَاكُهُ ما وَرَاءَ جوانحي ... للشَّوْقِ من ضَرَمٍ ومن إِلْهَابِ
حتى افْتَتَحْتُ عنِ[1] الأَحِبَّةِ مَعْقِلاً ... وَعْرِ المسالكِ مُبْهَمٍ[2] الأَبْوَابِ
ووَقَفْتُ مَوْقِفَ عاشقٍ حَانَتْ لَهُ ... فيهِ غنيمةُ كاعِبٍ وكَعَابِ
بِحَدَائِقِ الحَدَقِ الَّتِي لاقَيْنَنِي[3] ... بأَحَدَّ مِن سيفي ومن نُشَّابِي
في تُرْبَةٍ جادَ النَّعيمُ رِيَاضَهَا[4] ... فَتَفَتَّحَتْ بِنَوَاعِمٍ[5] أَتْرَابِ
من كُلِّ مَغْنُومٍ لِقَلْبِيَ غانِمٍ ... عِشْقاً ومَسْبِيٍّ لِعَقْلِيَ سَابِ
في جُنْحِ لَيْلٍ كالغُرَابِ أَطارَلِي ... عن مُلْتَقَى الأَحْبابِ كُلَّ غُرَابِ
وجَلاَ لِعَيْنِيَ كُلَّ بَدْرٍ طالِعٍ ... فَمِنْ مِهَتِّكٍ حِجَابِهِ وحِجَابِي
جابَ الظَّلاَمَ فلَمْ يَدَعْ من دَجْنِهِ ... إلا غَدَائِرَ شَعْرِهِ المُنْجَابِ
فَغَنِيتُ بَيْنَ ضيائِهِ وظلامِهِ[6] ... مُغْرَى الجفونِ بِطَرْفِهِ المُغْرَى بِي
فإِذا كَتَبْتُ بناظِري في قَلْبِهِ ... أَخْفَى فَخَطَّ بناظِرَيْهِ جَوَابِي
وإِذا سَقَانِي من عُقَارِ جُفُونِهِ ... أَبْقَى عليَّ فَشَجَّهَا بِرُضَابِ
وسُلاَفَةُ الأَعْنَابِ تُشْعَلُ[7] نارُهَا ... تُهْدَى إِليَّ بِيَانِعِ العُنَّابِ

---

(١) يت : على .
(٢) يت : مقفل .
(٣) في الأصل : لا قيتني ، وفي اليتيمة : أفنينني .
(٤) يت : في روضة جاد النعيم نباتها .
(٥) يت : بكواعب .
(٦) يت : فظللت بين صبابة وظلامة .
(٧) يت : توقد .

فَسَكِرْتُ والأَيَّامُ تسلُبُ جِدَّتِي ... والدَّهْرُ ينسِجُ لِي ثِيَابَ سِلاَبِي

سُكْرَيْنِ من خمرَيْنِ كَانَ خُمَارُهَا[1] ... فَقْدَ الشَّبابِ وفرْقَةَ الأَحبابِ

لِمَدًى تنَاهَى في الغِوَايَةِ فانتَهَى ... فِينا إلى أَمَدٍ[2] لَهُ وكِتَابِ

وهَوًى تقاصَرَ بالمُنَى فأَطالَ بِي ... هَمًّا إلى قَلْبِي سَرَى فَسَرَى بِي

في جاهِلِيَّةِ فِتْنَةٍ عُبِدَتْ بِهَا ... دُونَ الإِلٰهِ مَضَلَّةُ الأَرْبَابِ

[٤٨ب] / تُسْتَقْسَمُ الأَزْلاَمُ في مُهَجَاتِنَا ... وتَسِيلُ أَنفُسُنَا عَلَى الأَنْصَابِ

غِيَراً من الأَيامِ أَصْبَحَ ماؤُهَا ... غَوْراً وأُعْقِبَ صَفْوُهَا بِعِقَابِ

وبوارِقاً للغَيِّ أَضْرمَ نُورُهَا ... ناراً وصابَ غَمَامُهَا بالصَّابِ

فلها فَقَدْتُ النَّفْسَ إلا قَدْرَمَا ... أَشْجَى بِهِ لِحُلُولِ كُلِّ مُصَابِ

وبها رَزَيْتُ الأَهْلَ إلاَّ لابِساً ... بُؤْساً يَزِيدُ به أَلِيمُ عَذَابِي

وبها رَفَعْتُ حِجابَ سِتْرِيَ عَنْ مَهاً ... تَرَكَتْ شَبَا قَلْبِي بغَيْرِ حِجَابِ

وجَلَوْتُ في خَطْبِ الجَلاءِ عقائِلاً ... قَصَّرْتُ عَنهَا هِمَّةَ الخُطَّابِ

سِرْبُ المَقَاصِرِ والمَلاَعِبِ صُنْتُهُ ... فَأَطَرْتُهُنَّ مع القَطَا الأَسْرَابِ

ذُعِرَتْ بِحِسِّ الإِنْسِ تحتَ حِجالِهَا ... واسْتَأْنَسَتْ بِضَرَاغِمٍ وذِئَابِ

ونَزَتْ بِهِنَّ عن الأَرائِكِ رَوْعَةٌ ... مَهَدَتْ لَهُنَّ حُزُونَ كُلِّ يبابِ

فَطَوَيْنَ آفَـاقَ البِلاَدِ لِطِيَّةٍ ... تأْبَى لها الأَيَّامُ يَوْمَ إِيَابِ

(١) يت : سكرين من خمر كأن خمارها .

(٢) يت : أجل .

وإِلَيْكَ يا «مَنْصُورُ» حَطَّ رِحالَهَا ... دَأْبُ السُّرى واليَعْمَلاتِ وَدَابِي

وبُحُورُ هَمٍّ كَمْ وكَمْ دَاوَيْتُهَا ... بِبُحُورِ يَمٍّ أَوْ بُحُورِ سَرَابِ

وشبَـــابُ لَيْلٍ طَالَمَا بَلَغْتُهُ ... تَخْطِيطَ شَيْبٍ أَوْ نُصُولَ خِضَابِ

فَوَصَلْتَ يا «مَنْصُورُ» مِنَّا غُرْبَةً ... مَقْطُوعَةَ الأَنْسَابِ والأَسْبَابِ

وَوَقَيْتَنِي رَيْبَ الخُطُوبِ بِمِنَّةٍ ... جَلَتِ اليَقِينَ لِظَنِّيَ المُرْتَابِ

وكَفَيْتَنِي لَوْمَ الزَّمَانِ بِأَنْعُمٍ ... كَفَتِ الزَّمَانَ مَلامَتِي وعِتَابِي

وشَمِلْتَنِي بِشَمَائِلٍ ذَكَّرْتَنِي[1] ... في طِيبِهَا «طُوبَى وحُسْنَ مَآبِ»

وأَقَمْتَ لي سُوقَ المكَارِمِ مُغْلِياً ... بِجَوَاهِرِ الإِبْداعِ والإِغْرَابِ

ورِضَاكَ رَدَّ لِيَ الرِّضَا في أَوْجُهٍ ... من خُزْرِ[2] أَيَّامٍ عَلَيَّ غِضَابِ

وهُدَاكَ أَشْرَقَ لِي ولَيْلِيَ مُظْلِمٌ ... وسَنَاكَ أَبْرَقَ لِي وَزَنْدِيَ كَابِ

وجَدَاكَ دَاوَانِي وَدَائِيَ مُعْضِلٌ ... وذَرَاكَ آوَانِي وَرَحْلِيَ نَابِ

فَحَلَلْتُ مِنْهُ خَيْرَ دارِ مُقَامَةٍ ... وَثَوَيْتُ[3] مِنْهُ في أَعَزِّ جَنَابِ

وأَسَمْتُ في أَزْكَى البِقَاعِ صَوَافِنِي ... وضَرَبْتُ في أَعْلَى اليَفَاعِ[4] قِبابِي

(١) يت : أذكرتني .

(٢) في الأصل : حزر ، وفي اليتيمة : جور ؛ والخزر (بفتحتين) هو النظر بمؤخر العين والأخزر والخازر هو الداهيه من الرجال .

(٣) في الأصل : وثنيت ، وقد اخترنا هنا رواية الثعالبي في اليتيمة .

(٤) يت : البقاع .

وشَوَيْتُ للأَضْيافِ لَحْمَ رَكائِبِي … في نـارِ أَحْلاَسِي[1] وفي أَقْتابِي

[٤٩م] / عِوَضاًمِنَ الْوَطَنِ الَّذِي أَصْبَحْتُ مِنْ … أَسْلاَبِـهِ إِذْ كانَ مِنْ أَسْلاَبِي

ولَقَدْ جَبَرْتَ[2] بِرَغْمِ دَهْرٍ ضامَنِي … ما أَخْلَقَتْ عَصْرَاهُ مِنْ أَثْوَابِي

خِلَعاً رَفَعْتَ بِفَخْرِها وسَنائِهـا … ما ضاعَ من قَدْرِي ومِنْ آدَابِي

كُلٌّ يُنادِي في البَرِيَّةِ مُعْلِناً … هٰذِي مواهِبُ «مُنْذِرَ» الوَهَّابِ

فَلأُهْدِيَنْ من طِيبِ ذِكْرِكَ في الوَرٰى … وَقْرَ الرِّكَابِ وذُخْرَةَ الرُّكَّابِ

ولأَكْتُبَنْ منها عَلَى صُحُفِ العلاَ … غُرَرَ الـكِتابِ وَغُرَّةَ الـكُتَّابِ

ولأَجْلُوَنْ منهـا لأَبْصارِ النُّهٰى … حُرَّ الخِطـابِ وَحُرَّةَ الخُطَّابِ

ولأَجْعَلَنَّ ثناءَها وجَزَاءَها … أَبَدَ الأَبِيدِ وعاقِبَ الأَعْقـابِ

ولأَتْرُكَنَّ خُلُودَها ونَشِيدَها … دِينَ العُصُورِ ومِلَّةَ الأَحْقابِ

حتَّى يَعُودَ الدَّهر بِدْعَ شَرِيعَةٍ … بِعُلاَكَ والأَيَّامُ أَهْلَ كِتابِ

وتَرَاكَ بَعْدَكَ أُمَّـةٌ لَمْ تَلْقَهـا … عَيْنَ اليَقِينِ وَجَهْرَةَ الأَلْبابِ

حَتَّى يَرَوْا كَرَّاتِ خَيْـلِكَ في الوَغٰى … لِوَحْى[3] طِعانٍ أَوْ وَحِيِّ ضِرَابِ

ويَرَوْا سُيُوفَكَ في الجَماجِمِ والطُّلٰى … وسَنا جَبِينِكَ في العَجاجِ الهابِي

---

(١) جمع حلس وهو كل شيء ولي ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسرج .

(٢) بت : كسوت .

(٣) الوحى من معانية النار والصوت الممدود الخفي والسرعة ، وجميعها تصلح لهذا الموضع ، ووحيّ بكسر الحاء وتشديد الياء معناها سريع .

وَيَرَوْا إلى الأقْرَانِ مِنْكَ مُنازِلاً ... إقْدَامَ لَيْثٍ وانقِضاضَ عُقَابِ
وَيَرَوْكَ حِزْبُ اللهِ حِزْبُكَ والعِدَى ... بِسُيُوفِهِ مَفْلُولَةُ الأَحْزَابِ
هٰذا وكَمْ أعْزَزْتَ في دِينِ الهُدَى ... مِنْ مِنْبَرٍ وحَمَيْتَ من مِحْرَابِ
ومعادِ عيدٍ عُدْتَ في إغْبابِهِ ... بمكارِمٍ كَرُمَتْ عنِ الإغْبابِ
فكَسَوْتَ فيه الأَرْضَ سابِغَ حُلَّةٍ ... نُسِجَتْ بأُسْدِ شَرًى ومَأْشَبِ[1] غابِ
وسوابِقٍ رَدَّ الجِهادُ جِيادَها ... قُبَّ البطُونِ لَوَاحِقَ الأَقْرَابِ[2]
ولوامِعٍ أشْرَعْتَهُنَّ فأشْرَقَتْ ... إشراقَ مُلْكِكَ في سَنَا الأَحْسابِ
وخَوافِقٍ خَفَّتْ بِوَجهِكَ فاحْتَذَتْ ... شَمْسَ النهارِ تَجَلَّلَتْ بسحابِ
حتَّى انتَهَيْتَ إلى المُصَلَّى لابِساً ... عِزَّ المليكِ ورِقَّةَ الأَوَّابِ
في منظَرٍ عَجَبٍ وأعْجَبُ شأْنِهِ ... ما ذُمَّ من كِبْرٍ ومن إعْجابِ
وهُدًى لِمَنْ صَلَّى وضَحَّى واتَّقَى ... وزَكَا فكُنْتَ لَهُ أجَلَّ ثوابِ
فاللهُ يَرْزُقُنَا بقاءكَ سالِماً ... رِزْقاً نُوَفَّاهُ بغيرِ حِسَابِ
/ وانْصُرْ وَمَنْ والاكَ حِلْفُ كَرَامَةٍ ... واقْهَرْ ومَنْ عاداكَ رَهْنُ تَبَابِ [٤٩ب]

---

(١) مشتق من أشب الشجر (بكسر الشين) أي التف وغلظ .

(٢) قب جمع أقب وهو الضامر ، واللاحوق هو الضمور كذلك ، والأقراب جمع قرب بضم الراء وتسكينها وهو الخاصرة .

— ٤٨ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله في عيد الفطر

[من الطويل]

لكَ الفوْزُ مِنْ صَوْمٍ زَكِيٍّ ومِنْ فِطْرِ وَصَلْتَهُمَا بالبِرِّ شَهْراً إلى شَهْرِ
فَنَاطِقُ صِدْقٍ عَنْكَ بالصِّدْقِ والنُّهَى وشاهِدُ عَدْلٍ فيكَ بالعَدْلِ والبِرِّ
فهٰذا بِمَا اسْتَقْبَلْتَ من صائِبِ النَّدَى وهٰذا بِمَا زَوَّدْتَ من وافِرِ الذُّخْرِ
فكَمْ شافِعٍ في ظِلِّكَ الصَّوْمَ بالتُّقَى وكَمْ واصِلٍ في أَمْنِكَ اللَّيْلَ بالذِّكْرِ
وكَم ساجِدٍ لله مِنَّا وراكِعٍ يَبِيتُ عَلَى شَفْعٍ ويَغْدُو على وَتْرِ
ووَجْهُكَ للهَيْجاءِ من دُونِ وَجْهِهِ وتَسْرِي إلى الأَعْداءِ عَنْهُ ولا يَسْرِي
وظِلُّكَ ممدودٌ عَلَيْهِ وتَصْطَلِي بجَاحِمِ نارِ الحربِ أَوْ جَامِدِ القُرِّ
خَلَعْتَ عليهِ ثَوْبَ صَوْنٍ ونِعْمَةٍ وظاهَرْتَ عَنْهُ بَيْنَ صِنٍّ وصِنَّبْرِ (١)
وكم قاطِعٍ بالنَّوْمِ لَيْلاً وَصَلْتَهُ بغَزْوِكَ ما بَيْنَ الأَصِيلِ إلى الفَجْرِ
وأَقْدَمْتَ فيه الخَيْلَ حَتَّى رَدَدْتَهَا وآثارُهَا ثَغْرٌ لقاصِيَةِ الثَّغْرِ
كأَنَّ دُجَى لَيْلٍ يَمُرُّ (٢) عَلَى الضُّحَى إذا سِرْنَ أو بَحْراً يَمُورُ عَلَى البَرِّ

---

(١) الصن والصنبر هما اليومان الأولان مما يسميه العرب بأيام العجوز ، وهي خمسة أيام أوسبعة يبلغ فيها البرد أقصاه .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ومثبتة في الحاشية .

فَأَنْتَ جَزَاه صَوْمِنَا وصَلاَتِنَا وفيكَ رَأَيْنَا ما ابْتَغَيْنَا مِنَ الأَجْرِ
ومِنْكَ اسْتَمَدَّ الفِطْرُ مَطْعَمَ فِطْرِنَا وفيكَ أَرَتْنَا قَدْرَهَا لَيْـلَةُ القَدْرِ
وباسْمِكَ عَزَّتْ في الخِطَابِ مَنَابِرٌ بأَسْعَدِ عِيدٍ عادَ بالسَّعْدِ أَوْ فِطْرِ
ولاحَ لنـا فِيهِ هِلالٌ كأَنَّـهُ بَشِيرٌ بِفَتْحٍ مِنْكَ أَشْرَقَ بالبِشْرِ
أَهَلَّ فأَهْلَلْنـــا إِلَيْـهِ تَمَثُّـلاً بِرُحْبِكَ جِنْحَ اللَّيْلِ بالضَّيْفِ تَسْتَقْرِي
وأَسْفَرَ عَنْ زُهْرِ النُّجُومِ كَأَنَّمَـا جَبِينُكَ أَبْدَى عن خَلاَئِقِكَ الزُّهْرِ
عَلاَ وتَدَانَى للعُيُونِ كما عَلاَ مَحَلُّكَ واسْتَدْنَيْتَ بُعْداً عَنِ الـكِبْرِ
وذَكَّرَنَا عَطْفاً بِعَطْفِكَ حانِيــاً عَلَى الدِّينِ والإسلامِ في البَدْوِ والحَضْرِ
هلالُ مَسَاءٍ باتَ يَضْمَنُ لِلضُّحَى غَدَاةَ المُصَلَّى مَطْلَعَ الشَّمْسِ والبَدْرِ
ومِلْءُ عُيُونِ النَّاظِرِينَ كَتَائِبــاً كَتَبْتَ بِهَا الآفاقَ سَطْراً إلى سَطْرِ
مُخَطَّطَةً بالخَيْلِ والأُسْدِ والحُلَى ومُعْجَمَةً بالبِيضِ والبِيضِ والسُّمْرِ
وصادِقَـةَ الإقْدَامِ تَهْتَزُّ لِلْوَغَى وخافِقَةَ الأَعْلاَمِ تَعْتَزُّ بالنَّصْرِ
/ فَصَلَّيْتَ وَهْيَ النُّورُ في مَشْرِقِ العُلاَ وأَصْلَيْتَ وَهْيَ النَّارُ في مَغْرِبِ الكُفْرِ [٥٠ ب]
ولما اسْتَهَلَّتْ بالسَّلاَمِ صَلاَتُهُمْ أَهَلَّتْ إلى تَسْلِيمِهِمْ سُدَّةُ القَصْرِ
فَكَرُّوا يُعِيدُونَ السَّلاَمَ عَلَى الذي يُعَاوِدُ عَنْهُمْ في العِدَى صادِقَ الكَرِّ
يُحَيُّونَ بالإعْظَامِ مَوْلىً حَنَانُـهُ أَخَصُّ بِهِمْ مِنْ رَأْفَـةِ الوالِدِ البَرِّ
ووافَوْا سرِيرَ المُلْكِ يَسْتَلِمُونَـهُ كَمُسْتَلِمِ الحُجَّاجِ لِلرُّكْنِ والحِجْرِ

مَشَاهِدُ غارَتْ في البِلاَدِ وَأَنْجَدَتْ ... مُحَقَّقَـةَ الأَنْبَاءِ طَيِّبَـةَ النَّشْرِ
أَنارَتْ فَمَا بِالْخُلْدِ عَنْهُنَّ مِنْ عَمًى ... ولا بِزَبَابِ الرَّمْلِ عَنْهُنَّ مِنْ وَقْرِ (١)
فـكيْفَ بأَبْصَارٍ أَضاءَتْ لَها المُنى ... إِلَيْكَ وأَسْمَاعٍ صَفَتْ فيكَ لِلْجَبْرِ (٢)
ولا مِثْلَ مَجْلُوِّ النوَاظِرِ بالْعِدىٰ ... بَيَاتاً ومَفْتُوقِ المَسَامِعِ بالذُّعْرِ
تَوَقَّى فأَبْلَى عُذْرَ نَاجٍ مُخَاطِرٍ ... فَرَدَّ المنايا عنهُ مُبْلِيَةَ الْعُذْرِ
وآنَسَ يا «مَنْصُورُ» عِنْدَكَ نَفْسَهُ ... فَجَلَّى لَها تَحْتَ الدُّجى نَاظِرَيْ صَقْرِ
فأَهْوىٰ إلى مَثْوَاكَ أَمْضَى مِنَ الْهَوىٰ ... وأَسْرىٰ إلى مَأْوَاكَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ
فَـكَمْ جُزْتُ من سَيْفٍ لِقَتْلِي مُنْتَضًى ... وجاوَزْتُ من لَيْثٍ لِضَغْمِيَ مُفْتَرِّ
فيا خِزْيَ ذا مِنْ سَبْقِ خَطْوِ مُخَاطِرٍ ... ويا لَهْفَ ذا مِنْ فَوْتِ غِرَّةِ مُغْتَرِّ
كأَنَّ خُفُوقَ القَلْبِ مَدَّ جوانِحِي ... بأَجْنِحَةٍ رِيشَتْ منَ الرَّوْعِ والذُّعْرِ
وتَحْتَ جَنَاحَيْ مَقْدِمِي وتَعَطُّفِي ... ثمانٍ وَعَالَتْ بِالْبَنِينَ إلى الشَّطْرِ
أَخَذْتُ لَهُمْ إِصْرَ الحياةِ فأَجْلُوا ... وقد أَخَذَ الإِشْفَاقُ مِنِّي لَهُمْ إِصْرِي
فَحَمَّلْتُهُمْ وِزْراً ولَوْ خَفَّ مِنْهُمُ ... جَنَاحِي لكانَ الطَّوْدُ أَيْسَرَ مِنْ وِزْرِي
فلِلّٰهِ من أَعْدَادِ أَنْجُمِ يُوسُفٍ ... تَحَمَّلَهَا مِنْهَا أَقَلُّ مِنَ الْعُشْرِ
إلى كُلِّ مَأْوًى لِلْجَلاَءِ هَوىٰ بِنَا ... إلى حَيْثُ لا مَهْوىٰ عُقَابٍ ولا نَسْرِ

---

(١) الخلد بضم الخاء وفتحها ضرب من الجرذان عمي ، والزباب الفأر الأصم ، والوقر الصمم .

(٢) الجبر هو أن تغني الرجل من الفقر أو تحسن إليه .

رحَلْتُ لَهُ عُوجاً كَأَنَّ هُوِيَّهَا بِنَا فِيهِ(1) أَفْلَاكٌ بِأَنْجُمِهَا تَجْرِي
طَوَيْنَ بِنَا بُعْدَ السِّفَارِ كَأَنَّهَا لِيالٍ وأَيَّامٌ طَوَيْنَ مَدَى الْعُمْرِ
ورُبَّتَمَا اسْتَوْدَعْنَنَا بَطْنَ حُرَّةٍ هَوَائِيَّةِ الأَحْشَاءِ مَائِيَّةِ الظَّهْرِ
رَحِيبَةِ مَأْوَى الضَّيْفِ مَانِعَةِ الْقِرَى وغَيْرُ ذَمِيمٍ أَنْ تُضِيفَ وَلاَ تَقْرِي
فَكَمْ لِيَ بَيْنَ اللَّوْحِ واللَّوْحِ طائِراً وَأَوْكَارُهُمْ فِي طَائِرٍ غَيْرِ ذِي وَكْرِ
/ وكَمْ أَسْلَمُوا لِلْعَسْفِ وَالخَسْفِ مِنْ حِمًى [٥٠ ب]
وكَمْ تَرَكُوا لِلغَصْبِ والنَّهْبِ من وَفْرِ
وكَم وَجَّهُوا وَجْهاً لِبَارِقَةِ الظُّبِي وكَم وَطَّنُوا نَحْراً لِنَافِذَةِ النَّحْرِ
وكَمْ أَقْدَمُوا بَيْنَ المَنَايَا كَمَا هَوَتْ فَرَائِسُ أُسْدِ الْغَابِ لِلنَّابِ والظُّفْرِ
وكم بَدَّلُوا مِنْ وَجْهِ رَاعٍ وحَافِظٍ وُجُوهَ المنايا السُّودِ والحَدَقِ الْحُمْرِ
ومن رَفْرَفِ الأَسْتَارِ دُونَ حِجَالِهَا تَرَقْرُقَ لَمْعِ الآلِ في المَهْمَهِ الْقَفْرِ
ومن ساجِعِ الأَطْيَارِ فَوْقَ غُصُونِهَا مُرَاسَلَةَ الأَلْحَانِ في نَغَمِ الْوَتْرِ
تُنَادِي عَزِيفَ الجِنِّ في ظُلَمِ الدُّجَى وهَوْلَ الْتِطَامِ المَوْجِ في لُجَجِ البَحْرِ
وكم زَفْرَةٍ نَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِحَسْرَةٍ أَنَارَتْ بِنَارِ السِّرِّ في عَلَمِ الجَهْرِ
ونادَت عُيُونَ الشَّامِتِينَ إِلى القِرَى بِأَفْلَاذِ أَكْبَادٍ كَصَالِيَةِ الْجَزْرِ
وماذا جَلاَ وَجْهُ الجَلاءِ مَحَاسِناً تَهَابُ العُيُونُ ما نَثَرْنَ من الدُّرِّ

---

(1) في الأصل : ينافيه .

وماذا تَلَظّى الحرُّ في حُرِّ أوْجُهٍ تَنَسَّمُ فيهِ بَرْدَ ظِلٍّ عَلَى نَهْرِ

وماذَا أَجَنَّ اللَّيْلُ في مُوحِشِ الْفَلاَ أَوَانِسَ بالأَتْرَابِ في يانِعِ الزَّهْرِ

وماذا تَرَامَى المَوْجُ في غَوْلِ لُجَّةٍ بِلاَهِيَةٍ بَيْنَ الأَرَائِكِ والخِدْرِ

فإِنْ نَبَتِ الأَوْطَانُ مِنْ بَعْدُ عَنْهُمُ فلاَمَحْجَرِي حَجْرٌ عَلَيْهِمْ وَلاَحِجْرِي

وإِنْ ضَاقَ رَحْبُ الأَرْضِ عَنْ مُنْتَوَاهُمُ (١)
فَرَحْبٌ لَهُمْ مَا بَيْنَ سَحْرِي إِلَىٰ نَحْرِي

وإِنْ تَقْسُ أَكْبَادٌ كِرَامٌ عَلَيْهِمُ فواكَبِدِي مِمَّنْ تَذُوبُ لَهُ صَخْرِي

وإِنْ تَبْرَمِ الأَيْسَارُ في أَزَمَاتِهِمْ فأَحْبِبْ بِأَيْسَارٍ قَمَرْتُ لَهُمْ يُسْرِي (٢)

فَفَازُوا بِنَفْسِي غَيْرَ جُزْءٍ ذَخَرْتُهُ لِمَا شَفَّ مِنْ خَطْبٍ وما مَسَّ مِنْ ضُرِّ

فَعَفْوٌ لَهُمْ جَهْدِي وحُلْوٌ لَهُمْ مُرِّي وصَفْوٌ لَهُمْ طِرْفِي (٣) ويُسْرٌ لَهُمْ عُسْرِي

وإِنْ أَضْرَمُوا قَلْبِي فَجَمْرِي لَهُمْ نَدٍ وإِنْ غَيَّضُوا شِرْبِي فَرَوْضِي لَهُمْ مُثْرِ

وَدَائِعُ نَفْسِي عِنْدَ نَفْسِي حَفِظْتُهَا بِمَا ضَاعَ مِنْ حَقِّي وما هَانَ مِنْ قَدْرِي

---

(١) في الأصل : منثواهم ، ولم يرد في اللغة انفعل من ثوى مما حملنا على تصحيحها بالشكل الذي أثبتنا ، والمنتوى اسم مكان من انتوى ومن معانيها أقام واستقر ، يقال انتوى القوم منزل كذا أي أقاموا فيه .

(٢) الأيسار الأولى جمع يسر بفتح الياء وفتح السين أو سكونها ومعناه الإنسان السمح اللين الانقياد ، والثانية جمع يسر بفتحتين ومعناها المجتمعون على الميسر أو اللاعب بالقداح .

(٣) الطرف هو الجديد المستفاد من المال .

قَلِيلٌ غِنَاهُمْ عَنْ يَدِي وَغَنَاؤُهُمْ ... سِوَى أَنَّهُمْ مِنْ ضَيْمِ كَسْبِي لَهُمْ عُذْرِي

وأَنَّي لَهُمْ في مَاءِ وَجْهِيَ تَاجِرٌ ... أَغَنَمُهُمْ غُنْمِي وَأَرْبَحُهُمْ خُسْرِي

وأَسْلِمُ في وَخْزِ السَّفَى[1] ثَمَرَ المُنَى ... وأَبْذُلُ في قَذْفِ الحَصَى جَوْهَرَ الشُّكْرِ

وإنْ نَفَقَتْ عِنْدِي بِضَاعَةُ قَانِعٍ ... تَقَنَّعْتُ مِنْهَا في خَزَايَةِ مُعْتَرِّ[2]

. . . .

وأَنْجُمِ أَنْوَاءٍ تَنُوءُ بِهَا النَّوَى ... وَلَيْسَ لَهَا إلاَّ دُمُوعِيَ مِنْ قَطْرِ[3]

---

(١) السفى هو شوك السنابل .

(٢) الخزاية هي الاستحياء ، والمعتر هو المتعرض المعروف من غير أن يسأل ، وقد قابل الشاعر بها القانع وهو السائل ، وفي القرآن الكريم « وأطعموا القانع والمعتر » (سورة الحج ، آية رقم ٣٦) ، وقد فسرها جماعة من أهل اللغة بما أسلفنا ذكره .

(٣) سقطت في هذا الموضع من الاصل — كما يرى — الورقة رقم ٥١ التي يبدو أنها تشتمل على آخر هذه القصيدة وأول القصيدة التالية ، على أنني وجدت في كتاب « رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة » (شرح الشريف الغرناطي على مقصورة حازم القرطاجني — ط . القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .) — أقول وجدت في هذا الكتاب عشرة أبيات رائية لابن دراج القسطلي من بحر هذه القصيدة ورويها ، وهي تتناول نفس الموضوع الذي تتحدث عنه الأبيات الاخيرة من القصيدة ، إذ أن ابن دراج يتحدث فيها عن أبنائه ورحيله بهم وما تجشمه من المشاق بسببهم ، فرجحت أن تكون هذه الابيات تكملة لتلك القصيدة أو جزءاً منها على الاقل ، مما حملني على أن ألحقها بها ، واضعا إياها بين معقوفين . وقد جاءت هذه الأبيات العشرة المذكورة في شرح المقصورة ١ / ٤٤ .

وَلا مَطْلَعٌ إلا مِهَادِيَ أَوْ حِجْرِي وَلا مَغْرِبٌ إلاَّ ضُلُوعِيَ أَوْ صَدْرِي
إِذَ ازْدَحَمُوا في ضَنْكِ شِرْبِي تَمَثَّلُوا بِأَسْبَاطِ مُوسَى عِنْدَ مُنْفَجَرِ الصَّخْرِ
فما جَهِدُوا فُلْـكاً كَمَا جَهِدُوا يَدِي وَلا أَنْقَضُوا ظَهْراً كَمَا أَنْقَضُوا ظَهْرِي
كَأَنَّ لَهُمْ وِتْراً عَلَيَّ وما انْتَحَى لَهُمْ حَادِثٌ إلاَّ وَفِي نَفْسِهِ وِتْرِي
وَلَوْلاَهُمُ لَمْ أَبْذِ صَفْحَةَ مُعْدِمٍ وَلَمْ أُسْمِعِ الأَعْدَاءَ دَعْوَةَ مُضْطَرِّ
ولا جُدْتُ لِلدُّنْيَا بِخُلَّةِ وَاصِلٍ وَلَوْ بَرَزَتْ لِي في غَلاَئِلِهَا الخُضْرِ
وَنَادَيْتُ في بِيضِ النُّضَارِ وصُفْرِهَا لِغَيْرِيَ فَابْيَضِّي إِذَا شِئْتِ وَاصْفَرِّي
ولٰـكِنْ[1] أَبَى مَا فِي الفُؤَادِ مِنَ الأَسَى وَأَعْضَلَ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ مِنَ الجَمْرِ
وما لَفَّ عَهْــــدُ اللهِ في ثَوْبِ غُرْبَتِي
مِنَ الآنِسَاتِ الشُّعْثِ والأَفْرُخِ الزُّعْرِ[2]

. . . .

(١) في شرح المقصورة : «لكن».

(٢) في الأصل : الذعر ، ونظن أن الصواب ما أثبتنا ، والزعر جمع أزعر وهو من الحيوان والطير ما خف شعره أو ريشه.

[وله فيه أيضاً رحمهما الله :]

[من الطويل]

. . . .

/ مُجَدَّدُ مُلْكٍ أَحْرَزَتْهُ جُدُودُهُ — أَعِزَّةُ أَمْلَاكِ الْهُدَى وَأَكَارِمُهْ [٥٢م]

فَأَعْرَبَ عَنْ أَيَّامِ يَعْرُبَ وَاقْتَدَى — بِمَا عَظُمَتْ أَذْوَاؤُهُ وَأَعَاظِمُهْ

وأَنْجَبَهُ لِلطَّعْنِ وَالضَّرْبِ «عَمْرُهُ» — وأَخْلَصَهُ لِلْجُودِ وَالْحَمْدِ «حَاتِمُهْ»

شُجَاعٌ وَلٰكِنَّ الجِيَادَ حُصُونُهُ — كَرِيمٌ ولٰكِنَّ المَعَالِي كَرَائِمُهْ

تَلَاقَتْ عَلَيْهِ الْخَيْلُ والبِيضُ وَالْقَنَا — قِيَامًا لِمَنْ لا سَعْيُ سَاعٍ يُقَاوِمُهْ

وخَلَّتْ لَهُ الأَمْلَاكُ عَنْ سُبُلِ الهُدَى — فَلَيْسَ سِوَى طِيبِ الثَّنَاءِ يُزَاحِمُهْ

مُقَسِّمُ ما يَحْوِيهِ في سُبُلِ النَّدَى — وإِنْ كانَ قَدْ حَابَاهُ في الحَظِّ قَاسِمُهْ

فما خابَ في يومِ النَّدَى من يَنُوؤُهُ — ولا فازَ في يومِ الْوَغَى مَنْ يُحَاكِمُهْ

ولا ادُّعِيَتْ في المَأْثُرَاتِ حُقُوقُهُ — ولو أَقبلَتْ زُهْرُ النجومِ تُخَاصِمُهْ

ودَعْوَى النُّهَى والحِلْمِ في غَيْرِ «مُنْذِرٍ» — خيالٌ من الأَحْلامِ أَضْغَثَ حَالِمُهْ

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْجُو من المُلْكِ غِرَّةً — وما حَوَّمَتْ إِلَّا عَلَيْكَ حَوَائِمُهْ

ولا رُفِعَتْ إِلَّا إِلَيْكَ عُيُونُهُ — ولا طَأْرَتْ إِلَّا عليكَ روائِمُهْ

ولا راقَ إلا في جبينِكَ تاجُـهُ ... ولا قَرَّ إلا في يمينِكَ خاتِمُهْ
فكيفَ بِذي جَهْلٍ تَعَسَّفَ مَجْهَلاً ... يبرِّحُ واقيهِ ويَحْتِمُ حاتِمُهْ (١)
فغالتـــه في غَوْلِ المَهامِـــهِ غُولُهُ ... وهامَتْ به في التُّرَّهاتِ هَوائمُهْ
أباحَ حِمَى الإسْلامِ لِلشِّرْكِ مَغْنَماً ... لِتُقْسَمَ بينَ النَّاهِبِينَ مَغانِمُهْ
وفَضَّ خِتَامَ اللهِ عن حُرُماتِهِ ... لِيُفْتَضَّ عمَّا تَحْتَوِيهِ خَوَاتِمُهْ
وَعَدَّ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ مُـــدَامَةً ... فَبَرَّحَ في الأَعْـدَاءِ عَمَّنْ يُنَادِمُـهْ
فإنْ أَلْقَحَ الحَرْبَ العَوَانَ فَحَسْبُهُ ... فَوَافِرُ ما شَالَتْ بِهِ وَأَشائِمُهْ
وإنْ زُجَّ في جَفْنِ الرَّدَى فَلِحَيْنِهِ ... تَخَازَرَ ساجيـهِ وأُوقِظَ نَائِمُهْ
غَدَاةَ دعاكَ الدِّينُ مِنْ أَسْرِ فَعْلَةٍ (٢) ... وقد أَوْشَكَتْ أَنْ تُسْتَبَاحَ مَحَارِمُهْ

---

(١) التعسف هو السير على غير علم ولا هداية ، والواقي هو الصرد (بضم الصاد وفتح الراء) وهو طائر فوق العصفور ، وقيل إنه سمي بذلك لحكاية صوته ، والحاتم هو الغراب الأسود ، وهو دليل الشؤم سمي كذلك لأنه يحتم عندهم بالفراق إذا نعب أي يحكم . وكثيراً ما يذكر الشعر العربي الواقي والحاتم في معرض زجر الطير : قال مرقش السدوسي :

ولقد غدوت وكنت لا ... أغـدو على واق وحاتم

وقال الرقاص الكلبي :

وليس بهيـاب إذا شد رحله ... يقول عداني اليوم واق وحاتم

والتبريح هو التعذيب وشدة الأذى أو هو قتل السوء ، وقد تكون مشتقة من قولهم برح الطير أو الوحش أي مر من يمينك إلى شمالك والعرب تتطير به .

(٢) كذا ، ويبدو أنها اسم بلد أو قلعة ، وقد ورد ذكرها مرة أخرى —

فلَبَّيْتَهَا فانْجَابَ عَنْهَا ظَلاَمُهُ وَوَافَيْتَهَا فاسْتَنْكَرَتْهَا مَظَالِمُهْ

وجاءكَ مَدُّ اللهِ من كلِّ ناصرٍ على الحقِّ مَهْدِيًّا إِلَيْكَ مَقَادِمُهْ

ـ بنفس هذه الصورة في بيت آخر من قصيدة دالية لابن دراج سترد فيما بعد ويقول فيها متحدثا عن « مارق » أعلن العصيان على منذر بن يحيى :

وليست « فملة » تشناك لكن علاك أهلها ضد العناد

ولو وجدوا السبيل إليك يوما لما خفيت لهم طرق الرشاد

وقد يكون هذا الاسم محرفاً عن « فنلة » ، فهناك موضعان يحملان هذا الاسم بالإسبانية Fanlo) من أعمال مدينة وشقة ، وهما يسميان الآن : Fanlo de Vio و Fanlo de Jaca (انظر معجم مادوث الجغرافي : Madoz : Diccionario ...VIII,P.I). ونحن نعلم أنه كان على مدينة وشقة نزاع بين منذر بن يحيى وأحد أبناء عمومته وهو أبو يحيى محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صمادح التجيبي الذي كان واليا على وشقة وأعمالها في أيام هشام المؤيد ثم أكد له ذلك سليمان بن الحكم المستعين فأمضاه على عمله وكان أول أمره مائلا إلى منذر مظهراً موافقته مكاتما حسده له ثم تكاشفا وتحاربا على ملك وشقة فعجز ابن صمادح عن منذر وأسلم له البلد وفر بنفسه وهو أبو معن بن محمد الذي ولي بعد ذلك على المرية (انظر ابن الخطيب : أعمال ص ١٨٩ وابن الأبار : التكملة ترجمة رقم ٤٠٩) ،

هذا وقد يكون هذا الموضع كذلك تحريفا لكلمة « بفلة » وهي التي تسمى الآن بويل Buil (وكان اسمها القديم Bailo أو Bagilo) في مقاطعة شبررب Sobrarbe ، وتقع في مواجهة لاردة lérida ووشقة وكانت هذه المقاطعة في مطالع القرن الخامس الهجري قومسية شبه مستقلة حتى ضمها شانجه الأكبر Sancho El mayor (ابن شنج) إلى مملكة نبرة .

(انظر Fr. Justo Pérez de Urlel : Sancho el mayor ,PP. 37 - 39.307) .

ونادى «أبومَسْعُودٍ»[1] النَّصْرَ مُسْعِداً عزائمَكَ اللاَّتي تَلِيهَا عزائِمُهْ
بِوُدٍّ كَماءِ الْغَيْثِ يَسْقِي رِيَاضَهُ وبَأْسٍ كَحَرِّ النَّارِ يُضْرِمُ جاحِمُهْ
[٥٢ ب] / عَلى كُلِّ مَنْ حارَبْتَ فَهوَ مُحارِبٌ كِفاحاً ومن سالَمْتَ فَهْوَ مُسالِمُهْ
وأَعْصَمَ بالإِشْراكِ قائِدُ بَغْيِهَا إلى مَلِكٍ رَبُّ السَّمَوَاتِ عاصِمُهْ
فما رَكَضُوا طِرْفاً إلَيْكَ لِغَارَةٍ وأَسْهَلَ إلاَّ أَسْلَمَتْهُ قوائِمُهْ
ولا أَصْلَتُوا سَيْفاً وأَنْحَوْكَ حَدَّهُ فَفَرَّجَ عَنْ مَثْنَى يَمِينِكَ قائِمُهْ
ولا أَشَّبُوا حِصْناً يَرُدُّكَ عَنهُمُ وقابَلْتَهُ إلاَّ تَدَاعَتْ دَعَائِمُهْ
وإنْ أَحْرَزُوا في قُطْرِ[2] «شَنْجٍ» نُفُوسَهُمْ
فغـانِمُ مَا لاَ يَحْفَظُ اللهُ غارِمُهْ
فكَمْ قُدْتَ في أَكْنافِهَا من مُقَنَّعٍ نُفُوسُ الأعادِي شُرْبُهُ ومطاعِمُهْ
خَمِيسٌ لِجُنْحِ اللَّيْلِ من أَنْجُمِ الدُّجَى حُلاَهُ ومن شَمْسِ النهارِ عمائِمُهْ
كَأَنَّ شعاعَ الشمسِ تحت عَجاجِهِ إذا ما الْتَقَى الجمعانِ سِرٌّ وكاتِمُهْ
تَجِيشُ بِوَدْقٍ من جَنَى النَّبْعِ صائِبٍ أَساوِدُهُ نَحْوَ العِدَى وَأَرَاقِمُهْ

(١) لم نهتد للتحقق من شخصية أبي مسعود هذا الذي يبدو أنه كان من كبار قواد منذر بن يحيى ، على أن ابن دراج سيشير إليه في موضع آخر من هذا الديوان بشكل أكثر تفصيلا في قصيدته العينية التي أولها « نور الوفاء بأرضنالك ساطع » .

(٢) في الأصل : بطر . أما « قطر شنج » فيعني به بلاد البشكنس أو مملكة نبرة التي كان يحكمها في ذلك الوقت شانجه بن غرسية (انظر تعليقنا على ص ٩٧)

كما حَمَلَتْ رَحْلَ الدَّبا عاصِفُ الصَّبَا | أَوِ انْهَلَّ بالوَبْلِ الأَجَشِّ غمَائِمُهْ
وهَدَّ هَوَاءُ الجَوِّ نَحْوَ بِنَائِهَا | هُوِيَّ سِلاَمٍ[1] حانَ مَنْ لا تُسَالِمُهْ
ولَوْ لَمْ تُصَادِمْهُ بِطَوْدٍ مِنَ القَنَا | لأَقْبَلَ أَطْوَادُ الجِبَالِ تُصَادِمُهْ
ولَوْ لَمْ تُزَاحِمْهُ المَجَانِيقُ لانْبَرَتْ | عَلَيْهِ نُجُومُ القَذْفِ عَنْكَ تُزَاحِمُهْ
ولَيْسَ ولَوْ سَامَى السَّمَاءَ بِمُعْجِزٍ | مِنَ المَشْرَفِيِّ وَالعَوَالِي سَلاَلِمُهْ
فَسَرْعَانَ ماأَقْوَى الشَّرَى مِن ضِبَاعِهِ[2] | وبَرْبَرَ[3] في ذاكَ العَرِينِ ضَرَاغِمُهْ
وطَيَّرَ عن لَيْلِ الأَباطيلِ بُومَهُ | وشُرِّدَ عن بَيْضِ النفاقِ نعائِمُهْ
وبَدَّلْتَ حُكْمَ اللهِ من حُكْمِ غَيِّهِ | فأَنْفَذَ حُكْمُ اللهِ ما أَنتَ حاكِمُهْ
فيا رُبَّ أَنفٍ للنفاقِ جَدَعْتَهُ | بِهَا و«ابْنُ شَنْبَجٍ» صاغِرُ الأَنْفِ راغِمُهْ
غداةَ أَطارَ العقلَ عنه ونَفْسَهُ | بسيفِكَ يومٌ راكِدُ الهَوْلِ جاثِمُهْ
فما يَرْتَقُ الأَرْوَاحَ إلا رِيَاحُهُ | ولا يَفْتُقُ الغَمَّاءَ إلا غَمَاغِمُهْ
فلا نُطْقَ إلاَّ أَن يُفَدِّيكَ صارِخٌ | ويدعُوكَ بالبُقْيَا عليها أَعاجِمُهْ
فَأَبْرِحْ بيومٍ أَنتَ بالنَّصْرِ مُقْدِمٌ | وأَفْرِحْ بيومٍ أَنت بالفتحِ قادِمُهْ
ومَنْزِلِ مَفْلُولٍ نَزَلْتَ وخيلُنا | مرابِطُهَا أَجسادُهُ وجَماجِمُهْ
ومُعْتَرِفٍ بالذَّنْبِ مُبْتَئِسٍ بِهِ | دعاكَ وقد قامَتْ عليه مآتِمُهْ
/ إذا صَدَّهُ الموتُ الذي سامَ نَفْسَهُ | يَكُرُّ به العَيْشُ الذي هُوَ سائِمُهْ [٥٣ م]

---

(١) السلام جمع سلمة (بفتحة فكسرة) وهي الحجارة الصلبة ؛ وحان أي مات .
(٢) في الأصل : ضياعه .
(٣) البربرة هي الجلبة وكثرة الصياح ، ويقال للاسد مبربر وبربار .

فتَلْقَاهُ أطرافُ القَنَا وَهْوَ نُصْبُهَا ... ويَصْعَقُهُ بَرْقُ الرَّدَى وَهْوَ شائِمُهْ
إذا كادَ يقضِي بالأَسَى نَحْبَهُ قَضَتْ ... له الرَّحِمُ الدُّنْيَا بأَنَّكَ راحِمُهْ
فلم أَرَ أَمْضَى مِنْكَ حُكْماً تَحَكَّمَتْ ... عَلى سيفِهِ يَوْمَ الحِفَاظِ مكارِمُهْ
ولا مِثْلَ حِلْمٍ أَنْتَ لِلْغَيْظِ لابِسٌ ... ولا مِثْلَ غَيْظٍ أَنتَ بالحِلْمِ كاظِمُهْ
فأَوْسَعْتَهُ حُكْمَ «النَّضِيرِ» وَقَدْ حَكَى ... «قُرَيْظَةَ» منه غِلُّهُ وجَرَائِمُهْ [1]
فَوَلَّى وقد وَلاَّكَ ذُو العَرْشِ عَرْشَهُ ... وطارَ وقد طارَتْ إلَيْكَ قوادِمُهْ
وأُبْتَ وقد لاَحَتْ سُعُودُكَ بالمُنَى ... وغارَتْ بِهِ في الأَخْسَرِينَ عَوَاتِمُهْ [2]
تُغَنِّي لَكَ الرُّكْبَانُ بالفَتْحِ قافِلاً ... وتبكِي عَلَيْهِ بالحِمَامِ حَمَائِمُهْ
فَمَنْ يَنْصُرِ الرَّحْمٰنُ هَذِي عَزَائِمُهْ ... ومن يَخْذُلِ الرحمنُ هذِي هَزَائِمُهْ

---

(١) في الاصل «النظير» عوضاً عن «النضير»، وقد قومناها بما يرى، ولعل ابن دراج يشير هنا إلى حكم رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام على بني النضير يهود المدينة الذين ائتمروا بالنبي ونقضوا عهده فحاصرهم المسلمون ثم صالحهم النبي على أن يجلوا عن المدينة وأن يكونوا آمنين على دمائهم وأموالهم وذراريهم، أما بنو قريظة فكانوا أيضا من يهود المدينة ظلوا بعد جلاء بني النضير، غير أنهم غدروا بالمسلمين أيضا في غزوة الخندق أو الأحزاب، فلما انتهت هذه الغزوة بفشل قريش وأحلافها حاصر المسلمون بني قريظة وحكم النبي ﷺ فيهم بقتل المقاتلة وقسمة الأموال وسبي الذرية والنساء. ويريد ابن دراج في هذا البيت أن منذر بن يحيى حكم في هذا الثائر عليه من أهله بحكم النبي في بني النضير (أي بالإجلاء دون القتل) مع أن جرائمه وغدره كانت كفيلة بأن توقع عليه حكم رسول الله على بني قريظة بالقتل.

(٢) العواتم هي نجوم الشتاء ذات الضوء الخافت.

وله فيه رحمهما الله يصف قدوم الامير ابن ميره (*) عليه سرقسطة أعادها الله

[من الكامل]

عَجَبًا لِغَيِّ الْحُبِّ لاحَ سَبِيلُهُ وَلِرُشْدِ حِلْمِكَ كَيْفَ ضَلَّ دَلِيلُهُ

(*) لم تشر كتب التاريخ الأندلسي إلى « ابن ميرو » المذكور ، ولسنا نعرف بشكل قاطع من هو ولا من أبوه أو جده المتسمي بميرو . على أننا اهتدينا في كتب التاريخ المسيحية على شخص يحمل هذا الاسم كان قومسا لإمارة بليارش Pallars الصغيرة في المنطقة المتاخمة للثغر الأعلى (سرقسطة) ولمملكة البشكنس (نبرة) ، وكانت هذه الإمارة — هي وإمارتا شبرب Sobrarbe وريباغورثا Ribagorza المجاورتان لها — تابعة من الناحية الاسمية لملك فرنسا ، ولو أنها كانت بالفعل مستقلة . وقد كان ميرو Miro ابنا لقومس بليارش المسمى ريمند الأول (باللاتينية Regemondo I) الذي كان يحكمها بين سنتي ٢٧١ و ٣٠٤ ه (٨٨٤ — ٩١٦ م) . أما ابنه « ميرو » فقد أنجب ولدين هما جيرمو Guillermo وريمند . ولعل « ابن ميرو » هو ابن لأحد هذين نسبه الشاعر إلى جده لشهرته . ونحن نعلم أن هذه الفترة التي كانت توافق حكم منذر التجيبي لسرقسطة كانت فترة احتضار تلك الإمارات الصغيرة التي كان « ابن شنج » (شانجه الأكبر ملك البشكنس) يعمل على ضمها إلى ملكه حتى تمكن من ذلك بالفعل في سنة ٤١ (١٠٢٥) ، على أن السنوات العشر السابقة لذلك كانت هي الفترة التي كافح فيها قوامس بليارش مكافحة شديدة للاحتفاظ باستقلالهم . ولسنا نستبعد أن تكون هذه الزيارة التي قام بها « ابن ميرو » لمنذر التجيبي بسرقسطة إنما كانت للاستعانة به على شانجه —

ولعَيْش صَبٍّ لا يَرِقُّ حَبِيبهُ مِمَّا شَجَاهُ ولا يُفيقُ عَـذُولُهُ
ولِقَاتِـلٍ بِالْهَجْرِ غَـيْرِ مُقَاتِلٍ يَفْدِيه مِنْ مَضَضِ العِتَابِ قَتِيلُهُ
إنْ خَطَّ في جَوِّ السَّمَاءِ مِثَالَهُ بَـدْراً فَبَيْنَ جَوَانِحِي تَمْثِيلُهُ
أَوْ شَرَّدَ التَّسْهِيدَ طَيْفُ خَيَالِهِ عَنْ نَاظِرَيَّ فَفِيهِمَا تَخْيِيلُهُ
وَلَهَانَ فيه مافقَدْتُ مِنَ الْكَرَى لَوْ كَانَ من نَظَرِي إِلَيْهِ بَدِيلُهُ
أَوْ كَانَ حُكْمُ هَوَاهُ لا تَحْرِيمُهُ وَصْلِي عَلَيْهِ وَلاَ دَمِي تَحْلِيلُهُ
غُصْنٌ يَمِيسُ بِهِ الصَّبَا فَيُقِيمُهُ طَوْراً وتُوهِمُهُ[1] الصَّبَا فَتُمِيلُهُ
فَكَأَنَّهُ في لَمْحِ طَرْفِيَ عَاثِرٌ وتَقِيه تَفْدِيَتِي لَهُ فَتُقِيلُهُ
وتَكَادُ أَنْفَاسِي تُزَايِلُ مَتْنَهُ لَوْلاَ كَثِيبٌ منهُ لَيْسَ يُزِيلُهُ
فَكَأَنَّمَا يُشْتَقُّ مِنْ حَرَكَاتِهِ نَغَمُ الغِنَـاءِ خَفِيفُهُ وثَقِيلُهُ

— والحيلولة دون توثبه على إمارته . انظر عن « ميرو » ونسبه وبعض أخباره
M.Serrano Sanz: Noticias Y.documentos Históricos Del Condado de Ribagorza hasta la Muerte de Sancho Garcés III, p p. 301 - 304, 316 - 318 ;

وانظر عن ضم شانجه الأكبر هذه القومسية إلى ملكه وما تخلل ذلك من الأحداث : Pérez de Urbel : Sancho el Mayor, pp. 37 - 47

وانظر كذلك عن نسبه وأعماله : Yosé Maria Lacarra : Textos Navarros del Códice de Roda (Estudios de Edad Media de la Corona de Aragón , Val . I.p.Z46) والمراجع المذكورة .

(١) كذا وربما كانت « وتوهنه » .

لَوْ أَنَّهُ يُشْتَقُّ مِنْ أَعْطافِهِ عَطْفٌ يُمَلِّلُ لَوْعَتِي تَعْلِيلُهُ

وعَلِيلُ لَحْظِ الطَّرْفِ أَعْدٰى طَرْفُهُ قَلْبِي بداء لا يُفِيقُ عليلُهُ

[٥٣ب]/ سَلَبَ المَلاَحَةَ في الظِّبَاءِ وفي المَهَا حتَّى اسْتَبَدَّ بِجُزْئِهَا تكميلُهُ

أَنفًا لِمَنْ سَكَنَ التَّرائِبَ أَنْ يُرٰى يَطَأُ التُّرابَ شَبِيهُهُ ومَثِيلُهُ

ولقد حَفِظْتُ لَهُ أَمانَةَ لاعِجٍ بالشَّوْقِ يَغْلِي في الفؤادِ غليلُهُ

وضَرَبْتُ من دَمْعِي عَلَى خَدِّي لَهُ غُرْمًا غرامِي بالقَضَاءِ كَفِيلُهُ

فَلَئِنْ صَبَوْتُ فلَسْتُ أَوَّلَ عاشِقٍ تَبِعَ الهَوٰى فَهَوٰى به تضليلُهُ

ولئِنْ صبرْتُ فلَسْتُ بِدعَ مُفَارِقٍ غَالَتْ حَبِيبَ النَّفْسِ عَنْهُ غُولُه

ولئن سَلَوْتُ فأَيُّ أُسْوَةِ واعِظٍ أَلْهَاهُ عن قَمَرِ السَّمَاءِ أُفُولُهُ (١)

فَسَمَا إِلَىٰ المَلَإِ الأَجَلِّ (٢) بِهِجْرَةٍ وَافىٰ بِهَا الرَّحْمٰنَ وَهْوَ خَلِيلُهُ

وهُنَاكَ يا « مَنْصُورُ » هِمْتَ بِهِمَّةٍ فِيهَا سُلُوُّ المُسْتَهَامِ وَسُولُهُ

طَلَبًا لِحَظٍّ لا يَذِلُّ عَزِيزُهُ من حَظِّ غَيٍّ لا يَعِزُّ ذَلِيلُهُ

فَهَدٰى وَأَهْدَانِي إِلَيْكَ مُبَرِّزًا شَهِدَتْ لَهُ في السَّابِقَاتِ عُدُولُهُ

---

(١) يشير الشاعر هنا إلى اتعاظ ابراهيم عليه الصلاة والسلام حينما أفل القمر بعد أن ظن أنه ربه : « فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين » (سورة الأنعام - آية رقم ٧٧) .

(٢) في الأصل « الملأ الأعلى » على أن الوزن لايستقيم بهذه الكلمة الأخيرة ولذا فقد استبدلناها بكلمة « الأجل » التي أثبتنا ، وقد تكون أيضاً « الأعز » .

وجَلاَ عليكَ بهِ الجَلاءَ مُهنّداً ... صَدَقَتْكَ عَنْ قَرْعِ الحُرُوبِ فُلُولُهُ

وعَفَتْ محاسِنه العِدَى فكأنّها ... في مَعْهَدِ الوَطَنِ القَقِيدِ طُلُولُهُ

إنْ يُصْدِهِ رَهَجُ الوَغى فَشُعَاعُهُ ... بالعِلْمِ لَمَّاعُ الجلاءِ صَقِيلُهُ

أوْ تُخْلِقِ البَلْوَى حَمَائِلَ حَلْيِهِ ... فعلى التَّجَمُّلِ والمُنَى تَجْمِيلُهُ

أو تَقْطَعِ الأيّامُ عَهْدَ ذِمامِهِ ... فالصَّبْرُ واصِلُ حبلِهِ موْصُولُهُ

فأتاكَ يا «مَنْصُورُ» فاقِدَ غِمْدِهِ ... بِرَجَاءِ مَجْرُورٍ إليْكَ ذُيُولُهُ

رَسْفَ المُقَيَّدِ في أضَالِيلِ الدُّجَى ... والقَفْرُ والبَحْرُ المُحِيطُ كُبُولُهُ

كُرَباً كَمَوْجِ البَحْرِ لا إهلالُهُ ... إلاَّ إليْكَ بِهَا ولا تَهْلِيلُهُ

فَلْيَهْنِ ذَا أَمَلٍ إليْكَ مآلُهُ ... وجَلاءَ مُرْتَحِلٍ إليْكَ رَحِيلُهُ

وظلامَ ليلٍ في جَبِينِكَ صُبْحُهُ ... وهَجِيرَ قَيْظٍ في ذَرَاكَ مَقِيلُهُ

وليَهْنِنَا وَلْيَهْنِكَ العِيدُ الّذي ... بِسَنَاكَ أشْرَقَ صُبْحُهُ وأصِيلُهُ

عِيدٌ إليكَ سَلاَمُهُ وقِوَامُهُ ... ونِظَامُهُ وزِحامُهُ وحُفُولُهُ

وعَلَى الإِلهِ مَعَادُهُ وعَتادُهُ ... وإيابُهُ وثوابُهُ وقَبُولُهُ

ولْيَهْنِ كُلَّ مليكِ شِرْكٍ عِيدُهُ ... يَوْمٌ إليكَ بُلُوغُهُ ووُصُولُهُ

[٥٤ م] / ضلّتْ به سُبُلُ الشّرائعِ واهْتَدَتْ ... بشريعةِ الزُّلْفَى إليْكَ سَبِيلُهُ

نَاشٍ على دِينِ السُّجُودِ وما دَرَى ... قَبْلَ السُّجودِ إليْكَ ما تَأْوِيلُهُ

أنْسَاهُ قَدْرُكَ ما أضَلَّ صَلِيبُهُ ... وأراهُ سَيْفُكَ ما حَوَى إنْجِيلُهُ

فأَجَارَ مَحْيَاهُ إِلَيْكَ نِزَاعُـهُ ... وأَعَزَّهُ بِكَ في الوَرَى تَذْلِيلُهُ
ولَئِنْ حَمَى عَنْكَ « ابْنُ مِيرُ » مَحَلَّةً ... في شَامِخٍ أَعْيَا النُّجُومَ حُلُولُهُ
ونَمَاه مُلْكٌ لا يُضَعْضَعُ تَاجُـهُ ... ووَقَاهُ عِزٌّ لا يُخَافُ خُمُولُهُ
فلَقَدْ دَعَاكَ إِلى رِضَاكَ وَدُونَـهُ ... غَوْلُ الضَّلاَلِ حُزُونُهُ وسُهُولُهُ
أَصْبَى إِلَيْكَ من الصَّبَا وَأَحنُّ مِنْ ... أُفُقٍ وَنَتْ عَنْهُ إِلَيْكَ قَبُولُهُ (١)
وأَجَلَّ قَدْرَكَ عن سِوَاهُ وقَدْرَمَا ... أَخْفَى إِلَيْكَ نَجِيُّهُ ودَخِيلُهُ
عَنْ صِدْقِ غَيْبٍ بِالْكِتَابِ يَبُثُّهُ ... أَوْ بَرْحِ شَوْقٍ بالرَّسُولِ يَقُولُهُ
فَهَوَى وصَفْحَتُهُ إِلَيْكَ كِتَابُـهُ ... وهَفَا ومُهْجَتُهُ إِلَيْكَ رَسُولُـهُ
عَجِلاً إِلى أَمَلٍ دَنَا تَعْجِيـلُهُ ... وَجِلاً بِهِ أَجَلٌ نَأَى تَأْجِيلُهُ
لِلَّهِ ما رَحَلَتْ إِلَيْكَ رِحَالُـهُ ... طَوْعاً ، وما حَمَلَتْ إِلَيْكَ حُمُولُـهُ
غازٍ وناصِرُهُ عَلَيْكَ خُضُوعُـهُ ... سارٍ وَطَاعَتُـهُ إِلَيْكَ دَلِيلُـهُ
نَشَرَ اللَّوَاءَ زَمَاعُـهُ ونِزَاعُـهُ ... فَطَوَى الْمَهَامِهَ نَصُّهُ وذَمِيلُهُ (٢)
ولقـد خَلَعْتَ قَبْـلَ دُنُوِّهِ ... بُرْداً تَفِيضُ عَلَى الفَضَاءِ فُضُولُـهُ
لِجَباً من الخَلَقِ المُضَاعَفِ نَسْجُهُ ... أَشِباً من الأَسَلِ المُثَقَّفِ غِيلُـهُ

---

(١) القبول هي الريح الطيبة ضد الدبور ، وقيل هي الصبا ، وونت أي فترت ، يقال النسيم الواني أي الخفيف الضعيف الهبوب .

(٢) الزماع هو السرعة والعجلة والمضي في الأمور ، والنص هو حث الدابة حتى تستخرج أقصى سيرها ، والذميل هو السير اللين السريع .

شَرِقاً بِهِ لُوحُ الهَوَاءِ وَجَوُّهُ غَرِقاً به عَرْضُ البلادِ وطُولُهُ[1]

مُسْتَقْبِلاً بِجُنُودِهِ وبُنُودِهِ مَلِكاً يُهِلُّ إليكَ حينَ تَهُولُهُ

ولَشَدَّمَا مَاجَتْ به أمْوَاجُهُ حتّى أسالَتْهُ إليكَ سُيُولُهُ

بِصَوارِمٍ في طَيِّهِنَّ تِرَاتُهُ وذَوابِلٍ في لَمْعِهِنَّ ذُحُولُهُ

غابَ تُساوِدُ ناظِرَيْهِ أُسُودُهُ مِنْ بَعْدِ مَا اخْتَالَتْ عليه خُيُولُهُ[2]

فَمَشَى إليكَ به الزِّحَامُ كأنَّهُ عَانٍ يُقَصِّرُ خَطْوَهُ تَكْبِيلُهُ

مَبْهُورُ أنفَاسِ الحَيَاةِ كَظِيمُهَا وغَضِيضُ لَحْظِ النَّاظِرَيْنِ كَلِيلُهُ

حتّى تَنَفَّسَ رُوحُهُ في رَاحَةٍ عَلْيَاءَ مَقْبولاً بها تَقْبِيلُهُ

[٥٤ ب] / ورَفَعْتَ نَاظِرَهُ بِنَظْرَةِ باسِطِ الأَمْنِ مَبْلُوغاً بِهَا تَأْمِيلُهُ

فَأَرَيْتَهُ كَيْفَ ارْتِجَاعُ حَيَاتِهِ ولَتِلْكَ أَيْسَرُ ما بَدَأْتَ تُنِيلُهُ

من فَيْضِ عُرْفٍ تَسْتَقِلُّ كَثِيرَهُ ولَقَدْ يَزِيدُ عَلَى الرَّجَاءِ قَلِيلُهُ

نُزُلاً يُذَكِّرُهُ العراقَ ومِصْرَهُ مُلْكاً ودِجْلَتَهُ يَدَاكَ وَنِيلُهُ

وشُرُوقُ شَمْسٍ لا يَحِينُ غُرُوبُهَا في بَرْدِ ظِلٍّ لا يَحُورُ[3] ظَلِيلُهُ

ورأى صَرِيعَ الخَطْبِ كَيْفَ تُقِلُّهُ ورأى عُثُورَ الجَدِّ كَيْفَ تُقِيلُهُ

ورأى ذَلِيلَ الحَقِّ كَيْفَ تُعِزُّهُ ورأى عَزِيزَ الشِّرْكِ كَيْفَ تُذِيلُهُ

---

(١) اللوح بضم اللام هو الهواء بين السماء والأرض .

(٢) ساوده أي لقيه في سواد الليل .

(٣) يحور أي ينقص .

وَرأى صُدُوعَ الدِّينِ كَيْفَ تَلمُّهَا ... وَرأى كَتِيبَ الكُفْرِ كَيفَ تَهِيلُهُ
وَلَئِنْ تَقَدَّمَ في رِضَاكَ قُدُومُهُ ... فَلَقَدْ تَزَوَّدَ من نَدَاكَ قُفُولُهُ
بِخَلائِقٍ من طِيبِهِنَّ خَلُوقُهُ ... وشَمائِلٍ من صَفْوِهِنَّ شَمُولُهُ
ومعالِمٍ لِعُلاكَ لا تَعظِيمُهُ ... لِسِوَى مَشَاهِدِهَا ولا تَبْجِيلُهُ
فَلَهَا بِقَدْرِ الرُّومِ وَهْيَ أَرُومُهُ ... وَزَرَى بِمُلْكِ الصُّفْرِ وَهْيَ أُصُولُهُ
لِمَنِ اصْطَفَى قَحْطَانَ عِزَّةَ مُلْكِهِ ... ومنَ التَّبَابِعِ جِذْمُهُ وقَبِيلُهُ
ولِمَنْ نَمَى سَبَأٌ بِسَبْيِ مُلُوكِهَا ... واسْتُخْلِفَتْ أَذْوَاؤُهُ وقُيُولُهُ
ولِمَنْ تَتَوَّجَ بالمَكَارِمِ تَاجُهُ ... عُلُواً وكُلِّلَ بالهُدَى إِكْلِيلُهُ
سَطَعَتْ عَلَى الأَمْلاكِ غُرَّةُ وَجْهِهِ ... نُوراً وأَشْرَقَ بالنَّدَى تَحْجِيلُهُ
فالله يُعْلِي قَدْرَهُ ويَزِيدُهُ ... صُنْعاً ويُنْسِىءُ عُمْرَهُ ويُطِيلُهُ
في عِزِّ نَصْرٍ لا زَمَانَ يَخُونُهُ ... وبقاءِ مُلْكٍ لا مُدِيلَ يُدِيلُهُ

— ٥١ —

وله فيه رحمهما الله وقد برأ من علة نالته

[من الطويل]

كَذا تَتَجَلَّى الشَّمْسُ بَعْدَ كُسُوفِهَا ... وتَبْرُزُ أَغْمَادُ الوَغَى من سُيُوفِهَا
ويَمْرَعُ بالأَشْجارِ عُودُ رَبِيعِهَا ... ويُونِعُ بالأَثْمَارِ كَرُّ خَرِيفِهَا

وتَعْلَمُ أَنَّ اللهَ أَبْقَى لِأَرْضِـهِ ... رِعَايَـةَ رَاعِيهـا وعَطْفَ عَطُوفِها

ورَحْمَتَـهُ أَبقَتْ حَيَاةَ رَحِيمِها ... ورَأْفَتُهُ جَادَتْ بِنَفْسِ رَؤُوفِهـا

حنانًا عَلَى مَـكْرُوبِها وغَرِيبِهـا ... وصُنْعًا إلى مَجْهُودِهـا وضَعِيفِها

ويا عَجَبَ الأَيَّامِ أَخْفَرْنَ ذِمَّةً ... لِمَلْكٍ مَتَى تَسْتَوْفِهِ الْعَهْدَ يُوفِها

[٥٥م] وكَيْفَ أَخَافَتْنا اللَّيالِي على الَّذِي ... يَقِي عَدْوَ عادِيها وخَوْفَ مُخِيفِها

وكَيْفَ انْتَحَى صَرْفُ الخُطُوبِ لِمُهْجَةٍ ... بِها أَمِنُ الإِسْلامُ جَوْرَ صُرُوفِها

وإِنْ غَرَّها بالجُودِ خَاتِلُ طائِفٍ ... تَهَجَّى لَهَا الشَّكْوَى بِغَيْرِ حُرُوفِها

فَدَبَّ إِلَيْها في عَدِيدِ عُفَاتِهـا ... ورَاحَ عَلَيْهـا في سِمَاتِ ضُيُوفِها

فَما يُنْـكِرُ الأَوْصابَ مَتْنُ مُهَنَّدٍ ... مُعَوَّدِ قَرْعِ البـاتِراتِ عَرُوفِها

ولا بَطْنُ كَفٍّ ما تُغِبُّ كَوَاكِبًا ... تَنُوءُ بِمُنْهَلِّ الغُيُوثِ وَكُوفِها[1]

مُقَبَّلُ أَفْوَاهِ المُلُوكِ وظِلُّهـا ... سَماءٌ عَلَى مَشْرُوفِهـا وشَرِيفِهَا

ولا قَدَمٌ لا تَسْأَمُ الدَّهْرَ تَرْتَقِي ... ذُرَى كُلِّ صَعْبِ المُرْتَقَاةِ مُنِيفِهَا

ولَوْ يَتَعَاطَى عَاصِفُ الرِّيحِ شَأْوَهَا ... لَعاذَ بِأَرْجَاءِ الْفَلَا مِنْ عُصُوفِهَا

وإِنْ نَالَ يا «مَنْصُورُ» مِنْ جِسْمِكَ الضَّنَى ... فَأَمْضَى اليَمَـانِيَّاتِ حَدًّا نَحِيفُهَا

صَفِيحَةُ ضَرْبٍ شَفَّها الهَامُ والطُّلَى ... فراقَتْ بِمَصْقُولِ الظُّبَاةِ مَشُوفُها[2]

---

(١) الوكوف هي الغزيرة.

(٢) أي مجلوها، اسم مفعول من شاف أي جلا.

عَنِيفٌ عَلَى الأَبْطالِ والبَذْلُ لِلْهُى   بِكَفٍّ عَلَى الإسلامِ غَيْرِ عَنيفِها
وإنْ أَسْبَلَتْ شَكْوَاكَ دَمْعَ أَبِيِّها   فقد أَرْقَأَتْ بُشْرَاكَ عَيْنَ أَسِيفِها
وإنْ ذَبُلَتْ من دَوْحَةِ المُلْكِ نَضْرَةٌ   فما أَوْحَشَ الدُّنْيا جَنِيُّ قُطُوفِها
لَمدَّتْ عَلَيْنا ظِلَّها مِنْ مِهادِها   ونُورَ سَناها مِنْ وَرَاءِ سُجُوفِها
وإنْ طَرَحَتْ عَنْها الرِّياسَةَ حَلْيَها   وبدَّلَها الإشْفاقُ لَوْثَ نَصِيفِها[1]
فَوَشْكَانَ ما عادَتْ من اللهِ نِعْمَةٌ   تَجَلَّتْ بِها في تاجِها وشُنُوفِها
فَرَدَّتْ على الإسلامِ نُورَ عُيُونِهِمْ   وأَهْدَتْ إلى الأَعْداءِ رَغْمَ أُنُوفِها
بِكَرِّ نواصِي الخَيْلِ نَحْوَ دِيارِها   تَنُصُّ المُنَى في نَصِّها ووَجيفِها
يَشُبُّ سيوفَ الهِنْدِ نُورُ دَلِيلِها   ويُعْيِي حِسابَ الهِنْدِ عَدُّ أُلُوفِها
وتُنْشِئُ رِيحُ النَّصْرِ مِنْها سَحائِباً   تَسُحُّ عَلَى الأَعْداءِ وَدْقَ حُتُوفِها
يُقَعْقِعُ رَعْدُ النَّصْرِ من جَنَباتِها   ويُومِضُ بَرْقُ الفَتْحِ بَيْنَ صُفُوفِها
وإنْ عُجْتَ يا « مَنْصُورُ » منها فأُسْوَةٌ   بِرَدِّ جُنُودِ المُصْطَفَى عن ثَقيفِها[2]
وصَدِّ هدايا البُدْنِ دُونَ مَحَلِّها   وقد أَكَلَ الأَوْبارَ طُولُ عُكُوفِها
وإنْ رُدَّ زَحْفُ الخَيْلِ مِنْكَ بِأَنَّةٍ   فأَعْداؤُها رَهْنٌ بِكَرِّ زُحُوفِها

---

(١) اللوث هو الطي ، والنصيف قيل هو خمار المرأة وقيل هو الثوب الذي تتجلل به المرأة فوق ثيابها .

(٢) يشير الشاعر هنا إلى رد النبي ﷺ على بني ثقيف نساءهم وأبناءهم وأموالهم في غزوة الطائف بعد أن استعطفوه وذكروه بما تتهم إليه .

[٥٥ب]/ وهَلْ غَادَرَتْ يمْناكَ إلاّ ودائِعاً خَتَمْتَ عَلَيْهـا في مَقَرِّ ظُرُوفِها

عَوَائِدُ طَيْرٍ في وُكُورِ بُرُوجِها وحَيَّاتُ غَوْرٍ في بُطُونِ كُهُوفِها

تـأَيَّى(١) نَوَاصِي الخَـيْلِ مَعْقُودَةً بِها عُهُودُ مَوَالِيها وحِلْفُ حَلِيفِها

كَتائِبُ يَـكْسُونَ الأَباطِـحَ والرُّبَى بِخَيْلٍ تَليدَاتِ الوَغَى وطَرِيفِها

تَرُدُّ عُيُونَ الجَـوِّ عَنْ لَمْحِ أَرْضِها

وتَثْـنِي أُنُوفَ البَحْرِ عَنْ سَوْفِ سِيفِها (٢)

وتُسْمِـعُ خِلْدَانَ الثَّرَى من صَهيلِها ويَخْرَسُ جِنَّانُ الفَلاَ عن عَزِيفِها (٣)

إذا أُرْسِلَتْ فيها العُيُونُ تَشَـكَّلَتْ نواظِرُهـا في سَيْرِها وَوُقُوفِها

لإِيلافِ شَمْلِ المُسْلِمِينَ بِرِحْلَةٍ تَشُجُّ بِمَشْتاها كُؤُسَ مَصِيفِها

يَقِيها هَجِيرَ القَيْظِ ظِلُّ عَجاجِها ومُجْمِدَةَ الأَنْهـارِ نارُ سُيُوفِهـا

فلا أُوْحَشَ الإِسلامَ عامُ جِهادِها ولا أُنِّسَ الأَعداءَ يَوْمُ خُلُوفِها

ولا خَتَرَتْ منكَ المَكارِمُ والعُلاَ صفاءَ مُصـافِيها وإِلْفَ أَليفِها

ولا انْصَرَفَتْ عنكَ الرَّغائِبُ والمُنَى ولا مِنْكَ إلا مالِئاتِ كُفُوفِها

وإِن رَجَعَتْ عن صِدْقِ وعْدِكَ بُرْهَةً حواجِبُ آمَالِ الغَرِيبِ بِصُوفِها

---

(١) في الأصل : تأبى ، ولعلها كما أثبتنا ، وتأيى أي تتأيى بحذف التاء الأولى ، ومعناها تقصد أو تتبع ، وهي مشتقة من الآية ، وآية الرجل مثلا معناها شخصه .

(٢) السوف مصدر ساف الشيء يسوفه أي شمه ، والسيف هو ساحل البحر .

(٣) الجنان جمع جان ، والعزيف هو جرس أصوات الجن ، وهو صوت الريح في الجو توهمه أهل البادية صوت الجن .

وله فيه رحمهما الله وقد انصرف من غزوة غزاها

[من الكامل]

نِعَمٌ يُبَشِّرُ بَدْؤُهـا بِتَمـامِ ... فَتْحُ القُدُومِ ونُصْرَةُ الإِقْدَامِ
وُدِّعْتَ مَحْمُوداً ، وَصَلْتَ مُظَفَّراً ... فاقدَمْ بِطِيبِ تحيَّةٍ وسَـلَامِ
والْبَسْ بِعِزَّةِ مَنْ سَعَيْتَ لِنَصْرِهِ ... تاجَ الجلالِ وحُلَّةَ الإِعْظـامِ
واسْعَدْ لِعِزِّ الدينِ والدُّنْيا مَعاً ... واسلَمْ لنَصْرِ اللهِ والإِسـلامِ
وَعْداً عليهِ أَنْ يُتِمَّ عَلَى الورى ... بكَ أَنْعُماً موصولةً بِدَوَامِ
قَرُبَتْ عَلَيْكَ من الأَعادِي غايَةٌ ... قد طالما بَعُدَتْ عَلَى الأَوْهامِ
وسَلَلْتَ سيفَ اللهِ طالِبَ ثَأْرِهِ ... من آلِ «جالُوتٍ» وَنَثْرَةِ «حامِ»[1]
ورفَعْتَ أعلامَ الهُدَى في جَحْفَلٍ ... كالليلِ تحتَ كواكِبِ الأَعْلامِ
بِسَوَابِقٍ رَفَعَتْ شِراعَ خوافِقٍ ... كالفُلْكِ في آذِيِّ بحرٍ طامِ[2]

---

(١) للنثرة معان كثيرة منها طرف الأنف أو مابين الشاربين ، ولعل ذلك المقصود هنا كناية عن الشرف .

(٢) في الأصل « بسوافق » مكان « بسوابق » التي أثبتنا ، والآذي هو الموج الشديد .

يَسْتَرْجِفُ الإمراجُ عِزَّ نفوسِها حتّى تسكِّنَهنَّ بالإلجامِ (١)
وأُسُودِ غابٍ ما تَلَذُّ حياتَها حتّى تُدِيرَ بها كئوسَ حِمامِ
[٥٦م] / مُتنازِعِي مُهَجِ العُداةِ كأنَّما يَتنادَمُونَ على رَحيقِ مُدامِ
مُسْتَقْدِمِينَ إليهِمُ بأَسِنَّةٍ أَوْلَى من الأَرْوَاحِ بالأَجْسامِ
هَتَكُوا بِها حُجُبَ التَّرائِبِ فاصْطَلَتْ أحشاؤُها جَمْرَ الوطيسِ الحَامِي
وقواضِبٍ نَبَذَتْ إليكَ لِتَتْرُكَنْ هامَ الأَعادِي لِلصَّدَى والهامِ (٢)
سُرُجٍ لِدِينِ الحقِّ إلاَّ أنَّها كَسَتِ الضَّلالَ دياجِيَ الإظْلامِ
بَرَقَتْ على الأَعْداءِ غَيْرَ خَوالِبٍ في عارِضٍ لِلْمَوْتِ غَيْرِ جَهامِ
فكأَنَّما اسْتَسْقَوْا حَياهُ وقَدْ رَأَوْا أنَّ الصَّواعِقَ في مُتُونِ غَمامِ
حَمَلُوا قُلُوبَ الأُسْدِ نَحْوَكَ فانْثَنَوْا مستبدلِين بها قُلُوبَ نَعامِ
من كلِّ مُنْتَهِكِ المَحارِمِ بارِزٍ بِدَمٍ على الإسلامِ غيرِ حَرامِ
لم يَعْبُدُوا الأَصْنامَ إلاَّ أَنَّهُمْ عَبَدُوا الغُرورُ عبادَةَ الأَصْنامِ
كم في بُرُودِ عَجاجِها من مُفْرَشٍ ظَهْرَ الصَّعِيدِ مُوَسَّدٍ بِسِلامِ
أَشْمَمْتَهُ عَفَرَ التُّرابِ ورُبَّما حَطَّ الرَّواسِيَ من فُرُوعِ شَمامِ
وسَطَا الرَّغامُ بأَنْفِهِ ولطالما غادَى أُنوفَ الدينِ بالإرْغامِ

(١) يقال استرجف رأسه أي حركه.
(٢) الصدى - على ما كان يزعم أهل الجاهلية طائر يخرج من رأس المقتول حين يبلى إذا لم يثأر به، وكذلك الهام.

دامي اللَّبانِ كأنَّ مَفْحَصَ نَحْرِهِ ... وَجَنَاتُ مُعْوِلَةٍ عَلَيْهِ دَوَامِ
فَغَدَا الـثَّرَى رَيَّانَ من دَمِهِ وَمِنْ ... دَمْعٍ عَلَيْهِ بالفَضَاءِ سِجَامِ
جَزَراً لِأَيْسَارٍ منَ الْبَيْدَاءِ لا ... يَسْتَقْسِمُونَ عَلَيْهِ بالأَزْلاَمِ
حتَّى إذا صابَتْ بِقُرٍّ وانْثَنَى ... ثَمَرُ الغِوَايَةِ مُؤْذِناً بِصِرَامِ
ورَمَتْ أَكُفٌّ بالصَّوَارِمِ والْقَنَا ... كَيْما تَمُدَّ إِلَيْكَ بِاسْتِسْلاَمِ
وتَيَقَّنَ الإسلامُ عَوْدَةَ رَحْمَةٍ ... تَبْري من الأَوْصابِ والأَسقامِ
وتنسَّمَ الظَّمآنُ رَوْحَ مَشارِبٍ ... يُشْفَى بِهِنَّ غليلُ كُلِّ أُوَامِ
نَفِسَ النَّجاحَ عليكَ مَنْ أَقْسامُهُ ... من فَوْزِ قِدْحِكَ أَوْفَرُ الأَقْسامِ
وهَفَتْ بِهِ خُدَعُ الظُّنونِ ولَمْ يَزَلْ ... حَسَدُ القرابَةِ طائِشَ الأَحْلاَمِ
فَدَنَا لِغِرَّةِ مُنْتَوَاكَ[1] وقد خَلَتْ ... من أُسْدِهِنَّ مَرَابِضُ الآجامِ
ودَعَا السَّوَامَ إلى حِماكَ ولم تَغِبْ ... إلاَّ لِتَبْلِيَ دُونَها وتُحامي
فَبَرَى العُدَاةُ لِرَمْيِ ظِلِّكَ أَسْهُماً ... خابَتْ وصائبُها لِأَخْيَبِ رَامِ
[٥٦ب] / هل يَنْقِمُونَ سِوَى سَجِيَّةِ حافِظٍ ... حقَّ الأَواصِرِ واصِلِ الأَرْحامِ
سَهِدِ الجفونِ طويلِ آناءِ السُّرَى ... عن أَعْيُنٍ تحتَ السُّجُوفِ نِيامِ
أَوْ يَحْسُدُونَكَ رُتْبَةً فَلْيَرْتَقُوا ... فَالشَّمْسُ في جَوِّ السماءِ السَّامي
أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً يَسُوؤُكَ ذِكْرُهُ ... فاللهُ ناقِضُ ذلِكَ الإِبْرَامِ

---

(١) في الأصل: منثواك.

فاسْعَدْ بما اختارَ الّذي في أمْرِهِ ... خَيْرُ القضاءِ وأَيْمَنُ الأَحْكامِ
ولَئِنْ وَنى قَدَرٌ إلى أَجَلٍ فَلاَ ... عَدَمُ الصَّوابِ ولا نُبُوُّ حُسامِ
ونَبِيُّنا لكَ أُسْوَةٌ في رَدِّهِ ... عن أَرْضِ مَكَّةَ مُعْلِنَ الإِحْرَامِ[1]
فأَثابَهُ الفتحَ القريبَ وبَعْدَهُ ... تصديقُ رُؤْياهُ لأَوَّلِ عامِ
والعَوْدُ أَحْمَدُ ، ما لأَوَّلِ لَيْلَةٍ ... يَبْدُو هِلالُ الأُفْقِ بَدْرَ تَمامِ
وكَفاكَ مَنْ وَطِئَتْ خُيُولُكَ مِنهُمُ ... كِيوانَ واصْطَلَمَتْ سَنا بَهْرَامِ
وجَعَلْتَ سَيْفَكَ ماثِلاً لنفوسِهِم ... يَحْتَثُّهـا بِخَوَاطِرِ الأَوْهامِ
وتَرَكْتَ هادِرَهُمْ بِغَيْرِ شقاشِقٍ ... رَهَباً وغارِبَهُمْ بِغَيْرِ سَنامِ
وتَرَكْتَ فَلَّ ذِئابِهِمْ وضِباعِهِمْ ... مُتَرَقِّبِينَ لِكَرَّةِ الضِّرْغامِ
هَلْ يَنظُرُونَ سِوى تأَلُّقِ حاجِبٍ ... للشَّمْسِ يَصْدَعُ ثَوْبَ كُلِّ ظَلامِ
أَو يُوجِسُ السَّمْعُ النَّذيرَ «بِمُنْذِرٍ» ... ضَرِمَ العَجاجِ مُصَمِّمَ الصَّمْصامَ
مَلِكٌ إذا أَلْقى رواسِيَ بَأْسِهِ ... كَفَلَتْ له بِزَلازِلِ الأَقْدَامِ
قادَ العُلا بِزِمامِ كُلِّ فضيلَةٍ ... واقْتادَهُ الرّاجي بِغَيْرِ زِمامِ

---

(١) يشير ابن دراج في هذا البيت والذي يليه إلى سير النبي ﷺ وأصحابه من المسلمين إلى مكة في السنة السادسة من الهجرة لتأدية فريضة الحج وما كان من منع قريش إياهم من ذلك واتفاق الجانبين على أن ينصرف النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه عامهم هذا على أن تسمح لهم قريش بالحج في العام التالي ، وذلك في صلح « الحديبية » ، ثم ما كان من فتح الله عليه مكة في العام التالي دون قتال .

فَأَبْشِرْ فَقَدْ نَبَّهْتَ نائِمَةَ المُنَىٰ ... ونَظَمْتَ دِينَ اللهِ خَيْرَ نِظامِ
وقَرَرْتَ عَيْناً بالَّذي قَرَّتْ بِهِ ... عَيْنُ الزَّمانِ وأَعْيُنُ الإِسْلامِ
قَمَرٌ يُنِيرُ عَلَى بَنانِ(١) يَمِينِهِ ... شُهْبُ القَنا وكَواكِبُ الأَقْلامِ
وَرِثَ الجُدُودَ مَناقِباً ومَساعِياً ... تَرَكَتْ كِرامَ الأَرضِ غَيْرَ كِرامِ
وعُلاً تَحَلَّتْ بالسَّناءِ وتَوَّجَتْ ... بالمَكْرُماتِ مَفارِقَ الأَيَّامِ
باهَىٰ بِهِ الأَمْلاكَ أَعْلَىٰ مُنْجِبٍ ... ونَماهُ للآمالِ أَكْرَمُ نامِ
فاسْتَنَّ في الحُسْنَىٰ بأَهْدَىٰ مُرْشِدٍ ... وائْتَمَّ في العَلْيا بِخَيْرِ إِمامِ
فَهُوَ الجَدِيرُ بأَنْ يُؤَكِّدَ عَقْدَهُ ... في حِفْظِ عهدِ وسائِلِي وذِمامِي
/وأنا الجَدِيرُ بأَنْ أُشِيدَ بِحَمْدِهِ ... نَغَماتِ أَوْتارٍ وشَدْوَ حَمامِ [٥٧م]
وأُجَهِّزَ الرُّكْبانَ طَيِّبَ ذِكْرِهِ ... زاداً إِلَىٰ الإِنْجادِ والإِتْهامِ
حَتَّى تَفُوحَ لَكَ الجَنائِبُ والصَّبا ... بِثَنائِها مِن مُعْرِقٍ وَشَآمِي
وجَزاءَ ما آوَيْتَ وَحْشَ تَغَرُّبِي ... وفَسَحْتَ رَوْضَكَ لِارْتِعاءِ سَوامِي
وفَعَمْتَ لي بَحْرَ الحياةِ مُبادِراً ... بحياةِ ذابِلَةِ الكُبُودِ ظَوامِي
وبَسَطْتَ لِي وَجْهاً كَشَفْتُ بِنُورِهِ ... كُرَبَ الجَلاءِ وَخَلَّةَ الإِعْدامِ
وَوَجَدْتُ ظِلَّكَ بَعْدَ يأْسِ تَقَلُّبِي ... وَطَنَ الرَّجاءِ ومَنْزِلَ الإِكْرامِ
فكأَنَّ وجهَكَ غُرَّةُ الفِطْرِ الَّذي ... وافَىٰ بِفِطْرِيَ بَعْدَ طُولِ صِيامِي

(١) في الأصل : ينان .

وكأنَّ ظِلَّكَ لَيْلَةُ القَدْرِ الَّتِي كَفَلَتْ بأَجْرِ تَهَجُّدِي وقيامي
ولْتَعلَمِ الآفاقُ أنَّكَ مُنْعِمٌ حقًّا وأنِّيَ شاكِرُ الإنْعامِ

— ٥٣ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الكامل]

أَهْلاً بمَنْ قَهرَ الملوكَ ومَرْحَبا وأَعَزِّ مَنْ حُلَّتْ لِرُؤْيَتِهِ الحُبَى
وبحاجِبِ الشَّمْسِ الذي حَجَبَ الأَسى عنّا وحاشَ[1] لِجُودِهِ أنْ تُحْجَبا
والمُسْتَطارِ لِسَيْفِهِ فِرَقُ العِدى فَرَقاً فكانَ هُوَ السَّنا وَهُمُ الْهَبا
مَلِكٌ نَماهُ المُلْكُ يَتْبَعُ تُبَّعاً فيهِ ويُعْرِبُ عَنْ مآثِرِ يَعْرُبا
قادَ الجنودَ مُكاثِراً بِرِماحِها شُهُبَ الدُّجى وبأُسْدِها عَدَدَ الدَّبا
وسَما فَعادَى بَيْنَ آفاقِ العِدى خَسْفَ الدَّبُورِ وكَرَّ يَعْتامُ الصَّبا[2]
بكَتائِبٍ تَرَكَتْ سَنا شَمْسِ الضُّحى طَرْفاً سَجا للنَّوْمِ أَوْ بَرْقاً خَبا
تَبْني عَلَى الآفاقِ مِنْ جَعْدِ الثَّرى فَلَكاً بِزُرْقِ السَّمْهَرِيِّ مُكَوْكَبا

---

(١) في الأصل : وحاشى .

(٢) المعاداة هنا هي الموالاة ، يقال عادى الفارس بين صيدين أو رجلين إذا طعنها طعنتين متواليتين .

في هِمَّـةٍ أَوْرَتْ زِنادَ وَقائِـعٍ غادَرْنَ رأسَ الدَّهْرِ أَشْعَثَ أَشْيَبا
حتى تَجلَّى في عَجاجَةِ أَوْبَةٍ آبَتْ إلى الدُّنْيـا بأَيَّامِ الصِّبا
من بَعْدِ ما وَصَلَ الأَصائِلَ بِالضُّحى تَحْتَ العوالِي مُسْئِداً وَمُؤَدِّبا (١)
حَتَّى تَوَهَّمَهُ الدُّجى بَدْرَ الدُّجى يَسْرِي أَوِ ابْناً لِلْكواكِبِ أَوْ أَبا
شَبَهاً بِـهِ ناسَبْتَها (٢) مُتَعالِياً ومُحلِّقـــــاً ومُشَرِّقاً ومُغَرِّبا
بِعَزائِمٍ كَلَّفْتَها أَعْلى العُلا فتسـابَقَتْ شَـأْواً إِلَيْـهِ مُغَرِّبا
/ مُسْتَحْيِيَاتٍ أَنْ يُعَرِّجَ لَحْظُهـا لِقَبُولِ ما أَدْنى الزَّمانُ وَقَرَّبا [٥٧ب]
لا يَرْكَبُ المُلْكَ الذَّلُولَ رِكابُهُ حتى يُذِلَّ لَهُ الزَّمانَ المُصْعَبا
حَتَّى يَنالَ العِزَّ أَعْلى مُرْتَقىً ويفُوزَ بالآمـالِ أَبْعَدَ مَطْلَبا
جاوَزْنَ بالخَيْلِ المَدى بَعْدَ المَدى وأَطَلْنَ إِظْماءَ الأَسِنَّةِ والظُّبى
ما أَوْرَدَتْها مِنْ غُدَاتِكَ مَنْهَلاً إلاَّ ابْتَدَرْنَ أَمامَ ذلِكَ مَشْرَبا
يطلُبْنَ في الأَفلاكِ شاهِقَةَ العُلا ويَدَعْنَ لِلأَوْعالِ شامِخَةَ الرُّبى
مُتَكَرِّماتٍ أَن يُناطِحَ كَبْكَباً (٣) مَنْ كانَ في فَلَكِ المَعالِي كَوْكَبا
هَلْ مَنْ يُسامِيهِ وأَقْرَبُ ما يُرى مِنَّا إذا كانَ الغَمامُ الصَّيِّبا
عُذْنا بِهِ مَنْ لا تَعَوَّذَ مَرْقَباً مِنْهُ فأَصبَحَ في ذَرَاهُ مَرْقَبا

(١) الإسآد هو سير الليل كله ، والتأويب هو سير النهار لا تعريج فيه .
(٢) في الأصل : ناسيتها .
(٣) الكبكبة هي الجماعة من الناس أو الخيل .

فَأَبْشِرْ فما عَصَفَتْ رِياحُكَ حُسَّراً فيه ولا بَرَقَتْ سَحابُكَ خُلَّبا
وانظُرْ فإنَّ عزيمةً أَلْقَحْتَها بالنَّصْرِ قد أَرْأَتْ بِفَتْحٍ مُقْرِبا
واعْلَمْ بأَنَّ أسيرَ مُلْكِكَ مُوثَقاً مَنْ لا يَرَى في الأَرْضِ دُونَكَ مَهْرَبا
ولئِنْ حَمَى منك الزَّمانُ مَكامِناً فَبِها يَتُوبُ إِليكَ مِمَّا أَذْنَبا
وَغَداً يَجِيئُكَ مُنْشِداً مُتَذَمِّماً لَيْسَ المُسِيءُ إِلَيْكَ عَبْداً أَعْتَبا
ولئِنْ دنا أَمَدٌ فلا عَزْمٌ وَنَى ولئِنْ نبا قَدَرٌ فلا سَيْفٌ نَبا
واللهُ مُخْتارُ القَضاءِ وإِنْ أَبَى فَعَسَى الخَيْرِ ما تَعَجَّلَ أَوْ أَبَى
ولَكَمْ أَرَاكَ النَّصْرَ لَمْحاً باصِراً ولَعَلَّ أَعْظَمَ منهُ فِيما غَيَّبا
رَبَّا بنصرِكَ عائِداً ومُوَالِياً ولِطُولِ عُمْرِكَ واهِباً مُسْتَوْهَباً
وكَفَى بِمَنْ آوَى إِلَيْكَ مُشَرَّداً قَلِقَ الرَّكائِبِ في البلادِ مُغَرَّبا
حتَّى يَرَى البُؤْسَ غُرَاباً أَعْصَماً بِنَداكَ والضَّرَّاءَ عَنْقاً مُغْرِبا

— ٥٤ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من المتقارب]

بِفَتْحِ الفُتُوحِ وسَعْدِ السُّعُودِ وعِزِّ العزيزِ وحَمْدِ الحميدِ
تَدَرَّعْتَ صَبْراً تَجَلَّى بِنَصْرٍ وأَوْفَيْتَ شُكْراً وَفَى بِالمَزِيدِ

فَمِنْ يَوْمِ عِيدٍ إلى يَوْمِ فَتْحٍ ومن يَوْمِ فَتْحٍ إلى يَوْمِ عِيدِ
وجُودٍ تَفَجَّرَ مِنْ نَارِ بَأْسٍ وبَأْسٍ تَسَعَّرَ مِنْ بَحْرِ جُودِ
/ بِطَوْلٍ يُعيدُ شَبابَ الكَبيرِ وهَوْلٍ يُشَيِّبُ رَأْسَ الوَليدِ [٥٨ أ]
وسَعْيٍ يزيدُ مَدًى كُلَّ يَوْمٍ إذا لَمْ يَكُنْ في مَدًى مِنْ مَزيدِ
فَلَوْ عَلِمَ البَدْرُ عَمَّ السَّمَاءَ أَوِ البَحْرُ جَلَّلَ وَجْهَ الصَّعيدِ
فَكَمْ صَبَّحَتْكَ بِفَتْحٍ قَرِيبٍ سُرَى لَيْلَةٍ ذَاتِ صُبْحٍ بَعيدِ
وكَمْ حَمَلَتْ منكَ بَيْدَاءُ قَفْرٍ إلى الكُفْرِ من يَوْمِ حَيْنٍ مُبِيدِ
بِكُلِّ كَمِيٍّ لِأُمٍّ نَزُورٍ ومِن راحَتَيْكَ لِأُمٍّ وَلُودِ
يُجيبُ إلَيْكَ صَرِيخَ المُنَادِي بِأَنْزَعَ مِنْ قَلْبِ صَبٍّ عَميدِ
ويَلْقى وُجُوهَ الأَهاوِيلِ عَنْكَ لِقاءَ هَوًى ما لَهُ مِنْ صُدُودِ
إذا قَتَلَ الحَزْنَ والسَّهْلَ وافى نُفُوسَ العِدى من يَدَيْ مُسْتَقِيدِ
وكُلِّ جَوَادٍ نَمَتْهُ يَداكَ فأَعْرَقَ في سَرْوِ بَأْسٍ وَجُودِ
رَعى بكَ كُلَّ حِمًى لَمْ يَرُعْهُ صَرِيخُ المُنَادِي بِهادٍ وَهِيدِ(١)
تَضَمَّنَهُ خافِقاتُ البُرُوقِ تَلَأْلَأُ في مُصْعِقاتِ الرُّعُودِ
وأَوْرَدْتَهَا كُلَّ ماءٍ حَمَاهُ بَرِيقُ السُّيُوفِ وَزَأْرُ الأُسُودِ

---

(١) هاد الرجل هيدا (بفتح الهاء وسكون الياء) وهادا وهيدا (بكسر الهاء) أي زجر الإبل واستحثها وهو مأخوذ من حكاية صوت الحداء : هِيدْ

سَرَيْتَ فَأَلْحَقْتَ لَيْلاً بِلَيْلٍ   وسِرْتَ فوَصَّلْتَ بِيداً بِبِيدِ
كما قَدْ وَصَلْتَ حِبالَ الغَرِيبِ   وقَرَّبْتَ مَأْوَى القَصِيِّ البَعِيدِ
ونادَى نَدَاكَ عَلَى الأَرْضِ حَيَّ   عَلَى مُسْتَقَرِّ الشَّرِيدِ الطَّرِيدِ
وجَيْشٍ عَقَدْتَ لَهُ في الجِهادِ   لِواءً سَما بِوَفاءِ العُقُودِ
فَزادَ الضُّحَى مِنْ سَنا الشَّمْسِ نُوراً   ولَيْلُ السُّرَى في نُجُومِ السُّعُودِ
وأَصْبَحْتَ أَعْلَى جِبالِ الأَعادِي   تُزَلْزِلُها بِجِبالِ الحَدِيدِ
قَرُعْتَ الصَّياصِي بِشُعْثِ النَّواصِي   وأَبْناءِ «قُوطٍ» بِأَبْناءِ «هُودٍ»
بِكُلِّ نَجِيبٍ نَمَى في «تُجِيبَ»   بِمَجْدِ الجُدُودِ وسَعْدِ الجُدُودِ
لهُ في المَدَى كُلُّ بَحْرٍ طَمُوحٍ   وفَوْقَ العُلاَ كُلُّ قَصْرٍ مَشِيدِ
مَناقِبُهُمْ لِصُدُورِ الدُّهُورِ   عُقُودٌ نُظِمْنَ نِظامَ الفَرِيدِ
ومُلْكُكَ سِلْكٌ لِذاكَ النِّظامِ   وأَنْتَ وَسِيطٌ لِتِلْكَ العُقُودِ
فَأَسْرَيْتَ بَيْنَهُمُ يا «بْنَ يَحْيَى»   كَبَدْرٍ سَرَى بَيْنَ زُهْرِ السُّعُودِ
[٥٨ ب] / رُجُوماً رَمَيْتَ بِها في الضَّلالِ   عَلَى كُلِّ شَيْطانِ كُفْرٍ مَرِيدِ
تُذَكِّرُهُمْ بِذُبالِ الرِّماحِ   صِلاءَهُمُ النَّارَ ذاتَ الوَقُودِ
وتُرْهِقُهُمْ كُلَّ طَوْدٍ يَفاعٍ   يُمَثِّلُهُمْ رَهَقاً في صَعُودِ(١)

---

(١) اليفاع هو المرتفع المشرف ، وفي هذا إشارة إلى الآية القرآنية الكريمة : « سأرهقه صعودا » (سورة المدثر آية رقم ١٧) ، ومعنى البيت أنك تجشمهم صعود كل حصن شامخ الارتفاع توقيا منك فتمثل لهم بذلك صورتهم في الحياة —

وما فاتَ صَرْفَ الرَّدى مَنْ عَلَيْهِ لِنَصْرِكَ عَيْنُ رَقِيبٍ عَتِيــــدِ
ولَوْ كانَ وَعْداً لأَنْجَزْتَ لٰـكِنْ خُلِقْتَ خَلِيقاً بِخُلْفِ الوَعِـيدِ
ولو شِمْتَ سَيْفَكَ في صَدْرِ كِسْرٰى وَقَيْصَرَ بَيْـنَ الطُّلٰى والوَرِيدِ
لمـــا نِلْتَ حَقَّكَ سَعْياً وَهَدْياً ولا بَعْضَ ثارِ أَبِيكَ الشَّهِيدِ (1)
وَفِي اللهِ أَكْفَأْتَ كَأْسَ المَنامِ وسُمْتَ جُفُونَكَ فَقْدَ الهُجُودِ

ـــ الأخرى وهم يكلفون مشقة الصعود في جبال جهنم ، وقد ذكر بعض المفسرين أن صعود جبل في النار يكلف الكافر ارتقاءه والزبانية يضربونه بالمقامع ، ولعل ابن دراج يشير إلى هذا المعنى .

(١) يفهم من هذا البيت أن يحيى (بن مطرف بن عبد العزيز) أبا منذر بن يحيى ممدوح ابن دراج توفي قتيلا ، وهذا مالم يشر إليه أي مرجع مما بأيدينا عن بني تجيب ملوك سرقسطة ، إذ أن كل ما احتفظت به المراجع الأندلسية عن يحيى هذا - وجميعها يسند الرواية إلى ابن حيان المؤرخ - يقتصر على القول بأن يحيى كان « من الفرسان غير النبهاء » (انظر ابن عذاري : البيان ٣ / ١٧٥ — ١٧٦ ؛ ابن بسام : الذخيره ق ١ — ١ / ١٥٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال ص ١٩٦) ؛ على أن هناك مرجعا آخر احتفظ لنا بخبر عن يحيى بن مطرف هذا هو كتاب « المرقبة العليا » للنباهي (ص ٨٣) إذ ذكر أنه كان من قواد المنصور بن أبي عامر في معركة جربيره Cervera التي انتصر فيها على جيوش النصارى التي ائتلفت على جمعها ممالك البشكنس (نبرة) وليون وقشتيلة سنة ٣٩٠ / ١٠٠٠ (انظر كذلك ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٥٤) .

— ٥٥ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الطويل]

أَخَفْضاً نَوَتْ فِينا النَّوٰى وَلَعَلَّها ... أَجَدَّ بِهـا طُولُ السُّرٰى فَـأَمَلَّها

وَحاشَ لِأَضْدَاءِ الْفَلا أَنْ تَصُدَّها ... بِنا أَوْ أَضالِيلِ الدُّجٰى أَنْ تُضِلَّها

وأَحْقِرْ بِهَوْلِ البَحْرِ أَنْ يَسْتَـكِفَّها ... وأَهْوِنْ بِغَوْلِ الْقَفْرِ أَنْ يَسْتَزِلَّها

ولٰـكِنْ أَيادِي «مُنْذِرٍ» نَذَرَتْ بِها ... فَكانَتْ لَنا مِنْها قَذًى وشَجاً لَهـا

فحازَتْ إلى عِزِّ الحَياةِ رِحالَنا ... وزَمَّتْ عَلى خِزْيِ المَتالِفِ رَحْلَها

نَحاها مُقِيلُ الْعاثِرِينَ بِعَثْرَةٍ ... لَعـاً لِيَ مِنْها والنَّوٰى لا لَعاً لَها

فَـكَمْ أَقْفَرَتْ مِنَّا مَحَلاًّ وغَرَّبَتْ ... وُجُوداً أَجَدَّتْ فِي الفُؤَادِ مَحَلَّها

ويا رُبَّ بَلْهاءِ الصِّبا عَنْ جَوٰى الهوى ... لَبِسْتُ بِها عَيْشَ الصَّبابَةِ أَبْلَها

كَشَفْتُ لِسَهْمَيْ طَرْفِها عن مَقاتِلِي ... مِجَنَّ تُقًى لَمْ يَمْنَعِ النَّفْسَ قَتْلَها

وشَـكَّـكَنِي وَجْدِي بِها وَصَبابَتِي ... أَنَفْسِيَ لِي إِنْ أَخْطَأَ الحَيْنُ أَمْ لَهـا

وَحَسْبِي بِها عَذْلاً على سَلْوَةِ الْهَـوٰى ... وعُذْراً كَفاني العاذِلاتِ وعَذْلَهـا

بِقَدٍّ إلى مُسْتَوْدَعِ القَلْبِ قادَها ... ودَلَّ عَلَى مُسْتَوْطَنِ النَّفْسِ دَلُّهـا

ولِلْخَفَرِ السَّحارِ في وَجَناتِهـا ... خَوَاتِيمُ لا يَخْفِرْنَ مِنِّيَ وَصْلَها

وَما خَفَرَتْ بِيضُ الصَّوَارِمِ وَالْقَنا مَحاسِنَهـا مِمَّـا أَصابَ فَأَوْلَهَا
فَلِلَّهِ مِنْ بَيْنٍ تَقَسَّمَ طُرْقَهُ طَوارِقُ لا يُلْهِينَ عَنْ لَهْوِ مَنْ لَهَا
عَلاقَةُ حُبٍّ شَدَّما عَلِقَتْ بِها حَبـائِلُ بَيْنٍ بَتَّ مِنِّيَ وَصْلَها
/ وَصَفْوُ هَوًى ما قَرَّحَتَّى هَوَتْ بِهِ حوادِثُ تفريقِ القُلُوبِ هَوىً لَهَا [٥٩م]
فَكُنَّا لَهَا نَبْلاً أَصابَتْ بِنا الصِّبا وما عَدَلَتْ عَنْ رَمْيِ قَلْبِيَ نَبْلَها
جُسُوماً أَقَلَّتْها الرِّياحُ فَلَمْ تَدَعْ لَهُنَّ مِنَ الأَرواحِ إلاَّ أَقَلَّها
نَجائِبُ وَصَّاها الجَدِيلُ وَشَدْقَمٌ[1] بِأَلاَّ تَمَلَّ اللَّيْلَ حَتَّى يَمَلَّها
فَتَخْلِقُ بالإِرْقالِ ثَوْبَ شَبابِهِ وتَتْرُكُهُ بالأُفْقِ أَشْيَبَ أَجْلَها[2]
تُرَاوِحُهُ مِنْ خِلْفَةِ الفَجْرِ طُرَّةٌ كَمُعْتَرَضِ الشَّقْرَاءِ تَنْفُضُ جُلَّها[3]
فَكَمْ حَمَلَتْ مِنْ حُرِّ قَلْبٍ مُوَلَّهٍ يُبَلِّغُ عَنْهُ النَّجْمُ قَلْباً مُوَلَّها
وكم ضَمَّ ذاكَ اللَّيْلُ مِنْ أُمِّ شادِنٍ أَضَلَّتْهُ في جَوْفِ الفَلا وأَضَلَّها
وقَدْ بَلَّغَ الجَهْدُ القُلُوبَ حَناجِراً تُبَشِّرُها أَنَّ التَّناهِي مَدًى لَهَا
فَوَشْكانَ يا «مَنْصُورُ» ما نُصِرَ الأَسَى بِرَدِّ أَقاصِي الأَرْضِ نَحْوَكَ سُبْلَها

---

(١) الجديل وشدقم اسما فحلين منجبين كانا للنعمان بن المنذر تنسب إليهما إبل جيدة .

(٢) الإرقال ضرب من العدو ، والأجله مشتق من الجله (بفتحتين) وهو ذهاب الشعر من مقدم الرأس ، وهو ابتداء الصلع .

(٣) الخلفة هي البقية . والجل كساء يتخذ للخيل .

وَنادَى نَدَاكَ الرَّكْبَ في كُلِّ بَلْدَةٍ — أَلا بَلِّغُوا هَدْيَ الرِّكَابِ مَحِلَّها[1]
فَلَبَّتْكَ مِنْ غَوْرِ الجَلاءِ أَهِلَّةٌ — أَهَلَّ بِها مَأْوَاكَ حَتَّى أَهَلَّها
كَأَنَّا نَذَرْنا مَطْلَعَ الشَّمْسِ مَنْزِلاً — أَلِيَّةَ حَلْفٍ كانَ وَجْهُكَ حِلَّها
فَآوَيْتَ فَلَّ النَّائِباتِ وَطَالَمَا — أَبَرْتَ العِدَى قَتْلاً وآوَيْتَ فَلَّها
وَنادَيْتَها أَهْلاً وَسَهْلاً وَلَمْ تَزَلْ — أَحَقَّ بِها فِي النَّازِلِينَ وأَهْلَها
فَظَلَّلْتَ مَنْ لَمْ يُدْرِكِ اللَّيْلُ ظِلَّهُ — وأَغْدَقْتَ مَنْ لَمْ تُلْحِقِ المُزْنُ طَلَّها
وعَوَّضْتَنَا من رَاحَةِ المَوْتِ رَاحَةً — سَكَنَّا بِها بَرْدَ الحَياةِ وَظِلَّها
وأَعْمَرْتَ مِنَّا في ذَرَاكَ مَنَازِلاً — تَفَقَّدْتَ مَثْوَاها وأَرْغَدْتَ نُزْلَهَا
وَلَمْ تَبْدُ مِنْ نُعْماكَ إِلاَّ بِبَعْضِها — وَلَكِنَّهُ عَمَّ الرَّغَائِبَ كُلَّها
فَرُحْنا شُرُوباً قَدْ تَأَنَّقَ رَوْضُها — وأَنْهَلَها كَأْسُ السُّرُورِ وَعَلَّها
نَدَامَى وَلَكِنْ مِنْ عَطَايَاكَ رَاحُها — وقَدْ جَعَلَتْ من طِيبِ ذِكْرِكَ نُقْلَها
وخَيَّمْتَ عَلَى يُمْناكَ مِنَّا مَطَالِبٌ — تَشَكَّى إِلينا البَرُّ والبَحْرُ ثِقْلَها
وما تَوَّجَتْ هذِي الرِّيَاسَةُ سَيِّداً — أَكالِيلَها حَتَّى تَحَمَّلَ كَلَّها
هِيَ البِكْرُ مَجْلاَها حَرَامٌ مُحَرَّمٌ — فَيا مَنْ بِمَهْرِ المَكْرُماتِ اسْتَحَلَّها
فَتاةٌ دَعَتْ مَنْ لِلحُرُوبِ وللنَّدَى — فما وَجَدَتْ إِلاَّ «ابْنَ يَحْيَى» فَتًى لَها

(١) هذا البيت مأخوذ من قوله تعالى «ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله» (سورة البقرة ، آية رقم ١٩٦) ، والهدي هو ما أهدي إلى مكة من النعم في شعائر الحج ، وبلوغ الهدي محله هو بلوغه الموضع الذي يحل فيه نحره .

/ مَنِ اخْتَرَقَ الدّنيا لِأَوَّلِ دَعْوَةٍ إِلىٰ دَعْوَةِ الإِسْلامِ فافْتَكَّ غُلَّها [٥٩ب]
وشَرَّدَ أَحْزَابَ العِدٰى عَنْ حَرِيمِها وأَدْرَكَ من مُسْتَأْسِدِ الكُفْرِ ذَحْلَها
ودَوَّحَ في جَوِّ السَّماءِ غُصُونَها وأَثْبَتَ في بُحْبُوحَةِ العِزِّ أَصْلَها
ومَدَّ هوادِي الخَيْلِ في طَلَبِ العِدٰى فأَوْطَأَها حَزْنَ البِلادِ وَسَهْلَها
وكَمْ قَدْ فَدٰى أَدْنٰى النُّفُوسِ مِنَ الْقَنا بِنَفْسٍ نُفُوسُ العالَمِينَ فِدًى لَها
فَلَوْ كانَ للشمسِ المُنيرةِ دُولَةٌ بأُخْرٰى اَقِيلَ : اصْعَدْ فَحِلَّ مَحَلَّها !
ولَوْ لَحِقَتْ مَجْرٰى الكواكبِ خَلَّةٌ لَقِيلَ لَهُ : سُسْتَ العُلاَ فَتَوَلَّها
ولَوْ قِيلَ : زِدْها في هِباتِكَ واسْتَزِدْ بِهَا الحَمْدَ من هٰذا الوَرٰى ! لاُسْتَقَلَّها
ولَوْ كانَ يَرْضاها نِظاماً لِزِينَةٍ لَقِيل : تَتَوَّجْ زَهْرَهـا وتَحَلَّها !
وأَغْنِ بِهِ عنها وفي مَنْطِقِي لَهُ قلائِدُ لا يَرْضٰى الكَواكِبَ بَذْلَها
جواهِرُ لم يَذْخَرْ لها الدَّهْرُ مِثْلَهُ مَلِيكاً ولا أَهْدٰى له البَحْرُ مِثْلَها
أُخَلِّدُ فيها مِنْ نداهُ وبَأْسِهِ خلائِقَ تَسْتَمْلِي الخَلائِقُ فَضْلَها
فتُحْيِي لها حُسْنَ الأَحادِيثِ بَعْدَها بإِحْيائِها أَيَّامَ مَنْ كانَ قَبْلَها
وأُمْلِي عَلَى الأَيَّامِ آثارَ مُنْعِمٍ عَلَيَّ بِعَيْنِ المَكْرُماتِ أَمَلَّها
قضٰى اللهُ لي منها وسائِلَ نِسْبَةٍ فأَلَّفَ في الأَحْقابِ قَوْلِي وفِعْلَها
ثنائِي وعَلْياها ومَدْحِي وفَخْرَها وشُكْرِي ونُعْماها وحَمْدِي وَبَذْلَها
وَيا عِيدَ أَعْيادٍ توافَتْ فأَشْرَقَتْ عَلَى الدِّينِ والدُّنيا وكُنْتَ أَجَلَّها

تُخَبِّرُ عن جَمْعِ المُنَى فتهنَّهـا وعن عَوْدِ أعْيـادٍ بِها فتَمَلَّهـا
وبِرُّكَ للأضْيافِ قَرَّبَ بُعْدَها وبِشْرُكَ بالزُّوَّارِ ألَّفَ شَمْلَها

— ٥٦ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الوافر]

إلَيْكَ سَبَقْتُ أَقْدارَ الحِمامِ وعَنْكَ هَتَكْتُ أَسْتارَ الظَّلامِ
وفيكَ حَمَيْتُ مَثْوى النَّوْمِ جَفْني وأَحْمَيْتُ الهَواجِرَ في لِثامي
ونَحْوَكَ جُبْتُ لَيْلَ البيدِ حَتَّى خَفِيتُ عَلَى المَنايا في الزِّحامِ (١)
وعَنْكَ قَرَعْتُ مَتْنَ الأَرْضِ حَتَّى تَفَجَّرَ بالرِّياضِ وبالمُدامِ
زَمانَ جَبَرْتَ من كَبِدي صُدُوعاً يُصَدِّعُ ذِكْرُها صُمَّ السِّلامِ (٢)
[٦٠ م] / وحِينَ أَسَوْتَ في قَلْبي جِراحاً قلوبُ الكاشِحينَ لها دَوامِ
ويومَ حَمَيْتَني من كُلِّ خطبٍ جديرٍ أنْ يَحُمَّ به حِمامي

(١) في هامش هذا الموضع تعليق لأحد من اطلعوا على هذا الأصل إلا أنه ذهب أوله وفيه يقول الملق : « .... أقدار الحام وخفيت [على المنا] يا ، فلا ينبغي مثل هذا » ، ويبدو أن هذا الملق رأى من إساءة الأدب والاستهتار بقدرة الله تعالى أن يقول الشاعر إنه سبق أقدار الحام وإنه خفى على المنايا ! ...

(٢) في هامش هذا الموضع كلمة « الحجارة » وواضح أن الملق أراد أن يفسر بها لفظ « السلام » .

فَبَيْنَ يَدَيْكَ أَصْبَحَ فَضُّ شَمْلِي ... أَلِيفَ الشَّعْبِ مُتَّسِقَ النظامِ
وعندَ حِماكَ أَمْسَى [رَبْعُ][1] سِرْبِي ... خَصِيبَ الرَّعْيِ مَرْعِيَّ السَّوَامِ
وفي مأْوَاكَ عادَ شَرِيدُ رَحْلِي ... عزيزَ الجارِ مَضْرُوبَ الخيامِ
ومن جَدْوَاكَ رُدَّ دَمِي ولَحْمِي ... وما انْتَقَتِ الحوادِثُ من عِظامِي
فكَفْكَفْتَ الرَّدَى عَنِّي بكَفٍّ ... تُثِيرُ الغيثَ في الغَيْمِ الجَهَامِ
ولَقَّتْنِي الأمانِي مِنْكَ وَجْهاً ... يُنِيرُ[2] الأَرْضَ في داجِي الظَّلامِ
كما أَوْثَقْتَ في حَضَرٍ وثَغْرٍ ... عُرَى الإسلامِ من بَعْدِ انْفِصامِ
وآوَيْتَ الغريبَ وهل غريبٌ ... توخَّى ركنَ عزِّكَ باسْتِلامِ ؟
بجودٍ لا يضيعُ بـه رجاءٌ ... وجَدٍّ لا يَرِيعُ[3] إلى مُسامِ
وإقبـالٍ تشيِّعـه بعزمٍ ... لأمرِ الله ماضِي الإعْتِزَامِ
وإقـدامٍ تؤيِّدُهُ بحزمٍ ... إلى الأعـداءِ مشدودِ الحزامِ
وبأْسٍ هل يُجيرُ الدهرُ منـه ... بعيدَ الشأْوِ أو صعبَ المَرَامِ
ولو بلغ النُّسُورَ بـه نسورٌ ... وطارَ بِهِ النعَّامُ إلى النَّعـامِ[4]

---

(١) إضافة يقتضيها الوزن.

(٢) في الأصل : تنير.

(٣) يريع أي يزيد.

(٤) يقصد بالنسور النسرين وهما كوكبان في السماء يعرفان بهذا الاسم على التشبيه ويقال لها النسر الطائر والنسر الواقع ، أما النعام فمن منازل القمر ثمانية كواكب.

بكلِّ مُظاهرِ الماذيِّ لِبْساً عَلى حَبَرَاتِ أنعُمِكَ الجِسامِ
يرى ثَمَرَ الحياةِ لديك مُرّاً إذا لم يُجْنَ من شَجَرِ الحِمامِ
وكل مهنَّدٍ ضَرِمٍ شَذَاهُ[1] يُرِيكَ الهندَ في لَمْعِ الضِّرامِ
ومُطَّرِدِ الكعوبِ أَصَمَّ لدْنٍ ينادي في العِدى : صَمِّي صَمامِ[2]
سفكتَ بهنَّ كلَّ دمٍ حلالٍ وصُنْتَ بهن كل دَمٍ حرامِ
وجلَّلْتَ الخيولَ بها نجوماً تَطَلَّعُ في سَمٰوَاتِ القَتامِ
كتائبَ يَنْتَهِبْنَ[3] الأرضَ زحفاً إذا أَوْجَسْنَ من جيشٍ لُهامِ
ويبعَثْنَ الرَّغامَ إلى أنوفٍ وقد عَفَرَتْ أنوفاً بالرَّغامِ
سَمَوْتَ بِهِنَّ ساميةَ[4] الهوادي لِكلِّ مُشَيَّدِ الشُّرُفاتِ سامِ
حقوقاً للعلا خاصَمْتَ فيها بماضيَةِ الظُّبى لُدِّ الخِصامِ
[٦٠ب] / وفي عَرْشِ السماءِ قضاء مُعْطٍ يديكَ بهنَّ مِلْكَ الإحتِكامِ
فصُلْتَ بها مليكاً ذا انتِصارٍ يؤيِّدُهُ عزيزٌ ذو انتِقامِ
وأنحى سيفُكَ الماضِي عليها فَعُذْنَ[5] بسيفِ رحمتكَ الكهامِ

(١) أي حده .

(٢) هو قول يضرب للرجل يأتي بالداهية ، والصمام هي الداهية ، وصمي أي زيدي .

(٣) في الأصل : يلتهبن .

(٤) في الأصل : ساميات .

(٥) في الأصل : فعدن .

بطاعتِكَ التي أَثْبَتْنَ منها ... دعائِمَ قد هَوَيْنَ إلى انهدامِ
وأَنْتَ تقود خيلَ الله أَوْبًا ... شفى الإسلامَ من حَرِّ الأُوامِ
وقد سمَّيْتَها في كلِّ غزوٍ ... مفاتيحَ الفتوحاتِ العظامِ
وكم قوَّدْتَها « يحيى » فحفَّتْ ... نجومُ الليلِ بالبدرِ التَّمامِ
وعُدتَ بها عَلَى « حَكَمٍ[1] » تُعالي ... وميضَ البَرْقِ في جوِّ الغَمامِ
عروسًا كلَّ بِكْرٍ أو عَوَانٍ ... من العطِرَاتِ بالمَوْتِ الزُّؤام
ورُبَّ عروسٍ فتحٍ أبرزاها ... إليْنا من مغازيكَ التُّؤَامِ[2]
موشَّحةً بأرءامٍ وأُسْدٍ ... متوَّجةً براياتٍ وهامِ
مقلَّدَةَ السَّبايا والأُسارى ... نظامًا يستضيفُ إلى نظامِ
فمن ظبيٍ غريرٍ في عقالٍ ... ومن ليثٍ هصورٍ في خِطامِ
ومأْسورٍ بقِدٍّ من سوارٍ ... ومكبولٍ بقيدٍ من خِدامِ[3]
حواسِرَ عن كواكبَ من وجوهٍ ... طوالِعَ في شعورٍ من ظَلامِ
رَزَايا كلِّ مُعْتاضِ المنايا ... سبايا كلِّ محمودِ المَقامِ
وفي الوجناتِ أَمثِلَةٌ تُرِينا ... طِعانَكَ في صدورِهِمُ الدَّوامي
كَمُشْعَرَةِ الحجيجِ تُساقُ هَدْيًا ... إلى عَرَصاتِ مكَّةَ والمَقامِ

---

(١) « حكم » هذا فيما نرى هو المشار إليه في موضع سابق (ص ٨٧)
(٢) أي المزدوجة جمع توأم .
(٣) جمع خدمة (بفتحتين) وهي الخلخال .

وقد ضُرِبَتْ قِداحُ الهندِ فيهمْ لأيسارِ الحيـاةِ أو الحِمامِ

فقِسْمٌ للمصانِـعِ والحشايـا وقسم للمصارِعِ والرِّجامِ

نفوساً دونَهـا ماتت كِراماً وقد ضَنَّتْ بها ضَنَّ اللِّئامِ

ففارَقْنَ الديارَ بلا وداعٍ ولاقَيْنَ الوجوهَ بِلاَ سلامِ

تُذَكِّرُنا دواهِيَ بدَّلَتْنـا من الأكنانِ ضاحِيَةَ المَوَامي

نغاوِرُ قَفْرَهـا والليلُ داجٍ ونعسِفُ بَحْرَهـا والموجُ طـامِ

ونؤنسُ بالمهالِكِ كلَّ نفسٍ تَوَحَّشُ للغصونِ بلا حَمـامِ

[٦١م] / ونَنْصِبُ للصَّواخِدِ كل وجهٍ بعيـدٍ أَن يُحَيَّا بالسَّلامِ

تغرَّبَ في البـلادِ فأفردَتْـهُ فقيـدَ العزِّ مجحودَ الذِّمامِ

تجافَىٰ الأرضُ عنـه وَهْوَ مُعْيٍ وتجفوهُ المنـاهِلُ وَهْوَ ظـامِي

وقد ضربَ الأسى فيهـا علينـا رِواقاً يستضِيءُ من الظَّلامِ

فمـا نَجْمُ الهدىٰ إلا سِنـانِي ولا فَلَقُ الضُّحىٰ إلا حُسـامِي

وخُيِّلَتِ الأَهِلَّةُ لي قِسِيًّا رمينَ بِيَ الصِّبـا رَمْيَ السِّهامِ

إماماً للريـاحِ مُشَرِّقاتٍ وَ«مُنْذِرُ» مَشْرِقُ الدنيا إمامِي

وما شِيَمُ الزمانِ رَمَتْ إليـه ولكنْ رَمْيَةٌ من غيرِ رامِ

وتهيامُ الثنـاءِ إلى مليكٍ له بالحمـدِ وَجْـدُ المستهامِ

فمـا راع المشوقُ إلى غريبٍ ولا أصغىٰ المحِبُّ إلى مـلامِ

فيا عَجَبَ الخطوبِ يبِحْنَ ستري وقد أَيْقَنَّ أَنَّ به اعتصامِي

وحَتَّامَ النوى تهوِي برحلي | وقد عَقَدَتْ بذمَّتِهِ ذِمامِي
فما فَكَّتْ حُدَاءً عن رِكابِي | ولا كفتْ يميناً من زِمامي
فليس لنا إلى وَطَنٍ مَرَدٌّ | ولا في دارِ قومٍ من مُقامِ
ولا حلَّتْ بنا دارٌ فزادَتْ | عَلَى ذاتِ الحوافِرِ والسَّنامِ
مَخاضٌ ما لمولِدِهِ رَضاعٌ | وتَرْحالٌ أَمَرُّ من الفِطامِ
وعامُ مُقَامِنا عامٌ كيومٍ | ويومُ رحيلِنا يومٌ كعامِ
كيومِ الهمِّ ليس بذي انتقاصٍ | ويومِ اللهوِ ليس بذي تَمامِ
كأنَّا في المنازِلِ طَلْعُ نخلٍ | يُوَافِي أَهْلَهُ أَمَدُ الصِّرَامِ
وما يُغْنِي خراجٌ من خروجٍ | وليس يُجِيرُ غُرْمٌ من غَرَامِ
نُرَوَّعُ(1) بالنوى والدَّهْرُ باقٍ | ونُفْجَأُ بالأَسَى والجُرْحُ دامِ
وما سَكَنَتْ جُنوبٌ في مِهادٍ | ولا مُلِئَتْ عيونٌ من مَنَامِ
كما حُدِّثْتَ عن لَسْعِ الأفاعي | يُعاوِدُ سُمُّهـا عاماً بعامِ
فهل حَوْلٌ يحولُ بلا رحيلٍ | ولَوْ شيئاً نراه في المَنامِ
وأَفْجِعْ بالنَّوى في دارِ سَفْرٍ | فكَيْفَ نوًى عَلَى دارِ المُقَامِ
/ ومَنْ مَلَّ الجلاءَ فعاذَ منه | بسُورِ الأَمْنِ في البَلَدِ الحرامِ [٦١ب]
وشدَّ يَدَيْهِ في قربٍ وبعدٍ | بحبلِ «المُنْذِرِ» المَلِكِ الهُمَامِ

---

(1) في الأصل: تروع.

وقد نَبَذَ الأنامَ بكلِّ أرضٍ إلَيْكَ إليكَ يا خَـيْرَ الأنامِ
ومَنْ ذَا يا مليكاً مُسْتجاراً سِواكَ للغريبِ المُسْتضامِ
فإن هاجَ الرحيلُ دفينَ سُقْمي فـكَمْ دافَعْتَ من ذاكَ السَّقامِ
وإن أذمُمْ عوائدَ لؤمِ دهري فَحَيِّ عَلَى عوائدِكَ الكرامِ

— ٥٧ —

ولهُ فيه رحمهما الله تعالى وقد زيد عليه في جنان كانت بيده ليخرج عنها

[من المتقارب]

ثنائي عليك ونُعماكَ فينـاَ كواكِبُ تشرقُ للعالمينـاَ
تلاَلأُ بالجود مِمَّا يَليكَ عليهِمْ وبالحمد مِمَّا يَلينـا
جواهِرُ فصَّلْتَها في سُلوكٍ ملأْنَ الصدورَ وَرُقْنَ العيونا
مُبرِّزَةُ السبْقِ في الأوَّلينـا ومأثورَةُ الذِّكْرِ في الآخِرينا
كسبقِكَ في كلِّ علياءَ حتَّى أضرَّ غبارُكَ بالسابقينـا
فيا بُعْدَ مَسْرَاكَ للمُدْلِجينا ويا قُرْبَ مأواكَ للرَّائحينـا
فحقًّا إليكَ رحلنـاَ المهارِي تُقَاسِمُنَا جهدَ ما [قد[1]] لَقينا

(١) إضافة يقتضيها الوزن .

أهلّةَ سَفْرٍ وقَفْرٍ قطعنا ... إليك الشهورَ بها والسِّنينا
نُلاقي[1] السُّيوفَ إذا ما فَزِعْنا[2] ... ونُسْقَى[3] الحتوفَ إذا ما ظَمِينا
فطوراً نرى العَيْشَ ظنًّا كَذُوباً ... وطوراً نرى الموت حقًّا يقينا
وحقاً إليكَ ركِبْنا الرياحَ ... مطايا رحلنا عليها السَّفينا
كأنَّ عَلَى لُجَجِ البحرِ منها ... هوادِجَ تخفُقُ بالظاعنينا
ولِلّهِ من أمَّهاتٍ حَنَيْنَ ... علينا الظهور وجُبْنَ البطونا
تقودُ المنايا بها حيثُ شاءَتْ ... وتثني كلاكِلَها حيثُ شِينا
خطوباً تباذَلْنَ منَّا نفوساً ... جلَبْنَ لك الحمدَ غَضًّا مَصُونا
فغادَرْنَ أوطانَنا عافياتٍ ... وجئْنَ إليكَ بِنا مُعْتَفِينا
دياراً تسُحُّ عَلَيْها الدُّموعَ ... وفيها قُتِلْنا وفيها سُبِينا
/ وفيها صدقْنا إليكَ الرَّجاء ... وهُنَّ يُرَجِّمْنَ فينا الظُّنونا [٦٢م]
أَهِمْناه بِغُرْبَتِنا أم هُدِينا ... ومُتْنا[4] بِكُرْبَتِنا أم حَيِينا
فإن يعجَبِ الدهرُ أنَّا صبَرْنا ... فأعجَبُ من ذاكَ أنَّا بقِينا
فهَلْ بُلِّغَتْ عن ركابٍ أجَرْتَ ... بأنْ قد سَعِدْنَ بما قد شقِينا

---

(١) في الأصل : تلاقي .
(٢) في الأصل : فرعنا .
(٣) في الأصل : وتسقى .
(٤) في الأصل : وعشنا ، والمعنى يقتضي عكس ذلك ، وهو ما أثبتناه .

وأَنّىٰ انتحَيْنـا إليكَ المَطِيَّ كما قصفَ العاصفـاتُ الغصونا
دأبْنَ كجِدِّكَ حزماً وعزماً وعُدْنَ كحلمِكَ عطفاً ولِينا
وأنّكَ حيَّيْتَهــــا بالحياةِ وأمّنتهــــا في ذَراكَ المنونا
وأوطأْتَها البِرَّ حتى سَكَنَّ وسقَّيْتَهـا الجودَ حتى رَوِينا
فأرضيتَ ربَّكَ في ابْنِ السَّبيلِ وفي العائِلِينَ من المسلمينا
وأحيَيْتَ في الأرضِ فَضْلاً وعدلاً وعطفاً وعُرْفاً ودُنيـا ودِينا
وودائـعُ لِلّهِ في الرَّوْضِ ضاعَتْ وكُنتَ عليهـا القويَّ الأمينا
فوفَّاكَ عنَّا الجزاءَ الجزيلَ ولقَّاكَ مِنّا الثنـــاءَ الثمينا
وبوَّأنا منك جنّاتِ عطفٍ جزاكَ بهــا جنَّةَ الفائزينا
حدائقُ من غَرْسِ يمناكَ وَقْفاً عَلَى الرائحينَ أَوِ الطَّارِقينا
كفيلٌ بأثمارِها كلَّ حينٍ غيوثُ سمـائِكَ حِيناً فَحِينا
وأزْهَرُهـا منكَ للناظرينا وأبهَرُهـا عنكَ للسَّامعينا
نُفَجِّرُهـا نَهَراً حيثُ كنَّا ونأْكلها رَغَداً حيثُ شِينا
ذَرَا جنَّةٍ كَتَبَ اللهُ فيهـا لِمَنْ شَرَّدَ الخوفُ حظًّا مُبينا
وزادَتْ بِعَدْلِكَ أُكْلاً وظِلاً فزادَتْ عَلَى أَمَـلِ الآملينا
رأيْتَ لنا موضِـعَ الحقِّ فيها بمـا قد أَرَتْكَ المقادِيرُ فينا
فنـادى نَدَاكَ بهـا نَحْوَها : سـلامٌ لكُمْ فادخُلُوا آمنينا

لـكُمْ ذمَّةُ اللهِ في صدقِ عَهْدي   فلا خائفِينَ ولا مُخْرَجينــــا
فظلَّتْ تُنَفِّسُ عن رُوحِها   غريباً سليبـاً ونِضْواً حزينا
وتُبْرِدُ من حَرِّ نار السيوفِ   ونارِ الهواجِرِ ما قـد صَلِينا
فنَسْلَى بها عن ديارٍ نَأَيْنَ   ونَغْنَى بها عن مَغانٍ غَنِينا
/ وبلْغَةُ عيشٍ لمن قد سَتَرْتَ   ضعافَ البناتِ وشُعْثَ البَنِينا [٦٢ب]
نُعَلِّلُهُمْ بِجَنَى روضِهـــــا   إذا أَوْحَشَتْهُمْ عطـاياكَ حِينا
ونشفِي بها بَثَّ ما قد أَصَبْنا   ونأْسُو بها جُرْحَ ما قد رُزِينا
وفخراً لنا منكَ سارَتْ بِهِ   رِكابُ التِّهامِينَ والمُنْجِدينا
وبُشْرَى أَهَلَّ بها الشاكرونَ   إلى من فُجِعْنا من الأقربينا
فما راعنـا غيرُ قولِ الخبيرِ   يُذَكِّرُنا أُسْوَةَ المؤْتَسِينـا
بآدَمَ إذ أخرجَتْـهُ الغُوَا   ةُ من جنَّةِ الخلدِ مُسْتَظْهِرينا
ببَغْيِ حَسودٍ له طـالِبٍ   كما قد لَقِينا من الحاسدينا
فها نحنُ أَقْعَدُ(١) هذا الأَنامِ   بِميرَاثِها مِثْلَهـا عن أَبِينا
وهاتيكَ جَنَّتُنـــا والتي   حَبانا بهــا سيِّدُ المنعمينا
وأَبْيَنُ آياتِنا أنَّنـــــا   حلَلْنا لديهِ المكانَ المكينا
ومن شَكَّ في حظِّنا من رِضاهُ   فتِلْكَ لنـا أَعْدَلُ الشاهدينا

(١) مشتق من القعيد وهو الحفيظ .

قفوا فاسْمَعُوا هَدَّةَ الأَرْضِ رَجْلاً ... ورَكْباً إلى نُصْبِها يُوفِضُونا
وداعِي الزِّيادَةِ فيها سميعٌ ... مُصيخٌ إلى أَلْسُنِ الزائدينا
يُجَمْجِمُ فيهِمْ بأَنْ قد سخِطْتَ ... علينا وأَنَّا من المُبْعَدِينا
لِيَجْلُوَ أَستارَكَ الخُضْرَ عنّا ... ويمحُوَ آثارَكَ الغُرَّ فينا
وقد أَسْمَعَ الصُّمَّ فيها مُنادٍ ... يؤذِّنُ: حَيّ عَلَى الشامِتِينا
فمن هاتِفٍ زائدٍ بالأُلوفِ ... لِبَغْيٍ أَراه احتقارَ المِئِينا
ومن كاشِحٍ كاشِرٍ قد أَرَتْهُ ... أَمانِيهِ ما ظنَّ أَنْ لَنْ يكونا
بذي حُرْمَةٍ منكَ أَلْبَسْتَهُ ... كرامَةَ أَضيافِكَ المُكْرَمينا
ومن حلَّ سِتْرَكَ في أهلِ بيتٍ ... بحبلِ وفائِكَ مستمسكينا
فيا مشهداً سامَنِي تحت ظِلِّـ ... ـكَ خسفاً وخِزياً وذلاً وهُونا
بكُلِّ مُفِيضٍ عليَّ القِداحَ ... لِيَقْسِمَ لَحْمِيَ في الآكلينا
وكلِّ مُبيحٍ حماكَ العزيزَ ... علينا لعادِيَةِ المعتدينا
فَمَدُّوا حبالَهُمُ طامعينَ ... وأَلْقَوْا عِصِيَّهُمُ واثِقِينا
.... (١)

(١) في هذا الموضع خرم ورقة (رقم ٦٣) هي التي تشتمل على آخر هذه القصيدة وأول القصيدة التالية ، وقد رمزنا إلى موضع هذا الخرم بالنقط التي وضعنا .

[وله في رثاء منذر بن يحي التجيبي وتهنئة ابنه يحي بالإمارة بعده:[1]]

[من الطويل]

. . . .

[٦٤ أ]/ وَلاَ في سرورِ العيدِ نحنُ مُهَنُّوهُ　　ولا في سريرِ الملكِ نَحْنُ مُحَيُّوهُ

فلهفِي عليهِ والكُماةُ تهابُـهُ　　ولهفِي عليهِ والملوكُ مُطِيعُوهُ

ولهفِي عليهِ والوَغَى تستخِفُّـهُ　　ولهفي عليهِ والكتائِبُ تَقْفُوهُ

ولهفِي عليهِ والضُّيُوفُ تزورُهُ　　ولهفي عليهِ والرَّكائِبُ تَنْحُوهُ

(١) استنتجنا من سياق مابقي من هذه القصيدة نفسها أنها في رثاء منذر بن يحيى التجيبي (منذر الأول) الملقب بالمنصور وتهنئة ابنه يحيى الذي تلقب بالمظفر بتولي الملك من بعده . وينبغي أن تكون هذه القصيدة قد قيلت في سنة ٤١٢ هـ. (= ١٠٢٢ م .) وهي سنة وفاة منذر بن يحيى الذي حكم سرقسطة مستقلا بها منذ سنة ٤٠٨ هـ . (= ١٠١٨ م .) . هـذا وفي جدول نسب التجيبيين أمراء سرقسطة على عهد الطوائف – خلاف كبير واضطراب أوقع في كثير من الأخطاء من أرخ لهم من القدماء مثل ابن الخطيب ومن تصدى لدراستهم من المحدثين مثل دوزي . وقـد تبعنا فيما أثبتناه من هـذه الأسماء والتواريخ ما أورده المستشرق الإسباني بريتو ڤيڤس Antonio Prieto y Vives في كتابه « ملوك الطوائف » (Los Reyes de Taifas , ed . Madrid , 1926 , PP . 43 - 45) ؛ وهو بحث تاريخي معتمد على دراسة النقود التي بقيت من عهد التجيبيين .

وَلهفِي عليهِ والأَمانِي تؤمُّهُ ... وَلهفِي عليه والخلائقُ ترجُوهُ

وَلهفِي عليه والمصاحِفُ حَوْلَـهُ ... يخُطُّ كتابَ اللهِ فيها ويتلُوهُ

وَلهفِي عليه حاضِراً كُلَّ مَسْجِدٍ ... وداعُوهُ أَشياعٌ له ومُصَلُّوهُ

تَلَهُّفَ قلبٍ ليس يشفِي غليلَهُ ... سوابِقُ دمعٍ لاعِجُ الحزنِ يحدوهُ

وأَشكو إِلى الرحمنِ تَرْحَةَ فجعَةٍ ... بمن لم يَبِتْ داعٍ إِلى اللهِ يَشْكُوهُ

وادعو لديه فوزَ رَوْحٍ وراحَةٍ ... لمن لم يَزَلْ يدعُو إِليهِ ويدعُوهُ

وإِن جلَّ فينا فقدُهُ ومصابُـهُ ... ليبلُوَنا في الصبرِ عنه ويَبْلُوهُ

فقد عوَّضَ الإِسلامَ من فقدِ نَفْسِهِ ... هلالَ سماءٍ لا يضِلُّ مُهِلُّوهُ

وبحراً سقاكُمْ رِيَّ جودٍ وأَنعُمٍ ... فَسَقُّوهُ إِخلاصَ الصدورِ ورَوُّوهُ

وسيفاً حَبَاكُمْ صَفْحَهُ ومضاءَهُ ... فصُوغُوا له حُرَّ الوفاءِ فَحَلُّوهُ

فقد خَتَمَ الدهرُ الذي حَلَّ خطبُهُ ... بأَنْ ليسَ إلا « بالمُظَفَّرِ » يَجْلُوهُ

ومن كان لا يعدو الرياسةَ سعيُهُ ... فليسَ تباشِيرُ الرياسةِ تَعْدُوهُ

بِهَدْيٍ من « المنصورِ » ليس يُضيعُهُ ... عَلى سَنَنٍ من سعيِهِ ليس يَأْلُوهُ

فلولاكِ يا « يحيى » لهُدَّتْ[1] لِفَقْدِهِ ... ذُرى عَلَمٍ أَذواؤكَ الغُرُّ بانُوهُ

ولولاكَ يا « يحيى » لماتَ بِمَوْتِـهِ ... رجالٌ بأَحرارِ القلوبِ مُوَاسُوهُ

وما رغِبُوا عن نفسِهِ بنفوسِهِمْ ... وقد ذاقَ طعْمَ الموتِ حتى يذوقُوهُ

---

(١) في الأصل : لهدا ، ولعل الصواب ما أثبتنا :

وودّعتِ الأرواحُ عند وداعِـهِ وضلَّ سبيلَ الصّبْرِ عنه مُضِلُّوهُ
وقلّبتِ الدنيـا قلوباً وأنفساً فلا العيشُ محبوبٌ ولا الموتُ مكروهُ
فلا فضّنا دهرٌ وأنتَ تلمُّنَا ولا مَضَّنَا جُرْحٌ ويمناكَ تأسُوهُ
ولا وُقِيَ الإشراكُ ما مِنْكَ يتّقي ولا عَدِمَ الإسلامُ ما منكَ يرجُوهُ

— ٥٩ —

وله في المظفر يحي بن المنصور رحمهم الله تعالى / [٦٤ ب]
في عيد والمنصور غائب في غزاة رحمه الله

[من الطويل]

لِيَهْنِ لكَ العيدُ الذي بِكَ يَهْنِينَا سلاماً وإسلاماً وأمناً وتأمِينَا
ولا أُعْدِمَتْ أسماؤُكُمْ وسماؤكمْ نجومَ السُّعودِ والطُّيورَ الميامِينَا
بِمَنْ يَمُنَتْ أيامُنَا وتلألأتْ بنُور المُنَى والمَكْرُمَاتِ ليالِينَا
دعانا وسقّانـا سِجالَ يمينِهِ فسَقْياً لساقِينـا ورعْياً لراعِينا
ومُلْكاً وتمليكاً وفَلْجاً وغبطَةً وعزًّا وإعزازاً ونصراً وتمكينا
دعاء لمن عَزّتْ به دعوةُ الهُدٰى يقولُ له الإسلامُ : آمِينَ آمينا !
فتىً مَلَكَ الدنيا فَمَلّكَنا بهـا وجاهدَ عنّا ينصُرُ المُلْكَ والدينا
فقلّد أعنـاقَ الأسودِ أساوِداً وحلّى أكُفَّ الدّارعين ثعابينا

وخلّى القصورَ البيضَ والبيضَ كالدُّمى لبيضٍ يُكَشِّفْنَ العَمَى ويُجَلِّينا
إذا ما كساها من دماءِ عُدَاتِهِ سَلَبْنَ هواهُ الغيدَ والخُرَّدَ العِينا
وعطَّلَ أشجارَ البساتينِ واكْتَفَى بمُشْتَجِرِ الأرماحِ منها بساتينا
ليَسْتَفْتِحَ الوردَ الجنيَّ من الطُّلَى ويَشْتَمَّ أرواحَ العُداةِ رياحينا
ويَسْمَعَ من وَقْعِ القَنا في نحورِها حمائمَ في أغصانِها وشَفانينا[1]
يسيرُ عليه أن يَسيرَ إذا الدُّجى كسا بالجِلالِ البيضِ أفراسَهُ الجُونا
سرى ليلَ كانونَيْنِ لم يدَّخِرْ له سوى الجَوِّ كِنًّا والنجومِ كوانينا
قريبٌ وما أدناهُ من صارخِ الوغى بعيدٌ وما أدنَى له صوتَ داعِينا
وإن شئتَ لم تعدمْكَ غُرَّةُ وجهِهِ أناسِيَّ من أحداقِنا ومآقِينا
ومثواهُ في الأرواحِ وسطَ صدورِنا ومجراه في الأنفاسِ بين تراقِينا
ونعم كفيلُ الشَّمسِ حاجبُها الذي يشيِّعُنا فيها ويَخْلُفُها فينا
يطالعنا في نورِها فيعُمُّنا ويسمو لنا في شِبْهِها فيُسَلِّينا

(١) جمع شفنين ، وهو طائر عده الجاحظ من أنواع الحمام (انظر الحيوان ، ط . القاهرة سنة ١٩٠٦ – ٣ / ٤٥ ، ٦٢) ؛ وقال النويري إنه من الطير التي تترنم وإن صوته في ترنمه يشبه صوت الرباب (نهاية الأرب ، ط . القاهرة سنة ١٩٣٣ – ١٠ / ٢٦٠) ؛ وذكر الدميري أن بعضهم يقول إنه هو الذي تسميه العامة باليمام (حياة الحيوان الكبرى ط . القاهرة سنة ١٨٧٥ – ٢ / ٥٨) ؛ وقد ضبط النويري هذا اللفظ بضم الشين بينما ضبطه الدميري بكسرها . وانظر كذلك دوزي : ملحق القواميس العربية ١ / ٧٧١ .

وصدَّق فينا ظنَّها حين صدَّقَتْ ... سحابُ نداهُ ما النفوسُ تُمَنِّينا
وقد أثمَرَتْ فينـا يداهُ بأنْعُمٍ ... تساقَطُ في أفواهِنـا قبلَ أيدينا
وذَكَّرَ منه الصومُ والفطرُ هَدْيَهُ ... وجمعُ المصلَّى وابتهـالُ المصلِّينا
ومقعـــــدُهُ في تاجِهِ وسريرِهِ ... ليوم السَّلامِ وازدحامِ المُحَيِّينا
/فَمُلِّيتُمُوها آلَ «يحْيى» تَحِيَّةً ... تُحَيَّوْنَ بالملكِ التَّأييدِ وتُحْيُونا [٦٥م]
وتُرْجَوْنَ للجُلَّى فنِعْمَ المُجَلُّونا ... وتُدْعَوْنَ للنُّعمى فنعمَ المُجيبونا
تُشَرِّدُ آفاقُ البـلادِ فتؤْوونا ... وتَجْرَحُ أيدِي النائباتِ فتأْسُونا [1]
تُداوونَ من ريبِ الزمانِ فتَشْفُونا ... وتسقُونَ من كأْسِ الحياةِ فتَرْوونا
حُفاةٌ [2] المحزِّ في عظامِ عُدَاتِكُمْ ... ولكنْ على الإسلامِ هَيْنُونَ لَيْنُونا
فلَوْ كَمْ تلُونا مالِكِينَ لَكنتُمُ ... بأخلاقِكُمْ ساداتِنـا وموالينا
ولو لم نكُنْ في حمدِكم كيفَ شئتُمُ ... لكنتُمْ لنا في الصَّفحِ عنَّا كاشِينا
وحُبُّكُمُ في اللهِ أزكى فمالنـا ... وطاعتكم في الله أعلى مساعينا

---

(١) في الأصل: فتؤسونا.

(٢) مشتق من الإحفاء وهو المبالغة والإلحاح في القطع.

وله فيه رحمهما الله حين قدوم ابن هود (*) عليه سرقطسة

[من البسيط]

الآنَ رُدَّ عنانُ الملكِ في يدِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ وعاد نورُ الهدى في جفنِ أرْمَدِهِ

(*) هو سليمان بن محمد بن هود الجذامي كان من كبار الجند بالثغر الأعلى في آخر أيام الدولة العامرية ، فلما وقعت الفتنة غلب على مدينة لاردة lérida وقتل القائم بها أبا المطرف التجيبي ، وقد كان له مشاركة في أحداث الفتنة فقد كان في جملة من أيدوا عبد الرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى إذ انتظم في جيشه الذي قام بجمعه له منذر بن يحيى (الأول) وخيران العامري ، وذلك في الوقعة التي انتهت بهزيمة ذلك الجيش وقتل المرتضى على أسوار غرناطة سنة ٤٠٩ (١٠١٩) ، على أن سليمان آوى بعد ذلك أخاً لعبد الرحمن المرتضى هو هشام ابن محمد الذي استدعي بعد ذلك إلى قرطبة لتولي الخلافة وتلقب باسم « المعتد بالله » سنة ٤١٨ (١٠٢٧) ، وبقي على لاردة طوال حكم منذر بن يحيى الأول وابنه يحيى بن منذر المظفر بسرقسطة (ت ٤٢٧ / ١٠٣٥) ، وكذلك طوال حكم منذر بن يحيى (الثاني) (من سنة ٤٢٧ إلى ٤٣١ / ١٠٣٥ — ١٠٣٩) ، فلما قتل هذا استولى سليمان على سرقسطة وأعمالها مؤسساً بذلك الدولة الهودية .

أما هذه القصيدة فينبغي أن يكون نظمها في فترة حكم يحيى بن منذر المظفر بين سنتي ٤١٤ و ٤١٧ ويبدو أن العلاقات بين سليمان بن هود والتجيبيين بسرقسطة لم تكن دائما طيبة برغم صلة النسب والجوار بينهما مما تدل عليه هذه القصيدة نفسها . (عن سليمان بن هود راجع ابن عذاري : البيان ٣ / ٢٢١ — ٢٢٢ وابن الخطيب : أعمال ص ١٧٠ — ١٧١ .

(Prieto y Vives los Peyes de Taifas , pp . 45 - 4

ولاح قائدُ ذاك الثَّغرِ أوحَدُهُ ... في قصرِ مالِكِ هذا المُلْكِ أوحَدِهِ
وعدٌ من اللهِ في إعزازِ دعوتِهِ ... وحاشَ للهِ من إخلافِ موعِدِهِ
فليَهْنِكَ اليومَ يا شمسَ الوفاءِ له ... بدرٌ دنا منكَ طَلاَّباً لأَسْعُدِهِ
قادت إليكَ به في عَهْدِ مُوثِقِهِ ... قلائدٌ لم يُضِعْها في مُقَلَّدِهِ
ذخائرٌ لكَ مِمَّنْ أنتَ فاقِدُهُ ... ووارثُ المُلكِ عنهُ غَيْرُ مُفْقَدِهِ
محفوظةٌ عند حُرٍّ لا يَجُورُ به ... عن يومِهِ لكَ رَيْبُ الدهرِ في غدِهِ
شملٌ من الدينِ منظومٌ له وبه ... في حبلِ عهدٍ مُمَرِّ الفتْلِ مُحْصَدِهِ
من كلِّ عاقدِ ميثاقٍ يداً بيَدٍ ... لم تَخْلُ فيها يدُ الرحمنِ من يَدِهِ
رأى نظامَ الأمانِ (١) في تألُّفِهِ ... فطار نحوكَ خوفاً من تبدُّدِهِ
هدْياً تلقّى هُدَاهُ في اسْمِ والدِهِ ... وشِيمةٌ شَمَّها في رَوْحِ مَوْلِدِهِ
وَاسْمٌ من السِّلْمِ والإسلامِ أنشأَهُ ... بدْءًا من الصِّدْقِ عَوَّادٌ بأَحْمَدِهِ (٢)
في زهرةٍ من وفاءِ العهدِ فاحَ بها ... غمامُ أنعُمِكُمْ في روضِ مُجْتدِهِ
لم تُنْبِتِ الدِّمَنُ السُّفْلى مراعِيَها ... ولا رَعَى في حِماها كَيْدُ حُسَّدِهِ
مُصْغٍ إليْكَ بِسَمْعَيْ (٣) سامِعٍ أذِنٍ ... ومُبْهَمِ البابِ للواشينَ مُوصَدِهِ

---

(١) في الأصل : الأمن ، ولا يستقيم بها الوزن ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وقد تكون أيضاً « الأماني » .

(٢) في هذين البيتين إشارة إلى سليمان بن محمد بن هود الجذامي .

(٣) في الأصل : بسمع .

[٦٥ب]/ ورافعٌ لكَ من إذعانِهِ عَلَماً كَمُوقِدِ النارِ في عليـاءِ مَوْقِدِهِ
يبأى بذكركَ في أعوادِ منبَرِهِ حقّاً وباسمِكَ في أسماعِ مَسْجِدِهِ
مُهَنَّداً لكَ في يُمْنــاكَ قائِمُهُ وعِزُّ نصرِكَ في حَدَّيْ مُهَنَّدِهِ
تَغَمَّدَتْهُ أيادٍ منكَ أوْضَحَها إلى عِداكَ بسيفٍ غَيْرِ مُغْمَدِهِ
وفي خيولِكَ حازَ الدَّرْبَ يُصْعِقُهُ بكُلِّ مُبْرِقِ غيمِ الموتِ مُرْعِدِهِ
وعن قِسِيِّكَ رامىٰ الرُّومَ منتحياً بكلِّ نافذِ وقعِ النصلِ مُقْصِدِهِ
وفي سبيلِكَ خاض البحرَ مقتحِماً سُبْلَ الجهادِ إلى غاياتِ أجْهَدِهِ
مُغَمِّضَ الطَّرْفِ عن أغراضِ أقْرَبِهِ سامِي الجفونِ إلى آفاقِ أبْعَدِهِ
فليس هادِي القَطا شَرَّابَ أنْقُعِهِ ولا مُنِيفُ الرُّبى طَلَّاعَ أنْجُدِهِ
وإنَّ أوَّلَ مقتولٍ بِفِطرَتِهِ شَكٌّ من الغَدْرِ أرداهُ ولم يَدِهِ
حتىٰ إذا النَّأْيُ أدنىٰ من تَوَحُّشِهِ وفلَّ قَتْلُ الأعادي من تَجَلُّدِهِ
وغَرَّهُ بُعْدُ عهدٍ منكَ أذْكَرَهُ عهداً لِقُرْبِكَ يُبْلى في تَعَهُّدِهِ
ثنى إليكَ به مِنْ تحتِ رايَتِهِ رأْيٌ رأى في سناهُ نُصْحَ مُرْشِدِهِ
كأنَّ من وجهِكَ الوضَّاحِ قابَلَهُ نورٌ أنارَ إليهِ وَجْهَ مَقْصِدِهِ
حتّى اسْتَهَلَّ إلى يمنـاكَ مُقْتَبِلاً منها لأيْمَنِ إهلالٍ وأسْعَدِهِ
مستفتِحاً منك بابَ العزِّ مبتدِراً في بابِ سُدَّتِكَ اسْتِكْمالَ سَوْدَدِهِ
قد شَقَّ دِرْعَ التَّوَقِّي عن تَوَقُّعِهِ وجابَ غيبَ التظنّيِّ عن تودده

إذ لم ترم خيلك الغزى بكلكله وَلَمْ يُضِعْ ثغرَكَ الأعلى بِمَرْصَدِهِ
فأيُّ شمسٍ أضاءتْ قَبْلَ مطلَعِها لهُ وبحرٍ سقاهُ قبلَ مَوْرِدِهِ
مُقَدَّماً لِسناهُ قبلَ مَقْدَمِهِ ومُشْهِداً برضاهُ قبلَ مَشْهَدِهِ
فأيُّ مولًى تلقَّاهُ فأسمَعَهُ من بين شيعتِهِ الدُّنيا وأعْبُدِهِ
بُشراكَ هٰذا حِباءُ البِرِّ فاحْتَبِهِ مِنِّي وهٰذا رداءُ العزِّ فارْتَدِهِ
فابلُغْ قَصِيَّ الأماني يا «مُظَفَّرُ» في مُظَفَّرِ المَقْدَمِ الأقصى مُؤَيَّدِهِ
في أكْرَمِ الذِّكْرِ في الدنيا وأخْلَدِهِ وأسْعَدِ الجَدِّ في الدنيا وأصْعَدِهِ

— ٦١ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الكامل]

/ الشمسُ شاهِدَةٌ وإنْ تَكُ واحِدَهْ فشهادَةُ الإقرارِ أعدلُ شاهِدَهْ [٦٦ أ]
عَرَفَتْكَ فاعترفَتْ بأنَّكَ واحِدٌ فينا كما هِيَ في الكواكبِ واحِدَهْ
فَغَدَوْتُما صِنْوَيْنِ إنْ يُبْعِدْهُما نأْيُ الدِّيارِ فما الصِّفاتُ مُباعِدَهْ
متناسِبَيْنِ إلى أُخُوَّةِ فِطْرَةٍ ليسَتْ لها فِطَرُ العقولِ بجاحِدَهْ
متقاسِمَيْ خُطَطِ العُلا لا حاسِداً فَضْلاً عليهِ لها ولا هِيَ حاسِده
إن راقَ حاجِبُها « فَيَحْيى » حاجِبٌ وَرِثَ الحجابَةَ والرِّياسَةَ والِدَهْ

أو تجلُ راكِـدَةَ الدُّجى فلـكَمْ جَلاَ ... «يَحْيَى» بها ظُلَمَ الخطوبِ الرَّاكِدَهْ
أَو تَمْحُ نورَ النَّيِّراتِ فكم عفا ... نورَ الضَّلالِ رُسُومَهُ ومَعاهِدَهْ
أو تَهْوِ في فلَكِ البروجِ فكمْ هوى ... بالسَّيْفِ يضربُ قِرْنَهُ ومُعانِدَهْ
أو تَشْفِ في كَبِدِ السَّماءِ فكم شَفَى ... كبِداً لأَوجالِ الهموم مُكابِده
ولَرُبَّما احْتَجَبَتْ لنا شمسُ الضُّحَى ... في دَجْنِ بارقَةِ السَّحابِ الرَّاعده
فَسَحابُكَ الرَّهَجُ المثارُ من الوغى ... وبروقُكَ الهنديَّةُ المتجالِدَه
وإذا تناهَتْ في عُلُوِّ بروجِها ... بالسَّعْدِ بادِئَةً إليكَ وعائِده
فلَكَ العوالي يا «مُظَفَّرُ» أَسْعُدٌ ... ولكَ المراتِبُ في العُلُوِّ الصَّاعِده
والشمس زائِلَةٌ وعهدُكَ ثابتٌ ... وتغيبُ عنكَ ومأثُراتُكَ شاهِدَه
تتناسَخُ الأزْمانُ من آياتِها ... سُوَراً تخلِّدُها القرونُ الخالده
وورِثْتَ عنها يا «مُظَفَّرُ» دَوْلَةً ... دانَتْ لِعِزَّتِها الملوكُ العانِده
مُلْكاً رفعْتَ عَلَى القَنَا شُرُفاتِهِ ... وجعلْتَ حِلْمَكَ أُسَّهُ وقواعِده
فَمَلأْتَ أَحْنَاءَ الصُّدورِ محبَّةً ... وسلَلْتَ أحقادَ القلوبِ الحاقِدَهْ
ووفَيْتَ للدُّنْيا بعهدِ مكارِمٍ ... سَقَتِ البلادَ عِهادُها المتعاهده
شِيَماً عَمِدْتَ بها عُلاكَ فأصْبَحَتْ ... عَمَداً لها فوقَ الخلائِقِ عامِدَهْ
وتركْتَها في كُلِّ أُفْقٍ نازِحٍ ... موجودَةً ولِكُلِّ حَمْدٍ واجِدَهْ
فبها وسِعْتَ الأَمْنَ أُمَّةَ فِتْنَةٍ ... نعِمَتْ بعطفِكَ في الظِّلالِ البارِدَه

وبها أَنَمْتَ جفونَ عينٍ ساهِدَهْ — وبها ذَعَرْتَ جفونَ عَيْنٍ هاجِده

وبها أَهَلَّ إليكَ أملاكُ العِدٰى — تدعوكَ من أقطارِها المُتَبَاعِده

/ من عائذٍ بِكَ منكَ باتَ يَؤُزُّهُ[1] — رَوْعٌ تذوبُ له الصُّخُورُ الجامِدَهْ [٦٦ ب]

أو نازِعٍ فزِعٍ إِلَيْكَ حياتُهُ — من حَيَّةٍ في قَلْبِهِ لَكَ راصِده

أو غُرَّةٍ جُمِلَتْ لِسَيْفِكَ غرَّةً — إنْ لم تَخِرَّ إلى جبينِكَ ساجده

ولِمِثْلِها قادَ « ابْنُ شَنْجٍ » نَفْسَهُ — وجُنودَهُ في طاعَةٍ لَكَ قائِدَهْ

يرتادُ روضاً من رِضاكَ ولم يَجِدْ — إلا هداياهُ إليها رائِده

فَغَدَا يُكايِدُ عن كَرَائِمِ ذُخْرِهِ — نفساً له عن بَذْلِهِنَّ مُكايِده

حتى اصطفٰى لَكَ من صَوَافِنِ خَيْلِهِ — عِتْقاً له لم يَدَّخِرْكَ فوائِدَه

خيلاً تُصَادُ بها الظِّبَاءُ وفَوْقَها — فرسانُهَا أَشْبَاهُ ما هِيَ صائده

حتَّى إذا أَدْنَاهُ إِذْنُكَ أَقبلَتْ — تهفُو بـه أنفاسُـهُ المُتَصاعِده

سَمْحاً بأَنْ أَعطٰى يدَيْكَ قيادَهُ — لَهِجاً بأَنْ أَلقٰى إليكَ مقالِدَهْ

وَرَأى فرائِصَهُ لسيفِكَ فُرْصَةً — وفؤادَهُ لسنانِ رُمْحِكَ فائِدَهْ

فَدَنا به زَمَعُ[2] الرَّجاءِ كأَنَّما — أحشاؤهُ عَزَماتُهُ المُتَفاقِدَهْ

لا ثَغْرَ دُونَكَ غَيْرَ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ — إلا رجاءَ عوائِدٍ لَكَ عائِدَهْ

---

(١) الأز هو التهييج والتحريك الشديد .

(٢) الزمع هو المضاء في الأمر والعزم عليه ، وهو كذلك جودة الرأي .

ولقد لَبِسْتَ إليه من حُلَلِ الهُدٰى ... نوراً ثَنَىٰ نارَ الضَّلالَةِ خامِدَهْ

وملأْتَ عينَيْهِ بِما مَلأَ المَلا ... أُسْداً لأقرانِ الحُتوفِ مُساوِدَهْ

رَمَقُوا صفوفَ جنودِهِ من فَرْسَخٍ ... فأرَتْكَ إجفالَ النَّعامِ الشَّارِدَهْ

حتى بَسَطْتَ لخاضِعٍ ومُقَبِّلٍ ... كفًّا لسيفِ البأْسِ عنهُمْ غامِدَهْ

فَدَنَوْا يَرَوْنَ الأرضَ مائِدَةً بِهِمْ ... ذُعْراً وَوَشْكاً ما رأَوْها مائِدَهْ [1]

خِصْباً لهُمْ بالنُّزْلِ أرْغَدَ أُكْلُها ... للمُعْتَفِينَ وللجنودِ الوافِــــدَهْ

بِمَوارِدٍ حَطَّ « ابْنُ شَنْج » رِحالَهُ ... ورجالُهُ فيهــــا تَحُطُّ الوارِدَهْ

صُنْعاً لمن أَحْيا بدولَتِكَ الوَرٰى ... فَسَقَى بيُمْنِكَ كُلَّ أرضٍ هامِدَهْ

فَاسْلَمْ ولا زالَتْ قُصورُكَ للمُنىٰ ... مقصودَةً [2] وسِهامُ عزمِكَ قاصِدَهْ

تُضْمِي بسَعْيِكَ كُلَّ أَنْفٍ شامِخٍ ... قَهْراً وتَفْقَأُ كُلَّ عينٍ حاسِدَهْ

وأَسْلَمْ وَلا نَقَصَتْ لدَهْرِكَ ساعَةٌ ... إلاَّ وكانت في بقائِكَ زائِدَهْ

---

(١) مائدة الأولى اسم فاعل من مادت الأرض ، أما الثانية فيعني بها مائدة الطعام .

(٢) في الأصل : مقصورة ، ونظن أن الصواب ما أثبتنا ، فالشاعر أراد أن يقابل بين « مقصوده » و « قاصدة » الواردة بعد .

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى [1]

. . . .

— ٦٢ —

[وله في منذر بن يحيى بن منذر التجيبي] [2]

[من الخفيف]

[بَشِّرِ الخَيْلَ يومَ كَرِّ الطِّرادِ   وظُبيْ الهندِ عنــــد حَرِّ الجِلادِ

(١) ترقيم أوراق المخطوط هنا مطرد متتابع ، فالورقة التي تتلو هذه التي أثبتنا آخرها (رقم ٦٦) تتلوها ورقة تحمل رقم ٦٧ ، على أن هناك رغم ذلك خرما في هذا الموضع قد يكون ورقة أو أكثر ، وقد رمزنا إلى هـذا الخرم بالنقط التي وضعنا في مكانه .

(٢) في الخرم الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة ذهبت قصيدة أو أكثر في مدح يحيى المظفر بن منذر التجيبي ، كذلك سقط فيه صدر القصيدة الدالية التي نرى باقيها في أول الورقة رقم ٦٧ ، على أننا استطعنا لحسن الحظ أن نستكمل النقص الواقع في هذه القصيدة من كتـاب « يتيمة الدهر » للثعالبي ، فقد كانت ضمن ما انتخبه من شعر ابن دراج (انظر اليتيمة ٢ /١٠٨ – ١٠٩) ؛ كما أننا استنتجنا من أبيات القصيدة أنها في مدح منذر بن يحيى بن منذرالتجيبي حفيد منذر الأكبر أو الأول ، وهو الذي ولي حكم سرقسطة بعد وفـاة أبيه يحيى المظفر في سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) ، وقتل في سنة ٤٣٠ (١٠٤٠) على يد عبد الله ابن حكم ، وإنما استنتجنا أن القصيدة في مدح منذرهذا من قول ابن دراج فيها : —

وسماءَ العُلَىٰ بنَجْمِ المســاعِي   ورياضَ المنى بصَوْبِ الغَوَادِي
ثم وافِ القصورَ من مُلْكِ بُصْرَىٰ   بالمَشيداتِ من ذُرَىٰ شَدَّادِ
ثم نادِ الأذواءَ عن ذي الرِّياسا   تِ نداءً يُصغِي له كُلُّ نادِ
وصَلَتْكُمْ أرحامُ مُلْكٍ نَمَتْكُمْ   من كرامِ الأملاكِ والأجوادِ
وهَناكُمْ «منصورُكُمْ» من تُجِيبٍ (١)   في مساعٍ جلَّتْ عنِ الأندادِ
بلَغَتْ مجدَكُمْ نُجُومَ الثُّرَيَّا   ومساعِيكُمُ أقــاصِي البلادِ
ونَمىٰ منكُمُ إلى المُلْكِ سيفٌ   نافذُ الحكمِ في رقابِ الأعادي
بسِماتٍ أهدَتْ لكم هَدْيَ « هُودٍ »   وبحِلْمٍ أعادَ أحــلامَ عادِ
وأنارَتْ به نجومُ المعــالي   وأنار الدنيا ببِيضِ الأيادي
وَهْوَ في المنجبينَ أعلى وأزكى   والدٍ ، أنتَ أكرَمُ الأولادِ
قمرٌ في مطالع الملك أوفىٰ   طالِعاً والمُنَىٰ عَلَى ميعــادِ
وتلاقَتْ زُهْرُ النجومِ عليه   بسُعودِ الجُدُودِ والأجْداد]

= وسما للإسلام باسم أبيه   وانتحى باسم جده للأعادي
فهو للدين بالحياة بشير   وهو للشرك منذر بالنآد

وفي ذلك إشارة واضحة إلى اسمه واسمي أبيه وجده ؛ وواضح أن الشاعر وجه هذه القصيدة إلى أبيه يحيى بن منذر ، ولعلها كانت بمناسبة توليته منذراً عهده وتلقيبه « المنصور » كما يبدو من سياق القصيدة .

(١) يت : من نحيب ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، إذ أن الشاعر يشير إلى أصله من هذه القبيلة .

/ وسما للإسلامِ باسْمِ أبيه وانتحى باسْمِ جَدِّه للأعادي [٦٧م]

فَهْوَ للدينِ[1] بالحياةِ بشيرٌ وهو للشِّرْكِ مُنْذِرٌ بالنَّآدِ[2]

سابِقُ الشَّأْوِ لم يُؤَخِّرْ مداهُ عن مداكُمْ تأَخُّرُ الميلادِ

وَلَدَتْهُ الحروبُ منكمْ تماماً فارِسَ الخيل فارِسَ الآسادِ

واكْتَسَى[3] الدِّينُ منه ثوبَ سرورٍ وصليبُ الضَّلالِ ثوبَ حِدادِ

فهنيئاً للتَّاج أيُّ جبينٍ عندَهُ أيُّ عاتقٍ للنِّجادِ

وهنيئاً لنا وللدِّينِ والدُّنْـيا وللبِيض والقَنَا والجيادِ

وغريبٍ تهوِي به كُلُّ أرضٍ وشريدٍ ينبُو به كُلُّ وادِ

وهنيئاً لطَيِّئٍ ولِهَمْدَا نَ ولَخْمٍ وكِنْدَةٍ ومُرادِ[4]

— ٦٣ —

وله فيه رحمهما الله يصف حماما بناه[5]

[من الكامل]

اِسْعَدْ كما سَعِدَتْ بِكَ الأيَّامُ واسْلَمْ كما بِكَ يسلَمُ الإسلامُ

---

(١) يت : هو للبين .

(٢) يت : بالبواد .

(٣) يت : فاكتسى .

(٤) يت : وإياد .

(٥) ورد اثنا عشر بيتا من هذه القصيدة في إحدى النسخ المخطوطة من —

وابْهَرْ بملكٍ ثابتٍ أركانُهُ | في بـــاذخٍ للعزِّ ليس يُرَامُ
وانعَمْ بحمَّامٍ حِمًى لكَ فَأْلُهُ[1] | وعلى عَـدُوِّكَ تَرْحَــةٌ وحِمامُ
مِمَّا بَنَتْهُ لك السُّعودُ وأبدعَتْ | فيـــه المُنى وتأنَّقَ الإحكامُ
وتدفقَتْ فيه المياهُ كما جَرى | في كفِّكَ الإفضالُ والإنعـــامُ
متألِّفُ الأضــــدادِ إلا أنَّهُ | فيـه طباعُ زمانِـه أقســـامُ
فكأنَّ سيفكَ في يمينكَ شادَهُ[2] | حتى التقى فيه ندًى وضِرامُ
وكأنَّما يَسْرِي لمُنْعَبٍ[3] مائِـهِ | دِيَمٌ يخالِطُ بَرْقَهُنَّ غمـامُ
مُتَفَرِّجُ الأبوابِ عن صَحْنٍ ثوى | فيـه الصباحُ وشُرِّدَ الإظلامُ
وتَخَيَّلَتْ فيـه خُيُولُكَ خافِقاً | من فوقِها الرَّاياتُ والأعلامُ
يتلوهُ مُنْفَجَرُ المياهِ كأنَّها | من فيضِ جودِكَ في الأنام سِجامُ
وتَليهِ من جَوِّ الربيعِ سجيَّةٌ[4] | فيها تساوى الليلُ والأيامُ

ـ الذخيرة لابن بسام (نسخة ليفي بروفنسال) ، وقد أثبتها محققو الكتاب في الحاشية انظر الذخيرة ق ١ ـ ١ / ٢٥٩ . أما ممدوح ابن دراج في هذه القصيدة والذي يعود عليه ضمير الغائب في عنوانها فإنما يعني به يحيى بن منذر ، وكذلك الأمر في القصائد التالية .

(١) ذخ : انعم بحمام حُمِيي لك ماؤه .
(٢) ذخ : شامه .
(٣) ذخ : لمبعث .
(٤) ذخ : وكأن فيه من الربيع سجية .

مُفْضٍ إلى شكلِ[1] الهجيرِ ونارُهُ ... بَرْدٌ عليك وإنْ غَلى وسلامُ
فـكأَنَّهُ[2] صدرُ المتيَّمِ هاجَـهُ ... من ذِكْرِ من يَهْوٰى جوًى وغرامُ
وتألَّفَتْ من مائِـهِ ورُخَامِهِ ... شكلانِ تُشْـكِلُ فيهما الأَوهامُ
[٦٧ ب] / هل تحتَ ذاكَ[3] الماءِ ماءٌ جامِدٌ ... أم ذابَ من فوقِ الرُّخامِ رخامُ
وكأَنما[4] رِيقُ الحبيبِ جَرٰى عَلَى ... ثغرٍ كما نَظَمَ الفريدَ نِظـامُ
فَهُوَ الذي لِهَوٰى النفوسِ هواؤُهُ ... ترتاحُـهُ الأَرواحُ والأَجسامُ
وهُوَ الزمانُ شتاؤُهُ ومَصِيفُـهُ ... وخريفُـهُ وربيعـــــهُ البَسَّامُ
وهو الحياةُ نعيمُها ونسيمُها ... ومرورُها لك سَرْمَدٌ ودَوَامُ
فانعَمْ به وبكُلِّ زَهْرَةِ عِيشَةٍ ... ما غَرَّدَتْ فوق الغصونِ حَمَامُ

— ٦٤ —

وله فيه رحمة الله عليهما ووصف شراعاً كان صنعه

[من مخلع البسيط]

أيُّ شراعٍ لأيِّ بحرٍ ... وأيُّ كِسْفٍ لأيِّ بَدْرِ

(١) ذخ : حر .
(٢) ذخ : وكأنه .
(٣) ذخ : هذا .
(٤) ذخ : فكأنما .

وأيُّ شمسٍ تجلَّلَتْهـا طُرَّةُ صُبْحٍ سَمَتْ بفجرِ
ظِلاًّ لمن مَدَّ ظلَّ أمْنٍ في كل أرضٍ وكل ثغرِ
وسِتْرَ صَوْنٍ لوجهِ مولًى به رعى اللهُ كلَّ سِتْرِ
تشرقُ منه بنورِ هَدْيٍ وبرقِ غيثٍ وسيفِ نَصْرِ
كأنّما ظَلَّلَتْ عليه سحابةٌ مَدَّهـا بقطرِ
أو روضَةٌ في الهواءِ حُفَّتْ من طِيبِ أخلاقـه بزَهْرِ
كأنما الريحُ في ذُرَاها راحٌ تُرِيهِ انثناءَ سُكْرِ
أو كيفَ يَهْتَزُّ إنْ دَعاهُ صوتُ وغًى أو[1] لسانُ شكرِ
مُظَفَّرٌ حازَ تاجَ مُلْكٍ كُلِّلَ من نظمِ كلِّ فخرِ
فالله يُمْلِي له الليـالي في عزِّ ملكٍ وطولِ عُمرِ

— ٦٥ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله سنة ست عشرة وأربعمائة

[من الطويل]

خَلا الدهرُ من خطبٍ يضيقُ له ذَرْعِي ومن طارقٍ للهمِّ يعيا به وُسْعِي

(١) في الأصل : ولسان.

ومن مُؤْيِدٍ (1) صَمَّاءَ تَقْصُرُ من يدي ... ومعضلةٍ دهياءَ تَكْبُرُ عن دفعي
ومن فزعٍ ينزو لروعتِهِ دَمِي ... ومن نبأةٍ يستكُّ من ذكرها سمعي
وكيف ودوني سيفُ «يحيى بنِ منذرٍ» ... بعيدُ المدى ماضي الشَّبا ساطعُ اللَّمْعِ
/ إذا انهلَّ في الإسلامِ أرْغَدَ بالحَيا ... وإن حلَّ في الأعداء أرْعَدَ بالصَّقْعِ [68 م]
سناً لو عدانا منه أن يَجْلُوَ العمى ... لأشرقَ في النَّجْوى وأبْصرَ بالسَّمْعِ
تخلَّلْتُهُ من ليلِ همٍّ كأنما ... به تمَّ ليلُ التمِّ قِطعاً إلى قِطعِ
وشِمْتُ وراءَ الموتِ بارقةَ الحَيا ... وآنستُ من نارِ الوغى يانعَ النَّبْعِ
وقد نفقَتْ بي سُوقُ موتٍ يقودُها ... سنا البارقاتِ الصُّمِّ والأسَلِ الصُّمْعِ (2)
أغالي بأثمانِ النَّوى بائعَ الرَّدى ... وأُضْعِفُ صَرْفي ناجزَ الدَّمِ بالدَّمْعِ
لخطبٍ أبوه البغيُ والحربُ أمُّهُ ... ودرَّتْ عليه فتنةٌ حافلُ الضَّرْعِ
فوَشْكانَ ما شدَّدْتُ حيزومَ حازمٍ ... على كبدٍ للبينِ بائنةِ الصَّدْعِ
وقلتُ لمغنى الدَّارِ: ربعَكِ والبِلى ... وللمُورِ (3) والإعصارِ: شأنَكِ بالرَّبْعِ!
لعلكما أن تخلفا في معاهدي ... زوافِرَ صدري والسَّواكِبَ من دَمْعي
وأن تؤنسا ما أوحَشَتْ مِنِّيَ (4) النَّوى ... وأن ترفعا ما مزَّقَ الدهرُ من جَمْعي

---

(1) المؤيد الأمر العظيم أو الداهية.
(2) الأسل الصمع أي الرماح الصلبة المكتنزة الجوف اللطيفة العقد.
(3) المور هي الرياح الشديدة المحملة بالغبار.
(4) في الأصل: بي ولا يستقيم بها الوزن والمعنى، ولعل الصحيح هو ما أثبتنا.

ولا زادَ من دارِ الغنىٰ غَيْرُ حَسْرَةٍ تَجَرَّعُها حسبي وكَظْمِي لها شَرْعِي

بلاغاً لأقصى ما لعُمْرِيَ من مَدىً ومُبْلِـغُ أَنْأى ماعَلى الأرضِ من صُقْـعِ

طوارِقُ لم أُغْمِضْ لهُنَّ عَلَى القَذى جفونِي ولم أَرْبَعْ لهُنَّ عَلَى ضِلْـعِ

مددْتُ بها في البِيدِ ضَبْعَيْ شِمِلَّةٍ[1] تُبـارِي زماناً لا أَمُدُّ به ضَبْعِي

ولا مِثْلَها في مثلِ هَمِّي رَكُوبَةٌ رَدَعْتُ المنايا إذ رَكِبْتُ بها رَدْعِي[2]

سَمامَةُ[3] ليلٍ باتَ مُرْتَبِكَ الخُطى ونكباء يومٍ ظلَّ منقَطِـعَ الشِّسْـعِ

ومُدْرَجَتِي في طَيِّ كلِّ صحيفةٍ من المُوثِقاتِ الفَجْرَ في خاتِمِ الطَّبْعِ

إذا العقربُ[4] العوجاءُ أَمْسَتْ كأنَّما أثارَتْ عليهـا ثأرَ عاديَةِ اللَّسْعِ

وراقبَها نجمُ الثُّرَيَّا بمَطْلَـعٍ كما انفرَقَتْ في العِذْقِ ناجِمَةُ الطَّلْعِ

وأبْرَزَتِ الجوزاءُ صدرَ زُمُرُّدٍ مُحَلًّى بأفذاذٍ من الدُّرِّ والوَدْعِ[5]

يُشاكِهُ زَهْرَ الروضِ في ماتِعِ الضُّحى عَلَى بَوْنِ ما بينَ التَّرَفُّعِ والوَضْعِ

---

(١) الشملة هي الناقة الخفيفة السريعة.

(٢) الردع هو العنق ، ويقال ركب ردعه إذا خر صريعا لوجهه على دمه وعلى رأسه وإن لم يمت بعد ، غير أنه إذا هم بالنهوض خر على مقاديمه.

(٣) من معاني السمامة ضرب من الطير ، ومنها طلعة الشيء أو شخصه ، وكلاهما يصلح هنا .

(٤) يعني بالعقرب هنا البرج المعروف من بروج السماء.

(٥) الودع كالودع (بفتحتين) خرز أبيض.

سَرَيْتُ دُجَى هذِي وجُبْتَ هجيرَ ذَا ... بأَغْوَلَ من غُولٍ وأَسْمَعَ من سِمْعٍ[1]

نجيبةُ هَوْلِ القَفْرِ في مُطْبِقِ الدُّجَى ... وصَفْوَةُ لمعِ الآلِ في القُنَنِ الصُّلْعِ

فَلأْياً حططتُ الرَّحْلَ عن مثلِ جَفْنِهِ ... وأَطلقْتَ عَقْدَ النِّسْعِ[2] عن شَبَهِ النِّسْعِ

/ فإِن تَؤْوِ منها يا «مُظَفَّرُ» غربةً ... فنازِحَةُ الأَوطانِ مُؤْيِسَةَ الرَّجْعِ [٦٨ب]

وإِن أَعلقَتْ في حبلِ مُلْكِكَ حَبْلَها ... فحبلٌ من الأَحبابِ مُنْصَرِمُ القَطْعِ

وإِن أَخصَبَتْ في زَرْعِ نعماكَ رَعْيَها ... فكَمْ قد تخطَّتْ وادِياً غَيْرَ ذي زَرْعِ

وإِن أَرْفَهَتْ في بحرِ جودِكَ شِرْبَها ... فمِنْ ظِمْءِ عَشْرٍ في الهجيرِ إِلى تِسْعِ

وإِنْ تُحْيِ يا «يَحْيَى» حُشاشَةَ نفسِها ... فنُغْبَةُ[3] حَسْوِ الموتِ موشِكَةُ الجَرْعِ

أَيادِي مليكٍ كُلُّها بِكْرُ مَفْزَعِي ... وليست بِبِكْرٍ في الأَنامِ ولا بِدْعِ

لفرعٍ سمَا ثم انثَنَى دانِيَ الجَنَى ... لأَصلٍ زَكَا ثم اعتَلَى باسِقَ الفَرْعِ

فأَوْدَقَ بالحُسْنَى وأَغدقَ بالمُنَى ... وأَثمر بالنُّعْمَى وأَجزلَ بالصُّنْعِ

[4] الملك ميراثُ تُبَّعٍ ... بما قادَ من جيشٍ وأَتْبَعَ من جَمْعِ

وتَوَّجَ من تاجٍ وأَلْبَسَ من حُلَّى ... وقَلَّدَ من سيفٍ ودَرَّعَ من دِرْعِ

---

(١) السمع سبع مركب إذ هو ولد الذئب من الضبع ، ويضرب به المثل في حدة السمع .

(٢) في الاصل : التسع .

(٣) في الاصل : فنعبة ، ولعل الصحيح ما أثبتنا ، والنغبة هي الجرعة ، من قولهم نغب الطائر أي حسا من الماء ، ونغب الانسان ريقه أي ابتلعه .

(٤) بياض بالاصل ؛ وربما كانت « وألقى إليه » أو شيئاً في معناها ووزنها .

وصفوةُ طيٍّ والسَّكونِ ومَذْحِجٍ وكِندةَ والأنصارِ والأُزْدِ والنَّخْعِ
ووَتْرُ مثاني المكرُماتِ ومالَه سوى سيفِهِ في مقدَمِ الرَّوْعِ من شَفْعِ
وذو قلمٍ يُنسيكَ في صدرِ مُهْرَقٍ صدورَ العذارى في القلائِدِ والرَّدْعِ[1]
وإن لقِيَ الأقران خَطَّ صدورَهاَ بأقلامِ خَطِّيٍّ وأَتْرَبَ بالنَّقْعِ
وكم أعْجَمَتْ بالخفْضِ في العُجْمِ أوجُهاً وبالكَسْرِ والإسلامَ بالفتح والرَّفعِ
وكائِنْ لها في كلِّ مُلكٍ من العدٰى ـ وإن جلَّ ـ من فتْقٍ يجلُّ عن الرَّقْعِ
ومن معقِلٍ أشْرعْنَ حولَيْهِ فاغتدى أذلَّ لوطْءِ المُقْرَباتِ من الفقْعِ[2]
قرعتَ ذُرَاه يا « مظفَّرُ » قرعةً أصمَّ صداها كلَّ مسترِقِ السَّمْعِ
وصبَّحْتَهُ أُسْداً عَلَى مَضْرَحِيَّةٍ[3] تركْنَ صفاةَ الشركِ صدعاً على صَدْعِ
وويلٌ لهم من وقعةٍ لك خيِّلَتْ عليهم سماءُ اللهِ دانيةَ الوَقْعِ
فمن عُقْرِ دارٍ غيرِ محميَّةِ الحِمٰى ومَصْرَعِ قِرْنٍ غيرِ منتعِش الصَّرْعِ
وأشلاءِ قفرٍ شاكَهتْ فيه ماعَفَتْ خيولُكَ من مغنًى لهُنَّ ومن رَبْعِ

---

(١) الردع هنا هو أثر الطيب والخلوق في الجسد ، يقال ردعت المرأة صدرها بالطيب أي لطخته به .

(٢) الفقع بفتح الفاء وكسرها هو الابيض الرخو من الكمأة ، وهو أردأها ، وبه يشبه الرجل الذليل : يقال أذل من فقع لان الدواب تنجله بأرجلها .

(٣) المضرحية ضرب من الصقور طويل الجناحين وهو مستحسن فيها ، وإنما شبه الشاعر بها الخيل في هذا الموضع .

بهامٍ إلى هامٍ كأنَّ جُثومَها ... بأطلالِها مثوى أُثافيِّها السُّفْعِ(1)
فلا عدِمَ الإسلامُ رعْيَكَ لايَني ... ولاأمِنَ الإشراكُ بأسَكَ لا يُرْعِ(2)
ولا زالَتِ الأعيادُ عائِدَةً لنـا ... بمُلكِكَ ماعادَ الحمَامُ إلى السَّجْعِ
/ ولاأُخْليَتْ منكَ المُصَلَّى بمشهَدٍ ... شهيدٍ عَلى ما أتقنَ اللهُ من صُنْعِ [٦٩ م]
ولا أَوْحَشَتْ ذكراكَ أعوادَ منبَرٍ ... بداعٍ لك الرحمٰنَ فيها ومُستَدْعِ
ولا رَدَّ مَنْ أعلاكَ لي فيكَ دعوةً ... تجلى إليهـا من سَموَاتِـهِ السَّبْعِ
بمارِشْتَ من سهمِي وأيَّدْتَ من يدِي ... وجلَّيْتَ من ضَرِّي وأدنَيْتَ من نفْعِي
فأصبحَ حمدِي فيك ملتحِمَ السَّدى ... كما راح شملِي فيك ملتئِمَ الجمْعِ

— ٦٦ —

وله فيه رحمهما الله في عيد أضحى وكان شك في يوم منه فتأخر

[من الكامل]

عِيدٌ ووعدٌ صادقٌ لك بالمُنى ... ولمن شنئتَ وعيدُ صدقٍ بالفَنَا
ومُبَشِّرُ الأيامِ أنْ تبقى لها ... ومبشرُ الإسلامِ أن تبقى لنـا

---

(١) السفع هي الضاربة إلى السواد ، ويقـال الاثافي السفع أي التي أوقدت بينها النار فاسودت صفاحها .

(٢) الإرعاء على الشيء هو الإبقاء عليه والرفق به .

ولمن مُناهُ أنْ تعيشَ مؤيَّداً ومؤيَّداً ومؤمَّناً ومؤمَّنا
ومعظماً ومكرَّماً ومحكَّماً ومسلَّماً ومغنَّماً ومكَّنا
ولعزِّ مُلْكٍ أنت أكرمُ من نَمَى ولضَنِّ دهرٍ أنت أنفَسُ ما اقتَنَى
مِمَّا نَمَى قحطانُ أكرَمِ نبعةٍ مهتزَّةِ الأغصانِ دانيةِ الجَنَى
غنّاءَ تشدُو من خلائِقِها بها طيرٌ تَغنَّى للخلائِقِ بالغِنَى
ولربَّما كانت فروعُ غصونِها قُضُباً من الهنديِّ أو لَدْنَ القنا
أهوَى إلى الأعداءِ من عَلَقِ الهوى وأدَبُّ في مُهَجِ الضَّلالِ من الضنى
لفتىً له في كَشْفِ كل عجاجةٍ قُبَبٌ على عَمَدِ الخوافِق تبتنى
واختالَ في لبسِ الوغى حتى غدا منه السناءُ يميس في حُلَلِ السَّنا
أعْدَى إلى الأعداءِ من سَهْمٍ رَمَى عن ملكِهِ وأحَنُّ من قوسٍ حَنَى
حَذِرٌ على الإسلامِ أيْسَرَ ما اتَّقَى هَدَرٌ له في الشِّرْكِ أعظمُ ما جَنَى
بمناقبٍ نُظِمَتْ جواهِرَ للوَرَى ما أجْمَلَ الدنيا بِهِنَّ وأزينا
ومقادِمٍ في يومِ كلِّ كريهةٍ ما أقربَ الدنيا لهنَّ وأمكنا
حَفِظَ الحياةَ فكانَ أوْلَى باسْمِها وسَما إلى الظَّفَرِ المُعَلَّى فاكتنَى[1]
واجتابَ أثوابَ النُّهى حتى غَدَتْ شِيَمُ المكارِمِ كلُّهُنَّ له كُنَى
وسعى إلى نيلِ المنَى فكأنَّما كانت مساعيهِ أمانِيَ للمُنَى

---

(١) يشير هنا إلى اسم ممدوحه (يحيى بن منذر) وإلى لقبه (المظفر) .

/ ودَنَتْ له الآمالُ حتى خيِّلَتْ أنَّ النجومَ له ثمارٌ تُجْتَنىٰ [٦٩ب]

وتوالَتِ الأعيادُ من نعمائِهِ ما ينقضي عيدٌ لنا إلا انثنى

فكأنَّ هذا العيدَ عاد مُشَكِّكاً أنَّا عن الأعيادِ غَيْرَكَ في غِنىٰ

أو غارَ من أعيادِنَا بكَ فالْتَوىٰ بعداهُ حتىٰ كادَ يلحَقُهُ الوَنىٰ

فليَهْنِ عيدَكَ يا «مُظَفَّرُ» شيمةٌ من عطفِكَ التأَمَتْ به حتَّى دنَا

وليهنِنَا هٰذا وتلكَ وبعدَهَا ورضاكَ في الأيام أهنأُ ما هَنَا

واسعَدْ بعيدٍ طالما أعْدَيْتَهُ عَوْداً بإحسانٍ فعادَ فأحسنا

أهدى إليك سلامَ مَكَّةَ فالصَّفَا فمعالِمِ الحَرَمِ الأقاصِي فالدُّنا

فمواقفِ الحجَّاجِ من عَرَفَاتِهَا فالمَنْحَرِ المشهودِ من شِعْبَيْ مِنى

ومناسِكٍ شاقَتْ مساعِيَكَ[1] التي أَخْذَيْتَها منها المِثالَ الأبْيَنَا

فغَدَا نداكَ يُهِلُّ في شَرَفِ العلا لَهِجاً يُلَبِّي ليتَنَا ولعلَّنا

وخَلَفْتَ سعْيَ المروتَيْنِ مُعاقِباً بينَ الندى والبأْسِ سعياً ماوَنى

ورميتَ بالجمَرَاتِ من بَذْرِ اللُّهَى ونَحَرْتَ بُدْنَ العُرْفِ كُوماً بُدَّنا

وغدوتَ تُهدِي للمصلَّى جحفلاً لسيوفه خَضَعَ الصليبُ وأذعنا

تَهوِي عليها للبنودِ سحائبٌ بخفوقِها سكنَ الشقاقُ وأسْكَنَا

جُنُحاً إلى أرضِ العداةِ تغيُّظاً وجوانِحاً للمسلمينَ تحنُّنا

---

(١) في الاصل : مساعيد .

فأَرَيْتَ هـذا العيدَ عِزَّةَ مالكٍ متذلّلاً لإلهِـــهِ متَديِّنـا

ورآكَ في هَدْيِ الصَّلاةِ مُـكَبِّراً ومهلّلاً وبحمدِ ربِّكَ مُعلِنَا

فرآكَ وسْطَ الخيل أحسن ما رأى حسناً ووسطَ الخيرِ منه أحْسَنَا

ورأى جبينَكَ للرياسةِ فِتْنَةً ورأى يمينَكَ بالمحامِدِ أَفْتَنَا

ثم انصرفْتَ عن الصلاةِ مشيَّعاً ومقدَّراً فيكَ الهدى ومُكَوَّنا

والأَرضُ تُشْرِقُ دارِعاً ومُغَفَّراً والسُّبْلُ تَشْرَقُ داعِياً ومُؤَمِّنا

فثنيتَ أجيادَ الجيادِ مُعَرِّجاً وثَنَيْتَ سَمْعَكَ نحوَ أَلسِنَةِ الثَّنا

في مشهدٍ أَنْدى نَدِيٍّ بالنَّدى وأَحَقَّ بالمِـنَنِ الجزيلةِ لِلْمُنَىٰ

والعيدُ يُقْسِمُ ما رأى أَهْدٰى الهُدٰى والمُلْكَ جامِـعَ شَمْلِهِ إلاَّ هُنا

[٧٠م]/ فلئِنْ رأى في الدهرِ جَوْهَرَ سُؤْدَدٍ من بعدِها فقدِ اسْتَبانَ المَـعْدِنا

وليَعْمُرَنَّ بِذِكرِ مجدِكَ أعصُراً ويُبَشِّرَنَّ بطولِ عمرِكَ أَزمُنا

يا مُدْنِيَ الأَملِ البعيدِ وإنْ نَأَى ومُبَعِّدَ الخطبِ الجليلِ وإن دَنا

ومُسَلِّيَ الغرباءِ عن أوطانِهِمْ حتى تَبَوَّأَ كلَّ قلبٍ موطِنا

ومنِ احْتَذٰى من كلِّ بانٍ للعلا مَثَلاً ولم يَغْفِلْ عِمارَةَ ما بَنىٰ

حسبِي رسولُ اللهِ فيكم أُسْوَةً إذ عاد من مُضَرِيِّكُمْ فَتَيَمَّنا

قَلِقَتْ به أوطانُهُ من ظاعِنٍ لم يُلْفِ في عدنانَ عنكُمْ مَظْعَنا

فاختارَكُمْ ربُّ السماء لحِرْزِهِ ولعزِّهِ ولِحِزْبِهِ أن يُفْتَنا

ولِرَحْلِهِ ولأهلِهِ أُحْبِبْ بـه … سكناً لـكُمْ وبكمْ إليه مَسْكَنا
فوفيتمُ ورعيتمُ وسعيتمُ … وحميتمُ الإسلامَ حتى استَيْقَنا
وبذلتمُ عنـه نفوساً حُرَّةً … لإبائِها دانَ الضلالُ ودُيِّنا
وسللتُمُ منهـا سيوفاً بَرَّةً … بمضائِها بانَ اليقينُ وبَيَّنا
فبها ضَرَبْتُمْ كلَّ مرهوبٍ عَتاَ … وبها فككْتُمْ كلَّ مَرْهُونٍ(1) عَنا
وبها شَفَيْتُمْ قَرْحَ دهرٍ عَضَّنا … وبها جَلَوْتُمْ خطبَ ضَرٍّ مَسَّنا
وبها بلغتُكَ يا «مُظَفَّرُ» مُسْهِلاً … في كلِّ لامعةِ السرابِ ومُحْزِنا
وبها وصَلْتُ ظلامَ ليلٍ هادِياً … بسناكَ لي وصباحَ هَمٍّ مُدْجِنا
ظُلَمٌ كأَنَّ نجومَها وبدورها … بعثَتْ علينا للحوادِثِ أَعْيُنا
وطوارِقٌ كانت أضاليلُ الفـلا … والبحرِ في الظلماءِ منها أهونا
حتى بلغتُ بكَ المُنى إلا الحظى … إذ لم تُقَيَّضْ لي بشكرِكَ أَلْسُنا
ولسبعةٍ مع مثلِهِمْ أنا كَلُّهُمْ(2) … في النَّائِباتِ وليس كُلُّهُمُ أنا
فاسلَمْ لهمْ وليَهْنِهِمْ منكَ الرِّضا … وليهنِكَ الأَملُ البعيدُ ويَهْنِنا
ولتَفْدِ نفسَكَ يا «مُظَفَّرُ» أنفسٌ … مِنَّا متى تَغْلَقْ بِرَهْنٍ تفدِنا(3)

---

(1) في الاصل : مرهوب ، ولا معنى لها ، ولعل ما أثبتنا هو الصحيح .

(2) الكل هو الوكيل أو الكفيل .

(3) الغلق في الرهن ضد الفك ، وغلق (بفتحة فكسرة) الرهن في يد المرتهن إذا لم يفتك في الوقت المشروط فبقي في يد المرتهن لايقدر راهنه على تخليصه .

بنَدًى إذا غَصَّ الغمامُ يَعُمُّنا ويدٍ إذا شعِثَ الزمانُ تلُمُّنا

فالله يعصِمُها[1] ويعصِمُنا بهـا ويقِي البلادَ بها ويفدِيها بنـا

— ٦٧ —

وله [2]

[من الكامل]

[٧٠ب] / كسِيَتْ بدولَتِكَ الليالِي نُورَا واهتزَّتِ الدنيا إليكَ سُرُورَا

وإذا تأمَّلْتَ المُنى ألفيْتَهـا قَدَراً لـكُمْ ولَنا بِكُمْ مَقْدُورَا

وإذا تفاخَرَتِ الملوكُ وُجِدتُمُ من كُلِّ ملكٍ أوجُهاً وصُدورا

وخلعتُمُ في العالمينَ مساعِياً حلَّيْتُمُوهُنَّ مَفَارِقـاً ونحورا

وإذا الدهورُ تساجَلَتْ ألفيتُمُ يا آل تُبَّـعَ لـلدُّهورِ دُهورا

من كل دهرٍ لايزال كأنَّـهُ لَوْحٌ يلُوحُ بفخرِكُمْ مَسْطُورا

---

(١) في الاصل : يعصمنا ولعل الاصح هو ما أثبتنا .

(٢) كتبت هذه الكلمة بخط يغاير خط الناسخ ، ويبدو لنا من آثار كتابة في هذا الموضع أن عنوان هذه القصيدة قد امحى لتلف أو بلل أصاب موضعه ، فأثبت أحد من اطلعوا على الديوان هذه الكلمة محل العنوان . وواضح من أبيات القصيدة أنها في مدح يحيى بن منذر وتهنئته بمناسبة تزويجه لاحـدى بنات أسرته من أحد قرابته واسمه حكم ، ولعله حـكم بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبي (انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ــ تحقيق ليفي بروفنسال ــ ط . القاهرة سنة ١٩٤٨ — ص ٤٠٤) .

يُتْلى فَتَنْشَقُهُ النفوسُ كأنما ... بالمِسْكِ خَطَّ غُوَاتُهُ[1] الكافورا
لكُمُ سماءُ الملكِ ما زالَتْ بكُمْ ... تُزْهى فتشرِقُ أنجماً وبدورا
ولكم رياضُ الأرضِ تَسْقُونَ الورى ... نِعَماً فتنبِتُ حامِداً وشَكُورا
فَتهنَّ يا «يَحْيى» تُرَاثَ مآثِرٍ ... أحرزْتَ منها حظَّكَ الموفورا
من كل ذي مُلْكٍ نَمَوْكَ فأنجبُوا ... بدراً لفجرِهِمُ المنيرِ مُنيرا
واستودَعُوكَ شمائلاً ومحاسِناً ... كَرُمَتْ فكنتَ بحظِّهِنَّ جديرا
فوصلْتَ ماوصلُوا من النسبِ الذي ... بِذَرَاكَ عُوِّذَ أن يُرى مهجورا
فَحَكَمْتَ في «حَكَمٍ» بشملٍ جامعٍ ... نورَيْنِ زادَهُما التألُّفُ نورا
قَمَرَيْنِ لم يعرِفْ لتِلْكَ نظيرَةً ... هذا ولا هٰذي لذاكَ نظيرا
فَلأَمْتَ شَعْبَهُمَا بسوقِ وليمَةٍ ... راح الثَّرى بدمائِها مَمْطُورَا
تحكِي مَصارِعَ من عُدَاتِكَ لم تَجِدْ ... من حُكْمِ سيفِكَ في البلادِ مُجِيرَا
فَجَزَرْتَ حتى باتَ من عادِيَتِهُ ... حَذِراً يراقِبُ أن يكونَ جَزُورا
ورفَعْتَ في ظُلَمِ الدياجِي عَنْهُمَا ... شقراءَ[2] باتَ لها السِّماكُ سَمِيرا
ناراً تُمَثِّلُ تحتَ ظلِّ دُخانِها ... كِسْفَ العَجاجِ وسيفَكَ المَشْهُورا

---

(١) كذا ، ولا نستبعد أن تكون هذه الكلمة تحريفا للفظ «رواته» التي نراها أصلح للسياق هنا .

(٢) يعني بالشقراء هنا النار التي سيصفها في البيت التالي ،

وتخالُها زُهْرُ الكواكِبِ تحتَها قمراً تَغَشَّىٰ دونَهـا ساهُورا[1]

في مشهدٍ أمسىٰ نذيراً لِلْعِدىٰ وغَدَا لنـا بالقربِ منكَ بشيرا

نُدْعىٰ له الجَفَلَىٰ فحسبُكَ طاعَةً مِمَّنْ يجيبُكَ مَغْنَماً ونفيرا

ولمن[2] يرى خَفْضَ النعيمِ مُحَرَّماً يوماً تُرِيهِ لواءَكَ المنشورا

فَجَلَوْتَ من صَدَفِ المقاصِرِ دُرَّةً حلَّيْتَ منهـا أَرْبُعاً وقُصُورا

[٧١م] / بَكَرَ الربيعُ لها بجودِكَ فاغْتَدَتْ تُسْقَى به ماءَ الحيـاةِ نَمِيرا

فكسا المنازِلَ مَطْعَماً ومشارِباً وكسا الأَسِرَّةَ نَضْرَةً وسرورا

كُلاًّ كسوْتَ دَرَانِـكاً[3] ونمارِقاً وزرابِيّاً وأَرائِـكاً وخُدُورا

وتتابَعَتْ منك الجنودُ كأَنَّما يَطَـأُونَ منهـا لُؤْلُؤاً منثورا

وتَلأْلأَتْ فيها بُرُوقُ[4] مَجامِرٍ يكسُونَ أَصْبارَ السُّمُوكِ[5] صَبِيرا[6]

---

(١) الساهور كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف فيما تزعم العرب .

(٢) في الاصل : ومن ، ولا يستقيم بها الوزن ، ولعل الصحيح ما أثبتنا .

(٣) جمع درنوك بضم الدال ودرنيك بكسرها ضرب من الثياب أو البسط له خمل قصير ، أو هو الطنفسة .

(٤) في الأصل : برق ، ولا يستقيم بها الوزن .

(٥) في الأصل : السموك ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٦) المجامر جمع مجمرة وهي التي يوضع فيها الجمر مع الطيب ؛ والأصبار جمع صبر بكسر الصاد وضمها وهو حرف الشيء وغلظه أو هو أعلاه ؛ والصبير هو السحاب الأبيض يصبر أي يتجمع ويتكثف بعضه فوق بعض درجا .

هَطِلاً بماءِ الوَرْدِ سَحَّ كأَنَّما والىٰ فَرَوَّضَ سُنْدُساً وحريرا

يومٌ لكَ اكْتُتِبَتْ شهادَاتُ النَّدىٰ بالمِسْكِ في صُحُفِ الوجوهِ سُطُورا

تبدُو فنقرَأُ في بيانِ خُطوطِها جَدْوىٰ يدَيْكَ وسعيَكَ المشكورا

لِلّهِ أمُّ مهيرةٍ[1] لم تعتقِدْ في مَهْرِها العِلْقَ الخطيرَ خَطيرا

زُفَّتْ إلى «حَكَمٍ» بحُكْمِكَ فاغْتَدىٰ مَلِكاً مليكاً عِنْدَها وأَميرا

والسَّعْدُ قد شَمِلَ السماءَ كواكِباً واليُمْنُ قد حَشَدَ الهواءَ طُيُورا

ولوِ ابْتَذَلْتَ بها مَخَفَّةَ[2] والِدٍ لم تُعْطِها إلا السيوفَ مُهُورا

وَلَما جَزَرْتَ لها وليمةَ مُعْرِسٍ إلا الضَّراغِمَ عادِياً وهَصُورا

ولكان يومَ الزَّحْفِ مَوْقِدُ نارِها حرباً تفور مَرَاجِلاً وقُدورا

ولما رفعت لها دخاناً ساطِعاً إلا عَجاجاً في السماءِ ومُورا

حتى تثُوبَ وقد مَلأْتَ بلادَنا نِعَمَ العِدىٰ والناعماتِ الحُورا

فتملَّوا يا آلَ «يحيى» عُمْرَكُمْ في مُلْكِ «يحيى» بالمنى معمورا

وسُقيتُمُ ورُعيتُمُ بحياتِهِ ووُقيتُمُ من فقدِهِ المحذورا

---

(١) المهيرة هي الحرة أو الغالية المهر.

(٢) كذا ولعلها: مخافة.

— ٦٨ —

وله فيه أيضاً رحمها الله

[من المتقارب]

قُدِ الخيلَ والخيرَ بأْساً وجُودَا ... وصِلْ أَبَدَ الدهرِ عِيداً فَعِيدَا

وَدُونَكَ فالْبَسْ ثيابَ البقاء ... فأَخْلِقْ جديداً وأَخلِفْ جديداً

مُظاهِرَ ما أورثَتْكَ الجدودُ ... من الحُلَلِ المُلْبِساتِ الجُدُودا

سَنىً وسناءً ومُلكاً ومِلكاً ... وسيفاً وسَيْباً وجَدًّا وجُودَا

وما نَثَرَتْهُ عليك السُّعودُ ... محاسِنَ تبهَرُ فيها السُّعودَا

حُلىً منحت(١) منكَ زُهْرَ النُّجومِ ... شُنُوفاً تَحَلَّى بِها أَو عُقُودَا

[٧١ ب] / وأَنْتَ وَسِعْتَ بِهِنَّ الرجالَ ... ملابِسَ [أَلْبَسْتَهُنَّ](٢) الخُلُودَا

فَخَوَّلْتَ منها اللُّهىٰ والخيولَ ... وعَبَّدْتَ منها المَها والعَبِيدَا

وأَلْبَسْتَ فيها الحُلىٰ والدُّروعَ ... وأَسْحَبْتَ منها المُلا والبُرُودَا

وكم قد كَسَوْتَ ثيابَ الحِدادِ ... بلاداً لبِسْتَ إليها الحديدا

---

(١) في الأصل : منمت ، ولعل الصحيح ما أثبتنا .

(٢) في الأصل : « ملابس لبسن لهن الخلودا » وواضح أن الوزن لا يستقيم بهاتين الكلمتين ، ولعل الأصلح ما أثبتنا .

فأشرقْتَ بالدِّينِ نوراً مُبيناً وأَلْحَقْتَ بالشركِ حتفاً مُبيدا
كتائِبَ حلَّيْتَهُنَّ السيوفَ وتوَّجْتَهُنَّ القَنَا والبُنُودا
صوارِمَ بوَّأْتَهَا في الرقابِ معاهِدَ أَنْسَيْتَهُنَّ الغُمُودا
كما فَتَقَتْ نَيِّراتُ الصباحِ تُفتِّحُ في الروضِ روضاً نَضِيدا
وسُمْراً جلوتَ بها للعيونِ وُجوهَ المهالِكِ حُمْراً وسُودا
يُرِينكَ تحت سُجُوفِ العجاجِ نواظِرَ أَنْسَيْتَهُنَّ[1] الهُجودا
مصارِعَ قَرَّبْتَ منها نفوساً تعاطَيْنَ منها مراماً بعيدا
فَمُلِّيتَهُ عِزَّ نصرٍ وفَلْجٍ كفيلَ المزيدِ بأَنْ تَسْتَزِيدا
وهُنِّيتَهُ فَتْحَ أَيَّامِ عيدٍ جديرٍ عوائِدُهُ أَنْ تعودا
ولُقِّيتَهُ عيدَ فَأْلٍ بوَعْدٍ لِنَصْرِكَ يَقْرُو[2] عِدَاكَ الوعيدا
وكم ذَكَّرَتْ منكَ أَيَّامُهُ مقاماً كريماً وفِعلاً حَميدا
فَعَشْرُ لياليهِ فضلاً ونُسْكاً وعَشْرُ بنانِكَ عُرْفاً وَجُودا
ويومُ مِنًى بالمُنَى أَيُّ فَأْلٍ مُفِيدَ الرَّغائبِ أَوْ مُسْتَفِيدا
وفي اليومِ من عَرَفاتٍ عَرَفْنَا من اللهِ فيما حَبَاكَ المزيدا
وذَكَّرَنَا مَنْحَرُ البُدْنِ منكَ مواقِفَ تَنْحَرُ فيها الأُسُودا

(١) في الأصل : أنسيتهن .

(٢) يقرو أي يتبع ، على أننا نرجح أن تكون « يقري » (بضم الياء) أي يقريء أو « يقري » (بفتح الياء) من القرى .

وتكسُو سيوفَكَ فيها الدِّماءَ وتُوطِئ خيلَكَ فيها الخُدُودا

ورَمْيُ الجمَارِ، فَكَمْ قد رَمَيْتَ عن الدينِ شيطانَ كُفرٍ مَرِيدا

معالِمُ شَيَّدَهُنَّ الخليلُ وأَذَّن بالحجِّ فيها مُشِيدا

فلبَّاهُ من لم يكُنْ قبلُ خَلْقاً وأنشِيءَ من بَعْدُ خلقاً جديدا

رجالٌ أجابُوا أذانَ الخليلِ فجابُوا إليها بِحاراً وَبِيدا

كما عُمِّرَتْ بك سُبْلُ الجهادِ جنوداً تَفُلُّ بهنَّ الجنودا

[٧٢ م] / وجُدْتَ فنادَى نَدَاكَ العُفَاةَ وسُدْتَ فنادَى عُلاكَ الوُفُودا

ولا كوُفودٍ تقبَّلْتَ مِنْهُمْ وسائِلَ كانوا عليها شُهودا

فَحَيَّوْكَ عن كُلِّ مُحْيِي الوفاءِ إليك حياةً تُمِيتُ الحقودا

فكم أنَّسوا بك شكلاً زَكِيّاً وأَدْنَوْا إليك صَفِيّاً بعيدا

وكم وصَلُوا بكَ قلباً كريماً وكم شَرَحُوا لك صدراً وَدُودا

عهوداً تضمَّنَهُنَّ الوفاءُ بصدقٍ تضمَّنَ منكَ العُهُودا

فلا أَعْدَمَتْكَ ظنونُ اللبيبِ يقيناً عَلَى كلِّ قلبٍ شهيدا

ولا زال سيفُكَ في كلِّ أرْضٍ عَلَى كلِّ غاوٍ رقيباً عَتيدا

ولا زِلْتَ للدِّينِ طَوْداً مُنيفاً وظلاًّ ظليلاً ورُكناً شَدِيدا

وله فيه أيضاً رحمه الله تعالى

[من المتقارب]

نجومَ الصِّبا ، أَيْنَ تلكَ النجومُ ؟ ... نَسيمَ الصَّبا ، أَين ذاكَ النَّسيمُ ؟
أَما في التَّخَيُّلِ منها ضِياءٌ ... أَما في التَّنَشُّقِ منها شَميمُ
فَيَلْحَقُها من ضلوعي زفيرٌ ... ويُدْرِكُها من دُموعي سَجُومُ
لقد شَطَّ روضٌ إِليهِ أَحِنُّ ... وغارَتْ مياهٌ إِليها أَهيمُ
أَوانِسُ يُصْبِحُ عنها الصَّباحُ ... نواعِمُ يَنْعَمُ منها النَّعيمُ
كواكِبُ تصغي إِليها السُّعودُ ... كواعِبُ تَصْبُو إِليها الحُلُومُ
ليالِيَّ إِذْ لا حبيبٌ يصُدُّ ... وعهدِيَ إِذ لا عذولٌ يلومُ
وإِذ لا صباحِي رقيبٌ عَتيدٌ ... ولا ليلُ وصلِي ظلامٌ بهيمُ
وكيفَ وشمسُ الضُّحى لِي أَليفٌ ! ... وأَنّى وبدرُ الدُّجى لِي نديمُ !
وخمري من الدُّرِّ مِسْكٌ مُذَابٌ ... وروضِي من السِّحرِ دَلٌّ رخيمُ !
وأَوجُهُ أَرضِيَ زُهْرٌ تروقُ ... ومِلْءُ سمائِي نجومٌ رُجُومُ
فشيطانُ لهوِي مُطاعٌ مُطيعٌ ... وشيطانُ هَمِّي طريدٌ رجيمُ
غرارةُ عيشٍ أَراها الغُرورُ ... بأَنَّ الزمانَ صديقٌ حميمُ

وغمرةُ شكٍّ أتاها اليقينُ بأنَّ رضيعَ الأماني فَطيمُ
وغصنُ شبابٍ علاه المشيبُ كغضٍّ رياضٍ علاها الهشيمُ
[٧٢ب] / فيا عجباً لصروفِ الزمانِ شهوداً لنا وَهْيَ فينا خُصومُ !
وكيف قضىٰ حُكْمُ هذا القضاء عليَّ لدهريَ وَهْوَ الظَّلومُ ؟ !
فنحنُ ديونُ النَّوىٰ كلَّ يومٍ عَلَى حكمِهِ يقتضينا الغريمُ
وتلك المعاهدُ بِنَّ(١) رُسوماً عفاها الذَّميلُ بنا والرَّسيمُ
بِسَيْرٍ يقولُ الصَّفا(٢) الصُّمُّ منه : أما للحوادثِ قلبٌ رحيمُ ؟ !
أما يُستقالُ الزمانُ الـكنودُ ؟ أما يُستَكَفُّ العذابُ الأَليمُ ؟
عن الأوجُهِ المُتوَالي عليها ليالٍ وأيَّامُ جَهْدٍ حُسُومُ
جسومٌ تطيرُ بهنَّ القلوبُ بأجنحةٍ ريشُهُنَّ الهمومُ
بكل هجيرٍ لَوِ النَّارُ تَصْلىٰ جحيماً لأَصبَحَ وَهْوَ الجحيمُ
كأنَّ رواحِلَنَا في ضحاهُ صوادِي سَمَامٍ(٣) حداها السَّمُومُ
وفي كلِّ ليلٍ تَغَشَّىٰ دُجاهُ فنامَ ولـكِنَّهُ لا يُنِيمُ
كأنَّا وقد سَدَّ بابَيْهِ عنَّا وهامَ بِنا الذعرُ ـ هامٌ وبُومُ

(١) في الأصل : بنـا ، ولعل الصواب ما أثبتنا ؛ والذميل والرسيم من ضروب السير .

(٢) في الاصل : الصـ...ا ، ولعلها كما قرأنا .

(٣) السمام ضرب من الطير نحو السماني ، والصوادي أي العطاش .

وفي كل بحرٍ - كما قيلَ - خَلْقٌ صغيرٌ يُهاوِيهِ خلقٌ عظيمُ
كأنَّا عليه نجومُ الثُّرَيَّا تسيرُ وقد أفردَتْها النُّجومُ
نِجاءٌ[1] تمنَّى ثمارَ النجاةِ[2] ومن دونِهنَّ رجاءٌ عقيمُ
فذاكَ[3] مدى صبرِ حُرٍّ يُضامُ وذاكَ مدى صرفِ دهرٍ يَضيمُ
وكم[4] أعقبَ الظِّمْءَ حِسْيٌ جَمُومٌ وكم عاقبَ الجدبَ رِيٌّ[5] جميمُ
وفي اسمِ «المظفَّرِ» فألُ الحياةِ ليَحْيا الغريبُ بهِ والمُقيمُ
يُبَشِّرُنا بسناهُ الصباحُ وتخبرُنا عن نداهُ الغيومُ
ففي كل بحرٍ لنا منكَ شِبْهٌ وفي كلِّ فجرٍ لنا فيكَ خِيمُ
ومرعاكَ في كل أرضٍ نرودُ وسقياكَ في كلِّ برقٍ نَشيمُ
وفي كلِّ نادٍ مُنادٍ إليكَ : هلُمَّ إلى حيثُ يُغْنَى العديمُ !
هلُمَّ إلى حيثُ تُنْسى الرَّزايا ! هلُمَّ إلى حيثُ تُؤْسى الكُلُومُ !
هلم إلى حيثُ يُؤْوَى الغريبُ ! هلم إلى حيثُ يُحْمَى الحَريمُ !

---

(١) النجاء جمع نجو (بفتح فسكون) وهو السحاب الذي أراق ماءه ثم مضى ، أو لعله جمع ناج أو ناجية وهي الناقة السريعة تنجو براكبها أي تسرع .

(٢) طمست بعض ألفاظ هذا الشطر ، ولعله كما قرأنا .

(٣) في الأصل : ...بذاك .

(٤) هذه الكلمة مطموسة في الاصل .

(٥) في الاصل : رأى ولا معنى لها هنا ، ولعلها تحريف لـ « رى » التي أثبتنا .

هلمّ لِعزٍّ حِمًى لا يُرامُ يَسُحُّ عليهِ حَياً[1] لا يَرِيمُ !

/ عُلاً أعْرَقَتْ فيكَ من عَهْدِ عادٍ[2] يدينُ الكريمُ بها واللئيمُ [٢٧٣م]

عهودُ مكارِمَ لا عهدُها ذميمٌ ولا الدَّهْرُ فيها مُليمُ

أَجَدَّ منـاقِبَهُنَّ اللَّبيسُ وأحدثَ آثارَهُنَّ القديمُ

تُنيرُ بهنّ القبورُ الدُّثورُ وتَعْبَقُ منها العِظامُ الرَّميمُ

وتُثْمِرُ من طَعْمِهِنَّ الغصونُ وتُغْدِقُ في سَقْيِهِنَّ الأرُومُ

ويُوصِي بهنّ مليكاً مليكٌ ويُودِعُهُنَّ كريماً كريمُ

فعمَّ الخلائقَ منها خُصُوصٌ كفاها وخَصَّكَ منها العمومُ

وجاءتكَ بين ظُباةِ السيوفِ تصولُ القيولُ بها والقُرومُ

وفي كل برٍّ وفي كلّ بحرٍ صِراطٌ إليكَ لها مستقيمُ

وأنت بميراثِهِنَّ المحيطُ لأنك فيها الوَسيطُ الصَّميمُ

فإنْ أَعْلَقَتْ بك عِلْقَ الفخارِ فأنتَ الكفيلُ بها والزعيمُ

وإن رَضِيَتْكَ لتاجِ البقاءِ فأنتَ الرَّفيعُ به والعَميمُ

وسيفُكَ للدينِ رُكْنٌ شديدٌ وحظُّكَ في الملكِ حظٌّ جسيمُ

---

(١) في الاصل : حمى ، ولا معنى لها هنا ولعلهـا تحريف لـ حيا ، أي مطر .

(٢) هذا الشطر مطموس في الاصل لا تبين منه إلا بعض الكلمات .

وإن يَهْنِكَ اليومَ عيدٌ يَعودُ فيَهْنِ لَهُ مِنْكَ[1] عيدٌ يُقيمُ

ولمـــا رأى أنه لا يدومُ أتاكَ يُهَنِّيكَ مُلْكاً يدومُ

وإقبالَهـــا دولةً لا تَناهَى وإقْدَامُهـــا عِزّةً لا تَخيمُ

ويمْنِ المصلَّى تجلِّيكَ فيهِ بوجهٍ يُنيرُ وكفٍّ تَغيمُ

وهَدْيٌ تهادَى إليه العُيونُ ويُزْهَى له زَمْزَمٌ والحَطيمُ

لبستَ إليها منَ المُلْكِ تاجاً يُهِلُّ الهـلالُ له والنجومُ

عَلَى حُلَلٍ حاكَهُنَّ السناءُ وأرديَةٍ نسجَتْهـا الحُلُومُ

وتحت غَياباتِ غابِ الوَشيجِ أُسودٌ إلى مُهَجِ الكفرِ هِيمُ

وللسابغاتِ بحورٌ تمورُ وللسابحاتِ سفينٌ يَعُومُ

كأنَّ خوافقَ أعلامِهِنَّ طيورٌ عَلَى الماءِ منها تحُومُ

فَفُصِّلَ باسمِكَ فصلُ الخطابِ كما قد حباكَ العزيزُ الحكيمُ

وأُخْلِصَ فيكَ جميلُ الدُّعاءِ بما لا يُضيعُ السميعُ العليمُ

/ فلا شاءَ دهرُكَ ما لا تشاءُ ولا رام شانِيكَ ما لا تَرُومُ [٧٣ب]

فنصرُكَ أوّلُ ما نَستَمِدُّ وعمرُكَ آخِرُ ما نستديمُ

---

(١) في الاصل : لك منه ، ولا يستقيم بهاتين الكلمتين الوزن ولا المعنى ، ويبدو أن الناسخ قلب ضميريها ، إذ يستقيم الشطر بما أثبتناه .

وله فيه أيضاً في حياة أبيه رحمهم الله

[من الكامل]

اليومَ نادَتْكَ السيادَةُ : هَيْتَ لَكْ ... في مُلْكِ مَنْ حَلاَّكَ بَهْجَةَ ما مَلَكْ
ورأى جبينَكَ قد تلألأَ للمُنى ... نُوراً فتوَّجَكَ السناء وكَلَّلَكْ
فلك السيادةُ والقيادَةُ دُونَهُ ... وله الرياسَةُ والسياسَةُ ثُمَّ لَكْ
صَدَقَتْ فِراسَتُهُ(١) شمائِلَكَ التي ... منه فأغْمَدَ سَيْفَهُ واسْتَبْدَلَكْ
وأَخَذْتَ سيفَ النصرِ منه بحَقِّهِ ... وحَمَلْتَ من أعبائِهِ ما حَمَّلَكْ
فرمى بكَ الثَّغْرَ القَصِيَّ تيقُّناً ... ألاَّ يَرى غيرَ المُهَنَّدِ مَوْئِلَكْ
والفتحُ مُبْتَهِجٌ إليكَ كأنَّهُ ... للعُرْفِ والإكرامِ مِمَّنْ أمَّلَكْ
ولَرُبَّ وجهٍ للمنايا دُونَهُ ... عَمَّمْتَهُ بالسيفِ حِينَ اسْتَقْبَلَكْ
في غمرةٍ أعْيا الحِمامَ طريقُها ... ففتحتَ فيهِ للقنا حتّى سَلَكْ
ونهضتَ والإسلامُ يَهتِفُ معلناً ... يا مُنْذِراً قرة عين(١) لي وَلَكْ

(١) في الاصل : فراسة ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(١) كذا في الاصل ، وواضح أن في هذا الشطر بهذه الصورة قلقا في الوزن والمعنى ، وربما كان الصحيح « قرت عيون » .

فَسَقَيْتَ ظِمْءَ الغيظِ من مُهَجِ العِدٰى ... ما عَلَّكَ الشَّبِمَ القَرَاحَ وأَنْهَلَكْ
أَلْفٌ كأُسْدِ الغابِ أُلِّفَ شَمْلُهُمْ[1] ... لِيزيدَهُمْ ذو العرشِ فيما نَفَّلَكْ
فَقَسَمْتَهُمْ بين الصَّوارِمِ والقَنا ... إلا الذينَ مَلأْتَ مِنْهُمْ أَحْبُلَكْ
أُمراءُ أجنادٍ ونُخْبَةُ دولةٍ ... كانوا ذخيرةَ نُخْبَةِ الأيامِ لَكْ
وحَمٰى «ابنُ شَنْجٍ» منكَ آجِلَ ميتةٍ ... أَلْقَتْ إليكَ بعُذْرِ ما قد أَعجلك
فالحَيْنُ يُدْنيهِ إليكَ لِتقتضي ... عبداً يُهَيِّئُ وجنتَيْهِ لِيَنْعِلَكْ
قلِقاً تناهٰى في البلادِ فِرارُهُ ... ونَهٰى ضميرَ النفسِ أَنْ يتمثَّلَكْ
ويذودُ عن أجفانِهِ سِنَةَ الكَرٰى ... كَيْ لا يُرِيَهِ الحُلْمُ أن يتأَوَّلك
ويحيدُ[2] عن جَوِّ السماءِ بطَرْفِهِ ... أَلاَّ يَرٰى بين الكواكبِ مَنْزِلَكْ
ولكم أراهُ البَدْرُ حَيْنَ حِمامِهِ ... لما اسْتَبَدَّ بهِ الكمالُ فَخَيَّلك
ودَوِيُّ سيفِكَ في رقابِ حُماتِهِ ... عَجِلٌ إليكَ بِرِقِّهِ ، ويَقِلُّ لك !
ولقد تَفَهَّمَ فيهِ لَفْظَ مُخاطِبٍ : ... خَلِّ البلادَ لأَهلِها لا أُمَّ لَكْ !
لِمَنِ اسْتَرَدَّ حياةَ نفسِكَ عَفْوُهُ ... وقدِ انتَحٰى سهمُ المَنِيَّةِ مَقْتَلَكْ [٧٤م]
ولِمَن تُلَبِّيهِ السماءُ وأرضُها ... مدداً إليكَ لَهُ مَليكاً أَوْ مَلَكْ
ولِمُقْحِمٍ عينَيْكَ في رَهَجِ الوغى ... خيلاً تَغَصُّ بِهِنَّ[3] أقطارُ الفَلَكْ

(١) هاتان الكلمتان غير واضحتين في الاصل .
(٢) في الاصل : ويحيد .
(٣) في الاصل : بها ، ولا يستقيم الوزن بها ، ولعل ما أثبتناه هو الصواب .

فَلْيَهْنِ سَعْيَكَ يا « مُظَفَّرُ » أُمَّةً جاهَدْتَ عنها مَنْ بَغى حتى هلك
ورمَيْتَ دونَ ثغورِها ونُحُورِها من لم يَدِنْ بالحَقِّ حتى دانَ لك
ولئن شَكَرْتُ اللهَ فيكَ جزاءَ ما قَسَمَ الفضائِلَ في الملوكِ فَفَضَّلك
فلَقَدْ بَلا شُكْرِي بِما خَوَّلْتَهُ أنِّي وَرِقَّ بَنِيَّ مِمَّا خَوَّلك
فلَئِنْ لَبِسْتُ بكَ الثناءَ فَحَقَّ لِي ولَئِنْ لَبِسْتَ بِيَ الثناءَ فَحَقَّ لَكْ

— ٧١ —

وله فيه رحمه الله وقد قدم من غزوة

[من الطويل]

سلامٌ عَلَى الأَيامِ تسليمَ إقْبالِ بآمالِ تحقيقٍ وتحقيقِ آمالِ
بمَقْدَمِ فتحٍ من مليكٍ مُظَفَّرٍ وأوبَةِ نَصْرٍ في تباشيرِ إقْبالِ
وشاهدِ مُلْكٍ لاحَ في تاجِ مَفْرِقٍ مُحَيًّا بإعظامٍ مُحَلًّى بإجلالِ
ذخيرةُ أملاكٍ وعِلْقُ تبابِعٍ وصفوةُ أَذْوَاءٍ وميراثُ أَقْيالِ
فبُشْراكِ يا دنيا سَمِيُّ الذي به عَلاَ صوتُ جِبْرِيلٍ بَشيراً وميكالِ(١)

(١) يشير الشاعر هنا بقوله « سمي الذي به ... الخ » إلى يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وقصة مولده إذ دعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية طيبة ، فاستجاب الله لدعائه وأمر جبريل أن ينزل عليه بالبشرى فأتاه وأتته الملائكة وأحدقوا بالمحراب ، قال الله تعالى : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى » (سورة آل عمران ، آية رقم ٣٩) .

وبشراكِ باستقبالِ أرضٍ حَيانُها بما في اسمِهِ من صادقِ الظَّنِّ والفَالِ
فَهٰذي رياضُ الأمنِ تُزْهِرُ بالمُنَىٰ وهذي سماءُ الفضلِ تَهْمِي بإفْضالِ
وهذا سناءُ الفخرِ يُشْرِقُ بالسَّنا وهذا جمالُ الدهرِ يُزْهَى بإجْمالِ
بِمَنْ كَشَفَ الخطْبَ الذي أظلَمَ الضُّحى وألْقَى عَلَى الألبابِ حَيْرَةَ إضْلاَلِ
ومن رَتَقَ الفَتْقَ الذي أعْجَزَ الوَرٰى وأعْدَمَ فيه الدَّهْرُ حيلَةَ مُحْتَالِ
ومن رَدَّ في جسمِ المكارِمِ رُوحَهُ فلا عُذْرَ للباكِي ولا ذَنْبَ للسَّالِي
ومَنْ وَسِعَ الإسلامَ رَأفَةَ مُنْعِمٍ وهيَّأَ للإشراكِ عَدْوَةَ رِئْبَالِ
ومن رَكِبَ الفُلْكَ السَّوابحَ في الوَغَى إلى كُلِّ هَوْلٍ ينتحيهِ بأهوالِ
ورفَّعَ أعلاماً كأنَّ خفوقَها عَلَى عَلَمِ الإشراكِ إرجافُ زِلْزَالِ
وسامَرَ بالشِّعْرَى خيولاً كأنَّما تَمَشَّى بهنَّ الأرضُ مِشْيَةَ مُخْتالِ
سرٰى ليلَ كانُونَيْنِ والدَّجْنُ ذائبٌ عليه بجمدٍ في دُجَى الليلِ مُنْهَالِ
/ وليسَ سِوٰى نارِ الطِّعانِ له صِلًى ولا غَيْرُهُ في حَرِّ أوَّلِها صَالِ [٧٤ب]
بجمعٍ كأنَّ الجوَّ مرآةُ عَيْنِهِ إذا ما سَرٰى أو بالغُدُوِّ وَالآصالِ(١)
فَتِمْثَالُ أطرافِ العوالي نُجُومُهُ وَشَمْسُ ضحاهُ منكَ أبْيَنُ تِمْثَالِ
كأنكَ عَوَّضْتَ الأباطِحَ والرُّبَى وشيجَ القنا من مَنْبِتِ السِّدْرِ والضَّالِ
كما عَمَّهَا جَدْوٰى يَدَيْكَ فوصَّلَتْ مساءً بإصباحٍ وسَهْلاً بأجبالِ

---

(١) كذا في الاصل ، ويحتمل أن تكون أيضاً : « إذا ما سرى أو في غدو وآصال » .

فكَمْ أَلْبَسَتْ شُمَّ الرُّبى من عمائمٍ وجَرَّتْ عَلى البيداءِ من فَضْلِ أذيالِ
حدائقَ ماذِيٍّ يضاحِكُ في الدُّجى حبيكاً كَلَمْعِ الشمسِ في رَيِّق الآلِ[1]
إذا هَبَّ ريحُ النصرِ فيها تفتَّحَتْ بأبيضَ قضَّابٍ وأسْمَرَ عَسَّالِ
وطاقَةِ نَبْعٍ في بنانِ مُوَتِّرٍ وزَهْرَةِ نَوْرٍ في كِنانَةِ نَبَّالِ
تجارَةُ غَزْوٍ نَقْدُها البيضُ والقنا قضاءُ حُقوقٍ واقتِضاءُ لآجالِ
فللهِ كَمْ أغلَيْتَ من دَمِ مُسْلِمٍ وأرخَصْتَ في أعدائِهِ من دَمٍ غالِ
وأسلَمْتَ للإسلامِ فيها بِضاعَةً تعود بأضعافٍ وتوفي بأمثالِ
وحسبُكَ فيها بابْنِ شَنْجٍ[2] وجُنْدِهِ من السَّبْيِ أبْدالاً، وأيَّةُ أبدالِ!
مليكاً وما يحوي شَرَيْتَ ببعْضِهِ وأرْبِحْ بقِنطارٍ يُباعُ بمثقالِ!
فما حازَ غازٍ مثلَهُ فَيْءَ مَغْنَمٍ ولا نالَ سابٍ مثلَها سَبْيَ أنفالِ
وما بعتَ رِقَّ الملكِ منهُمْ نَسيئَةً ولا مُستجيزاً كالِيءَ الدَّيْنِ بالكالِي[3]

---

(١) أي لامع السراب.
(٢) في الاصل: يابن شنج.
(٣) الكالىء من كلأ الدين أي تأخر، والكالىء النسيئة والسلفة، وفي الحديث أن النبي ﷺ نهى عن الكالىء بالكالىء أي النسيئة بالنسيئة. قال في تفسير ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام: هو أن يسلم الرجل إلى الرجل مائة درهم إلى سنة في كر طعام (الكر هو مكيال لأهل العراق)، فإذا انقضت السنة وحل الطعام عليه قال الذي عليه الطعام للدافع ليس عندي طعام ولكن بعني هذا الكر بمائتي درهم إلى شهر فيبيع منه ولا يجري بينهما تقابض، فهذه نسيئة انتقلت ـ

ولـــكنَّ نقداً ناجزاً في رِقابِهِمْ بإذعانِ تَمْلِيكٍ وإذعانِ إذلالِ
وإقرارِ من لا يبتغِي عنكَ مَوْئِلاً وليس له من دونِ سيفِكَ مِنْ والِ
فَعُدْ بمفاتيحِ الفتوحِ التي شَفَتْ عَلَى غَلَقٍ من غَدْرَةٍ تحتَ أقفالِ
بمَنْ لم يُسِغْهُ كَرُّهُ بَعْدَ فَرِّهِ[1] ولا رَدَّ من عَيْنَيْهِ نَظْرَةَ إجفالِ
غداةَ تقاضى منه أكفالَ خيلِهِ بأجيادِ خيلٍ لا تَقَرُّ بأكفالِ
وأُلْقِحَ منهُ بَطْنُ أمٍّ طَوَتْ به مَشِيمَةَ شُومٍ جَالَ فيسُخْدِ[2] أوجالِ
إذا أَسْقَطَتْهُ رَوْعَةٌ منكَ راعَهُ هشيمُ رياضٍ في دوارِسِ أطلالِ
شَفاً[3] جَنَّةٍ لم تُجْنَ حتى جَنَى لَهَا حروباً جَناها من جحيمٍ وأَنْـكالِ[4]
يقلِّبُ كفَّيْهِ بحَسْرَةِ خاسِرٍ عليهـــا وعينَيْهِ بعبرةِ إعْوَالِ
/ مصانِـعُ رَوْضاتٍ رَعَى البغْيُ نَبْتَها فعَوَّضَهُ منهـا شواهِقَ أوْعالِ [٧٥م]

ـ إلى نسيئة وكل ما أشبه هذا هكذا ، ولو قبض منه الطعام ثم باعه منه أو من غيره بنسيئة لم يكن كالئا بكالىء .

(١) في الأصل : كرة بعد فرة ، ولعل الأصلح للمعنى ما أثبتنا .

(٢) السخد ماء غليظ أصفر يخرج مع الولد .

(٣) كذا في الأصل ، وجائز أن تكون بمعنى حرف أو حافة ، على أننا لا نستبعد أن تكون « سفا » بالسين » والسفا هو الشوك والسنبل الجاف الذي تسفيه الريح أي تذروه ، وتكون بذلك أنسب وأكثر ملاءمة لما ورد في البيت السابق .

(٤) الأنـكال جمع نـكل بكسر النون وهو القيد الشديد من أي شيء ، وفي القرآن الكريم « إن لدينا أنـكالا وجحيما » (سورة المزمل ، آية رقم ١٢) وقيل في تفسيرها إن الأنـكال قيود من نار .

فأَيَّةُ أَسوارٍ ونُصْحُكَ سِرُّها ! إلى أن طوى غِلاًّ فأيَّةُ أَغلالِ !
وأَيَّةُ أَشجارٍ وسَلْمُكَ سَقْيُها ! إلى أَنْ بَغَى فيها فأَيَّةُ أَجْذَالِ !
حَماها فأَعْلاَهـا بناءً وما رأى مكانَكَ يعلُو كُلَّ ذي شَرَفٍ عالِ
وشيَّدَهـا عُجْباً ويا رُبَّ مِثْلِهِ عَلَى مثلِها أبكَيْتَ من طَلَلٍ بالِ
وعَطَّلَها من حَلْيِ نُصْحِكَ باغياً فيا عَجَبَ الأَيَّامِ للعاطِلِ الحالي
يُتَوِّجُها بالنَّقْعِ نَظْمُكَ حولَها مجالَ عُقُودٍ من خيولٍ وأَبطالِ
فيُمْسِي لها منهُ لِحافٌ ومِلْحَفٌ وتُصْبِحُ منه بينَ دِرْعٍ وسِرْبالِ
كما وَصَفَ الكِنْدِيُّ بعْلَ فَتاتِهِ (عليه القَتَامُ سَيِّءَ الظَّنِّ والبالِ)[1]
فأَبْقِ لها بأْسَ« ابْنِ باقٍ[2] » ونُصْحَهُ فما لَمَسَ الجَرْباءَ مِثْلُ يَدِ الطَّالي

---

(١) هذا الشطر هو القسم الثاني من بيت امرىء القيس :

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام سيء الظن والبال

(انظر ديوان امرىء القيس ، جمع الأستاذ حسن السندوبي — القاهرة سنة ١٩٣٠ ، ص ١٠٩) .

(٢) لم نتحقق من شخصية « ابن باق » هذا ، ويبدو أنه كان من قواد الدولة المنذرية وأنه كان على رأس الجيوش المتمرسة بالنصارى . وستأتي لابن دراج قصيدتان يمدح بهما ابن باق هما : البائية التي أولها « تسمع لدعوة ناء غريب » والميمية التي أولها « أقدمت دون معالم الإسلام » ؛ هذا وقد عثرنا أخيراً على إشارة إلى أحد القواد ممن اشتغلوا في أول أمرهم بالكتابة ، اسمه أحمد بن محمد بن باق وكان واليا على مدينة سالم (وتسمى الآن بالإسبانية Medina celi) وكانت من أجل ثغور المسلمين بالاندلس ، وقد توفي ابن باق هذا في سنة ٤١٩ أو ٤٢٠ مقتولا —

ولا أَحْصَنَ الحربَ العوانَ كَبَعْلِها ... ولا راعَ آساداً كغاصِبِ أَشْبالِ
ولا سِيَّا حُرٌّ جَلاَ لكَ غَيْمُهُ ... نصيحةَ لا وانٍ وإشفاقَ لا آلِ
وشِيعِيَّةٌ لا مُقْصِراً عن غُلُوِّها ... ولا مُشْكِلاً بينَ المقصِّرِ والغالي
وطائرُ يُمْنٍ لا تَزَالُ تَرِيشُهُ ... قوادِمَ إقدامٍ ونَهْضَةَ إعجالِ
بها رَدَّ خيلَ البغيِ تَدْمَى كُلُومُها ... وقد يَئِسَتْ من نُصْرَةِ العَمِّ والخالِ
وأَمَّنَ من عُدْوَانِها كُلَّ خائفٍ ... وأثْكلَها مُسْتَوْدَعَ الأَهلِ والمالِ
وإنَّ هلالاً لاح من حَدِّ سيفِهِ ... لمضمونٌ إتمامٍ عليهِ وإكمالِ
فهاكَ نجومَ السَّعْدِ من كلِّ مطلعٍ ... تُوالِي بتكبيرٍ إليكَ وإهلالِ
فلا عَرِيَتْ منكَ الجيادُ إلى الوغى ... ولا العِيسُ من حِلٍّ إليك وترْحالِ

— ٧٢ —

وله فيه أيضاً رحمه الله

[من الطويل]

دوالَيْكَ من دهرٍ يواليكَ بالنُّجْحِ ... ففتحٌ إلى عيدٍ وعيدٌ إلى فتحِ
كما بشَّرَتْ بالغيثِ بارِقَةُ الحيا ... وأسفر عن شمسِ الضحى فَلَقُ الصُّبْحِ

— بهذه المدينة (انظر ابن الأبار : التكملة ص ٤١) ؛ ولسنا نستبعد أن يكون ابن باق هذا هو ممدوح ابن دراج .

وريحٌ من الإقبالِ تعصِفُ بالعِدى — وتنشأُ للإسلام بالوابلِ السَّحِّ
حياً منك «يايحيى» عَلَى الدينِ والهدى — بوارِقُهُ في الكفرِ خاطفةُ اللَّمْحِ
جديرُ الندى أن تُتْبِعَ المَنَّ بالمُنَى — وسُمُّ العِدى أن تنكأ القرحَ بالقرحِ
[٧٥ب]/ فَوُفِّيتَ[(١)] من سعْيِ الجهادِ تجارةً — مضاعَفَةَ الأَضعافِ ناميةَ الرِّبحِ
كما بشرت بالغيثِ بارقة الحيا — وأسفرعن شمس الضحى فلق الصبح[(٢)]
رفعتَ لها أعلامَ نصرٍ كأنما — كستها طيورُ اليُمْنِ أجنِحَةَ النُّجْحِ
تمورُ بها في كلِّ بحرٍ من الوَغى — سوابِحُ محمودٌ لها شِيَمُ السَّبْحِ
إذِ[(٣)] الحربُ بالأبطالِ في لُجَّةِ الرَّدى — تُذَكِّرُهُمْ «بَلْقِيسَ» في لُجَّةِ الصَّرْحِ
وسيفُكَ في الأعناقِ والسُّوقِ مُقْتَدٍ — بسيفِ «سليمانَ» المُوَكَّلِ بالمَسْحِ[(٤)]

---

(١) في الأصل : فوقيت .

(٢) كذا ورد هذا البيت ، ويلاحظ أنه تكرار لنص ثاني أبيات القصيدة ، ويبدو أن الناسخ كرره سهواً .

(٣) في الأصل : إذا ، وما أثبتناه أصلح المعنى .

(٤) يشير في هذا البيت إلى ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى : « إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد . فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب . ردوها عليَّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق » ؛ وقد ذكر المفسرون في شرح هذه الآية إن نبي الله سليمان بن داود عليه السلام كان قد فتن بالخيل التي عرضت عليه حتى شغلته عن الصلاة ، وتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غابت فاغتم وندم وأمر بأن ترد الخيل علية وبأن تضرب أعناقها وسوقها بالسيف ، وهو ما يعنيه قوله تعالى « مسحا بالسوق والأعناق » . —

لَمَعْتَ به في جوِّ « ناجرَ » [1] لمعةً ثَنَتْ كَبِدَ الشيطانِ داميةَ الجُرْحِ
وصبَّحْتَها في جنحِ ليلٍ من القَنا أَحَلَّ بها ليلَ الأَسى مُطبِقَ الجُنْحِ
فأيَّةُ أُمٍّ للضلالِ قَهَرْتَهـــا بَنِيها بضربٍ في الطُّلَى فائزِ القِدْحِ
وبيضةِ كفرٍ كم وكم لكَ أَسْمَحَتْ ببيضةِ خِدْرٍ لا تُواتي يَدَ السَّمحِ
جَلَلْنَ عن الأَكفاءِ قدراً وأَوجُهاً فأَصْمَمْنَ عن خِطْبٍ وأُخْرِسْنَ عن نِكْحِ
فسرعانَ ما أَبرزْتَ منهنَّ للفلا غدائِرَ تُمْسِي في سنا أَوجُهٍ تُضْحِي
مُظَلَّلَةً بالخافقاتِ كأنَّهـــا ظِباءٌ تَهادَى في ذَرَا الأَيْكِ والطَّلْحِ
كواعِبُ إلا أَنَّهُنَّ كواكِبٌ جَلَوْتَ سَناها من سَنَا السيفِ والرُّمْحِ

– (انظر في ذلك شهاب الدين النويري : نهاية الأرب ــ ط . دار الكتب سنة ١٩٤٣ – ١٤ / ١٠٥ – ١٠٧) .

(١) ناجر أو ناجرة بالإسبانية Nàjera) عاصمة منطقة صغيرة تحمل اسمها وتقع الآن في المقاطعة المعروفة باسم لوجرونيو logroño (انظر المعجم الجغرافي التاريخي الإحصائي لباسكوال مادوث : - Pascual Madoz , Diccionario Geográfico Estadistico - Histórico ; ed. Madrid , 1849, XII , PP · 10 - 22)
وقد كانت في عهد الدولة الإسلامية في الأندلس ثغراً على جانب من الاهمية . وقد ذكرها ياقوت (معجم البلدان ــ ط . القاهرة سنة ١٩٠٦ – ٨ / ٢٣٥) فقال إنها مدينة في شرقي الاندلس من أعمال تطيلة (Tudela) ، كما أشار إليها ابن حزم (فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٨) ، وكذلك أورد ذكرها ابن الخطيب عدة مرات في الفصل الذي أفرده للتعرف بملوك النصارى بالاندلس (أعمال الاعلام ، صفحات ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥) ، ويؤخذ من كلام ابن الخطيب أنها من أرض نبارة (أي Navarra) أو أحوازها .

تردُّ إلينا عن سهامِكَ فيهمُ ... سهامَ عيونٍ حربُها موشِكُ الصُّلح

وتُسفِرُ عن أشباهِ ما نَضَحَتْ بِهِ ... سيوفٌ سَبَتْهَا من دَمٍ شَرِقِ النَّضْحِ

فهاتيكَ أُمُّ الكفرِ «ناجرُ» بعدَها ... ظلاماً بلا نجمٍ وليلاً بلا صُبحِ

لبستَ بها ثوبَ الفخارِ مُجَدَّداً ... وغادَرْتَها تلتفُّ في خَلَقِ المِسْحِ

تُبَاكِي صَدَى الهامِ التي تَرَكَتْ بها ... سيوفُكَ عن ذاتِ المحاسِنِ والمِلْحِ

وعَبْرَةِ ثكلى ما تقلِّبُ ناظِراً ... إلى أُفُقٍ إلا يقولُ لها : سُحِّي !

وينعى إليها كلَّ بيضَةِ فِتنةٍ ... ستترُكُها قَيْضاً (١) هشِيماً بلا مُحِّ

بما قد رأى في كلِّ ماءٍ أَمَمْتَهُ ... لتَشْفِيَ منها غُلَّةَ الظَّمَإِ البَرْحِ

وإن أَشْرَعَتْ من دونِ مشربِهِ القنا ... وكاشَرَ عنهُ الأَسدُ داميةَ الأَلْحِي (٢)

فأَيُّ دلاءٍ فيهِ أَدلَيْتَ ماتِحاً ... وأَيَّةَ أَشْطانٍ مَدَدْتَ إلى المَتْحِ (٣)

هوائِمُ بيضٌ لا يُصَدُّ بها الرِّوَى ... وسُمْرٌ ظِماءٌ لا يُعَلَّلْنَ بالنَّشْحِ (٤)

. . . . (٥)

---

(١) القيض هو قشرة البيضة العليا اليابسة ، وهو كذلك ما تفلق من قشور البيض

(٢) الالحى جمع لحى (بفتحة فسكون) وهو منبت اللحية من الانسان .

(٣) المتح هو جذب رشاء الدلو للاستقاء .

(٤) الروى (بكسر ففتحة) هو الريّ مصدر رَوَى ؛ والنشح هو الشرب القليل الذي لا يروي .

(٥) يتلو نهاية هذه الورقة (رقم ٧٥) خرم ورقة واحدة (رقم ٧٦) وفيها نهاية هذه القصيدة وأول القصيدة التالية .

[وله أيضاً في مدح يحيى بن منذر][1]

[من المتقارب]

. . . .

[٧٧ أ] / وفيهنَّ أَضحَيْتَ يومَ الأَضاحي ⠀⠀ كتائبَ مستقدِماتِ التَّهادِي
بأَجْمَعِ مولًى لشملِ العبيدِ ⠀⠀ وأَخشَعِ عبدٍ لربِّ العبادِ
فأَوْسَعْتَهُنَّ نظامَ المصلَّى ⠀⠀ وقد غَصَّ منهنَّ رحبُ البلادِ
ملاعِبَةً للصَّبَا بالنَّوَاصِي ⠀⠀ مساميَةً القَنَا بالهوادِي
تكادُ تَفَهَّمُ فصلَ الخطابِ ⠀⠀ بتعويدِها لاِسْمِكَ المستعادِ
وعِرْفانِهِ في شِعارِ الحروبِ ⠀⠀ وتِبْيَانِهِ في صَرِيخِ المُنَادِي
وتَرْدِيدِهِ[2] في مجالِ الطِّعانِ ⠀⠀ وتكريرِهِ في مَكَرِّ الطِّرادِ
وفي كلِّ ذكرٍ وفخرٍ ونَشرٍ ⠀⠀ وشكرٍ وشِعرٍ وشَدْوٍ وشادِ
فلما قَضَوْا بكَ حقَّ السلامِ ⠀⠀ ثنَوْا لكَ حقَّ سلامٍ مُعادِ

---

(١) ذهب عنوان هذه القصيدة وأولها في الخرم الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة .

(٢) في الاصل : وترديديه .

فوافى قصورَكَ وفدُ السلامِ ... بأيْمَنِ حادٍ إليها وَهادِ
يخوضونَ نحوكَ بَحْرَ العوالي ... تموجُ بها أبْحُرٌ من جيادِ
لمَلْءِ عيونِهِمُ من بهاء ... ومَلْءِ صدورِهِمُ من ودادِ
برأى هداهُمْ إلى هَدْيِ هُودٍ ... وعاد إليهمْ بأحلامِ عادِ
وقد ذَكَّرَتْهُمْ جِفاناً تَمَتْكَ ... إلى كلِّ ملكٍ رفيعِ العمادِ
مطاعِمُ مُدَّتْ بها في الصُّحونِ ... موائدُ مستبشراتُ التَّمادِي
وكم خَطَّ جودُكَ بالمِسْكِ فيهِمْ ... شهادتَهُ للمليكِ جوادِ
سطوراً محوْنَ بياضَ المشيبِ ... بنورِ محاسنه لونَ السوادِ
وراح قرينُ الشبابِ النضيرِ ... وفَوْداهُ خَطَّا شبابٍ مُفادِ
مشاهدُ غلَّفْتَ(١) منها الزمانَ ... بغاليةٍ مِسْكُها من مِدادِي
فأشعَرْتَها كلَّ برٍّ وبحرٍ ... وأنشقْتَها كلَّ سارٍ وغادِ
وأتبعْتَها(٢) من كِباءِ الثناءِ ... عجاجاً يهُبُّ إلى كلِّ نادِ
نوافِجُ مِجْمَرُها من ضلوعِي ... تؤَجِّجُها جمرةٌ من فؤادي
بِمَا عَلِمَ الهِنْدَ أنَّكَ أمضى ... غداة الوغى من ظُباةِ الحِدادِ
وأنَّ ثناءكَ أزكى وأذكى ... عَلَى الدهر من طيبهِ المستجادِ

(١) التغليف بالغالية (وهى ضرب مركب من الطيب) هو تلطيخ ظاهر الشعر بها .

(٢) في الاصل : وأنبعتها . والكباء هو ضرب من العود يتبخر به .

سوائِمُ فخرٍ عَلَتْ عن مُسيمٍ يرودُ بها مَرْتَعَ الإقْتِصَادِ
/ ودعوى هوًى لم يَزُرْ في كراهُ خيالٌ ولا خاطرٌ في فؤادِ [٧٧ب]
وتلكَ عُلاكَ تُهادِي العيونَ كواكِبَ مُقْتَرِبَاتِ البعادِ
أوانِسُ تأبى لها أن تَصُدَّ مقادِمُها في الوغى أو تُصادِي(١)
كواعِبُ مجدِكَ حَلَّيْتَهُنَّ بزُهْرِ المساعِي وبيضِ الأيادِي
نجومٌ تُنيرُ بنُورِ الأمَانِي وطوراً تنوء بغُرِّ الغوادي
فأَوَّلُ أنوائِها منكَ بِشرٌ وَفِيُّ العهودِ بصَوْبِ العِهادِ
حياً صِدْقُهُ منكَ في أسْمٍ وفعلٍ وشاهِدُه في الورى منكَ بادِ
وسمَّاكَ رَبُّكَ مأمونَ غَيْثٍ عَلَى نَشْرِهِ رحمةٌ للعبادِ
غمامٌ يئودُ مُتُونَ الرياحِ ويُزْجِيهِ للرَّوْعِ مَتْنُ الجوادِ
فمن راحةٍ ريحُها الأرتياحُ ومن ماء صادٍ(٢) إلى كلِّ صادِ
وسُقْيَاً عَنانٍ(٣) بِثَنْيِ العِنانِ وبارِقُهُ في مَناطِ النِّجادِ
فأَشْرَقَ من رَوْضِهِ كُلُّ حَزْنٍ وأَغدَقَ من وَبْلِهِ كُلُّ وادِ
وذابَ بأَنْدائِهِ كلُّ فَصْلٍ يُكَذِّبُ فيه حَديثَ الجمَادِ
ربيعُ المَصيفِ ربيعُ الشِّتاء مَريعُ الحزونِ مَريعُ الوِهاد

(١) أي نداري أو تساتر .
(٢) أي أصيد ، وأما « صاد » الثانية فمياها الظامىء .
(٣) أي سحاب .

ومن رَوْضِهِ سَرَوَاتُ الكُمَاةِ تَثَنَّى عَلَى صَهَوَاتِ الجيـاد
ومن زَهْرِهِ سابغاتُ الدروعِ وبيضُ الصِّفاحِ وسمر الصِّعاد
وأَيْنِـعْ بها في وَقُودِ الطِّعانِ وأنْضِرْ بها في ضِرامِ الجِلاد
وأيُّ فواتِـحِ وردٍ نضيدٍ مواقِعُهـا في نحورِ الأعادي
وكم غادَرَتْ لِمَهَبِّ الرياحِ سنا جَسَدٍ شَرِقٍ بالجِسَادِ(١)
رياضـاً قَسَمْتَ أزاهيرَهُنَّ لِعِزِّ المُوالي وخِزْيِ المُعَادي
فأهدَيْتَهـا لأُنوفِ الغَنَـاءِ وأرغمتَ منها أُنوفَ العِنـاد
وأَورَدْتَهـا كل بحرٍ يَمُورُ بما يُلْبِسُ الشُّهْبَ لونَ الوِرادِ
ودُسْتَ بها كلَّ صعبِ المرامِ وقُدْتَ بها كلَّ عاصِي القِيـادِ
إذا ما تنادَتْ لجمعٍ ثَنَتْـهُ مُجيبَ المُنادِي ليوم التَّنادِي
بِهِنَّ شَعَبْتَ عِصِيَّ الشِّقـاقِ وعنهُنَّ أوضَحْتَ سُبْلَ الرَّشادِ
[٧٨ م] / فأوْدَعْتَها في نواصِي الرِّياحِ لتنْثُرَهـا في أقـاصِي البـلاد
فكَمْ أَنْبَتَ الشرقُ والغربُ منها حدائِقَ تُغْنِي عَنِ الإرْتِيـادِ
ووَقْـفاً عَلَى سَقْيِهـا ماء وجهي وفَيْضُ دموعِي وَمَا في مَزَادِي
وكم حَصَدَ الدهرُ للخُلْدِ منها ثمارَ النُّهى وثِمـارَ التَّهـادِي
فيا أرْأَسَ الرُّؤَسـاءِ الجديرَ بحُكْمِ السَّدادِ لقولِ السَّداد

(١) الجساد هو الزعفران أو نحوه من الاصباغ .

أيَغْرُبُ عندَكَ نَجْمُ اغْـتِرَابِي ومطلَعُـهُ لَكَ في الأرضِ باد
وأَسْقِي الوَرٰى عَنْكَ ماءَ الحياةِ وأَرشُفُ منـكَ حَمِيءَ الثِّمَـاد
وزَرْعِي[1] فيكَ حَصِيدُ الخلودِ وحظِّيَ منـك لَقِيطُ الحصادِ
سِداداً من العَوَزِ المُسْتَجارِ[2] وأكثَرُهُ عَوَزٌ[3] من سَدَادِ[4]
قضاءٌ له في يــــدِ الإقتضاء زِمامٌ ومن سابِقِ البَغْيِ حادِ
كعِلْمِكَ من خَطْبِ دهرٍ رماني بأَسهُمِ واشٍ وغاوٍ وعادِ
يَسُلُّونَ بينَ الأماني وبيني سيوفَ القِـلٰى ورماحَ البِعـاد
زمانٌ كأَنْ قَدْ تَغَذَّى لِسَعْيٍ لُعابَ أفاعٍ وحيـــّاتِ واد
فأَودَعَ من نفْثِهِ حُرَّ صدري سِماماً لَيـــالِيَّ منها عِدَادي[5]
وأَطْفَأَ نُورِي ونـارِي عليا بأنْ سيُضِيءُ الدُّجى من رَمَادِي
وهانَ عليهِ نَفَاقِي بفَقْدِي لبَيْعِ حيـاتِيَ بَيْعَ الـكَسَادِ

(١) في الاصل : وزرعتي ، والصحيح ما أثبتنا .

(٢) في الاصل : المستجاز .

(٣) في الاصل : عون .

(٤) السداد بكسر السين هو ما يسد به ، يقال : سداد من عوز أي ماتسد به الحاجة ، أما السداد بالفتح فهو الإصابة في المنطق والتدبير .

(٥) عداد السليم (أي الملدوغ) أن تعد له سبعة أيام ، فإن مضت رجوا له البرء وما لم تمض قيل هو في عداده أي قربت وفاته .

ولولا القضاء الذي فلَّ عزمي وآدَ شباً حدِّه مَتْنَ آدِي[1]
وأنِّيَ دِنْتُ إلهي بدينٍ من الصَّبْرِ جَلَّ عن الإرْتِدَادِ
لفاضَتْ به قطرةٌ من سحابي وأوْدَتْ به شُعْلَةٌ من زِنادي
وما انفرَجَتْ مُبْهَمَاتُ الخطوبِ بمثلِ اشْتدادِ الأُمُورِ الشِّدادِ
فكِلْني لحاجِبِـــكَ المستجيرِ بذِمَّتِهِ كلُّ قارٍ وبادِ[2]
ليَقْسِمَ لي سهمَ حمدي وشكري وينزِعَ سهم الأسى من فؤادي
ليقتادَني بيَـــدِ الإصْطِناعِ ويخلَعَ من يَدِ دهري قِيادي
ويكتُبَ فوقَ جبيني ووجهي إلى نُوَبِ الدهرِ: حِيدِي حَيَادِ
وحسبي فإمَّا رِباطي أُراني ثوابيَ منه وإمَّا جِهادِي
[٧٨ب] / فإنْ شَطَّ عن غَرْبِ شأوي مَدَاهُ وعادَتْ أمانيَّ منه العوادي
فأنتَ عليهِ دَليلي وعَوْني وجدواكَ ذُخْري إليهِ وزَادي
فلا أبعدَ الدَّهْرُ منكُمْ حياةً تَلِي نِعَماً ما لها من نفادِ
ولا خذَلَتْكُمْ يَدٌ في عِنانٍ ولا خانَكُمْ عاتِقٌ في نِجادِ

---

(١) الآد مثل الايد أي القوة .
(٢) القاري هو نازل القرية أو الحاضرة والبادي هو نازل البادية .

وله فيه رحمهما الله وقد فَجَّر [٣]

[من البسيط]

[إنْ يَجْرِ زَاكِي] دمٍ للحمدِ تُتْلِفُهُ ... فَأَبْشِرْ بأَحْمَدَ منهُ اللهُ يُخْلِفُهُ [٤]

[إمَّا سَ]مَحْتَ به للجَوِّ يَحْمِلُهُ ... طِيباً إلى كلِّ رُوحٍ عنكَ يتْحِفُهُ

[فَقَدْ] رَأَى الأَرضَ تأباهُ فتُنْكِرُهُ ... إذْ لا سِوى دمٍ من عادَاكَ تَعْرِفُهُ

[وأَصْ]بَحَ الجوُّ مِنْهُ روضَةً أُنُفاً ... تَبْأَى بِزَهْرِكَ [١] والأَنفاسُ تقطِفُهُ

[فاسْ]لَمْ فإن كانَتِ الأَنفاسُ طِبْنَ به ... فإنَّ أَطيبَ منهُ فيكَ يُرْدِفُهُ

---

(٣) التفجير هو شق الجرح وبثقه .

(٤) هناك قطع أصاب الحافة اليمنى من هذه الصفحة في الأصل الفوتوغرافي من هذا الموضع حتى نهاية الصفحة ، وقد ذهبت في هذا القطع أوائل الابيات ، على أننا قد اجتهدنا في استكمالها معتمدين على آثار ما بقي من حروف بعض الالفاظ ومع مراعاة السياق والوزن ، ووضعنا كل ما قمنا بإضافته بين حاصرتين ، وقد أثبتنا أقرب ما بدا لنا إلى الصواب ، وباب الاجتهاد مفتوح على أية حال .

(١) في الاصل : بزهره .

وله أيضاً رحمه الله في المنصور أبي الحكم منذر بن يحيي رحمة الله عليه

[من الطويل]

[سَمَاء] العُلاَ منكُمْ وأنتَ لها بَدْرُ ... وأخلاقُكَ الحسنى كواكِبُهَا الزُّهْرُ

[وقد تَمَّ] في هذا الورى بكَ أنْعُمٌ ... يُقَصِّرُ عن أدنى عوارِفِهَا الشُّكْرُ

[فَمِنْهَا] النُّهى والحِلْمُ والدينُ والتقى ... وبَذْلُ اللُّهى والجودُ والبأسُ والبرُّ

[وزَحْـ]فٌ إلى الأعداء أغراضُهُ العدى ... وسيفٌ عن الإسلامِ إقدامُهُ النَّصْرُ

[وبذلُكَ] دونَ الثغرِ نفساً عزيزةً ... حَمَتْ عنه حتَّى عادَ وَهْيَ لَهُ ثغرُ

[وفي سِـ]ـرِّ علمِ اللهِ لي فيكَ أنَّني ... ودادُكَ لي سِرٌّ وحمدُكَ لي جَهْرُ

وذِ [كْـ]ـرُكَ لي عزٌّ وعزكَ لي غنًى ... وبِرُّكَ لي عَهدٌ وعهدُكَ لي ذُخْرُ

[وإنَّكَ] أقصى ما بَلَغْتُ من المُنى ... وإنَّـكَ أسنى ما أفادَنِيَ الدهرُ

[وإنِّي] وإن قصَّرْتُ فيكَ مدائِحِي ... فلا قِصَرٌ بالسلكِ إن عَظُمَ الدُّرُّ

[وما] قصَّرَتْ بي هِمَّةٌ عنكَ حُرَّةٌ ... ولا أَمَلٌ حُرٌّ ولا منطِقٌ حُرُّ

[فإنْ] تقبلِ العذرَ المُقَصِّرَ طولَهَا ... فشُغْلِي بشكرِ اللهِ فيكَ هو العذرُ

[فلا] قصَّرَ الرحمنُ عنكَ سيادَةً ... تَمَلَّاهـا عُمْراً يُمَـدُّ بِـهِ عُمْرُ

وله فيه رحمهما الله أيضاً [1]

. . . .

— ٧٧ —

[وقال يمدح المنصور بن أبي عامر] [2]

[من الكامل]

. . . .

/ فكأنَّ من حاني السَّحائِبِ جُودَها   وكأنَّ من صَعْقِ البروقِ حُسامَهَا [٧٥ أ]

فعَلى سواكِبِهَا إذا جادَتْ رُبى   زَهَرِ الرجاءِ فواتَرَتْ إنعامَهَا

(١) الترقيم هنا منتظم بعد نهاية هذه الورقة ، غير أنه لاشك في سقوط ورقة على الاقل في هذا الموضع ، إذ أن ما تبدأ به الورقة رقم ٧٩ إنما هـو نهاية القصيدة الميمية الواردة بعد .

(٢) بقية هذه القصيدة الميمية تدل على أنها قيلت في مدح المنصور ابن أبي عامر ، إذ فيها إشارة إلى ابنيه : عبد الملك وعبد الرحمن ، ويبدو أنها في وصف إحدى غزواته لنصارى شمال الاندلس .

أنْ تُتْبِـع الدَّلْوَ السَّجُوفَ رشاءَهاَ ... يوم الخوامِسِ والجوادَ لِجَامَهاَ

لم تطْلِعْ زُهْرُ النجوم سوارِياً ... إلا رَأَتْـهُ في السَّماءِ أمامَهـاَ

يا رُبَّ شامخَةِ الذوائبِ والذُّرٰى ... أَوْطَأْتَ أعلامَ الهُدٰى أعْلاَمَهـاَ

أشْرَعْتَ تَنْحُوهاَ قِسِيَّ عزائمٍ ... كانت هوادي المُقْرَبَاتِ سِهاَمَهاَ

الرِّيحُ أحْسَرُ من يَؤُمُّ مَحَلَّهـاَ ... والنَّجْمُ أدْنٰى مِنْ يَدَيْ مَنْ رَامَهاَ

فَهَتَـكْتَ بالبِيضِ الرِّقاقِ سُجُوفَها ... وفَضَضْتَ بالجُرْدِ العِتاقِ خِتامَها

ورفعتَ من صُلْبَانِ بِيعَةِ قُدْسِها ... ناراً تَشُبُّ عَلَى الضَّلالِ ضِرامَها

ولَرُبَّ حاميةَ الوطيسِ من الرَّدٰى ... دَلَفتْ وقد كَسَتِ السماءَ قتامَهاَ

أقْحَمْتَ أجيادَ الجِيادِ مكرَّماً ... فَصَلِينَ جاحِمَهاَ وكنتَ إمامَهـاَ

فاسْعَدْ بِسِبْطَيْ دولةِ العَرَبِ التي ... بسناهُماَ جَلَتِ الخطوبُ ظلامَها :

عبدَ المليكِ حُسامَهاَ وسنانَهـا ... ومِجَنَّهـاَ ومَلِيكَهـا وهُمامَهـــاَ

والقائِـدَ الأعْلٰى المملَّكَ والذي ... زانَتْ مناقِبُ مجدِهِ أيامَهــــا

لا زال دِينُ الله يأوِي ظِلَّـكُمْ ... ما ظَلَّلَتْ خُضْرُ الغصونِ حمامَها

— ٧٨ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى [1]

[من الطويل]

دَعِي عَزَمَاتِ المستضامِ تسيرُ   فَتُنْجِدُ في عُرْضِ الفَلاَ وتَغُورُ
لعلَّ بما أشجاكِ من لوعةِ النَّوى   يُعَزُّ ذليـلٌ أو يُفَـكُّ أسـيرُ

(١) وردت مقتطفات من هذه القصيدة في المراجع الآتية :

— ابن بسام : الذخيرة — ق ١ — ١ / ٦٥ — ٦٧ (تسعة وعشرون بيتا) .

— الثعالبي : يتيمة الدهر — ٢ / ١١٢ — ١١٤ (ثمانية وثلاثون بيتا) .

— ابن خلكان : وفيات الاعيان (بتحقيق الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط . القاهرة سنة ١٩٤٨) ١ / ١١٧ — ١٢٠ (خمسة وعشرون بيتا) .

— ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (ط . القاهرة سنه ١٣٥٠ هـ .) ٣ / ٢١٨ - ٢١٩

— المقري : نفح الطيب (ط . ليدن) ١ / ٢٦٤ (بيتان) ؛ ٢ / ١٣٢ (ثلاثة عشر بيتا) ؛ ٢ / ١٥٥ (ثلاثة أبيات) .

— الشريف الغرناطي : شرح مقصورة حازم القرطاجني ١ / ٤٣ (أربعة أبيات) .

— ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ٢ / ٢٧٤ (بيتان) .

— عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب (بتحقيق الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي — ط . القاهرة سنة ١٩٤٩) ص ٣٩ (بيتان).

— ابن فضل الله العمري : مسالك ١١ / ٢٠٢ — ٢٠٣ (ثلاثة وعشرون بيتا).

أَلَمْ تعلَمِي أَن الثَّوَاءَ هو التَّوَى[1] وأَنَّ بيوتَ العاجزينَ قُبورُ

ولم تزجُرِي طَيْرَ السُّرَى بحُروفِها فَتُنْبِئْكِ إنْ يَمَّنَّ[2] فَهْيَ[3] سُرورُ

تُخَوِّفُنِي[4] طولَ السِّفارِ وإِنَّهُ[5] لتقبيلِ كفِّ العامِرِيِّ سَفِيرُ

دَعِينِي[6] أَرِدْ ماءَ المفاوِزِ آجِناً إلى حيثُ ماءُ المكرُمَاتِ نَمِيرُ

وأَخْتَلِسِ الأَيامَ خُلْسَةَ فاتِكٍ إلى حيثُ لِي مِنْ غَدْرِهِنَّ[7] خَفِيرُ

فإنَّ[8] خطيراتِ المهالِكِ ضُمَّنٌ لراكِبِها أَنَّ الجزاءَ خطيرُ

ولَمَّا تدانَتْ للوداعِ وقد هَفَا بصَبْرِيَ منها أَنَّةٌ وزَفِيرُ

[٧٩ب] / تناشِدُنِي عَهْدَ المَوَدَّةِ والهَوَى[9] وفي المَهْدِ مبغومُ النِّداءِ صَغِيرُ

عَيِيٌّ بمرجوعِ الخطابِ[10] ولَفْظُهُ[11] بمَوْقِعِ[12] أَهْوَاءِ النفوسِ خَبِيرُ

---

(١) شذ ويت : النوى

(٢) في الأصل : يمن ، وقد آثرنا قراءة اليتيمة . ومعنى يمن سرن يمينا .

(٣) يت : فهو .

(٤) يت : يخوفني ، وكذلك في « مس » .

(٥) ذخ : وأنه .

(٦) ذخ ويت : ذريني .

(٧) يت عدوهن .

(٨) نفح : وأن .

(٩) في الأصل : والنوى ، وقد آثرنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة واليتيمة .

(١٠) شرح المقصورة : الجواب .

(١١) وف وشذ : ولحظه .

(١٢) يت : بموضع .

تَبَوَّأَ ممنوعَ القـلوبِ ومُهِّدَتْ له أَذْرُعٌ محفوفَـةٌ[1] ونُحُورُ

فـكلُّ مُفَدَّاةِ الترائِبِ مُرْضِعٌ وكلُّ مُحَيَّاةِ المحاسِنِ ظِـيرُ

عَصَيْتُ شفيعَ النفسِ فيه وقادَني رَوَاحٌ لِتَدْآبِ[2] السُّرَى[3] وبُكُورُ

وطارَ جَناحُ الشَّوْقِ[4] بِي وهَفَتْ بِهَا جوانِحُ من ذُعْرِ الفِراقِ تطيرُ

لئِنْ وَدَّعَتْ مني غَيوراً فإِنَّني عَلَى عَزْمَتِي من شَجْوِها لَغَيُورُ

ولو شاهَدَتْني[5] والصَّوَاخِدُ[6] تَلْتَظِي عَـلَيَّ ورقراقُ السرابِ يَمُورُ

أُسَلِّطُ حَرَّ الهاجِراتِ إذا سَطَا عَلَى حُرِّ وَجْهِي والأَصيلُ هَجِيرُ[7]

وأَسْتَنْشِقُ النَّـكْبَاءَ وَهْيَ بَوَارِحٌ[8] وأَسْتَوْطِىءُ[9] الرَّمْضَاءَ وَهْيَ تَفُورُ

ولِلْمَوْتِ في عيشِ الجبانِ تَلَوُّنٌ ولِلذُّعْرِ في سَمْعِ الجريءِ صَفيرُ

---

(١) وف : معقوفة (!) .

(٢) ذخ : بتدآب .

(٣) شذ : الثرى .

(٤) كذا في الأصل ، وفي ذخ ، ووف ، وشذ ، ويت : البين .

(٥) يت : وما شاهدتني ؛ ذخ : ولو شهدتني .

(٦) يت : والضواحك (!) ؛ ذخ ، ووف ، وشذ ، ومس : والهواجر .

(٧) مس : أسلط جو الهاجرات ... على وجهى ...

(٨) يت : نوازح (!) ؛ وف ، وشذ : لوافح ؛ ومس : لواقح .

(٩) يت : وأستمطىء .

لَبَانَ لها أَنِّي مِنَ الضَّيْمِ [1] جازِعٌ ... وأَنِّي عَلَى مَضِّ الُخطُوبِ صَبُورُ

أَميرٌ على غَوْلِ التَّنَائِفِ [2] مَالَهُ ... إِذا رِيعَ إِلاَّ المَشْرَفِيَّ وَزِيرُ

ولَوْ بَصُرَتْ [3] بِي والسُّرى جُلُّ عَزْمَتِي ... وجَرْسِي لِجِنَّانِ [4] الفَـلاَةِ سَمِـيرُ

وأَعْتَسِفُ المَـوْمَاةَ في غَسَقِ الدُّجى ... وللأُسْدِ في غِيلِ الغِيَاضِ زَئِيرُ

وقد حَوَّمَتْ زُهْرُ النُّجومِ كأَنَّها ... كواعِبُ [5] في خُضْرِ الَحدَائِقِ حُورُ

ودارَتْ نجومُ القُطْبِ حتَّى كأَنَّهَا ... كُئُوسُ مَهاً [6] والى بِهِنَّ مُدِيرُ

وَقَدْ [7] خَيَّلَتْ طُرْقُ المَجَرَّةِ أَنَّها ... عَلَى مَفْرِقِ الليلِ البهيمِ قَتِيرْ

وثاقِبَ عَزْمِي والظَّلامُ مُرَوَّعٌ ... وقد غَضَّ أَجفانَ النجومِ فُتُورُ

لَقَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّ المنى طَوْعُ هِمَّتِي ... وأَنِّي بعطْفِ العامِرِيِّ جديرُ

وأَنِّي بذكراهُ لِهَمِّيَ زاجِرٌ ... وأَنِّيَ منـهُ للخطوبِ نَـذِيرُ

---

(١) في الأصل : «الـ» وبياض بعدها ، وقد استكملناها نقلا عن مسالك الأبصار وفي الوفيات والشذرات : البين .

(٢) شذ : النتايف .

(٣) يت : ولو شاهدتني .

(٤) يت : لحنان ، وهي تصلح أيضاً للمعني .

(٥) وف : كواكب .

(٦) يت : طلا ؛ ومس : نهى ؛ والمها هو البلور .

(٧) في الأصل : فقد ، وآثرنا هنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة واليتيمة والوفيات والشذرات والمسالك .

وأيُّ فـتًى للدينِ والملكِ والنَّدى   وتَصْدِيقُ ظَنِّ الراغِبِينَ نَزُورُ

مُجِيرُ الهُدى والدينِ من كُلِّ مُلْحِدٍ   وليسَ عَلَيْهِ لِلضَّلَالِ مُجِـيرُ

تلاقَتْ عليهِ من تَمِيمٍ ويَعْرُبٍ   شُموسٌ تَلالَا[1] في العُلا وبُدُورُ[2]

منَ الحِمْيَرِيِّينَ الَّذينَ أَكُفُّهُمْ   سحائِبُ تَهْمِي بالنَّدى وبُحُورُ[3]

/ ذَوُو دُوَلِ المُلْكِ الَّذِي سَلَفَتْ بها   لَهُـمْ أَعْصُرٌ مَوْصُولَةٌ ودُهُورُ [٨٠م]

لَهُـمْ بَذَلَ الدهرُ الأَبِيُّ قِيادَهُ   وهُمْ سَكَّنُوا الأَيَّامَ وَهْيَ نَفُورُ

وهُمْ ضَرَبُوا الآفاقَ شرقاً ومغرِباً   بِجَمْعٍ يَسِيرُ النَّصْرُ حَيْثُ يَسِيرُ

وهُمْ يَستَقِلُّونَ الحياةَ لِرَاغِبٍ   ويَسْتَصْغِرُونَ الخطْبَ وَهْوَ كَبيرُ

وهُمْ نَصَرُوا حِزْبَ النُّبُوَّةِ والهُدى   وليسَ لَهَـــا في العالَمِينَ نَصِيرُ

وهُمْ[4] صَدَّقُوا بالوَحْيِ لما[5] أتاهُمُ   وما النَّاسُ إلا عانِدٌ[6] وكَفُورُ

---

(١) نفح (٢ / ١٣٢) : تلاقي ، هذا وقد جاءت في موضع آخر من نفح الطيب نفسه « تلالا » كما هي هنا (١ / ٢٦٤) .

(٢) في الأصل : وبدور ، وقـد آثرنا القراءة التي أجمع عليها نفح الطيب في الموضعين ، كذلك البيان المغرب واليتيمة ، والمعجب .

(٣) علق عبد الواحد المراكشي في المعجب على هـذين البيتين بقوله : وكان [يعني المنصور ابن أبي عامر] معافري النسب وأمه تميمية اسمها فريهة بنت يحيى ابن زكريا التميمي كان يعرف بابن برطل ، ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف بالقسطلي من قصيدة له ...... (ثم ساق البيتين) .

(٤) يت : هم .

(٥) يت : حين .

(٦) يت : عابد .

مناقِبُ يَعْيا الوَصْفُ عَنْ كُنْهِ قَدْرِها | ويَرْجِعُ عَنْها الوَهْمُ وَهْوَ حَسِيرُ
أَلا كُلُّ مَدْحٍ عَنْ مَدَاكَ[1] مُقَصِّرٌ | وكلُّ رجاءٍ في سِواكَ غُرُورُ
تَمَلَّيْتَ هذا العيدَ عِدَّةَ[2] أَعْصُرٍ | تُوَالِيكَ منهـا أَنْعُمٌ وحُبُورُ
ولا فَقَدَتْ أَيَّامَكَ الغُرَّ أَنْفُسٌ | حياتُكَ أعيـادٌ لهم وسُرورُ
ولما تَوَافَوْا[3] للسَّلامِ ورُفِّعَتْ | عن الشمسِ في أُفْقِ الشُّروقِ سُتُورُ
وقَدْ قامَ من زُرْقِ الأَسِنَّةِ دُونَها[4] | صفوفٌ ومن بِيضِ السُّيُوفِ سُطُورُ
رَأَوْا طاعَةَ الرَّحْمنِ كَيْفَ اعْتِزَازُها | وآياتِ صُنْعِ اللهِ كيفَ تُنيرُ
وكَيْفَ اسْتَوَى بالبَحْرِ والبَدْرِ[5] مَجْلِسٌ | وقامَ بِعِبْءِ الرَّاسِياتِ سَرِيرُ
فَسارُوا[6] عِجالاً والقُلوبُ خَوَافِقٌ | وأُدْنُوا[7] بِطاءً والنَّوَاظِرُ صُورُ
يَقُولُونَ والإِجْلاَلُ يُخْرِسُ أَلْسُناً | وحازَتْ عُيُونٌ مِلأَها وصُدُورُ[8]
لَقَدْ حاطَ أَعْلاَمَ الهُدى بِكَ حائِطٌ | وقَدَّرَ فيكَ المَكْرُماتِ قَدِيرُ

---

(١) يت : نداك

(٢) في الأصل : حدة ، ولعل الأصوب ما أثبتنا .

(٣) يت : تراءوا .

(٤) يت : دونه .

(٥) ذخ ونفح : بالبر والبحر . يت !

(٦) ذخ ونفح : فجاءوا .

(٧) ذخ ونفح : وولوا .

(٨) يت : يقولون والأوجال تخرس ألسنا   وحارت عيون منهم وصدور

مُقِيمٌ عَلَى بَذْلِ الرَّغائِبِ واللُّهَى وفِكْرُكَ في أُقْصَى البِلادِ يَسِيرُ
وأَيْنَ انْتَوَى فَلُّ الضَّلالَةِ فَانْتَهَى وأَيْنَ جُيُوشُ المسلِمِينَ تُغِيرُ
وحَسْبُكَ من خَفْضِ النَّعِيمِ مُعَيَّداً جِهازٌ إلىٰ أَرْضِ العِدَىٰ ونَفِيرُ
تَقُدْها إلىٰ الأَعْدَاءِ شُعْثاً كَأَنَّها أَرَاقِمُ في شُمِّ الرُّبَى وصُقُورُ
فَعَزْمُكَ بالنَّصْرِ العَزِيزِ مُخَبِّرٌ وسَعْدُكَ بالفَتْحِ المُبِينِ بَشِيرُ
ونادَاكَ يا بْنَ المُنْعِمِينَ ابْنُ عَشْرَةٍ وعَبْدٌ لِنُعْماكَ الجِسامِ شَكُورُ
غَنِيٌّ بِجَدْوَى راحَتَيْكَ وإِنَّهُ إلى سَبَبٍ يُدْنِي رِضاكَ فَقِيرُ
ومِنْ دُونِ سِتْرَىْ عِفَّتِي وَتَجَمُّلِي أَرِيْبٌ[1] وَصَرْفٌ للزَّمانِ يَجُورُ
/ وضاءَلَ قَدْرِي في ذَرَاكَ عوائِقٌ جَرَتْ لِيَ بَرْحاً وَالقضاءُ عَسِيرُ [٨٠ب]
وما شَكَرَ « النَّخْعِيُّ » شُكْرِي وَلاَ وَفَىٰ
وفائِي — إِذْ عَزَّ الوَفاءُ — « قَصِيرُ »
فَقَدْنِي لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعْضِلٌ[2]
وكِلْنِي لِلَيْثِ الغابِ وَهْوَ هَصُورُ
فَقَدْ[3] تَخْفِضُ الأَسماءُ وَهْيَ سَوَاكِنٌ ويَعْمَلُ في الفِعْلِ الصَّحِيحِ ضَمِيرُ

---

(١) في الأصل : أريب ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٢) ذخ ويت : «أثرني لخطب الدهر والدهر معضل» ؛ نفح : «أثرني لكشف الخطب والخطب مشكل» .

(٣) ذخ ويت : وقد .

وتَنْبُو الرُّدَيْنيَّاتُ والطُّولُ وافِرٌ ... ويَنفُذُ[1] وَقْعُ السَّهْمِ وَهْوَ قَصِيرُ
حنانَيْكَ في غُفْرَانِ زَلَّةِ تائبٍ ... وإنَّ الَّذِي يَجْرِي به لَغَفُورُ

— ٧٩ —

وقال في الحاجب سيف الدولة عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر رحمهم الله تعالى

[من الكامل]

لَوْ كانَ يَعْدِلُ حاكِمٌ في حُكْمِهِ ... أوْ كانَ يَقْصِرُ ظالِمٌ عن ظُلْمِهِ
ما جُشِّمَ الدَّنِفُ السَّقِيمُ مَلَامَةً ... تُغْرِي الهَوٰى بغرامِهِ وبِسقْمِهِ
هل صَمَّ سمعٌ عن جَلِيَّةِ عُذْرِهِ ... أو ضاقَ ذَرْعٌ عن تَعَمُّدِ جُرْمِهِ
كَلِفاً يُكَلِّفُهُ العَذولُ تَسَلِّياً ... عن حُبِّ مَنْ صَرَمَ السُّلُوَّ بِصَرْمِهِ
مَنْ عاذِرِي من عاذلٍ عِصيانُهُ ... من هِمَّتي وصبابَتِي من هَمِّهِ ؟
لما صَبَوْتُ قضٰى عَلَيَّ بِظَنِّهِ ... فأَجازَ في خَصْمٍ شهادَةَ خَصْمِهِ
ياويحَهُ لو غالَنِي صرف الرَّدٰى ... فَيَبُوُ[2] بِإِثْمِ المستهامِ وإِثْمِهِ

---

(١) ذخ ويت ونفح : ويبعد .

(٢) في الأصل : فيبوء ، ولا يستقيم الوزن بها ، وقد تكون « فيبوء باثم » أي مع جعل همزة إثم همزة وصل .

إنْ لم أمُتْ مِمَّا أُقاسِي في الأَسَى ... وَجْداً فأُوْشِكُ أنْ أموتَ بِزَعْمِهِ
عهـداً عليَّ لئن ظَفِرْتُ بسلوة ... مِمَّنْ هَوِيتُ لأَعْشقَنَّ بِرَغْمِهِ
ياحاجباً تُزْهَى الحِجَابَـةُ والعُلاَ ... وسَنَا المراتِبِ والقيادَةِ بِاَسْمِهِ
مَلِكٌ تَحَـكَّمَ في هواهُ حَزْمُـهُ ... وأباحَ سيفُ نداهُ مُهْجَةَ حَزْمِهِ
وطما عَلَى العافِينَ بحرُ سماحِهِ ... فحوى الثنـاءَ بِطِمِّهِ وبِرِمِّهِ (١)
والحِلْمَ من ميراثِ «أَحْنَفَ» خالِهِ ... والبأسَ من ميراثِ «عَمْرٍو» عَمِّهِ (٢)
بأسٌ تميدُ الأَرْضُ من رَوْعاتِهِ ... ذُعْراً وَتَنْهَدُّ الجبالُ لِعَزْمِـهِ
مُتَقَحِّمُ الأَهوالِ في ضَنْكِ الوغَى ... فـكأنَّ نفسَ عدُوِّهِ في جِسْمِـهِ
ضربَ الزمانَ بسيبِهِ وبسيفِهِ ... حتى استقادَ لأَمرِهِ ولِحُكْمِهِ
ومضَى لإمرِ اللهِ لما أنْ مَضَتْ ... عَلْياهُ في مكنونِ سابِقِ عِلْمِهِ

---

(١) يقال «جاء بالطم والرم» أي جاء بالبحر والبر أو بالأخضر واليابس، ويقصد الشاعر أنه حوى الثناء كله.

(٢) يعني بالأحنف أبا بحر الأحنف بن قيس التميمي من سادة العرب المشهورين المعروفين بالحلم، وأما عمرو فهو عمرو بن معد يكرب الزبيدي الفارس المعروف. وإنما قصد الشاعر التذكير بنسب المظفر بن المنصور بن أبي عامر، ومن المعروف أن عمومته في بني معافر اليمنيين (انظر ابن حزم: جمهرة الأنساب ص ٣٩٣)، أما خئولته فكانت في تميم إذ كان عبد الله بن محمد بن أبي عامر والد المنصور قد أصهر إلى بني برطال التميميين القرطبيين (انظر ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب ٢ / ٢٥٧)؛ وإلى ذلك أشار ابن دراج أيضا في قصيدته الرائعة المتقدمة في مدح المنصور بن أبي عامر إذ يقول:

تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموسٌ تلألأ في العـلا وبدور

[٦ م] / مُتَشاكِهَ الحالاتِ من أدَوَاتِهِ في حربِهِ وخِلالِهِ في سَلْمِهِ (١)
فكأنَّ حَدَّ سنانِهِ من بأْسِهِ وكأنَّ صَفْحَةَ سيفِهِ من حِلْمِهِ
فبهاؤُهُ في نَصْلِهِ ، وذكاؤُهُ في رُمْحِهِ ، ومَضاؤُهُ في سَهْمِهِ
هَدَمَتْ صروفُ الدهْرِ ما لم تَبْنِهِ وأباحَتِ الأيَّامُ ما لم تَحْمِهِ
ولَرُبَّ مَشْعَلَةِ السيوفِ طَمَسْتَها قِدْماً كما فعلَ الصباحُ بنجمِهِ
تأوي النُّجومُ الزُّهْرُ في شُرُفاتِهِ ويزِلُّ عن عَلْياهُ مَعْقِلُ عُصْمِهِ
بَرَّدت أحشاءَ الهدى بضِرامِهِ وبَنَيْتَ أركانَ العلا من هَدْمِهِ
فاسْعَدْ بعيدٍ أنْتُمُ أعيادُهُ وسَنِيُّ مفخَرِهِ وأنْفَسُ قِسْمِهِ
بأعَزِّ يومٍ في الدُّنا وأجَلِّهِ وأخَصِّ صُنْعٍ في المُنَى وأعَمِّهِ (٢)

— ٨٠ —

[٨١ م] / وله رحمه الله في بعض خدم سرقسطة

[من الكامل]

أعْيا شفاءُ الهَمِّ إن لم تَشْفِهِ وعنا مُلِمُّ الخطبِ إن لم تكْفِهِ

---

(١) بقية هذه القصيدة وهي الأبيات التسعة التي تبدأ بهذا البيت هي التي وردت – كما يرى – في أول الورقة رقم ٦ (م) ، وقد سبق أن نبهنا إلى وقوع خطأ ترقيم في أوراق الديوان ترتب عليه أن فصل بين أول هذه القصيدة الميمية وآخرها . وقد أعدنا للابيات ترتيبها الطبيعي .

(٢) في الأصل : وأنعه ، وما أثبتناه أصوب ، وقد تكون أيضاً : وأتمه .

وبكَ استبانَ الصُّبحَ طارِقُ لَيلِهِ
والْتَذَّ طَعْمَ الأَمْنِ خائِفُ حَتْفِهِ

ولَرُبَّ خَطْبٍ لم تَضِقْ ذَرْعاً به
ويضيقُ ذرعُ الواصفينَ بوصْفِهِ

لَمْ تَلْقَكَ الضَّرَّاءُ نابِيَ حَدِّهِ
[كَلاًّ] (١) ولا السَّرَّاءُ ثانِيَ عِطْفِهِ

نِعْمَ المُقَدِّرُ للأُمورِ بِرِفْقِهِ
رَكِبَ الزمانَ وما اشتكى من عُنْفِهِ

رَحُبَتْ حدائِقُهُ لِمَرْتَعٍ مُخْصِبٍ
وصَفَتْ مشارِبُهُ لِمَوْرِدِ مُرْفِهِ

مُستكمِلُ الإنعامِ قبلَ أَوانِهِ
مثلَ الهلالِ تَمامُهُ في نِصْفِهِ

مُغْرى اليدَيْنِ بِضِعْفِ ما رَجَتِ المُنى
بَدْءاً وأَجْدِرْ أَنْ يَعُودَ بِضِعْفِهِ

ومُسَرْبَلٌ من حِلْمِهِ وذكائِهِ
حُلَلاً مُطَرَّزَةً ببارِعِ ظَرْفِهِ

شِيَمٌ سقاني صَفْوَها (٢) فَسَقَيْتُهُ
ما شاءَ من صَفْوِ الودادِ وصِرْفِهِ

فَتَرَكْتَ صَدْرَ المَجْدِ لابِسَ عِقْدِهِ
مِنِّي وجِيدَ الجودِ مُسْبِلَ شَنْفِهِ

والأَرْضُ آذِنَةٌ لِصَوْتِ ثَنائِها
من هاتِفٍ تُصْغِي البلادُ لِهَتْفِهِ

فَلَيَأْتِيَنَّكَ شُكْرُ من لَمْ تُولِهِ
عَنِّي وصَفْوُ ثناءِ من لَمْ تُصْفِهِ

من كُلِّ موصولِ الغرامِ بِقَلْبِهِ
أَسَفاً لِبُعْدِي والسُّهادِ بِطَرْفِهِ

ومُغَرَّبٍ تبكي السَّماءُ لِشَجْوِهِ
مِنِّي وتَلْتَهِفُ النجومُ لِلَهْفِهِ

لولا قضاءُ فراقِهِ وطَلَبْتَهُ
في غيرِ جفني ماثِلاً لَمْ تُلْفِهِ

أَبُنَيَّ لاحَ الفجرُ إِذْ بَلَغَ الدُّجى
أَمَداً فَسَلِّ الهَمَّ إِنْ لَمْ تَشْفِهِ

---

(١) إضافة نرى أن الوزن يقتضيها .

(٢) في الأصل : صفوه ، والسياق يقتضي ما أثبتنا

وتَرَكْتُ غَوْلَ البَرِّ مُعْدِمَ أُنْسِهِ مِنِّي وهَوْلَ البحرِ فاقِدَ إِلْفِهِ
هذا عَلى خَفْقِ الشِّرَاعِ وقَلْسِهِ [1] حُرُمٌ وذاكَ على البعيرِ وَخُفِّهِ
وقَصَرْتُ لَيلِي بالسُّرورِ مُنَفِّساً من طُولِ لَيْلِ النَّاجِياتِ وعَسْفِهِ
بالحاجِبِ الأَعْلَى المُجِيرِ لِهِمَّتي حتى أُجِرْتُ من الزَّمانِ وصَرْفِهِ
مَلِكٌ يُلاَقِي العِلْمَ راضِيَ سَعْيِهِ فَيَرُدُّ عنهُ الجَهْلَ راغِمَ أَنْفِهِ
وإِذا تألَّقَ بارِقٌ من سَيْفِهِ في الرَّوْعِ أَشْفَقَتِ [2] الرُّبى من خطفه
أَو لاحَ في رَهَجٍ شِهابُ سِنانِهِ نَذِرَتْ شياطينُ الضَّلالِ بِقَذْفِهِ
[٨١ب]/ قادَ الجيادَ إلى الجِهادِ وَحَفَّنِي بِنَدَى يَدَيْهِ تَحْتَ ظِلَّيْ سَجْفِهِ
بوزيرِهِ الغَادِي إِلَيَّ بِبِرِّهِ وأَمِينِهِ الحَانِي عَلَيَّ بِعَطْفِهِ
أَظلَمْتُ فاسْتَوْقَدْتُ نورَ جبينِهِ وظَمِئْتُ فاسْتَسْقَيْتُ وابِلَ كَفِّهِ
وبِهِ جزيْتُ النائباتِ بِصاعِها صاعاً وسُمْتُ الدَهْرَ خُطَّةَ خَسْفِهِ
فإِذا أَحِلُّ ففي مُضَاعَفِ بِرِّهِ أَو أَسْتَقِلُّ ففي مُضَاعَفِ زَغْفِهِ
وليعلَمِ الأَقرانُ حينَ تدبُّ لِي تحتَ الوغى أَنِّي لَحِقْتُ بِصَفِّهِ
ولَئِنْ نَهَدْتُ إِلَيْهِمُ فَبِسَيْفِهِ ولَئِنْ كَرَرْتُ عَلَيْهِمُ فَبِطِرْفِهِ
كَرَماً بِفِطْرَةِ هِمَّةٍ وسِيادَةٍ أَغْلَيْتُ في تِبْرِ الثَّنَاءِ بِصَرْفِهِ

---

(١) القلس: حبل غليظ من حبال السفن يتخذ من ليف أو خوص
(٢) هذه الكلمة مطموسة في الأصل لا تظهر إلا بعض حروفها ، وهي : أشـ....ت.

وندًى هَدَيْتُ المنعمين سَبيلَهُ ... سَبقًا وأقرَأْتُ الكرامَ بحَرْفهِ

فَاسْمَعْ فقد أهدَيْتُهَا لكَ غادَةً ... تُلْهيكَ عن لَثْمِ الحبيبِ وَرَشْفهِ

جاءتْكَ تزجُرُ طَيْرَ واجِبِ مَهْرِهَا ... في نسبةٍ لكَ كُرِّمَتْ عن خُلْفهِ

أنِستْ ببُرْءِ الهَمِّ في اُسْمِكَ بعدَمَا ... كَسَفَتْ سَنَا بَدْرِي دياجي كِسْفهِ

بِكْراً تَحلّتْ جَوْهَرَ الشُّكرِ الذي ... أنتَ الوَفِيُّ بحَقِّـــــهِ فَاسْتَوْفهِ

فَلَيَنْجُمَنَّ عَلَى النُّجومِ بِحُسْنِهِ ... وليَعْرِفَنَّ الجوُّ نَفْحَةَ عَرْفهِ

ولَيَزْهَيَنَّ عَلَى الغمامِ نَفَاسَةً ... من صادَ مِثْلي في حَبائِلِ عُرْفهِ

— ٨١ —

وله أيضاً رحمه الله (١)

[من الطويل]

سلامٌ (٢) عَلَى مُسْتَوْدعِ الرُّوحِ والنَّفْسِ ... وذُخْرِ غَدِي مِمَّا انْتَحَبْتُ لَهُ أَمْسِ

---

(١) هذه القصيدة قيلت في مدح يحيى بن علي بن حمود الحسني الملقب بالمعتلي بالله . وقد تولى الخلافة مرتين : الأولى بقرطبة في جمادى الأولى سنة ٤١٢ بعد فرار عمه القاسم بن حمود ثاني الخلفاء الحموديين العلويين ، وفر من قرطبة في ذي القعدة سنة ٤١٣ ، وأما المرة الثانية فكانت بعد خلع المستكفي بالله الأموي وكان بمالقة فقدم إلى قرطبة حيث بويع في رمضان سنة ٤١٦ وبقي بها ثلاثة أشهر حتى خرج منها إلى مالقة (انظر البيان المغرب ٣ / ١٣١ — ١٣٢ ، ١٤٣ - ١٤٥) .

(٢) هذه الكلمة مكررة في الأصل ، والوزن يقتضي حذف إحداها .

بِحَيْثُ تَخَطَّيْتُ المنايَا إِلىٰ المُنىٰ وآنَسَ وَحْشِي بالفَلاَ كَرَمُ الأنْسِ

وحيثُ اعْتَلَى «بِالمُعْتَلِي» صَوْتُ رائِدِي

مُهِلاًّ إلى خِمْسِي[1] بِأَنْمُلِهِ الخَمْسِ

وحَيْثُسَقَى «يَحْيَى» حياتِيفأَيْنَعَتْ له من ثَنَائِي زَهْرَةُ الجِنِّ والإِنْسِ

فَمِنْ يَدِ أنفاسِي إلىٰ مُنْتَهَى الدُّنَا ومن خَطِّ أَقلامِي إلىٰ مَطْلَعِ الشَّمْسِ

شوارِدُ لَوْلاَ حِلْمُ «يَحْيَى» دَنَا بِها لَجَلَّتْ أَدَانِيهَا عَنِ الشَّمِّ[2] واللَّمْسِ

فكَيْفَ بِأَنْ أُزرِي بها فأَبِيعَهَا ـ كما زَعَمَ الواشُونَ ـ بالثَّمَنِ البَخْسِ؟

وكَمْ فَتَّقَتْ فِي الأَرضِ من وَقْرِ مَسْمَعٍ وكم أَنْطَقَتْ بِالحَمْدِ من أَلْسُنٍ خُرْسِ

ثناءٌ عَلَى مَنْ رَدَّ رُوحِي رَوْحُهُ وقَرَّبَ أنفاسَ الحياةِ من النَّفْسِ

[٨٢أ] / فهل أنا مُسْدٍ لُبْسَ هَجْوِي لِمُنْعِمٍ كساني فَسَدَّى من هِجاءِ اسْمِهِ لِبْسِي

فأَصبحتُ مِنْهُ في حُلًى لو أَفَكْتُها لَطُفْتَ بها في الأَرْضِ تَنْضَحُ بِالرِّجْسِ

وهل أنا عَنِّي خالِعٌ تاجَ عُرْفِهِ فأَهْوِي بِهِ في هُوَّةِ الخَسْفِ والنَّكْسِ

كأَنِّيَ قَدْ أَنْهَجْتُ لِبسِي من الهُدَى وأَصْبَحْتُ من مِنْهَاجِ جَدِّكَ[3] في لَبْسِ

---

(١) في الأصل : حمسى . والخِمس من أظماء الإبل ، وهو أن ترد الماء في اليوم الخامس بعد إظمائها أربعة أيام .

(٢) في الأصل : الشمس ، والصواب ما أثبتنا .

(٣) يقصد بجده رسول الله محمــداً عليه الصلاة والسلام إشارة إلى نسبه العلوي الفاطمي .

وأنكرتُ حقَّ اللهِ فيكُمْ مودَّةً
عَلَى كُلِّ مَنْ أمْسَى عَلَى (١) الأَرْضِ أوْ يُمْسِي

وحَظِّيَ رَحْلِي مِنكَ بَيْنَ مكارمٍ
يُمَزِّقْنَ عَنِّي راكِدَ الظُّلَمِ الطُّمْسِ

وبَحْرُكَ (٢) لي يختالُ بالخَيْلِ والمَهَا
وَبَرُّكَ لِي ينهلُّ بالبِرِّ والأُنْسِ

فمَنْ ذا الذي مِنْ بُعْدِ أرْضِي ومَشْهَدِي
تَخَبَّطَهُ شيطانُ ضِغْنِي من المَسِّ

فدبَّ بما لو سامَنِي الخوفُ ذِكْرَهُ
لَمَا جالَ في وَهْمِي ولا دَبَّ من حِسِّي

ولو رُدَّ فِيَّ الرُّوحُ من قَتْلِ قاتلٍ
لما باتَ من ذَمِّي وعَتْبِي عَلَى وَجْسِ

وكيفَ بكُفْرِي من هَدَى وابْنُ مَنْ هَدَى
أبُوكَ ويُمْنَاكَ التي أثمرَتْ غَرْسِي

وهَبْنِي ذَمَمْتُ العالَمِينَ فكيفَ لِي
بذَمِّيَ من أوْدَعْتُ راحَتَهُ نَفْسِي

وإنَّ اختلاقَ الغدرِ عَنِّي لِحَاسِدٍ
لأدْنَى لَهُ أن يَصْبِغَ الشمسَ بالنِّقْسِ

وإنَّ أخَا غَسَّانَ عندِي لَذُو يَدٍ
بِكَ ابْتَاعَ مِنِّي شُكْرَهَا غَيْرَ ذِي وَكْسِ

غداةَ تَجَلَّى لِي بذكركَ فاجْتَلَى
عَرُوسَ ثنائي فيكَ مشهودةَ العُرْسِ

فلم يُلْفِ صدرِي خامداً نارُ شَوْقِهِ
إليكَ ولكنْ ضَمَّ قَبْساً إلى قَبْسِ

ولا زادَنِي في حفظِ عهدِكَ بَسْطَةً
سِوَى أنْ حفظَ العِلْمِ أثْبَتُ بالدَّرْسِ

---

(١) في الأصل : في ، ولا يستقيم الوزن إلا بما أثبتنا .

(٢) ربما كان الأوفق أن يعكس ترتيب هاتين الكلمتين أي أن يكون البيت :
وبرك لي يختال ... ؛ وبحرك لي ينهل ...

وطِيبُ حديثي عنكَ صادَفَ مُصْغِياً   لأفصحِ مُقتصٍّ وأربحِ مُقتَسٍّ[1]
فراسلَ نشْرِي عنك شدواً بشَذْوِهِ   ونادَمَ حَمْدِي فيكَ كأساً إلى كأسِ
أياديكَ في أُولَى الزّمانِ وإنّها   لأَدنى إلى ذكري ونشريَ من أمسي
ليَالِيَ في مأواكَ أَمْنِي منَ الرّدَى   وفي ظِلِّكَ الممدودِ نَشْرِي من الرَّمْسِ
ومَضْجَعُ طِيبِ النَّومِ في أمَدِ السُّرَى   ومشرَبُ عَذْبِ الماءِ في مُنْتَهَى الخِمْسِ
فلا زالَ دينُ اللهِ منكَ بمَعْقِلٍ   منيعٍ وسَمْكُ الحقِّ منكَ عَلَى أُسِّ
ولا رَمَتِ الأقدارُ عنكَ مُعانِداً   بأفْوَقَ مفلُولِ الغِرارِ ولا نِكْسِ[2]
ولا ماتَ من والاكَ من غُرْبَةِ النَّوَى   ولا عاشَ من عاداكَ من عَثْرَةِ التَّعْسِ

— ٨٢ —

[٨٢ب] / وله أيضاً رحمه الله[3]

[من الكامل]

نورُ الوفاءِ بأرضِنا لكَ ساطِعُ   والحَقُّ شملٌ عِنْدَنَا بِكَ جامِعُ

(١) المقتس: مشتق من اقتس الشيء وقسه أي تتبعه وطلبه، وقد تكون كذلك «معتس» من اعتس الشيء أي طلبه كذلك.

(٢) السهم الأفوق: هو الذي في فوقه (بضم الفاء) ميل أو انكسار، والفوق: هو مشق رأس السهم حيث يقع الوتر، والنكس من السهام: أضعفها.

(٣) هذه القصيدة في مدح منذر بن يحيى التجيبي ملك سرقسطة.

هُدِيَتْ إلى «المَنْصُورِ» دَعْوَتُكَ التي صِدْقُ الوِدادِ بهـا إلَيْهِ شافِـعُ

وأَواصِرٌ نَزَعَتْ بِهِنَّ عَنَاصِرٌ حَنَّتْ وهُنَّ لشكلِهِنَّ نَوازِعُ

تلكَ المعاهِدُ من عهودِكَ عندَهُ لم يَعْفُهُنَّ مصائِفٌ ومَرَابِـعُ

صَدَقَتْ فلا بَرْقُ المَوَدَّةِ خُلَّبٌ منهـا ولا غَيْمُ القرابَةِ خادِعُ

بوسائِلٍ هَتَفَتْ بِهِنَّ جوانِـحٌ فتفَرَّجَتْ لِقَبُولِهِنَّ أَضالِـعُ

فَهِيَ الظِّمَاءُ إلى المياهِ شَوَارِعٌ وهِيَ الطُّيورُ إلى الوُكورِ قَوَاطِعُ

طُوِيَتْ لها بُعُدُ التَّنائِفِ وانْزَوَى لِدُنُوِّها منـهُ الفضاءُ الواسِـعُ

وقَدَحْنَ بالمَرْخِ العَفَارَ فأَقْلَعَا والليلُ بينهما[1] نهـارٌ ساطِـعُ

وزَرَعْنَ في التُّرْبِ الكريمِ مكارِماً أَوْفَتْ لحاسِدِها بما هُوَ زارِعُ

نادَى المُنَادِي من «مَنَادٍ» مُسْمِعاً فأَجابَهُ «لِتُجِيبَ» رَأْيٌ سامِـعُ

بِشَوَابِكِ الرَّحِمِ المُوَصَّلَةِ التي وُصِلَ الوَصُولُ بها وجُبَّ القاطِعُ

أَشرَقْنَ والأَيامُ ليـلٌ دامِسٌ وحَلَوْنَ[2] والأَنسابُ سُمٌّ ناقِـعُ

بِرِعايَـةٍ لا هَدْيُ هُودٍ غائِبٌ عنها ولا إِيصاءُ يَعْرُبَ ضائِـعُ

ودُنُوُّها دِينٌ لَكُمْ وفرائِضٌ وسناؤُهَا سُنَنٌ لَكُمْ وشرائِعُ

فإذا تَثُوِّبُ فالقلوبُ نواظِرٌ وإِذا تُنادِي فالنفوسُ سَوَامِـعُ

---

(١) في الأصل : بينكما ، ولعل الأصوب ما أثبتنا .

(٢) في الأصل : وجلون ، وما أثبتناه أنسب .

بعواطِفِ اليَمَنِ الَّتِي أَنْتُمْ لها   وهِيَ اليَمِينُ أَنامِلٌ وأَصابِعُ
جَمَعَتْكُمُ ببطونِهِنَّ حوامِلٌ   وغَذَتْكُمُ[1] بِثُدِيِّهِنَّ مَرَاضِعُ
ونحورُها مأوًى لكُمْ ومعايِشٌ   وجُحورُها مَثْوًى لكُمْ ومَضَاجِعُ
فَتَبِعْتُمُ آثارَ ما نَهَجَتْ لكُمْ   في النَّصْرِ أَذواءٌ لكُمْ وتبابِعُ
قهرُوا الجبابِرَ فالرِّقابُ مقاطِعٌ   لسيوفِهِمْ أو فَالرِّقابُ خَوَاضِعُ
وسَرَوْا إلى داعِي الهَوى فَمُصَدِّقٌ   ومسابِقٌ ومُبادِرٌ ومُبَايِعُ
الناصِرِينَ الناصِحِينَ فما لَهُمْ   في غير ما يُرْضِي الإلٰهَ مَوَازِعُ
ما أُشْرِعَتْ في النَّاكِثِينَ رِماحُهُمْ   إلا وبابُ النَّصْرِ منها شارِعُ
[٨٣م] / وإذا سُيُوفُهُمُ لَمَعْنَ لوقعَةٍ   جَلَلٍ فوجْهُ الفتحِ فيها لامِعُ
لم يرفَعُوا راياتِهِمْ إلاَّ عَلَتْ   والحق مرفوعٌ بِهِنَّ ورافِعُ
فالدين أَعْلامٌ لهُمْ ومعالِمٌ   والكفرُ أشلاءٌ لَهُمْ ومصارِعُ
أَبَنِي «منادٍ» إنْ تَنادَوْا للنَّدى   أو للطِّعانِ فَمُسْرِعٌ ومُسارِعُ
أو تَغْضَبُوا فَمَعارِكٌ ومَهَالِكٌ   أو تَرْتَضُوا فقَطَائِعٌ وصَنائِعُ
أو تَرْكَبُوا فَمَناظِرٌ ومَخابِرٌ   أو تنزِلُوا فَمَشاهِدٌ ومَجامِعُ
الشَّامُ شامُكُمُ ومِصْرٌ مِصْرُكُمْ   والمَغْرِبانِ لَكُمْ حِمًى ومَرَاتِعُ
والمشرِقُ الأَعْلى أَبُو الحَكَمِ الَّذي   نادَيْتُمُ فالدَّهْرُ عَبْدٌ طائِعُ[2]

(١) في الأصل : وغدتكم .
(٢) في الأصل : طالع ، والأفضل ما أثبتناه .

أَصْفَى المُلُوكُ فَنَاصِرٌ أَو واصِلٌ   وصَفَا الأَنامُ فعائِذٌ أَو خاضِعُ
لم يطلُعِ البدرُ المنيرُ ببلْدَةٍ   إلا لكُمْ فيها هلالٌ طالِعُ
ولكُمْ بدارِ المُلْكِ من « سَرَقُسْطَةٍ »   قِلَمٌ لأَقْلامِ البَرِيَّةِ فارِعُ
بمَفَاخِرٍ من « مُنْذِرٍ » ومآثِرٍ   نُظِمَتْ بِمَنْطِقِهِ فَهُنَّ شوائِعُ
وبها لَهُ في المَغْرِبَيْنِ مغارِبٌ   ولِذِكْرِهِ في المَشْرِقَيْنِ مَطالِعُ
سَكَنَتْ بها الآفاقُ وَهْيَ غرائِبٌ   واستأْنَسَتْ بالعِلْمِ وَهْيَ بَدَائِعُ
فالجَوُّ من فحواهُ مِسْكٌ فائِحٌ   والأَرْضُ من نُعْمَاهُ روضٌ يانِعُ
من بعدِما وَلَدَتْهُ مِنْ صِنْهَاجَةٍ   شِيَمٌ إلى مَلِكِ المُلُوكِ شَوَافِعُ[1]
ومناقِبٌ ومناصِبٌ وضرائِبٌ   وصوائِبٌ وثواقِبٌ ولَوَامِعُ
فبها يُسَابِقُ نحوها ويُشَايِعُ   وبها إلى يُمْنَى يَدَيْهِ يُنَازِعُ
إنْ تُشْرِقِ الدنيا ببارِعِ ذِكْرِهِ   فَمَحَلُّهُ عِنْدَ « ابْنِ يَحْيَى » بَارِعُ
مُسْتَوْدَعاً لكُمُ مَليكاً نَفْسُهُ   وحياتُهُ في راحَتَيْهِ وَدَائِعُ
فاسْعَدْ « أَبا مَسْعُودَ »[2] بالهِمَمِ التي   عَلِيَتْ فَهُنَّ إلى النُّجومِ نَوَازِعُ
إن كان سَيْبُكَ للحقوقِ مُؤَدِّياً   فيناً فسيفُكَ للحقائِقِ مانِعُ

---

(١) في الأصل : شواسع .

(٢) « أبو مسعود » المذكور هنا هو القائد الذي سلفت الإشارة إليه في قصيدة في مدح منذر بن يحيى (ص ١٣٢) ويبدو ومن هذه القصيدة أنه كان من بني مناد الصنهاجيين الذين كانت منهم الأسرة التي حكمت إفريقية تحت طاعة الفاطميين بمصر .

بحقائقٍ تَجْلُو الخطوبَ كأنَّما رَيْبُ الزّمانِ لها كَمِيٌّ دارِعُ
ومواهِبٍ فيما حَوَيْتَ كأنَّها فيمَنْ غَزَوْتَ مَلاحِمٌ وَوَقَائِعُ
وعَلَيْكَ من نفسِي سلامٌ طَيِّبٌ مُتَرَادِفٌ مُتَوَاصِلٌ مُتَتَابِعُ
[٨٣ب]/ الغادِيَاتُ بِهِ إليكَ نَوَافِحٌ والطارِقَاتُ بِهِ عَلَيْكَ [ضوائع][1]

— ٨٣ —

وله يرثي بعض الفقهاء[2] وتوفى في طريق الحج رحمة الله عليهما
[من البسيط]

ما أَحْسَنَ الصَّبْرَ فيما يَحْسُنُ الجَزَعُ وأَوْجَدَ اليَأْسَ ما قد أَعْدَمَ الطَّمَعُ

(١) هذه الكلمة في الأصل مطموسة تماما، ونراها أقرب كلمة إلى أن تكون هي المراد . والضوائع جمع ضائعة من ضاع الريح يضوع أى نفح وسطع .
(٢) لم يصرح جامع الديوان باسم هذا الفقيه، على أننا نعرف من قصيدة ابن دراج هذه في رثائه أنه كان يسمى « إسماعيل » وأنه توفي بمصر في طريقه إلى الحج . وقد عثرنا في كتاب « بغية الملتمس » للضبي على ترجمة موجزة لفقيه يسمى « إسماعيل بن محمد بن فورتش السرقسطي ، توفي بمصر سنة ٤١٢ (١٠٢٢)؛ وقد زادنا ابن الأبار أخباراً عن إسماعيل هذا في ترجمة لابن له يسمى « محمد بن إسماعيل بن محمد المعروف بابن فورتش » فقال إنه (أي إسماعيل) كان قاضي سرقسطة ويقول ابن الأبار : إن محمد بن إسماعيل رحل مع أبيه فسمع بالقيروان من أبي عمران الفاسي في سنة ٤١٠ (١٠١٩) وإن أباه توفي في منصرفه بمصر سنة ٤١٢ . والأرجح هو أن إسماعيل مرثي ابن دراج هو نفسه المذكور هذا (انظر البغية رقم ٥٣٦ والتكملة رقم ٤١٢) .

وللمنايا سِهــــامٌ غيرُ طائشةٍ — وذو النُّهى بجميلِ الصَّبْرِ مُدَّرِعُ

فإن خَلَتْ للأَسى في شجوها سُنَنٌ — فطالمَا أُحْمِدَتْ في كَظْمِهَا البِدَعُ

وللفجائِـعِ أقدارٌ وأَفْجَعُهـــا — للنَّفْسِ حيثُ ترى أَظفارَهَا تَقَعُ

كأنَّ للموتِ فينا ثأْرَ مُحْتَـكِمٍ — فما بغيرِ الكريمِ الحُرِّ يَقْتَنِـعُ

قد خَبَّرَتْ نفسُ « إسماعِيلَ » في يدِهِ — أَنْ ليسَ عن حُرُماتِ المَجْدِ يَرْتَدِعُ

فاحْتَسِبُوا آلَ « إِسْمَاعِيلَ » ما احْتَسَبَتْ

شُمُّ الرُّبَى من غَمَامِ الغَيْثِ يَنْقَشِـعُ !

واحْتَسِبُوا آلَ « إسماعِيلَ » ما احْتَسَبَتْ

خيلُ الوَغَى من لواءِ الجَيْشِ يَنْصَرِعُ

ماذَا إلى مِصْرَ مِن بِرٍّ ومن كَرَمٍ — بَعَثْتُمُ مَعَ وَفْدِ اللهِ إِذْ رَجَعُوا

حَجُّوا بِهِ بِهِلالِ الفِطْرِ وانقلبُوا — فاسْتَوْدَعُوهُ ثَرَى مِصْرٍ وماربَعُوا (١)

فأَيُّ قَدْرٍ رفيعٍ حانَ مَحْمِلُهُ — في النَّعْشِ يوماً عَلَى أَكْتَافِهِمْ رَفَعُوا

وأَيُّ مُخْتَشِـعٍ لِلهِ مُتَّضِـعٍ — حُرِّ الشمائِلِ في حَرِّ الثَّرَى وَضَعُوا

وغادَرُوهُ ولا عَذْرٌ بمـا فَعَلُوا — وَوَدَّعُوهُ ولا بَاكٍ لِمَنْ وَدَعُوا

تغدُو عليه حَمَامُ الأَيْكِ باكِيَةً — وتَسْتَهِلُّ عَلَى أَكْنَافِهِ القَلَعُ (٢)

والرِّيحُ تُهْدِي لَهُ من كُلِّ عارِفَةٍ — عَرْفاً وتحمِلُ عنه فَوْقَ ما تَدَعُ

---

(١) أي انتظروا وتوقفوا .

(٢) جمع قلعة بفتحتين وهي قطعة السحاب الضخمة العظيمة .

فاسْتَشْعِرُوا آلَ إسْمَاعِيلَ تَعْزِيَةً   يُهْدٰى لها واعِظٌ منكُمْ ومُسْتَمِعُ
فإنْ غَدَا شَعْبُكُمْ في اللهِ مُفْتَرِقاً   فإنَّ شَعبَكُمُ في المَجْدِ مُجْتَمِعُ
وإنْ يُصَدِّعْ قُلُوباً صَدْعُ شَمْلِكُمُ   فالصَّبْرُ كالشَّمْسِ حيثُ الفَجْرُ يَنْصَدِعُ
وإنْ جَزِعْتُمْ فَرُزْءٌ لا يقومُ له   فيضُ الدُّموعِ ولا يُشْفٰى له وَجَعُ
وإنْ صَبَرْتُمْ فَمِنْ قومٍ إذا بُعِثُوا   لم يُوهِ عَزْمَهُمُ ذُعْرٌ ولا فَزَعُ
قد وطَّنُوا أَنفُساً للدَّهْرِ ليسَ لها   إلاَّ مِنَ الذَّمِّ أَنْ يَدْنُو لها جَزَعُ
كأَنَّهُمْ في نَعِيمِ العَيْشِ ما نَعِمُوا   وفي الفَجائِعِ بالأَحْبَابِ ما فُجِعُوا
[٨٤م]/ للهِ مِنْ حُرَمِ الأموالِ ما بَذَلُوا   جُوداً ومن حُرَمِ الجِيرَانِ ما مَنَعُوا
وما كَسَوْكُمْ منَ المَجْدِ الَّذِي لَبِسُوا   واسْتَحْفَظُوكُمْ من الصَّبْرِ الذي شَرَعُوا
فارْبِطْ لها يا أَبا مَرْوَانَ جَأْشَ فَتًى   سَمَا فَأَتْبَعَ حَتّىٰ عادَ يُتَّبَعُ
وقد عَضَضْتَ على نابِ البَزُولِ فَلَا   يُغْنِيكَ حُسْنَ العزاءِ الأَزْلَمُ الجَذَعُ(١)
دَهْرٌ شَجَاكَ وقد وَفَّاكَ تَعْزِيَةً   جَلَّتْ فَلَيْسَتْ بِغَيْرِ القلبِ تُسْتَمَعُ
بُشْرٰى لِمَنْ زُوِّدَ التَّقْوٰى لِمُنْقَلَبٍ   حَيَاةُ مُدَّخَرٌ فِيهِ ومُطَّلَعُ
بِمِيتَةٍ في سبيلِ اللهِ أَسْلَمَهُ   فيها إلىٰ رَبِّهِ الأبناءُ والشِّيَعُ
في حجَّةٍ بِرُّها في اللهِ مُتَّصِلٌ   بالمُحْرِمِينَ عنِ الأَوْطانِ مُنْقَطِعُ

---

(١) البزول (بفتحة فضمة) هو في الأصل البعير إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة ، وإنما هو كناية عن الاكتهال وكبر السن ؛ ويقصد بالأزلم الجذع : الدهر الشديد ، وقيل : هو المتعلق به البلايا والمنايا .

لَبيٌّ من الغايَةِ القُصْوى فجاوَبَهُ حُورُ الخِيَامِ (١) إلى لُقْيَاهُ تَطَّلِعُ

واسْتَفْتَحَ الكَعْبَةَ العَلْيَاءَ فَانْفَتَحَتْ له إلى الجَنَّةِ الأبوابُ والشُّرَعُ (٢)

فكَيْفَ تُوحِشُكَ الدُّنْيَا إلى شِيَمٍ لِذِكْرِهَا في الوَرَى مَرْأًى ومُسْتَمَعُ

تَتْلُى فيعبَقُ منها كُلُّ ذِي تَفَلٍ (٣) ويَعْذُبُ منها الصَّابُ والسَّلَعُ (٤)

قد حَمَّلَتْ أَلْسُنَ المُثْنِينَ ما حَمَلَتْ وأَوْسَعَتْ أَيْدِيَ العافِينَ ما تَسَعُ

كالغَيْثِ يَنْأَى وما يَخْفَى لَهُ أَثَرٌ والمِسْكِ يُوعَى وما يُوعَى لَهُ فَنَعُ (٥)

لِطَيِّبِ الذِّكْرِ من حِلْمٍ ومن وَرَعٍ لو كانَ للموتِ حِلْمٌ عنهُ أَوْ وَرَعُ

ومانِعِ الجارِ من ضَيْمٍ ومن عَدَمٍ لو أَنَّهُ من حِمامِ الحَيْنِ يَمْتَنِعُ

ووَازِعِ الخطبِ عن قُرْبٍ وعَنْ بُعُدٍ لَوْ أَنَّ صَرْفَ الرَّدَى من بَعْضِ ما يَزَعُ

وإنْ أَقَمْتَ أَبا مَرْوَانَ سُنَّتَهَا شَجْواً فَذُو اللُّبِّ في السُّلْوَانِ يَبْتَدِعُ

فَارْدُدْ زَفِيرَكَ عَمَّا لا مَرَدَّ لَهُ وارْجِعْ دُمُوعَكَ عَمَّنْ لَيْسَ يُرْتَجَعُ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « حور مقصورات في الخيام » (سورة الرحمن ، آية رقم ٧٢) .

(٢) جمع شرعة وهي الطريق .

(٣) لم يترك الناسخ فراغا هنا ، غير أنه لاشك أن هناك كلمة تنقص في هذا الموضع وبغيرها يختل الوزن ، ولعلها

(٤) التفل : هو تغير الرائحة ، والسلع : شجرمر .

(٥) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل ، ولعلها كما أثبتنا ، والفنع : هو نفحة المسك وذكاء رائحته ؛ وكلمة يوعى الأولى أن يحس به ، ويوعى الثانية أي يضمه وعاء .

وَاسْتَخْلِفِ العَارِضَ المُنْهَلَّ يَخْلُفُهُ رَوْضٌ تَصِيفُ بِهِ مِصْرٌ وَتَرْتَبِعُ
مِنْ كُلِّ بَحْرِيَّةٍ شَامٍ يُشَامُ بِهَا حَادِي الجَنُوبِ فَلَا رَيْثٌ وَلَا سَرَعُ
يَنُوبُ عَنْ ضَرَمِ الأَحْشَاءِ بَارِقُهَا وَعَنْ دُمُوعِكَ فِيهَا الوَابِلُ الهَمِعُ
تَزُورُ فِي مِصْرَ قَبْراً قَلَّ زَائِرُهُ لَكِنَّهُ لِلْعُلَا وَالمَجْدِ مُضْطَجَعُ
وَأَكْرَمُ الغَيْثِ غَيْثٌ عَادَ مُنْتَجِعاً مَنْ لَمْ يَزَلْ لِلنَّدَى وَالجُودِ يُنْتَجَعُ

— ٨٤ —

وله إلى بعض القضاة رحمهم الله تعالى

[من الوافر]

[٨٤ب] / بِحُكْمِ العَدْلِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ حَبَاكَ بِحَقِّ أَحْكَامِ القَضَاءِ
وِرَاثَةَ مُورِثِ الأَبْنَاءِ مِمَّا تَحَلَّ مِنْ تُرَاثِ الأَنْبِيَاءِ
أَبٌ وَفَّاكَ مِيرَاثَ المَسَاعِي كَمَا وَفَّيْتَهُ عَهْدَ الوَفَاءِ
تَهَدَّى فَارْتَدَى حِلْماً وَعِلْماً فَلَمْ تُسْبَقْ إِلَى ذَاكَ الرِّدَاءِ
لِتَلْبَسَهُ بِإِفْضَالٍ وَفَضْلٍ وَتَنْشُرَهُ بِهَدْيٍ وَاهْتِدَاءِ
نَمَاكَ وَقَدْ بَنَى دِيناً وَدُنْيَا لِتَخْلُفَهُ عَلَى ذَاكَ البِنَاءِ
وَشَيَّدَهُ بِإِخْلَاصِ الأَمَانِي وَأَسَّسَهُ بِمَقْبُولِ الدُّعَاءِ
عَلَيَّاً أَنَّ أَرْفَعَ مَا بَنَاهُ بِنَاءٌ أُسُّهُ لَكَ فِي السَّمَاءِ

وأزْكَى مَنْ زَكا صِدْقاً وعَدْلاً　　زَكِيٌّ حازَ مِيراثَ الزكاءِ
فما زَكَ ذو الجلالِ بِعِلْمِ غَيْبٍ　　وفرَّكَ ذُو الرِّياسَةِ عن ذَكاءِ
مَلِيكٌ كُلَّمَا[1] بَلَغَ انْتِهاءً　　مِنَ العَلْيَاءِ أَهَلَّ إلى ابْتِدَاءِ
فَسَوْدَدُهُ كَجُودِ يَدَيْهِ جارٍ　　مِنَ الدُّنيا إلى غيرِ انْتِهاءِ
تَجَلَّى في بهاءِ نَدىً وعَدْلٍ　　ومَدَّ عَلَيْكَ من ذاكَ البَهَاءِ
رجاءٌ فيكَ صُدِّقَ كي يُجازَى　　كما اسْتَدْعَاكَ تصديقُ الرَّجاءِ
وجَزْلاً من عطاءِ اللهِ أعْدَى　　يَدَيْكَ بِهِ جزيلاتُ العَطاءِ
لتَصْرِفَ دعوةَ المظلومِ عَنْهُ　　كما صَرَفَ السَّوَامَ إلى الرِّعَاءِ
وتَرْعىٰ موقِفَ المَلْهوفِ عَنْهُ　　يُلَبِّي نَفْسَهُ قَبْلَ النِّدَاءِ
وتبسُطَ منكَ للغُرَبَاءِ وَجْهاً　　يُجَلِّي عَنْهُمُ كُرَبَ الجَلاَءِ
فَتُبْلِيَ فيهِمُ سِيَرَ «ابْنِ يَحْيَى»　　كما أَبْلاَكَ محمودَ البَلاَءِ
فأَعْطِى القَوْسَ بارِيَهَا وشُدَّتْ　　عَرَاقِي[2] الدَّلْوِ في كَرَبِ الرِّشَاءِ
ورُدَّ الرُّوحُ في جِسْمِ المَعَالِي　　ولاحَ النَّجْمُ في أُفُقِ السَّماءِ

(١) في الأصل : كما ، ولايستقيم بها الوزن ولا المعنى ، ولعل المراد ما أثبتنا.

(٢) في الأصل : عراقي ، والصواب ما أثبتنا ، والعراقي جمع عرقوة (بفتح أو ضم فسكون فضم ففتح) ، والعرقوتان هما الخشبتان اللتان تعترضان على الدلو كالصليب ؛ والكرب : هو الحبل الذي يلي الماء ؛ والرشاء : هو الحبل الذي يوصل به إلى الماء .

وجُرِّدَ للهُدَى سيفٌ [صقيل][1] مُحَلّىً بِالمحامِدِ والثَّنَاءِ
فوَلَّى النُّكْرُ مهزومَ النَّواحِي وجاءَ العُرْفُ منشورَ اللِّواءِ
وغارَ الظُّلمُ في ظُلَمِ الدَّياجِي ولاحَ العدلُ في حُلَلِ الضِّياءِ[2]
بِيُمْنٍ أَلْبَسَ الأَيَّامَ نُوراً يُدِيلُ مِنَ الشَّدائِدِ بالرَّخاءِ
[٨٥ أ] / وأحكاماً بَثَثْنَ العدلَ حتى تقاسَمَهــاَ الأباعِـدُ بالسَّواءِ
وأَخلاقاً خُلِقْنَ منَ التَّمَنِّي فلاقَتْ كُلَّ هَمٍّ بالشِّفَاءِ
فهُنَّ الماءُ في صَفْوٍ ولِينٍ وسَوْغٍ وَهْيَ نارٌ في الذَّكاءِ
فما بالنَّفْسِ عنها مِنْ تَنَاءٍ ولا بِالسِّرِّ عنها من خَفَاءِ
فكم جَلَّيْتَ من نَظَرٍ جَلِيٍّ قرأْتَ به أساطِيرَ الدَّهاءِ
وكم أورَيْتَ من زَنْدٍ ثَقُوبٍ أَراكَ سِراجُهُ عَيْبَ الرِّياءِ
وكم أحيَيْتَ من نَاءٍ غريبٍ فقيدِ الأَهْلِ مُنْبَتِّ الإِخاءِ
وكم نَفَّسْتَ كُرْبَةَ مُسْتَكِنٍّ تأَخَّرَ عنهُ نَصْرُ الأَولِياءِ
وكم جلَّيْتَ من خطْبٍ جليلٍ وكم داوَيْتَ من داءٍ عَياءِ
ولا كَبَنِي سبيلٍ شَرَّدَتْهُمْ عنِ الأَوطانِ قاضِيَةُ القضاءِ
عواصِف فِتْنَةٍ عَمَّتْ بِغَيْمٍ بوارِقُهُ سُيُوفُ الإِعْتِدَاءِ

---

(١) هذه الكلمة ناقصة من الأصل ، وقد رأينا الوزن يقتضيها أو شيئاً في معناها ، فأضفناها .

(٢) في الأصل : الظياء .

فأصْعقَهُمْ براعِدَةِ المنايـــا   وأمْطَرَهُمْ شآبيبَ الفَنـــاءِ
وطافَ عليهِمُ طُوفانُ رَوْعٍ   أفاضَ بِهِمْ إلى القَفْرِ الفضـاءِ
سهـــامُ نَوًى إلى بَرٍّ وبَحْرٍ   وأغراضٌ لِنُشَّابِ البـــلاءِ
سَرَوْا فَسَرَوْا بأفياءِ ضَوافٍ   فيافِيَ لا يَقِينَ من الضَّحاءِ (١)
وحُمْرَ الموتِ مِنْ خُضْرِ المَغاني   وسُودَ البيدِ من بِيضِ المُلاءِ
ومن كِلَلِ السُّتورِ كَلالِ خُوصٍ   وَعَدْتُهُمُ النجاةَ عَلَى النَّجاءِ
وقد جَدَعَتْ أنوفَ العِزِّ منهُمْ   خطوبٌ سُمْتَهُمْ أَنْفَ الإبـــاءِ
وأَلْبَسَهُمْ ثيابَ الذُّلِّ خطبٌ   يَلِيهِمْ في ثيابِ الكِبْرِياءِ
وَأَلْحَقَهُمْ بِلُجِّ البَحْرِ سَيْلٌ   يَمُدُّ مُـدُودَهُ فَيْضُ الدِّماءِ
فَوَشْكاً ما هَوَى بِهِمُ هواءٌ   تأَلَّفَهُمْ بأَفئِـــــدَةٍ هَواءِ
وحالَ الموجُ دونَ بَنِي سَبيلٍ   يَطيرُ بِهِمْ إلى الغَوْلِ ابْنُ ماءِ (٢)
أَغَرُّ (٣) لَهُ جَناحٌ من صباحٍ   يُرَفْرِفُ فوقَ جُنْحٍ من مَسَاءِ
يُذَكِّرُهُمْ زَفِيفُ الرِّيحِ فيهِ   تناوُحَهـــا بِرَبْعِهِمُ الخَلاءِ

---

(١) الضحاء: هو أعلى ارتفاع للشمس.

(٢) ورد هذا البيت والذي يليه في «شرح مقصورة حازم القرطاجني للشريف الغرناطي» ١ / ١٤٢؛ وكذلك في «رايات المبرزين» لابن سعيد المغربي ص ٧٣، وفي الرايات «الماء» في مكان كلمة «الغول» الواردة في الديوان.

(٣) في «شرح المقصورة» وفي «الرايات»: أعير.

وَمَحْوُ الماءِ ما يَخْتَطُّ فيـــهِ دياراً خلَّفُوهـــا لِلْعَفَاءِ

[٨٥ب] / وصَكُّ الموجِ فيها كُلَّ وَجْهٍ وُجُوهـاً سَوَّرَتْهُمْ بالجَفَاءِ

وعُدْمُهُمُ صفاءَ الماءِ منـــهُ بِعُدْمِهِمُ لإخوانِ الصَّفَاءِ

بحيثُ تَبَدَّلُوا باللَّهْوِ هَوْلاً وَرَحْبَ الماءِ من رَحْبِ الفِناءِ

ومن قَصْفٍ وراحٍ قَصْفَ رِيحٍ ومن لَعِبِ الهَوى لَعِبَ الهواءِ

كأنَّ البَرَّ والبحرَ اسْتَطَارَا تِجَاراً هَمُّهُمْ بُعْدُ الثِّنَـــاءِ(١)

يبيعونَ الرَّغائِبَ بَيْعَ بَخْسٍ ويَشْرُونَ المصائِبَ بالغَلاءِ

ولـكنَّ البضائعَ من هُمُومٍ عَلَتْ بالرِّبْحِ فيهِمْ والنَّمَاءِ

فكَمْ طَلَبُوا الأَمَانِيَ بالأَمَانِي(٢) وكم باعُوا السَّعَادَةَ بالشَّقَاءِ

وكم فاضَتْ مدامِعُهُمْ فَمَدَّتْ عُبابَ البَحْرِ بالمـــاءِ الرُّواءِ

وقد وَفَدَتْ جوانِحُهُمْ بِشَجْوٍ ينادِي الشَّمْسَ : حَيَّ عَلى الصَّلاَةِ

وكم خاضُوا كَهَمِّهِمُ بُحوراً وكم عَدِمُوا الثَّرىٰ عَدَمَ الثَّرَاءِ

وجاءَ الموتُ مُقْتَضِياً نفوساً لَوَتْ بِقضائِهِنَّ يَدُ القضاءِ

وما رَدَّ الرَّدىٰ عنها حَنَانًا ولٰـكنْ مَطْلَ داءٍ بالدَّواءِ

فَلأْيـاً ما أَهَـلَّ بهم بشيرٌ إلى أَرضٍ تَخَيَّلُ في سَمـاءِ

ولأياً ما تجـافىٰ اليَمُّ عَنْهُمْ تجافِيَهُ عنِ الزَّبَدِ الجُفَاءِ

---

(١) الثناء : هو الحبل ، ولعله يعني ببعد الثناء طول الأجل وامتداده .

(٢) كذا ، ولعله تحريف ، إذ نظن أن صوابها « بالمنايا » .

ويا عَجَبَ الليالي ، أَيُّ بَحْرٍ تَغَلْغَلَ بَيْنَ أثناء الغُثَاءِ !
ومن يَسْمَعْ بأَنَّ نجومَ لَيْلٍ هَوَتْ مَعَ بَدْرِها ، فَهُمُ أُولاءِ !
وأَخْطَأَ سَيْرُهُمْ أُفُقَ «ابْنِ يَحْيَى» لِيُخْطِئَ عِلْمُهُمْ بِالكيمياءِ
وكم سَرَتِ الرِّفاقُ بلا دَليلٍ إليْهِ والْمَطِيُّ بِلا حُداءِ
وكم وُقِيَتْ رِكابٌ يَمَّمَتْهُ سِهامَ النائباتِ بلا وِقاءِ
فما شَرِبُوا مِياهَ الأَرْضِ حَتَّى تَرَكْنَ وجوهَهُمْ من غَيْرِ ماءِ
ولا نَشَقُوا حياةَ العَيْشِ إلا وقد خَلَعُوا جَلابِيبَ الحَياءِ
ولا جابُوا إِليْهِ القَفْرَ حَتَّى تَجاوَبَتِ الحمائِمُ بالبُكاءِ .
ولا دَلَّ الزَّمانُ عَلَيْهِ حَتَّى حَسِبْتُ عِدَايَ [1] قَدْ ماتُوا بِدائي
وَلا أَلْقَوْا عَصاَ التَّسْيارِ حَتَّى عَفَتْ حَلَقُ البِطانِ من اللِّقاءِ [2]
/ ولا بَلَغُوا مُنَاخَ العيسِ إلا وفي الحُلْقُومِ بالِغَةُ الذِّماءِ [٨٦ م]
وفي رَبِّ العبادِ عَزَاهُ عِزٍّ لِذُلٍّ غالَهُ عِزُّ العَزَاءِ
وفي «المَنْصُورِ» مأْوىً وانتصارٌ [3] لَمَنْبُوذِ الوسائلِ بالعَرَاءِ
وفي قاضِي القُضَاةِ قَضَاهُ حَقٍّ لِمَنْ يرعاهُمُ راعِي الرِّعاءِ

(١) في الأصل : عدائي ، والأصوب ما أثبتنا .
(٢) البطان للقتب : هو الحزام الذي يشد تحت بطن البعير ، ويقال « التقت حلقتا البطان » للامر إذا اشتد .
(٣) في الأصل : وانتصاراً .

أَبُو الحَكَمِ الَّذي أَلْقَتْ يداهُ … إليكَ الحُكْمَ في دَانٍ ونَاءِ
وإنَّكَ منه في عدلٍ وفضلٍ … على أَمَدِ البِعادِ أوِ الثَّواءِ
مكانَ الفَجْرِ أشرقَ من ذُكاءِ … تألَّقُهُ وأَغْرَبَ عن ذَكاءِ
وإن يَكُ قُدْوَةَ الكُرَماءِ جُوداً … فإنَّكَ بالمكارمِ ذُو اقْتِدَاءِ
وإنَّ أَحَبَّ ما تَقْضِي إِلَيْهِ … لِمَنْ آواهُمُ حُكْمُ الحِباءِ
وأَنْتَ بِسَمْعِ رَأْفَتِهِ سَمِيعٌ … لَهُمْ وبِعَيْنِهِ في العَطْفِ رَاءِ
فإن لَحَظُوكَ من طَرْفٍ خَفِيٍّ … فقد نادَوْكَ من بَرْحِ الخَفَاءِ
لِدَيْنٍ لا يَدِينُ بِهِ لِنَبْعٍ … وأغصانٍ مُشَذَّبَةِ اللِّحاءِ
ودَيْنُهُمُ على الإسلامِ أَوْلَى … ومالُ اللهِ أَوْسَعُ لِلأَداءِ
هُوَ الحَقُّ الذي جاءَتْكَ فيهِ … شُهودُ العَدْلِ من رَبِّ السَّماءِ
وما في لَحْظِ طَرْفِكَ من نُبُوٍّ … ولا في نُورِ رَأْيِكَ من هَباءِ
فهل «ببراءةٍ» و«الحَشْرِ» رَيْبٌ … يُبَيِّنُ بالنِّفارِ أوِ الجَلاءِ؟
وإنْ تَزْدَدْ فَثَانِيَةُ المثاني … وإنْ تَزْدَدْ فرابِعَةُ النِّساءِ
وهلْ بَعْدَ الأُسارَى والسَّبَايَا … مكانٌ للفكاكِ أوِ الفِداءِ؟
وقَدْ قالُوا: افْتِقارٌ أَوْ إِسارٌ … كما قالُوا: الجلاء مِنَ السِّباءِ
وهَلْ بالبَحْرِ[1] مِنْ ظَمَإٍ فَيَرْوَى … صَدَاهُ بِغَيْرِ أَكْبادٍ ظِماءِ

(١) في الأصل: ببحر، ولا يتزن الشطر إلا بما أثبتنا.

وما في وَعْدِ رَبِّ العَرْشِ خُلْفٌ ... بِمَا لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الجَزَاءِ

ومَنْ يَرْغَبْ بقاءَ العدلِ يسألْ ... لكَ الرحمنَ طولاً في البَقاءِ

وأيَّةُ حُرَّةٍ من حُرِّ نَظْمِي ... تَجَلَّتْ للخلائِقِ في جِـــلاءِ

هَدِيَّةَ واصِلٍ وهَدِيَّ كُفْءٍ ... إلى كُفْءِ الهَدَايا والهِـــدَاءِ

مُتَوَّجَةً بتاجٍ من وِدادِي ... مُقَلَّدَةً بِدُرٍّ من ثَنائِي

. . . . (١)

— ٨٥ —

[وله في مدح ابن أزرق الكاتب رحمهما الله :](٢)

[من الوافر]

. . . .

[أَخُو ظَمَإٍ يَمُصُّ حَشاهُ سَبْعٌ ... وأَرْبَعَةٌ وكُلُّهُمُ ظِمـاءُ

(١) يتلو نهاية هذه الصفحة (وجه الورقة رقم ٨٦) خرم ذهبت فيه صفحتان : ظهر هذه الورقة ووجه الورقة رقم ٨٧ . وقد ذهب في هذا الخرم آخر هذه القصيدة الهمزية ، وقد رمزنا إلى ذلك بالنقط المتتابعة .

(٢) سقط في الخرم الذي تحدثنا عنه في الحاشية السابقة أول هذه القصيدة الهمزية وذكر مناسبتها ، إلا أننا عثرنا في « الذخيرة » لابن بسام (ق ١ — ١ / ٦٧ — ٦٨) على أربعة عشر بيتا منها فأثبتناها نقلا عن « الذخيرة » ووضعناها بين حاصرتين ، كذلك أمدنا ابن بسام بمناسبة هذه القصيدة إذ قال : إنها في مدح —

كأنجمِ يوسفٍ عَدَداً ولكنْ بِرؤيَا هذه بَرِحَ الخفَاء
خطوبٌ خاطَبَتْهُمْ من دَوَاهٍ يموتُ الحزمُ فيها والدَّهاء
تراءتْ بالكواكِبِ وَهْيَ ظُهْرٌ وآذَنَ فيه بالشَّمْسِ العِشَاء
فَهَلْ نَظَرِي تَخَفَّى أَوْ بِصَدْرِي وضاقَ البَحْرُ عَنْهَا والفَضَاء
وكلُّهُمُ كيُوسُفَ إذْ فَدَاهُ مِنَ الْقَتْلِ التَّغَرُّبُ والجَلاء][1]
[ق-١٧] / وإنْ سجنٌ حواهُ فكَمْ حواهم سجونُ الفُلْكِ والقفرُ القَواء
وأَيّةُ أُسوةٍ في الحسنِ منه لإحساني إذا ارْتُخِصَ الشِّراء
وفي باكيهِ من بُعْدٍ وصدري وأجفاني بِمَنْ أبكي مِلاء
وأوْحَشُ من غروبِ الشمسِ يوماً كسوفٌ في سَناها وامِّحاء
وأفلاذُ الفؤادِ أَمَضُّ قَرْحاً إذا رَمَتِ العيونَ بما تُساء

ـ ابن أزرق، ولم نعرف عن ابن أزرق هذا إلا أنه كان واحداً من جلة الكتاب الذين استكتبهم منذر بن يحيى التجيبي ملك سرقسطة (انظر ابن عذارى المراكشي: « البيان المغرب » ٣ / ١٧٧؛ ونلاحظ أن اسمه ورد خطأً في « البيان »: ابن أرزق؛ وكذلك في ابن بسام: « الذخيرة » ق ١ — ١ / ١٥٤).

هذا وقد وجدت في القطعة التي عثر عليها أخيراً من الديوان في مكتبة جامعة القرويين (ص ١٧ — ١٨) جزءاً كبيراً من هذه القصيدة يبلغ خمسة وأربعين بيتاً بعضها مما اختاره ابن بسام في « الذخيرة » وسنثبت هنا جميع الأبيات التي انفردت بها نسخة القرويين هذه إلى جانب ما جاء في « الذخيرة » ولم يرد في المخطوطة الزيدانية.

(١) انفرد بإثبات هذه الأبيات الستة الماضية ابن بسام في « الذخيرة ».

فما كسرورِهمْ في الدهر حُزْنٌ ولا كشِفائِهم في الصدْرِ داءُ
نَقائِذُ فتنةٍ وخُلوفُ ذُلٍّ أَلَذُّ من البقاءِ به الفَناءُ
فإن أَقْوَتْ مغاني العِزِّ منهمْ فكم عَمِرَتْ بهم بِيدٌ[1] خلاءُ
وإنْ ضاقَتْ بهم أرضٌ فأرضٌ فما بَكَّتْ لمثلِهِمُ السَّماءُ
وإنْ نسِيَ الرَّدَى منهم ذَمَاءً فأَعْذَرَ زاهِقٌ عنه الذَّماءُ
فكَمْ تركوا معاهِدَ مُوحشاتٍ عَفَتْ حتى عفا فيها العفاءُ
فأَظْلَمَ بعدَنا الإصباحُ فيها وكم دهرٍ أضاءَ بها المساءُ
وجَدَّ[2] بها البِلى فمحت وُجوهاً نأَتْ عنها فَجَدَّ بها البَلاءُ
وَهَوْنُ هَوَانِها في كلِّ عَيْنٍ جديرٌ أن يعزَّ لَهُ العزاءُ
بَسَطْنَ لكلِّ مقبوضٍ يداهُ فما فيهِنَّ غيرُ الدَّمْعِ ماءُ
شُموسٌ غالها ذُعْرٌ وبَيْنٌ فهُنَّ لكلِّ ضاحيةٍ هَباءُ
وكم[3] لَبِسُوا من النُّعْمَى بُروداً جلاها عن جسومِهِمُ الجلاءُ
مَلاَبِسُ بامة[4] لم يَبْقَ منها لهم إلا ابْنُ يَحْيى والحياءُ
فإنْ كشفوا لهم منه غطاءً ففيه وفيكَ لي ولهم غِطاءُ

(١) في الذخيرة : بئر .
(٢) لعلها : وجرَّ بها .
(٣) في « الذخيرة » : فكم .
(٤) كذا في الأصل ، ولم أوفق إلى معناها .

شفيعٌ صادِقٌ منه الوفاءُ ومولىً صادقٌ فيه الرَّجاءُ
وإن دَجَتِ الخطوبُ بهم عليه فأنْتَ لكُلِّ داجيةٍ ضِياءُ
وإن طَوَتِ الرَّزايا من سَناهُمْ فلحظُكَ منه يتَّضِحُ الخفاءُ
وإن أخفى نِداءهُمُ التَّنائي فسمعُكَ منه يُستمعُ النِّداءُ
وإن وَرَدُوا قليبَ الجود عُطْلاً فأنت الدَّلْوُ فيها والرِّشاءُ
وقد شاءَ الإلـهُ بأنَّ أندى بحارِ الأرضِ يَسقي من تشاءُ
فنبِّهْ فادِيَ الأسْرى [عَلَيْهِمْ][1] نفوسُهُمْ لَهُ ولَكَ الفِداءُ
غصونٌ عندَ بحرٍ نداهُ أوْفَتْ بها كَحْلٌ وقد شَذَبَ اللِّحاءُ[2]
وآواها الرَّبيعُ وكلَّ حين يعيثُ القيظُ فيها والشتاءُ
وجاوَرَتِ الصَّبَا فَغَدَتْ وأمْسَتْ تُجَرْجِرُ في حَشاها الجِرْبِياءُ[3]
رَمَتْ بهمُ الحوادثُ نحوَ مولًى حواها الرِّقُّ[4] منه والولاءُ
وقادَهُمُ الكتابُ إلى مليكٍ تقاضاهُمْ ليمناهُ القضاءُ
فكمْ[5] عسفوا إليه لُجَّ بحرٍ تَلاقَى الماءُ فيه والسَّماءُ

(١) هذه الكلمة ناقصة في الأصل ، وقد أضفناها لاستكمال المعنى واستقامة الوزن ، ولعلها كذلك أو شيء في معناها .

(٢) الكحل : شدة الجفاف ، وقوله « شذب اللحاء » يعني ألقى ما عليه من من الأغصان حتى بدا عاريا .

(٣) الجربياء : ريح الشمال أو بردها ، والجرجرة : هي الصوت المتردد في الجوف

(٤) في الذخيرة : حماها الدين .

(٥) في الذخيرة : فكم

وجابوا نحوهُ من لجٍّ قفرٍ يجاوبُ جِنَّةٌ فيه الحُداءُ
وكم ناجَتْ نفوسَهُمُ المنايا فلَأْياً ما نجا بهمُ النَّجاءُ
وكم بارَوْا هُوِيَّ النجم تهوي بهم في البيد أفئدةٌ هواءُ
/ وكَمْ صَحِبُوا نُجُومَ اللَّيْلِ حَتّىٰ جَلاَها في عُيُونِهِمُ الضَّحاءُ [٨٧ب]
وَرَاعَوْهاَ ومالِيَ غَيْرُ جَفْنِي وأجْفـــانِي لِسِرْبِهِمُ رِعاءُ
هُدًى لَهُمُ إِلىٰ الآفاقِ حَتّىٰ سَرَتْ وَلَهَا بِسَيْرِهِمُ اُهْتِدَاءُ
فما ظَفِرُوا بِمِثْلِكَ نَجْمَ سَعْدٍ بِهِ لَهُمُ[1] إِلىٰ الأَمَلِ اُنْتِهاءُ
ولٰكِنْ عَدَّلُوا مِنْهَا[2] حِساباً لَهُ فِيما دَعَوْكَ لَهُ قَضاءُ
كما زَجَرُوا مِنَ اُسْمِ أَبِيكَ فَأْلاً فَرُدَّتْ فِيهِ قَبْلَ الزَّايِ رَاءُ
وخَوَّلَ فَأْلُهُمْ بِكَ فَانْتَحاهُمْ بِهِ أُكُلٌ وظِلٌّ واُجْتِناءُ
فَذَكِّرْ وَادَّكِرْ جِيرانَ بَيْتٍ بِبَيْتٍ فيهِ لِلكَرَمِ اُقْتِداءُ
وفيهِ للنُّهٰى حَكَمٌ وحُكْمٌ وللنُّعْمٰى قضاءٌ واقْتِضاءُ :
« إِذا نَزَلَ الشتاءُ بِجَارِ بَيْتٍ تَجَنَّبَ جارَ بَيْتِهِمْ الشِّتاءُ »[3]

---

(١) في الأصل : له بهم ، وقد آثرنا قراءة « الذخيرة » فهي أكثر اتساقاً مع المعنى المقصود .

(٢) في الذخيرة : منه .

(٣) هذا البيت للحطيئة أبي مليكة جرول بن أوس العبسي (انظر ديوان الحطيئة بشرح أبي الحسن السكري وتحقيق الأستاذ أحمد بن أمين الشنقيطي – مطبعة التقدم – بدون تاريخ ص ٢٧) ؛ والشتاء : يقصد به القحط .

وله أيضاً رحمه الله تعالى

بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ، صلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَسَلَّمَ تسليماً .

يا سِراجِيَ المُنيرْ ، في مُظْلِماتِ الأُمورْ ، ولوائِيَ المنشورْ ، لعادِياتِ الأُمُورْ ، وعَتادِيَ المذخورْ ، لِمُلِمَّاتِ الدُّهُورْ ، واللهُ جارُكَ أكرَمُ مُجيرْ ، مِنْ نَكَبِ الجَدِّ العَثُورْ ، بِجارِكَ المُسْتَجيرْ ، لِنَجْمِ حُرْمَتِكَ ألاَّ يَغُورْ ، ولِكَوْرِ نِعْمَتِكَ ألاَّ يَحُورْ ، مُسْتَقْدِماً في عنانِ السُّرورْ ، إلى أكْلاَءِ العُمْرِ المَعْمُورْ ، بِطيبِ ذِكْرِكَ المأْثورْ ، ومستجزِلاً لبلائِكَ المشكورْ ، أجزَلَ جزائِهِ الموفُورْ في غياضِ نِعَمْ ، تَغْدِقُ عليكَ بماءِ النعيمْ ، ورياضِ كَرَمْ ، تَعْبَقُ منكَ بالخُلُقِ الكريمْ ، حيثُ أخصَبَ المَرْتَعْ ، بالمُريحِ والمُسيمْ ، وأعْذَبَ المَشْرَعْ ، بالمُجْتازِ والمُقيمْ ، فكيفَ بهائِماتِ الهُمُومْ ، تحت غَمَّاءِ الغُيُومْ ، أدْجَى من الليلِ البهيمْ ، وأحْمَى من حَرِّ السَّمُومْ ، تهيم إليكَ بأحشاءِ الظِّماءِ الهِيمْ ، وتحومُ عليكَ بِذَماءِ الكاظِمِ المَحْرُومْ ، قد أخلَفَتْهُ دَوالِحُ (١) الغيومْ ، وأخْوَتْ له مَجادِحُ (٢)

---

(١) السحابة الدالحة : هي المثقلة بالماء .

(٢) مجادح النجوم ، أنواؤها جمع مجدح (بكسرة فسكون ففتحة) ، وقيل المجدح هو : نجم كانت العرب تزعم أنها تمطر به .

النُّجومْ ، وعَرَّج عنه الصِّراطُ المُسْتقيم ، بِكُلِّ صديقٍ حميمْ ، فأيُّ موجودٍ أَوْجَدُ منه المعدومْ ، / ومحمودٍ أَحْمَدُ منه المَذْمُومْ ، كم له في معالِمِ [٨٨م] العُلُومْ ، من فخرِ مقامٍ معلومْ ، وفي مكارِمِ المَلِكِ الكَرِيمْ ، من حُرِّ مقالٍ منظومْ ، قد أَبى لسَلَفِ الآباءِ ، إلا خُلُودَ البقَاءِ ، وكم بَنَى لخَلَفِ الأَبناءِ ، من مَشيداتِ البِناءِ ، وكم سَمَا في شَرَفِ العلياءِ ، ببُنُودِ الثناءِ ، ثم انثنى مرفوعَ اللِّواءِ ، لِلَوَاحِقِ اللَّأْوَاءِ ، ضاحِياً بالبيداءِ ، لبَوَائِقِ الأَعْدَاءِ ، مَنْبُوذاً بالعَرَاءِ ، في رَمَضِ الرَّمْضَاءِ ، مُهَجِّراً بالضَّحاءِ ، لِهَجْرِ الأَوْلياءِ ، لا يَفِيءُ عليه فَيْءُ الوفاءِ ، ولا يتوخَّاهُ رَعْيُ الإِخاءِ ، في أَيَّامٍ تَعُمُّ بالنَّعْمَاءِ ، وليالٍ تسري بالسَّرَّاءِ ، وهو منها في بابِ النَّفْيِ والاسْتِثْنَاءِ ، لا في بابِ الإيجابِ والجزاءِ ، يَرفَعُ البأساءِ ، بفادِحِ الضَّرَّاءِ ، ويَكْحَلُ بِعوَارِ الأَقْذَاءِ ، رَمَدَ العَيْنِ العَشْوَاءِ ، مُحْرِمَةً في تَذَلُّلِ الإِغضاءِ ، مُحْكَمَةً في قِتالِ الأَكْفَاءِ :

[من المتقارب]

وأَهْدِ بها في الفَلاَ والسُّرَى ... ويَوْمَ التَّلاقِي وحِينَ الثَّوَاءِ

وتحتَ العَجاجِ ووَسْطَ الهِياجِ ... وفي بحرِ آلٍ وفي بحرِ ماءِ

وأَوْصِلْ بها لأَصيلِ العَشِيِّ ... بقَرْنِ الضُّحى والضحى بالمساءِ

وفاءً لنفسٍ أَمَدَّتْ سناها ... بنورِ النهى وبنارِ الذَّكاءِ

وهَدْيٍ هَداها سبيلَ العفَافِ ... ورأْيٍ أَراها هُدَى كلِّ رَاءِ

كما قد وَفَيْتُ لها حينَ مُجْتُ ... بِغُلَّتِهـــا في عُبابِ الوفاء
ينـابيعُ مجـدٍ سقَتْ نبعةً ... من الفضلِ دانيةَ الإجْتِناء
زكا تُرْبُها في ثَرَى المأْثُراتِ ... فأينعَ إثمـارُها بالزَّكاء
فأضحَتْ تَثَنَّى برُوحِ الثَّناء ... وينمي لهـا عُنصُرُ الإنتِمـاء
فكم أفرَجَتْ عن نجومِ السُّعُودِ ... وكم أغمَضَتْ من نُجُومِ الشَّقاء
وكم ظَلَّلَتْ من حَريرٍ (١) الهجيرِ ... وكم أنْزَلَتْ من طريدِ العِشاء
رياضاً تفوحُ بِطِيبِ الفَعالِ ... وزَهْراً يلوحُ بِبِشْرِ اللِّقـاء
ونادَيْتَني بِضَمانِ النَّدى ... وحَيَّيْتَني بحيـاةِ الرَّجاءِ
بما اسْتُحْفِظَتْ من حفاظِ الجِوارِ ... وما أَبْلَيَتْ من حَميدِ البلاءِ
[٨٨ب] / يجامِعُهـا شَمْلَ حِلْمٍ وعِلْمٍ ... وهادٍ لها شُكْرَ دانٍ وناءِ
ومن وَلَدَتْ من كريمِ النِّجارِ ... ومن أرْضَعَتْ بلبانِ الدَّهاءِ
رعَى حَقَّ ما استودَعَتْهُ المساعِي ... فأَوْدَعْنَهُ رَعْيَ خيرِ الرِّعاءِ
ونادَتْ به دَوْلَةُ السَّبْقِ: حَيَّ! ... فأَعْدَتْهُ بالسَّبْقِ قبلَ النِّداءِ
تُجيبيَّةٌ جابَ عنهـا الرَّدى ... كَجَوْبِ المُهَنَّدِ مَتْنَ الرِّداءِ
حقيقُ النَّصيحَةِ أنْ يَسْتَثيرَ ... لها الدُّرَّ من تحْتِ رَدْمِ الغُثَاءِ
وألاَّ يُخَلِّيَ في ظِلِّهـا ... ذَليلَ الذِّمامِ عَزيزَ العَزاءِ

(١) الحرير يقصد به: المحرور أي الذي أرهقة الحر.

فَبَشَّرَ عنها بِبَذْلِ الغِنَى   وأعذر فيها ببذل الغناءِ
لِمُنْزِلِهِ مَنْزِلَ الإِخْتِصاصِ   ومُلْبِسِهِ شُرْطَةَ الإِعْتِلاءِ (١)
ومُعْتَدِّ أقلامِهِ للكِتابِ   كتائِبَ مُشْتَرِفاتِ اللِّواءِ
مليكٌ تواضَعَ في عِزِّ مُلْكٍ   كما دَهْرُهُ حُلَّةَ الكِبْرِياءِ
مُقَلَّدُ سَيْفِ الهُدٰى والهوادي   مُتَوَّجُ تاجِ السَّنَا والسَّناءِ
وأغْزٰى جيوشَ نداهُ القلوب   فجاءَتْهُ مُذْعِنَةً بالسِّباءِ
وخاصَمَ في مُهَجَاتِ الأعادِي   فأُعطِيَ بالسيفِ فَصْلَ القضاءِ
كأنَّ الأمانِيَ مَنٌّ عليه   فلا آيِبٌ دونَ ضِعْفِ الجزاءِ
فَلَبَّيْكَ لا مِنْ بَعيدٍ ولكنْ   عَذيرَكَ من مُعْذِراتِ الحَياءِ
حَمٰى فاحْتَبٰى بفناءِ اُخْتِلالِي   فباعَدَ بيني وبينَ الحِباءِ
وقَنَّعَ وَجْهِي قِنَاعَاتِ حُرٍّ   فَقَنَّعَ دُونِي وُجُوهَ العَطاءِ
وآزَرْتُهُ بالتَّجَمُّلِ حَتّٰى   طَوَيْتُ صدٰى ظَمَإٍ عَنْ سِقاءِ
أميرٌ عَلَى ماءِ وَجْهِي ولكِنْ   فِداهُ بِعَيْنَيَّ ماءٌ بماءِ
فأرْصِدَ هذا لِحُرٍّ كريمٍ   وأُسْبِلَ ذا طَمَعاً في الشِّفاءِ
فقد حانَ من بُرَحاءِ الضُّلوعِ   رحيلٌ تَنَادٰى بِبَرْحِ الخَفاءِ
عَلَى ذُلُلٍ من مطايا الشئونِ (٢)   قَطَعْنَ إلَيْكَ عِقالَ الثَّواءِ

(١) يشير ابن دراج هنا إلى تولي ممدوحه خطة « الشرطة العليا » ، وقد كانت من أكبر المناصب الإدارية في الأندلس .
(٢) أي الدموع .

عواسِفَ يَهْمَاءَ من غَوْلِ هَمِّي ... يُقَصِّرُ عَنْهَا ذَمِيلُ النِّجاءِ[1]

جَدَلْتُ أَزِمَّتَهـَا مِنْ جُفُونِي ... وصُغْتُ أَخِسَّتَهَا[2] من دَمَائِي

[٨٩ م] / وأَنْعِلُهـَا قَرِحاتِ المـآقِي ... فأَخْصِفُهـَا[3] بنَجِيعِ الدِّماءِ

فَمُنْجِدَةٌ في مَجَالِ النِّجادِ ... وغائِرَةٌ في غُرورِ[4] الرِّدَاءِ

فكَمْ قد شَقَقْنَ سَلَى[5] عن سَليلٍ[6] ... وأَجْهَضْنَ[7] عن مُسْتَسِرِّ الوِعاءِ[8]

---

(١) العواسف أي التي تسير في الصحراء بغير قصد ولا هداية ، واليهاء هي المفازة لا ماء فيها ولا يهتدى لطرقها .

(٢) الأخسة جمع خسيسة ، وخسيسة الناقة أسنانها دون الإثناء ، ويقال جاوزت الناقة خسيستها وذلك في السنة السادسة إذا ألقت ثنيتها .

(٣) خصف الجلد هو مظاهرة بعضه على بعض وخرزه .

(٤) الغرور جمع غر (بفتح الغين) وهو للرداء والجلد تثنيه وغضونه .

(٥) السلى هـو لفافة الجنين وهـو الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه .

(٦) السليل من معانيه السيف وكذلك ما سل من قشره أي نزع ، ومنها وسط الوادي حيث يسيل معظم الماء .

(٧) الإجهاض عن الشيء التنحية عنه والأصل فيه هو أن تسقط الحامـل ولدها قبل أن يستبين خلقه .

(٨) كذا ... ولم نتبين المعنى المقصود ، ولعلها « مستسر الرغاء » ، يقـال « أسرحسواً في ارتغاء » يضرب مثلا لمـن يظهر أمراً ويريد غيره ، والأصل في المعنى من يحتسي اللبن وهو يظهر أنه لا يريد إلا رغوته . وقد يكون أراد بالبيت إن هذه الدموع طالما جلبن عليه الراحة والأمن إذ كشفت له عمـا يتربص به من أهوال وأبدت له مدى نفاق الناس وإظهارهم غير ما يبطنون ، والمعنى مع ذلك غير واضح تماما .

وكم قد رَدَدْنَ حيـاةَ نُفوسٍ ظِماءٍ بِمَوْتِ نفوسٍ ظِمـاءِ
كأنَّ مَدَاهُنَّ في صَحْنِ خَدِّي ركابِيَ في صَحْصَحانِ[1] الفَضاءِ
تجوبُ التَّنَائِفَ خَرْقاً فَخَرْقاً وحاجاتُها في عُنُوِّ العنَاءِ[2]
بكُلِّ حزينٍ بِعالِي الْحُزُونِ ومُقْوٍ بكُلِّ بِـلادٍ قَوَاءِ[3]
ومُسْتَوْهَلٍ حُمَّ منهُ الحِمامُ لأوَّلِ وَهْـلَةِ ذاكَ التَّنَائِي
كأنَّ تجاوُبَ خُضْرِ الحَمَامِ نَشِيجُهُمُ لِتَغَنِّي الْحُـدَاءِ
وقـد أَوْطَنُوا أَرْبُعاً لِلْبِلَى وقـد وَطَّنوا أَنفُساً لِلبَـلاءِ
وكُلِّ خَلِيٍّ عن الإِنْسِ رَهْنٍ لِجَنْبَيْ خَلِيَّةِ[4] بَحْرٍ خَلاءِ
قريبَةِ ما بَيْنَ نِضْوٍ ونِضْوٍ بعيدَةِ ما بَيْنَ مَرْأًى وَرَاءِ
تمورُ بِضِعْفِ نُجُومِ الثُّرَيَّا لَوِ انْفَرَدَتْ بأَدِيمِ السَّمَاءِ
ثمانٍ كأسرارِ قَلْبِ الكَئِيبِ ورابِعَـةٌ كقِدَاحِ السِّرَاءِ[5]
مَطَالِبُهُمْ لِمَطَالِ الضِّمارِ[6] وآجالُهُمْ لاقْتِضَاءِ القضاءِ

---

(١) الصحصحان : ما استوى من الأرض .

(٢) الخرق : الفلاة الواسعة . والعنو : الحبس والتضييق .

(٣) المقوي : الفقير المعدم ، والقواء : هي المقفرة الخالية .

(٤) يشير هنا إلى السفينة .

(٥) لم نهتد لمعنى واضح لهذا البيت ، وقد يكون قصد بالسراء جمع سروة وهي نصل صغير قصير مدور وهو أدق ما يكون من السهام .

(٦) العطاء الضمار : هو الذي لا يرجى .

فهل آذَنَتْ هجْرَتِي أنْ تريني عواقِبَ تجْلو كُرُوبَ الجلاءِ
وهل ظَفِرَتْ هِمَّتِي من هُمُومي بِثأرٍ مُنيمٍ وَوِتْرٍ بَوَاءِ[1]
أَلَمْ يتَدَنَاهُ غُرُوبُ الغَرِيبِ إلى مَطْلِعِ الشَّمْسِ في الأنْتهاءِ
ولم أَتَّخِذْ جُنْحَ لَيْلِ المحاقِ جَناحاً إلى نُورِ لَيْلِ السَّواءِ
ولَمْ أتَزَوَّدْ هَبِيدَ القِفارِ إلى بَحْرِ أرْيِ جزيلِ العطَاءِ[2]
فَأصْبَحْتُ من ظُلَمِ الإكْتِئابِ عَلَى عَلَمٍ بَيْنَ قَرْنَيْ ذُكاءِ
وألْقَتْ يَمِيني عَصاَ الاغْتِرابِ من الأمْنِ بَيْنَ العَصاَ واللِّحاَءِ[3]
وأَوْطَنْتُ في قُبَّةِ المُلْكِ رَحْلِي بَيْنَ الرِّواقِ وبين الكِفاءِ[4]
وأَوْفَيْتُ سُوقَ النَّدَى والمعالي بِدُرِّ المقَالِ وحُرِّ الثَّنَاءِ
وقد شَهِدَ البَرُّ والبَحْرُ أنِّي بِقُرْبِ «ابْنِ يَحْيَى» مُجابُ الدُّعَاءِ
[٨٩ب] /وأنَّكَ أنْتَ الصَّرِيخُ السَّمِيعُ إذا صَمَّ مُسْتَمِعٌ عن نِدائِي
وأنَّكَ دُونِيَ طَوْدٌ مَنيعٌ على الدَّهْرِ مُسْتَصْعَبُ الإرْتِقَاءِ

---

(١) البواء هو السواء ، ويقال دم فلان بواء لدم فلان أي كفء له .

(٢) الهبيد : الحنظل ؛ والأري : الشهد .

(٣) قال أبو عبيد القاسم بن سلام : إنهم إذا أرادوا أن صاحب الرجل موافق له لا يخالفه في شيء قالوا : « بين العصا ولحائها » واللحاء : هو القشر .

(٤) كفاء البيت : هو مؤخره ، أو هو سترة تلقى على مؤخر البيت من أعلاه إلى أسفله .

وَأَنَّكَ أَنْتَ الشَّفِيعُ الرَّفِيعُ بِدَائِي إِلى مُسْعِفٍ بِالدَّوَاءِ
فكيفَ تَخَطَّتْ إِلَيَّ الرَّزَايَا ولَمْ أَخْطِ في مُسْتَجَادِ الوِقاءِ
وكَيْفَ اُعْتَصَمْتُ بِصَدْرِ الزَّمَانِ وصَدْرِي قِرَى كُلِّ داءٍ عَيَاءِ
وقَـدْ ضَرَّسَتْنِي حُرُوبُ الخُطُوبِ
وأَبْطَـأْتِ يـا نُصْرَةَ الأَوْلِيـاءِ
وعُرِّفْتُ في نَـكَبَاتِ الزَّمانِ بِكُنْـهِ الصَّدِيقِ ومَعْنَى الإِخاءِ
فوا قَدَمِي من سلاَمِ العِثارِ ويا أَلَمِي من سِهامِ الجَفَاءِ
وما أَبْعَدَ القَفْرَ عن عَيْنِ رَاءٍ وما أَقْرَبَ الوَقْرَ[1] من سَمْعِ نَاءِ
ويا طُولَ ظِمْئِي لِخَمْسٍ وعَشْرٍ طريدَ الحياضِ بعيدَ الإِضَاءِ[2]
كأَنِّيَ بِعْتُ التُّقَى بالنِّفَـاقِ فـلا هٰـؤُلاءِ ولا هٰـؤُلاءِ
وكم عُقِرَتْ دونَ عُقْرِ الحياضِ سَوَامِي وأَزَّتْ أَمامَ الإِزاءِ[3]
فَرُحْتُ بها مُخْمِصاً في البِطانِ وأَصْدَرْتُهـا مُظْمِئاً في الرِّواءِ

---

(١) في الأصل « الوفر » ولعلها كما أثبتنا ، والوقر هو ثقل السمع . ويقصد بالبيت أن القريب الذي يشاهدني خلي الذهن عمـا تجشمته في رحلتي في الفلوات من أهوال ، أما البعيد فما أجدره بأن يكون أقـل إدراكا لذلك وأكثر صمما من أن يجيب دعوتي أو يستمع إلى ندائي .

(٢) الإضاء جمع أضاة وهي الغدير .

(٣) الأز : هو التهييج والحث الشديد ؛ والإزاء : هو مصب الماء في الحوض .

وأَرْعَيْتُ سعدانَ « سَعْدِ السُّعودِ »[1]

نِواءِ[2] المُنى وصَفَايـا الصَّفـاءِ

وأَقْوى فأَنْحَرُ حَرْفاً سِنَاداً	وأَرْعى فأَحْلُبُ شَطْرَ الإناءِ[3]
بِسَبْعٍ كَسَبْعِ سَمامِ السَّمُومِ	وأَرْبعَـةٍ كَرُبُوعِ العَفَـاءِ[4]
يُفَدُّونَ نَفْسِي منَ الحادِثاتِ	ومالِي ولا لَهُمُ مِنْ فِداءِ
وكَمْ ضَرَبُوا بِقِداحِ الْحُنُوِّ	عَلَيَّ ففـازُوا بِقِسْمٍ سَوَاءِ
وقد أَسلَمَتْهُمْ سمائِي وأَرْضِي	فلا مِنْ ثَرَاي ولا من ثَرَائِي
فيا ضِيق ذَرْعِي لهُمْ بالزَّفيرِ	عَلَى ضِيقِ ذَرْعِي بِضِيقِ الشِّتاءِ
وقد آذَنَتْهُمْ يَدِي واضْطِلاعِي	بِعُـدْمِ الوِقاءِ لهمْ والصِّلاءِ
فما بِسِوى حَرِّ تلكَ الصُّدُورِ	يُوَقَّوْنَ من بَرْدِ هذا الهواءِ
وإنْ راعَتِ الأَرضُ منهُمْ جُنُوباً	تَسَلَّوْا بِرَعْيِ نجومِ السَّماءِ

(١) السعدان : نبت ذو شوك ومنبته سهول الأرض وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبا ، وعليه تسمن الابل وتطيب ألبانها ، ويقال في المثل : « مرعى ولا كالسعدان » . أمـا « سعد السعود » فإن ذلك هو اسم أحـد منازل القمر (انظر المخصص لابن سيدة ٩/١٠) .

(٢) نواء : أي سمان جمع ناوية وهو مشتق من نويت الناقة أي سمنت .

(٣) الحرف : الناقة الصلبة المشبهة بحرف الجبل ، والسناد : الشديدة الخلق ؛ وما ورد في هذا البيت وسابقه كناية عن الخصب والرغد بقرب ممدوحه .

(٤) لعله يشير في هـذا البيت إلى أبنائه الأربعة وبناته السبع ، أما قوله « سمام السموم » ، فربما كان تشبيها لهن بالسمام وهو ضرب من الطير نحو السمانى ، أي إنهن مثل هذه الطيور التي عصفت بها ريح السموم فطردتها عن أوكارها .

/ لا غَبُوقَ دونَ الشِّعْرَيَيْنِ ، ولا صَبُوحَ إلا بالسِّماكَيْنِ ، ولا مُسْعِدَ [ز=٨٩ب]
غيرُ الفرقَدَيْنِ ، لأَنجمٍ مطالِعُهَا [سَوَادُ][1] المُقْلَتَيْنِ ، ومغارِبُهَا سَوَاءُ
الشَّغَافَيْنِ في[2] . . . .

/ الليل والنهار رايتَيْنِ ، ففتق الإظلام بسراجَيْنِ ، وفَلَقَ الإصباحَ[3] [ق=٢١]
بفجرين ، جعل يديه في الجهاد يمينين ، مَدَّ بهما على الإسلام أمنَيْن ،
وفي المعروف يسارين أجزتا في العسر وَعْدَ اليسرين ، وإن تَأَنَّى الميسورُ
عند تناهي المعسور ، فاعترض القدر المقدور عَلَى ما خَيَّلَ التقدير ، في
ما أَهَلَّ به البشير ، وتهادت التباشير، من مطالع القمر المنير، الذي برقت
به القصور، وتأَلقت له الدهور، فأَحدقت بالإسلام سوراً إلى سور، وأشرقت
بالأَيام نوراً عَلَى نور ، وأنت أَزكى شهيد خبير ، بمقامي المشهور ، وثنائي
المأْثور ، فلعلَّ في عواقب الأُمور ، شفاءً لما في الصدور ، وفي رجاء الملك
المنصور ، جَزَاءَ صبَّارٍ شَكُور ، وفي حسن ظني أَنْ لَنْ تَحُور[4] ، تجارةُ

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل مثبتة في الحاشية .

(٢) يتلو نهاية هذه الورقة (رقم ٨٩) خرم ورقة واحدة (رقم ٩٠) وفيه ذهب آخر تلك الرسالة وأول القصيدة القافية الواردة بعد .

على أننا وجدنا الجزء الأكبر من هـــذه الورقة الساقطة في قطعة مكتبة القرويين التي سبق أن أشرنا إليها ، وفيها معظم بقية الرسالة التي تلي هذه القصيدة الهمزية وأول القصيدة القافية الواردة بعد ، فعملنا على استكمال ذلك من قطعة مكتبة القرويين المذكورة (ص ٢١ – ٢٢)

(٣) هاتان الكلمتان غير واضحتين في الأصل .

(٤) أي تنقص .

ربحٍ له لن تبور ، بل لا جَرَمَ أَن تَتَنَاسَبَ الأَحوال ، تناسُبَ الأَشكال، وتتشاكَهَ الخِلال ، تَشَاكُهَ الأَمثال، فيجرى تأْخيرُ الصِّلاتِ على أُمنيَّةِ النفسِ ، عند تأْخير الصَّلاة حين مطلع الشمس ، فهل بعد انفساح الأَوقات ، وامتداد الساعات، إلا أَذَانُ الرَّغَبَات ، وتثويبُ الطَّلِبات ، حَيَّ عَلَى صَلاة الصِّلات ، حَيَّ عَلَى فلاح المكرمات ، مِمَّنْ قَدَّمَكَ إماماً في الحاجات ، وشفيعاً في الحسنات ، مهدياً للتحيات الطيبات ، ومستهدياً لنوافل الخيرات ، كَهَدْيِكَ إلى القُرُبَاتِ المقبولات ، في الأَنْعُمِ السَّابغات ، على نفوسٍ قلقات تائبات ، أَيامها كالجُمُعَات ، وقلوب أَذِناتٍ مصغيات ، شهورها كالسنوات ، بما يتناوبها من عَضِّ النائبات ، ويحادثها من مَضِّ الحادثات ، فلأَوانٍ ما آن للذكرى أَن تَنْفَع ، ولِحِينٍ ما حانَ(١) للشكوى أَن تُسْمَع ، من لسان تَضَرَّع(٢) بجوى قلبٍ يتصدَّع ، وأَجفانٍ تَهْمَع ، عن شجا نفسٍ تتقطع ، ولِلهِ أَيُّ بابٍ لمن قرع ، وأَيُّ داعٍ لمن سمع ، ما أَقرب المرتع ، مِمَّن انتجع ، والصريخ ممن فَزِع ، وسَعْدَ السُّعودِ من سَعْدِ بُلَعْ(٣) ، بل حَسْبُكَ الله الذي خلق فأَبدع ، وأَتقن
ق=٢٢ ما صنع ، وأَرَاكَ أَن حَقَّ الجوارِ مما شرع ، / والشفاعةَ الحسنةَ مِمَّا أَبدع ، والكَلِمَ الطيب مما رفع ، فرفع ذكرك لِتَرْفَع ، وشَفَّع قدرك لِتَشْفَعَ ، كما وسَّع صدرك لِيَسَع ، عُذْرَ من شَجَّه الدهر فأَفظع ، ومسَّهُ الضُّرُّ فأَوجع ،

(١) في الأَصل : حاز .
(٢) في الاصل : تصدع .
(٣) سعد السعود وسعد بلع : منزلان من منازل القمر .

فإنْ نازع فكان من المُفْحَمين ، أو ساهَمَ فكان المُدْحَضين ، فَحَسْبُ من وَكَّلَ إلى أرحم الراحمين ، وأسلم إلى خيرِ الرازقين ، فَتَوَكَّلَ صِدْقَ اليقين ، عَلَى من يحب المتوكلين ، واُشتمل في حسن الظنون ، إلى من لا يضيع أَجر العاملين، وحسبي الله عليه توكلتُ وهو رب العرش العظيم .

— ٨٧ —

وله بقرطبة في بعض الوزراء وكان أنهض ابنه من العرض إلى الشرطة

[من البسيط]

هَلْ يَجْهَلُ السَّمْتَ من يَسْتَوْضِحُ الطُّرُقا ... أَوْ يُبْعِدُ الشَّمْسَ من يَسْتَيقِنُ الفَلَقا
قد خَبَّرَتْ دوحَةُ المجدِ الَّتِي كَرُمَتْ ... عَنْ مُعْتَلىً ذلك الغُصْنِ الذي بَسَقا
للهِ عَيْنٌ رأَتْهُ وَهْوَ بدرُ دُجىً ... يوماً أَهَلَّ فجلَّى نورُهُ الأُفُقَا
وكم رأينا وجوهَ الروضِ ضاحكَةً ... في رائحٍ راحَ أَو في بارِقٍ بَرَقَا
أَنجبتَهُ يا وزيرَ المُلْكِ مُدَّخَراً ... لفَجْأَةِ الخطبِ إن غادىً وإن طَرَقَا
وفارساً لِغِمارِ الرَّوْعِ مقتحِماً ... وصارِماً في يمينِ الملاكِ مُؤْتلِقا
وقد يُرىً في نواحي المهدِ مُبتَدِراً ... إلى الطِّعانِ وكَرَّاتِ الوَغىً قَلِقَا
تُدْنىً ملاعِبُهُ منه فلَيْسَ يُرىً ... غَيْرَ السِّنانِ وغيرَ الرُّمْحِ مُعْتَلِقَا

لِلبرِّ أوَّلُ ما قامَتْ به قَـدَمٌ سعياً وللحَقّ أولىٰ نَطقَةٍ نَطَقَا
حتىٰ غَدا بكـتابِ الله معتصِماً يُحْبىٰ بحُظْوَةِ عِزٍّ كُلَّمَا حَذِقَا
[٩١ م] / ثُمَّ اسْتَمَرَّ إلى العلياءِ مُقْتَحِماً مَعَاقِلَ الفخرِ لا نِكْساً ولا فَرِقَا
تلقاهُ مِنْ دُونِهَا الأَيَّامُ مُتَّئِداً بالجِـدِّ مُشْتَمِلاً بالحَزمِ مُنْتَطِقـاَ
وقد أحاطَتْ[1] أزاهيرُ النعيمِ بِهِ فصَيَّرَ العِلْمَ فيها رَوْضَهُ الأَنِقـاَ
وما غَدَا غَيْرَ كأْسِ المَدْحِ مُصْطَبِحاً ولم يَرُحْ غيرَ كأْسِ المَجْدِ مُغْتَبِقَا[2]
مُفَجَّرَ الـكَفِّ جُوداً والجبينِ سَنَاً ومُفْعَمَ الجَيْبِ نُصْحاً والضَّميرِ تُقىٰ
قد شَرَّدَ الظُّلْمَ عن أَوطانِ شيمَتِـهِ فَلَمْ يَدَعْ مِنْكَ [لاَ][3] خَلقاً ولا خُلُقَا
حتىٰ فرايتك[4] اللاتِي سَمَوْتَ لهَـاَ قدحازَهَا مِثْلَمَا قد حُزْتَهـــاَ نَسَقَا
وما انْثَنىٰ الأَملُ المُعطِي رغائِبَـهُ فيـهِ ولا وَقَفَ الظَّنُّ الذي صَدَقَا
حتىٰ يُوَفَّ الَّذِي وُفِّيتَ في عَجَـلٍ ومِثْلُهُ إنْ سَعىٰ في مِثْلِهاَ لَحِقـاَ
فقد رَأَتْ أَنَّـهُ حقّاً له خُلِقَتْ كما رأى أنَّـهُ حَقّاً لها خُلِقـــاَ
مُشَيَّعُ السَّعْيِ لم يُبْهَرْ له نَفَسٌ حتىٰ أتىٰ الغايَـةَ القُصْوىٰ وَقَدْ سَبَقَا

---

(١) في الأصل : حاطت ، ولا يستقيم بها الوزن .

(٢) في الأصل : معتنقا ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٣) إضافة يقتضيها الوزن .

(٤) كذا ، ولم نهتد إلى وجه في تأويلها ، ولعلها تحريف لكلمة « براياتك » أو « لراياتك » .

ما احتازَ ذُو هِمَّةٍ في المَكْرُمَاتِ مَدًى بِمُجْهَدِ الشَّأْوِ إلا أَحْتَازَهُ عَنَقَا[1]

لم يَأْنِ أَنْ يَعْلَقَ البيضَ الحِسانَ وَقَدْ أَضْحَى فؤادُ العُلاَ صَبًّا به عَلِقَا

وَلاَ انْثَنَى لِعِنَاقِ الخُودِ بَعْدُ وَقَدْ يَبِيتُ للشُّرْطَةِ العَلْيَاءِ مُعْتَنِقَا[2]

غَرَّاء راحَتْ عليهِ وَهْوَ بُغْيَتُهَا فَأَصْبَحَ الدهرُ من أَنفاسِهَا عَبِقَا

وأَصْبَحَ العَرْضُ في آثارِهِ أَسِفاً يُعَلِّلُ النَّفْس أَنْ تَسْتَبْقِيَ الرَّمَقَا

إِنْ يُشْجَ أَلاَّ يُسَمَّى عارِضاً أَبَداً يُسَلِّهِ أَنْ يُسَمَّى عارِضاً غَدِقَا

فالحَمْدُ للهِ راحَ الغُصْنُ مُعْتَلِياً والسيف مُنْصَلِتاً والبَدْرُ مُتَّسِقَا[3]

مَنًّا من اللهِ والمولى الَّذي مَطَرَتْ سماؤُهُ الدُّرَّ بَلْهَ التِّبْرَ والوَرِقَا

مُسْتَيْقِناً أَنَّ شَمْلَ المُلْكِ مُجْتَمِعٌ يوماً إذا كان شملُ المالِ مُفْتَرِقَا

---

(١) العنق من السير : هو المنبسط السهل .

(٢) الإشارة في هذا البيت والأبيات الثلاثة التي تليه إلى منصبين هما : الشرطة العليا ، والعرض . ويبدو أن ممدوح ابن دراج في هذه القصيدة كان يتولى « خطة العرض » ثم نقل منها إلى « الشرطة العليا » ، وأن القصيدة نفسها إنما قيلت في تهنئته بذلك . أما خطة الشرطة فقد كانت في الأندلس على عهد الدولة الأموية على ثلاث طبقات : العليا والوسطى والصغرى (انظر ما كتبه عن هذه الوظيفة ليڤي بروڤنسال : تاريخ إسبانيا الاسلامية ٣ / ١٥٣ — ١٥٨) ؛ وأما «خطة العرض» — وكان متوليها يسمى « صاحب العرض » أو « عارض الجيش » أو « العارض » فقط — فقد كانت وظيفة إدارية عسكرية ، وكان القائم بها يتولى إعطاء الجنود رواتبهم وأسلحتهم ومؤنهم كما كان المكلف بالاشراف على الحملات العسكرية وإعدادها (انظر ليڤي بروڤنسال : نفس المرجع ٣ / ٨٧ — ٩١) .

(٣) في الأصل : منسقا .

— ٨٨ —

وله أيضاً رحمة الله عليه

[من المتقارب]

عَرَفْتُ عوارِفَكَ السَّابِقــاتِ ... بوَادِي السَّنا واضِحاتِ السِّماتِ

وما كِدْتُ أَبْسُطُ لَحْظَ الغريبِ ... وما آنَ حَلِّي عِقَالَ الأناةِ

وبَيْنَا أُرَاقِبُ نَشْءَ السَّحـا ... بِ هَبَّتْ رِياحُكَ لي بالهِباتِ

وما كادَ يَنْصُفُ لَيْلُ الهُمُومِ ... أَنارَ صَبَاحَكَ لي في البَيَاتِ

٩١ ب] / فَوَفَّرْتُ في الوَجْهِ ماءَ الحياءِ ... بِداراً إليهِ بماءِ الحَيـاةِ

فكَيْفَ وقد راقَ شُكْرِي عَلَيْكَ ... وأَوْثَقْتَ لي منكَ رَهْنَ العِدَاتِ

فهـذا أَوانُ أذانِ الغِداءِ ... وقد حانَ منا إقامُ الصَّلاةِ

وهذا إمامُ الهُدىٰ مُنْصِتٌ ... إلى دَعْوَةِ الدِّينِ والمَكْرُمَاتِ

— ٨٩ —

وله أيضاً رحمة الله عليه

[من المجتث]

اِقْبَلْ ثَنَاءً وشُكرًا ... وازدَدْ بقــاءً وعُمْرًا

وليَهْنِكَ المَجْدُ لبساً والحمد كَنْزاً وذُخْرَا
فما دَجَا لِيَ خطبٌ إلا لَمَحْتُكَ فَجْرَا
ولا دعوتُكَ سِرّاً إلا وَجَدْتُكَ سِتْرَا
وإن تَضَرَّمَ صَدْرِي حَرّاً وجدتُكَ حُرَّا
كما وَجَدْتُكَ حُلْواً إذْ ذُقْتُ دهرِيَ مُرَّا
فلا تَزَلْ فوقَ ما كُنْـــتَ لِي مَعَ العُسْرِ يُسْرَا
وكُنتَ أمسِ سَرِيّاً واليَوْمَ أَسْرىٰ وأَسْرىٰ
وكُنْتَ تعدِلُ واليَوْ مَ أَنْتَ بالعَدْلِ أَحْرىٰ
فاحكُمْ كما حَكَمَ اللّـــهُ حِينَ زادَكَ فَخْرَا
وزِدْ فَعالَكَ قَدْراً إذ زادَكَ اللهُ قَدْرَا
فقد طَلَعْتَ هِلالاً واليوم أَمْسَيْتَ بَدْرَا
فكيفَ أَرضاكَ بحراً كما رَضِيتُكَ نَهْرَا
وكيف يَجْرِي جوادٌ كما جَرىٰ قَبْلُ مُهْرَا
وقد بـــدأْتَ بِبِرٍّ فأَتْبِعِ البِرَّ بِرَّا
وزِدْ على الباءِ رَفْعاً(1) يَرْفَعْ لكَ اللهُ ذِكْرَا

(1) يقصد كلمة «البر» برفع الباء، ومعناها القمح.

— ٩٠ —

وله أيضاً رحمه الله في الصبا

[من الطويل]

سأَمْنَعُ قَلْبِي أن يَحِنَّ إلَيْكِ ... وأَنهى دموعِي أن تَفِيضَ عَلَيْكِ
أَغَدْراً ولم أَغدِرْ وخَوْفاً ولم أَخُنْ ... لقد ضاعَ لي صِدْقُ الوفاء لَدَيْكِ
بفعلكِ عِيبَ الحسنُ عندي وإنْ غَدَتْ ... مهاةُ النَّقَا والشَّمْسُ مُشْتَبِهَيْكِ
أَصُدُّ بوجهي عن سَنَا الشَّمْسِ طالِعاً ... لأنْ صار مَنْسُوبَ الصِّفاتِ إلَيْكِ
وأَسْتَفْظِعُ الشُّهْدَ اللذيذَ مَذَاقُهُ ... لِمَطْعَمِهِ الموجودِ في شَفَتَيْكِ
وأَصرِفُ عن ذِكْرَاكِ سمعي ومَنْطِقِي ... ولو نازَعَتْنِيها حَمامةُ أَيْكِ
ولو عَنَّ لي ظَبْيُ الفَلاَ لاَجْتَنَبْتُهُ(١) ... لِتِمْثالِ عَيْنَيْكِ وسالِفَتَيْكِ

— ٩١ —

وله أيضاً رحمه الله في نحو ذلك

[من البسيط]

شَوْقٌ شديدٌ ووصلٌ من حَبِيبَيْنِ ... فلَيْتَ شِعْرِيَ ما خَطْبُ العَذُولَيْنِ ؟ !

---

(١) في الأصل : اجتنبته ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

وليت شِعْرِيَ إذْ لاما وشِعْرَهُمَا أفي السُّوَيْدَاءِ من قَلْبِي ومن عَيْنِي

وهل أُمَكَّنُ من أُذْنَيَّ عَذْلَهُمَا فيها[1] إذَا قامَ عُذْرِي في العِذارَيْنِ

/ وقد تَعَبَّدَنِي ربُّ الهوى فَبِهِ[2] أعوذُ من مُشْرِكٍ فيه إلٰهَيْنِ [٢٩٢م]

وليس ذنبِيَ عندَ العاذِلِينَ سِوىٰ أنِّي أرىٰ في رِضاهُ ثانِيَ اثْنَيْنِ

وكم طَلَبْتُ بها الأَيَّامَ مجتهداً طِلابَ ربِّ نفيسِ الدَّيْنِ بالدَّيْنِ

وكم بَذَلْتُ لها في الشَّوْقِ مكتئباً غُروبَ جفنَيْنِ ما تشكو من الأَيْنِ

بدمعِ عينٍ أبىٰ مافي الضميرِ لَهُ حتى يُصَيِّرَهُ دمعاً بلا عَيْنِ

— ٩٢ —

وله في المظفر يحي بن المنصور أبي الحكم رحمة الله تعالى عليهم

[من البسيط]

إقبالُ جَدِّكَ للإسلامِ إقبالُ وعزُّ نصرِكَ للإشراكِ إذْلالُ

ولا مُعَقِّبَ لِلْحُكْمِ الذي سَبَقَتْ به من اللهِ أحكامٌ وأفعالُ

أَحَقَّ حقَّكَ في الملكِ الذي ضَمِنَتْ ميراثَهُ لَكَ أملاكٌ وأقيالُ

وحَقَّ لِلْمَفْخَرِ[3] المرفوعِ مَعْلَمُهُ حَقٌّ وللباطِلِ المَجْهُولِ إبْطَالُ

(١) في الأصل : فيها ، ولا يتزن بها الشطر ، هذا وقد تكون أيضا : فيما .
(٢) في الأصل : فيه .
(٣) هذه الكلمة مطموسة في الأصل لاتبدو إلاّ بقايا من حروفها .

فاسْعَدْ بِملْكِ مفاتِيح الفتوحِ ولا خابَتْ [1] بِسَعْيِكَ للإسلامِ آمَالُ

ولا كَفَتْحٍ غَدَتْ أعلامُ دعوتِهِ ترسو به وكثيبُ الشِّرْكِ ينهَالُ

فَتْحٌ ـ كفاتِحِهِ في الخلْقِ ـ لَيْسَ لَهُ مِمَّا خَلاَ من فتوحِ الأرضِ أشكالُ

أَضْحَتْ به حُلَلُ الدنيا لنا جُدُداً ولِبْسُ والِي العِدىٰ والغَدْرِ أَسْمالُ

وشبَّ شيبانُنَا من ذِكْرِهِ فَرَحاً وشابَ من خِزْيِهِ في الشِّرْكِ أطفالُ

وغَنَّتِ الطيرُ في أغصانِهـــا طرباً وشَدْوُ طيرِ العِدىٰ والكفرِ إعوالُ

فَقُــلْ لرافِعِهـا بالغَــدْرِ أَلْوِيَةً حَسْبُ الرَّدىٰ والأعادي منك مانالوا

وقُلْ لمن أَخْلَفَتْهُ الوَعْدَ غَدْرَتُهُ : أَنْ [2] يُخْلِفَ القمرَ الوَضَّاحَ إكْمالُ

هيهاتَ أَشرقَ في جوِّ العُلاَ مَلِكٌ بالعَدْلِ والفَضْلِ قَوَّالٌ [3] وفَعَّالُ

للمُنىٰ كاسْمِـهِ مُحْيٍ ومُنْتَعِشٌ وللأَسىٰ والعِدىٰ والبَغْيِ قَتَّالُ

فَذٌّ المكارِمِ لا شِبْهٌ ولا مَثَلٌ والناسُ من بَعْدُ أشباهٌ وأمثالُ

وقد تَجَلَّىٰ إلى العلياءِ في حُلَلٍ للملكِ منهنَّ إعظامٌ وإجلالُ

وقابَلَ الدينَ والإسلامَ في شِيَمٍ في عفوِها من مُنىٰ الإسلامِ ماسألوا

وقُلْ لِمَنْ قَصَّرَتْ بالأُسْدِ خِبْرَتُهُ فشَكَّ أن يخلُفَ الرئبالَ رئبالُ

[٩٢ب] / صَبْراً لموقِعِ أظفارِ «المُظَفَّرِ» هَلْ يُحِيلُها عن حشاكَ اليومَ مُحْتَالُ

(١) في الأصل : خانت ، وما أثبتناه أقرب إلى الصواب .

(٢) كذا ، وربما كانت « لن » .

(٣) هذه الكلمة مطموسة في الأصل .

وقد طَمَتْ فوقه أمواجُ أبْحُرِهِ حتى تيقَّنَ أنْ قد غرَّهُ الآلُ

سفائِنٌ من خيولٍ مالها شُحَنٌ إلا سيوفٌ وأرماحٌ وأبطالُ

أبناءُ رَوْعٍ وأهوالٍ لِمَقْدَمِهِمْ في أعيُنِ الموتِ أَذْعارٌ وأهوالُ

ثُبْتُ المواقفِ لو زالت بأرجُلِهِمْ تحت العجاجِ متونُ الأرضِ ما زالوا

دَعَوْا إليكَ حصونَ الغَدْرِ فاسْتَبَقَتْ مثل النجومِ عَلَى يُمْناكَ تنثالُ

والموتُ قد عدَّهُمْ أُكْلاً له فقَدَتْ أعدادَهُمْ من بني الإشراكِ أبْدالُ

معاقِلٌ عَرَفَتْ يمنـاكَ فاعْتَرَفَتْ بذنبِ ما فعَلَ الغاوونَ أو قالوا

مُقِرة أنَّكَ المَوْلَىٰ المليكُ لها وأنَّها منكَ إنعـامٌ وإفضالُ

عَلَى الذي احتازَهَا مِنَّا فأوْدَعَهَا غُلاًّ فعادَتْ عليهِ وَهْيَ أغلالُ

ذو حُرْمَةٍ فالَ منها فَأْلُ طائِرِهِ قَلْبٌ غَوىٰ بحجاهُ عنكَ تَذْهَالُ

وكان فَأْلَ وقارٍ صَدَّ عنكَ بِهِ فارْتَدَّ طائِرَ طَيْشٍ ذلك الفالُ

صَعَقْتَ بالنَّصْرِ مثواهُ ومَوْطِنَهُ فَضُعْضِعَتْ منه غِيطَانٌ وأجْبَالُ

صَعْقاً رَمَتْ كُلَّ كُفْرٍ منه راجِفَةٌ وهَبَّ في كلِّ غدرٍ منه زِلْزالُ

وحَكَّمَ اللهُ يا «يَحْيَىٰ» سيوفَكَ في إحياءِ حَقِّكَ والموتورُ صَوَّالُ

فما يبيتُ نَجِيُّ الكفرِ مُرْتَقِباً إلا خيولَكَ في جفنَيْهِ تَخْتَالُ

ولا يراعي نجومَ الليلِ ذو حَذَرٍ إلا وقِرْناهُ[1] آجالٌ وأوجالُ

(١) في الأصل: وقرناة.

يبيتُ يُسْهِدُهُ [1] لَيْلُ السليمِ أسىً | بصاعِ خوفِكَ يَسْتَوْفِي وَيَكْتالُ
فإنْ تَخَطَّتْهُ منكَ اليومَ بائقةٌ | ففي غدٍ بَعْدُ حالٌ بعدَها حالُ
وإنْ أَقطعَ وَصَّالٍ لواصِلِهِ | غَدْرٌ لطاغيةِ الإشراكِ وَصَّالُ
فَافْخَرْ فما فَوْقَ ظهرِ الأرضِ من حَسَنٍ | في الذِّكرِ إلا عليهِ منكَ تِمْثَالُ
وأبْشِرْ فإنكَ رُوحُ الحقِّ ليس له | إلا مِنَ النصرِ أعضاءٌ وأوصالُ
واللهُ يحرُسُ مولًى ما يزالُ لنا | به إلى الفتحِ بعدَ الفتحِ إهْلالُ

وله اقتراحا من المنصور أبي الحكم رحمهما الله على تجول خلاليل النساء [2]

. . . . | . . . .

---

(١) في الأصل : فيسهده ، وبها يختل الوزن ، ولعل ما أثبتناه هو الصحيح .

(٢) يتلو هذا العنوان الذي تنتهي به الورقة رقم ٩٢ ورقتان تحملان رقمي ٩٣ و ٩٤ وهما تشتملان على أبيات تبدأ بقوله :

وما أنجدت فيه النجود تصبري | ولا اتهمت وجدى عليه التهائم

وتنتهي بقوله :

جهاد على الكفار بالنصر مقدم | ووجه على الإسلام بالفتح قادم

وقد سبق أن نبهنا إلى أن هاتين الوررقتين قد أخطىء ترقيمهما إذ أنهما ليستا إلا تكملة القصيدة الميمية التي ورد أولها في آخر الورقة رقم : ٤٣ ومطلعها :

لعل سنا البرق الذي أنا شائم | يهيم من الدنيا بمن أنا هائم

ولهذا فقد وضعنا الورقتين في مكانهما الصحيح وعلقنا على ذلك في موضعه (انظر ص ١٥٩ من هذا الديوان) ؛ ومما يدل على ذلك أن عنوان هذه الأبيات حسب —

[وله فيه أيضاً رحمهما الله]

[من الطويل]

غرامٌ ولا شَكْوىٰ وعَتْبٌ ولا عُتْبىٰ ... وشوقٌ ولا لُقْيَا وصبرٌ ولا عُقْبىٰ
وكم حَنَّ معشوقٌ وأَعْتَبَ عاشِقٌ ... وقلبُكِ ما أَقْسىٰ وقَلْبِيَ ما أَصْبىٰ
سأَصْدَعُ أَحناءَ الضُّلوعِ بِزَفْرَةٍ ... تُطِيرُ إِليكِ القلبَ لو أَنَّ لي قَلْبا
وأُسْبِلُ آماقَ الجفونِ بِعَبْرَةٍ ... وإِنْ حُرِمَتْ منكِ المودَّةَ في القُرْبىٰ
بِنِسْبَتِنَا في رِقِّ مولًى أَضافَنَا ... فَبَوَّأَنا الإِكرامَ والمنزِلَ الرَّحْبا
وحسبُكِ و« المَنْصُورُ » جامِعُ شَمْلِنا ... وكُنْتِ له شَرْقاً وكُنتُ له غَرْبَا
فَجَهَّزَ فِيَّ العِلْمَ والحِلْمَ والنُّهىٰ ... وجَهَّزَ فيكِ الخيلَ والطعنَ والحربَا
فَلَبَّيْتِهِ سَبْياً ولَبَّيْتُهُ مُنًى ... ودِنْتُ له سلْماً ودِنْتِ له حَرْبَا
فلا عدِمُ الإِسلامُ من عَزَمَاتِهِ ... سيوفاً بها نَسْبِي وُجُوهاً بها نُسْبىٰ

– ما كتب جامع الديوان وهو في الكلام عن « تجول خلاخيل النساء » لا يتفق مطلقا مع موضوع أبيات هاتين الورقتين ، ولهذا رجحنا أن تكون قد سقطت من هذا الموضع ورقة رمزنا إليها بالنقط الموضوعة في مكانها . أما القصيدة البائية التي تبدأ بها الورقة رقم ٩٥ فقد جعلنا لها عنوانا مناسبا وضعناه بين حاصرتين .

— ٩٤ —

وله أيضاً اقتراحاً منه عليه رحمهما الله على :
« أبلغ سلامة أن البين قد أفدا »

[من البسيط]

وَطِّنْ فؤادَكَ إن كان الرحيلُ غَدَا ... أَنَّ الأَسى إِلْفُهُ من بعدِهِمْ أَبَدَا
وأُندُبْ لتشييعِهِمْ حَرَّ الزفيرِ ضُحىً ... وابعَثْ دموعَكَ في آثارِهِ مَدَدَا
والنَّفْسُ إن لم تَمُتْ من بعدِهِمْ كَمَداً ... مات الوفاءُ عليها بَعْدَهُمْ كمدَا
كَحَدِّ سيفِكَ يا منصورُ إن سَلِمَتْ ... منهُ ملوكُ العِدىٰ ماتوا له حَسَدَا

— ٩٥ —

وله فيه أيضاً في رحمهما الله اقتراحاً على شعر آخر
غنَّيَهُ على : « مالي جُفيتُ وكنت لا أُجْفَى »

[من الكامل]

حاشىٰ لنارِ هواكَ أَنْ تُطْفَا ... ولِسِرِّ وَجْدِي فيكَ أَنْ يَخْفىٰ
غادَرْتَ إِلْفَكَ بالضَّنىٰ أَلِفًا ... فَرْداً وكُنْتَ لأُنْسِهِ إِلْفَا

حرفًا وصالٍ فصّلاَ بنَوىً ... كانَا بخَطٍّ يدِ الهوى حَرْفَا
فغدَوْتَ في طوعِ الوُشاةِ بنا ... صِنفًا سوايَ وكنتَ لي نِصْفَا
ورأيْتُ صَبْرِي كيفَ يَغْدِرُ بي ... ووَجَدْتُ منكَ مدامِعِي أَوْفَىٰ
أَلِذَوْبِ ما [في](1) فِيكَ من بَرَدٍ ... أَحْرَمْتَني من رِيقِكَ الرَّشْفَا ؟
وَلِعَطْفِ صُدْغَيْكَ اللذَيْنِ بِها ... أَعْدَمْتَنِي من نَيْلِكَ العَطْفَا ؟
وبِمَا كَسَتْكَ الشمسُ جَلْوَتَهَا ... قَصَّرْتُ عنكَ الوَهْمَ والطَّرْفَا
[٩٥ب]/ وأرىٰ « ابْنَ يَحْيَىٰ » فَوْقَ منزِلِهَا ... قَدْراً وفوقَ ضيائِهـا ضِعْفَا
والأَرْضُ من ذِكْرَاهُ قد مُلِئَتْ ... عَرْفًا ومن إفْضَالِهِ عُرْفا
ومعالِمُ الإِسلامِ ما بَرِحَتْ ... تَلْقَىٰ بزَحْفِ جُنودِهِ زَحْفَا

— ٩٦ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الكامل]

قُلْ لِلْهَوىٰ حُكِّمْتَ فَاحْكُمْ لِي ... لا تَصْلَ حَرَّ الهَجْرِ(2) من أَجْلِي

(١) إضافة يقتضيها الوزن وتمام المعنى .

(٢) في الأصل : الهجير ، ولا يستقيم بها الوزن ، وما أثبتناه أقرب للمعنى وأحفظ للوزن .

لا يَغْلِبَنْ خصمايَ عندَكَ في[1] عَيْنِ الرّقيبِ وأَلْسُنِ العَذْلِ
وأَصِخْ لِمَظْلَمَتِي فقد وَضَحَتْ واسمَعْ فعندِي شاهِدَا عَدْلِ
أَأَجُودُ بالنَّفْسِ التي كَرُمَتْ لِرَشاً يَضِنُّ عَلَيَّ بالوَصْلِ
وشمائِلُ «المنصورِ» قد قَطَعَتْ ظُلْمَ الظَّلُومِ وسُنَّةَ البُخْلِ
مَلِكٌ أَجارَ الدِّينَ مَوْقِفُهُ بالسيفِ بينَ الخَيْلِ والرَّجْلِ
وأَجارَ خلقَ اللهِ فاغْتَرَفُوا عِوَضاً من الأَوطانِ والأَهْلِ
ووَفَتْ بعهدِ العِلْمِ ذِمَّتُهُ إذ لم يُضَيِّع مثلَهُ مِثْلِي

— ٩٧ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله

[من مجزوء الرمل]

دأْبُكَ الهَجْرُ وَدَابِي فيكَ إدمانُ التَّصابِي
أيها المُغْرَىٰ بقَتْلِي بِكَ أَصْبَحْتُ لِمَا بِي
لا ومَنْ آوىٰ اغترابِي وشفىٰ حَرَّ مُصابي
وكفانِي صَرْفَ دهرٍ سامَنِي سُوءَ العذابِ

(١) كذا ، ولعلها : من .

ما رأَتْ عيني كَظَبْيٍ لاح في تِمِّ الشَّبابِ
أَسْبَلَ الليلَ عَلَى مَتْنَيْهِ إسبالَ النِّقابِ
فَتَجَلّىٰ كَتَجَلِّي الْبَدْرِ من تحتِ السَّحابِ
في عقودٍ من نجومٍ ووِشاحٍ من سَرابِ
فَهْوَ نومي وسُروري وسُهادي واكْتِئابي

— ٩٨ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الكامل]

طَيْرُ الفؤادِ عَلَى لَماكَ تحومُ فَهُوَ المُنىٰ وَهيَ الظِّماءُ الهِيمُ
أَرْيٌ تَخَلَّلَ نَظْمَ سِلْكَيْ لُؤْلُؤٍ في جانِبَيْهِ جَنَّةٌ ونَعيمُ
تَمَّتْ عليها طرَّةُ المِسْكِ الذي أَزرىٰ عليه رَحيقُكَ المختومُ [٩٦ م]
وحماهُ قَوْساً حاجِبَيْكَ بأَسْهُمٍ قَلْبي بهِنَّ مُجَرَّحٌ مكلومُ
وسَناً كإِصْباحِ المُغارِ مُرَوِّعٌ ودُجًى كإِظلامِ البَياتِ بَهيمُ
وعقارِبٌ صدري بهِنَّ مُلَسَّعٌ وأساوِدٌ قلبي بهِنَّ سَليمُ
فكأَنَّني لم يَحْمِني المَلِكُ الذي سَجَدَ الفِرَنْجُ لِتاجِهِ والرُّومُ
أَوْ لَمْ تُجِرْني راحَةٌ يَمَنِيَّةٌ حَيَّ السَّماحُ بها وماتَ اللُّومُ

— ٩٩ —

وله في المنصور أبي عامر حين سمّى ابنه عبد الملك بالحجابة (١)

[من البسيط]

منكُمْ إليكم مَساعِي المجدِ تنصَرِفُ ... ونحوَكُمُ عَنْكُمُ الآمالُ تَنْعَطِفُ

ورُبَّ مَكْرُمَةٍ عَيَّ الكِرامُ بها ... أَضحَتْ ذَلُولاً عَلى أَهوائِكُمْ تَقِفُ

وأَينَ بالبَحْرِ عن مَثْواهُ مُنْعَرَجٌ ؟ ... وأَينَ بالنَّجْمِ عن مجراهُ مُنْحَرَفُ ؟

مَنْ ذا ينازِعُكُمْ أَعلامَ مَكْرُمَةٍ ... والمجدُ مُتَّلِدٌ فيكمْ ومُطَّرِفُ ؟

أَم من يُبارِيكُمُ سبقاً إلى كَرَمٍ ... والبرقُ عن شأْوِكُمْ بالمجدِ مُعْتَرِفُ ؟

والنصرُ مُنْسِلُكُمْ والحربُ مُرْضِعُكُمْ ... وشامِخُ العِزِّ والعَلْيَا لكمْ كَنَفُ

---

(١) يحسن هنا أن ننقل نصاً لابن عذارى (البيان المغرب ٢ / ٢٩٣) حول تلقيب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر بالحجابة : «وفي سنة ٣٨١ (٩٩١) رشح المنصور ولده عبد الملك للولاية وقدم أخاه عبد الرحمن للوزارة ، وترك اسم الحجابة واقتصر على التسمي بالمنصور وأن يكتب : من المنصور أبي عامر وفقه الله إلى فلان ، بحذف اسم الحجابة وبذكر اسم ولده عبد الملك بخطة الحجابة والقيادة العليا ، وسائر خطط المنصور سلم فيها لابنه عبد الملك ، وصحت له الحجابة من يومئذ» . وانظر ما كتبه حول هذه المسألة ليفي بروفنسال (تاريخ ٢ / ٢٢٩) .

والحمدُ والشكرُ مخلوعٌ عِذارُهُمَا فيكُمْ وقلبُ العُلاَ صَبٌّ بكم كَلِفُ

والملكُ ملكُكُمُ غادٍ فمنتظِرٌ ، آتٍ فمُقتَبَلٌ ، ماضٍ فمُؤْتنَفُ

من ذا يَعُدُّ كقحطانِ الملوكِ أبًا والتُّبَّعِينَ إذا ما عُدِّدَ الشَّرَفُ ؟

أَمْ مَنْ كعمرٍو وعِمْرَانٍ وثَعْلَبَةٍ وحاتِمٍ وأَبِي ثَوْرٍ له سَلَفُ ؟[1]

من كلِّ أبلَجَ كالجوزاء مَفْرِقُهُ في عَقْدِ تاجٍ بِعِزِّ الملكِ يُكْتَنَفُ

إن يَهَبُوا يُجْزِلُوا أو يقطَعُوا يَصِلُوا أو يعقِدُوا عَقْدَ مَحْرُومِ الوفاء يَفُوا

إن سالَمُوا الأَرْضَ كانوا غيثَ أَمْحُلِها أو ـ كَلَّفُوهَا توالِي خَيْلِهِمْ ـ عَنَفُوا

وإن رَضُوا أَشرقَ الليلُ البهيمُ بِهِمْ ويكشِفُ الموتُ عن ساقٍ إذا أَنِفُوا

لم يحمِلُوا عَيْبَ ذي قالٍ يَعيبُهُمُ في الجودِ والبأسِ إلا أنَّه سَرَفُ

هُمُ الَّذِينَ [هُمُ][2] آوَوْا وَهُمْ نَصَرُوا لما أتاهُمْ مِنَ الرحمٰنِ ما عَرَفُوا

---

(١) يشير ابن دراج في هذا البيت إلى بعض من اشتهر من ملوك القحطانية وفرسانهم وأجوادهم : أما « عمرو » فلعله يعني به عمرو مزيقياء بن ماء السماء عامر بن حارثة الغطريف الأسدي ، وإليه ينتمي الغسانيون ؛ وأما « عمران » فلعله عمران بن عمرو مزيقياء المذكور ؛ وأما « ثعلبة » فربما كان ثعلبة العنقاء ابن عمرو مزيقياء المذكور ، ومن ولده الأوس والخزرج ؛ والأرجح في « حاتم » أنه حاتم ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي الجواد المشهور ؛ وأما « أبو ثور » فهذه هي كنية الفارس المعروف عمرو بن معدي كرب الزبيدي .

(٢) زيادة يقتضيها الوزن ، أو قد تكون « له » وتكون الإشارة في هذا الضمير إلى الاسلام أو إلي النبي ﷺ .

وثبَّتُوا وَطْأَةَ الإسلامِ حينَ هَوىٰ — والظَّنُّ يُخْلِفُ والأهواء تختلِفُ

[٩٦ ب] / هُمُ الذينَ وُقُوا شُحَّ النفوسِ عَلَى — عِلاَّتِ ماجَشِمُوا بَذْلاً وما كَلِفُوا

الحاكمونَ بحُكْمِ اللهِ إن حَكَمُوا — والمؤْثِرُونَ بسيفِ اللهِ إنْ زَحَفُوا

والمُوجِبُونَ اهْتزازَ العرشِ حين ثَوَوْا — والمُبْتَنىٰ لَهُمُ في الجنَّةِ الغُرَفُ

هُمُ الأُلىٰ رَضِيَ الرحمٰنُ بيعَتَهُمْ — للموتِ في حُرُماتِ الحَجِّ إذ صُرِفُوا

فإنْ غَدَتْ منهمُ الأيامُ مُوحِشَةً — فالحاجبُ القائدُ الأعلى[1] لها خَلَفُ

سهمُ الخلافةِ إلا أنَّ راحَتَهُ — —وإنْ نأتْ أو تدانتْ— للمُنىٰ هَدَفُ

جَارٍ إلى أَمَدِ « المنصورِ » لا حَيَدٌ — فيه عن السَّنَنِ الأَهْدىٰ ولا جَنَفُ[2]

تلكَ الحجابَةُ لا مطلوبُهـا عَوَزٌ — فيما لَدَيْـهِ ولا مَوْعُودُها خُلُفُ

عِلْقٌ من المجدِ لاقى كُفْوَهُ فَزَهَا — بمألَفِ الشَّكْلِ والأشكالُ تأْتلِفُ

وافَتْـهُ في الرَّوْعِ مملوءاً جوانحُـهُ — صبراً على الهَـوْلِ والأَبطالُ تَنْـتَزِفُ[3]

واسأَلْ « بِقَبْرَةَ »[4] واللاَّئي أَطَفْنَ بها — عن عَزَمَاتٍ له فيهنَّ تَرْتَدِفُ

---

(١) في الأصل : فالحاجب الأعلى القائد ... الخ ، ولا يستقيم الوزن إلا على تغيير نظام الكلمات على النحو الذي أثبتنا .

(٢) الجنف : هو الميل والجور .

(٣) تنتزف : أي تصطرع .

(٤) لم تحتفظ المراجع الأندلسية لنا بشيء عن يوم « قبرة » المذكور هنا ، على أن موقع مدينة قبرة Cabra الجغرافي (على بعد ثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقي —

في فيلَقٍ كعُمومِ الليلِ لا أَمَمٌ لناظِرٍ أوّلٍ منـهُ ولا طَرَفُ (١)

كأنما الشمسُ في أثناءِ هبوتِهِ سارٍ تَدرَّعَ جنحَ الليلِ مُعْتَسِفُ (٢)

ضاءتْ كواكِبُهُ والْتجَّ عِثْيَرُهُ فالليلُ منهُ ضِياءٌ والضُّحى سُدَفُ (٣)

والخيلُ لاحِقةُ الآطالِ ساهِمَةٌ في مَعْرَكٍ عَدْوُها في ضَنْكِهِ رَسَفُ (٤)

مُسْتَشْرِفاتٌ إلى تدبيرِ مُتَّئِدٍ عن رأيه ظُلَمُ الغَمّاءِ تنكَسِفُ

مُشَيَّعِ العزمِ بالإقدامِ مُقْتَحِمٍ لغمرةِ الموتِ والهاماتُ تُخْتَطَفُ

— من قرطبة) أي في قلب الأندلس الاسلامية يحملنا على الظن أن هذا اليوم لم يكن بين المنصور بن أبي عامر وجيوش مملكة نصرانية مجاورة ، بل يبدو أنه كان يوما أتيح فيه الظفر للمنصور على بعض الثائرين عليه . وقد وجدنا في الوصف الذي أورده ابن عبد المنعم الحميري لمدينة قبرة (الروض المعطار ص ١٥٠) ذكراً لمغارة فيها قذف فيها جماعة من الصقالبة المأسورين في هزيمة كانت أحياء ، ولسنا نستبعد أن يكون بين يوم قبرة الذي يشير إليه ابن دراج وبين هزيمة الصقالبة هذه علاقة .

(١) الأمم : هو القصد . والطرف : هو إطباق الجفن على الجفن ، هذا وقد جاء في الأصل « لناظر أول » ، وربما كانت « أولا » .

(٢) الهبوة : هي غبار الحرب ، والمعتسف : هو الذي يسير بغير هداية وعلى غير الطريق .

(٣) العثير : هو غبار الحرب ، والسدف : جمع سدفة (بضم السين وسكون الدال) وهي الظلمة .

(٤) لاحقة الآطال : أي ضامرة الخواصر ؛ والرسف : هو مشي المقيد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد .

لا يَقْرَعُ السِّنَّ في ضنكِ المَكَرِّ إذا تقارَعَتْ فيهِ بيضُ الهِنْدِ والحَجَفُ[1]

وأَبْرَزَ الموتُ عن مُسْوَدِّ أَوجُهِهِ فالصبرُ يبعدُ والأَقرانُ تَزْدلِفُ

ففازَ قِدْحُكَ بالفتحِ المُبينِ ضُحىً والكُفرُ مُنْتَهَبُ الأَقطارِ مُنْتَسَفُ[2]

وأُبْتَ بالمفخَرِ الأسْنىٰ يُشَيِّدُهُ حَقٌّ بسيفِكَ للإسلامِ مُعْتَرِفُ

أمكَنْتَ من رِقِّهِ الإسلامَ مُحْتَكِماً فيها وأَسْلَمَها حَرَّانُ مُلْتَهِفُ

مُخَدَّعٌ بأماني[3] الغَدْرِ مُكْتَئِبٌ بالخِزْيِ مُشْتَمِلٌ بالذُّلِّ مُلْتَحِفُ

فاتَ السيوفَ بِشِلْوٍ حائنٍ وَمَضىٰ أمْضىٰ من السيفِ في أحشائِهِ الأَسَفُ

فالفخر[4] منتظِمٌ والملكُ منتقِمٌ والحَقُّ منتصِرٌ والدينُ مُنْتَصِفُ

[٩٧ أ]/في شيعةٍ بَيَّنَ الخزيُ المحيطُ بهم عن غِبِّ ما اجترَحُوا غَدْراً وما اقْتَرَفُوا

---

(١) جمع حجفة (بفتحتين) وهي التروس المصنوعة من الجلد .

(٢) في هذا البيت وما بعده إشارة إلى غزوة المنصور بن أبي عامر ضد مملكة نصرانية ، كما أنه يتحدث عن غادر يبدو أنه أعلن الثورة على المنصور ، والذي نعرفه من المراجع التاريخية هو أن تولية المنصور ابنه عبد الملك الحجابة في سنة ٣٨١ / ٩٩١ كان بعقب تلك الثورة التي أعلنها ابنه عبد الله بن المنصور ملتجئا إلى غرسية بن فرذلند أمير قشتالة فيتوجه المنصور على رأس حملة غزت قشتالة وأرغمت غرسية على تسليم عبد الله بن المنصور الذي قتل بعد ذلك في ١٤ من جمادي الثانية سنة ٣٨٠/ ٨ سبتمبر ٩٩١ . (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٤١) . ولعل ابن دراج يشير الى هذه الواقعة .

(٣) في الأصل : بأمان ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٤) في الأصل : فالفجر ، وما أثبتناه أصح .

— ١٠٠ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى (١)

[من البسيط]

حَسْبِي رِضاكَ من الدهرِ الذي عَتَبَا وجُودُ كَفَّيْكَ (٢) للحَظِّ الذي انْقَلَبَا

(١) أورد الحميدي مطلع هذه القصيدة وتسعة أبيات منها ، كما أورد مناسبتها بالتفصيل ، ويحسن أن نشير إلى ذلك في هذا الموضع ؛ قال الحميدي مسنداً روايته إلى أستاذه أبي محمد ابن حزم القرطبي : إن أول من اتصل به ابن دراج من الملوك كان المنصور بن أبي عامر مدبر دولة هشام المؤيد وإن أول شعر مدحه به كان قصيدته الهائية التي مرت في هذا الديوان (انظر ص ١٠) وأولها :

أضاء لها فجر النهي فنهاها عن الدنف المضني بحر هواها

فساء الظن بما أتى به ابن دراج من الشعر واتهم فيه ، وكان للشعراء أيام المنصور بن أبي عامر ديوان يرزقون منه على مراتبهم ولا يخلون بالخدمة بالشعر في مظانها ، فسعي بابن دراج إلى المنصور وزعم أنه منتحل سارق لا يستحق أن يثبت في ديوان العطاء ، فاستحضره المنصور عشي يوم الخميس لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ، واقترح عليه ، فبرز وسبق وزالت التهمة عنه ، ووصله المنصور بمائة دينار وأجرى عليه الرزق وأثبته في جملة الشعراء ، وفي ذلك المجلس بين يدي المنصور أنشد ابن دراج هذه القصيدة البائية ، وفيها أشار إلى المعنى الذي استحضر من أجله وفنَّد الدعوى التي قذف بها . (انظر « جذوة المقتبس » ص ١٠٣ - ١٠٤) .

(٢) في « جذوة المقتبس » : وعطف نعماك .

يا مالِكاً أصبَحَتْ كَفِّي وما مَلَكَتْ ومُهْجَتِي وحَيَاتِي بَعْضَ ما وَهَبَا

ما أَقْلَعَ الغيثُ إلا رَيْثَمَا خَفَقَتْ مَجَادِحُ[1] الجودِ من يُمْنَاكَ فانسَكَبَا

ولا نأَى السعْدُ إلاَّ وَهْوَ تَجذِبُهُ شوافِعُ المجدِ عن عَلْيَاكِ فاقْتَرَبَا

أَنتَ ارْتَجَعْتَ المنىٰ غُرّاً مُحَجَّلَةً نحوي وقد أَعجزَتْنِي دُهْمُهَا هَرَبَا

لَئِنْ دَهَتْنِي شَمالاً حَرْجَفاً[2] عَصَفَتْ بماءِ وَجْهِي لقد أَنشأْتَهَا سُحُبَا

لَئِنْ تَنُوسِيَ تحرِيمُ المُحَرَّمِ لي سَعْياً لَعَجْلَانَ ما أَمنت لي رَجَبَا

أَأَنَّسْتَنِي بِسَنَا[3] الإِصباحِ منبلِجاً في حينِ أَوحَشَنِي البدرُ الذي غَرَبَا

وصَبَّحَتْنِي غَوادٍ منكَ مُغْدِقَةٌ عن بارِقٍ لِيَ في جُنْحِ الظلامِ خَبَا

لَئِنْ توهَّمَهُ الأعداءُ لي نُكَباً أَنحَتْ عليَّ لقد عَوَّضْتَهَا رُتَبَا

لَئِنْ فُجِعْتُ بها بيضاءَ من وَرِقٍ تبأَى عَلَيَّ لقد أَخْلَفْتَهَا ذَهَبَا

فمَنْ يباري جوادَ الشُّكْرِ فيكَ وقد ناوَلْتَنِي يَدَكَ العلياءَ يومَ كَبَا ؟

وكنتَ ملجأَهُ في النائباتِ وقد سالَ الزمانُ عليه أَسهُماً وظُبىٰ

وذَبَّ عدلُكَ دونَ الحقِّ منتقِماً ورَدَّ نصرُكَ ظُلْمَ العِلْمِ مُحْتَسِبَا

حتى تلافَيْتَ[4] في ضنْكِ المقامِ له حَظّاً غَدَا بينَ أَيدي الظُّلْمِ مُنْتَهَبَا

---

(١) المجادح : هي الأنواء .

(٢) الريح الحرجف : هى الباردة الشديدة الهبوب .

(٣) في الأصل : يسنى .

(٤) في الأصل : تلاقيت ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

أبىٰ لكَ اللهُ إلاَّ أن تفوزَ بهـا | خيراً ثواباً وخيراً عنـدَهُ عُقُبَا
أَيَادِيًا إنْ أكُنْ مخصوصَ نُصْرَتِهَا | فقد عَمَمْتَ بِهِنَّ العِلْمَ والأَدَبَا
وأنعُمًا أكْسَبَتْنِي عزَّ مَفْخَرِهَا | وغادَرَتْ كاشِحِي رَهْناً بمـا كَسَبَا
فإنْ يَقَعْ جُهْدُ شكري دونَهُنَّ فقد | أَوْجَبْنَ من حُسْنِ ظَنِّي فوقَ ما وَجَبَا
من بعدِ ما أضرم الواشُونَ جَاحِمَةً | كانَتْ ضلوعِي وأحشائِي لها حَطَبَا
ودَسَّسُوا لِيَ في مَثْنَىٰ حبـائِلِهِمْ | شنعاءَ بِتُّ بها حَرَّانَ مُكْتَئِبَا
حتى هُزِزْتُ فَلاَ زَنْدُ القريضِ كَبَا | فيا لَدَيَّ ولا سيفُ البَدِيهِ نَبَا
وأشرقتْ شاهِداتُ الحَقِّ تَنْشُرُ لي | نُوراً غَدَتْ فيه أقوالُ الوُشَاةِ هَبَا
/ هيهاتَ! أَعْجَزَ أَهْلَ الأرضِ أن يجِدُوا | لِلدُّرِّ غَيْرَ عُبَابِ البحرِ مُنْتَسَبَا ! [٩٧ب]
وحاشَ لِلوردِ أن يعْزَىٰ إلى رَمَضٍ (١) | وأن يكونَ له غيرُ الربيعِ أبَا !
لِمَنْ سَنَا الشَّمسِ إن أضحتْ مُشَـكَّلَةً | فيه ؟ لِمَنْ نَفَحاتُ المِسْكِ إن كُذِبَا ؟
ومَنْ يُكَذِّبُ في آثارِ مَوْقِعِهِ | مُهَنَّداً خَذِماً أو عامِلاً ذَرِبَا ؟
وكيفَ يَصْدُقُنِي منكَ الرَّجاءُ وَلاَ | أَجْزِي ثَنَاءَكَ إلا المَيْنَ والكَذِبَا ؟
ودُونَ ما أنَا من نُعْمَاكَ مُحْتَمِلٌ | ما أنْطَقَ الصَّخْرَ أو ما أنْبَطَ القُلُبَا !
حاشَىٰ لقدرِكَ أن أُزْجِي الثَّناءَ لَهُ | دَعْوىً وأُهْدِي إليهِ الدُّرَّ مُغْتَصَبَا !
لـكنَّها هِمَمٌ أَنْشَأْتَهـا نِعَمـاً | تَشَاكَهَا بنفيسِ القَدْرِ فاصْطَحَبَا

---

(١) الرمض : هو شدة وقع الشمس على الرمل .

ولستُ أوّلَ من أعْيَتْ بدائعُهُ فاستدْعتِ القوْلَ ممّنْ ظَنَّ أو حَسِبَا

إنَّ «امْرأَ القَيْسِ» في بَعْضٍ لَمُتّهَمٌ وفي يَدَيْهِ لِوَاء الشِّعْرِ «إنْ رَكِبَا»

والشِّعْرُ قد أَسَرَ «الأعْشىٰ» وقيّدَهُ خُبْراً[1] وقَدْ قِيلَ «والأَعْشىٰ إذا شَرِبَا»

وكيفَ أَظْمَا ـ وبحري زَاخِرٌ فِطَناً[2] ـ إلى خيالٍ من الضَّحْضَاحِ قد نَضَبَا؟

فَإنْ[3] نأىٰ الشَّكُّ عنّي أَوْفَها أَنَذَا مُهَيّأً لِجَلِيِّ الخُبْرِ مُرْتَقِبَا

عَبْدٌ لِنُعْمَاكَ في كَفّيْهِ[4] نَجْمُ هُدىً سارٍ بِمَدْحِكَ يَجْلُو الشَّكَّ والرِّيَبَا

إن شِئْتَ أَمْلىٰ بَدِيعَ الشِّعْرِ أو كَتَبَا أو شئتَ خاطَبَ بالمنثورِ أوْ خَطَبَا

كَرَوْضَةِ الحَزْنِ أَهْدىٰ الوَشْيَ[5] مَنْظَرُها

والماءَ والزَّهْرَ والأَنوارَ والعُشُبَا

أوسابَقَ الخيلَ أَعْطىٰ الحُضْرَ مُتّئِداً والشَّدَّ والكَرَّ والتَّقْرِيبَ والخَبَبَا

سَبَكْتُهُ عامِرِيَّ السِّنْخِ[6] مُنْقَطِعاً إليكَ من سائرِ الآمالِ مُنْقَضِبَا

فَحَقَّ للعلمِ أن يُزْهىٰ به فَرَحاً وحقَّ للشعرِ أن يَشْدُو به طَرَبَا

---

(١) في «جذوة المقتبس» : دهراً .

(٢) في «جذوة المقتبس» : مطنا (!)

(٣) في الأصل : وإن ، وقد آثرنا رواية «الجذوة» .

(٤) في «جذوة المقتبس» : فكيه .

(٥) في «جذوة المقتبس» : الرشى (!) .

(٦) في الأصل : السخ ، والسنخ : هو الأصل .

فأَحْجَمَ الدهرُ مِنّي عن فَتىً أَدَبٍ قد حالَفَ العزَّ والأَملاكَ والعرَبَا
وبلَّغتْهُ المُنىٰ من حِمْيرٍ أَمَلاً وأَعْلَقَتْهُ العُلاَ من عامرٍ سَبَبَا
فأَضْحَتِ المُنْيةُ الغرّاءُ لي وَطَناً وأَضحَتِ الدعوةُ العَلْيَاءُ لي نَسبَا
وذُلِّلَتْ لي أَرضٌ أَيْنَعَتْ ثمراً وظَلَّلَتْني سماءٌ مُلِئَتْ شُهُبَا
وقد وَجَدْتُ عِيَاذَ اللهِ أَمَّنَنِي في ذِمَّةِ المَلِكِ المنصورِ ما حَزَبَا
من شَرِّ تَشْغِيبِ حُسَّادِي إذا حَسَدُوا وشَرِّ غاسِقِ أَيّامي إذا وَقَبَا (١)
/ وفَلَّ عَنِّيَ أَحزابَ العِدىٰ مَلِكٌ مُعَوَّدٌ أن يَفُلَّ الجحفلَ اللجِبَا [٩٨م]
ويَتْرُكَ المَلِكَ الجبّارَ مُخْتَلَعاً عنه رِداءَ العُلاَ والعِزِّ مُسْتَلَبَا
مُجدَّلاً بجُنُوبِ الأَرْضِ مُنْعَفِراً ومُشْعَراً بنَجِيعِ الجَوْفِ مُخْتَضِبَا (٢)
وقائِدُ الخيلِ عَمَّ الجوَّ عِثْيَرُهَا ومادَتِ الأَرْضُ من أَهوالِهَا رُعُبَا
وصفوةُ اللهِ مِنْ أَنصارِ دَعْوَتِهِ ومن تَنَقّىٰ لنصرِ الدِّينِ وانْتَخَبَا
مُوفٍ عَلَى الرُّتَبِ القُصْوىٰ مَدىً فَمَدىً ووارِثُ المُلْكِ قحطاناً أَباً فأَبَا
حيثُ اعْتَزىٰ فَخْرُ إسماعِيلَ في سَلَفَيْ هُودٍ وحيثُ تلاقَتْ خِنْدِفٌ وسَبَا (٣)
من كُلِّ قَرْمٍ (٤) غَدا بالمجدِ مُشْتَمِلاً ومُسْتَقِلاً بتاجِ المُلْكِ مُعْتَصِبَا

---

(١) الغاسق : هو ظلام الليل ، ووقب : أي دخل .
(٢) مجدلا : أي صريعا ، ومشعراً : أي ملصقا ، والنجيع : هو الدم المتجمد .
(٣) مخفف عن « سبأ » .
(٤) في الأصل : قوم ، ولعلّ الصواب ما أثبتنا .

أَلقَتْ إلى يدِهِ الدُّنيا أَزِمَّتَها فأَحرزَ الأَرْضَ مُلْكاً والعُلاَ حَسَبَا
مُسْتَحْقِرٌ لِعُبَابِ البَحْرِ إنْ وَهَبَا ومُسْتَكِنٌّ بِرُكْنِ الحِلْمِ إنْ غَضِبَا
كَأَنَّهُ والمُنَىٰ تَسعىٰ إلىٰ يَدِهِ صَبٌّ تَنَسَّمَ من نَحْوِ الحبيبِ صَبَا
فَلْيَشْكُرِ اللهَ يا «مَنْصورُ» مِنكَ يَداً كَشَفْتَ عَنيِّ بها الأَحزانَ والكُرَبَا
وطالَمَا لاذَتِ الدُّنيا بِحِقْوِكِ مِنْ خَطْبٍ أَلَمَّ فَكُنْتَ المَعْقِلَ الأَشِبَا
وكيفَ يُخْلِفُ مِنكَ الظَّنُّ ما رَغِبَا ؟ أَو يُعْوِزُ المَجْدَ في كَفَّيْكَ ما طَلَبَا ؟
وقدْ غَدَوْتَ لآمالِ الوَرىٰ أَمَداً وقدْ غَدَوْتَ لأَفلاكِ العُلا قُطُبَا
وأَنْتَ بَحْرُ الندىٰ لم يَأْلُ أَنْ عَذُبَا وأَنتَ حِزْبُ الهُدىٰ لم يَعْدُ أَنْ غَلَبَا

—١٠١—

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الرمل]

أَخْلِقِ الدَّهْرَ بَقَاءً واسْتَجِدّ عُمُراً يَفْضُلُ عن عُمْرِ الأَبَدْ
والْبَسِ المَجْدَ حُلىً بعدَ حُلىً واعْتَوِرْهُ أَمَداً بعدَ أَمَدْ
وابلُغِ الغاياتِ مغبوطاً بها في ضَمانِ اللهِ بُقْيَاً (١) واسْتَزِدْ
وإذا سَرَّكَ صُنْعٌ فَلْيَدُمْ وإذا وافاكَ عيدٌ فَلْيَعُدْ

(١) في الأصل : بقاء ، والوزن يختل بها ، ولعلها كما أثبتنا .

وإذا جاءكَ يومٌ بالمُنىٰ | فَاُقْتَبِلْ أضعافَهـاَ في يومِ غَدْ
نِعَمٌ(١) تَتْرىٰ وجَـدٌّ يعتَلِي | وعُـلاً تَبْأى وفَتْحٌ يُسْتَجَدّ
واهدِمِ الكُفْرَ وغَيِّرْ مُلْكَهُ | وابْنِ أعـلامَ الهُدىٰ عِزّاً وشِدْ
/ والبَسِ الصبرَ إلى أرضِ العِدىٰ | وقُـدِ النصرَ إليـه واسْتَمِدّ [٩٨ب]
واخسِفِ الشِّرْكَ بعزمٍ يُنْتَضَى | سَيْفُـهُ عن « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ »
وَجَـدَ الخيلَ تَثَـنّىٰ مَرَحاً | فَهَدَاهَا لمدى الشَّأْوِ المُجِـدّ
ودَعَا السُّمْرَ فوافَتْ شُرَّعاً | وظُبىٰ الهِنْدِ فجـاءَتْ تَتَّقِدْ
فـكَأَنْ ما كانَ للرُّمْحِ شَباً | قبلَهَ يوماً ولا للسَّيْفِ حَـدّ
فَرَمىٰ عن قوسِ بأْسٍ صادِقٍ | وَسَطَاَ بسـاعِدِ الدينِ الأَشَدّ
رُبَّ أرضٍ بِغِرَارَيْ سَيْفِهِ | وُجِـدَ الرَّحْمٰنُ فيها وعُبِدْ
وبلادٍ للعدىٰ من ذُعْرِهِ | عُدِمَ الإشراكُ فيهـا وفُقِدْ
فانتحىٰ للكُفْرِ حتّىٰ لم يَجِـدْ | واقتفىٰ آثارَهُ حتّىٰ هَمَـدْ
جابَ عنه الأَرضَ حتّىٰ جُمِعُوا | في أَقاصِيهـا عَلى أَدْنىٰ العَدَدْ
وعفَاَ أعلامَهُمْ حَتّىٰ لقـد | كادَ أنْ يَخْفىٰ لَهُـمْ يَوْمُ الأَحَدْ
هِمَمٌ غاياتُهـاَ لا تَنْتَهِي | عَزَمَاتٌ شـأْوُهَا لا يَتَّئِدْ
لِعَزِيزٍ نصرُهُ حيثُ انتَوىٰ | وعَلِيٍّ كعبُهُ حيثُ قَصَدْ

---

(١) في الأصل : نعماً .

مُنْتَقىً الآباءِ من ذي يَمَنٍ ماجِدِ الأَحوالِ في عُلْيَا مَعَدّ

منهمُ الأَقيالُ والصِّيدُ الأُلىٰ طَرَفَ المُلْكُ لَهُمْ ثمّ تَلَدْ

ولهمْ مُفْتَخَرُ الجودِ الذي وَلَدَتْهُ « طَيِّءُ بِنْتُ أُدَدْ »

وهم المغفورُ في « بَدْرٍ » لَهُمْ وهم الأَبرارُ في يومِ « أُحُدْ »

وهمُ حُرّاسُ نفسِ المصطفىٰ حين نامَ الجيشُ عنهُ وهَجَدْ

وهمُ أَندىٰ وأَعطىٰ من قِرىٰ وهمُ أَرْضَى وأَزكىٰ من شَهِدْ

وهنيئاً لكَ يا مَوْلىٰ الوَرىٰ ولداً أَنْجَبْتَهُ وَمَا وَلَدْ

قَمَرٌ أَشرقَ في أُفْقِ العُلاَ فأَضاءَ الدهرُ منه وسَعِدْ

وحياً أَغْدَقَ إلا أَنَّهُ بَرَقَ الإِقدامُ منهُ وَرَعَدْ

فَهْوَ للإِسلامِ غَيْثٌ صائِبٌ وعَلَى الإِشراكِ شُؤْبُوبُ بَرَدْ

مَنْ رَسولي نحوَهُ يُخْبِرُهُ بالذي فيهِ يقيني يَعتَقِدْ

دونَكَ السُّؤْدُدَ مَوْفُوراً فَسُدْ وجنودَ الدينِ والدنيا فَقُدْ

أيُّ مجدٍ لم تَحُزْهُ عن أَبٍ وفخارٍ لم يَحُزْهُ لَكَ جَدّ

[٩٩م] / أَسمِعُوهُ رغبةً من راغِبٍ ويَدِي رهنٌ لكُمْ إِن لم يَجُدْ

وأُرُوهُ فارساً مستلئِماً وأَنَا كَذَّابُكُمْ إِن لم يَشُدّ

هَدِّئُوهُ بالعوالي والظُّبىٰ وبأَبطالِ الكُماةِ تَجْتَلِدْ

جاءَتِ الأَعيادُ تستقبلُهُ للأَماني والسُّرورِ المُسْتَجِدّ

فَهُنَا الإِسلامَ منه عُدَّةٌ ... لِلهُدىٰ والدينِ من أسْنَىٰ العُدَدْ
حَضَرُوا الإِذْنَ الذي عَوَّدْتَهُمْ ... كظماءِ الطَّيْرِ أسراباً تَرِدْ
فَدَنَوْا واستوقَفَتْهُمْ هَيْبَةٌ ... ملأَتْهُمْ من سُرورٍ وزُؤُدْ[1]
فتوانَوْا بقلوبٍ لم تَرِمْ ... ثم أدنَتْهُمْ جسومٌ لم تَكَدْ
ثم أمُّوا الراحَةَ العُلْيَا التي ... عَمَّتِ الدُّنيا أماناً وَصَفَدْ[2]
يستضيئونَ بشمسٍ طَلْقَةٍ ... ويُهالُونَ بإِقدامِ أَسَدْ
فَهَنَاهُمْ ثُمَّ لازالَ الورىٰ ... منكَ في أثوابِ آمالٍ جُدُدْ

— ١٠٢ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله[3]

[من الكامل]

لكَ البشرىٰ ودُمْتَ قريرَ عَيْنِ ... بشأوَيْ كوكَبَيْكَ الثَّاقِبَيْنِ

(١) الزؤد (بضمتين) : هو الرهبة والخوف .
(٢) الصفد : العطاء .
(٣) هذه القصيدة قالها ابن دراج في مدح المنصور وابنيه الحاجب سيف الدولة عبد الملك وعبد الرحمن الناصر ، والإشادة ببلائهما في غزوة شنتياقب (Santiago de Conbastela) كما يتبين من أسماء المواضع الواردة فيها ، وقد قاد المنصور هذه الحملة المشهورة إلى جليقية Galicia في أقصى الشمال الغربي من إسبانيا في ٢٣ من -

مليكَي حِمْيَرٍ نَشَآ وشَبَّا بتيجانِ السَّناءِ مُتَوَّجَيْنِ
صَفِيَّيْ(1) ما نَمَتْ عُلْيَا مَعَدٍّ وسِيطَيْ يَعْرُبٍ في الذِّرْوَتَيْنِ
وسَيْفَيْ عاتقَيْكَ الصَّارِمَيْنِ وطودَيْ مفخَرَيْكَ الشامِخَيْنِ
هُمَا للدينِ والدنيا مَحَلاًّ سُوَيْدَاوَاهُمَا في المُقْلَتَيْنِ
نَذَرْتَهُمَا لدينِ اللهِ نَصْراً فَقَدْ قامَا لنَذْرِكَ وَافِيَيْنِ
وما زالا لَدَيْكَ ولَنْ يَزَالاَ بأَعباءِ الخلافةِ ناهِضَيْنِ
شَرَائِعُ كُنْتَ مُبْدِعَهَا وكانَا عَلَى مسعاكَ فيها دائبَيْنِ
وقاما في سماءِ عُلاَكَ نُوراً وإشْرَاقاً مقامَ النَّيِّرَيْنِ
فحاطَ الملكَ أَكْلأُ حائِطَيْنِ وحَلَّ الدينُ أمنَعَ مَعْقِلَيْنِ
بحاجِبِ شَمْسِ دولَةِ عبدِ شَمْسٍ وسيفِ اللهِ منها في اليَدَيْنِ
وناصِرِهَا الذي ضَمِنَتْ ظُبَاهُ حِمَى الثَّغْرَيْنِ منها الأَعْلَيَيْنِ
غَذَوْتَهُمَا لِبانَ الحربِ حَتَّى تَرَكْتَهُمَا إِلَيْهَا آنِسَيْنِ

ــ جمادى الثانية سنة ٣٨٧ (٣ يوليه سنة ٩٩٧) . (انظر عن هذه الغزوة ابن عذارى : البيان المغرب ٢ / ٣١٣ - ٣١٦ وليڤي بروڤنسال : تاريخ ٢ / ٢٤٦ - ٢٥٠) ؛ على أن ليڤي بروڤنسال – معتمداً على نص وارد في كتاب « مفاخر البربر » – يظن أن المنصور وجه ابنيه عبد الملك وعبد الرحمن على رأس حملة إلى جليقية في نفس السنة إلا أنها مختلفة عن غزوة شنتياقب هذه (تاريخ ٢ / ٢٤٧ ، حاشية رقم ٢) . أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون سنة ٣٨٧ .

(١) في الأصل : ضفيي .

/ وما زالا رَضِيعَيْها عَوَانًا وبِكْراً ناشِئَيْنِ ويافِعَيْنِ [٩٩ب]

فما كَذَبَتْ ظنونُكَ يومَ جاءَا (١) إلى أَمَدِ المكارمِ سابقَيْنِ

ولا خابَتْ مُنَاكَ وقد أنافَا عَلَى رُتَبِ المعالي سامِيَيْنِ

ولا نُسِيَتْ عهودُ « الحارثَيْنِ » ولا ضاعَتْ وصايا « المُنْذِرَيْنِ » (٢)

ولا خزِيَتْ مآثِرُ « ذِي كَلاَعٍ » ولا أَخْوَتْ كواعِبُ « ذِي رُعَيْنِ » (٣)

ولمَّا استصْرَخَ الإسلامُ طاعَا إلى العاداتِ منكَ مُلبِّيَيْنِ

كما لبَّيْتَهُ أيَّامَ تلقى سيوفَ عُداتِهِ بالرَّاحتَيْنِ

تراثٌ حزتَ مفخَرَهُ نِزاعاً إلى أبناءِ عَمِّكَ في « حُنَيْنِ » (٤)

وقدتَ زِمامَهُ حِفْظاً ورَعْياً إلى سِبْطَيْ عُلاكَ الأَوَّلَيْنِ

فيا عِزَّ الهُدٰى يومَ اسْتَقَلاَّ لحزبِ اللهِ غَيْرَ مُواكِلَيْنِ

ويا خِزْيَ العِدٰى لما استتَمَّا إليهِمْ بالكتائِبِ قائِدَيْنِ

وقد نَهَدَا بأَيْمَنِ طائِرَيْنِ وقد طَلَعَا بأَسْعَدِ طالِعَيْنِ

---

(١) في الأصل : جاء .

(٢) لعله يعني بالحارثين بعض ملوك بني جفنة الغساسنة ، وبالمنذرين بعض ملوك الحيرة من بني لخم المعروفين بالمناذرة .

(٣) ذو كلاع وذو رعين : حيان ضخمان من بطون بني حمير بن سبأ القحطانيين .

(٤) يشير بـ « أبناء عمه » إلى الأوس والخزرج (الأنصار) وبلائهم في نصرة النبي ﷺ في غزوة حنين . ووجه النسب بين المنصور والأوس والخزرج هو أنه معافري الأصل من العرب القحطانية .

وقد جاءتْ جُنودُ النصرِ زحفاً		تلوذُ بظلِّ أكرمِ رايتينِ
كتائبُ مثلُ جُنحِ الليلِ تبْأى		عَلى بدرِ الظلامِ بغرّتينِ
بكُلِّ مُقضْقِضِ الأقرانِ ماضٍ		كأنَّ [بثوبهِ] [1] ذا لبدتينِ
فتىً ولدتْهُ أطرافُ العوَالي		ومُقْمِصَةُ [2] المنايا توْأمينِ
كأنَّ سِنانَهُ شيعيُّ بغْيٍ		تقحّمَ ثائراً بدمِ « الحُسَيْنِ »
وكُلِّ أصمَّ عرّاصِ [3] التثنِّي		وذي شُطَبٍ رقيقِ الشفْرَتينِ
كأنّهُمَا وليلُ الحربِ داجٍ		سَنَا برْقَيْنِ فيهـا خاطفينِ
أمَا وسَنَاهُمَا يومَ اسْتَنَارَا		بنورِ الأبلَجَيْنِ الأزهرينِ
وراحَا بالمنايا فاسْتَباحَا		ديارَ « لَميقُ » [4] غيرَ مُعرِّدَيْنِ

(١) في الأصل : بلبدتيه ، ولا يستقيم بها الوزن ولا السياق ، ولعل الصحيح ما أثبتنا أو شيء في معناها ووزنها ، ومقضقض الاقران أي مفرقهم ومشتتهم .
(٢) مشتقة من القمص وهو الموت السريع المفاجيء . Lamego
(٣) أي لدن .
(٤) لميق وتكتب أيضا « لميقه » (بضم القاف وسكون الهاء) / مدينة في البرتغال الآن من أعمال مدينة « بازو Vizeo » ، وهي تقع على بعد ٣٥٥ كيلو متر إلى الشمال والشمال الغربي من لشبونة عاصمه البرتغال الحالية وعلى بعد ٨٠ كيلو متر إلى الشرق والشمال الشرقي من مدينة « برتقال Oporto » ، وقد ورد ذكر « لميق » هذه في الكتب التي تحدثت عن غزوة المنصور لشنتياقب (انظر ابن عذارى : البيان المغرب ٢ / ٢٩٦ وليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٥٠) . وقد ذكر ابن عذارى أن المنصور لما فتح ليقه (كتبت في النص خطأ « مليقه ») كتب بالفتح منها إلى قرطبة وأن القوامس (النبلاء) الموالين له اجتمعوا إليه هناك فأجازهم وكساهم وكسى رجالهم وصرفهم إلى بلادهم .

وقد جاشَتْ جُيوشُ الموتِ فيها   بأَهْوَلَ من توافي الأَيْهَمَيْنِ (1)
كأنَّ مَجَرَّةَ الأَفلاكِ حَفَّتْ   بهـا محفوفَةً بالشِّعْرَيَيْنِ
وقد زُمَّتْ رِكابُ الشِّرْكِ منها   إلى سَفَرٍ وكانا الحادِيَيْنِ
وناءا بالدماء عَلى رُباها   حَيًّا للدِّينِ نَوْءَ المِرْزَمَيْنِ
/ لِعَزْمٍ موفَّقَيْنِ مسدَّدَيْنِ   وبأْسٍ مؤيَّدَيْنِ مظفَّرَيْنِ [100م]
وقد خَسفَا «كُرُنَّةَ» (2) بالعَوَالي   و«بُوغَةَ» (3) بادِئَيْنِ وعائِدَيْنِ

---

(1) الايهمان : هما السيل والحريق .

(2) في الاصل : كرية ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وقد كنا نظنه يعني مدينة « لاكرونيا Le Coruña » الحالية عاصمة مقاطعة جليقية Galicia في الوقت الحاضر (وهي مدينة تقع على أقصى الطرف الشمالي الغربي لإسبانيا على ساحل البحر المحيط) ، وهي في الموضع الذي يذكر جغرافيو العرب أنه كانت به أعمدة هرقل) ، على أن المشهور هو أن هذه البلدة كانت تسمى El Faro (أي المنار) في ذلك الوقت وأنه لم يطلق عليها اسم Cruña إلا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ؛ وهذا هو ما يجعلنا نرجح أن الشاعر إنما عنى بهذا الموضع « كورونيو Garoño » وهو اسم نهير تقع عليه بلدة صغيرة تحمل نفس هذا الاسم وتقع في مقاطعة « لاكرونيا » نفسها على مقربة من عاصمتها (انظر كتاب « تاريخ شنتياقب » الذي يحمل عنوان « مآثر دييجو جلميرث أول كبير لاساقفة شنتياقب» : «Historia Cambastelana , O sea Hechos de D. Diego Gilmérez , Primer Arzobispo de Santiago »

وهو نص لاتيني ألف في القرن الثاني عشر الميلادي ، ترجمه إلى الاسبانية الاب مانويل سوارث Manuel Suarez وقدم له وعلق عليه الاب خوسيه كامبيلو José camPelo ، وطبع في سنتياجو دي كومبو ستيلا سنة ١٩٥٠ — انظر ص ٣٠٣ ؛ حيث ورد اسم الموضع المذكور باللاتينية هكذا : Corrunium) .

(3) في الأصل : بوعة ، ونظنها تحريفا لما أثبتنا ، ولعله يعني « بوغو » التي —

لقد زَجَرَ الهُدى يومَ استطارَا إلى الأعداءِ أيمَنَ سانِحَيْنِ

وشامَ الكفرُ يومَ تيمَّمَاهُ بجندِ الحَقِّ أَشْأَمَ بارِقَيْنِ

فتلكَ مصانِعُ الأَمنِ اسْتَحَالَتْ مصارِعَ كُلِّ ذي خَتْرٍ ومَيْنِ

لغَاوٍ سَلَّ سيفَ النَّكْثِ فيها كما نَعَبَ الغرابُ بيومِ بَيْنِ

فأَضْحَتْ منه ثانيةً لِحَزْوى ووَلَّى ثالِثاً للقــارِظَيْنِ

تناديهِ المعاهِدُ : لَيْتَ بَيْني وبينَكَ قَبْلُ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ !

لئِنْ وَجَدَتْهُ أَشْأَمَ من « قُدَارٍ » لقد عَدِمَتْهُ أَخْيَبَ مِنْ « حُنَيْنِ »

سَليبَ المُلْكِ مُنْبَتَّ الأَماني وفَقْدُ العزِّ إِحْدى المِيتَتَيْنِ

طريدَ الرَّوْعِ لَوْ حَسِبَ الزُّبَانى تلاحِظُهُ لَفَـارَ مع البُطَيْنِ

وكانَ مُخادِعٍ لَكَ لم يُخَادِعْ حُسامَكَ منه حَسْمُ الأَخْدَعَيْنِ

ـ ورد ذكرها في جغرافية الإدريسي في معرض الحديث عن الطرق التي كان النصارى يسلكونها في الحج إلى « شنتياقب » ، وهو اسم نهر صغير قال عنه الإدريسي : إنه مبدأ أرض برتقـال وإن مصبه في البحر المحيط (المحيط الأطلسي) وإنه يقع على بعد خمسة عشر ميلا إلى جنوب مصب نهر دويره Duero . ويسمى هذا النهر الآن بالإسبانية Boga وبالبرتغالية Vouga وإن كانت المسافة الحقيقية بين مصبه في المحيط الأطلسي ومصب نهر دويره تقدر الآن بستين كيلو مترا لا خمسة عشر ميلا كما قدر الإدريسي . انظر مقال الأستاذ ثيسر دوبلر عن « طرق الحج إلى شنتياقب في جغرافيــة الإدريسي » César Dubler : Los Caminos A Compostela en La Obra de Idrisi , al - An dalus , Vol . xIv , 1949 , (PP . 59 122) , p . 104 .

هَوَتْ بِهِمُ مَوَاطِئُ كُلِّ غَدْرٍ ... إلى أُخْرَىٰ مواردِ كُلِّ حَيْنِ
لسيفٍ لا تقِي حَدَّاهُ نَفْساً ... تَرَاءَى من وراءِ الصَّفْحَتَيْنِ
فباءَ عِداكَ من خُلْفِ الأَماني ... ومن فَقْدِ الحياةِ بِخَيْبَتَيْنِ
فللإشراكِ كِلْتَا الخِزْيَتَيْنِ ... وللإسلامِ إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ
مغانِمُ لا يُحيطَ بِهِنَّ إلا ... حسابُ الكاتِبَيْنِ الحافِظَيْنِ
كأَنَّ الأَرضَ جاءَتنَا تَهَادَىٰ ... بِوَجْرَةَ أو بِشِعْبَيْ رَامَتَيْنِ (١)
بكُلِّ أَغَرَّ سامِي الطَّرْفِ غُلَّتْ ... يداهُ للإِسارِ بِيارِقَيْنِ (٢)
وأَغْيَدَ أَذْهَلَتْ سَيفَاكَ عَنْهُ ... هَرِيتَ الشِّدْقِ عَبْلَ السَّاعِدَيْنِ (٣)
فيا سُمْرَ القَنَا زَهْواً وفخراً ... (٤) بَيْنَ الجَحْفَلَيْنِ
ويا قُضُبَ الحديدِ خَلاكِ ذَمٌّ ... بما أَحْرَزْتِ من قَصَبِ اللُّجَيْنِ
بطَعْنِ الأَكرَمَيْنِ الأَجوَدَيْنِ ... وضربِ الأَمجَدَيْنِ الأَنجَدَيْنِ
فللهِ المنابِرُ يومَ تبأَى ... بفتحٍ جاءَ يتلُو البُشْرَيَيْنِ

---

(١) وجرة ورامة (وتثنى) : مكانان في البادية مشهوران بكثرة الظباء ، وإنما شبه ابن دراج كثرة ما أتى به المنصور في غزوته تلك من السبايا بوفرة عدد الظباء في هذين الموضعين .

(٢) اليارق : هو السوار .

(٣) هريت الشدق : أي واسعه ، وهو وصف يطلق على الأسد ، وعبل الساعدين : أي غليظها .

(٤) بياض بالأصل .

لئن كانَ اُسْمُهُ في الأَرضِ فَتْحاً　　فَكُنْيَتُهُ تَمامُ النِّعمتَيْنِ
[١٠٠ب]/ فتوحُ عَمَّتِ الدنيا وذَلَّتْ　　لهنَّ رقابُ أَهلِ الخافقِينِ
وخَرَّ لها الصَّليبُ بكلِّ أرضٍ　　صريعاً للجبينِ ولِلْيَدَيْنِ
مآثِرُ عامِرِيَّيْنِ اُسْتَبِدَّا　　لساحاتِ المكارِمِ عامِرَيْنِ
وهِمَّاتٌ تَنَازَعُ سابقاتٍ　　إلى ميراثِ مُلْكِ التُّبَّعَيْنِ
هما شمسا مفارِقِ كلِّ فخرٍ　　فَخَلِّ سَناهُما والمَغْرِبَيْنِ
وبحرَا الجودِ ليثا كلِّ غابٍ　　فَكِلْ عَدْوَيْهِمَا بالعُدْوَتَيْنِ
ويا قُطْبَ العُلاَ مُلِّيتَ نُعْمى　　تَمَلاَّهَا بقُرْبِ الفَرْقَدَيْنِ
فَقُرَّةُ أَعْيُنِ الإسلامِ أَلاَّ　　تزالَ بِمَنْ وَلَدْتَ قَريرَ عَيْنِ

— ١٠٣ —

وله فيه أيضاً رحمة الله عليهما

[من الطويل]

هُوَ النَّصْرُ والتَّمْكِينُ أَدْرَكَ طالِبُهْ　　ولاحَتْ وَشيكاً بالسُّعودِ كواكِبُهْ
وبَشَّرَ بالفتحِ المُبينِ اُفْتِتَاحُهُ　　وأَحْرَزَتِ الصُّنعَ الجليلَ عواقِبُهْ
وسلطانُ عِزٍّ في أُرُومَةِ مَفْخَرٍ　　تعالَتْ عَلى زُهْرِ النجومِ مَرَاتِبُهْ
وجُودٌ تناهىٰ في الخلائِقِ وانتَهَتْ　　إلى «حاتِمٍ» في الأَكْرَمِينَ مَنَاسِبُهْ

تَقَضَّتْ رَجاءَ الراغبينَ سِجَالُهُ وعَمَّتْ كما عَمَّ الغَمامُ مَوَاهِبُهْ
ومَلْجَأُ أَمْنِ المُسْتَضَامِ ومَعْقِلٌ كَفَى الدهرَ حتَّى ما تنوبُ نوائِبُهْ
وسيفٌ مُحَلًّى بالمَكارِمِ جَفْنُهُ مُعَوَّدَةٌ نصرَ الإِلٰهِ مَضَارِبُهْ
إِذا سَلَّهُ دينُ الهُدَى بَكَّرَ الرَّدَى لديهِ يُرَاعِي أَمرَهُ ويُرَاقِبُهْ
تَخَيَّرَهُ الرَّحْمٰنُ من سَرْوِ حِمْيَرٍ فَنَاضَلَ عنه باتِكُ[1] الحَدِّ قاضِبُهْ
مُخَلَّدَةٌ في الصالحينَ سِمَاتُهُ وباقِيَةٌ في العالَمِينَ مَناقِبُهْ
حسامُ الإِمامِ المُصْطَفَى وسِنانُهُ ومَفْزَعُهُ في المُشْكِلاتِ وحاجِبُهْ
هو القَدَرُ المحتومُ، من ذا يَرُدُّهُ ؟ وسلطانُ ربِّ العرشِ، مَنْ ذا يُغَالِبُهْ ؟
سَمَا لعميدِ المشركينَ بعزمَةٍ تداعَتْ لها أَركانُهُ وجوانِبُهْ
وشَيَّعْتَهُ يا ابْنَ الكرامِ بجحفلٍ سواءٌ عليه خَرْقُهُ وسباسِبُهْ
يُكاثِرُ أَعدادَ الحَصَى بِكُماتِهِ وتَعْتَدُّ أَضعافَ النجومِ قواضِبُهْ
لُهَامٌ كسا أَرْضَ الفضاءِ بِجَمْعِهِ وفاضَتْ عَلَى شمسِ النهارِ ذَوَائِبُهْ
[١٠١م] / نَهَضْتَ به والجوُّ بالنَّقْعِ مُفْعَمٌ وأَنْسَتْهُ والليلُ تسطُو غَيَاهِبُهْ
وأَعلَى لَكَ القدرَ الجليلَ أَمَامَهُ لواءٌ أَضاءَ الشرقَ والغربَ ثاقِبُهْ
فلما رأَى «غَرْسِيَّةٌ»(*) أَنَّهُ الرَّدَى يقيناً وأَنَّ اللهَ لاشَكَّ غالِبُهْ

---

(١) أي قاطع .

(*) هناك ملكان من ملوك النصارى كانا يحملان اسم «غرسية» على عهد المنصور بن أبي عامر : أولهما القومس غرسية بن فرذلند (بالإسبانية جارثي فرنانديث ـــ

وقد جَلَّ حزبُ اللهِ دونَ شَغَافِهِ وقد سَلَكَتْ في ناظِرَيْهِ كتائبه
ووافاهُ ريحُ العزمِ يسقي رُبُوعَهُ وتنهَلُّ بالموتِ الزؤامِ سحائبه
وأبصَرَ بحر الموتِ طَمَّ عُبابُهُ وفاضَتْ نواحِيهِ وجاشَتْ غوارِبه
وأيقَنَ أنّ اللهَ صادقُ وَعْدِهِ وأنَّ أمانِيَّ الضلالِ كواذِبه
وأسلَمَهُ ضنكُ المقامِ إلى التي لها قامَ ناعِيهِ وضَجَّتْ نوادِبهْ
وقد رابَهُ أنصارُهُ وكُماتُهُ وأوحَشَهُ أشياعُهُ وأقارِبه

Garci - Fernández) قومس (كونت) قشتالة (حكم بين سنتي ٣٦٠ و ٣٨٥ / ٩٧٠ ـ ٩٩٥م .) والثاني غرسية بن شانجه المعروف بغرسية الثاني Garcia (Sànchaz II) ملك بلاد البشكنس (نبارة) وقد حكم هذا فترة قصيرة بين سنتي ٣٨٤ و ٣٩١ (٩٩٤ ـ ١٠٠٠ م) ، وإلى كلا الملكين قاد المنصور بن أبي عامر عدة حملات مظفرة ، ولسنا نعلم من يقصد ابن دراج منها في هذه القصيدة ، على أننا أميل إلى أن يكون موضوع هذه القصيدة غزوة للمنصور في بلاد الملك البشكنسي غرسية بن شانجه (بين سنتي ٣٨٤ و ٣٩١ هـ .) ، إذ أن ابن دراج يتحدث في هذه القصيدة عن إخفاء الملك النصراني رسله ووزراءه في سبيل التماس الصلح من المنصور ؛ ومن المعروف أن البشاكسة كانوا أكثر انقياداً للمنصور وأرغب في مصالحته من جيرانهم أهل قشتالة الذين كانوا أشد نصارى الأندلس مراساً وأصلبهم مكسراً في حروبهم مع ابن أبي عامر ، وقد ذكرت المراجع المسيحية بالفعل أن غرسية بن شانجه هذا المعروف بـ « الرعديد El Temblón » قد سار على سنة أبيه في معاهدة المنصور والالحاح عليه حتى يمضي له عقد الصلح معه . (انظر كتاب الأب بيريث دي أوربل عن شانجه الأكبر ملك نبسارة .
(Fr. pérez de Urbel Sancho el Mayor, P. 24)

وأخلفَهُ الشيطانُ خادِعَ وعدِهِ ... وأيقنَ أنّ اللهَ عنكَ مُحاربه

تلقّاكَ في جيشٍ من الذُّلِّ جحفلٍ ... صوارِمُهُ آمالُهُ ورغائبه

ومِنْ قَبْلُ أحفى الرُّسْلَ نحوكَ ضارِعاً ... عَلَى حينَ أنْ عَزّتْ لديكَ مطالِبهْ

وأعْيَا بآراءِ التّرضّي وزيرُهُ ... وأنْفَذَ ألفاظَ التَّذَلُّلِ كاتِبهْ

فأعطى بكِلْتَيْ راحتَيْهِ مُبادِراً ... لأمرِكَ مُرْضٍ بالّذي أنتَ راغبه

وأمْكَنَ حَبْلَ الرِّقِّ(١) من حُرِّ جيدِهِ ... مُتابِعَ عَزْمٍ حَيْثُ أمْرُكَ جاذِبُهْ

فأعْطَيْتَهُ ما لو تأخّرَ ساعةً ... لَزُمّتْ إلى نارِ الجحيمِ رَكائِبهْ

وأَضْحَتْ سَبَايَا المسلمينَ حُصُونُهُ ... وقد نَفِدَتْ وِلْدَانُهُ وكواعِبهْ

فَمَلاّكَ عِزّ الملكِ والنصرِ رَبُّهُ ... وهَنّأكَ الصُّنْعَ المُتَمّمَ واهبه

— ١٠٤ —

وله في عبد الملك المظفر رحمهما الله تعالى(٢)

[من الكامل]

شهِدَتْ لكَ الأبطالُ يَوْمَ كِفاحِها ... والحَرْبُ بَيْنَ غُدُوّها ورَواحِها

(١) في الأصل : الرزق ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٢) نظم ابن دراج هذه القصيدة — كما يبدو من الاشارة إلى المنصور بن أبي عامر فيها — في حياة المنصور ، وقد تحدث فيها عن غزوة له في بلاد « بنبلونة » —

والبيضُ يومَ جِلاَئِهاَ ومَضائِهاَ والخيلُ في إِقْحامِهاَ ومِرَاحِها
ومواكِبُ الأَمـلاكِ يومَ بِهائِهاَ ومشاهِدُ السَّاداتِ يومَ سَماحِها
أَنَّ المَدَى يومَ ارْتِهانِ سِباقِهاَ لَكَ والمُعَلَّى يومَ فَوْزِ قِداحِها
عَقَدَتْ بِمَفْرِقِكَ الرياسةُ تاجَها وكَسَتْكَ لِبْسَ رِدائِها وَوِشاحِها
ونَمَتْكَ من أَملاكِ يَعْرُبَ نَبعةٌ تَلْوِي الكواكِبَ في ذُرىً أَدْوَاحِها
[١٠١ب]/ آسادُ أَغْيالٍ عَلَى مُهْتاجِها وبِحارُ إنعـامٍ عَلَى مُمْتاحِها
ومَحطُّ أَرْحالِ المُنَىٰ بِمَوارِدٍ رَحْبٍ عَلَى الوُرَّادِ عَذْبُ مُرَاحِها
ومنابِتُ العِزِّ الذي عَمَرَتْ بِهِ في الدهرِ شُمُّ إِكامِها وبِطاحِها
ومعاقِدُ التيجانِ فوقَ مفارِقٍ بَهَرَتْ إياةَ[٢] الشَّمْسِ من أَوْضاحِها
والبأْسُ مِلْءُ صُدُورِها والحِلْمُ حَشْـــوُ بُرُودِها والجُودُ مَوْطِنُ راحِها
حَكَمَتْ لها مُضَرُ عَلَى ساداتِها يومَ افْتِخارِ «أُحَيْحَةَ بْنِ جُلاحِها»[٣]

ـ أي نبارة ، ونحن نعلم أن المنصور قد وجه عدة غزوات إلى هذه البلاد ، ولسنا نعلم أي هذه الغزوات أراد ، وربما كانت الاشارة إلى حملة وجهها المنصور إلى بنبلونة في سنة ٣٨٩ / ٩٩٩ حينما كان يحكمها الملك غرسية الثاني بن شانجه الذي توفي بعد ذلك سنة ٣٩١ / ١٠٠٠ (م) . (انظر عن تلك الغزوة ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٥٠ ـ ٢٥١ وبيريث دي أوربل : شانجه الأكبر ص ٢٥)

(٢) إياة الشمس : هي شخصها وعلامتها .

(٣) يشير في هذا البيت إلى أبي عمرو أحيحة بن الجلاح الأوسي كان من فرسان يثرب (المدينه) وأشرافها في الجاهلية (انظر عن أخباره أبا الفرج ـ

خَصَّتْ بتعليمِ الأذَانِ فَنُودِيَتْ   في نَوْمِها بِصَلاَحِها وفَلاَحِها
واسْتَقْرَضَ الرَّحْمنُ جَنَّةَ خُلْدِهِ   بِبَتَاتِ حائِطِهِ « أَبُو دَحْدَاحِها » (١)
ومَنَاقِبٌ أَرْبَتْ عَلَى خُطَبائِها   ومآثِرٌ زادَتْ عَلَى مُدَّاحِها
فَنَمَتْكَ في أَقْيالِها ومُلُوكِها   وعَمَرْتَ سُبْلَ نوالِها وسَماحِها
فلَبِسْتَ ثوبَ سَنائِها ووَفائِها   وحَفِظْتَ عَهْدَ سُيُوفِها ورِماحِها

— الاصبهاني : الأغاني ١٣ / ١١٤ - ١٢٢) ولعل ابن دراج يعني بحكم مضر له على ساداتها ذلك الخبر الذي أورده الاصبهاني (أغاني ١٣ / ١١٤) والذي يذكر فيه أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك أبدى إعجابه بإجيحة وتفضيله له لأبيات قالها في الافتخار بقصر الزوراء ، وذلك في حديث للخليفة الوليد مع الأحوص الشاعر .

(١) هو أبو الدحداح الصحابي الأنصاري ، وفي هذا البيت إشارة إلى حديث عن أبي الدحداح هذا رواه الامام مسلم في « الجامع الصحيح » وفيه أن رجلا سمع النبي ﷺ يقول « كم من عذق معلق - أو مدلى - في الجنة لابي الدحداح » ؛ وقال النووي في تفسير هذا الحديث : إن يتيماً خاصم أبا لبابة في نخلة فبكى الغلام ، فقال النبي (ﷺ) لأبي لبابة : أعطه إياها ولك بها عذق في الجنة ، فأبى أبو لبابة ، فسمع ذلك ابو الدحداح فاشتراها من أبي لبابة بحديقة له ، ثم قال للنبي (ﷺ) : أيكون لي بها عذق في الجنة إن أعطيتها اليتيم ؟ قال : نعم ، فأعطاها اليتيم (صحيح مسلم ٣ / ٦٠ - ٦١ ط . القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ .) ؛ وعن أبي الدحداح انظر ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة ، ترجمة رقم ٨٧٨ - ١ / ١٩٣ (ط . القاهرة سنة ١٩٣٩ م) ؛ ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١ / ١٩٧ (على حاشية ابن حجر) ؛ محيي الدين ابن شرف النووي : تهذيب الأسماء واللغات ق ١ ٢ / ٢٢٨ (ترجمة رقم ٣٣٩) .

فَمَبَأْتَ للإسلامِ عَطْفَةَ رَحْمَةٍ ... أَلْحَفْتَ أَهلَ الأَرضِ ظِلَّ جَناحِها

وتباشَرَتْ منكَ المُنىٰ لما دَنَتْ ... بِمُيَسَّرِ الشِّيَمِ الكرامِ مُتاحِها

وبَطَشْتَ بالإشراكِ بَطْشَةَ قادِرٍ ... باللهِ مُجْتَثٍّ العِدىٰ مُجْتاحِها

فَحطَمْتَ عُدَّةَ مُلْكِها، وقَصَمْتَ عُرْ ... وَةَ جَمْعِها، وكَفَيتَ غَرْبَ جِماحِها

وقَرَيْتَ عُلْيا «بَنْبِلُونَةَ» عَزْمَةً ... هَبَّتْ عليها من مَهَبِّ رِياحِها

وتَكَنَّفَتْكَ من السُّعودِ كواكِبٌ ... طَلَعَتْ بِخَيْلِكَ في وجوهِ نَجاحِها

والخيلُ تَغْدُو في الوغىٰ بفَوارِسٍ ... تَخِذَتْ معاقِلَهــا ذُرىٰ أَشباحِها

ثُمَّ انبَرىٰ «المنصورُ» فيها قارِعاً ... بابَ السَّماءِ بِدَعْوَةِ اسْتِفْتاحِها

مُسْتَنْجِزاً تأْييدَ ذِي العَرْشِ الذي ... فَلَقَ المَشارِقَ عن سَنا إِصْباحِها

فَنَهَبْتَ عُمْرَ حياتِها وَحَوَيْتَ رِ ... قَّ (م) حَريمِها وحَكَمْتَ في أَرْواحِها

فأَقَمْتَ فيهــا للجِلادِ ولِلرَّدىٰ ... سُوقاً حَوَيْتَ المَجْدَ في أَرباحِها

ورَمَتْ ظُباكَ إِليكَ نَفْسَ مليكِها ... وارِي زِنادِ الخِزْيِ غيرَ شَحاحِها

مُسْتَرْحِماً لكَ مِن وَقائِعَ لَمْ تَزَلْ ... يُودِي بمُهْجَتِها[(1)] أَلِيمُ جِراحِها

فَزِعاً إِليكَ بنفسِ عانٍ خاضِعٍ ... بادِي المَقــاتِلِ للسُّيوفِ مُباحِها

[١٠٢م]/في شِيعَةٍ أَمَّتْ إِليكَ وقدْ رَأَتْ ... أَنَّ الخضوعَ إِليكَ خَيْرُ سِلاحِها

فأَجَرْتَ منه بالتَّعَطُّفِ مُهْجَةً ... وَقْفاً مواعِدُها عَلى أَنْواحِهــا

---

(١) الضمير هنا عائد على «نفس» الواردة في البيت السابق.

وكَرَّتْ خيلَ اللهِ تَحْمِلُ مِثْلَهَا   أَطْلاحَ أَسفـارٍ عَلَى أَطلاحِهَا
فَصَدَعْتَ أَحشاءَ الظَّلامِ بِعزْمَـةٍ   تَسْرِي البصائِرُ في سَنَا مِصْباحِهَا
والنَّصْرُ يُشْرِقُ في ظُبىٰ أَسيافِهَا   والفَتْحُ يَلْمَعُ في ذُرىٰ أَرْماحِهَا
حتّى صَبَحْتَ بِلادَ «مِيرُو»[1] وَقْعَةً   أَنْحىٰ عَلَى الإِشراكِ سُوءِ صَبَاحِهَا

---

(١) لسنا نعرف من يقصده ابن دراج باسم « ميرو » هذا على وجه التحقيق ، وهو ينبغي أن يكون أحد قوامس الامارات المسيحية في شمال إسبانيا ، وأهم من نعرفه من هؤلاء ممن كانوا يحملون هذا الاسم اثنان :

أولهما ميرو Miro أو ميرون Miron بن سنيار Sunyer قومس برشلونة ، وكان أبوه يحكم هذه الإمارة بين سنتي ٣٠٢ و ٣٤٣ هـ . (٩١٤ – ٩٥٤ م) ، ثم اعتزل سنيار حكمها واعتكف في أحد الأديرة مخلفا عليها ابنين له هما ميرو هذا وأخوه بريل (الثاني) Barrell II ، وقد حكم هذان الأخوان مشتركين حتى توفي ميرو سنة ٣٥٦ / ٩٦٦ دون خلف ، فانفرد بريل بحكم برشلونة حتى توفي سنة ٣٨٢ (٩٩٢م) .

انظر : p . Aguado Bleye Manuel de Historia de España , I , p . 506

أما الثاني فهو ميرو بن ريمند قومس بليارش Pallars (وكانت إمارة شبه مستقلة تقع بين منطقة الثغر الأعلى أي سرقسطة وأعمالها ومملكة نبارة) ، وكان أبوه ريمند الأول Remondo I يحكمها بين سنتي ٢٧١ و ٣٠٤ (٨٨٤ — ٩١٦) ، ولسنا نعلم الكثير عن ميرو هذا إذ لم تمدنا المراجع المسيحية بشيء له قيمته عن حياته وأخباره ، وقد أسلفنا الحديث عن ذلك عند تعليقنا على اسم « ابن ميرو » في موضع سابق من هذا الديوان (انظر ص ٢٠١) .

والذي نراه أن كلا هذين الأميرين يستبعد أن يكون قد أدرك أيام المنصور ابن أبي عامر في أواخر القرن العاشر الميلادي ، على أننا نرى أن إشارة ابن دراج —

لاقتْكَ دونَ حُصُونِها فَكأنَّما ... لاقتْ سُيُوفَكَ في فضاءِ بَرَاحِها

وأبحْتَ منها كُلَّ مُخْطَفَةِ الحَشا ... شَرِقٍ عَلَى اللَّبَّاتِ نَظْمُ وِشاحِها

فُجِئَتْ بِلَمْسِ البَعْلِ إلاَّ أنَّها ... خَطَّتْ رماحُ الخَطِّ عَقْدَ نِكاحِها

بِيضٌ حَدَتْهُنَّ السيوفُ فأبْرَزَتْ ... صَفَحاتِ أَوْجُهِهِنَّ بِيضُ صِفاحِها

يا حاجِباً شمسَ الأَقاصِي والدُّنى ... بِنداهُ ثوبُ أمانِها وصَلاحِها

اِسْلَمْ ولا زالَتْ حياتُكَ غِبْطَةً ... أَبَداً تُدِيرُ عليكَ أَكْؤُسَ رَاحِها

ــ إلى « بلاد ميرو » لا تلزم بأن يكون « ميرو » المذكور ـ أيا كان ـ حيا في تلك الفتره ، فقد يكون يعني بذلك أحد أبنائه أو أحفاده.

هذا والذى نعرفه أن ميرو قومس برشلونة لم ينجب ، أما قومس بليارش فقد احتفظت لنا المراجع المسيحية بذكر اثنين من أبنائه يسمى أحـــدهما جيرمو Guillermo والآخر ريمند Raimundo ولهذا فنحن أميل إلى أن يكون الشاعر قد عني بـ « بلاد ميرو » هذه الامارة الصغيرة التي كان يحكمها في أيام المنصور أحد هذين الابنين أو كلاهما ، كما أن متاخمة بليارش لمملكة نبارة ترجح لدينا هذا الرأي (انظر بشكل خاص José Maria Iacarra : Textos Navarros del Códice de Roda - Estudios de Edad Media de la Corona de Aragón , Vol , 1 , p . 246) .

ولأبي عمر ابن دراج[1] أيضاً في المنصور أبي عامر ، وقد صدر رحمه الله من بعض غزواته من بلاد غرسية بن شانجه (*)

[من الطويل]

تَبَلَّجَ عن إشراقِ غُرَّتِكَ الصُّبْحُ وأَسْفَرَ عن إقدامِكَ النصرُ والفَتْحُ

---

(١) في حاشية هذا الموضع تعليق بخط مغاير لخط الناسخ هذا نصه : « صرح الكاتب هنا باسم ناظم هذا الديوان » .

(*) هو غرسية بن شانجه ملك نبارة ، حكم بين سنتي ٣٨٤ و ٣٩١ (٩٩٤ - ١٠٠٠) ، انظر تعليقنا عليه في موضع سابق (ص ٣٧٩) . أما مناسبة هذه القصيدة فيبدو لنا أنها كانت عند عودة المنصور من الحملة التي عرفت باسم « غزوة جربيره Gervera » التي دارت فيها موقعة عنيفة بين جيوش المنصور وجيوش النصارى في ٢٥ شعبان سنة ٣٩٠ (= ٣٠ يولية سنة ١٠٠٠) ، وكانت الممالك النصرانية في شمال إسبانيا قد ائتلفت لمحاربة المنصور ، فاشتركت في الاستعداد للحرب قشتالة التي كان يحكمها شانجه بن غرسية بن فرذلند ونبارة التي كان يحكمها غرسية بن شانجه (المذكور في عنوان القصيدة) وقريون Garriòn التي كان يضطلع بحكمها غرسية بن غومس وأسرته وليون التي كانت خاضعة لسلطان ألفنش بن برمند (ألفونسو الخامس Alfonso V) ، وكان شانجه بن غرسية قومس قشتالة هو زعيم هذا الائتلاف النصراني ، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار المنصور العامري على جيوش المسيحيين بعد أن كادت الهزيمة تلحق بجيوش قرطبة ، —

وقَرَّتْ عيونُ المسلمينَ بأَوْبَةٍ مصادِرُها عِزٌّ ومَوْرِدُها نُجْحُ
كأنَّ شُعاعَ الشمسِ من نُورِ هَدْيِها وعَرْفَ نسيمِ الروضِ من طِيبِها نَفْحُ
ضَرَبْتَ بحِزْبِ اللهِ في الأَرضِ مُقْدِماً إلى مَتْجَرٍ جنَّاتُ عَدْنٍ لَهُ رِبْحُ
فَضَعْضَعْتَ تيجانَ الضَّلالِ بوَقْعَةٍ عَلَى الشِّرْكِ لا يُؤْسىٰ لها أَبَداً جُرْحُ
ورَوَّيْتَ من ماءِ الجَماجِمِ والطُّلىٰ مُتونَ جِيادٍ شَفَّها الظَّمَأُ التَّرْحُ
بوارِقَ ما أَوْمَضْنَ عنكَ لِناكِثٍ فأَخْلَفَ من سُقْيا دَمٍ دِيمَةً تَسْحُو[1]
صفائِحُ أَعداها سناكَ فأَشْرَقَتْ ولم يَعْدُهُنَّ العفوُ منكَ ولا الصَّفْحُ
وزُرْقاً تعالىٰ لِلْعُداةِ كأَنَّما تَطايَرَ من زَنْدِ المَنُونِ لها قَدْحُ
هَوادٍ إذا جَدَّيْنَ عنكَ لِناكِثٍ فَحَتْمُ المنايا من لَوَاحِظِها لَمْحُ
[١٠٢ب]/ وسابِحَةٌ في البَرِّ والبَحْرِ لم يَزَلْ ببأْسِكَ في بحرِ الدماءِ لها سَبْحُ
إذا جَمْجَمَتْ يوماً بها منكَ صَوْلَةٌ إلى الشِّرْكِ لم يَمْلِكْ أَعِنَّتَها الكَبْحُ

— وكان لابني المنصور عبد الملك وعبد الرحمن في هذا اليوم بلاء حسن ، وقد اقتحمت الجيوش الاسلامية بعد ذلك النصر أرض بنبلونة وخربتها ، ويبدو أن ذلك كان قبل موت ملك نبارة غرسية بن شانجه (سنة ٣٩٠ / ١٠٠٠) بقليل ، وقد احتفظ لنا ابن الخطيب بتفصيل واف لهذه الغزوة (أعمال الأعلام ص ٦٩ — ٧٣) . وانظر ما كتبه عنها ليڤي بروڤنسال : تاريخ ٢ / ٢٥٢ — ٢٥٤ وبيريث دى أوربل : شانجه الأكبر ص ٢٥ — ٢٦ .

(١) أي تجرف وتقشر ، ويقال ذلك في السيل أو المطر إذا كان شديداً ، ويحتمل أيضاً أن تكون « سحّ » .

رفَعْتَ براياتِ الهُدٰى من صدورِها هواديَ أَدْنىٰ شَأْوِها الشَّدُّ والضَّبْحُ[1]
فما حَمَلَتْ خَطْباً إلى دارِ خالِعٍ وإنْ عَزَّ إلا كانَ أَيْسَرَهُ الفَدْحُ
ولا وَطِئَتْ لِلْكُفْرِ أَرْضاً وإنْ نأَى بها الغَوْلُ إلا مَسَّها مِنْهُمُ قَرْحُ
فكَمْ رَوَّعَتْ لِلْغيِّ في عُقْرِ دارِهِ حِمىً لم يُرَعْ من قَبْلِهِنَّ لَهُ سَرْحُ
بكُلِّ حَمِيِّ الأَنْفِ دونَكَ لم يَخِمْ بهِ ساعِدٌ عَبْلٌ ولا صارِمٌ شَبْحُ[2]
تَحَلَّوْا فَناطُوا بِالْعَواتِقِ في الْوَغىٰ جيوباً كِراماً حَشْوُهُنَّ لَكَ النُّصْحُ
وكم طَرَدُوا من تحتِ غِيلٍ وغابَةٍ إليكَ أُسوداً ما يُمَلُّ لها ذَبْحُ
وسِرْبِ مهاً أَخلىٰ الهياجُ خدودَها فأسفر عن أَحداقِها الضَّالُ والطَّلْحُ
لَواهٍ عن الأكفاءِ عِزّاً وإن تَقُلْ لها بالقنا الخَطِّيِّ خِطْبٌ تَقُلْ نِكْحُ
تركْنَ عميدَ الشِّرْكِ ما بينَ جفنِهِ وبينَ غِرارِ النَّوْمِ عهدٌ ولا صُلْحُ
يلوذ بشُمِّ الراسياتِ وسَحْرُهُ من الطَّوْدِ شِعْبٌ لِلْمُخاتِلِ[3] أوسَفْحُ
وما كَرَّ إلا نادِياً لمعاهِدٍ لكَ الفَرَحُ الباقي بها وَلَهُ التَّرْحُ
ويا رُبَّ عِلْقٍ لم يَسُسْهُ مُوَفَّقٌ فوَفَّرَهُ جودٌ وبَدَّدَهُ شُحُّ
تركْتَ لعينَيْهِ مقاصِرَ عِزِّهِ وأَحسَنُ ما حَلَّيْتَ أَوْجُهَها القُبْحُ
وأوطَأْتَ أَيدي الخيلِ بَيْضَةَ مُلْكِهِ فأَقْلَعْنَ لا قَيْضٌ هُناكَ ولا مُحُّ

---

(١) في الأصل : والصخ .
(٢) أي طويل .
(٣) في الأصل : المحاتل .

وإنْ حَمَتِ[1] الآجالُ بَعْضَ حُماتِهِ ... فإنَّكَ في أعجازِ ليلِهِمُ صُبْحُ
وأنتَ ركزْتَ الملكَ[2] في الأرضِ مثلَما ... يُثَبِّتُ فيها ذُو الجلالِ وما يَمْحُو
لقد كَدَحُوا نَكْثاً لعهدِكَ منهمُ ... فَخُيِّبَ ذاكَ السَّعْيُ وانقلبَ الكَدْحُ
وأمْسَوْا وأَضْحَوْا مُوجِفِينَ ببغيِهِمْ ... إلى نِقَمٍ أمسَوْا لهُنَّ ولم يُضْحُوا
مواردُ لا مرعىً السيوفِ بِعُقْرِها ... جديبٌ ولا شُرْبُ الرماحِ بِهانَشْحُ[3]
سريتَ لهمْ بالخيلِ في ظِلِّ غَيْهَبٍ ... من الليلِ ما يُطْوى عليكَ له كَشْحُ
تقابلَ فيه البدرُ والبدرُ والقنا ... وزُهْرُ نجومِ الليلِ والجُنْحُ والجُنْحُ
وسبطانِ من أملاكِ يَعْرُبَ أقْدَما ... بأجنادِها كالنجمِ يَقْدُمُهُ النَّطْحُ[4]
[١٠٣ أ]/ سِراجانِ للإسلامِ ما طَلَعا مَعاً ... عَلَى الخطبِ إلا بَشَّرَ اليُمْنُ والنُّجْحُ
فهذا حسامٌ في يدِ الملكِ قاضِبٌ ... رَسُوبٌ[5] وهذا في يمينِ الهُدى رُمْحُ
هو الحاجِبُ المُحْتَلُّ من رُتَبِ العُلاَ ... بحيثُ تناهى الفخرُ والحمدُ والمدحُ

---

(١) غير واضحة في الأصل .
(٢) هاتان الكلمتان مطموستان في الأصل لاتبدو منها إلا بعض حروفها . (*)
(٣) النشح : هو الشرب القليل الذي لا يروي .
(٤) النطح : نجم من منازل القمر ، والإشارة هنا إلى ابني المنصور .
(٥) السيف الرسوب : هو الذي يغيب في الضريبة .

(*) إن هذا من الشرك اللفظي الذي لا يجوز قوله ، وقد ورد شيء قريب من ذلك فيما سبق «المكتب الاسلامي»

وأَنْفَسُ نفسٍ في الورى غيرَ أَنـهُ إذا لَقِيَ الأعداءَ فَهْوَ بهـا سَمْحُ
وصِنوُ عُلاهُ « ناصِرُ الدولةِ » الذي يفوزُ له في كُلِّ مكرُمَةٍ قِدْحُ
فتِـلْكَ الرُّبى من « بَنْبِـلُونَةَ » والحِمى من الرَّاحِ [1] مُسْوَدٌّ بأَرْجَائِـهِ الصُّبْحُ
وَبيعةُ « شَنْتَ أَقْرُوجَ » [2] أَوْرَيْتَ فوقَها سَنا لَهَبٍ فيهِ لعَمْيائِهـا شَرْحُ
وكان لها الفِصْحُ الأَجَلُّ فأَصْبَحَتْ لنارِكَ فِصْحاً مالها بَعْدَهُ فِصْحُ
فللّهِ عَيْنا من رأى بِكَ صَرْحَها و مِنْ جاحِمِ النِّيرانِ في سَمْكِهِ صَرْحُ

---

(١) لم نوفق إلى معرفة ما يقصده الشاعر بقوله « الحمى من الراح » ، ولو أننا نظنه يعني المنطقة المعروفة الآن باسم La Rioja وكانت عاصمتها ناجرة Nájera التي تردد ذكرها في هذا الديوان .

(٢) في الأصل « شنت افروج » ولعل الصحيح ما أثبتنا ، والشاعر يعني بغير شك كنيسه كانت تسمى « Santa Cruz » (ومعناها الصليب المقدس) ، ولم تحفظ المراجع العربية شيئاً عن كنيسة بهذا الاسم خربها أو أحرقها المنصور بن أبي عامر ، غير أن الوثائق المسيحية التي بقيت من أوائل القرن الحادي عشر الميلادي تذكر أن هناك ديراً يحمل هذا الاسم كان من بين ما خربته حملات المسلمين ، وأن السلطات الكنسية كانت تجتهد في سنة ١٠٣٥ م (٤٢٧ هـ .) في إصلاحه وترميمه ، ولا يستبعد أن تكون هذه « البيعة » التي يتحدث عنها ابن دراج هي نفسها ذلك الدير الذي أشارت إليه الوثائق (انظر بيريث دي أوربل : شانجه الأكبر ص ١٠٥). وهو مقال نشره في مجلة المجمع التاريخي الملكي الأستاذ سرانو سأنث عن بعض الوثائق المحفوظة بكنيسة « سانتا ماريا دل بورتو » ، المجلد الثالث والسبعون ، ص ٤٣١) .

رفعتَ من الصُّلبانِ في عَرَصاتِها ... وقُودا لَهُ في وَجْهِ « رُوميةٍ »[1] لَفْحُ

وفَجَّرْتَ فيها من دِماءِ حُماتِها ... بُحُوراً لها في تاجِ مُلْكِهِمُ نَضْحُ

وأَشرعْتَ في أَرجائِها كُلَّ ثاقِبٍ ... له في شَغافِ القلبِ من قَيْصَرٍ جُرْحُ

طوالِعَ من آفاقِ جيشٍ كأنَّهُ ... بِخَرْقِ المَلا كِسْفٌ من الليلِ أو جُنْحُ

يضِلُّ مدى الأَبصارِ في جَنَباتِهِ ... ويَحْسرُ عن غاياتِهِ الرِّيحُ والضِّحُّ[2]

فجوزيتَ عن سعي البِلادِ بأنْعُمٍ ... ذخائرُها فَوْزٌ وعاجِلُها فَتْحُ

ووُفِّيتَ أَجْرَ الصابرينَ مُضاعَفاً ... من الدينِ والدنيا، لَكَ المَنُّ والمَنْحُ

ومُلِّيتَ شهراً للصيامِ نَسَكْتَهُ ... بأَشْفاعِ غزوٍ دأْبُها الضربُ والكَفْحُ

ولا زالَ عِزُّ النصرِ والفتحِ عامِداً ... لآيةِ ما يَنْوي وآيةِ ما يَنْحُو

— ١٠٦ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله وقد خرج غازياً

[من الكامل]

سِرْ سارَ صُنْعُ اللهِ حيثُ تسيرُ ... قُدُماً وساعَدَ عَزْمَكَ المقدورُ

---

(١) يقصد برومية المسيحية عامة .

(٢) الضح : هو ضوء الشمس ، ويقال جاء بالريح والضح أي بما طلعت عليه الشمس وهبت الريح .

وَوَصَلْتَ موصولاً بِبُغْيَتِكَ المُنىٰ ... ومُيَسَّراً لمُرادِكَ التَّيْسِيرُ
وأعادَ عاداتٍ جَرَتْ لكَ بالمُنىٰ ... ربٌّ عَلى أَضعافِهِنَّ قديرُ
فالسعدُ بالنصرِ العزيزِ مُخَبِّرٌ(1) ... واليُمْنُ بالفتحِ المُبينِ بَشيرُ
حكَمَتْ لكَ الأَقدارُ أنَّك باهِرٌ ... مُلْكَ الملوكِ وأنَّهُ مَبْهُورُ
وقضىٰ لكَ الرحمنُ أَنَّكَ قاهِرٌ ... حِزْبَ الضَّلالِ وأنَّهُ مَقْهُورُ
/ جُعِلَتْ فداءَكَ أَنْفُسٌ أَحْيَيْتَها ... وبها جميعاً — لا بِكَ — المَحْذُورُ [١٠٣ب]
فَانْهَضْ بحزبِ اللهِ يَقْدُمُ جَمْعَهُ ... حِفْظُ الإِلٰهِ وسعيُكَ المشكورُ
في جحفَلٍ جَمٍّ العديدِ كأنَّهُ ... فَلَكٌ على الأَرْضِ الفضاءِ يَدُورُ
عُمَّتْ به الأقطارُ إلا موضِعاً ... فيه عَدُوُّكَ للسيوفِ أسيرُ
لَجِبٍ يغُصُّ الأَرضَ وَهْيَ عريضَةٌ ... ويَرُدُّ غَرْبَ الطَّرْفِ وَهْوَ حسيرُ
من كُلِّ مقدامٍ يكادُ فؤادُهُ ... طَرَباً إلى نَغَمِ السيوفِ يطيرُ
مُتَسَرْبِلٍ صَدَأَ الحديدِ كأنَّهُ ... قَمَرٌ تعَرَّضَ دونَهُ ساهُورُ
ومُهَنَّدٍ يُزْجِي المنونَ كأنَّهُ ... عبدٌ بطاعَةِ حَدِّهِ مَأْمورُ
لُجٌّ بشيرُ النصرِ فيهِ سابِحٌ ... بَرْقٌ سحابُ الموتِ منهُ قَطيرُ
ومُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ كأنه ... قَلَمٌ تمكَّنَ من شَباهُ النُّورُ
وأَقَبَّ مصقولِ الأديمِ كأنَّهُ ... بَحْرٌ بِرَيْعانِ الجِراءِ يَمُورُ

---

(1) في الأصل: مخبر.

مَرِحٍ يَكُرُّ القلبُ حيثُ يقودُهُ ويسيرُ طرفُ العينِ حيثُ يسيرُ
هَزِجٍ يكادُ يَبِينُ في نَغَماتِهِ ويلاكَ يا « غَرْسِيَّةُ » المغرورُ !!
أَيْنَ النَّجاءُ وقد أَظلَّكَ مُغْضَباً ليثُ العَرِينِ الحاجِبُ « المَنْصُورُ »؟!
وأَتاكَ في لبسِ الحديدِ مُضاعَماً سيفُ الهُدى ولواؤُهُ المنشورُ !

سَهْمٌ — إذا شَجَرَ[1] القواضِبُ — صائِبٌ
سيفٌ — إذا اعْتَنَقَ الكماةُ — مُبيرُ
غيثٌ — إذا ما الغيثُ أَخْلَفَ — هاطِلٌ
بَدْرٌ — إذا دجَتِ الخطوبُ — مُنيرُ

سامٍ إلى شِيَمِ الملوكِ مُنازِعٌ هادٍ عَلَى خُلُقِ الهُدى[2] مَفْطُورُ
مُتَفَرِّدٌ بمناقِبٍ مُتَقَاصِرٌ عن كُنْهِها المنظومُ والمنثورُ
عبدُ المليكِ فتى المكارمِ والَّذي حَظُّ الرَّجاءِ بِسَيْبِهِ مَوْفُورُ
فَهنَاكَ سَلَّكَ[3] صارِمَيْنِ كِلاهُما للملكِ والدينِ الحنيفِ نَصيرُ
وذخيرةٌ في النائباتِ وَمَعْقِلٌ من صرفِ أحداثِ الزمانِ مُجيرُ
حازَا سَنَاءَ مناظِرٍ ومَخابِرٍ مُلِئَتْ بِهِنَّ نواظِرٌ وصُدُورُ

---

(١) في الأصل : أشجر ، وقد تكون اشتجر .

(٢) في الأصل : الهوى .

(٣) في الأصل : سلاك ، ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى ، ولعل الصواب ما أثبتنا ؛ ويحتمل أن تكون أيضا : فَهَنَّاكَ سَلاً ... الخ » .

وقال فيه أيضاً رحمهما الله وقد ورد الخبر على المنصور
بإقبال ابن / شانجه صهره (*) محكماً له في نفسه [١٠٤م]
إثر ما كان من إيقاع المنصور به

[من الطويل]

أَلاَ هَكَذَا فَلْيَسْمُ للمجدِ مَنْ سَما ويَحْمِ ذِمارَ المُلْكِ والدِينِ مَنْ حَمى

(*) يعني ابن دراج بـ «ابن شانجه» هذا «شانجه الثاني بن غرسية الأول بن شانجه الأول» ثالث ملوك البشكونس (مملكة نبارة)، وهو الذي ينبز في المراجع المسيحية بلقب Abarca، حكم مملكة نبارة بين سنتي ٣٦٠ و ٣٨٢ (٩٧٠ — ٩٩٤) أي معاصراً للحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر، وقد بدأ شانجه هذا حكمه بتجديد عهود الخضوع للحكم المستنصر، إلا أنه لم يلبث أن نقض عهده وتحالف مع ملك ليون وقومس قشتالة ضد المسلمين، فأوقع به المستنصر ثم المنصور العامري في عدة غزوات قتل في إحداها ابن لشانجة هذا اسمه رذمير Ramiro (في سنة ٣٧١ / ٩٨١)، فعول الملك البشكنس حينئذ على تأكيد عهود الصلح مع المنصور، بل إنه أهدى إليه ابنة له، فقبلها المنصور وأعتقها وتزوجها وتسمت بـ «عبدة» وحسن إسلامها، وأولدها المنصور ابنه عبد الرحمن الملقب من أجل ذلك بشنجول (تصغير شانجه اسم جده لأمه)، ويقول ابن الخطيب بعد ذلك: إنه «لم تزل الأيام حتى ورد أبوها الملك على بابه [أي باب المنصور] زائراً —

وإلاَّ « فللمنصورِ » غاياتُ ما شآ إليه بَني الدنيا وأغراضُ مَنْ رَمى
وحَقٌّ لِمَنْ لاقى فأقدمَ سَيْفُهُ عَلَى غَمَرَاتِ الموتِ أَن يتقدَّما
ومن حَقَرَتْ مستعظَمَ الهولِ نَفْسُهُ إذا الخيلُ كرَّتْ أن يكونَ المعظَّما
ومن [مَلَّ](1) أنْسَ المالِ حتى تحكَّمَتْ على ما حَوَتْ كفَّاهُ أن يُتَحَكَّما
ومَنْ حَمَتِ العِلْقَ النفيسَ سيوفُهُ من الضيمِ أن تختارَ مُرْتَبَعَ الحَمَا(2)
ومن تَيَّمَتْهُ أوجُهُ المجدِ أن يُرى وقلبُ العلا صبّاً إليه متيَّمَا
ولله يا « منصورُ » آراؤكَ التي بنيتَ بها نحوَ الكواكبِ سُلَّما
وهذا عظيمُ الشِّرْكِ قد جاء خاضِعاً وألقى بكفَّيْهِ إليكَ مُحَكِّما
سليلُ ملوكِ الكفرِ في ذِرْوَةِ السَّنا ووارثُ ملكِ الرُّومِ أَقْدَمَ أقْدَما
توسَّطَ أنسابَ القياصِرِ فانتمى من الصِّيدِ والأملاكِ أقْرَبَ مُنْتَمى
ولما تقاضى غَرْبُ سيفِكَ نَفْسَهُ وحاطَتْ له الأقدارُ مُحْتَقَنَ الدِّمَا

ـــ ومستصرخا » (أعمال الأعلام ص ٦٦) ، وقد وصل شانجه إلى قرطبة في ٣ رجب سنة ٣٨٢ / ٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ ، واستقبله المنصور استقبالا رائعا فخما ، وقد أفاض في وصف حفل الاستقبال ابن الخطيب (نفس المرجع ص ٧٣ – ٧٤) . وانظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٤٢ – ٢٤٣ .

أما تاريخ هذه القصيدة فينبغي أن يكون في المناسبة المذكورة . وسترد قصيدة أخرى لابن دراج في نفس الموضوع .

(١) إضافة يقتضيها الوزن والمعنى .

(٢) أي الحمأ بتسهيل الهمزة .

ولم يستطِعْ نحوَ الحياةِ تأخُّراً بِفَوْتٍ ولا نحوَ النَّجاةِ تقدُّما
تداركَهُ المقدارُ في قبضةِ الرَّدىٰ وخاطَبَهُ حنَّاً عليهِ فأفْهَمَا
وبشَّرَهُ التأميلُ منكَ بعَطفَةٍ تلقَّى بها رَوْحَ الحياةِ تنسُّما
فأشْرَعَ أرماحَ التذَلُّلِ طاعِناً وأصْلَتَ أسيافَ الخضوعِ مُصَمِّما
وقابَلَهُ النصرُ الذي لك صَفْوُهُ مع السعدِ [حتىٰ] (١) احتَازَهُ لكَ مَغْنَما
وقادَ لحبلِ الرِّقِّ نحوكَ نفسَهُ فلاقاكَ مُمْتَنَّاً ووافاكَ مُنْعِما
وحَفَّتْ به للحاجِبِ القائِدِ الَّذي أبىٰ الدهرُ إلا ما أمَرَّ وأحْكَما
حمايَةُ آباءٍ ومنعةُ قادرٍ يتيهُ عَلى صرفِ الزمانِ مُحَرَّمَا (٢)
فراحَ ذليلاً ثم أضحىٰ مُبَجَّلاً وأمسىٰ مُهاناً ثم أصبح مُكْرَمَا
وأصبح من حظِّ السلامةِ وافِراً بأن راحَ من عزِّ الإمارةِ مُعْدِما
ولاقاكَ فاسْتَخْذىٰ لديكَ تذلُّلاً ليحتازَ من أدنىٰ رضاكَ تَرَحُّما
لئن خَفَرَتْهُ منكَ ذِمَّةُ قادرٍ لقد فارقَ الكُفْرَ الخذولَ مُذَمَّمَا
لئن سُمْتَهُ البأساءَ في عُقْرِ دارِهِ لقد عُضْتَهُ في دارِ ملكِكَ أنْعُمَا

(١) في الأصل : « مع السعد الذي احتازه لك مغنما » ، ويرى أن كلمة « الذي » الواردة هنا مؤدية إلى اختلال الوزن وعدم اتساق المعنى ، وقد أثبتنا في موضعها كلمة « حتى » التي يستقيم بها الوزن والمعنى ، وقد يكون أيضاً في موضعها « لما » .

(٢) في الأصل : فحرما .

لَئِنْ خاضَ في اسْتقبالِكَ الجودَ والنَّدى ... لَقَدْ خاضَ في آثارِكَ النَّقعَ والدَّما
ومرَّ يُبَكّي من معاهِدِ مُلكِهِ ... معالِمَ عَفَّتْهَا السيوفُ وأَرْسُما
تُراعُ بها الأَجبالُ من رَنَّةِ الصَّدى ... ويُذْعَرُ فيها الطيرُ أن يَتَرَنَّمَا
بسطْتَ له أَمْناً وقد بَسَطَ القنا ... تَرَى أَرضِه من هَلِّهَا بكَ أَعْظُما
سقيتَ بهِ الإسلامَ أَرْياً وطالما ... سقاهُمْ بكأسِ الموتِ صاباً وعلقما
وها هُوَ ذَا في راحَتَيْكَ مُذَلَّلاً ... رهيناً لما أَمضَيْتَ فيه مُحَكِّما
رمَى نفسَهُ قَسْراً إلى المَلِكِ الذي ... رأى الدهرَ مملوكاً لَهُ فَتَعَلَّمَا
ولولا سيوفُ النصرِ حينَ انْتَضَيْتَهَا ... لقد جلَّ هذا الصُّنْعُ أن يُتَوَهَّمَا
فجاءَ وقَيْدُ الرَّوْعِ يَقْصُرُ خطوَهُ ... ويَمتَدُّ في حبلِ الخضوعِ تَقَدُّما
يخاطِب عن رعبٍ وإن كانَ مُفْصِحاً ... ويُفْصِحُ عن ذعرٍ وإن كانَ أَعجما
إذا راعَهُ هولُ الجنودِ فأَحْجَما ... تداركَهُ ذِكرى رِضاكَ فأقدما
وما كرَّ رجْعَ الطرفِ إلا وضَيغَمٌ ... يُساوِرُ في رُعْبِ الأَسِنَّةِ ضيغما
وأَرْقَمُ يسطُو بالهواءِ اضْطِرابُهُ ... يناهِسُ في ليلٍ من النقعِ أَرقما
وعِقبانُ أعلامٍ تَمُرُّ يخالُها ... عَلَى نفسِهِ في مَعْرَكِ الحربِ حُوَّما
فللهِ يومٌ جلَّ قدرُ عديدِهِ ... وعُدَّتِهِ عن مِثْلَما[1] وكأنَّما
جنودٌ كأَنَّ الأَرضَ من لَمعانِها ... بروقٌ تلألأَ أو حريقٌ تَضَرَّما
سحابٌ من البيضِ الخوافِقِ قدْ عَلاَ ... وبحرٌ من السَّرْدِ المضاعَفِ قد طَمى

(١) في الأصل : مثلها .

بِكُلِّ كَمِيٍّ عامِرِيٍّ كأَنَّما تَسَرْبَلَ من شمسِ الضُّحىٰ وتعمَّما
يُحَيِّي الأَميرَ بالحياةِ مُبَشِّراً وإن كانَ قد فاجاهُ بالموتِ مُعْلِما
وقد طالما لاقاهُ قِرْناً مُساوِراً فَوَشْكانَ ما لاقاهُ حِزْباً مُسَلِّما
كأَنَّ النجومَ الزُّهْرَ حَفَّتْ بوجهِهِ فأَدَّتْهُ محروساً إلى قَمَرِ السَّما
فقابَلَ وجهاً بالجمالِ مُتَوَّجاً وقبَّلَ كفًّا بالسماحِ مُخَتَّما
فَهُنِّيتَ يا « منصورُ » سَعْداً مُجَدَّداً وإقبالَ صُنعٍ بالبقاءِ مُتَمَّما
ومُلِّيتَ من أَسباطِ مَجْدِكَ حاجِباً يباشِرُ منه المجدُ والفخرُ مَقْدِما
/ رَمَيْتَ به بحرَ الضلالةِ فانتهىٰ وجَشَّمْتَهُ [عِبْءَ] (١) العلا فتجشَّما [١٠٥ م]

— ١٠٨ —

وله إليه رحمهما الله عند أوبته من سرقسطة والثغر الأعلى

[من البسيط]

شِيمَا سَنَا البارِقِ المنهلِّ فالْتَمِحا أَيَّ السُّرىٰ أَمَّ أَمْ أَيَّ البلادِ نَحا
واسْتَخْبِرَا نَفَحاتِ الرِّيحِ هل سَبَكَتْ
دُرّاً من التِّبْرِ أو شابَتْ دُجىً بِضُحىٰ

(١) لم يبق على هذه الكلمة إلا حرف الباء .

أَم استهامَتْ هوادِي اللَّيْلِ فاقْتَبَسَتْ ... أَمْ هل تَضَلَّلَ حادِي المزنِ فَاقْتَدَحا

سارٍ كأَنَّ اضطرامَ الشَّوْقِ أَقلَقَهُ ... فليسَ يَرْقَأُ منه مدمعٌ سَفَحا

ومستهِلٌّ حياً أَحْيا الوَرىٰ غَدِقاً ... بَلْ طائرٌ بِتَباشيرِ المُنىٰ سَنَحا

سناً تأَلَّقَ في دارٍ يُبَشِّرُنـــا ... دنُوُّهُ بِتَلَقِّي شاحِطٍ نَزَحا

هي السَّوَانِـحُ «للمنصورِ» قد نَطَقَتْ ... بقُرْبِهِ وخفاء الفَأْلِ قد بَرِحا

لعلَّ قادِمَ بِشْرَاهُ يُخَبِّرُنـــا ... عن هاجِسٍ بأَماني النَّفْسِ قد نَجَحا

برقٌ تهلَّلَ في المزنِ الهَتُونِ كَأَنْ ... من وجهِهِ ضاءَ أَو عَنْ كَفِّهِ سَمَحا

والرِّيحُ تسحَبُ ذيلَ القطرِ في أَرَجٍ ... وَحْفٍ[1] كأَنَّ رِيَّا ذِكرِهِ نفَحا

إِنَّ المَلاَ بجنودِ الأَرضِ قد بَجَحَتْ[2] ... والجَوُّ من رَهَجِ الفرسانِ قد طَفَحا

بكُلِّ مُعْتَنِقِ الأَقرانِ في كُرَبٍ ... لو زُلْزِلَتْ قُنَنُ الأَطوادِ ما بَرِحا

شَرىٰ من اللهِ نَفْساً حُزْتَ طاعَتَها ... فأَحرزَ الدينَ والدنيـا بما رَبِحا

كأَنَّـهُ في مجالِ الخيلِ لَيْثُ شَرىً ... وعندَ مُزْدَحَمِ الفرسانِ قُطْبُ رَحىٰ

يكادُ يشتفُّ[3] نفسَ القِرْنِ من طَرَبٍ ... إِذا المهنَّدُ غَنَّاهُ بمـا اقْتَرَحا

وسابِـحِ الشَّأْوِ ما أَقْحَمْتَ هادِيَـهُ ... بحرَ المهالِكِ إِلا غاضَ أَو سَبَحا

طِرْفٍ تقودُ عِنانَ الطَّرْفِ غُرَّتُهُ ... إِذا تعالىٰ مُجِدّاً أَو وَنىٰ مَرِحا

---

(١) الوحف من الشعر والنبات : ما غزر وأثت أصوله .

(٢) بجح بالشيء : فرح به وافتخر .

(٣) اشتف الماء : أي تقصى شربه حتى لم يفضل منه شيئا .

وأَزْرَقٍ يتلظّىٰ فوقَ عامِلِهِ شهابُ قَذْفٍ إلى العَيُّوقِ قد طَمَحَا
ومُرْهَفٍ يَتَثَنَّىٰ شارِباً ثَملاً من طولِ ما اغْتَبَقَ الأَرواحَ واصْطَبَحَا
هاتيكَ أَجنحةُ الراياتِ خافقَةً إلى المُبَارَكِ من جَوِّ العُلاَ جُنُحَا
وقلَّبَ الملكُ في الآفاقِ مُنتظِراً طَرْفاً إلى الغُرَّةِ العلياءِ مُلْتَمِحَا
والأرضُ قد لبِسَتْ أَثوابَ زَهْرَتِها وقُلِّدَ الروضُ من أَزهارِهِ وُشُحَا
/ والأَيْكُ يهفو بأَنفاسِ الصَّبَا سَحَراً قد هَبَّ مُسْتَنْطِقاً أَوتارَهُ الفُصُحَا [١٠٥ب]
يا مَنْ إليهِ استطارَ الشوقُ أَنفُسَنا نَأْياً وآبَ فطارَتْ نَحْوَهُ فَرَحَا
مُلّيتَ حاجِبَكَ الأَعْلَى ودُمْتَ لَهُ وقُمْتَ بالشُّكْرِ فيهِ لِلَّذي مَنَحَا
نجمٌ أَنافَتْ عَلَى الدنيا رِياسَتُهُ ومَعْلَمٌ للهُدىٰ والدينِ قد وَضَحَا
سَلاّتُهُ لِحِمىٰ الإِسلامِ مُنتَقِماً مِمَّنْ عَتَا في سبيلِ اللهِ أَو جَمَحَا
مُتَوَّجاً بسناءِ المُلْكِ مُشتمِلاً بالحزمِ مُلتحِفاً بالبأْسِ مُتَّشِحَا
مُسْتَنْصِراً اللهِ في الأَعداءِ مُنْتَصِراً لَهُ ومُستفتِحاً باللهِ مُفْتَتِحَا
ملاذُنا من صروفِ الدهرِ إِن طَرَقَتْ دُهْماً ومفزَعُنا في الخطبِ إِن فَدَحَا
الشِّعْرُ أَجْدَرُ أَن يلقاهُ مُعْتَرِفاً بالعجزِ عمَّا يُناوِي منه مُمْتَدِحَا
والصُّحْفُ تَنْفَدُ والأَقلامُ عاجِزَةٌ عن خَطِّ ما اجْتَثَّ من أَعدائِهِ وَمَحَا
فَعِشْ ودُمْ وابْقَ واملِكْ واقتَبِلْ نِعَماً واحلُلْ منيعاً من المكروهِ مُنْتَزِحَا
وقَرَّ عيناً بِسِبْطَيْ حِمْيَرٍ حِقَباً مُستوفِياً فيهما آمالَكَ الفُسُحَا

— ١٠٩ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى وقد ورد عليه القومس ابن غومس (*) في أثر إيقاعه به

[من البسيط]

جاءَتْكَ خاضعةً أَعناقُها الأُمَمُ ... مُسْتَسْلِمِينَ لِمَا تُمضِي وتَحْتَكِمُ

واسْتَرْهَنَتْكَ ملوكُ الأَرضِ أَنْفُسَها ... ما استنفَدَ البأْسُ أَوما استدْرَكَ الكَرَمُ

(*) ينتمي هذا القومس (الكونت) إلى أسرة عرفت في التاريخ المسيحي باسم « بني غومس Beni Gómez » وكان جدهم يسمى غومس بن ديز Gómez Diaz ، وكانوا أمراء شبه مستقلين على منطقة صغيرة شرق مدينة ليون تدعى قريون Carrión وشلطانية Saldaña ، وقد وفد بعض رؤساء هذه الأسرة على الحكم المستنصر في أواخر أيامه ليؤكد عهود الولاء والخضوع (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ١٨١) ؛ ثم وجه المنصور بن أبي عامر إليهم حملة بعد أن نكثوا بعهودهم في سنة ٣٨٥ (٩٩٥) فخرب قريون مقر إمارتهم ، ويبدو أن « ابن غومس » هذا وفد على المنصور مجدداً عهود الولاء بعد تلك الوقعة ، ولسنا نعرف اسم هـذا القومس ولو أنه يغلب على الظنّ أنه « غرسية بن غومس Garcia Gómez » الذي نراه بعد ذلك متحالفا مع قومس قشتاله شانجه بن غرسية في سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) حينما قاد المنصور حملة جربيره . انظر عن هذه العائلة : ليفي بروفنسال ٢ / ٢٥٢

فَلْيَهْنِ سَيْفَكَ أَنَّ الكُفْرَ مُنْقَصِمٌ بِهَبَّتَيْهِ وأَنَّ الدِّينَ مُنْتَظِمُ
فهلْ تَرَى لِلْعَدى في الأَرْضِ باقِيَةً إلا حُشاشَةَ من يَبْكِي ويَلْتَدِمُ
هذي قَوَاصِي ملوكِ الشِّرْكِ مُذْعِنَةٌ تُذْنِبًا [(1)] وَتَعْلَمُ أَنَّ الشِّرْكَ يُصْطَلَمُ
وراسياتُ جبالِ الكفرِ يُخْبِرُنا هُوِيُّهَا أَنَّ ذاكَ الطودَ مُنْهَدِمُ
فَلَّ لسَيْفِكَ في أَقصى بلادِهِمُ بكَ استعاذُوا ومن كَرَّاتكَ انْهَزَمُوا
فَشَلَّهُمْ [(2)] طارِدُ الذُّعْرِ المُطِيفُ بِهِمْ حتى أَجارَهُمُ في ظِلِّكَ الحَرَمُ
مُعْتَسِفِينَ سُهوبَ الأَرضِ قد جَهِلُوا من كلِّ آنِسَةِ الأَقطارِ ما عَلِمُوا
معاهِدٌ قُدْتَ فيها الخيلَ فانقلبَتْ مثلَ الرُّبوعِ مَحَا آثارَهَا القِدَمُ
/ عَفَتْ معالِمُهَا من بعدِهِمْ سُحُبٌ صوبُ الصَّوارِمِ [منها] [(3)] والقَنَا دِيَمُ [١٠٦م]
لا يسأَلونَ لها رَسْمًا بقاطِنِـــهِ إلا أَجابَتْهُمُ الأَشلاءُ والرِّمَمُ
ولا تَخُبُّ مطاياهُمْ على بَلَدٍ إلا استُثِيرَتْ بأَدنى وَخْدِها اللِّمَمُ
غادَرْتَهَا مُوحِشاتٍ بعدَ آنِسِهَا والأَرضُ خاوِيَةٌ منهم بما ظَلَمُوا
لئِنْ تناهى بِهِمْ أُفْقٌ فَشَطَّ بِهِمْ لَشَدَّمَا حَمَلَتْهُمْ نحوَكَ الهِمَمُ
حتى رَمَوْا بعصا التَّسيارِ فامتسكوا حبلاً من الملِكِ «المنصورِ» واعتصموا
أَلقَوْا إليكَ بأَيدِي الذُّلِّ فاعتقدوا عهداً من الأَمنِ محفوظاً له الذِّمَمُ

---

(١) في الأصل : تبنى ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، يعني تنبأ .
(٢) أي طردهم .
(٣) في هذا الموضع كلمة قد طمست تماما ، ولعلها كما أثبتنا .

وجاهَدوا عفوَهُ عن أنفسٍ عَلِمَتْ أَنَّ الحياةَ لها من بعضِ ما غَنِموا
يمشون في ظُلَلِ الرّاياتِ تُذْكِرُهُمْ أيامَ تغشاهُمُ العِقْبانُ والرَّخَمُ
من كُلِّ أغلبَ محذورٍ بوادِرُهُ يسـاوِرُ الرِّيحَ أَحياناً ويَلْتَهِمُ
وكلِّ فتخاءَ ماضٍ حَدُّ مِنْسَرِها كأنـهُ نحوَ أكبادِ العِدىٰ قَرِمُ
وأَرقَمٍ يتلوَّى نحو أَرْؤُسِهِمْ حتى يكادَ لها في الجو يَلْتَقِمُ
والأُسْدُ تزأرُ والراياتُ خافِقَةٌ كأنّها مُثْبَتـاتٌ في قُلُوبِهِمُ
والخيلُ منظومَةٌ بالخيلِ لا كُتُبٌ(١) منها لغايَةِ ذي سَعْيٍ ولا أَمَمُ
والأرضُ من رهبةِ الأبطالِ مائِدَةٌ والجوُّ من رَهَجِ الفرسانِ مُزْدَحِمُ
والسُّمْرُ في هَبَوَاتِ النقعِ ثاقبـةٌ والبيضُ في قُرُبِ الأغمادِ تضطرِمُ
كأنَّما ملأَتْ رَحْبَ الفضاءِ لهُمْ غُلْبُ الضَّراغمِ والغاباتُ والأَجَمُ
وأَولياءُ الهُدىٰ والدينِ قد سَتَرُوا من أوجُهٍ بِسَناها الخطبُ يَبْتَسِمُ
تَعَمَّمُوا بإِيـاةِ الشمسِ واشتملوا رقراقَ نِهْيٍ سرابِ البيدِ والْتَثَمُوا(٢)
كأنَّما تَتَلالاَ(٣) في رُؤوسِهِمُ وقد توافَوْا أَيادٍ منكَ أو شِيَمُ
وشيعَةُ الكفرِ في مَثْنىٰ حبائِلِهِمْ تُصَدِّقُ العيشَ أَحياناً وتَتَّهِمُ

---

(١) كذا ، وربما كانت « كثب » بالثاء ومعناها القرب وهي مرادفة لكلمة « أمم » الواردة في الشطر الثاني .

(٢) إياة الشمس : ضياؤها ، والنهي : هو الغدير وكل مكان يجتمع فيه الماء .

(٣) في الأصل : تلالا .

حتى تراءاكَ من أقصى السِّماطِ وقدْ شِيمَ الحِمامُ وسَيْفُ العفوِ مُحتكِمُ
مُمَثَّلٌ في هواديهِمْ وأرؤُسِهِمْ ما عُوِّدَتْ منهُمُ المصقولَةُ الُخذُمُ (١)
لما انتضَيْتَ سناها في مفارِقِهِمْ خرَّتْ سُجُوداً لكَ الأعناقُ والقِمَمُ
وأَوْجُهٌ عفَّرُوها التُّرْبَ خاضِعَةً كأنَّ كلَّ جبينٍ منهُمُ قَــدَمُ
/ فإنْ يَفِضْ بحرُكَ المُحْيِي لَهُمْ فلقد جازُوا الصُّفوفَ وموجُ الذُّعْرِ يلتطِمُ [١٠٦ب]
أو عاينُوا البدرَ في أعلى منازِلِهِ فقد أحاطَتْ بِهِمْ من دونِهِ ظُلَمُ
فإنْ عفوتَ ففي الرَّحْمٰنِ مؤتَلَفٌ وإن سَطَوْتَ ففي الرحمنِ مُنْتَقَمُ
واسْلَمْ ولا بَرِحَتْ فيهمْ لنا نِقَمٌ تَتْرى بِهِمْ ولكَ الآلاءُ والنِّعَمُ

— ١١٠ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله في عيد الأضحى

[من الطويل]

إذا شِئْتَ كانَ النَّجْمُ عندكَ شاهِدِي بلَوْعَةِ مُشتاقٍ ومُقْـلَةِ ســاهِدِ
غريبٌ كساهُ البينُ أثوابَ مُدْنَفٍ وحَفَّتْ به الأشجانُ حَفَّ الولائِدِ
بعيدُ الضُّحى من بَعْدِ إلفٍ مُفارِقٍ طويلِ الدُّجى من طولِ بَثٍّ مُعاوِدِ

---

(١) أي القاطعة.

كأنَّ ظلامَ الليلِ سَدَّ طَرِيقَهُ تعلُّقُ أجفاني بِرَعْيِ الفراقِدِ
وقد لَبِسَتْ آفاقُهُ من دُجونِهِ حِدادَ نواعٍ للصباحِ فَوَاقِدِ
سَلِيني عن الليلِ التَّمامِ قطعتُهُ بزفرةِ مُشتاقٍ وأنفاسِ واجدِ
طَوَاكِ عَلَى طِيبِ الكرى فطَوَيْتُهُ بشكوى سَلِي عنهُنَّ صُمَّ الجَلاَمِدِ
يطاولُ ليلُ التِّمِّ بَثِّيَ مُسْعِداً عَلَى ذِكْرِ إلْفٍ بانَ غيرِ مُساعِدِ
ويوحِشُني ملْءُ السماءِ كواكباً إلى كوكبٍ في مَغْرِبِ البَيْنِ واحدِ
ألَمْ أَدْرِ أنَّ الصُّبْحَ شِبْهُكِ قَبْلَها فأَعرِفَ منه الآنَ خُلْفَ المَواعِدِ؟
ستَرْعَىٰ وفاءَ العهدِ لي إن نقَضْتِهِ لواعِجُ بَثٍّ في هواكِ مُعاهِدِي
ويُوشِكُ أن تُجْلَىٰ وُجوهُ مَطالِبِي بأزْهَرَ وضَّاحٍ وأرْوَعَ ماجِدِ
مليكٍ لشملِ الملكِ والعزِّ جامِعٍ وعن حُرَمِ الأحسابِ والمجدِ ذائِدِ
أغَرَّ سَمَا لِلدِّينِ فاعْتَصَمَ الهُدىٰ به وهَدَىٰ المعروفَ سُبْلَ المَحامِدِ
حَيَاً طبَّقَ الآفاقَ شَرْقاً ومَغْرِباً فما تُقْتَفَىٰ في المَحْلِ آثارُ رائِدِ
بسيفٍ لأقدارِ الحُتُوفِ مساوِرٍ وسَيْبٍ لِتَهْتانِ الغيومِ مُجَاوِدِ
سليلُ عُلاً تَنْمِيهِ أنسابُ حِمْيَرٍ إلى كُلِّ بانٍ للمفاخِرِ شائِدِ
همامٌ لهُ من فَخْرٍ يَعْرُبَ في العُلاَ ذُرَىٰ كلِّ سامي السَّمْكِ راسي القواعِدِ
محاتِدُ عِزٍّ واعتلاءٍ كأنَّما سنا الشمسِ من إشراقِ تلكَ المحاتدِ
فتىً أذْعَنَ الدهرُ الأبِيُّ لِحُكْمِهِ فأَضحىٰ إليه مُلْقِياً بالمَقالِدِ

/هُوَ البَدْرُ إشراقاً ونوراً وسيفُهُ مَدىٰ الدهرِ منه في مَحَلِّ عُطَارِدِ [١٠٧م]
تدانَتْ من الآمالِ أنواءُ كَفِّهِ وبَرَّزَ سَبقاً في المدى المُتَباعِدِ
فَحَجَّبَ منهُ الملكَ أكرمُ حاجِبٍ وقادَ جنودَ النصرِ أكرمُ قائدِ
كتائبُ توحيدُ الإلَهِ شِعارُهَا وما يومُ خِزْيِ الكفرِ فيها بِواحِدِ
إذا يَمَّمَتْ منه حِمًى فكأنَّما أَرَنَّتْ عليهِ مُصْعِقَاتُ الرَّواعِدِ
لئنْ حَلَّ دارَ الملكِ من بَعْدُ قافلاً لقد شَدَّ أقصاها برأيِ مُجَاهِدِ
فشاهَدَ عنه النصرُ إنْ لَمْ يُشَاهِدِ وجالَدَ عنه الصَّبْرُ إنْ لم يُجالِدِ
رعىٰ اللهُ «للمَنْصُورِ» نُصْرَةَ دِينِهِ فجازاهُ خيرَ ابْنٍ تلا خَيْرَ والِدِ
وأيد هذا المُلْكَ والدِّينَ مِنْهُمَا بأَيْمَنِ يُمْنَىٰ ساعَدَتْ خَيْرَ ساعِدِ
فيا جامِعَ الإسلامِ شَمْلاً وتارِكاً دِيارَ الأعادِي مُوحِشاتِ المعاهِدِ
ومقتحِمَ الأهوالِ في حَوْمَةِ الوغىٰ كما بادرَ الظمآنُ عذبَ المَوَارِدِ
لِيَهْنِكَ أَنَّ العيدَ وافاكَ قادِماً بأَوشَكِ بادٍ للسرورِ وعائِدِ
تلقَّاكَ بالبُشْرىٰ وحيَّاكَ بالمنىٰ وساعَدَ للبُشْرىٰ لأَعدَلِ شاهدِ
فلا زالَتِ الأيَّامُ أعيادَ فضلِكُمْ لكُلِّ مُوالٍ خالِصِ الشكرِ حامدِ
ولا زِلْتُمُ مأْوَىٰ غريبٍ وآمِلٍ ومَفْزَعَ ملهوفٍ وفُرْصَةَ قاصِدِ

وله في المنصور أيضاً رحمهما الله تعالى يهنئه بالقفول من غزاة نفعه الله[1]

[من الكامل]

إن تفخَرِ الدنيا فأنتَ فَخَارُهَا ... أو تَخْتَرِ العليـا فأنتَ خِيَارُهَا

المجـدُ ممنوعٌ بسيفِكَ عِزُّهُ ... والأَرضُ معمورٌ بمُلْـكِكَ دارُها

زُهِيَتْ[2] بذكرِكَ أرضُها وسماؤها ... وجرى بسعدِكَ ليلُهـا ونهارُهـا

---

(١) يبدو من المواضع المذكورة في هذه القصيدة أن الغزوة التي يتحدث عنها ابن دراج كانت موجهـة إلى مملكة ليون التي كان يحكمها في ذلك الوقت برمند الثاني Bermudo II بن أردون (الثالث) (٣٧٢ — ٣٩٠ / ٩٨٢ — ٩٩٩) ، وكان المنصور قد وجه عدة حملات إلى ليون في خلال سنتي ٣٧٧ و ٣٧٨ (٩٨٧ و ٩٨٨) ، وبعد ذلك طلب برمند من المنصور عقد صلح معه ، بل إنه أهدى إليه في سنة ٣٨٣ (٩٩٣) إحـدى بناته لتكون جارية له ، فأعتقها المنصور وتزوج منها ، وعلى الرغم من ذلك فإن برمند حاول الثورة على المنصور وعمل على إجارة عبد الله بن عبد العزيز الأموي المعروف باسم « بتره شقه » Piedra Seca (أي الحجر اليابس) وكان ممن تآمروا على المنصور ، فقاد هذا إلى ليون حملة احتلت فيها جيوش المسلمين أسترقة Astarga وخربت مملكة ليون ، وكان ذلك في شوال سنة ٣٨٥ (نوفمبر ٩٩٥) ، والأرجح لدينا أن غزوة المنصور هذه هي المقصودة في قصيدة ابن دراج (انظر عن هذه الغزوة ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٤٦) .

(٢) في الأصل : دهيت ، ولا معنى لها هنا .

هُدِيَتْ بِهَدْيِكَ في الظلامِ نجومُها   وسرَتْ بنورِكَ في الدجى أقمارُها

ياعامِرِّيينَ اعْمُرُوا رُتَبَ العُلاَ   فلَكُمْ سَنِيُّ سنائِها وفخارُها

وتمكَّنوا من دولَةِ العِزِّ التي   أنتُمْ زَكِيُّ أَرُومِها ونجارُها

لا تَعْدَمَنَّ عُلاكُمُ الرُّتَبَ التي   أَضحَتْ مُعظَّمَةً بكُمْ أقدارُها

بكُمُ اكْتَسَتْ حُلَلَ السَّنَا وبِسَعْيِكُمْ

ضاءتْ معالمُها وحِيطَ ذِمارُهـا

/ رَضِيَتْ تَعَبُّدَكُمْ لها أملاكُها   وتفاخَرَتْ بولائِكُمْ أحرارُها [١٠٧ب]

من دوحَةِ الكَرَمِ المُنعَّمَةِ التي   أَخَذَتْ بآفاقِ العُلاَ أشجارُها

مُدَّتْ لأَمْنِ المسلمِينَ ظِلالُها   ودَنَتْ لأرزاقِ العبادِ ثِمارُها

في ذِرْوَةِ الشَّرَفِ التي شادَتْ لكُمْ   شُرُفاتِها قحطانُها ونِزارُها

أعطَتْكُمُ رَهْنَ السباقِ جيادُها   وخَلاَ لفائتِ شأوِكُمْ مِضمارُها

سَبَقَ القضاءُ بأنكم أملاكُها   دونَ الأنامِ وأنكم أنصارُها

للهِ منكَ إذا الشِّفارُ تقاصَرَتْ   هِمَمٌ تَمُرُّ بِمَرِّها أقدارُها

يا قائدَ الخيلِ العِتاقِ كأنما   عَزَماتُهُ أرماحُها وشِفارُها

ليثٌ يُخاطِرُ في المَكَرِّ بنفسِهِ   هِمَمٌ عظيمٌ في العلا أخطارُها

أَوطَأْتَ أرضَ المشركينَ كتائباً   فيها وَشيكُ فَنائِها ودَمَارُها

وتَرَكتَ أرضَ «لِيُونَ» وَهْيَ كأنَّها   لم تَغْنَ بالأمسِ القريبِ دِيارُها

مرفوعةً لكَ في العلا أعلامُهـــا   لمـــا غدَتْ بك عافِياً آثارُها
شِيَعٌ حواها حدُّ سيفِكَ عنوةً   أضحتْ وعُقْبىٰ الإنتقامِ قُصارُها
وفلولُ من فاتَ الفِرارَ بنفسِهِ   جاءَتْ يُعاجِلُهــا إليكَ فِرارُها
من بعدِما عاذَتْ بحفظِ حياتِها   ببروجِ مَنْعٍ للنجومِ جِوارُها
واستعصَمَتْ بمعاقِلٍ قد أصبَحَتْ   لِلحَيْنِ وهي قيودُها وإسارُها
غُبِقُوا بخمرِ الحربِ صِرْفاً فاغتدتْ   تلكَ الحفائظَ والحتوفَ خُمارُها
وكأنَّما بَصُرَتْ لظىً بمـكانِهِمْ   مُتَمَنِّعِينَ فعـاجَلَتْهُمْ نارُها
نارٌ تطايَرُ بالغُواةِ كـأنهـا   حين ارتمَتْ بِهِمُ هناكَ شَرَارُها
وتَبَرَّؤوا من كُلِّ مُخْطَفَةِ الحشا   محفوظَةٍ لحليلِهـــا أطْهارُهـا
شَجِيَتْ بمصرَعِ بعلِها ثم انْثَنَتْ   مطلوبةً بجفونِهـــا أوتارُها
من كُلِّ مُغْرَمَةٍ بِخِلٍّ تَمْتَري :   السَّيْفُ أمضىٰ فيهِ أم تذكارُها ؟
لَبِسَتْ ثيابَ الأمنِ حينَ تَمَنَّعَتْ   آفاقُها وتبـــاعَدَتْ أقطارُها
وتسربَلَتْ حُلَلَ الثُّلُوجِ جِبالُها   واستَفْرَغَتْ مَدَّ الحَيا أنهارُها [1]
والخيلُ والأبطَالُ تجهد خَلْفَهـا   ألاَّ يَشِطَّ على الخليلِ مَزارُها
[١٠٨ م] / حتّى عَبَرْنَ خليجَ «دُوَيْرُ» [2] كأنَّها   سُفُنٌ تراميٰ بالحتوفِ بِحارُهـا

---

(١) يدل هذا البيت على أن هذه الغزوة وجهت إلى بلاد ليون في الشتاء ، وهو يتفق مع ما سبق أن ذكرناه في تعليقنا من أنها كانت في شهر نوفمبر .

(٢) يعني نهر الدويره المعروف ، وهذه الكلمة تكتب بضم الدال وفتح الياء —

بقواضِبٍ قُضِبَتْ بِهِنَّ حياتُهـا		وصوارِمٍ صُرِمَتْ بهـا أعمارُها
وكتائبٍ لَهِجَتْ بِطَيِّبِ ذِكْرِكُمْ		فلذيذُهُ عندَ الهياجِ شِعـارُها
وكأنَّهُنَّ وقد دَجَتْ ظُلَمُ الوَغى		في الرَّوع أفلاكٌ عليكَ مَدَارُها
وَصَلَتْ بِيُمْنِكَ صَوْمَها بجهادِهـا		وندى يديْكَ بأَوْبِهـا إفطارُها
حتى قَدِمْتَ بِمَفْخَرِ الفَتْحِ الذي		أَحْيا المُنىٰ بقدومِهِ اسْتِبْشارُها

ـــ أو كسرها ،وضم الراء أو فتحها وسكون الهاء ، أما الشكل الذي كتبها به ابن دراج ـ وهو يقتضي نطقها هكذا « دُيْرُ » (بضم الدال وسكون الياء وضم الراء) ـــ فليس ضرورة شعرية كما يبدو لأول وهلة ، بل هو الصورة البدائية التي كانت تنطق بها هذه الكلمة ومثيلاتها في مملكة ليون وأشتوريش وجليقية ، إذ كانوا في ذلك العصر يكتبونها هكذا : Doyro ، أما نطقها الحالي Duero ، فهو يرجع إلى تطور صوتي متأخر ، ومثل ذلك نراه مثلا في كلمة Agüero ، (ومعناها الفأل) وهي تنطق الآن هكذا : « أجْوِيرُو » إذ كانت تكتب وتنطق في ذلك العصر Agoyro . وهكذا نرى أن ابن دراج الذي لانشك في أنه كان يعرف اللغة اللاتينيه الدارجة المتداولة في الأندلس على أيامه ـــ إنما اتبع النطق الشائع لهذه الكلمة في أوساط المستعربين النصارى المقيمين في الأندلس الإسلامية ممن كان نطقهم للاتينية الدارجة (لطينية الأندلس) أقرب ما يكون إلى لغة نصارى مملكة ليون وأشتوريش وجليقية (انظر ما كتبه عن هذه الظاهرة اللغوية الأستاذ مننديث بيدال في كتابه « أصول اللغة الاسبانية ») ، هذا وقد احتفظ بذلك النطق البدائي لأمثـــال هذه الكلمة في كثير من قرى جليقية إلى الآن على ماأعرف ، فكلمة Cuero مثلا (ومعناها الجلد) تنطق هكذا Coiro ، وغيرها كثير .

وطَلَعْتَ للمتَـأَمِّلينَ بغُرَّةٍ كالشمسِ يَحْسِرُ دونَها أبصارُها
فنفوسُ أهلِ الخافِقَيْنِ فِداؤُهـا واللهُ من صرفِ الحوادِثِ جارُها

— ١١٢ —

وله في المنصور رحمهما الله يمدحه ويذكر وفادة شانجه بن غرسية ابن فرذلند (*) إلى حضرته سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة جبرها الله تعالى وأعادها

[من البسيط]

إليكَ منكَ فرارُ الخائفِ الوَجِلِ وفي يديكَ أمانُ الفارسِ البَطَلِ

(*) شانجه بن غرسية بن فرذلند ثالث قوامس قشتاله ، وأول من حكمها منهم ممن كانوا يتسمون بهذا الاسم ، وقد ولى الحكم بعد وفاة أبيه غرسية بن فرذلند في أسر المنصور بن أبي عامر في سنة ٣٨٥ / ٩٩٥ (وستأتي قصيدة لابن دراج في وصف الوقعة التي أسر فيهـا غرسية وتهنئة المنصور بذلك) . وقد حكم شانجه قشتالة بين سنتي ٣٨٥ و ٤٠٨ (٩٩٥ - ١٠١٧) أي معاصراً للمنصور وابنيه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول وسنوات الفتنة التي أعقبت انهيار الخلافة الأمويه . وشانجه هذا هو الذي كان قد ثار على أبيه غرسية في سنة ٣٨٤/ ٩٩٤ بتحريض من المنصور بن أبي عامر على ما يذكر بعض المؤرخين ، وكان ذلك من المنصور رداً على ما سبق أن قام به غرسية من تحريض عبد الله بن المنصور على أبيه وإيوائه له عندما أعلن الثورة . ولهذا فإن شانجه لايكاد يلي حكم قشتالة حتى يؤكد عهود الصلح مع ابن أبي عامر ويدفع له الجزية معترفا ـ

ــ بتبعيته له ، وهـذا هو ما يفسر لنـا كيف كانت السنوات الأولى من حكمه (٣٨٥ ـــ ٣٨٩ / ٩٩٥ ــ ٩٩٩) سنوات سلام ودعـة في إمارته ، بينما كانت الأقطـار المسيحية الأخرى (نبارة وليون وجليقية وبرشلونة) مسرحاً لغزوات المنصور . وقد وجه شانجـه خلال هذه الفترة جهوده إلى العناية بالأمور الداخلية في إمارته ، فسن تشريعـات إصلاحيـــة دعت المؤرخين المسيحيين إلى تسميتـه « القومس ذا السنن الحميـدة » ؛ على أن شانجـه ظل يتلمس الفرص بعـد ذلك للغدر بالمنصور ، ويرجح بيريث دي أوربل أن قطع علاقاته مع المنصور تم في سنة ٣٨٧ (٩٩٧) وهي السنة التي غزا فيهـا المنصور شنتياقب وجليقية ، وعلى أية حال فإن شانجه غزا ما كان يتاخم قشتالة من بلاد المسلمين مما حمـل المنصور على أن يقود حملة لعقـــابه ، وتزعم شانجه إسبانيا النصرانية واستصرخ حلفاءه ملوك نبارة وليون وقومس شلطـــانية (غرسية بن غومس) ، ولكن المنصور أوقع بهذا الأئتلاف المسيحي هزيمة ساحقه في موقعة جربيرة سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) وفي سنة ٣٩٢ (١٠٠٢) وجه المنصور حملته الأخيرة ضد قشتالة مقتحماً إقليم « لاريوخا La Rioga » . وقد واصل عبد الملك المظفر بن المنصور حملاته ضد قشتالة بعد أن خلف أباه ، وكان من آخر تلك الحمـلات غزوة قلونية Clunia سنة ٣٩٧/١٠٠٧ التي توفي عبد الملك بعدها بقليل . وبعد ذلك نرى شانجـه يتدخل في الحرب الأهلية التي نشبت في الأندلس بعد انهيار الخلافة ، بل إننا نرى ابن عبد الجبار المهدي وسليمان بن الحـكم المستعين يتسابقان على طلب تأييده وهـكذا نراه حكما في تلك الفتنة بين القوات المتضاربة ، وكان من نتائـج ذلك أن ظفر بمعظم القلاع والمعاقل التي فقدتها قشتالة في غزوات المنصور وابنه المظفر . وقد قنع شانجه بما غنمه من جراء الصراع الداخلي بين ملوك الطوائف ووجه همه إلى تنظيم شئون بلاده وإلى تقوية علاقاته بجيرانه من ملوك النصرانية ومن أجل ذلك عقد مصاهرة بينة وبين قومس برشلونة إذ زوج ابن هذا من ابنته هو ، وعقد هذا الصهر في سرقسطة بتوسط من ملكها الحاجب منذر بن يحيى التجيبي ، ــ

تقابلَتْ نحوكَ الآفاقُ واجْتَمَعَتْ عَلى يمينكَ شَتّى الطُّرْقِ والسُّبُلِ
ويَمَّمَتْكَ ملوكُ الأرضِ مُعْلِمَةً إليكَ نَصَّ نجاءِ الخيلِ والإبلِ
فالبَرُّ والبحرُ مِنْ آتيكَ في شُغُلٍ والشَّرْقُ والغربُ من راجيكَ في جَذَلِ
قد ساعدَتْكَ نجومُ السَّعْدِ طالعَةً فاسْعَدْ ، وأُعْطِيتَ غاياتِ المُنَى فَسَلِ
وأسْلَمَتْ لكَ أملاكُ البلادِ مَعاً أعِنَّةَ المُلْكِ والأيّامِ والدُّوَلِ
وفازَ قِدْحُكَ إذ قارَعْتَ أرْؤُسَها بطاعَةِ الدهرِ والأديانِ والمِلَلِ
وقد تيمَّمَ « شَنْجٌ » منكَ عائذَةً تُجيرُهُ من سيوفِ الكَرْبِ والوَهَلِ
وقاد نحوَكَ والتَّوْفيقُ يَقْدُمُهُ جيشاً من الذُّلِّ مِلْءَ السهلِ والجبلِ
مستعطِفاً لحياةٍ جَلَّ مَطْلَبُها عن مُبْلِغِ الكُتْبِ أو مُسْتَعْطِفِ الرُّسُلِ
مستخذِياً لسيوفِ النصرِ حين أبَتْ من دينِ طاعَتِهِ قولاً بلا عَمَلِ
خلّى الكتائبَ قَسْراً والظُّبى وغدا عن الأحِبَّةِ والأشياعِ في شُغُلِ

— وتوفي شانجه بعد ذلك بقليل في سنة ٤٠٨ (١٠١٧) ، وكان يعرف في المراجع العربية أيضاً باسم « ابن مامة دونة » (نسبة إلى جدته) ؛ انظر : Pérez de Urbel Historia del Condado de . Castilla ، Dozy : Recherches ... I , pp . 203 - 10
وانظر ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ١٥٣ - ١٥٦ ؛ ابن عذارى : البيان ٣ / ١٧٦ - ١٧٧ .

هذا والذي يبدو أن شانجه بن غرسية قد وفد على المنصور في أثناء حياة أبيه وقبل أن يلي الملك في قشتالة ، وهي سفارة لم تحدثنا عنها المراجع التاريخية ، وربما أوعز المنصور خلالها إليه بإعلان الثورة على أبيه .

مُذِلَّ صفحةَ عانٍ جَلَّ مطلَبُـهُ داعٍ إلى صَفْحِكَ المأمولِ مُبتَهِلِ
/ في شِيعةٍ مَلأَتْ ذُلاً قُلُوبَهُمُ نُهُوجُ سُبْلٍ (١) إليها لِلْقَنا ذُلُلِ [١٠٨ ب]
مُحَكَّمِينَ يسوقونَ النفوسَ إلى إنفاذِ حُكْمِكَ سَوْقَ السَّبْيِ والنَّفَلِ
مُسْتَبشرينَ بما أَحْيَيْتَ من أَمَلٍ مُستسلِمِينَ لما أَمضَيْتَ من أَجَلِ
خاضُوا إليكَ بحارَ الموتِ زاخِرَةً يمورُ فيهنَّ موجُ النَّقْعِ كالظُّلَلِ
وأَضْحَتِ الأَرضُ في رَحْبِ المَلاَ لُجَجاً
سالَتْ عليهِمْ بِبِيضِ الهنـدِ والأَسَـلِ
والأُسْدُ بارِقَـةُ الأَلحاظِ في أَجَمٍ منَ القنا يحَبِيك البَيْضِ مُشْتَعِلِ
رَقَّتْ غلائِلُهُمْ سَرْداً كأَنَّهُمُ تَسَرْبَلُوا لُبْسَ (٢) رِقاقٍ منَ الغُلَلِ (٣)
والصَّافِناتُ تَهَادَى في أَعِنَّتِهـا كالغيدِ يرفُلْنَ بينَ الحَلْيِ والحُلَلِ
وخافِقاتٌ كأَمثالِ الحَشَا خَفَقَتْ رَوْعاتِها خَطَرَاتُ الذعرِ والوَجَلِ
تزيَّنَتْ بسُكونِ الجأْشِ ثابِتَةً واسْتَشْعَرَتْ هَفَوَاتُ الطائِشِ الوَجِلِ
حتَّى انْتَهى يَدَكَ العُلْيَا وقد قُسِمَتْ أَحشاؤُهُ بينَ أَيْدِي الرَّيْثِ والعَجَلِ
إذا وَنَتْ بِخطاهُ هَيْبَةٌ حَكَمَتْ عليهِ ثَارَ بِهِ مُسْتَعْذَبُ الأَمَلِ
فوافَقَ البحرَ والآفاقُ تَكْنُفُهُ من الرياحِ ووافَى الشَّمْسَ في الحَمَلِ

---

(١) في الأصل : « بهوح سفل » ، ولعل الصحيح ما أثبتنا .
(٢) في الأصل : ليس .
(٣) جمع غلة (بضم الغين) وهي الغلالة .

وقابلَ المجدَ والإعظامَ في مَلِكٍ بالسعدِ مُستقبَلٍ للسعدِ مُقْتبِلِ
مُتوَّجٍ ببهاءِ الملكِ مُعتَصِبٍ ومُحتَبٍ في رداءِ العزِّ مُشتَمِلِ
بالجودِ مُغتَبِقٍ بالحمدِ مُصْطَبِحٍ في السَّبقِ منقطِعٍ بالحِلْمِ مُتَّصِلِ
للهِ يومٌ من الأيامِ فُزْتَ بِهِ فَرْداً من المِثْلِ فيها سائِرَ المَثَلِ
من بعدِ ما وَعَظَتْهُ الحادِثاتُ بِمَنْ أَرْدَتْ سيوفُكَ من أشياعِهِ الأُوَلِ
وكم تأسَّفَ مِنهُمْ في معاهِدَ قَدْ آلَتْ معاهِدَ للأحزانِ والهَبَلِ
وأخضَلَ الدمعُ من أجفانِ مُقْلَتِهِ مجالَهُ في نجيعٍ منهُمُ خَضِلِ
فَلْتَهْنِكَ الرُّتَبُ العُلْيَا التي قَصُرَتْ عنهُنَّ سامِيَةُ البِرْجِيسِ[1] أو زُحَلِ
فاسْلَمْ ولا زالَ عِزُّ الملكِ مُتَّصِلاً من يَعْرُبٍ وبنيهِ حيثُ لَمْ يَزَلِ
في خَفْضِ عَيشٍ ومُلْكٍ غيرِ مُنفَصِمٍ وظلِّ عزٍّ وأمنٍ غيرِ مُنْتَقِلِ

— ١١٣ —

وله في المنصور رحمها الله في أضحى
سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة

[من الكامل]

[٩٠١٩] كُفِّي شُئُونَكِ ساعَةً فتأمَّلِي في لَيْلِها[2] بُشْرَى الصَّباحِ المُقْبِلِ

---

(١) البرجيس : هو النجم المعروف باسم المشتري .
(٢) في الأصل : فليلها .

وتَنَجَّزي وَعْدَ المشارقِ وانظُري   واسْتَخْبِري زُهْرَ الكواكبِ واسْأَلي
فلعَلَّ غاياتِ الدُّجى أن تَنْتَهِي   [وعَسى](1)غياياتِ الأَسى أَن تَنْجَلي
لا تخْدَعِي بدموع عَينْكِ في الوَرَى   قَلْبًا يعزُّ عليهِ أَن تتذَلَّلي
وتَجَمَّلي لِشَجَا النَّوى لا تُمْكِني   أيدي الصَّبابَةِ من عِنانِ تَجَمُّلي
لا تَخْذلِي بالعَجْزِ عَزْمِيَ بَعْدَ مَا   شافَهْتُ أَعجازَ النُّجُومِ الأُفَّلِ
فَلَيُسْعِدَنَّ الحزمُ إن لَمْ تُسْعِدِي   وليفعَلَنَّ الجِدُّ إنْ لم تفعَلي
ولأَعْسِفَنَّ الليلَ غَيْرَ مُشَيَّعٍ   ولأَركَبَنَّ الهولَ غَيْرَ مُذَلَّلِ
ولأَسْطُوَنَّ عَلَى الزمانِ بِعزْمَتِي   ولأُنْحِيَنَّ عَلَى الخطوبِ بكَلْكَلي
ولأَرمِيَنَّ مقاتلَ النُّوَبِ التي   وَلِعَتْ — مع المُتَخَلِّفِينَ — بِمَقْتَلي
فإذا رأَيْتَ النجمَ يُبْدِي أُفْقُهُ   منه بقيَّةَ جَمْرِ نارِ المُصْطَلي
وتَخَلَّفَ العَيُّوقُ فَهْوَ كأَنَّهُ   سارٍ تَضَلَّلَ في فضاءِ مَجْهَلِ(2)
وتعرَّضَ الدَّبَرانِ بَيْنَ كواكِبٍ   مِزَقٍ كَسِرْبِ قَطًا ذُعِرْنَ بأَجْدَلِ(3)
وكواكبَ الجوزاءِ تَهْوِي جُنَّحًا   مِثْلَ الخوامِسِ قد عَدَلْنَ لِمَنْهَلِ(4)

(١) في الأصل : ولعل ، ولا يستقيم بها الوزن ولعل الصواب ما وضعنا .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن .

(٣) الدبران : كوكب أحمر على إثر الثريا وبين يديه كواكب كثيرة مجتمعة ؛ والأجدل الصقر .

(٤) الجوزاء : برج من منازل الشمس ، والخوامس : هي الإبل التي ترعى ثلاثة أيام ثم تورد الماء في اليوم الرابع غير اليوم الذي شربت فيه .

وكأنما الشِّعْرَى سِراجُ تَوَقُّدٍ وَقْفٌ عَلَى طُرُقِ النجومِ الضُّلَّلِ (1)

وكأنَّ مُلتَزِمَ الفراقِدِ قُطْبَها رَكْبٌ على عِرْفانِ داثِرِ مَنْزِلِ

وتحوَّلَتْ أُمُّ النجومِ كأنَّها زَهَرٌ تَراكَمَ فوقَ مَجْرَى جَدْوَلِ

ورأيتَ جُنْحَ الليلِ ناطَ رِواقَهُ من كُلِّ أُفْقٍ بالسِّماكِ الأعْزَلِ (2)

فَهُناكَ وافَتْكَ السعودُ طوالِعاً تَقْضِي لِصِدْقِ تَيَمُّنٍ وتفاؤلِ

فَهِيَ المُنَى فتيقَّنِي، وَهُوَ السُّرو رُ فأبشِرِي ، وهُوَ الصباحُ فأَمِّلِي

وتجرَّعِي (3) غُصَصَ التنائي واجْمَعِي بينَ المَطِيِّ وليلِهِنَّ الأَلْيَلِ

واستوطِنِي وَحْشَ الفلاةِ وَوطِّنِي نفساً لِبَرْحِ تَوَدُّعٍ وتَرَحُّلِ

فلأَعْقِدَنَّ عليكِ أكرَمَ ذِمَّةٍ ولأَبْنِيَنَّ عليكِ أَشْيَدَ مَعْقِلِ

بعزائمٍ لا تنثني وبصائرٍ لا تنتهي ووسائلٍ لا تأْتَلِي

حتى رأيْتُ العِيسَ وَهْيَ لواغِبٌ يَشْرَعْنَ في نهرِ الصَّباحِ الأَوَّلِ

[109ب]/ والفجرُ يرفعُ جفنَ طرفٍ أَدْعَجٍ والليلَ يُغضِي جفنَ طرفٍ أكحَلِ

فكأنما في الجَوِّ فارسُ أَبْلَقٍ يشتدُّ في آثارِ فارسِ أَشْعَلِ (4)

---

(1) الشعرى : كوكب نيِّر يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر .

(2) السماكان : نجمان نيران أحدهما السماك الأعزل والآخر السماك الرامح ، ويقال إنهما رجلا الأسد الذي هو من منازل القمر .

(3) في الأصل : وتجرعن .

(4) ورد هذا البيت في شرح الشريف الغرناطي على مقصورة حازم القرطاجني —

وَلَدَيَّ « لِلمنصورِ » شكرُ صَنَائِعٍ   تنأى الرِّكابُ بِعِبْئِهـا المُتَحَمَّلِ
نَشرٌ يَنِمُّ من الحقائبِ عَرْفُهُ   أَرَجاً ويُشْرِقُ من خلالِ الأَرْحُلِ
يُهْدِي ثناءَ المُمْحِلاتِ إلى الحَيا   وثَنا الرياضِ إلى الغمامِ المُسْبِلِ
بكرائمٍ لم تُمْتَهَنْ ، وعقائلٍ   لم تُمْتَثَلْ ، ومَصُونَةٍ لم تُبْذَلِ
حَمَلَتْ بها أُمُّ العلومِ وأَرْضَعَتْ   من دَرِّ أخلافِ الربيعِ الحُفَّلِ
وكفيلةٍ بالحمدِ تُهْدِيهِ إلى   مَلِكٍ بغاياتِ المُنَىٰ مُتَكَفِّلِ
حتى تُؤَدِّي الحمدَ عندَ مُسَوِّفٍ   وتَفِي بعهدِ الشكرِ عند مُؤَجِّلِ
وتنيخَ رَكْبَ النَّازِلِ[1] المُتَوَسِّلِ   في ظِلِّ عفوِ المُنْعِمِ المُتَفَضِّلِ
وتَحُطَّ رحلَ المُذْنِبِ المُتَنَصِّلِ   في ظِلِّ عُقْرِ المائِدِ المُتَطَوِّلِ
فَلأَسْلِمَنَّ إليهِ هِمَّةَ نازعٍ   وحبالَ منقطعٍ وكفَّ مُؤَمِّلِ
مَلِكٌ توسَّطَ من ذؤابةِ يَعْرُبٍ   في الجوهرِ المُتَخَيَّرِ المُتَنَخَّلِ
بَسَقَتْ به أعراقُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ   بعلاهُ في شرفِ المحلِّ المعتلي
عن كُلِّ معدومِ القرينِ مُكَرَّمٍ   ومعظَّمٍ في المالكينَ مُبَجَّلِ
وغمامُ عُرْفٍ في الزمانِ المُمْحِلِ   وسراجُ نورٍ في الكريهةِ مُشْعَلِ
يختالُ تاجُ المُلْكِ فوقَ جبينِهِ   لما تَبَوَّأَ منه أَكْرَمَ منزِلِ

— (١٠٣/١) ؛ ويعني بالأبلق الفرس الذي اختلط في لونه البياض والسواد ، أما الأشعل فهو الفرس الأسود ذو الذنب الأبيض .

(١) في الأصل : البازل ، وهي كلمة تبدو قلقة لا محل لها في هذا الموضع ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

فكأنَّ صفحةَ وجهِهِ شمسُ الضُّحَى وُصِلَتْ ببدرٍ بالنجومِ مُكَلَّلِ
العائدونَ بكُلِّ فضلٍ مُعْجِزٍ والدَّافعونَ لكل خطبٍ مُعْضِلِ
وَرِثوا السيادَةَ كابِراً عن كابِرٍ واستوجَبُوها آخِراً عن أوَّلِ
وتبَوَّأوا دارَ النبوةِ والهُدى صُنْعاً وتفضيلاً من المَلِكِ العَلي
فتَخَيَّرَ الرحمنُ طِيبَ ثَرَاهُمُ داراً وقبراً للنَّبِيِّ المُرْسَلِ
وتفرَّدُوا بالمَكْرُماتِ وأَحْرَزوا جزلَ الثناءِ من الكتابِ المُنْزَلِ
هم أنجبوكَ وقلَّدوكَ سيوفَهُمْ للنصرِ تُبْلي في الإلهِ وتَبْتَلي
فضَرَبْتَ أشياعَ الضلالِ بعزْمَةٍ عَجِلَتْ إليهِمْ بالحِمامِ المُعْجَلِ
[١١٠ب] / فأعَدْتَ أرْضَهُمُ وليس لِمَعْقِلٍ قَصْدٌ وليسَ لِمُفْلِتٍ من مَعْقِلِ
بعزائمٍ ومخائلٍ أغيَتْ عَلَى بأس[1] الشجاعِ وحيلَةِ المُتَحَيِّلِ
فتركْتَ حِزْبَ الشِّرْكِ بين مُصَرَّعٍ ومُعَفَّرٍ ومُجَدَّلٍ ومُرَمَّلِ[2]
وثَنَيْتَ حزبَ الدينِ بين مُمَلَّكٍ ومظفَّرٍ ومُغَنَّمٍ ومُنَفَّلِ
فاسْعَدْ بعيدٍ عادَ وَهْوَ مُبَشِّرٌ لك بالنعيمِ وبالبقاءِ الأَطْوَلِ
وبمشهدٍ للمُلْكِ أعيا دونَهُ فِكْرُ اللبيبِ ومُقْلَةُ المُتأَمِّلِ
أمَّتْكَ أبصارُ الخلائقِ واصِلي نُورٍ بتعجيلِ السرورِ الأَعْجَلِ

---

(١) في الاصل : يأس .

(٢) أي ملصق بالرمل ، وفي الاصل : ومزمل ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

وتيمّموك من المُصَلّى فانثَنَوْا ... ساعِينَ بين مُكَبِّرٍ ومُهَلِّلِ
مُتَزاحِمِينَ على يمينٍ أصْبَحَتْ ... مبسوطةً لمُؤَمِّلٍ ومُقَبِّلِ
وتواضَعَتْ صِيدُ الملوكِ مهابَةً ... يَضَعُونَ أوجُهَهُمْ مكانَ الأَرْجُلِ
ورأَوْا هِلالَ الملكِ فوقَ سَريرِهِ ... بسناَ المكارِمِ والهدى المُتَهلِّلِ

— ١١٤ —

وله فيه أيضا وقد فصل لبعض مغازيه

[من الكامل]

النصرُ حِزْبُكَ في الضَّلالَةِ فَاحْتَكِمْ ... واغضَبْ لدينِ اللهِ مِنْهاَ وَانْتَقِمْ
قد وافَقَ التوفيقُ سَعْيَكَ مُقْدِماً ... فيها وقد عَزَمَ القضاء لما عَزَمْ
فموارِدُ النصرِ العزيزِ لها مَدىً ... وعوائِدُ الفَتْحِ المُبينِ لها أَمَمْ (١)
فَلَرُبَّ موقفٍ ظافرٍ لكَ في الوغى ... والخيلُ تَعْبِسُ والبوارِقُ تبتَسِمْ
والشمسُ في كبدِ السماء كأنها ... ـ والنَّقْعُ يغشاها ـ كَمِيٌّ مُلْتَثِمْ
وكأنما كِسَفُ العَجاجِ ـ إذا الْتَقَتْ ... أُسْدُ الكُماةِ ـ سحائبٌ مَطَرَتْ بِدَمْ
ثمَّ اقْتَحَمْتَ الحربَ في ضَنْكِ الوغى ... والموتُ في عَلَقِ الجناجِنِ يقْتَحِمْ (٢)

(١) الامم : هو القصد .

(٢) العلق : هو الدم الغليظ الجامد ، والجناجن : جمع جنجن وجنجنة (بكسر الجيمين) وهي عظام الصدر .

حتى انتَهَيْتَ من العلى أَمَدَ المنى ... ومن العلا أَسْنَىٰ الرغائِبِ والقِسَمْ

يابْنَ الأُلىٰ لم تعصِ طاعَةَ أَمْرِهِمْ ... «عادٌ» عَلَى أُولىٰ الزمانِ ولا «إِرَمْ»

رَفَعُوا رِواقَ الملكِ في أَرْمَاحِهِمْ ... حتى استكانَ الدهرُ والدنيا لَهُمْ

ولوأَنَّهُمْ شامُوا(١) السيوفَ لأَحْرَزُوا ... مُلْكَ الخلائقِ بالخلائقِ والشِّيَمْ

ثم انْتَضَوْا دونَ الهدى أسيافَهُمْ ... قَسْراً فَعَزَّ الدينُ والدنيا بِهِمْ

لا نَظْمُ أشعاري ولا نثري ولا ... صُحُفِي ولا جَهْدُ اللسانِ ولا القَلَمْ

[١١٠ب] / مِمَّا يقومُ بنشرِ أَيسَرِ ما طَوىٰ ... صدرِي من الإخلاصِ فيكَ وما كَتَمْ

وصِلاتُكَ اتَّصَلَتْ مع الأَيَّامِ لي ... حتّىٰ عَدِمْتُ بِهِنَّ آثارَ العَدَمْ

ورَفَعْنَ ذِكْرِيَ في عبيدِكَ فاعْتَلىٰ ... ونَظَمْنَ شَمْلِيَ في جِوارِكَ فانتظَمْ

وتَبَوَّأَتْ بِيَ من جنابِكَ مَوْطِناً ... وَقْفاً عَلَى كَرَمِ الوسائِلِ والذِّمَمْ

فحطَطْتُ رحلِي منكَ في عِزِّ الحِمىٰ ... ومنعتُ أهلي منكَ في أَهلِ الحَرَمْ

وغدَتْ تَهَادىٰ بي إِليكَ بصيرةٌ ... دانَتْ بما شرع الوفاءُ وما حكَمْ

حُدِيَتْ مطايانا بأُهْبَةِ شاكرٍ ... تُزْهىٰ بأَنْعُمِكَ التي لا تُكْتَتَمْ

ومَنِ الذي يعتادُ من شمسِ الضحى ... نوراً ويهدأُ في غَيَابَاتِ الظُّلَمْ؟

وبِما يَكِيدُ العجزُ عنك عزيمةً ... أَلِفَتْ جنابَ العزِّ منك فَلَمْ تَرِمْ؟

---

(١) شام السيف يشيمه : من الكلمات الاضداد إذ تعني سلّه وأغمده ، وهي هنا بمعنى أغمدوا .

وبما أُقيمُ وقد حَشَدْتُ محامدي لأَقلِّ جُزْءٍ من نداكَ فلم تَقُمْ ؟
وأَضِنُّ عنكَ ببذلِ نفسٍ طالما سُقِيَتْ بِجُودِ يَدَيْكَ أنداءَ الكرم؟
ويَرُوعُنِي لفحُ الهجيرِ إذا الْتقىٰ وَهَجاً وأَنسىٰ منكَ مُنْهَلَّ الدِّيَمْ ؟
أَمُثَبِّطِي عنكَ الزمانُ إِذَنْ ؟ فلا نَهَضَتْ إلى الظِّلِّ المبارَكِ لي قَدَمْ !
أَأُسَرُّ دونَكَ بالحياةِ ؟ وَكَمْ يَدٍ لك بَشَّرَتْنِي بالحياةِ ؟ وكَمْ ؟ وكَمْ ؟
أقريرةٌ عيني بعَيْشٍ لا أرىٰ فيه سيوفَكَ في عُداتِكَ تحتكم ؟
أَمُكَلَّلٌ وجهِي ووَجْهُكَ بارزٌ لِشبا الأَسِنَّةِ والهواجِرُ تضطرم ؟
إنِّي إذَنْ لَكَفُورُ أَنْعُمِكَ التي صَرَمَتْ حبالَ الذلِّ منِّي فانصرمْ !
لا والذي قادتْ إليكَ هِباتُهُ مُلْكَ الملوكِ وصَفْوَ طاعاتِ الأُمَمْ !
لا أَقتدي بالخالفِينَ ولا أُرىٰ أَسعىٰ لنَيْلِ رِضاكَ في أَدنىٰ الهِمَمْ
حتى تبَيَّنَ كيفَ أَثمارُ النَّدىٰ عندِي وتبْلُوَ كيفَ شكري لِلنِّعم
ويُريكَ صدقُ مواردِي ومَصَادِرِي إِبْطالَ ما اختلَقَ الحسودُ وما زَعَمْ
ولعلَّ من يقضِي الأُمورَ يُفِيدُني بِرِضاكَ من صَرْفِ الزمانِ فأَحْتَكِمْ

وله فيه أيضاً رحمهما الله في يوم عيد

[من الكامل]

عادَتْ عليكَ عوائِدُ الأَعوامِ   في العزِّ والإِجلالِ والإِعظامِ
وعَمَرْتَ هذا المُلكَ منتهِياً به   أَمَــدَ الدهورِ وغايــةَ الأَيــّامِ
[١١١م] / في صحَّــةٍ مصحوبــةٍ بتمامِ   وسلامــــةٍ موصولةٍ بــدوامِ
وقهرْتَ أَشياعَ الضلالِ مُؤَيَّـداً   بنوافِذِ الأَقـــدارِ والأَحكامِ
وبلغتَ حيثُ نَوَتْ لقصدِكَ همَّةٌ   موصولَةُ الإِنجـادِ والإِتهامِ
متذلِّلٌ لكَ عزُّ كلِّ مُمَنَّعٍ   متسهِّلٌ لك صعبُ كلِّ مَرَامِ
حتى تَبَوَّأَ بالمشارقِ طاعَـةً   مأْمولَةً من مُعْرِقٍ وشآمِي
وتَرُدَّ نائِي المُلكِ في أَوطانِـهِ   من عهدِ كلِّ مُتَوَّجٍ فمُقـامِ
وتُنيخَ رَحْلَ العزِّ غيرَ مُدافَعٍ   بمعاهِـدِ الأَخوالِ والأَعمامِ
وتحلَّ بالحَرَمَيْنِ منك كتائِبٌ   مأْمونَـةُ الإِحلالِ والإِحرامِ
فَبِكَ استعاذَ المُلكُ من سَطْوِ العِدىٰ   وغَدَا بسيفِكَ باهِرَ الأَعْلامِ
وبنورِ وجهِكَ أَشْرَقَتْ سُبُلُ الهُدىٰ   وانجابَ عنهـا غَيْهَبُ الإِظلامِ

وبجودِكَ اتَّصَلَتْ أمانيُّ الورىٰ ... بالنُّجْحِ وانفَصَمَتْ عُرىٰ الإعدامِ
فلَيَشْكُرَنَّ الدينُ أنْ أوليتَهُ ... عطفَ الشقيقِ وخُلَّةَ الأَرحامِ
فصدعْتَ عنه الجوْرَ صَدْعَةَ ثائرٍ ... ونظمتَ فيه العَدْلَ (١) أيَّ نظامِ
فاسعَدْ بأَضعافِ الجزاء وخُذْ بِهِ ... أوْفىٰ الحظوظِ وأوفرَ الأَقسامِ
وليهنِكَ الفوزُ الذي أَحرزْتَهِ ... نُسُكاً بأَزْكىٰ قُرْبَةٍ وصيامِ
وليهنِكَ الفِطْرُ الذي استقبلتَهُ ... لَهِجاً بخيرِ تحيةٍ وسلامِ
مستبشراً بالحاجِبِ النَّدْبِ الذي ... في بُرْئِهِ بُرْءٌ منَ الأَسقامِ
بَدْرُ المعالي شَفَّهُ بعضُ الذي ... ما زالَ يلْحَقُ كُلَّ بَدْرِ ظَلامِ
وشَكَاةُ ضِرْغامٍ جديرٌ كَرُّها ... من جسمِ ضرغامٍ إلى ضرغامِ
حَمِيَتْ جوانِحُ صَدْرِهِ شوقاً إلى ... لَمْعِ الأَسِنَّةِ في الهجيرِ الحامي
وشَكا اعتلالاً حينَ هامَ تَذَكُّراً ... نحو الطِّعانِ ونحوَ ضربِ الهامِ
وأنا الزعيمُ بأَنَّ عاجِلَ بُرْئِهِ ... في قَرْعِ طبلٍ أو صَليلِ لِجَامِ
أو لُبْسِ دِرْعٍ أو تَهادي سابِحٍ ... أو مَدِّ رُمْحٍ أو بريقِ حُسامِ
خَوّاضُ أهوالِ الحروبِ مساوِرٌ ... غُلْبَ الليوثِ مُضَعْضِعُ الآجامِ
مستقبَلٌ بالنُّجْحِ ممنوعُ الحِمَى ... ماضِي الطِّعانِ مُؤَيَّدُ الإقدامِ
/ أَمَّ العُدَاةَ فصالَ صَوْلَ حِمامِ ... وسَقَى العُفَاةَ فصابَ صَوْبَ غَمامِ [١١١ب]

---

(١) في الاصل : القول .

وَلَرُبَّ مُبْهَمَةِ الفروجِ تمزَّقَتْ غَمَّاؤُها عن وجْهِـهِ البَسَّامِ
حازَتْ لَهُ الهِمَمُ السَّنِيَّـة مَنْزِلاً في الفخرِ أَعْجَزَ خاطِرَ الأَوهامِ
وتَهَلَّلَتْ منهُ المكارِمُ والنَّدَى والبأْسُ عن مَلِكٍ أَغرَّ هُمـامِ
أَعطَى السِّيادَةَ حَقَّهَا حتى اغْتَدَتْ منهُ الحِجابَةُ في المَحَلِّ السَّامي
وحَوَى عن « المنصورِ » غُرَّ شمائِلٍ قادَتْ له الدُّنيا بِغَيْرِ زِمامِ
ياربَّنا فَاحْفَظْ علينا مِنْهُمَا ذُخْرَ الرجاء وعُـدَّةَ الإِسلامِ
يامُوسِعَ الرَّاجِينَ إِفضالاً ويا مَأْوَى الغريبِ وكافِلَ الأَيتـامِ
أَعْجِزْ بجهدِي أَنْ يَفِي بالعهدِ من مِنَنٍ عَلَيَّ لراحتَيْكَ جِسامِ
فَلأَفخَرَنَّ عَلَى الزمانِ وأهلِهِ بِصِلاتِ جودٍ من نداكَ كِرامِ
أَصبَحْنَ لي دونَ اللِّئامِ وِقايَةً وإِلى علاكَ وَسيلَتي وذِمامي
والعدلُ في حكمِ المكارِمِ والعُلاَ أَن يُشْفَعَ الإِنعـامُ بالإِنعامِ
فلأَشكُرَنَّكَ أَو تجيءَ مَنِيَّتي [ولأَرْجُوَنَّكَ] [1] أَو يحمَّ حِمامي
ولأَصرِمَنَّ علائِقَ الأَملِ الذي [يقتادُنِي لِسِواكَ] [2] أَيَّ صِرامِ

---

(١) كلمة مطموسة في الاصل لايبدو منها إلا « ولا ونك ».
(٢) لايبدو من هاتين الـكلمتين في الاصل إلا « يقـ ـواك ».

وورد الخبر على « المنصور » بظهور خيل « لابن شَنج[1] » على أهل « قَلْعَةِ أَيُّوب[2] » وقتلِهِم أخَا والِيها « حَكَمِ بْنِ عبدِ العَزِيزِ التُّجِيبِيِّ (*) » وقوماً معه ، فأمر المنصورُ بضربِ أعناقِ من كان

---

(١) يعني بابن شنج في الغالب ملك البشكنس (نبارة) صاحب بنبلونة ، وإذا كنا نرجح أن تاريخ هذه القصيدة هو سنة ٣٨٧ (٩٩٧) كما سنبين فإن « ابن شنج » هذا ينبغي أن يكون غرسية بن شانجه المعروف بالرعديد El Temblón الذي كان يحكم نبارة بين سنتي ٣٨٤ و ٣٩١ (٩٩٤ — ١٠٠٠) ؛ (انظر تعليقنا على ص ٣٨٠) .

(٢) من أعمال سرقسطة ، وتقع إلى الجنوب الشرقي منها وتنسب إلى أيوب ابن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ووالي الاندلس بين سنتي ٩٧ و ١٠٠ هـ (٧١٦ — ٧١٩ م) ، وتسمى الآن Calatayud

(*) لم تحفظ المراجع الأندلسية التي وقعت إلينا ترجمة تعرف بحكم بن عبد العزيز هذا ، غير أننا وجدنا في « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم (ص ٤٠٤ — ٤٠٥) تفصيلا لنسب التجيبيين في سرقسطة ودروقة Daroca وقلعة أيوب Calatayud ، وقد جاء فيه ذكر لرجل منهم هو حكم بن عبد العزيز بن حكم بن المنذر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله بن المهاجر ، وكان جده الأعلى عبدالرحمن بن عبد العزيز واليا على دروقة وقلعة أيوب ، وولي جده المباشر حكم بن المنذر على قلعة أيوب أيضا لعبد الرحمن الناصر إذ كان قد والاه على أخيه سليمان —

في أَسْرِهِ بقرطُبَةَ من فُرْسانِ ابن شنج وأقارِبِهِ الأَشْرَافِ الذين ظَفِرَ بهم في مدينَةِ «أُونَةِ قَشْتِيل[1]» وغيرها من بلادِ «بَنْبِلُونَة»، وركِبَ ابنُه «عبدُ الرحمنِ بنُ المنصورِ[2]» إلى بابِ السُّدَّةِ[3]

ـ الشويرب الذي ثار على الخليفة في ذلك الوقت ، أما أبوه عبد العزيز فقد ولاه المنصور بن أبي عامر على قلعة أيوب لسبب مماثل إذ أنه والى المنصور على أخيه هاشم الذي اشترك في التآمر على ابن أبي عامر مع القائد غالب ، ولهذا فإننا نرجح أن حكماً المذكور هنا هو ابن لعبد العزيز والي قلعة أيوب للمنصور ، وربما كان ابن أبي عامر قد عهد إليه بمنصب أبيه بعد موته وإن لم ينص ابن حزم على ذلك ، أما أخوه الذي قتل في غارة «ابن شنج» على قلعة أيوب فلسنا نعرف اسمه ولكنه قد يكون واحداً من الإخوة الثمانية الذين أورد ابن حزم أسماءهم .

(١) بلدة صغيرة تقع على مقربة من سرقسطة (على بعد خمسة عشر فرسخا) وهي تكون الآن مع أربع قرى بجوارها ما يعرف بـ «قرى أرغون الخمس Las Cineo Villas de Aragon» وتقع في واد عميق بين فرعي ريجل Riguel وكارديناس Cardenas وهما من فروع نهر إبره Ebro ، وتقوم الآن فيها قلعة قديمة تدل على أهميتها في الماضي (انظر مادوث . المعجم الجغرافي ١٥ / ٢١٥ — ٢١٦) ، وقد أشار إلى مكانتها في القرنين العاشر والحادي عشر بيريث دي أوربل : شانجه الأكبر ص ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٣ — ٦٤ . وتسمى الآن Uncastillo ، أما اسمها القديم فقد كان Unocastello .

(٢) هو عبد الرحمن المعروف باسم شنجول أى تصغير شانجه نسبة إلى جده لأمه شانجه بن غرسية ملك نباره (انظر تعليقنا على صفحة ٣٩٥)

(٣) هو باب قصر الخلافة بقرطبة وكان يقع على ضفة «الوادي الكبير» في الطرف الجنوبي الغربي من قرطبة ، وقد اشتهر هذا الباب كما يقول ابن حيان —

بقصرِ قُرْطُبَةَ وضُرِبَ بينَ يَدَيْهِ رِقابُ خمسينَ رجلاً منهم صَبْراً، وقَتَلَ عبدُ الرحمنِ بيدِهِ رحمه الله تعالى شريفاً منهم وهُمْ أَخْوالُهُ، فقالَ أبُو عُمَرَ ابنُ دَرّاجٍ القَسْطَلِّيُّ[1] رَحِمَهُ اللهُ في ذلكَ:

[من الخفيف]

يا غِياثَ العبادِ إنْ بَخِلَ المُزْ ... نُ سقاهُمْ وَبْلاً وما اسْتَمْطَرُوهُ

والذي أَمَّنَ العبادَ بِبِيضٍ ... مُرْهَفَاتٍ لِقاؤُهُنَّ كَرِيهُ

/شَهِدَ الناسُ أَمْسِ ما لَمْ يَرَوْهُ ... في الذي أَدْرَكُوا ولا شَهِدُوهُ [١١٢م]

قَتَلَ المشركونَ مِنّا شهيداً ... فتمنَّوْا بأَنَّهُمْ أَنْشَرُوهُ

سُفِكَتْ بالدَّمِ الكريمِ دِماهُ ... وكذا يُوبِقُ الحَلِيمَ السَّفِيهُ

قَتَلُوهُ مُصَفَّداً فَوَدَوْهُ ... لو عَلا ظَهْرَ طِرْفِهِ لَمْ يَدُوهُ

لَقِيَ الموتَ في الرَّصِيفِ[2] رجالٌ ... كلُّهُمْ في بَنِي أَبِيهِ وَجِيهُ

ـ بأنه كان هو المكان الذي تعرض عليه رؤوس من يتم إعدامه بقرطبة من الثوار أو من زعماء المسيحيين الذين يقتلون في المعارك الدائرة بينهم وبين المسلمين.

(١) في حاشية هذا الموضع تعليق بخط متأخر هذا نصه «وهنا أيضاً صرح باسم ناظم الديوان وزاد نسبه».

(٢) تطلق كلمة الرصيف في قرطبة على الطريق المرصوف الذي كان يمتد بين

غادَرَتْهُمْ صوارِمُ الهندِ والزُّرْ ... قُ حَصِيداً يا بُؤْسَ يَوْمِ لَقُوهُ
ورأَينَا الوزيرَ كَاللَّيْثِ ، أَنَّى ... غيرُ هـذا والعامِريُّ أبوهُ !
أيْقَنُوا بالحِمــامِ لما رَأَوْهُ ... مُقْبِـلاً نحوَهُم وسِيئَتْ وُجُوهُ
ورأيناهُ كالحسامِ مضاءً ... فَشَهِدْنَا أَنَّ الحُسَامَ أَخُوهُ
زَرَقَ العِلْجَ زَرْقَةً تركَتْهُ ... حَرِضاً قد أظلَّهُ المكروهُ
ماتَ ذُعْراً [منه[1]] وكم لَقِيَ الأَبْـ ... ـطَالَ في هَبْوَةٍ فما ذَعَرُوهُ
ولكَمْ أَيَّمًا له وقَتِيلاً ... صَمَّ عن أن يُجِيبَ مَنْ يَدْعُوهُ
وأسيراً مُصَفَّــداً في وَثَاقٍ ... وغِيَاثًا لطــارِقٍ جَفَّ فُوهُ
ذاكَ حَتَّى [إذا اللِّقَاءُ دَعَاهُ] ... عَايَنَ الناسُ مِنْهُ ما اسْتَعْظَمُوهُ[2]

ـ الأسوار الجنوبية لقصر الخلافة وضفة « الوادي الكبير » ، وكان الذي شق هذا « الرصيف » هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط بشهادة ابن الابار : الحلة السيراء ص ٦١ (انظر مقال الاستاذ توريس بلباس السالف الذكر ص ١٦٥) .

(١) كلمة ناقصة من الاصل ، وقد أضفناها لكي يستقيم الوزن والمعنى ، ويبدو أن الذي اطلع على المخطوط وعلق على حواشيه قد لاحظ اختلال هذا البيت فكتب في الهامش : « لعله من » مقترحا إضافة هذا الحرف « من » بعد كلمة « لقي » ، غير أن هذه الإضافة لا تقيم البيت ولا تصلح السياق.

(٢) هذا البيت مطموس في الاصل طمسا لا تكاد تبين منه إلا بعض الكلمات ، وقد جعلنا أعسر الكلمات صعوبة في القراءة بين حاصرتين إذ لسنا نجزم بأن ما أثبتناه في موضعها هو الصواب ، وإنما هو أقرب ما تراءى لنا إلى الاصل .

أَسَداً ساقِطاً لِزَرْقَةِ شِبْلٍ لو دَرَوْا حيثُ أَوْغَلَتْ عَذَرُوهُ
وَقَفُوا يُذْعَرُونَ[1] منهُ فَلَمَّا عايَنُوا الفضلَ ماثِلاً أَمَّلُوهُ
وكذا العامِرِيُّ ما دامَ طِفلاً ولَعَمْرِي لَنِعْمَ ما شَبَّهُوهُ
غُصُنٌ ما يَزالُ من دَوْحَةِ المَجْدِ فروعٌ كثيرةٌ تَغْذُوهُ
فإذا جازَ تِسْعَةً وثَلاثاً جَلَّ عن أَنْ يَحُدَّهُ تَشْبِيهُ[2]
يا ثِمالَ العُفاةِ يا مَلِكَ الدُّنْيا ومن فازَ بالغِنىٰ آمِلوهُ
قد حَبَانِي[3] دَهْرِي بإدراكِ دَهْرٍ ما بِهِ ناجِهُ ولا مَنْجُوهُ
لو حَبَانِي بذاكَ عَصْرُ شبابِي لَرَآنِي عَلَى العِبادِ أَتِيهُ
ورجائِي ما قد عَلِمْتَ وشُكْرِي وثنائِي في الناسِ ما عَلِموهُ
غير أنَّ الزمانَ ثَقَّلَ ظهرِي فَهْوَ ثِقْلٌ عليَّ صعبٌ كريهُ
ولَعَمْرِي مالي سِوى المَلِكِ «المَنْصُورِ» في الأَرضِ سَيِّدٌ أَرجوهُ

---

(١) هذه الكلمة غير واضحة تماما في الاصل .

(٢) في هذا البيت إشارة إلى أن سن عبد الرحمن بن المنصور (شنجول) كانت في ذلك الوقت تجاوز الثانية عشرة بقليل ، وإذا كان عبد الرحمن هذا قد ولد في سنة ٣٧٤ (٩٨٤) على أرجح الاقوال (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢/٢٤٢) فإن هذه الحادثة تكون قد وقعت في الغالب بين سنتي ٣٨٦ و ٣٨٧ (٩٩٦ - ٩٩٧) .

(٣) في الاصل : حياني ؛ والنجه : هو استقبال الرجل بما يكره .

[١١٢ب] /وله فيه أيضاً رحمهما الله يهنئه بوفادة غند شلب (*)
ابن شانجه بن غرسية عليه قرطبة سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

[من الكامل]

طاعَتْ لكَ الأَحرارُ باستعبادِها ... وأباحَتِ الأَملاكُ صَعْبَ قِيادِها
فَلأَخْمَصَيْكَ اليومَ حُرُّ وُجُوهِهَا ... ولِوَطْءِ خيلِكَ أَمْسِ حُرُّ بِلادِها
ما زِلْتَ تخطُبُ بالظُّبَىٰ أَرواحَها ... حتى أَتَتْكَ بِهِنَّ في أَجسادِها
وتُحَمِّلُ الخَطِّيَّ أَرْؤُسَهَا فَقَدْ ... جاءَتْكَ تحمِلُهَا عَلى أَكْتَادِها

(*) فى الاصل : عبد شلب والصواب ما أثبتنا ، وهو الامير غند شلب ابن ملك البشكنس (نبارة) شانجه الثاني بن غرسية المعروف باسم Sancho Abarca (انظر تعليقنا على ص ٣٩٥)وهذا الملك هو الذي حكم بلاده بين سنتي ٣٦٠ و ٣٨٤ (٩٧٠ – ٩٩٤) وكان قد قدم إلى قرطبة في سنة ٣٨٢ (٩٩٢) ، أما ابنه غند شلب المذكور فإنه قدم إلى قرطبة في أواخر أيام أبيه وبتكليف منه ليؤكد عهود الولاء للمنصور ، وهذا هو ما يظهر لنا من هذه القصيدة وإن كانت المراجع التاريخية لم تذكر لنا شيئاً عن هذه السفارة ، وكان غند شلب نائبا لابيه ملك نبارة على إقليم أرغون Aragón (انظر بيريث دي أوربل : شانجه الاكبر ، ص ١٥ – ١٦ ، ٢٢ ، ٥٢) .

مِنْ بعدِما قد رُعْتَهَا بعزائمٍ ... هُدَّتْ لهُنَّ الشُّمُّ من أطوادِها

وخَلَتْ متونُ الخيلِ من أبطالِها ... ومرابِضُ الآجامِ من آسادِها

ومشاهِدُ البِيعاتِ من عُمَّارِها ... ومعالِقُ الصُّلْبانِ من عُبَّادِها

حتى تلافَتْ منكَ باستسلامِهِ ... ما كانَ أعْجَزَهَا بِحَرِّ جِلادِها

ورمى «ابنُ شَنجُ» إليكَ نفسَ مُحَكِّمٍ ... نَهَجَ الخضوعُ لها سَبِيلَ رَشَادِها

مُسْتعطِفًا لحُشَاشَةٍ [من مُلْكِهِ ... وثُمَالَةٍ قد آذَنَتْ بنفَادِها(1)]

فاسْتَنقَذَتْهُ منكَ عودَةُ مُنْعِمٍ ... قامت لمهجَتِهِ مقامَ مَعَادِها

وثَنَىْ نواجِذَهُ وفِلْذَةَ كبِدِهِ ... شَفَقًا وناظِرَ عَيْنِهِ وسوادِها

فسما يخوضُ إليكَ بَحْرَ كتائبٍ ... ضاقَتْ جنودُ الأرضِ عن أجسادِها

في سابغاتِ دُرُوعِها ومُثقَّفَا ... تِ رِماحِها ومُسوَّماتِ جيادِها

نِيطَتْ نجومُ السَّعْدِ مِنْ(2) أعْلامِها ... وغَدَتْ جنودُ النَّصرِ من أمْدادِها

غازٍ لعطْفِ العامِرِيِّ مجاهِدٌ ... في طاعَةِ « المنصورِ » حَقَّ جِهادِها

مستنجِدٌ منه مَذَلَّةَ خاضِعٍ ... غُنْمَ الحياةَ أَبُوهُ باستنجادِها(3)

---

(1) موضع ما بين الحاصرتين مطموس في الاصل ، وقد اعتمدنا في إعادة تركيبه على ما بقي فيه من حروف ، ولعل ما أثبتناه هو الصواب أو أقرب ما يكون إليه .

(2) كذا وربما كانت « في » أصلح لهذا الموضع .

(3) الإشارة هنا إلى سفارة أبيه شانجه ملك نبارة إلى المنصور بقرطبة في -

فَحَمَتْهُ طاعتُك التي لو خانَها طارَتْ إليه البِيضُ من أغمادِها

حتى أناخَ بعَقْوَةِ المَلِكِ التي قد حَلَّقَ العيُّوقُ دُونَ وِهادِها

ومليكِ قَحْطَانَ الذي وَكَلَتْ بِهِ إحياءَ مَفْخَرِها ورَفْعَ عِمادِها

صَفْوِ الملوكِ الصِّيدِ من أذْوائِها وسُلالَةِ العُظَماءِ من أمْجادِها

[١١٣ م] / وسَنِيِّها وعَلِيِّها وزَكِيِّها وحليمِها وكريمِها وجَوادِها

فاسلَمْ لعزِّ الدينِ والدنيا التي أصْبَحْتَ أنفَسَ ذُخرِها وعَتادِها

حتى تُؤَدِّيَ شكرَ سَعْيِكَ أُمَّةٌ وَطَّأْتَ في نُعْماكَ خَفْضَ مِهادِها

خُضْتَ المهالِكَ دونَ صَفْوِ حَياتِها وهَجَرْتَ غَمْضَكَ عن لذيذِ رُقادِها

بلَغَتْ سِجالُكَ مُنْتَهى رَغَباتِها وتجاوَزَتْ نُعماكَ شَأْوَ مُرادِها

واللهُ يشهدُ أنَّ بينَ جوانحي نفساً رجاؤُكَ في صميمِ فؤادِها

لو قارَعَتْ عنكَ الخلائقَ كلَّها غَلَبَتْ عليكَ بشكرِها ووِدادِها

- سنة ٣٨٢ ، وقد كانت هذه السفارة موضوع قصيدة سابقة لابن دراج (انظر ص ٣٩٥) من هذا الديوان) .

وله أيضاً يهنىء المنصور رحمه الله بأسر ابن فرذلند (*)

[من الوافر]

تُناضِلُ عنكَ أقـدارُ السماء　　　وتبطِشُ عن يَدَيْكَ يدُ القضاء

(*) هو غرسية بن فرذلند Carci - Fernálndez قومس قشتالة ، وأبوه فرذلند بن غند شلب Fervnan - Couzález هو مؤسس إمارة قشتالة التي كانت في أول الامر قومسية متواضعة ثم استفحل أمرهـا حتى أصبحت مملكة كبيرة اضطلعت بالجانب الاكبر من احتلال القواعد الاندلسية وانتزاعها من أيدي المسلمين ، وكان فرذلند بن غند شلب يحكم هذه الإمارة قريباً من خمسين سنة (٣١١ — ٣٦٠ هـ / ٩٢٣ — ٩٧٠ م) . أما غرسية المذكور هنا فانه حكم قشتالة بعد وفاة أبيه وظل على ذلك حتى سنة ٣٨٥ (٩٩٥) ، وربما كان غرسية هذا أشد أعـداء المنصور بن أبي عامر مراساً وأصلبهم عوداً (وهو ما نجد له صدى في هذه القصيدة نفسها) ، هذا على الرغم من الهزائم الساحقة المتوالية التي أوقعها به المنصور ، وقد كان آخر غزوات المنصور لبلاده تلك الحملة التي قادها الحاجب العامري في سنة ٣٨٤ / ٩٩٤ فاقتحم قشتالة واحتلت جيوشه حصن شنت اشتيبن San Esteban de Cormâz وقلونية Clunia وخرب أبله Avila وكانت هذه الغزوة عقاباً لغرسية على إيوائه عبد الله بن المنصور الثائر على أبيه قبل ذلك بقليل ؛ على أن غرسية رغم ذلك عاود الهجوم في العـام التالي على الثغور الإسلامية الواقعة على ضفاف نهر دويره في المنطقة الجبلية التي تحيط بمدينة سريا Saria ، فسار المنصور لغزو —

وسعيٌ لا يَعُوجُ عـلى حُلُولٍ   وشأْوٌ لا يفوتُ إلى انتهاء
فما قَصُرَتْ رِماحُكَ عن عَدُوٍّ   ولَوْ أَعْيَا بِهِ أَمَدُ التَّنائي
إذا أشْرَعْتَهَـا في إثْرِ غاوٍ   [فَقَدْ ضاقَتْ][1] بِهِ سُبُلُ النَّجَاء
ولو طَارت به [أَلْفَا عُقَابٍ   يَرُمْنَ][2] بنفسِهِ خَرْقَ الهواء
وأَيْنَ يَفِرُّ عَنْ دركِ المنايا ؟   وأَيْنَ يَشِذُّ من تحتِ السماء ؟
فَيَهْنِ الدينَ والدنيا بشيرٌ   « بِغَرْسِيةٍ » الأَعادِي والعَدَاء
بِصُنْـعٍ أَعْجَزَ الآمالَ قِدْماً   وقَصَّرَ دُونَهُ أَمَدُ الرَّجاء
أَلَذَّ عَلَى المسامِـعِ من حياةٍ   وأَنْجَعَ في النفوسِ من الشِّفَاء
فيا فتحاً لِمُفْتَتِـحٍ وبُشرى   لمنتظرٍ ويا مَرْأَى لِراء
أَسيرٌ ما يُعَادَلُ في فكاكٍ   وعانٍ ما يُساوَى في فِداء

ـ بلاده مرة أخرى ، وانتهى الأمر بأن أسر المسلمون غرسية في الخامس عشر من ربيع الثاني سنة ٣٨٥ (١٩ مايو ٩٩٥) فـأمر المنصور بحمله إلى قرطبة غير أنه توفي بعد ذلك بأيام .

(انظر عن هذه الغزوة وأسر غرسية : ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١ / ٣٠ - ٣١ ؛ ابن الخطيب : أعمال ص ٦٨ ــ ٦٩ ، وكذلك ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٤٤ - ٢٤٥ ، وبيريث دي أوربل : تاريخ إمارة قشتالة ص ٧٦٦ - ٧٧٠) .

(١) موضع هاتين الكلمتين مطموس في الأصل لا تكاد تبين منها إلا بعض حروفها .

(٢) هذه الكلمات كذلك مطموسة في الأصل .

هُوَ الدَّاءُ العَيَاءُ شَفَيْتَ منهُ ... فما لِلدِّينِ من داءٍ[1] عياءُ

لقد كادَتْ سعودُكَ منهُ نَجْماً ... منيعَ الجَوِّ وَعْرَ الإِرْتقاءُ

وأعظَمَ في الضَّلالَةِ من صليبٍ ... وَأَعْلَى في الكتائِبِ مِن لِواءُ

حَمَى شِيَعَ الضَّلالِ فأَهَّلَتْهُ ... لِمِلْكِ الرِّقِّ منها والولاءُ

زعيمٌ بالكتائبِ والمَذَاكي ... ثِمالٌ للرَّعايا والرِّعاءُ

مُبَارِي سَيْفِهِ قَدَماً وبأْساً ... ومشفوعُ التجارِبِ بالدَّهاءُ [١١٣ب]

وهَلْ للحزمِ والإِقدامِ يوماً ... إذا عَنَّتْ سُعُودُكَ من غَناءُ ؟

تعاطىٰ في جنودِ الله كَرّاً ... وقد نَبَذَتْ إليه على سَوَاءُ

وما للنَّصْرِ عنها من خِلافٍ ... وما للفتْحِ منها مِنْ خفَاءُ

فساوَرَ نحوَها غَوْلَ المنايا ... وجُرِّعَ دُونَهَا مُرَّ اللقـــــاءُ

وأَجْلَتْ عنه مُنْجَدِلاً صريعاً ... مَصُونَ الشِّلْوِ مَحْمِيَّ الدِّماءُ

وأسلَمَهُ إلى الإسلامِ جيشٌ ... أَغَصَّ بجَمْعِهِ رَحْبَ الفَضَاءُ

لئِنْ خَذَلَتْهُ أطرافُ العوالي ... لقد آساهُ إعوالُ البُكاءُ

بكُلِّ مُرَجِّعٍ للنَّوْحِ يُشْجِي ... بوَاكِيَهُ بتَثْويبِ النِّداءُ

نَعَاءِ إلى ملوكِ الرُّومِ طُرّاً ... ذَوي التِّيجانِ « غَرْسِيَةً » نَعَاءِ !

وهَلْ للرومِ والإِفْرَنْجِ منهُ ... — وقدأُودىٰ — سِوىٰسُوءِالعزاءُ

---

(١) في الأصل : دين ، ولعلها سهو من الناسخ .

فملكُ الكُفرِ ليس بذي وَلِيٍّ   وثأرُ الشِّرْكِ ليسَ بذي بَوَاء
لقد أَرْضَتْ سيوفُكَ فيهِ مولىً   كريم العَهْدِ محمود البَلاَءِ
فما أَغْنَتْ بظهرِ الغَيْبِ إلاَّ   وقد [أغنى بها[1]] كَرَمُ الوَفاء
ولا أَسَرَتْ لك الأملاكَ إلا   وقد أَلْبَسْتَهَا سِيمى السَّنَاء
ولا خَطَفَتْ لك الأَرواحَ إلا   وقد أَرْوَيْتَهُنَّ من الدِّماء
وقد أَبلَيْتَ فيه اللهَ شُكْراً   تواصِلُهُ بإخلاصِ الدُّعاء
وسِعْتَ عبادَهُ صَفْحاً وفَضْلاً   علماً أَنَّهُ رَبُّ الجزاء
فوالىٰ بالمزيدِ من الأماني   وضاعَفَ بالجزيلِ من العطاء
وأتبعَ فَلَّ « غَرْسِيَةٍ » عجالا   يسوقُهُمُ الرَّدىٰ سَوْقَ الحُدَاء
فأَسْأَلُ من بَرَاهُمْ للمنايا   بسيفِكَ أن يَخُصَّكَ بالبقاء
قريرَ العَيْنِ مشفوعَ الأماني   سعيدَ الجَدِّ محبورَ الثَّوَاء
لِمُلْكٍ لا يُرَاعُ بِرَيْبِ دَهْرٍ   وسَعْدٍ لا يحورُ إلى انقضاء

---

(١) موضع الكلمتين مطموس في الأصل لايبين منه إلا بعض الحروف.

وله إلى المنصور رحمهما الله وقد برز لبعض صوائفه

[من الكامل]

/ عَزْمٌ حَدَاهُ السَّعْدُ والإقبالُ ... وعُلاً تَضَعْضَعُ دونَها الآجالُ [١١٤م]

وعوائِدٌ للهِ ما زالَتْ لكُمْ ... بالنَّصْرِ عائِدَةً وليسَ تَزَالُ

وكتائِبٌ لليُمْنِ يومَ رَحِيلِها ... بالفتحِ في جَنَبَاتِهَا استِهْلالُ

وعبيدُ مملكَةٍ وشيعَةُ دَوْلَةٍ ... قد أَيقَنُوا أَنَّ الحيـاةَ قِتالُ

صُبُرٌ إذا انْتَضَوُا السيوفَ تَبَيَّنَتْ ... أعداؤُهُمْ أَنَّ الليوثَ رِجالُ

مستأْنِسينَ إلى الهواجرِ مالَهُمْ ... — إلا متون المشرفيِّ — ظِلالُ

لَهِجُوا بـ « يا منصورُ » (١) فَهْوَ شِعارُهُمْ ... نَعَمْ تعوَّدَ صِدْقَهُنَّ الفـالُ

---

(١) يبدو أن هذا الهتاف : « يا منصور ! » كان هو الشعار الذي اتخذه جنود المنصور بن أبي عامر في ساحات المعارك ، إذ ينص عليه كذلك بعض المؤرخين في حديثهم عن الموقعة التي دارت في شمال المغرب بين واضح قائد المنصور وزيري ابن عطية المغراوي الثائر عليه في سنة ٣٨٨ / ٩٩٨ (انظر ليفي بروفنسال : نبذ تاريخية عن البربر في القرون الوسطى ص ٢٩ ، وكذلك نفس المؤلف : تاريخ ٢ / ٢٣١) .

وصوارِمٌ جَلَتِ الظَّلامَ وما لَهَا ... بِسِوىٰ الجماجِمِ والنحورِ صِقالُ

مِمَّا انتَمىٰ حيثُ انتَمَيْتَ وأَوْرَثَتْ ... آباؤكَ الأذواءُ والأَقيـــالُ

من كل مشحوذِ الغِرارِ كأنَّهُ ... للشمسِ في ظُلَمِ العَجاجِ خَيالُ

وقَناً إذا اقْتَضَتِ العُداةَ نفوسَهـا ... لم يعتَلِلْ بأَدائِهِنَّ مِطـــالُ

سُلُبٍ إذا أَشْرَعْتَهُنَّ تقاصَرَتْ ... أعمارُ مَطْلَبِهِنَّ وَهْيَ طِوالُ

بَهَرَتْ مناقِبُكَ الضُّحىٰ وتقاصَرَتْ ... عن كُنْهِها الأَشباهُ والأَمثالُ

نفسي فداؤكَ [والنفوسُ هَفَتْ بها] (١) ... نارُ الوَغىٰ وتصادَمَ الأَجبـالُ

والبِيضُ تلمَعُ والأَسِنَّةُ [تَلْتَظِي] (١) ... وَالخيلُ في ضنكِ الوغىٰ تختالُ

ومجالُ وجهِكَ في مواقِفَ للرَّدىٰ ... ما للخواطِرِ بَيْنَهُنَّ مَجالُ

ونميسَةٍ أَقْحَمْتَ نفسَكَ دُونَها ... إنَّ النفائِسَ بالنفوسِ تُنالُ

— ١٢٠ —

وله أيضاً في المنصور رحمهما الله يهنئه بفتح شنتياقه (٢)

[من البسيط]

اليوم أَنكَصَ إبليسُ عَلَى عَقِبِهِ ... مُبَرَّءاً سَبَبُ الغاوِينَ من سَبَبِهِ

(١) مطموسة في الأصل .

(٢) مدينة شنت ياقب أو شنتياقه Santiago de Conbostela العاصمة القديمة ـ

واسْتَيْقَنَتْ شِيَعُ الكفّارِ حيثُ نَأَتْ
في الشَّرْقِ والغربِ أنَّ الشِّركَ من كَذِبِهْ

« بِشَنْتِياقَةَ » لما أن دَلَفْتَ لَهُ بالبِيضِ كالبدرِ يَسْرِي في سَنا شُهُبِهْ

وحَلْبَةَ الدينِ والإسلامِ عاطِفَةٌ عليكَ كالفَلَكِ الجارِي عَلَى قُطُبِهْ

حتى فَصَمْتَ عُرَىٰ دِينِ الضلالَةِ من رأسِ القواعِدِ ممنوعِ الحِمَىٰ أَشِبِهْ

لم يَذْعَرِ الدهرُ فيهِ نَفْسَ سائِمَةٍ ولا أَصاخَتْ لَهُ أُذْنٌ إلى نُوَبِهْ

/ مما اصْطَفَتْ عُبَّدَ الطاغوتِ واعتقدتْ [١١٤ب]
وشَيَّدَ الكُفْرُ في الآلافِ من حِقَبِهْ

عمودُ شِركِهِمُ السّامِي ذوائِبُهُ والرُّومُ والحُبْشُ والأَفْرَنْجُ من طُنُبِهْ

= لمنطقة جليقية ، وهي الآن مدينة من أعمال « لاكرونيا La Coruña » وفيه الكنيسة المشهورة التي تحمل اسم يعقوب الحواري على ما يذكر المؤرخون الإسبانيون ، وكان يعقوب الحواري هذا – كما يقال – قد قتل في بيت المقدس فحمله تلامذته في مركب حتى خرجوا به إلى ساحل بقرب موضع هذه الكنيسة ، وقد ارتفعت مكانة شنتياقب في العصور الوسطى بين المسيحيين في غرب أوربا كله حتى أصبحت من أول مراكز الحج بين أمم النصرانية . أما تاريخ غزو المنصور ابن أبي عامر لشنتياقب فقد كان في ٢٣ من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ (٣ يوليه ٩٩٧) ، وقد احتفظ لنا ابن عذارى عنها بتفاصيل وافية (انظر تعليقنا على نونية ابن دراج التي قالها في نفس هذه الغزوة ص ٣٧١) ، ويحتمل أن يكون ابن دراج قد شهد غزوة شنتياقب بنفسه في رفقة المنصور كما يفهم من نص للحميدي (جذوة المقتبس ص ١٠٣) .

تَحجُّهُ فِرَق الكُفَّارِ سائلَةً كالجَوِّ أَظْلَمَ فيـه مُلْتَقىٰ شُحُبِهْ
مُسْتَوْدَعٌ في شِعابِ الأَرضِ حيثُ نَأَى شُمُّ الجبالِ ولُجُّ البحرِ من حُجُبِهْ
من كلِّ أَغبَرَ من عَضِّ السِّفارِ به وساهِمِ الوجه من طُولِ السُّرَى شَجِبِهْ[1]
وكلِّ مُهْدٍ إلى أركانِ بيعَتِـهِ ما عزَّ من نفسِهِ فيها ومن نَشَبِهْ
قد طالما أَحْفَتِ الأَملاكُ أَرْجُلَهَا فيه وخَرَّتْ عَلَى الأَذقانِ من رَهَبِهْ
أَمْمَتَهُ بجنودِ الحقِّ فانقَلَبَتْ بغُرَّةِ الفتحِ من تغييرِ مُنْقَلَبِهْ
وسُمْتَهُ جاحِماً للنـارِ ما بَقِيَتْ نفسٌ من الكفرِ إلا وَهْيَ من حَطَبِهْ
ياحُسْنَ مرأى الهُدَى من قُبْحِ مَنظَرِهِ وبَرْدَ أَكبادِ حزبِ الله من لَهَبِهْ
وعاذَ « بِرْمُنْدُ »[2] منهُ بالفرارِ وكَمْ
من قبلِهـا عاذَ بالأَنصابِ من صُلُبِهْ
مستوطِناً مَرْكِبَ الإحجامِ عنكَ وَهَلْ
يعدُو به وِجْهَةَ المحتومِ من عَطَبِهْ
مُسْتَخْفِياً بظلامِ الليلِ منكَ فإنْ وافاهُ صُبْحٌ تواریٰ في دُجىٰ كُرَبِهْ
قد حَفَّتِ اليومَ منه قَلْبَ مُلْتَهِبٍ منها ومن ... ربه[3]

(١) الشجب : هو الذي أعنته الهم من سفر أو قتال أو حزن .

(٢) برمند بن أردون ملك أشتوريش وليون وجليقية ، وسنترجم له في تعليقنا على قصيدة ابن دراج الرائية في ذكر غزوة شنتياقه . (انظر ص ٤٦١ من هذا الديوان)

(٣) هذا الشطر مطموس في الأصل لاتبدو منه إلا الكلمات التي أثبتنا .

لا يزجرُ الطَّيْرَ في سهلٍ ولا جَبَلٍ إلا بوارِحَ [تعْمِي][1] عَيْنَ مُقْتَرِبِهْ

وأينَ منه سبيلُ الفوزِ منكَ وقد سَلَلْتَ سيفَ الهُدىٰ والنَّصْرِ في طَلَبِهْ ؟

و «إيلياه»[2] الَّتي كانَتْ أَليةَ ذِي جَهْدٍ من الشِّرْكِ خاشِي الإِثْمِ مُرْتَقِبِهْ

رفَعْتَ منها سَناً نارٍ أضاءَ لَهُمْ ما كانَ أَوْدَعَهَا الشيطانُ من [رِيَبِهْ][3]

يشُبُّهَا منكَ عزمٌ لو وَنَى ضَرَمٌ منها لأَضْرَمَهَا في اللهِ منْ غَضَبِهْ

فاللهُ جازِيكَ يا « منصورُ » دَعْوَتَهُ بسَعْيٍ ماضٍ لنصرِ الدينِ مُحْتَسِبِهْ

وعن كتائبَ للإسلامِ قُدْتَ بها إلى رِضَا اللهِ حَتَّى كُنَّ من كُتُبِهْ

ومؤمنٍ مُنْصِبٍ للهِ مُهْجَتَهُ بَلَّغْتَهُ أَمَدَ المغبوطِ مِن نَصَبِهْ

وعن حُسامِ هُدىً لم تَجْلُ صفحَتَهُ إلا أَسَلْتَ دِماءَ الشِّرْكِ في شُطَبِهْ

وليفتَخِرْ منكَ يا « مَنْصُورُ » يَوْمُ عُلاً تَرَكْتَ غابِرَةَ الأَيامِ تَفْخَرُ بِهْ

---

(١) مطموسة لاتبدو منها إلا الياء الأخيرة ، وقد تكون كذلك « تغشي » .

(٢) « إيلياه » هي المدينة التي كانت تسمى « إيريا فلا ڤيا Iria Flavia » على عهد الحكم الروماني ، وتسمى الآن « بادرون Padrón » ، وهي من أعمال « لا كورونيا La Coruña » على الساحل الشمالي الغربي لإسبانيا (في مقاطعة جليقية Galicia) وعلى بعد ٢٤ كيلو متر إلى الجنوب الغربي من مدينة شنت ياقب Santiago . وقد ذكرها ابن عذارى عند حديثه عن غزوة المنصور لشنت ياقب (البيان المغرب ٢ / ٢٩٦) وانظر كذلك ترجمة ليفي برفنسال الفرنسية للروض المعطار – الملحق الثاني ص ٢٤٧ .

(٣) مطموسة في الأصل .

وله في ابنه الحاجب عبد الملك رحمهم الله تعالى يهنئه بمولود

[١١٥م] /

[من الكامل]

طَلَعَتْ نجومُ السعدِ من آفاقِها ... فالأَرضُ تشرِقُ من سنا إشراقِها
للحاجِبِ الأَعْلَىٰ المُصَرِّف هِمَّةً ... موصولةً بشآمِهـــا وعِراقِها
بهلالِ أقمارِ الهُدىٰ من يَعْرُبٍ ... فَمُنَىٰ مَساعِي شأوِها بِلَحاقِها[1]
الطالِعاتُ عَلَى الهُدىٰ بتَمامِهـا ... والطالعات عَلَى العِدىٰ[2] بمَحاقِها
والمُسْتَهِلُّ عَلَى العُفَاةِ براحَةٍ ... وَسِـعَ الهُدىٰ والمُلْكَ ظِلُّ رِواقِها
فالدينُ يونعُ من نَدىٰ إغْدَاقِها ... والـكفرُ يَرْجُفُ من رَدىٰ إصْعَاقِها
خَلَفاً من « المنصورِ » في عَزَمَاتِـهِ ... والخيلُ جاريَةٌ عَلَى أعْرَاقِها[3]
زُهِيَتْ نحورُ الغانياتِ به وقد ... سامَ الوغىٰ بوَدَاعِها وفِراقِها
مُتَرَشِّفُ الهبواتِ قبلَ شِفاهِهـا ... ومُعَانِقُ الأَبطـــالِ قبلَ عِناقِها

(١) كذا ورد هذا البيت ، ولم نهتد إلى وجه صالح لتأويله .
(٢) في الاصل : الهدى ، ولامعنى لها هنا ، واعل الصواب ما أثبتنا .
(٣) جمع عرق (بفتحتين) : وهي من الخيل والطير الصفوف المتراصة .

قَلِقَتْ إليه البيضُ في أغمادِها   وثَنَتْ إليه الخيلُ من أعناقِها
مُتَفَجِّرٌ لِعفاتِهِ عن شيمةٍ   زادَتْ بها الأيامُ في أرزاقِها
متكشِّفٌ عن سطوةٍ مذخورةٍ   للحربِ[إنْ](1) كَشَفَتْ لهُ عن ساقِها
تَفْدِيهِ مِنَّا أنفسٌ وَجَدَتْ به   [ريحانة الآما] ل في إنشاقِها
[ونَوَاظِرٌ حَفَّتْ بِهِ توَّاقَةٌ   لَوْ أنَّها](2) حَمَلَتْهُ في أحْداقِها
في رَوْضَةِ [المُلْكِ التي يَجْرِي بها   ماء](2) النَّعيمِ يروقُ في أوْرَاقِها
[وازدادَت](3) الأشياءُ حُسناً كُلُّها   حتى حمامُ الأيكِ في أطْوَاقِها
[ياعامِراً](3) من أَعْمَرُوا سبلَ الهُدى   لا دَرَّ دَرُّ الخيلِ بعدَ عِتاقِها

(١) موضعها مطموس في الاصل .

(٢) هذه الكلمات تكاد تكون مطموسة تماما في الاصل ، ولسنا نجزم بأن ما أثبتناه هو الصحيح ، غير أنه أقرب ما رأينا إلى ما بقي من آثار كلماته مع المحافظة على المعنى والوزن بقدر ما أدى إليه الاجتهاد .

(٣) هذه الكلمات غير واضحة تماما في الاصل .

وله في خروجه إلى غزاة ممقصر [1] من بلاد الإفرنج وهي الأولى من غزواته بعد وفاة والده رحمة الله عليهم :

[من الكامل]

اللهُ جارُكَ ظاعِناً ومُقيما ومُثيبُكَ التبجيلَ والتعظيما
قرّتْ عيونُ المسلمينَ وقد رَأَوْا إقدامَ عزمٍ بالفتوحِ زَعيما
كَرّاتُ نَصْرٍ أَصبَحَتْ لِذَوِي الهُدىٰ هِمَماً وفي أرضِ الضلالِ هُمُوماً
ما يَمَّمَتْ بالفلج مهجةُ كافرٍ إلا انثنىٰ من ذِكْرِهِنَّ أَميما [2]
[١١٥ب]/فارفَعْ لواءً بالنجاحِ عَقَدْتَهُ بالنَّصرِ في سُبُلِ الهُدىٰ مَوْسُوما
وانْهَضْ بأنصارِ الهُدٰى نحوَ العِدىٰ جيشاً بخَشْفِهِمُ أَجَشَّ هَزِيما
من كُلِّ سامِي الطَّرْفِ يَحْذُو وُلَّهاً قد غادَرَتْ أُمَّ الضلالِ عقيما
تُذْكِي أَكُفُّهُمُ لإضرامِ الوغى شُعَلاً وفي قِمَمِ الرؤوسِ نجوما
مُسْتَلْئِمِينَ من السيوفِ بوارِقاً ومن السَّنَوَّرِ عارِضاً مركوما

(١) سيرد تعليق على هـذه الغزوة بمناسبة قصيدة أخرى لابن دراج في الموضوع نفسه .

(٢) اسم مفعول من « أم » ، يقال أمه : أي أصاب أم رأسه .

عزَّتْ بذكركَ في البلادِ صوارمٌ تركَتْ رجاءَ عُداتِها مَصْرُوما

وأسِنَّةُ الخطِّ التي خَطَّتْ عَلَى شِيَعِ الضلالَةِ حينَها المحتوما

طَلَعَتْ عَلَى دينِ الهُدى بِكَ أسْعُداً وعَلى ديارِ المشركينَ رُجوما[1]

فاطلُبْ بها — واللهُ مُسْعِدُ حَظِّها — حَظّاً من الفتحِ المُبينِ جَسيما

وامدُدْ عَلَى الآفاقِ كَفّاً لم تَزَلْ تُفْني بوادِرُهَا العِدىٰ واللُّوما

صابَتْ على الإشراكِ خَسْفاً مُفْنياً وهَمَتْ علينا بالنوالِ غُيُوما

فلقَدْ وسِعْتَ الأرضَ معروفاً وقد شَيَّدْتَ مجداً في السماءِ مُقيما

ولقد حَمَيْتَ ذِمارَ أُمَّـةِ أحمدٍ وأبَحْتَ من عِزِّ الضلالِ حَريما

في مَعْرَكٍ أظْمَـأْتَ [أكبادَ][2] العِدىٰ [فيه ورَوَّيْتَ][2] الرِّماحَ الهيما

أخْضَلْتَ فيهِ السَّيْفَ من مُهَجاتِهِمْ [وتركتهم لِلرّامِسَاتِ][2] هَشِيما

بِكَ أصبحَ الثَّغْرُ المُرَوَّعُ مُشْرِقاً ولَكادَ [قَبْلَكَ][2] أن يكونَ بَهيما

يا أيُّهـــا المَلِكُ الذي بسيوفِـهِ ورماحِهِ أضحىٰ الهدىٰ مَعْصوما

بِـكُمُ اغتدىٰ شملُ العِدىٰ مُتَبَدِّداً وبِكُمْ غَدا شملُ الهُدىٰ منظوما

طِبْتُمْ فروعاً في ذُؤابَـةِ يَعْرُبٍ وزَكَوْتُمُ في المالِـكِينَ أرُوما

المُسْرِعونَ إلى النَّدىٰ والطّائِرو نَ إلى الوَغىٰ والرّاجِحُونَ حُلوما

---

(١) جمع رجم (بفتحة فسكون) : وهو : الشهاب .

(٢) هذه الكلمات غير واضحة تماماً في الاصل .

والمُنتَضون سيوفَهُمْ لوقائِعٍ عَزّتْ قَنـاَها فارِساً والرُّومـا
دانَتْ لهم غُرَرُ المناقِبِ واصطَفَوْا حَسَباً حديثاً في الدُّنا وقَديما
كَرُمَتْ مَغَارِسُهُمْ وطابَ نِجارُهم حتى غدا بِهِمُ الزمانُ كريمـا

— ١٢٣ —

وله فيه أيضاً رحمهم الله وقد خرج إلى بعض غزواته بنبلونة :

[من البسيط]

[١١٦ م] / قد عادَتِ الشمسُ في أعلىٰ مطالِعِها ولُـجَّةُ البحرِ في أعلىٰ مَشارِعِها
وعزَّ نَظْمُ الهدىٰ في كفِّ ناظِمِهِ وراقَ مُجْتَمَعُ الدنيا بجامِعِها
وعادَ نورُ جفونٍ في نواظِرِها به وقَرَّتْ قلوبٌ في مواضِعِها
وقابلَتْها اللُّهىٰ في كَفِّ باذِلِها وحوزَةُ المُلكِ في أكنافِ مانِعِها
وحطَّ رَحْلَ الوغىٰ عن ظهرِ صائِفَةٍ شابَتْ رؤوس الأعادِي[1] مِنْ وقائعِها
كادَتْ تَهُدُّ الصخورَ الصُّمَّ روعَتُها لولا تَمَكُّنُ وَقْرٍ في مَسامِعِها
هَوْلٌ نَفىٰ الجِنَّ عن أَخْفىٰ مَلاعِبِها وأَوْحَشَ الوحشَ في أقصىٰ مَراتِعِها
تقودُها دعوةُ التوحيدِ قد أَخَذَتْ عَهْداً من اللهِ في تشفيعِ شافِعِها

(١) في الاصل : « العدى » ولا يستقيم بها الوزن ، ولعلها كما أثبتنا .

وغُرَّةٌ أَشْرَقَتْ في كلِّ مُظْلِمَةٍ بثاقِبِ الهَدْيِ والأنوارِ ساطِعها
بريحِ نصرٍ إلى الأعداءِ تَقْدُمُها[٢] كَريحِ عادٍ جَلَتْهَا عن مَصانِعِها
فإن يعوذُوا بآنافِ الجبالِ فقد جاءتْ أُنوفُهُمُ في سَيْفِ جادِعِها
أو عَلَّلُوا بِفِرارٍ أنفساً عَلِمَتْ أنَّ الفِرارَ دواءٌ غَيْرُ نافِعِها
فما النجاةُ تَمارى في تَفكُّرِها ولا الحياةُ تَراءى في مَطامِعِها
بل الرَّدى منكَ مكتوبٌ عَلَى [مُهَجٍ قدأَصْبَحَتْ][٣] بارِزاتٍ في مَضاجِعِها
ولا بسَيْفِكَ عَجْزٌ عن [معاقِلِها][٣] ولا سِنانُكَ نابٍ دُونَ دارِعِها
وما [تَرَجَّلْتَ][٣] إلا ريثَما نَزَلُوا عَلى الأَحِبَّةِ في أَدْنَى مَصارِعِها
وأنتَ جارٍ من العَلْيا عَلَى سُنَنٍ تَدارُكُ الحربِ من أَزكَى شرائِعِها
واللهُ جارُكَ في حِلٍّ ومُرْتَحَلٍ وساحَةِ الأرضِ دانيها وشاسِعِها
حتَّى يُثيرَ لكَ الآفاقَ مُؤْتَنِفاً كواكِباً تُسْعِدُ الدنيا بطالِعِها

(٢) في الاصل : يقدمه .
(٣) كلمات غير واضحة في الاصل .

وله فيه أيضاً رحمها الله وقد تلقاه من غزاته مُمَقَصَرَ(١) سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة :

[من المتقارب]

لِتَهْنِئْ سلامَتُكَ المسلمينـا   وتَفْـدِكَ(٢) أَنْفُسُهُمْ أجمعينا

فقد صدَّقَ اللهُ ما يرغبونا   وقد حقَّقَ الله ما يأملونا

غَزَوْتَ فأُعْطِيتَ نَصْراً عزيزاً   وصُلْتَ فَوُفِّيتَ فتحاً مُبينا

بسيفٍ ضربتَ به في الإلٰهِ   فأَعْزَزْتَ ملـكاً ودُنيا ودِينا

---

(١) ممقصر اسم حصن كان من أهم حصون برشلونة ، وكانت إليه أول غزوات عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر في سنة ٣٩٣ (١٠٠٣) بعد موت أبيه ، وقد فتحه المظفر عنوة وأسكنه المسلمين ودوخ بسيط برشلونة وما يتصل به ، وهناك خلاف حول اسم هذا الحصن ومكانه في الوقت الحاضر ولعل خير تفسير له هو ما وصل إليه الاستاذ إرنانديث خيمينث Herández Yiménez من أنه حصن كان يسمى بالإسبانية Monmagstre من أعمال برشلونة (انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ | ٢٨٥) ، وكانت برشلونة في وقت تلك الغزوة تحت حكم ريمند (الثالث) بن بريل Ramón Borrell III (٣٨٢ – ٤٠٩ / ٩٩٢ — ١٠١٨) .

(٢) في الاصل : وتفديك .

/ وبَلْدَةِ شِرْكٍ تيمَّمْتَهـا فغادَرْتَها آيَةَ السَّائلينا [١١٦ب]
ودائِـعُ مجدٍ تقَلَّدْتَهَا فكُنْتَ عليها القَوِيَّ الأَمينا
نهضتَ فأَرضَيْتَ مِنَّا النفوسَ وأبْتَ فأَقْرَرْتَ مِنَّا العيُونا
فما خيَّبَ اللهُ فيك الرجاءَ ولا كذَّب الله فيك الظُّنونا
فأُبْقِيتَ حِصناً منيعاً رفيعاً ودُمْتَ كريماً عزيزاً مَكينا

— ١٢٥ —

وله فيه أيضاً رحمها الله ويعزيه عن طفل توفي له في حياة المنصور أبيه

[من البسيط]

عَمْرِي لقدْ أعذرَ الدمعُ الذي وَكَفا لَوِ اشْتَفَى من تباريحِ الأَسَى وشَفَى
وما غَنَاءُ دُموعِ العَيْنِ عن كَبِدٍ حَرَّى ونِضْوٍ يُقَاسِي الليلَ مُلْتَهِفاً ؟
يا بْنَ الذينَ لأَيديهِمْ وأَمْرِهِمُ أَلقي الزمانُ قيادَ الذُّلِّ مُعْتَرِفا
ببأْسِهِمْ قامَ دِينُ اللهِ منتصراً من الحوادِثِ والأَعداءِ مُنْتَصِفا
أَعْزِزْ عَلَى الدينِ والدنيا وأهلِهِما خَطْبٌ سَمَا فارتقى من عِزِّكُمْ شَرَفا
غُصْنٌ من المجدِ عاذَ المسلمونَ بِهِ هَبَّتْ عليهِ رياحُ النصرِ فانْقَصَفَا
للهِ من قَمَرٍ أَسْرَى العُفاةُ بِهِ حتى [إذاما اسْتَوَى في أُفقِهِ] (١) كُسِفَا

(١) هذه الكلمات مطموسة في الاصل ، ولعلها لا تخرج كثيرا عما رجحنا .

سما إلى جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ مُعْتَلِياً   إذْ لم يَزَلْ مُسْتَهَاماً بالعُلاَ كَلِفا
تلكَ المكارمُ وَافَتْهُ فَعَلَّقَهـــــا   حُبّاً ، شَهِدْتُ لقد أَوْدَى بها شَغَفَا
وسَهْمُ نصرٍ تُراعُ الحادِثاتُ بهِ   أضحَى بسهمِ المنايا والرَّدَى قُذِفا
يا مَنْ رأى الجودَ يَغْشَى نَعْشَهُ شَغِفاً   بالهَمِّ مُرْتَدِياً بالحزنِ مُلْتَحِفاً
يدعوه حتَّى إذا أَعْيَا مُحاوَرَةً   نادَى فأَسْمَعَ صُمَّ الصخرِ : وَا أَسَفَا !
وخلَّفُوه لديهِ رَهْنَ مَلْحَدَةٍ   حيرانَ يَلْثُمُ بُرْدَ التُّرْبِ مُرْتَشِفا
مبارِياً لدموعِ المزنِ ما هَتَنَتْ   ومُسْعِداً لحمامِ الأَيكِ ما هَتَفَا
قد كانَ من دونِ ذاكَ الغابِ لَيْثَ وَغىً   أَحْمَى العرينَ وفي تلكَ العلا خَلَفَا
فاختارَهُ اللهُ في الدنيا لَكُمْ فُرُطاً   ذُخْراً وفي جَنَّةِ المأْوى لَكُمْ سَلَفا
من بعدِما اهْتَزَّ سيفُ النَّصْرِ في يَدِهِ   وصالَ غضبانَ من دُونِ الهدى أَسَفَا
وشَمَّرَتْ دونَ ذاكَ الملكِ عَزْمَتُهُ   يَوَدُّ لو كَرَّ صرفُ الدهرِ أو زَحَفَا
[١١٧م]/ واسْتَشْرَفَتْ أَعيُنُ الأَبطالِ ناظِرَةً   أَيَّانَ يركَبُ دِرْعَ الموتِ مُعْتَسِفا
والخيلُ قد نسجَتْ سُفْلَى سنابِكِها   من القتامِ عَلَى فُرسانِها كِسَفَا
كأَنَّهُمْ في لَبوسِ السابغاتِ ضُحىً   كواكِبٌ لبِسَتْ من ليلِها سُدَفا
والبيضُ قد غَشِيَتْ منهم سَنَا غُرَرٍ   كأَنها دُرُّ بَحْرٍ يسكُنُ الصَّدَفا
فاسلَمْ ولا زالَ شملُ الكفرِ مُفترِقاً   بالسيفِ منكَ وشملُ الدينِ مُؤْتَلِفا
واستَقْبِلِ العيدَ مَسْرُوراً ولا بَرِحَتْ   تُهدِي الليالي إليكَ العِزَّ مُؤْتَنِفا
وليَهْنِكَ الفوزُ والزُّلْفى وأَنفُسُنا   يلقِينَ من دونِكِ التَّبْرِيحَ والأَسَفا

وله فيه أيضا رحمها الله يهنئه ببعض فتوحاته

[من الكامل]

أهـلاً بمن نَصَرَ الإلهُ وأَيَّدَا ... [وحمى](١) من الإشراكِ أُمَّةَ أَحْمَدَا

وسَخَا لأَطرافِ الرِّماحِ بنفسِهِ ... [شُحًّا](١) وإشفاقًا على دينِ الهُدَى

وبمَنْ حَمَى التوحيدَ مِمَّنْ سامَهُ ... خَسْفًا فأَصبحَ في المعالي أَوْحَدا

حتى أعادَ الدِّينَ أبيضَ مُشْرِقًا ... بسيوفِهِ والكُفْرَ أَدْهَمَ أَسْوَدَا

بَسَطَ الإلهُ بسَيْفِهِ [وبرُمْحِهِ](١) ... ظِلًّا عَلَى الدِّينِ الحنيفِ مُمَدَّدَا

بمكارمٍ شهدَتْ [عليهِ بأنَّهُ](١) ... أَندى الورى كَفًّا وأَطيبُ مَحْتِدَا

وشمائلٍ لو شام [رَهْبَةَ سَيْفِهِ](٢) ... لَغَدا لِرِقَّتِها الوَرَى مُسْتَعْبَدَا

من أَحْرَزَ الغاياتِ أَدْنَى شأوِهِ ... حتّى تقاصَرَ عن مساعِيهِ المَدَى

وسطَا عَلَى الأعداءِ حتى لاغتدتْ ... عَنقاءُ مُغْرِبُ(٣) في البلادِ من العِدَى

---

(١) غير واضحة في الاصل .

(٢) غير واضحة في الاصل ، ولعلها كما أثبتنا ، وشام هنا : بمعنى أغمده .

(٣) في الأصل : عرف ؛ والعنقاء المغرب طائر : معروف الاسم مجهول الجسم ، ويضرب مثلا لشيء الذي لا يعرف أو اللفظ الدال على غير معنى .

بعزائمٍ في الرَّوْعِ قحطانيَّةٍ تركَتْ ديارَ الشِّرْكِ قاعاً فَدْفَدَا
يا حاجِباً وَرِثَ الرياسَةَ والعُلاَ والملكَ والإعظامَ أَمْجَدَ أَمْجَدَا
والقائدَ الميمونَ والقمرَ الذي يجلو بغُرَّتِهِ الظلامَ إذا بَدَا
والأزهَرَ الوضَّاحَ والمَلِكَ الذي لبسَ الندى والبأسَ ثَوْباً وارتدى
إن يُكُنْ عن بعضِ النجوم بأَسْعُدٍ فلقد تجلَّتْ كُلُّها لكَ أَسْعُدَا
فَخْراً لمصدرِكَ الذي لَمْ يَتْرُكْ لِظُبى الصوارمِ في الأعاجمِ مَوْرِدا
للهِ في الإشراكِ منك وقائعٌ أَرْبَتْ على حَرْبِ «الذَّنائبِ» مَشْهَدَا
[١١٧ب]/ لامثلَ «بَرْبَذِّيلَ»(١) يوم حَوَيْتَهَا فَخْراً أغارَ على الزمانِ وأَنْجَدَا
جَرَّدْتَ للإسلامِ فيها صارماً عَوَّدْتَهُ ضَرْبَ الطُّلَى فتعوَّدَا
وسلَلْتَهُ للهِ فيهــــا سَلَّةً منَعَتْ صليباً بعدها أن يُعْبَدَا

---

(١) في الأصل « رمديل » ، وقد رجحنا أن تكون كما أثبتنا ، ونراه يعني موضعا كان يعرف في قشتالة باسم Barbadillo ، ويعرف الآن باسم Barbadillo del Mercado ، ويدل على ذلك تكرر هذا الموضع في كتب التاريخ المسيحي الإسبانية التي ورد فيها حديث الأسطورة التاريخية المعروفة باسم « نبلاء لارا السبعة Los Siete Infantes de Lara » في الأدب الشعبي الملحمي الإسباني ، وهذا الحديث وإن كان أسطوريا مليئا بالتفاصيل الخرافية إلا أن له قيمة تاريخية كبرى في بيان المواضع التي دارت فيها الحروب بين القشتاليين والمسلمين في عهد المنصور بن أبي عامر ، إذ أن هذا الحديث يتناول تلك الحروب. انظر حول موضع « بربذيل » في هذه القصة : R. Menéndez Pidal ; La Leyenda de Los Infantes de Lara , PP . 6 , 30 , 191

Pérez de Urbel : Hsirtoia Del condado de castilla. II, PP . 737, 739, 741.
Madoz : Diccionario ... , III , P . 379 .

وَوَقَفْتَ دونَ الدَّيْرِ فيها وَقْفَةً كانتْ لنصرِ اللهِ فيهـا مَوْعِدا

وَ « قُلُنْيَةً » (١) أَنشأتَ فيها عارِضاً للحربِ أَبْرَقَ بالحتوفِ وأرعدا

وَبِرَأْيِ عَيْنِي (٢) يومَ خُضْتَ لفَتْحِها بحراً من البيضِ الصَّوارِمِ مُزْبِـدَا

فرأَيْتُ ما اسْتَنْزَلْتُ من نجمٍ هَوَى وشهِدْتُ ما حُدِّثْتُ عن لَيْثٍ عَدَا

والحربُ قائمةٌ تَغَصُّ بِنَقْعِهـا لجأً بنـارِ المشرفيَّةِ مُوقَـدَا

والشمسُ حَيْرَى في السماءِ كأنَّهـا ترنُو إلى الدُّنيـا بمقلةِ أَرْمَدَا

والخيل تستلِمُ الصَّعيدَ كأنمـا تبغي إلى الجوزاءِ منها مَصْعَدَا

ما إن ترى إلا خُفُوقَ مهنَّدٍ ـ كالبرقِ ـ يقرعُ في المَكَرِّ مُهَنَّدَا

وثُقُوبَ أَزْهَرَ كالشهابِ مُثَقَّفٍ يُهْدَى إلى ظُلَمِ النُّفُوسِ بهِ الرَّدَى

فغدا إليها منكَ لَيْثُ خَفِيَّةٍ ما راحَ إلا للفخارِ ولا غَدَا

لا تَرْتَضِي للسيفِ سَلَّةَ ساعَةٍ حتى تراهُ في الكواهِلِ مُغْمَدَا

وتركت « شَنْتَ أَشْتِيبَنَا » (٣) وكأنما حطَّتْ سيوفُكَ من عِداها الفَرْقَدَا

فَقَصَرْتَ مُدَّتَهَا بوقفةِ ساعَةٍ أبقَتْ لكَ الفخرَ الجليلَ مُخَلَّدَا

شيَّدْتَ عزَّ المسلمينَ بهَـدْمِ ما قد كانَ عِزُّ الكفرِ منهـا شَيَّدَا

---

(١) انظر تعليقنا على هذا الموضع في ص ١٨ من هذا الديوان .

(٢) في الأصل : « مراى عنى » كذا دون إعجام ، ولعلها كما قرأنا .

(٣) هي القلعة المعروفة لدى المسيحيين باسم San Estaban de Cormaz وكانت هي وقلعة قلونية أو قلنية (الواردة في هذه القصيدة) من أمنع خطوط الدفاع عن إمارة قشتالة والهجوم منها على الأندلس الإسلامية .

وتَرَكْتَ «غَرْسيةَ» [1] بنقمةِ غَدْرِهِ بالرَّوْعِ في الأَرضِ الفضاء مُقَيَّدَا
لهفانَ يجتابُ النهارَ مُرَوَّعاً بظِباكَ والليلَ التمامَ مُسَهَّدَا
خزيانَ قد أَوْسَمْتَ حُرَّ بلادِهِ ودِيارِهِ لَهَبَ السعيرِ المُوقَدَا
قد غَرَّ أحزابَ الكُماةِ وما حَمَى وأَضَلَّ أشياعَ الضَّلالِ وما هَدَى
إيهاً بني المنصور أَنْفُسُنَا لكُمْ ونفوسُ مَنْ في الشرقِ والغربِ الفِدَا
اليومَ أَنْسَى فتحُكُمْ ما قبلَهُ عِظَماً كما نَسَّا [2] لِفَتْحِكُمُ غَدا

— ١٢٧ —

وله يرثيه عند وفاته ويُعَزِّي أخاه ناصر الدولة عبدالرحمن
[١١٨ أ] / ابن المنصور ويهنئه بالحجابة والولاية بعده [3]

[من البسيط]

ما أَطْبَقَ الهَمُّ إلا ريثَمَا انْفَرَجَا ولا دَجا الخطبُ إلا وَشْكَ ما انْبَلَجَا [4]

---

(١) يقصد هنا غرسية بن فرذلند Carci - Fernández قومس قشتالة الذي ترجمنا له عند تعليقنا على قصيدة لابن دراج في أسره وقتله (ص ٤٣٥) .

(٢) تسهيل « نسأ » بتشديد السين : أي أخر .

(٣) كانت وفاة عبد الملك المظفر في سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) وقد ولي بعده الحجابة أخوه عبد الرحمن المنصور الملقب بشنجول الذي يعزيه ابن دراج ويهنئه بهذه القصيدة .

(٤) في الحاشية تعليق نصه : « تعزية وتهنية ، الأولى في الصدر والثانية في العجز » .

ما كادَ يبدو الضُّحَى بالحزنِ مُكْتئباً	حتَّى رأَيْنَا الدُّجَى بالنورِ مُنبَلِجَا
فاليومَ قَد لَبِسَ الإظلامُ ثوبَ سَناً	في عُقْبِ ما لَبِسَ الإصباحُ ثوبَ دُجَى
وأورقَتْ شَجَرُ الدنيا لَدُنْ عَرِيَتْ	وعادَ يشدو حمامُ المُلكِ إذ نَشَجَا
بَشَّرَ بالشمسِ إشراقُ الضُّحَى فَشَفَى	في إثرِ ناعٍ نَعَى نجمَ الهُدَى فَشَجَا
رُزْءٌ حَكَى كَظْمَ الأرواحِ أعقبَهُ	صُنْعٌ أعادَ إلى أوطانِها المُهَجَا
فأَصبحَ المُلْكُ لا رَبْثاً[1] ولا خَلَلاً	وأَصبحَ الدِّينُ لا أمْتاً ولا عِوَجَا
فَلْتَهْنِنَا نِعَمُ الرحمنِ حينَ هَدَى	بِعَبْدِهِ سُبُلَ الحقِّ الذي نَهَجَا
« بِناصِرِ الدِّينِ » والإسلامِ مُفتَتِحاً	بِيُمْنِهِ كُلَّ بابٍ للمُنَى أُرْتِتِجَا
يا بْنَ الذي قادَ من أذْواءِ ذي يَمَنٍ	عُرْفاً بعُرْفِ المعالي والهدى وُشِجَا
من ذا يُنازِعُكَ المُلكَ الذي عَمَرَتْ	بِهِ أَوائِلُكَ الأحقابَ والحِجَجَا[2]
وفي جبينِكَ سِيَما المُلْكِ قد بَهَرَتْ	وفي يمينِكَ قِدْحُ الحقِّ قد فَلَجَا[3]
ما كانَ أوَّلَ [كَرْبٍ جَلَّ فادِحُهُ	دَجَا][4] فكُنْتَ لنا من هَمِّهِ فَرَجَا
فرُبَّ دهياءَ من خَطْبٍ[أضَأْتَ][5] لنا	آراءَكَ الزُّهْرَ في آفاقِها سُرُجَا

(١) الربث : هو الضعف والعجز والتفرق .
(٢) جمع حجة (بكسر الحاء) : وهي السنة .
(٣) أي فاز وظفر .
(٤) هذه الكلمات مطلموسة في الأصل لا تبدو إلا بعض حروفها .
(٥) مطموسة تماماً في الأصل ، وقد تكون كما أثبتنا أو شيئاً على وزنها ومعناها كأن تكون « رفعت » مثلا ...

وَرُبَّ يومٍ وأيَّامٍ كَشفْتَ بها   عنَّا وعن مَلِكَيْكَ[1] المَأْزِقَ اللَّحِجَا[2]
وعَزْمَةٍ لكَ يومَ الرَّوْعِ صادقَةٍ   تركْتَ صُمَّ الصَّفا في جَوِّهَا رَهَجا
ولُجَّةٍ من صَفيحِ الهندِ خُضْتَ بها   من المنايا إلى نَيْلِ المُنَى لُجَجَا
وكَرَّةٍ بعدَ أخرى في ندىً ووَغًى   بَنَيْتَها لسماواتِ العُلا دَرَجا
فما دَعَتْ غيرَكَ الآمالُ حينَ دعَتْ   ولا رَجا غيرَكَ الإسلامُ حين رَجَا
ولا أتَتْكَ وفودُ الحمدِ عامِدَةً   إلا تَلَقَّتْكَ مشغوفًا بها لَهِجا
ولا تيَمَّمَكَ التأميلُ مبتكِراً   إلا ووافاكَ بالإنعامِ مُدَّلِجا
ولا تقَلَّبْتَ في مثوىً ولا سَفَرٍ   إلا وذِكْرُكَ في حَلْقِ الضَّلالِ شَجَا
ولا نجا منكَ ذو غِلٍّ ولا دَغَلٍ   إلا إلى حُكْمِكَ الماضي عليه نَجَا
صَبْرٌ كثَهْلانَ يومَ الرَّوْعِ مُتَّئِداً   جُودٌ كَسَيْحَانَ يومَ المَدِّ مُعْتَلِجَا[3]
[١١٨ب]/ فيا مُعَادِيَهُ أَجْفِلْ ولا وَزَراً   ويا مُؤَمِّلَهُ أَسْرِفْ ولا حَرَجَا
ولا تزَلْ أيُّها الدَّهْرُ السعيدُ به   بِوَجْهِهِ بَهِجاً مِنْ ذِكْرِهِ[4] أَرِجا

---

(١) يقصد بـ « ملكيه » أباه المنصور بن أبي عامر ثم أخاه عبد الملك المظفر وهما اللذان قاما على تدبير الدولة قبله.

(٢) أي الضيق الحرج.

(٣) ثهلان: اسم جبل؛ وسيحان: اسم لنهرين أحدهما بالشام والآخر بالبصرة؛ ومعتلج: أي ملتطم الأمواج.

(٤) في الأصل: بذكره، وهي تمكن أن تصلح لهذا الموضع مع زحاف قبيح يغني عنه جعلها « من ذكره » كما أثبتنا.

وله في الناصر عبد الرحمن بن المنصور في غزوة شَنْتِياقُهْ(١)

[من المتقارب]

هو البدرُ في فَلَكِ المَجْدِ دارا   فما غَسَقَ الخطبُ إلاَّ أنارَا
تَجَلَّى لَنــــــا فَأَرَتْنا السُّعودُ   غُيُوبَ المُنَى في سناهُ جِهارا
وأَوْفَى فكادَتْ صَوادِي القُلوبِ   تفوتُ العُيونَ إليه بِدارا
وحَلَّ فَحَلَّتْ جِسامُ الفُتُو   حِ تَبْأَى اخْتِيالاً وتَزْهَى افتِخارا
وحَقَّ له اليومَ رِقُّ الكرا   مِ طَوْعاً ورِقُّ العُداةِ اقْتِسارا
فيا رُبَّ غايَةِ مَجْدٍ شَأَوْتَ   إلى فَخْرِها مُعْجِزاً أن تُجارَى
ومن يَسْمُ في ذِرْوَتَيْ حِمْيَرٍ   ويَحْتَلَّ من يَمَنِ المُلْكِ دارا
يُنَازِعْ إلى شِبْهِ ذاكَ السَّناءِ   وتَنْحُ مساعِيهِ ذاكَ النِّجارا
وحَسْبُ الخليفةِ إيثــــارُهُ   لَكُمْ دونَ هذا الأَنامِ اقْتِصارا
تَنَقَّا كَما عامِرِيَّيْنِ قاما   بأعبائِهِ فاسْتَجَدَّا الفَخارا

(١) سبق أن علقنا على هذه الغزوة في موضعين سالفين عند الحديث عن قصيدتين قالهما ابن دراج في نفس الغرض (انظر صفحتي ٣٧١ و ٤٤٠) .

فَلَمْ يَأْلُ بحبوحَةَ الملكِ حَظًّا ولا ادَّخَرَ المسلمينَ اختيارا
رمىٰ بكَ بَحْرَ الأَعادِي وأَدْنىٰ من المُلْكِ حاجِبَهُ مُستَشَارا
فـكانَ الحسامَ وكُنْتَ السِّنانَ وكانَ الشِّعارَ وكنتَ الدِّثارا
ولألأَ منهُ عَلَى الدِّينِ نوراً وأَضْرَمَ منكَ عَلَى الشِّرْكِ نارا
فأَوْلَيْتَ نُعْماهُ في الله عَزْماً ترى النَّصْرَ يَقْدُمُهُ حيثُ سارا
فصُنْتَ العلاَ وأَبَحْتَ النَّدىٰ وحُطْتَ الهدىٰ وحميتَ الذِّمارا
فأَصبَحَ سيفُكَ للدينِ حِصْناً وأمسىٰ سِنانُكَ لِلثَّغْرِ جارا
وفي « شَنْتِ ياقُبَ » أَوْرَدْتَهـا شوارِبَ يَبْغِينَ في البحرِ ثارا
فسِرْتَ هِلالاً تُبارِي الهِلالَ إليهـا وبَحْراً يخوضُ البِحارا
وشمساً تَطَلَّعُ بالمَغْرِبَيْنِ بحيثُ تُوافِي ذُكاءُ الغُبارا
فما رِمْتَ حتى عَلَتْ[1] جانبِاها بأَيدِي المَذَاكِي عَجاجاً مُثارا
تَهُبُّ بهـا في الهواءِ الرِّيا حُ إمَّا دُخاناً وإما غُبـارا
[١١٩ م] / ولم يَسْتَطِـعْ « ياقُبُ » نَصْرَهَا ولا دَفْعَ الخَسْفَ عنهُ انتِصارا
لَئِنْ غَوَّرَتْ في شَغَافِ الشَّمالِ لقد أَنْجَدَ الفَتْحُ منها وغَارا
وأَخْلَفَ « بِرْمُنْدَ »[2] منها الرَّجاءُ وما زادَهُ الشِّرْكُ إلا تبَارا

---

(١) كذا ، ولعلها « علا ».

(٢) أشار ابن دراج إلى برمند هذا في قصيدة سابقة حول غزوة شنت ياقب أيضا (انظر ص ٤٤٢) ، وهو برمند (الثاني) Bermudo II بن أردون (الثالث) —

– Ordoño III بن رذمير (الثاني) Ramiro II ، حكم مملكة ليون وأشتوريش وجليقية بين سنتي ٣٧٢ و ٣٩٠ هـ . (٩٨٢ – ٩٩٩ م .) أي معاصراً المنصور بن أبي عامر ، وكان السبب في إعلانه ملكا هو فشل سلفه وابن عمه رذمير الثالث Ramiro III في حروبه ضد المنصور بن أبي عامر مما أدى بأهل جليقية Galicia إلى الثورة على ذلك الملك وتنصيب برمند هذا على عرش ليون . على أن برمند لم يسعه حين ولي الملك إلا إعلان الخضوع الكامل للمنصور ودفع الجزية له وطلب الحماية منه مما حمل المنصور على أن يرسل إليه جيشا من المسلمين يتكفل بحمايته ، غير أن برمند لم يلبث أن نقض عهده ، وطرد ذلك الجيش من بلاده فوجه المنصور إليه حملة لتأديبه في سنة ٣٧٧ (٩٨٧) ، واحتلت الجيوش الإسلامية عند ذلك مدينة قلنبرية Coinbra (في البرتغال الآن) ؛ وفي السنة التالية (٣٧٨ / ٩٨٨) احتلت جيوش المنصور عاصمة ملكه ليون León وكذلك مدينة سموره Zamora وحينئذ طلب برمند الصلح فقبل المنصور منه ، بل إن برمند أهدى إليه ابنته في سنة ٣٨٣ (٩٩٣) لتكون جارية له فأعتقها المنصور وتزوج منها . غير أن برمند حاول الثورة مرة أخرى وأعلن تمرده على المنصور بإيوائه عبد الله المرواني الذي تآمر على المنصور ، فأرسل هذا إليه حملة ثالثة احتلت مدينة أستورقة Astorga وخربت مملكة ليون ، وكان ذلك في سنة ٣٨٥ (٩٩٥) . وفي سنة ٣٨٧ / ٩٩٧ سار المنصور بنفسه على رأس حملة رابعة خربت مدينة شنت ياقب وأوقعت بجليقة إيقاعاً شديداً كما أرسل عدة حملات إلى نواحي مملكة ليون (وهذه الغزوة هي المقصودة بالقصيدة الرائية هذه) . وفي سنة ٣٨٩ أوطن المنصور عدداً كبيراً من جنود المسلمين بمدينة سمورة وجعل أمر هذه الحامية إلى قائده معن بن عبد العزيز التجيبي . انظر عن برمند المذكور كتاب أجواد وبلبيه عن تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى ١ / ٤٨٩ ؛ وعن غزوات المنصور لبلاده : ليفي بروفنسال : تاريخ ٢ / ٢٣٩ – ٢٥٠ .

أَطَرْتَ إلى ناظِرَيْهِ عَجاجاً ... تركتَ به عَقْلَهُ مُسْتطارا

فما يعرِفُ العَهْدَ إلا امْتِراءً ... ولا يُوقِنُ العهدَ إلا ادِّكارا

ولما ادَّرَعْتَ إلَيْهِ اليَقِيــ ... ـنَ لَمْ يَدَّرِعْ منكَ إلا الفِرارا

وشامَ غِرارَيْ حُسامِ المنايا ... فما يَطْعَمُ [النَّوْمَ] (١) إلا غِرارا

و«لَنْيُوشُ» (٢) أَمْطَرْتَهَا صائبَاتٍ ... تُصِيبُ النفوسَ وتَعفُو الدِّيارا

هَزَزْتَ إليها رِماحاً طِوالاً ... تُصَيِّرُ أعمارَ قومٍ قِصارا

فغادَرْتَها في ضَمَانِ الإلٰهِ ... ويَمَّمْتَ أعلىٰ وأَنْأَى مَزَارا

وقد يفْرِسُ الليثُ أَرْوَى الهِضابِ ... ويُهْمِلُ حَرْشَ الضِّبابِ احْتِقارا (٣)

---

(١) في الأصل: «المنايا» ولا يستقيم بها المعنى ولا الوزن، ولعل الصحيح ما أثبتنا.

(٢) في الأصل: لسوش، ولعل الصواب ما أثبتنا، وربما كان يعني الموضع الذي كان يعرف قديماً باسم Laniosum باللاتينية و Lanhoso باللغة البرتغالية الحالية؛ إذ أن هذا الحصن كان يقع في المنطقة الداخلة اليوم في حدود البرتغال. وكان حصنا على جانب كبير من الأهمية كما يدل على ذلك كتاب «تاريخ شنتياقب» الذي أسلفنا الإشارة إليه في بعض تعاليقنا (انظر ص ٣٠٣ من الكتاب المذكور)، وقد جاء في تعليق محقق الكتاب على هذا الموضع أنه على بعد ١٠ كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من مدينة براجا Braga التي كانت النصوص الأندلسية القديمة تسميها براقرة انظر ابن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار ص ٦٦ من النص و ٨٣ من الترجمة الفرنسيه. وبراقرة هذة بلد يقع على بعد ٥٧ كيلو متر إلى الشمال الغربي من مدينة أوبورتو Oporto (برتقال العربية) التي تقع الآن في حدود البرتغال.

(٣) الأروى: جمع أروية (بضم الهمزة وكسرها وتشديد الياء) وهي أنثى الوعول؛ والحرش.. مصدر حرش (بفتحتين) يحرش (بكسر الراء) وهو اصطياد الضب خاصة.

وخَلَّفْتَ فيها مُبيدَ الضَّلالِ		يُقَرِّبُهـا لكَ ثوباً مُعارا[1]

يُكفكِفُ أَدْمُعَ عَيْنٍ سِجاماً		ويُبْرِدُ أحشاء صَدْرٍ حِرَارا

فإنْ أَخْطَأَتْهُ كُئُوسُ المنايا		لقد خَلَّدَتْ في حَشَاهُ خُمَارا[2]

وعمَّ بهاَ فتحكَ الأَرضَ نوراً		كما ذَرَّتِ الشمسُ فيها النَّهارَا

فَفَرِّجْ عَلَى الحَجِّ بالمسلمينَ		بِعُقْبِ اصْطِلامِكَ حَجَّ النَّصارٰى

فقد نَشَرَتْ مِصْرُ والقيروانُ		ومَدَّتْ عيونُ الحجازِ انتِظارا

— ١٢٩ —

وقال يمدح منذراً ويذكر حمى أصابته

[من الطويل]

تسلَّيْتَ حتىٰ أُنْسِيَ الهائمُ الهَمَّا		وأَغْنَيْتَ حتى أُعْدِمَ المُعْدِمُ العُدْمَا

وإلا فكيفَ اغتالَتِ القُطْبَ والسُّهاَ		وعارَضَتِ الجوزاءَ واعْتَامَتِ النَّجْما

وكيفَ دَنَتْ منكَ الخطوبُ وما رَجَتْ		بساحَةِ من والاكَ ظُلْماً ولا هَضْما

وكيفَ ابْتَغَتْ للسُّقْمِ عِنْدَكَ موضِعاً		وأنتَ الذي يشفِي الإِلٰهُ بِهِ السُّقْما

وكم رُعْتَهاَ بالسَّيْفِ في كُلِّ بَلْدَةٍ		فإنْ أَقْدَمَتْ يَوْماً ففي بَسْطِكَ السَّلْما

(١) في الأصل : يعرها لك ... ، ولعلها كما أثبتنا .

(٢) الخمار : هو سورة الخمر .

أَلا أَقْدَمَتْ في حَوْمَةِ الموتِ والرَّدَى تُطارِدُهُ حمرا وتبهره قدما
وهَلاَّ وأَبْصارُ[1] الكُماةِ شواخِصٌ وبيضُ الظُّبي تَحْمَى وسُمْرُ القَنا تَدْمَى
[١١٩ب] / وما كانَتِ الحُمَّى بأَوَّلِ كاشِحٍ سَعَى لَكَ بالبُؤْسَى فجازَيْتَهُ النُّعْمَى
فأَولَيْتَها الصَّبْرَ اللَّجوجَ إلى العِدَى وعَرَّفْتَها الصَّبْرَ الخَرُوجَ من الغُمَّى
ومن قبلُ ما أَوْسَعْتَها صَدْرَ صَافِحٍ ونفساً يَلَذُّ المِسْكَ أنفاسُها شَمَّا
فإِنْ جُدِّدَتْ في بُعْدِها لَكَ صِحَّةٌ فمِنْ بَعْدِ أَن زَوَّدْتَها الطِّيبَ والحِلْمَا
وإن تلقَ جِسْماً بعد جِسْمِكَ في الورى ـ وكَيْفَ بها أَنْ تَرْتَضِي بَعْدَهُ جِسْما ! ـ
فَقَدْ أَهْدَتِ البُشْرَى إِليْهِ وأَفْرَغَتْ عليه السُّرورَ المَحْضَ والكَرَمَ الجَمَّا
وما نَقَصَتْ منكَ الليالي فَعُوَّدٌ عليكَ به إلا الخَطِيئَةَ والإِثْمَا
وعندَ ذُبُولِ[2] الرَّوْضِ يُرْجَى له الحيا وعِنْدَ مُحاقِ البدرِ يَسْتَقْبِلُ التِّمَّا
ومَنْ يَصْلَ نارَ الحربِ في جاحِمِ الوَغَى فلا غَرْوَ أَن يَحصَى حشاهُ وأَنْ يَحْمَى
ولا عَجَبٌ من وَهْنِ جسمٍ تعاوَرَتْ قواهُ الحصونَ الصُّمَّ والمُدُنَ الشُّمَّا
فبَسْطَةُ باعٍ[3] جازَتِ الوَهْمَ والمدى ورَحْبُ ذِراعٍ حازَتِ العُرْبَ والعُجْما
فإِنْ يَبْقَ من شكواكَ باقٍ فَهٰذِهِ تمائِمُكَ اللاتي شَفَيْتَ بها قِدْما

(١) في الأصل : وأنصار .
(٢) في الأصل : ذيول .
(٣) في الأصل : باغ .

خيولاً كساها الجوُّ نوراً فأقدمتْ ... مُحَجَّلَةً غُرّاً وإنْ نُتِجَتْ دُهْمَا

وبيضاً تَشَكَّتْ من شكاتِكَ وَحْشَةً ... [بما أَنِسَتْ](1) حَتّى قَرَنْتَ بها العَزْما

وسُمْراً كأنَّ الليلَ لما سَرَيْتَهُ ... كَسَا كُلَّ لَدْنٍ من كواكِبِهِ نَجْما

وكُلَّ غَريقٍ(2) في الحديدِ كأنَّما ... تَسَرْبَلَ من غَزْلِ الغزالَةِ واعْتَمّا

تَهاوَتْ به الأهواءُ حتّى أَمَمْتَهُ ... إلى طاعَةِ الرحمنِ فانْقَادَ وانْتَمّا

فلم يَدْرِ إلا ظِلَّ مُلْكِكَ مَوْطِناً ... ولا والِداً إلا لَدَيْكَ ولا أُمّا

ويا ذَا الرِّياساتِ افْتَتِحْ فَقَدِ انْجَلَتْ ... فواتِحُكَ اللاتي ضَمِنَّ لكَ الحَتْمَا

ويا مُنْذِرَ الراياتِ والسَّابحاتِ قُمْ ... فأَنْذِرْ عِداكَ الذُّلَّ والخِزْيَ والرَّغْما

ونادَتْ بكَ الدنيا : أَبَا الحَكَمِ احْتَكِمْ

بحَوْلِ الذي أَلْقَى إلى يَدِكَ الحُكْمَا !

وأَوْفِ عَلَى العَلْيَاءِ واسْتَوْفِ أَنْعُماً ... حباكَ الذي يَحْبُو بأَجزَلِها قِسْما

---

(1) مطموسة في الأصل .

(2) في الأصل : عريق .

وله في المظفر عبد الملك بن المنصور رحمهم الله تعالى[1]

[من الطويل]

بَدَا لَكَ نَجْمُ السَّعْدِ[2] واطَّلَعَ النُّجْحُ ... فبِاللهِ فَاسْتَفْتِحْ فقد جاءَكَ الفَتْحُ

[١٢٠م]/ وقد قَدَّمَ النَّصْرُ العزيزُ لِواءَهُ ... وقبلَ طُلوعِ الشَّمْسِ يَنْبَلِجُ الصُّبْحُ

فَقُدْ في سبيلِ اللهِ جَيْشاً كَأَنَّهُ ... من الليلِ قِطْعٌ طَبَّقَ الأرضَ أو جُنْحُ

كتائبُ في إقدامِها الحَقُّ والهُدى[3] ... وأَلْوِيَةٌ في عَقْدِها اليُمْنُ والنُّجْحُ

فقد حانَ يومُ الفتحِ واهْتَزَّتِ المُنَى ... وصَحَّ رَجاءُ السَّيْفِ واستبشَرَ الرُّمْحُ

وحَنَّتْ إلى يومِ اللِّقاءِ سَوابِحُ ... لها في بِحارِ المَوْتِ نَحْوَ العِدى سَبْحُ

حَمَلْتَ عليها كُلَّ حامِلِ نِعْمَةٍ ... بِيُمْناكَ مقروناً بِهِ الصِّدْقُ والنُّصْحُ

بضائِعُهُمْ في مَتْجَرِ الحَرْبِ أَنفُسٌ ... رِضاكَ لها في كُلِّ مَلْحَمَةٍ رِبْحُ

فيا أَنْفَسَ الأَملاكِ نَفْساً وإِنَّهُ ... بها في سبيلِ اللهِ يَوْمَ الوَغى سَمْحُ

---

(١) نقل ابن عذارى المراكشي في «البيان المغرب» (٣ / ٩) عن ابن حيان مناسبة هذه القطعة وسنة نظمها ، إذ ذكر أن ابن دراج قالها عند قفول عبد الملك المظفر من غزوة « مقصر » في سنة ٣٩٣ هـ . ، وقد اختار منها في ذلك الموضع أربعة أبيات .

(٢) بيان : بدا ريح السعد .

(٣) بيان : والتقى .

ويا أيُّها المشغوفُ بالبأسِ والندى | وما زالَ مشغوفاً به الحمدُ والمدحُ
وبَحْرُكَ مَوْرُودُ السَّواحِلِ مُفْعَمٌ | وعَبْدُكَ (١) قد أَوْدَى به الظَّمَأُ البَرْحُ

— ١٣١ —

وله فيه رحمها الله على لسان جارية

[من البسيط]

من سَيْبِ سيبِكَ مِمَّا أنبَتَتْ نِعَمُكْ | من دُرِّ بَحْرِكَ مِمَّا عَمَّهُ كَرَمُكْ
حتّىٰ أتيتُكَ طِيباً طابَ مرتَعُهُ | وَسْطَ الرِّياضِ التي جادَتْ لها دِيَمُكْ
أو كوكباً من نجومِ الحسنِ [مطلَعُهُ] | جَوُّ السَّماءِ التي مِنْ فَوْقِها هِمَمُكْ
من رِيقَتِي المِسْكُ [بَلْ رَيّاهُ] من أَرَجِي | كأنَّما صافَحَتْنِي بالْضُّحىٰ شِيَمُكْ
والغُصْنُ يَسْرِقُ [من قَدِّي] تَثَنِّيَهُ | رقصاً وحاشَىٰ له مِمَّنْ غَذَتْ نِعَمُكْ
أقولُ للصُّبْحِ — والدُّنيا تُنيرُ بِهِ — : | يا صُبْحُ مَنْ يَرَ وَجْهِي فَهْوَ مُتَّهِمُكْ !
وكم دَعَوْتُ وجنحُ الليلِ مُنْسَدِلٌ : | يا لَيْلُ، شَعْرِيَ يُغْشِي الليلَ أَمْ ظُلَمُكْ ؟!
وربَّ برقٍ خَبَا لما هتَفْتُ به : | هيهاتَ من مَبْسِمِي يا برقُ مُبْتَسَمُكْ !
بدائِعٌ تقتضي حَقِّي لَدَيْكَ وقد | رأيتُ آمالَ أهلِ الأَرْضِ تَقْتَسِمُكْ

(١) في الأصل : وعهدك ، ولا معنى لها هنا ، وإنما هي على الأرجح كما أثبتنا ، ويقصد الشاعر نفسه بقوله : إنه عبده .

لعلَّ عطفَكَ يا مولايَ يأْذَنُ لِي | في وَضْعِ خَدِّيَ حيثُ اسْتَوْطَأَتْ قَدَمُكْ
وتَبْلُوَ السِّرَّ من قولٍ يُرَدِّدُهُ | إليكَ قَلْبِيَ لا يَعْيَا بِهِ فَهَمُكْ
ما شَيَّدَ الكُفْرُ حِصْناً من بلادِهِمُ | إلا ليخفِقَ في أبراجِـهِ عَلَمُكْ
ولا تَذَوَّقَ طَعْمَ الأَمْنِ ذو حَذَرٍ | من النوائِبِ حتى ضَمَّهُ حَرَمُكْ
ولا تعذَّرَ مِن طالَبْتَ مُهْجَتَهُ | ولا تَمَنَّعَ إلا من حَمَتْ ذِمَمُكْ
[١٢٠ب]/ ولا تَنَسَّمَ من عاداكَ مَنفَسَهُ | حتى تَحِلَّ بأقصى دارِهِ نِقَمُكْ

— ١٣٢ —

وقال يمدح ابن باق رحمها الله

[من المتقارب]

تَسَمَّعْ لدَعْوَةِ نـــاءٍ غَرِيبِ | كثيرِ الدُّعاءِ قليلِ المُجيبِ
يَؤُمُّ إليــكَ بِهَمٍّ شُجاعٍ | ويَجْبُنُ عنكَ بِسَتْرٍ هَيُوبِ
ويقتادُهُ منكَ صِدْقُ اليقينِ | فيرتابُ منـه بِظَنٍّ كَذُوبِ
أَيَأْذَنُ سَمْعُكَ لي من بعيـدٍ | ولحظُكَ قد رابَني من قريبِ؟
وكيفَ بأشجانِ قلبٍ عزيزٍ | فيُسْعِدُهُ لَهْوُ قلبٍ طَرُوبِ؟
فناداكَ من غَمَرَاتِ التَّنَاسِي | وناجاكَ في ظُلُماتِ الخُطوبِ
ببالِغَةٍ للتَّرَاقِي حَدَتْهـــا | إليكَ وَصَاةُ القريبِ المُجيبِ

بما خُطَّ للجارِ وابْنِ السَّبِيلِ وأُوجِبَ للمُسْتضامِ الغريبِ
وما قد حَباكَ الرِّضا من مليكٍ بلاكَ بلاءِ الُحسام الرَّسُوبِ[1]
فَحَلاَّكَ إكرامَهُ في العيونِ لتقَدُّمَ أعلامَـهُ في الحروبِ
وأذْكى سِراجَكَ وَسْطَ القصورِ ليُغْلِي مَجاجَكَ خَلْفَ الدُّروبِ
فأرْعَيْتَهُ صِدْقَ خِزِّ شَـكُورٍ تَسَرْبَلَ [إخْلاصَ عَبْدٍ مُنِيبِ][2]
وأبْلَيْتَهُ نُصْحَ جَيْبٍ[3] سَليمٍ وفِيِّ الضَّمانِ بِنُصْحِ الُجيُوبِ
تقودُ إليهِ رجاءَ البعيـدِ وتتلُو عليه ثنـاءَ القريبِ
وتَلْقىٰ وُجوهَ المُحِبِّينَ عنهُ بِبِشْرِ المُحِبِّ ووَصْلِ الحبيبِ
وكم مِنْبَرٍ للعُـلا قـد بناهُ له اللهُ من مُعْظَمَاتِ الصَّليبِ
حَمَيْتَ ذُرَاهُ بـأنْفٍ حَمِيٍّ ورَحْبَ ذَرَاهُ بصدرٍ رَحيبِ
وضاقَ بِمَنْ أسْمَعَ الضَّيْمَ عَنْهُ فيـا لخطيبٍ صريعِ الُخطوبِ
قريبٌ إلى كلِّ أفْقٍ بعيـدٍ بعيدٌ عَلَى ذِكرِ مولىً قريبِ
وقد أطْلَعَ الشرقُ والغربُ عنهُ كواكِبَ تهوِي لغيرِ الغُروبِ
نجوماً أضاءتْ بفَصْلِ الخطابِ له الدَّهْرَ إلا مكانَ الخطيبِ

---

(١) السيف الرسوب : أي القاطع الذي يغيب في الضريبة .
(٢) هذه الكلمات مطموسة في الأصل لم تبق منها إلا حروف اعتمدنا عليها في إثبات ما وضعنا بين الحاصرتين .
(٣) في الأصل : حبيب .

وعنهُ تنكَّبْتَ قوسَ النِّضالِ فَرِشْتَ لها كلَّ سَهْمٍ مُصيبِ
فأَوْتَرْتَهَا لقلوبِ العُـداةِ وأَغْرَقْتَ[1] فيها لِرَمْيِ الغيُوبِ
[١٢١ أ] / فَمَا لَكَ عن غَرَضٍ كالصَّباحِ تجلَّلَ أُفْقَ الصَّبا والجَنُوبِ
يضاحِكُ من رَوْضِ فِكْرِي بِذِكْرِي
أزاهـيرَ نَوْرٍ بِنُورٍ مَشوبِ
فلِلَّهِ إشراقُ ذاكَ الشبابِ تأَلَّقَ في حُسْنِ ذاكَ المَشيبِ
فَفَاحَ تَضَوُّعُ ذا من ضَيَاعِي كما لاحَ مَطْلَعُ ذا من غُرُوبِي
فتِلْكَ نقائِضُ سَعْيِي وسَعْدِي يُنادِينَ : يا لَلْعُجابِ العَجيبِ !
وتلكَ بضائِـعُ نثري ونظمي ضوارِبُ في الأَرضِ، هَلْ من ضَرِيبِ؟
ويا للخلائِقِ هلْ من مُساوٍ ؟ ويا للدَّواوينِ هل من مُجيب ؟
ويا نَشْأَتِي عَبْدِ شَمْسٍ....[2] ومن أَعْقَبَتْ هاشِمٌ من عَقِيبِ
وما خَطَّهُ أَثَرٌ عن أميرٍ وَسَطَّرَهُ أَرَبٌ عن أَريبِ
فَهَلْ في الوَرىٰ غَيْرُ سَمْعٍ شهيدٍ يُلَبِّيهِ كُلُّ فؤادٍ لَبيبِ
وغيرُ لسانٍ صدوقِ البيانِ يُقِرُّ لَهُ كلُّ زَعْمٍ كَذوبِ
بأَنْ لَمْ يَفُزْ قَبْلَهَا مُلْكُ مَلْكٍ بِقِدْحٍ كَقِدْحِ مَلِيكِيْ «تُجِيبِ»

---

(١) يقال : أغرق النازع في القوس : أي استوفى مدها .

(٢) هكذا ورد الشطر ، وواضح أنه بهذه الصورة مختل الوزن ناقص المعنى ، ولعل صحته أن يكون : « ويا نشأتي [في ذرا] عبد شمس » .

فأَنجِبْ بِمُورِثِهِ من مَليكٍ   وأَسْعِدْ بوارِثِهِ من نَجيبِ

[وأَعْجِبْ بأَوْفى مليكٍ أَضاعَ][(1)]   من الذِّكْرِ والفخرِ أَوْفى نَصيبِ!

لواءَ ثناءٍ [كَبَرْقِ الغَمامِ][(1)]   يُهِلُّ إليــــهِ لواءُ الحروبِ

وما قَدْ كَسا كُلَّ بَرٍّ وبَحْرٍ   بذكراهُ من كُلِّ حُسْنٍ وَطِيبِ

حَدَائِقَ من زَهَرَاتِ العقولِ   تفوحُ إلى ثَمَرَاتِ القُلُوبِ

تَغَنَّى العذارىٰ بها في الخدورِ   وتُحْدىٰ المهارىٰ بها في السُّهوبِ

وقدأَيْنَعَ الحَزْنُ والسَّهْلُ منها   بِشِرْبِ ذَنوبٍ محَا من ذُنوبِي

بلاغُ حياةٍ وأَحْجَمْتُ عنــهُ   لعودِ الخبــاءِ ولِلْعَنْدَلِيبِ

كما ابْتَزَّ صَيْدَ العُقابِ الذُّبابُ   وصادَ النَّعامَ حَسيرُ الدَّبِيبِ[(2)]

وذُلِّيَ أَوْدَعَ هذا وهــذا   أَظافِرَ لَيْثٍ وأَنيـابَ ذِيبِ

مظـالِمُ أَظْلَمَ حَقُّ المُحِقِّ   بِهِنَّ وأَشرَقَ رَيْبُ المُرِيبِ

وأَنتَ عليها شهيدُ العيانِ   وحكمُكَ فيها صريحُ الوُجوبِ

ووَعْدُكَ أَلْزَمَنِي من ذَرَاكَ   وِصالَ المُحِبِّ ورَعْيَ الرَّقيبِ

/ فحِينَ افتَتَحْتَ بنصرٍ عزيزٍ   يُبَشِّرُ عنكَ بفتحٍ قريبِ [١٢١ب]

تَرَقَّيْتَ في هَضْبَةِ العِزِّ عَنِّي   وأَهْوَيْتَ بِي لِمَهِيلٍ كَثيبِ

---

(١) كلمات مطموسة في الأصل لاتبدو منها إلا بعض الحروف .

(٢) أي صغير النمل وضعيفه .

وَلَفَّتْكَ دُونِي غصونُ النعيمِ وأَسْلَمْتُ ضاحِيَ مَرْعىً جَديبِ

فَمُلِّيتَهـــا جَنَّةً لا يَزَالُ يُمَدُّ بها كُلُّ عيشٍ خَصِيبِ

ولا بَرِحَتْها طيورُ السرورِ يَميدُ بها كلُّ غصنٍ رطيبِ

وإنْ شاقني من صَبَاها نسيمٌ يُمَرِّجُ عَنِّي بُرُوحَ الهَبُوبِ (١)

وأُظْمِيتُ منها إلى رَشْفِ ما يُمَثِّلُ لي فيهِ رِيقُ الحبيبِ

وكم سُمْتُ أوراقَهـا في الرِّياحِ لأَخْصِفَ فيها لعـــارٍ سَليبِ

وأَمْسَحُها في مآقِي جُفونٍ دَوَامِي القَذَىٰ قَرِحاتِ الغُرُوبِ

بما فَتَّ فيهنَّ رَمْيُ العُداةِ وما غَضَّ مِنهُنَّ ذُلُّ الغريبِ

فإنْ رَمِـدَتْ فقليلٌ لِعَيْنٍ يُقَلِّبُها شَجْوُ قلبٍ كئيبِ

وإنْ قَدَحَتْ بالحَشا في الحشايا فَزَنْدا ضِرامٍ لنارِ الكُروبِ

تُؤَجِّجُهـــا حَسَرَاتُ التَّناسِي وتَنفُخُهـا زَفَرَاتُ النَّحيبِ

وكُلّاً وَسِعْتُ بصبرٍ جميلٍ وبَعْضاً كَفَفْتُ بدمعٍ سَكوبِ

لأُوقِدَ منهـا مصابيحَ جَمْرٍ تُنيرُ إليكَ بِسِرِّ الغُيوبِ

ولو غابَ عِلْمُكَ عن بَحْرِ ظِمْءٍ وما غِيضَ من شربِهِ في الشُّروبِ

لأَغناكَ عن شُبْهَةِ الشَّكِّ فيه ذُبُولُ الجنىٰ في ذُبولِ القضيبِ

وحَسْبِي لهـا منكَ حُرٌّ كريمٌ وَفِيُّ الشهودِ أَمينُ المَغيبِ

---

(١) البروح : جمع برح وهو الشدة والشر ، والهبوب (بفتح الهاء): هى الريح المثيرة للغبرة .

وأرْجىْ عَليلٍ لِبُرْءِ السَّقامِ عليلٌ تيقَّنَ يُمْنَ الطَّبيبِ

وحُسْنُ الظُّنونِ لصِدْقِ اليقينِ نسيبٌ ولا كالنسيبِ الحسيبِ

فإنْ تُنْهِ عَنِّي فأَوْلىْ مُجابٍ دعَا للمكارِمِ أهْدىْ مُجيبِ

وكُنْتَ بذلِكَ أحْظىْ مُثابٍ لهُ من ثَنَائِيَ أوْفىْ مُثيبِ

ومن يَمْنَعِ الضَّيْفَ رَحْبَ الفِناءِ فقد قادَهُ للفضاءِ الرَّحيبِ

— ١٣٣ —

وله أيضا في المؤتمن عبد العزيز بن أبي عامر (*) رحمهم الله

[من الوافر]

/ أهِلِّي قَدْ(١) أنىْ لَكِ أَنْ تهِلِّي إلى صَوْبِ الغمامِ المُسْتَهِلِّ [١٢٢ أ]

(*) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن المعروف بشنجول بن المنصور بن أبي عامر ، كان الموالي العامريون قد اتفقوا على أن يولوه بلنسية بعد أن اشتدت أطماع ملوك الطوائف في هذه المدينة ، فدعوه إلى ولايتها وكان حينئذ في كنف منذر بن يحيى بسرقسطة ، فأحكم له منذر التدبير وأخرجه سراً إلى بلنسية حيث تولى إمارتها ، واعترف في أول ولايته بخلافة القاسم بن حمود وذلك في سنة ٤١٢ (١٠٢٢) ، ولهذا خلع القاسم عليه لقب « المؤتمن ذي السابقتين » ، وقد طالت إمارة عبد العزيز هذا حتى توفي سنة ٤٥٢ (١٠٦٠) . (انظر ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ١٦٤ – ١٦٥) .

(١) في الأصل : فقد .

فَدُّي طرفَ ناظرةٍ تَرَيْنِي[1] تَمَكَّنَ مَغْرِسِي فيه وأَصْلِي
سنا برقٍ تلألأَ عن ذِمامِي وصوبُ حياً تجلّى عن مَحَلِّي
ودونَكِ مَبْرَكاً في فَيْءِ ظِلٍّ يُرِيكِ بأنّهُ فَيْئي وظِلّي
هُوَ الظِّلُّ الذي قارَعْتِ عنهُ حَصَى الرَّمْضاءِ دامِيَةَ الأَظَلِّ[2]
وهذا موعِدُ الأَمَلِ المنادِي سُراكِ سُرورُهُ ألاّ تَمَلِّي
ونورُ الفجرِ من إظلامِ لَيْلٍ أضاءَ نجومَهُ لكِ أن تَضِلِّي
أوانَ يُفَتِّرُ الإمساءُ جهدي فأطلُبُ في سنا الإصباحِ ذَحْلِي
ويَرْمَدُ في هجيرِ القيظِ جفني فأجعلُ من سوادِ الليلِ كُحْلِي
لكيما تعلَمي في أيِّ مأوىً من الملكِ الرفيعِ وضعتُ رَحْلِي
ويصدُقَكِ العيانُ بأيِّ حبلٍ من ابن العامِرِيِّ وصلتُ حبلي
وحسبُكِ قولُهُ أهلاً وسهلاً بما جاوزتِ من حَزْنٍ وسَهْلِ
فسيحي وارتَعِي كَلَأً إليه على ظَلَعٍ[3] الكلالِ حَمَلْتِ كَلِّي
مدىً لكِ كانَ منكِ مَدىً كريمٍ فكوني منه في حِلٍّ وبِلٍّ[4]

---

(١) في الأصل : تبيني ، على أنه من الممكن أن تكون : تبيني (بضم التاء) تمكن (بضم الكاف المشددة أي على صيغة المصدر) أي تتبيني .

(٢) الأظل : هو باطن منسم البعير .

(٣) في الأصل : طلع .

(٤) البل : المباح ، ويقال : « هو لك حل وبل » أو هي إتباع لكلمة حل .

وقد قضَتِ المكارِمُ أن تَعِزِّي ... كما قضَتِ المكارِهُ أن تَذِلِّي
فرَعْياً في حِمىٰ مَلِكٍ رَعاني ... فَحَلَّ قيودَ تَرْحالي وحِلِّي
مَدىٰ « عبدِ العزيزِ » وأيُّ عِزٍّ
أنَخْتُ إليـه ذُلّاً فوقَ ذُلِّ
فعوَّضَ منكِ في مثواه بِرِّي ... وأذْهَلَ عنكِ في مثواهُ نُزْلي
وعن مَثْنىٰ زِمامِكِ في يميني ... شَباً قَلَمٍ عَلَى الدُّنْيَا مُطِلِّ
يُمِلُّ عليه « مُؤْتَمَنُ » المعالي ... مساعِيَـهُ فيَسْتَمْلي ويُمْلِي
ويُسْمِعُ في صريرِ الخطِّ منهُ ... خِطاباً لا يُمَلُّ من المُمِلِّ
لِجَدِّكَ كان أوَّلُ سَعْدِ جَدِّي ... وأغْدَقُ بارقٍ في جَوِّ مَحْلي
وأحْنىٰ مُوتِرٍ بِرِضاهُ قوسي ... وأحْفىٰ رائِشٍ بندَاهُ نَبْلي
كساني العِزَّ لُبْساً بَعْدَ لُبْسٍ ... وسَقّانيهِ سَجْلاً بعدَ سَجْلِ
وصَيَّرَ ما حَمىٰ حَرَمي حَرَاما[2] ... عَلَى عَدْوِ الزمانِ المُسْتَحِلِّ
/ ووَطَّأَ في مكارِمِهِ مِهادِي ... وأعْلىٰ في مراتِبِهِ مَحَلِّي [١٢٢ ب]
وكم حَلَّ يَدَي من ذي عِنانٍ ... ودَلَّ إلى يَدَي من ذاتِ دَلِّ
فَحَقّاً ما تَرَكْتُ عليه بَعْدي ... ثنـاءً أعْجَزَ المُثْنِينَ قَبْلي
فأمطَرْتُ الورى رُطَباً جَنِيّاً ... وما سُقِيَتْ بغيرِ نداهُ نَخْلي

(٢) في الاصل : حرما ، ولا يستقيم بها الوزن .

وسَقَّيْتُ النُّهىٰ أَرْياً مَشُوراً		وما جَرَسَتْ سِوىٰ نُعْماهُ نَحْلِي[1]
هُوَ المَلِكُ الذي لم يُبْقِ مِثْلاً		سِواكَ ولا لِنَظْمِ عُلاكَ مِثْلِي
ويَبْخَسُنِي الزمانُ ولو وَفىٰ لي		بِحَظِّي لاشتكى جُهْدَ المُقِلِّ
ولو أَنِّي سلَلْتُ عليه سَيْفاً		تَقَلَّدَنِي لباءَ بِشِسْعِ نَعْلِي
وكَمْ من شاهِدٍ عَدْلٍ عليهِ		بظُلْمِي لو قَضىٰ قاضٍ بعَدْلِ
ولَوْ سَمِ[2] جَدُّكَ «المنصورُ» أَدْعُو		إِلَيْهِ لَمْ يَسُمْنِيَ سَوْمَ مَطْلِ
وأَنتَ ورِثْتَهُ طِفْلاً ولكن		رَجَحْتَ على الرجالِ بحِلْمِ كَهْلِ
بما زَدّاكَ من هَدْيٍ وبِرٍّ		وما حلاَّكَ من قولٍ وفعلِ
فَغَضَّ من البدورِ سنا هِلالٍ		وهَدَّ من الليوثِ زئيرَ شِبْلِ
وأَنتَ أَمِينُهُ في كلِّ سَعْيٍ		[سَقى نَهَلاً لِتُتْبِعَهُ] بِعَلِّ
محافِظُ عَهْدِهِ [في][3] قَوْدِ جَيْشٍ		بأَعباءِ الوقائِعِ مُسْتَقِلِّ
وتالِي شَأْوِهِ في كلِّ فَخْرٍ		وثاني سَعْيِهِ في كلِّ فَضْلِ
وفَيْضُ يمينِهِ والحمدُ يَغْلُو		ونورُ جبينِهِ والحربُ تَغْلِي

---

(١) يقال : جرست النحل أي لحست أو أكلت ثمر الشجر للتمسيل . والمشور : اسم مفعول من شار العسل أي استخرجه واجتناه .

(٢) كذا ، ولم نر وجها في تأويلها إلا أن تكون ترخيم ضرورة للفظ «سمع» مثل قول الشاعر «أو الفاكهة من ورق الحمى» أي الحمام .

(٣) إضافة يقتضيها الوزن والمعنى .

بكُلِّ أغَرَّ فوقَ أغرَّ يَصْلَى ... جَحيمَ الحربِ مُقْتَحِماً ويُصْلِي

يلوثُ الدِّرْعَ منهُ بلَيْثِ بأسٍ ... يصولُ عَلَى العِدى بأَصَمَّ صِلِّ

وكلِّ عُقَابِ شاهِقَةٍ تجلى ... أناسي الحتوف لما تجلي

بَرِيُّ السيفِ من دَهَشٍ وجُبْنٍ ... وحُرُّ الصدرِ من غَدْرٍ وغِلِّ

وما يُثْنَى السِّنانُ بغيرِ قَصْفٍ ... ولا حَدُّ الحسامِ بغير فَلِّ

جَلَوْتَ لهُمْ معالِمَ ذَكَّرَتْهُمْ ... معالِمَ جَدِّكَ المَلِكِ الأَجَلِّ

سلكتَ سبيلَهُ هَدْياً بِهَدْيٍ ... وقُمْتَ مقامَهُ مِثْلاً بِمِثْلِ

وأَخلَصْتَ الصَّلاةَ إلى المُصَلَّى ... فَبُورِكَ في المُصَلَّى والمُصَلِّي

/ وقد خَفَقَتْ عليكَ بنودُ عِزٍّ ... عَلَتْ واللهُ أعلاها ويُعْلِي [١٢٣ م]

كما خَفَقَت عَلَيَّ قلوبُ غِيدٍ ... أَمَرَّ لَهُنَّ دوني وَهْوَ مُحْلِ

بما أَثْبَتَّ فيه مِن يَقيني ... وما حَقَّقْتَ فيه من لَعَلِّي

وما راعيتَ فيه من ذِمامي ... وما أَدْنَيْتَ فيهِ من مَحَلِّي

فلا زِلْتَ المُفَدَّى والمُرَجَّى ... نَداهُ للغريبِ ولِلْمُقِلِّ(١)

ونُوراً في الظلامِ لِمُسْتَنيرٍ ... وظِلّاً في الهجيرِ لِمُسْتَظِلِّ

---

(١) في الأصل : والمقيل .

وله في الموفق مجاهد (*) رحمه الله سنة تسع عشرة وأربعمائة

[من الطويل]

إلى أيِّ ذكرٍ غيرِ ذكرِكَ أرتاحُ ومن أيِّ بحرٍ بعد بحرِكَ أمتاحُ
إليكَ انتهى الرِّيُّ الذي بكَ ينتهي ولاحَ لِيَ الرَّأْيُ الذي بك يَلْتَاحُ
وفي مائِكَ الإغداقُ والصَّفْوُ والرَّوى وفي ظلِّكَ الريحانُ والرَّوْحُ والرَّاحُ

(*) أبو الجيش مجاهد العامري الملقب بالموفق ، كان أحد القواد الصقالبة الذين ارتفع شأنهم في أيام المنصور بن أبي عامر ، إذ كان والياً له على مدينة دانية Denia ، ولما اشتعلت نار الفتنة استقل بعمله في سنة ٤٠٠ (١٠١٠) وفي سنة ٤٠٥ (١٠١٤) استولى على الجزائر الشرقية (جزر البليار : ميورقة ومنورقة ويابسة) وفي السنة التالية غزا جزيرة سردانية ولو أنه لم ينجح في الاستيلاء عليها ، وكان مجاهد من أعظم ملوك الطوائف وأكثرهم عناية بالعلم والأدب ، وفي كنفه عاش عدد من كبار علماء الأندلس في هذه الفترة نذكر منهم أبا عمرو الداني صاحب الكتاب المشهور في القراءات ، والمحدث الكبير ابن عبد البر ، وابن سيده اللغوي صاحب كتابي المخصص والمحكم ، وصاعد البغدادي وكثيرون غيرهم ، وكانت وفاة مجاهد في سنة ٤٣٦ (١٠٤٤ - ١٠٤٥) . (انظر الدكتور أحمد مختار العبادي : الصقالبة في إسبانيا ص ٢١ - ٢٦) .

وكلٌّ بأثمارِ الحياةِ مُهَدَّلٌ | وبالعطفِ مَيّاسٌ وبالعرْفِ مَيّاحُ[1]
فأَغْدَقَ للظمآنِ مَحْياً ومَشْرَبٌ | وأَفْصَحَ بالضّاحي[2] غُصُونٌ وأَدواحُ
تُغَنِّي طيورُ الأَمْنِ فيها كأَنَّما | بعَلْيَاكَ تشدو أَوبذكرِكَ ترتاحُ
فأَلحانُها في سَمْعِ من أَنتَ حِزْبُهُ | أَغانٍ وفي أَسماعِ شانِيكَ أَنْواحُ
وكم قُدْتَ للأَعداءِ من حُزْنِ ليلةٍ | ضُحاها لمن والاكَ غُنْمٌ وأَفراحُ
سموتَ لها باسمٍ وفعلٍ كِلاهُمَا | بِسَيْفِكَ في الهيجاءِ أَزْهَرُ وَضّاحُ
جِهادٌ وَفَتْ آياتُ فِعْلِكَ باسْمِهِ | كما شَرَحَ المعنى بيانٌ وإيضاحُ
وكالجَيْشِ إذْ أَعْلَقْتَهُ منكَ نِسْبَةً[3] | بعِزَّتِها تعلو الجيوشُ وتجتاحُ
أُبُوَّةُ آباءٍ لأَبناءِ مُلْكِهِ | مَشَابِهُ يحدوهُنَّ صِدْقٌ وإفْصاحُ
فما ظَلَموها قائمينَ بشِبْهِها | إذا غَوَّروا تحتَ السَّنَوَّرِ أو لاحُوا
سوابِغُ لم تُخْلِلْ بِصِبْغِ جُسومِهِم | إذاما غَدَوْا في لبسِ نُعماكَ أو راحوا
ولا أَسْهَكَتْهُمْ[4] في سبيلِكَ لِبْسَةٌ | بإِسهاكِها طابُوا ومن ريحِها فاحوا
وكم من فتىً أَعْدَيْتَهُ منكَ شيمَةً | يَشَمُّ بها ريحَ العُداةِ فَيَرْتاحُ
ويُزْجِي من الخَطِّيِّ أَشْطانَ ماتِحٍ | إلى قُلُبٍ وَسْطَ القلوبِ فيَمْتاحُ

(١) أي جواد كثير العطاء.
(٢) الضاحي: هو الذي أصابته الشمس.
(٣) يشير ابن دراج هنا إلى كنية الموفق مجاهد العامري: أبي الجيش.
(٤) الإسهاك: مشتق من السهك (محركة) وهو الريح الكريهة من عرق ونحوه.

[١٢٣ب] / وبَدْرٍ إذا ماغُمَّ(١) في رَهَجِ الوغى تَجَلَّى بِهِ قَرْنٌ من الشمسِ لَمَّاحُ

وقَرْمٍ لِشَوْلِ الحَقِّ إنحالَ وَسْقُها تَجلَّلَها منـه ضِرابٌ وإلْقاحُ(٢)

جَعَلْتَ عليه البَرَّ والبحرَ إسْوَةً ففي البَرِّ طَيَّارٌ وفي البحرِ سَبَّاحُ

وأَقْبَسْتَـهُ من نورِ هَدْيِكَ فاهْتَدىٰ إلى حيثُ لا يُهْدَىٰ شِراعٌ ومَلَّاحُ

بفُلْكٍ كأَفلاكِ السَّماء نُجُومُهـا كَمِيٌّ ونَبَّـالٌ وشاكٍ ورَمَّاحُ

وغُرٌّ إلى الغـاياتِ هِيمٌ نوازِعٌ تهيم بهـا في لُجَّةِ البحرِ أَشْباحُ

قَرَعْتَ بها أمواجَ بَحْرٍ تركْتَهُ وأَمواجُهُ تحتَ الـكلاكِلِ أَطْلاحُ

مفاتيحُ أقفالِ الفتوحِ الَّتي نَأَتْ وأَنْتَ بها في طـاعَةِ اللهِ فَتَّاحُ

وصـابِحَةٍ للمسلمينَ بغـارَةٍ غنائِمُهُمْ فيهـا تمورُ وتَنْساحُ

حَـكَمْتَ بِرَدِّ الحقِّ عنها فأَسْمَحَتْ ولولا ظُباكَ الحُمْرُ ما كانَ إسْماحُ

غداةَ طَمَسْتَ الغَيَّ منهم بِوَقْعَةٍ وما قَدْرُ مصباحٍ إذا لاح إصْباحُ ؟!

مآثِرُ لم يَعْطَلْ بها قرنُ ناطِـحٍ وكيفَ وقَرْنُ الحَقِّ عَنْهُنَّ نَطَّاحُ

قد اكْتُتِبَتْ في اللَّوْحِ فخراً مؤيَّداً(٣) صُدورُ الدُّنـا منهـا سُطورٌ وأَلواحُ

---

(١) غم البدر : أي استتر أوحال الغيم دون رؤيته .

(٢) الشول : الإبل التي تشول بذنبها أي ترفعه طلبا للقاح ، والوسق : هو الحمل ، والضراب : اللقاح .

(٣) يحتمل أن تكون أيضاً « مؤبداً » .

وآمالُنا فيها بضائعُ مَتْجَرٍ سجاياكَ أموالٌ لهُنَّ وأرباحُ
مساعِيَ أبقينَ الدهورَ كأنَّها جُسومٌ لها منه نفوسٌ وأرواحُ
محاسِنَ تتلوها الليالي كأنَّها علومٌ إليها تَسْتَهِلُّ وترتاحُ
فلوأُعْطِيَتْ غِيدُ[1] الكواعِبِ سُولَهَا لَصِيغَ لها منها عُقودٌ وأَوْضَاحُ[2]
وبأسٌ لو اسْتَعْطَى الكماةُ فُضُولَهُ لَقُدَّ لهُمْ منه سيوفٌ وأرماحُ
إليها حَدَتْني حادِثاتٌ كأنَّها بَوارِحُ يَحْدُوهُنَّ بَرْحٌ وأَبْرَاحُ[3]
عَلى غَوْلِ بحرٍ من هُمومٍ عُبابُهُ بِرَحْلِي إلى غَوْلِ المتالِفِ طَوَّاحُ
إذا رامَ تَغْرِيقِي فَلُجٌّ وغَمْرَةٌ وإنْ مُدَّ في ظِمْئِي فآلٌ وضَحْضَاحُ
وحَسْبِيَ منه في الهواجِرِ والسُّرَى جَناحٌ له من حُسْنِ ظَنِّي وإنْجاحُ
وشَأْوٌ مَدًى في موردِ النُّجْحِ شارِعٌ وزَنْدُ هُدًى في فحمةِ الليلِ قَدَّاحُ
إذا مَدَّ إظلامُ الأسى ظُلَمَ الدُّجى تَمَثَّلَ لي من نُورِ وجهِكَ مِصْباحُ
وإن أَبْهَمَتْ أَقْفَالَهَا عَنِّيَ القَلا تَخَيَّلَ لي من بِشْرِ بِرِّكَ مِفتاحُ
[١٢٤ م] / فما صَدَّني عن مُلْتَقَى الغِيلِ ضيغَمٌ ولا راعَني في مَوْرِدِ الماءِ تِمْساحُ
ولا بَرَّحَتْني يا «مُوَفَّقُ» نشوةٌ سجاياكَ لي فيها كئوسٌ وأَقْداحُ
فكُلُّ فؤادٍ مُخْلِصٍ فيكَ مُخْلَصٌ وكلُّ لسانٍ صادِقٍ لك مَدَّاحُ

---

(١) في الأصل : عبد ، ولا معنى لها هنا ، ولعل الصواب ما أثبتنا .
(٢) جمع وضح (بالتحريك) : وهو الخلخال .
(٣) ربما كانت « وأتراح » أي أحزان .

وله في عبد الملك المظفر بن أبي عامر رحمهم الله تعالى

[من الطويل]

أُهَنِّيكَ يا عِيدَ الرَّغائِبِ عيداً ... تَلَقَّاكَ بِاسْمٍ صادقٍ لِتَعُودَا
كنُعماكَ فينا فاتِحاً ومُتَمِّماً ... وجُهْدِكَ فينا مُبْدِئاً ومُعِيدا
فأَعطاكَ بالعَهْدِ الكريمِ مَوَاثِقاً ... وبالنَّصْرِ في طُولِ البقاءِ عهودا
وقد مَلأَ الأَيَّامَ منكَ مَحاسِناً ... وآفاقَها العُلْيا إليكَ سُعودا
وحلاَّكَ عِقْدَ المَكْرُماتِ مُنَظَّماً ... وألْبَسْتَهُ ثوبَ السرورِ جديدا
وقد أَشْرَقَتْ منكَ المُصَلّى بغُرَّةٍ ... يظَلُّ لها وجهُ الصباحِ حَسودا
أَضاءَتْ بنورِ الحقِّ والعدلِ والنُّهى ... فجاءَتك أحرارُ الرِّجالِ عَبيدا
سَجَدْتَ لربِّ العرشِ ديناً وطاعةً ... فَخَرَّتْ إليكَ النائباتُ سُجودا
ومَدَّ إليكَ الناظرونَ نواظراً ... أقامَتْ بإخلاصِ القلوبِ شُهودا
فَمَلأْتَها هَدْياً وبِرّاً وسؤدداً ... وبأساً عَلَى أعدائِهِنَّ وَجُودا
وأعْلامَ عِزٍّ أحْدَقَتْ بمكارِمٍ ... فواتخ[1] عِقْبانٍ حَمَلْنَ أُسودَا

(١) في الأصل «فواتح»، ولعل الصحيح ما جعلنا، والفواتخ من العقبان: ما كانت لينة الجناح.

كأنَّ نَدىٰ يُمْناكَ مِمَّا تجودُها كساها من الرَّوْضِ النَّضِيدِ بُرُودا

وقد طَلَعَ الدِّيباجُ والوَشْيُ فَوْقَها حَدَائِقَ زَهْرٍ في الغصونِ نَضِيدا

وكم لَبِسَتْ منهُ عِداكَ حِدادَهَا إذا لَبِسُوا فوقَ السُّروجِ حَدِيدا

وكم مَلَأُوا الأَرْضَ الفضاءَ حَوَافِراً وجَوَّ السَّماءِ قَسْطَلاً وبُنُودا

وبِيضاً رَدَدْنَ الليلَ أبيضَ مُشْرِقاً علينا وأيَّامَ المعانِدِ سُودا

وزُرْقاً من الخَطِّيِّ أوقدها الوغى فأَضْحَتْ لها غُلْبُ الرِّقابِ وَقُودا

مَسَاعٍ رَعَيْنَ الملكَ حتى تَلَألَأَتْ قَلائِدَ في لَبَّاتِهِ وعُقودا

فَلَوْ لَمْ تُشَيِّعْكَ الجنودُ إلى العِدىٰ لأَضْحىٰ لك النصرُ العزيزُ جُنودا

فلا زِلْتَ للإسلامِ سَيْفاً مُحامياً وصِنْوُكَ رُكْناً للثُّغورِ شَديدا[1]

/ تُنادِمُهُ كأسَ الوفاءِ فإنْ غَدَا بعيداً فما مثواهُ مِنْكَ بَعِيدا [١٢٤ب]

فَمُلِّيتُمَا نُصْحاً يعودُ بغبطَةٍ وأُلْهِمْتُمَا حَمْداً يقودُ مَزِيدا

— ١٣٦ —

وله أيضاً في بعضهم يعزيه في ابن له رحمهم الله

[من الطويل]

فِداؤُكَ[من][2] لو كانَ في وُسْعِهِ الفِدا للاقىٰ الأسى من دونِ نَفْسِكَ والرَّدىٰ

---

(١) لعله يشير بقوله «صنوك» إلى أخيه عبد الرحمن بن المنصور.

(٢) زيادة يقتضيها الوزن والمعنى.

فلم تُضْحِ من صرفِ الزمانِ مُرَوَّعاً ... ولا بِتَّ من ليلِ المنونِ مُسَهَّدا

ولا راعَ منك الصبحُ سِرْباً مُسَوَّماً ... ولا هَزَّ عنكَ الليلُ مَثْوًى مُمَهَّدا

ولم تَجِدِ الشكوى لِعَلْيَاكَ مُرْتَقًى ... ولا النائبـاتُ في سَمائِكَ مَصْعَدا

ولا الحُزْنُ في رَوْضاتِ عِزِّكَ مَرْتَعاً ... ولا الهمُّ في أرجاءِ بَحْرِكَ مَوْرِدا

ولا ماءُ دَمْعٍ في جفونِكَ مَسْلَكاً ... ولا نارُ وَجْدٍ في ضلوعِكَ مَوْقِدا

وأَصْبَحَ جَدِّي حِينَ أفديكَ طائِعاً ... بنفسِيَ أَحْظَى بالوفاءِ وأَسْعَدا

ومالِيَ لا أَفْدِي المكارِمَ والعلَا ... وناهِجَ سُبْلِ الفضلِ والجودِ والندى

ولكِنْ أرىٰ مِنْ سَلِّ رأيِكَ للنُّهى ... وسعيِكَ للحسنىٰ وهَدْيِكَ للهُدى

لقـاءَكَ ما لُقِّيتَ إلاَّ تَصَبُّراً ... وحملَكَ ما حُمِّلْتَ إلا تَجَلُّدا

مُرَزًّأ أفـلاذِ الفؤادِ مصائباً ... توالَتْ بها الأَيَّامُ مَثْنىٰ ومَوْحَدَا

فلَمْ تَبْدَ[1] إلا كُنْتَ بالصَّبْرِ بادِياً ... ولا عُدْنَ إلا كنتَ بالعَوْدِ أَحمدا

جَدِيراً وقـد أَشجـاكَ فَقْدُ « مُحَمَّدٍ » ... بِسَلْوَةِ [ذِكْرَا] كَ [النَّبِـ]يّ مُحَمَّدَا[2]

لِتَقْتَضِيَ الأَجْرَ الجزيلَ مُضَاعَفاً ... وتَشْتَمِلَ [الصَّبْرَ الجَميلَ] مُمَدَّدَا

---

(١) أي تبدأ .

(٢) هذا الشطر مطموس في الأصل ، وما بين الحاصرتين قراءة نقترحها معتمدين على مابقي من الحروف ، ولعلنا لم نبعد فيه عن الصواب ؛ ولعله يعني بذلك أن يأتسى برسول الله ﷺ حينما توفي ابنه إبراهيم .

بِأَعْلىٰ مِنَ النَّجْمِ الذي غَارَ مُقْتَنىً   وأَزْكىٰ منَ الغُصْنِ الذي .... (1)
هِلالاً يُسَامِي فيكَ مَجْرًى ومَطْلَعاً   وفَرْعاً يُبَارِي مِنْكَ [أَصْلاً ومَحْتِدا]
تَتِمُّ به النُّعْمىٰ ويُسْلىٰ به الأَسىٰ   وتَبْأَى به الدنيا ويَشْجىٰ [به العِدىٰ]

— ١٣٧ —

وله أيضا في المظفر يحي بن منذر رحمهم الله تعالى

[من الطويل]

إذا سُقِيَتْ أَرضٌ فقد بُشِّرَتْ أَرْضُ   وعِنْدَ عُمومِ الكُلِّ يَنْتَظِرُ البَعْضُ
وقد ذَبُلَتْ في رَوْضِ جُودِكَ زَهْرَةٌ   ثناؤكَ منها في الورى يانِعٌ غَضُّ
وأَظْلَمَ في عُلْيَا سمائِكَ كوكَبٌ   يُسامِي بذِكراكَ الظَّلامَ فَيَبْيَضُّ
وقد بَسَطَتْ للجُنْدِ منكَ شفاءَهَا   يَدٌ شَفَّنِي منها التَّأَخُّرُ والقَبْضُ
[١٢٥م] / وأَجنادُ شُكْرِي [لَمْ تَفُتْ] لكَ بِعَرْضِها
ولا فاتَهـا في الأَرْضِ طُولٌ ولا عَرْضُ

(1) بقية هذا الشطر مطموسة في الأصل وربما كانت « جف منتدى » أو شيئاً على وزنها ومعناها .

وله رحمه الله تعالى على « رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا »

[من الرمل]

رُبَّ ظَبْيٍ خَنِثٍ أَلْحَـاظُهُ كَعَوَالِي « مُنْذِرٍ » يَوْمَ النِّزالِ[1]
أَتْرَعَ الكَأْسَ وحَيَّانِي بها فأَخَذْتُ النَّجْمَ من كَفِّ الهِلالِ
فكَأَنِّي واجِدٌ في شُرْبِها لَذَّةَ « المَنْصُورِ » في بَذْلِ النَّوالِ

(١) أورد ابن سعيد المغربي هذا البيت مع اختلاف يسير في روايته فقد جاء في الشطر الأول منه « فتكت » بدلا من « خنث » . (المغرب في حلى المغرب ٢ / ٤٣٥) ؛ وأما القطعة التي عارضها ابن دراج فأولها :

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال

وهي لعدي بن زيد العبادي الشاعر الجاهلي أنشدها النعمان بن المنذر الأكبر وقد خرج يتنزه بظاهر الحيرة (أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ٢ / ٣٢ ط محمد الساسي – ورواية الأغاني : ... قد أناخوا عندنا) .

وله أيضاً لمنذر بن يحيى رحمهم الله تعالى

[من الوافر]

بِسَعْدِكَ لا بسعدٍ أو سُعادِ ... تَنَقَّلَ كُلُّ هَمٍّ عن فُؤادِي

قَعَدْتُ عَنِ الصِّبا[(١)] وظَلِلْتُ أَدْعُو ... بأَنْ تُعْطَى الظُّهورَ عَلَى الأَعادي

وذلكَ حين أَبْصَرْتُ العَوالي ... تُميلُ إِلَيْكَ أَفئِدَةَ العِبادِ

عَلِمْتُ بأَنَّكَ المَلِكُ الَّذي لا ... تَدِينُ لغيرِهِ كُلُّ البِلادِ

عَجِبْتُ لمارِقٍ يعصيكَ جَهْلاً ... وقد سَبَقَتْ إليهِ لكَ الأَيادي

فَسَلْهُ مُخْزِياً هل كانَ يَدْري ... بأَنَّ الخِزْيَ في طَلَبِ العِنادِ ؟

أَلَمْ يَكُ لو أَنابَ إليكَ طَوْعاً ... ينالُ مِنَ العلا فوقَ المُرادِ ؟

ومَنْ لم يَدْرِ أَنَّ الهامَ زَرْعٌ ... لِيَنْظُرْ فِعْلَ سيفِكَ في الأَعادِي

عنِ الليالي[(٢)] ... حُسامَكَ لاسْتَحالَتْ بالفَسادِ

فَلاَ [(٣)] ... فإِنَّ الدهرَ عندَكَ في قِيادِ

---

(١) كذا وقد تكون « المدى » .

(٢) أول هذا الشطر مطموس تماما ، وقد يكون « فإنك لو كففت » .

(٣) لم نستطع قراءة هذا الشطر ، إذ أن الكتابة فيه مطموسة تماما ، على أن بقايا حروف فيه تسمح باحتمال كونه « فلا يصعب عليك قياد حر » .

[ومَنْ يكُنِ الز] مانُ لديه عَبْداً يَنَلْ ما شاءَ من غَيْرِ ارْتِيادِ
[فنفسُكَ] [1] بالمكارِمِ قد تَحَلَّتْ ورأيُكَ قد تحَلّى بالسَّدادِ
[وسيفُكَ] [1] حيثُما وَجَّهْتَ ماضٍ ونُورُكَ حيثُما يَمَّمْتَ هادِ
ونجمُكَ طالِعٌ بالسَّعْدِ يَجْرِي فسعدُكَ كُلَّ يومٍ في ازْدِيادِ
ونُصْحُكَ في الديانةِ لَيْسَ يَخْفَى وما تَسْعَى إلى غيرِ المَعَادِ
وما صُوِّرْتَ إلا من حديدٍ ولا استُعْمِلْتَ إلا للجِلادِ
وما تَرْضَى بغيرِ الدِّرْعِ لبساً ولا فَرْشاً تُحِبُّ سِوى الجِيادِ
أرى الأَقدارَ ما أَمضَيْتَ تُمْضِي أأَنْتَ تَسُوقُها أَمْ أَنْتَ حادِ ؟
[١٢٥ب] / أَرى جَدْواكَ للإملاقِ ضِداً وفي يَدِكَ المنونُ لِمَنْ تُعادِي
أَظُنُّكَ أنت مِفتاحَ المنايا وقد مُلِّكْتَ أَرزاقَ العِبادِ
أَتَتْ كُتُبُ الأَوائِلِ عنكَ تُثْنِي تُبَشِّرُنا وتُنْذِرُ قَوْمَ عادِ
بأَنكَ [2] سوفَ تُهْلِكُ كُلَّ عادٍ وتُنْصَرُ بالملائِكةِ الشِّدادِ
ولَيْسَتْ « فَعْلَةٌ » [3] تشناكَ لكنْ تَمَلَّكَ أهلَها ضِدُّ المعادِ
ولو وَجَدُوا السبيلَ إليكَ يوماً لما خَفِيَتْ لهُمْ طُرُقُ الرَّشادِ

---

(١) غير واضحة في الأصل .

(٢) في الأصل : فإنك .

(٣) راجع تعليقنا على هذه الكلمة التي وردت من قبل في شعر ابن دراج (ص ١٩٦ — ١٩٧) حيث ذكرنا احتمال كونها اسم قلعة أو بلد .

أَشِرْ نحوَ الشَّآمِ وأَرْضِ مِصْرٍ   تَجِئْكَ مُجيبةً لكَ بالقِيادِ
وهل مَلِكٌ يُقاسُ إلى « ابْنِ يَحْيَىٰ »   لَدىٰ الهيجاءِ أَو في كُلِّ نادِ ؟
مليكٌ إنْ حَلَلْتَ به مُقِلاً   نَزَلْتَ عَلى أَجَلِّ من التِّلادِ
هَلِ « المنصورُ » للأَيام إلاّ   يَدٌ قبلَ البَرِيَّةِ بَلْ أَيادِ
يَحِلُّ قصورُ[1] مِثْلِكَ في مِثالي   حُلولَ الماءِ في ظَمْآنَ صادِ
لَئِنْ غَلَبَتْ مناقِبُكُمْ لِساني   فإنَّ العُذْرَ من بعضِ السَّدادِ

— ١٤٠ —

وقال يمدح ابن باق رحمهما الله تعالى

[من الكامل]

أَقْدَمْتَ دونَ مَعالِمِ الإسلامِ   فاقْدَمْ بخيرِ تَحِيَّةٍ وسَلامِ
متقلِّداً سيفَ الغَناءِ وفَوْقَهُ   حَلْيُ البهاءِ وحُلَّةُ الإعْظامِ
سامٍ إلى مرآكَ أبصارُ الورىٰ   قَلِقاً إليكَ مُبارَكُ الإكرامِ
فوزاً بأَسْنىٰ القِسْمِ من مَلِكٍ حَوىٰ
من صِدْقِ [سيفِكَ أَجْزَلَ الأَقْسامِ][2]

(١) كذا ولعلها « قصود » .
(٢) كلمات غير واضحة تماما في الأصل .

فَجَزَاكَ من كَرَمِ القُدوم وفاءَ ما أبلَيْتَهُ من صادِقِ [الإقدام][1]
بمواقفٍ لكَ في الوغى سُمْنَ العِدَى طَيْشَ العقولِ وزَلَّةَ الأقدامِ
ومنـاقبٍ لولا دُنُوُّكَ لِلندَى لأَرَتْكَ في جوِّ السماءِ [السَّامي][1]
رُتَباً رَفَعْتَ ثناءَها وسَناءَها بِشَبَا الرِّماحِ وألسُنِ الأقلامِ
وحمائلٍ في طَيِّ ما حَمَّلْتَهـــا ذُلُّ الضَّـلالِ وعِزَّةُ الإسلامِ
لِلَّهِ منـه صارمٌ لكَ كلَّما نَجَمَ الشِّقاقُ دَنا له بِصِرامِ
نَـكَصَتْ سيوفُ الغَيِّ عنهُ وانْحَنَتْ فَهِيَ الأَهِلَّةُ وَهْوَ بَدْرُ تمَامِ
تَمَّتْ له وبِهِ الرَّغائِبُ وانْجَلَى منهنَّ ليـلُ الظُّلْمِ والإظـلامِ
[١٢٦ أ] / سارَ إلى الأعداءِ في سَنَنِ الدجى حتى يَقِيلَ عَلَى مَقِيلِ الهامِ
فيهِ حَلَلْتَ بلادَ حِلِّكَ وانثنى حَرَماً عَلَى الغاوينَ كُلُّ حَرامِ
وحَـكَمْتَ بالحقِّ المبينِ لأَهْلِهِ عَدْلاً من الأقدارِ والأحـكامِ
أَرْضاً أَرَتَ الحقَّ في أعلامِهـا بخوافِقِ الرَّاياتِ والأعلامِ
ومَطَرْتَ عاليها صواعِقَ بارِقٍ أَغْدَقْتَها بسوابِـغِ الإنعـــامِ
سقياً لها بحيـا الحيـاةِ وكاشِفاً عنهـا غَرَامَ الغُرْمِ والإرْغامِ
غادَرْتَها لِلْغَـــدْرِ دارَ إزالَةٍ وأَقَمْتَهَا للأَمْـنِ دارَ مُقامِ
ونَظَمْتَ دُرَّ عُقودِها وعُهودِها في سِلْكِ هذا المُلْكِ أيَّ نِظامِ

(١) كلمات غير واضحة تماما في الأصل .

وأقمْتَ حَدَّ اللهِ فِيمَنْ ضامَهـا ضَرْباً بِحَدِّ الصارِمِ الصَّمْصامِ
باغٍ أَصابَ بِبَغْيِهِ وبنَكْثِهِ نَفْساً عليها يَتَّقِي ويُحَامِي
ولئِنْ خَتَمْتَ عليه سِجْنَكَ قاهِراً فَغَدَا وأَمْسَىٰ منكَ رَهْنَ حِمامِ
في بَطْنِ أُمِّ بَرَّةٍ لَقِحَتْ بِـهِ يومَ الوغى من ذابِلٍ وحُسامِ
فلقد تَمَخَّضَ عنه منكَ بروعَةٍ تُوفِي فتُسْقِطُهُ لِغَيْرِ تمامِ
ولقد نَدَبْتَ لِحَرْبِـهِ في بَطْنِها قَرْعَ الظُّنونِ ومُرْجِفَ الأَوْهامِ
ولَوِ اسْتَجَزْتَ له المَنَامَ لَرَدَّهُ كَيْ لا يَرىٰ عينَيْكَ في الأَحْلامِ
ولقد مَلَأْتَ عليهِ أَجْوَازَ المَلَا [برَوَابِضِ] الآسادِ في الآجامِ
مُتَرَبِّصِينَ [جَنىٰ ثمارٍ قد أَنى منها] إليكَ تَفَتَّحُ الأَكمامِ
فَأَبْشِرْ بها من نِعمَةٍ مشكورَةٍ في دَوْلَةٍ موصولَةٍ بِدَوَامِ
وافْخَرْ فأَنتَ لِـكلِّ مجدٍ مَفْخَرٌ واسْلَمْ فأَنتَ ذخيرةُ الإِسْلامِ
[سعياً به] أَعْدَمْتَ مِثْلَكَ في الورى فَحَوَيْتَ مفخَرَ ذلِكَ الإِعدامِ
ولَـئِنْ رَعَيْتَ الدِّينَ والدنيا فَمَا أَنْسَتْكَ رَعْيَ وسائِلِي وذِمامي
يومَ اطَّلَعْتَ مشارِبِي فرأَيتَ في عُقْرِ الحِياضِ الوُفْرِ خِزْيَ مَقَامي
وأَنِسْتَ من نَظَري تَذَلُّلَ موقفي ووَجِسْتَ في الأَحشاءِ حَرَّ أُوامي
ورأَيتَ في أَنيابِ عادِيَـةِ العِدىٰ لَحْمِي وظُفْرُ الظُّلْمِ مِنِّيَ دامي
وعَلِمْتَ إن أَبْطَـأْتَ عَنِّي أَنَّـنِي مِمَّا أُلاقِي لا أَشُدُّ حِزامي

[١٢٦ب] / فَسَبَقْتَ خَشْيَةَ أن تحين مَنِيَّتي   وبَدَرْتَ خِيفَةَ أَنْ يُحَمَّ حِمامي
ونَكِرْتَ من جَوْرِ الحوادثِ أنَّني   ظامٍ وبَحْرُ الجودِ فَوْقِيَ طَامِ
وحَرِجْتَ مِنِّي أن أهيمَ بغُلَّتي   سُقْمَاً وفي سُقْيَاكَ بُرْءُ سَقَامي
وبَصُرْتَ من خَلَلِ التَّجَمُّلِ خَلَّتي   وفَهِمْتَ من صمتِ الحياءِ كلامي
فَفَتَقْتَ أَنهارَ الجَدَا لِحدائقي   ونَصَبْتَ أغراضَ المُنَى لِسِهامي
وفَتَحْتَ نحوَ الماءِ ضِيقَ مَوَارِدي   وفَسَحْتَ في المَرْعى لِرَعْيِ سَوَامي
وأَنِفْتَ للآدابِ أَنْ يَسْطُو بِها   جَهْلُ الزَّمانِ وعَثْرَةُ الأَيَّامِ
رَحِماً من العِلْمِ اقْتَضى لِيَ رَحْمَةً   من واصِلِ الآمالِ والأَرْحامِ
فَلأَهْتِفَنَّ بحمدِها وثنائها   وجزائها في مُعْرِقٍ وشَآمِ
ولأَرْجُوَنْ بتمامِها من مُنْعِمٍ   لا يَرْتَضِي النُّعْمى بغيرِ تمامِ

— ١٤١ —

وله في يحيى بن منذر رحمهم الله تعالى

[من المتقارب]

أَياديكَ رَدَّتْ يَدِي في يَدَيْكا   وبِرُّكَ قادَ عِنانِي إِلَيْكا
كقَوْدِكَ للحربِ خَيْلاً تَهُزُّ   عَوَالِيَهَا من كِلا جانِبَيْكا
وقد أَبْصَرَ النُّجْحُ في ناظِرَيْكا   وساعَدَهُ السَّعْدُ من ساعِدَيْكا

وهذا إيابِيَ من يومِ زُمَّتْ ... رِكابِيَ من غُرَّتَيْ كَوْكَبَيْـكا
إلى كل بَرٍّ وبحرٍ أنارَتْ ... جَوَانِبُها [مِنْ ثنائِي] عَلَيْـكا
أشِيمُ نجوماً هَدَتْـنِي إلَيْكَ ... تَـلُوحُ [مَطَالِعُها مِنْ يَدَ]يْـكا
يدورُ بها فَلَكٌ من عُلاكَ ... فِمِنْ مَشْرِقَيْكَ إلى مَغْرِبَيْـكا
ليـــالِيَ أبْقَيْتَهَـا للأنامِ ... وذِكْرَاكَ فيها حَمَاماً وأيْـكا
فلا بَرِحَتْ نِعَمُ اللهِ تَـتْرىٰ ... لَدَيَّ مُفَجَّرَةً من يَدَيْـكا

— ١٤٢ —

وله في منذر رحمهما الله تعالى[1]

[من البسيط]

وَعْداً عَلَى اللهِ حَقّاً نَصْرُ مَنْ نَصَرَهْ ... وحُكْمُ سَيْفِكَ في هاماتِ مَنْ كَفَرَهْ

(١) هـذه القصيدة – كما نستنتج من سياقها – في تهنئة منذر بن يحيى بإيقاعه باثنين من كبار قواد « ابن شنج » ، ويعني به « شانجه الأكبر Sancho El Mayar » ملك نبارة Navarra ، وهي المملكة النصرانية المتاخمة لمملكة التجيبيين في سرقسطة ، ويبدو أن جيوش منذر بن يحيى استطاعت قتل هذين القائدين ، وأن منذراً أمر بنصب رأسيهما على « باب طليطلة » من أبواب مدينة سرقسطة جريا على العادة المتبعة في العصور الوسطى ؛ وقد صرح ابن دراج في آخر القصيدة باسم واحد من هذين القائدين ، وهو « لبس » (بضم اللام وتشديد الباء المكسورة ـــ

رأسٌ مُطلٌّ عَلَى بابَيْ « طُلَيْطلَةٍ » يُومي إلى الـكُفْرِ : هذامَوْعِدُالـكَفَرَهْ!

وهامَةٌ قد قَضَتْ نَحْبَ الحِمام ضُحىً وهامَةٌ فَوْقَ صَفْحَيْ «شَنْجُ» مُنْتَظِرَهْ

أَوفىٰ عَلَى مَوْعِدٍ منهُ تُراقِبُهُ تَدْعُو : هَلُمَّ إلى مُسْتَوْدَعِ الغَدَرَهْ

[١٢٧ م] / وناخِراً أَمْسِ فِي البيداءِ من عِظَمٍ واليومَ أَصْبَحَ فيها أَعْظُماً نَخِرَهْ

كَمْ مِنْ سَمِيٍّ لهُ فيها وذِي نَسَبٍ لم يَدَّخِرْ نَابَهُ عَنْهُ ولا ظُفُرَهْ (١)

كأَنَّما زارَ مُشْتاقاً ومُعْتَنِقاً فاعتامَ منهُ مكانَ النَّحْرِ والقَصَرَهْ (٢)

ومُسْعِراً لِضِرامِ الحربِ من أَشَرٍ فَلَمْ يُطِقْ منكَ في إضرامِها شَرَرَهْ

فإنْ جَرىٰ دَمُهُ فيها فأَطفأَهَا فإِنَّ نَفْسَ «ابْنَ شَنْجٍ» منهُ مُسْتَعِرَهْ

ـ أو المضمومة) ، وهو اسم كان وما زال شائعا في إسبانيا النصرانية وكان يكتب بصور مختلفه : Lope , Lep , Lopez , Lupo ، كذلك كان يستخدمه الأندلسيون المسلمون بهذه الصورة « لب » . ويظهر من شعر ابن دراج أن هذا القائد النصراني كان من أكثر قواد « شانجه » اتصالا به وقرباً إليه .

(١) في هذا البيت دلالة على أن ابن دراج كان يعرف اللاتينية الشائعة في أيامه بين الأندلسيين ، فهو يشير هنا إلى اسم أحد القائدين النصرانيين وهو López الذي أشرنا إليه في التعليق على مناسبة هذه القصيدة ، وهذا الاسم مشتق من اللاتينية Lupus ومعناها « الذئب » (وهي بالإسبانية الحديثة Lobo) ، فابن دراج إنما عرض بالاصل الذي اشتق منه اسم القائد المذكور ، إذ أنه يقصد أن يقول : « كم من ذئب مثل هذا القائد مسمى باسمه لم يأل جهداً في إيذاء المسلمين والعدوان عليهم بنابه وظفره حتى رد الله كيده وبطش به على يدي منذر » .

(٢) القصرة : هي أصل العنق الغليظ .

شُقَيِقُ مَفْخَرِهِ[1] إن قامَ مُفتَخِراً   وشِقُّ مُهْجَتِهِ إنْ واتِرٌ وَتَرَهْ

حُمَّ الحِمامُ له قَدْراً فأَفْرَدَهُ   يدعو الحِمامَ لِرُزْءٍ غالَ مُصْطَبَرَهْ

ما يَرْجِعُ الطَّرْفَ إلاَّ وَهْوَذا كَرُهُ   ولا يُحِسُّ بنفسٍ كُلَّمَا ذَكَرَهْ

ولا يَرُدُّ الرَّدى عنهُ سِوَى دَلَهٍ   وافى المُصَابَ ولم يَعْرِفْ بِهِ قَدَرَهْ

وما القَنَا بالِغَاتٌ من جوانِحِهِ   بلوغَ أَلْسِنَةٍ أَبْلَغْنَهُ خَبَرَهْ

عَتَادُهُ للوغى إنْ خافَ طارِقَهَا   وذُخْرُهُ لِمُلِمِّ الخطبِ إنْ حَذِرَهْ

وسيفُهُ وسيوفُ الهِنْدِ بارِقَةٌ   ورُمْحُهُ ورِماحُ الخطِّ مُشْتَجِرَهْ

فَتْحٌ تَقَدَّمْتَ في اسْتِفْتاحِ مُقْفَلِهِ   بخافقاتٍ إلى الأَعداءِ مُبتَدِرَهْ

في دَعْوَةٍ سَمِعَ الرحمنُ داعِيَهَا   لما اسْتَهَلَّ بأُخْرى سُورَةِ «الْبَقَرَهْ»[2]

هُوَ الجِهادُ الذي بَرَّتْ مَشَاهِدُهُ   فأَشْهِدَتْهُ الكِرامُ الصَّفْوَةُ البَرَرَهْ

ذَلَّتْ فيه حِمَى الإِشراكِ مُقْتَحِماً   بالخيلِ رَائِحَةً فيه ومُبْتَكِرَهْ

في كُلِّ ضاحِيَةٍ أَلْبَسْتَهَا كِسَفاً   غادَرْتَ شمسَ الضحى فيهنَّ مُنْعَفِرَهْ

دونَ السماءِ سماءُ النَّقْعِ أَنْجُمُهَا   زُرْقُ الوشيجِ عَلَى الأَعداءِ مُنْكَدِرَهْ

وكُلِّ مُزْدَحِمٍ في جُنْحِ مُرْتَكِمٍ   لا نَجْمَهُ يَرقبُ السَّاري ولا قَمَرَهْ

إلا جبينَكَ يحدو صارِماً ضَرِماً   كالبدرِ تحتَ الدَّياجي يَتْبَعُ الزُّهَرَهْ

---

(١) في الاصل : مفخرة .

(٢) يعني الشاعر الآيات الواردة في آخر سورة البقرة من القرآن الكريم .

حتىٰ رَفَعْتَ عَلَى أعلامِهِمْ عَلَماً يستنجزُ اللهَ فيها وَعْدَ من نَصَرَهْ
عُقابُ فَأْلٍ بِعُقْبىٰ رَفْعِ أَوَّلِهِ يجلُو السعادَةَ للإسلامِ والخِيَرَهْ
وجَدُّ شانيكَ مَخْفُوضٌ فكانَ لَهُمْ عِقابَ خَسْفٍ مُبينِ الزَّجْرِ والطِّيَرَهْ
سَعْيٌ تركْتَ به أرضَ العِدىٰ نَهَجاً لِمَنْ سَعىٰ في مداهُ واقْتفىٰ أَثَرَهْ
فَهَلْ لِنفسِ « ابْنِ شَنْجٍ » بعدَها عِوَضٌ
مِنْ لُبٍّ « لُبِّسَ »[1] أو من كافِرِ الكَفَرَهْ
[١٢٧ب]/ صِنْواهُ في حربِهِ أو في ضَلالَتِهِ قد كانَ ذا سَمْعَهُ فيها وَذَا بَصَرَهْ
وَفَتْ دِماؤُهُما ثَأْراً فلم يَدَعا للمسلمينَ على حربِ الضَّلالِ تِرَهْ
فليَهْنِكَ اليومَ فَتْحٌ تقتفيهِ غَداً عَوائِدٌ من فتوحِ اللهِ مُنْتَظِرَهْ
بضائِعٌ لَكَ من بأْسٍ ومن كَرَمٍ محفوظَةٌ لكَ عنـد اللهِ مُدَّخَرَهْ
سلَّمْتَها في سبيلِ اللهِ وافيَةً فناجِزُ النَّقْدِ أو مُسْتَقْرَبُ النَّظِرَهْ
وأَبْشِرْ بأُخْرىٰ وأُخرى واعَدَتْ فَوَفَتْ
بوعدِ ذي العرشِ في نعماءِ من شَكَرَهْ

---

(١) في الاصل : لبسى ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وقد تكون كذلك : لبش بالشين ، وهو يعني اسم القائد النصراني الذي علقنا عليه من قبل ، وقد رجعنا إلى المراجع التاريخية النصرانية التي كتبت عن « شانجه الاكبر » فوجدنا من قواده أكثر من واحد يحملون هـذا الاسم ، ولعل أقربهم إلى أن يكون من قصده ابن دراج بهذه الإشارة اثنان : —

وله أيضا رحمه الله تعالى

[من الطويل]

نداكَ حبيبٌ لا يشِطُّ مزارُهُ ... وإنْ غَنِيَتْ بينَ الكواكبِ دارُهُ
وأكرِمْ به إلفاً دعا الحمدَ راغِباً ... فلبّاهُ مخلوعاً إليهِ عِذارُهُ
أبانَ سبيلَ النُّجْحِ ساطِعُ نورِهِ ... ولاحَتْ لعلياءِ النَّواظِرِ نارُهُ
فصُبْحُ الذي يغدو إليكَ بَشيرُهُ ... ولَيْلُ الذي يسري إليكَ نهارُهُ
وأيُّ رجاءٍ حادَ منكَ طريقُهُ ... وأيُّ ثناءٍ قرَّ عنكَ قرارُهُ
ولا أمَلٌ إلا إليكَ مآلُهُ ... ولا سُؤدَدٌ إلا عليكَ مَدارُهُ
ولو أنّ قلباً شاقه المجدُ والعُلا ... فطارَ إليها ما عَداكَ مَطارُهُ

— ١ ـ الأول اسمه « لبس بن غند شلب Labe Consàles » وكان حاكما على مدينة ناجرة Nájera طوال السنوات الأخيرة من القرن الرابع الهجري وشطراً من أول القرن الخامس .

٢ ـ والثاني « لبس بن شانجه Lope Sànches » ، وكان من كبار قواد الملك المسيحي بين سنتي ٤٠٠ و ٤١١ (١٠٠٩ - ١٠٢٠) .

انظر عن هذين كتاب الأب بيريث دي أوزبل : شانجه الأكبر (ض ٦٦ ، ٣٥٤ على الترتيب) .

ولو نَثَرَ البحرُ المسَخَّرُ دُرَّهُ | لما كانَ إلا في ذَراكَ انتِثارُهُ
ولو كانَ من زُهْرِ الكواكبِ زائِرٌ | إلى مَلِكٍ ما حادَ عنكَ مَزَارُهُ
لأمَّكَ مشدوداً إليكَ زِمامُــهُ | ووافاكَ مرفوعاً إليكَ عَمَارُهُ (١)
ولو كانَ للدهرِ المؤبَّدِ مَفْخَرٌ | لكانَ بما أبْدَعْتَ فيه افتخارُهُ
ولم يعْدَمِ الشادِي بذكرِكَ زَهْرَةً | يطولُ بهــا إعجابُهُ وازْدِهارُهُ
لَبُوسُ ثناءٍ من مساعيكَ بِينُهُ (٢) | ومن غُرَرِ الأشعارِ فيكَ شِعــارُهُ
تُهِلُّ بهِ الدنيا إلى المَلِكِ الّذي | زَكَا وتعــالىٰ جِذْمُهُ ونِجارُهُ
مَليكٌ تَرَدَّى من «تُجيبَ» سَكينةً | وحِلْماً يَقِي بالرّاسياتِ وَقارُهُ
ودَوْحٌ تعالَتْ في السَّماءِ فُروعُــهُ | ولٰكِنْ دَنَتْ للمُجْتَنينَ ثِمارُهُ
بمَطْعَمِ سَلْمٍ لا يُمَلُّ مَســاغُهُ | ومَطْعَمِ حَرْبٍ لا يُســاغُ مرارُهُ
إذا نَشَأَتْ بالبارقاتِ سَحابُهُ (٣) | وجاشَتْ بجيشِ الدّارعينَ بِحارُهُ
[١٢٨أ] / وقد أضرَمَ الآفاقَ من حُرِّ بأسِهِ | لظىٰ لَهَبٍ زُرْقُ الوَشيجِ شَرارُهُ
وغُرّةُ شمسِ المجدِ تسمو كأنّما | تراءى لَهُ في غُرّةِ الشمسِ نارُهُ
وكَمْ وَصَلَتْهُ بالكواكِبِ هِمّــةٌ | تُجَلّي إلى الآفاقِ أيْنَ مَغارُهُ
وليثُ ليوثٍ يُصْعِقُ الأرْضَ زَأرُهَا | ويَقْدُمُها في حَوْمَةِ الموتِ زارُهُ

(١) أي تحيته .

(٢) البين (بكسر الباء) : هو ناحية الشيء .

(٣) في الأصل : سحابة .

وشمسٌ وفي كِسفِ العَجاجِ كسوفُها | وبَدْرٌ وفي خَفْقِ البُنودِ سِرارُه
وأكرِمْ به أنْ يَعْرِفَ النَّكْثَ عَقْدُهُ | أوِ الخُلفَ راجيهِ أوِ الضَّيْمَ جارُه
ومن طَرَقَتْ خَيْلُ الخطوبِ حَريمَهُ | فأوَّلُ دعواهُ إليـــهِ انْتِصارُه
فتىً جَعَلَ الجُرْدَ الجيادَ قِداحَهُ | ففازَ بأقمارِ المعـــالي قِمارُه
ضَمانٌ عليهِ أنْ يَذِلَّ عَدُوُّهُ | وحَـقٌّ إليـهِ أنْ يعِزَّ جِوارُه
ومالِيَ لا أختارُ قُرْبَكَ بادِياً | وأنْتَ من الدهرِ الخيارِ خِيارُه
ومَنْ ذا لداعٍ لا يُجابُ دُعاؤُهُ | سِواكَ وعانٍ لا يُفَكُّ إسارُه
ومهوىً غَريقٍ لا يُرَجىٰ غِياثُـهُ | وعاثِرِ جَـدٍّ لا يُقالُ عِثـارُه
ألا عَزَّ من أبدىٰ إليكَ خُضُوعَهُ | وحازَ[1] غِنـاهُ من إليكَ افتقارُه

— ١٤٤ —

وله أيضاً رحمه الله تعالى

[من المتقارب]

هنيئاً لنــا ولِأقصىٰ العِبـادِ | جِهادُكَ في اللهِ حَقَّ الجِهادِ
تُبارِي الصَّبا [وتُناوِي الشَّمالَ] | تُراوِحُ أرْضَ العِدىٰ أو تُغادِي
بِسُمْرِ القَنا وبِبِيضِ السُّيوفِ | وحُرِّ الـكُماةِ وغُرِّ الجِيادِ
جيوشاً تَضِلُّ الأدِلَّاءُ فيهـا | وأنْتَ لَها بِهُدىٰ النَّصْرِ هادِ

(١) في الأصل : جاز .

إذا اكْتَحَلَ الجوُّ كُحْلَ الظَّلام ... كَحَلْتَ العيونَ بطولِ السُّهادِ

تقودُ أعِنَّتَها مُستَقيداً[1] ... إليكَ بها كُلَّ صَعْبِ القِيادِ

مُظَلَّلَةً بعَوالِي الرِّماحِ ... مُكَلَّلَةً بِطِوالِ الهَوادي

مُجَلَّلَةً منكَ بَرْدَ اليقينِ ... فَهانَ عليْهِنَّ حَرُّ الجِلاد

تُوَلِّيهُنَّ لحمْلِ الكُماةِ ... وتُوطِئُهُنَّ صُدورَ الأَعادي

مُجيباً بهنَّ مُنادِي الإِلهِ ... فَلَبَّاكَ كُلُّ مُجيبِ المُنادِي

بعَزْمٍ يُذَكِّرُ أَرْضَ الأَعادي ... هُبوبَ العواصفِ في أَرضِ عادِ

[١٢٨ ب] / فأَقْدَمْتَها يا «بْنَ عبدِ العزيز» ... لِعِزِّ المُوالِي وذُلِّ المُعادِي

لِتُحْيِيَ من «حَكَمٍ» حُكْمَهُ ... بِسَقْيِ الرَّدى كُلَّ باغٍ وَعادِ

ولم يَثْنِها عن مَدىً غارَةٌ ... تُغَوِّرُها في مَغارِ البِعادِ

ولا أَخَّرَتْ يانِعاتِ الرُّؤوسِ ... ليومِ الجَنى وليومِ الجِدادِ[2]

فَلأْياً طَرَدْتَ المَها عن أُسودٍ ... أَبَرْتَهُمُ في مَكَرِّ الطِّرادِ

دِياراً سَقَيْتَ دَمَ المانِعِيها ... مُتُونَ الرُّبى وبُطونَ الوِهادِ

وأَطْفَأْتَ فيهِنَّ نارَ السُّيوفِ ... وأَضْرَمْتَ منهنَّ قَدْحَ الزِّنادِ

وَقُوداً تُبَيِّضُ فيها الليالي ... ويُصْبَغُ نُورُ الضُّحى بالسَّوادِ

بما بُدِّلَتْ من مَجالِ الرماحِ ... مَجالَ الرِّياحِ بها في الرَّمادِ

فأَلْبَسْتَ فيها ثيابَ السرورِ ... وغادَرْتَها في ثيابِ الحِدادِ

---

(١) في الأصل : مستفيداً .

(٢) الجداد : هو صرام النخل .

بفَتْحٍ تَفَتَّحُ منـهُ الأماني		إلىٰ كُلِّ حاضِرِ أَرْضٍ وَبادِ
مَعَالِمُ منهـــا تعلَّمْتُ منكَ		إليكَ مسالِكَ سُبْلَ الجهـادِ
فَأَعْلَيْتُ نَحْوَكَ بَنْدَ الثنـاءِ		وقُدْتُ إليكَ خُيُولَ الودادِ
وشَرَّدَ جَفْنِي لذيذَ المنـــامِ		وعَطَّلَ جَنْبِي وَثيرَ المِهـــادِ
مثـالاً تَمَثَّلْتُـهُ منكَ فيكَ		وأنتَ إلى الغَزْوِ سارٍ فغادِ
فكَمْ أَبْتَ منهُ بِبِيضِ الوجوهِ		كما أُبتُ منكَ بيضِ الأيادي
وكم عُدْتَ منهُ بفتحِ الفُتوحِ		كما عادَ لي منكَ عَهْدُ العِهاد !
ولـكنَّ منكُمْ جَوادِي وسَرْجِي		ونُزْلي ويُسْري ومائي وزادي
وأنتمْ شَدَدْتُمْ يَمِيني برُمْحِي		وهَيَّأْتُمُ عاتِقِي لِلنِّجـادِ
وأنتمْ سَقَيْتُمْ ثَرَاةَ اغْتِرابي		سِجالَ الغَمامِ وصَوْبَ الغوَادي
فتِلْكَ أزاهِيرُها قَدْ سَقَيْتُمْ		تَفُوحُ لـكُمْ من أَقاصِي البِلادِ
ويَسْرِي بها في الدُّجىٰ كُلُّ سارٍ		ويَشْدُو بها في الوَرىٰ كُلُّ شادِ
عَلَى كُلِّ فُلْكٍ طَرُوقِ الشِّراعِ		وَفِي كُلِّ رَحْلٍ وَثيقِ الشِّدادِ
وتلكَ حدائقُ ما قد غَرَسْتُمْ		مُنىً وجَنىً لِنفوسِ العِبـادِ
تَرَوَّضُ من نَشْرِها كُلُّ أَرْضٍ		ويَنْدىٰ بإنشادِهـا كُلُّ نادِ
/ سَتُؤْتِيكُمُ أُكْلَهَا كُلَّ حينٍ		ويُجْنِيكُمُ زَهْرَهَا كُلُّ وادِ [١٢٩م]
بإحياءِ فَخْرِكُمُ للحيـــاةِ		وإجزالِ ذُخْرِكُمُ في المَعَادِ
ودُونَكَ غَرَّاءَ يُضْحِي سَنَاهَا		بِغُرَّةِ سَيِّدِها في ازْدِيادِ
فلا خَانَهـــا أَمَلُ المُسْتَفِيدِ		وأُبْقِيتَ في عُمُرٍ مُسْتَفـــادِ

وله أيضاً في المؤتمن عبد العزيز بن أبي عامر رحمه الله

[من الطويل]

تَصَدَّتْ لِوَشْكِ البَيْنِ من جَفْوَةِ الصَّدِّ ... وحَلَّتْ قِناعَ الصَّبْرِ عن زفرةِ الوَجْدِ
وأَلْقَتْ إلى حُكْمِ الأَسى عِزَّةَ الأُسا(١) ... فَنَمَّ بما تُخْفِي تَبارِيحُ ما تُبْدِي
وأَسْفَرَ رَيْبُ السُّخْطِ عن صادِقِ الرِّضَا ... ولاح هِلالُ الوصلِ من مَغْرِبِ الصَّدِّ
فوشكانَ ما لَفَّتْ قضيباً بقاضِبٍ ... وأَدْنَتْ نِجادَ السَّيْفِ من مَسْلَكِ العِقْدِ
وهَبَّ غليلُ الشَّجْوِ في غَلَلِ اللَّمى ... وسالَ جُمانُ الخَدِّ في يانِعِ الوَرْدِ
فَجَرَّعْتُ حَرَّ(٢) الشَّوْقِ من بَرَدِ الحَيَا ... وزَوَّدْتُ مُرَّ الصَّابِ من ذائِبِ الشَّهْدِ
وقالَتْ وتَوْدِيعُ التَّفَرُّقِ قد هَفَا ... بِصَدْرٍ إلى صدرٍ وخَدٍّ إلى خَدِّ :
عَسى قُرْبُ ما بَيْنَ الجوانِحِ [فَأَلْنَا] ... لِمَجْنَى ثِمارِ القُرْبِ من شَجَرِ البُعْدِ
فَسَبْقاً إلى ذي السَّابِقاتِ بِرِحْلَةٍ ... تَلُوحُ بِنَجْمِ العِلْمِ في مَطْلَعِ السَّعْدِ

---

(١) الأسى (بفتح الهمزة) : الحزن ، والأسا (بضم الهمزة أو كسرها) : جمع أسوة أو إسوة وهي سلوة الحزن .

(٢) في الأصل : برد ، ونظنه سهواً أو خطأ من الناسخ ، إذ أنها لا معنى لها في هذا الموضع .

إلى الحِمْيَرِيِّ العامِرِيِّ الَّذي بِهِ غَدَتْ حُرْمَةُ التَّأْميلِ وارِيَةَ الزَّنْدِ
إلى مَلِكٍ مِلْءِ الرَّغَائِبِ والمُنَىٰ ومِلْءِ نِجادِ السَّيْفِ والدِّرْعِ والبُرْدِ
ومِلْءِ مَكَرِّ الخيلِ في حَوْمَةِ الوغى ومِلْءِ رداءِ الحِلْمِ في مَشْهَدِ الحمدِ
وَ «مُؤْتَمَنٍ» لِلّٰهِ مُسْتَحْفَظٍ لَهُ لِما ضاعَ من حقٍّ وما خاسَ من عَهْدِ
تَجَلَّى لَنَا في مَطْلَعِ المُلْكِ فَانْجَلَتْ بهِ ظُلُماتُ الغَيِّ في سُبُلِ الرُّشْدِ
فَأَعْلَقَ سيفَ النصرِ في عاتِقِ العُلَا وأَثْبَتَ تاجَ المُلْكِ في مَفْرِقِ المجدِ
وأَشْرَقَ في جَوٍّ من العزِّ مُعْتَلٍ وأَغْدَقَ من ظِلٍّ عَلَى الأَرضِ مُمْتَدِّ
ولاقىٰ وُجوهَ الراغبينَ كأَنَّما أَمانِيُّهم يُصْبِحْنَ منهُ على وعْدِ

ونادىٰ خُطوبَ الدَّهْرِ : بَرَّحْتِ فَاقْصِرِي
وثَوَّبَ بالآمالِ : أَبْرَحْتِ فَامْتَدِّي (١)

إلى رَوْحِ إنعامٍ يُراحُ إلى المُنىٰ وجَنَّةِ معروفٍ تُهِلُّ إلى الورْدِ
/ تُراثُكَ عن جَدٍّ وجَدٍّ بِهَدْيِهِمْ تَناهىٰ بِكَ الدنيا إلى أَسْعَدِ الجَدِّ [١٢٩ب]
فحسبُكَ من نفسٍ وكافيكَ من أَبٍ وشَرْعُكَ من عَمٍّ وناهيكَ من جَدِّ
بِهِمْ مُدَّ بَحْرُ الدِّينِ في كُلِّ بلدةٍ وهُمْ تركوا بَحْرَ الأَعادي بِلا مَدِّ
وهُمْ عَمَرُوا الأَيَّامَ من ساكِنِ الهُدىٰ وأَخْلَوْا غِياضَ الشِّرْكِ من ساكِنِ الأُسْدِ
وهُمْ جَرَّدُوا أَسيافَ دِينِ مُحَمَّدٍ وخَلَّوْا سيوفَ النَّاكِثينَ بِلا حَدِّ

(١) برحت : أي بالغت وأسرفت في الإيذاء ، وأبرحت : أي أعجبت وأكرمت .

وهُمْ سَلَبُوا التِّيجانَ كِسْرى وقَيْصَراً … وحَلَّوْكَ تاجَ المُلْكِ فَرْداً بِلا نِدِّ

دعائِمُ سُلْطَانٍ وأَرْكانُ عِزَّةٍ … بها وَشَجَتْ قُرْبَى تَمِيمٍ من الأَزْدِ

وما حَفِظُوا أَعلامَها ونِظامَها … بِمِثْلِكَ من مَوْلًى ومِثْلِيَ من عَبْدِ

بما شِدْتَ فيها من سَناءٍ ومِنْ سَناً … وراقَ عليها من ثَنائِي ومِنْ حَمْدِي

فما جَلَتِ الدنيا عَروسَ رِياسَةٍ … لِمُلْكِهِمُ إلاَّ وفي صَدْرِها عِقْدِي

ولاجاشَتِ الآفاقُ من طِيبِ ذِكْرِهِمْ … بِجَيْشِ ثَناً إلاَّ وفي وَسْطِهِ[1] بَنْدِي

بما بَسَطُوا لي أَيْدِياً مَلَّكَتْ يَدِي … أَعِنَّةَ أَعْناقِ المُسَوَّمَةِ الجُرْدِ

وما مَهَّدُوا لِي من فِراشِ كَرامَةٍ … وما أَتْبَعُونِي من لِواءٍ ومن جُنْدِ

وكم جَلَّلُونِي نِعْمَةً قد جَلَوْتُها … على غابِرِ الأَزمانِ في حُلَّةِ الخُلْدِ

فإِنْ تَمْتَثِلْها مِنهُمُ فِيَّ قُذَّةً … فكَمْ حُزْتَها مِنهُمْ عِداءً[2] بلا عَدِّ

وإِنْ تَحْبُنِيها عَنْ تَناهِيكَ في النُّهى … فقِدْماً حَبانِيها أَبوكَ مِنَ المَهْدِ

وإِن عَمَّ أَهْلَ الأَرضِ فَيْضُ نَداكُمُ … فإِنِّيَ قد بَرَّزْتُ في شُكْرِكُمْ وَحْدِي

بَدائِعُ أَضْحَتْ فِيكُمُ آلَ يَعْرُبٍ … أَوائِلَ ما قَبْلِي وآخِرَ ما بَعْدِي

وما بُعْدُ عهدي عَنْكَ يُنْسِي عُهُودَهُمْ … إِليكَ بحقِّي من وفائِكَ بالعَهْدِ

ولا نَأْيُ دارِي عنكَ يُبْلِي وَسائِلاً … جَلِيٌّ بها قُرْبِي وَفِيٌّ بها بُعْدِي

---

(١) في الأصل : سطه .

(٢) أي موالاة ومتابعة .

فَلاَ أَخْطَأَتْ أَسْيَافُكُمْ سَيْفَ مُعْتَدٍ ... ولا خَذَلَتْ أَيْدِيكُمُ ظَنَّ مُعْتَدِ
ولا زَالَتِ الأَيَّامُ تُشْرِقُ مِنْكُمُ ... كما أَشْرَقَ الإِحسانُ من عِنْدِكُمْ عِنْدِي

— ١٤٦ —

وله في المظفر يحيى بن منذر بن يحيى رحمهم الله

[من البسيط]

استقْبِلِ العِزَّ مَرْفُوعاً بِهِ عَلَمُكْ ... واسْتَوْثِقِ الأَمْنَ مَحْفُوظاً به ذِمَمُكْ
واستَطْلِعِ السَّعْدَ من أُفْقٍ إلى أُفُقٍ ... كواكِباً تتلألأ فَوْقَها هِمَمُكْ
/ واسْتَفْتِحِ الدَّهْرَ أبواباً مفاتِحُها ... إمَّا سيوفُكَ في الأعداءِ أَوْ نِعَمُكْ [١٣٠م]
أَجْزِلْ بها نِعَماً فُزْنَا بها قِسَماً ... في دَوْلَةِ العِزِّ إذ فازَتْ بها قِسَمُكْ
فإِنْ نَحَا سَيْفُكَ الأَعداءَ مُضْطَرِماً ... نَاراً أَنارَ لنا في صَفْحِهِ كَرَمُكْ
وإن غَدَا كُلُّ رَحْبٍ من بِلادِهِمُ ... عَلَيْهِمُ حُرُماً أَفْضَى بِنا حَرَمُكْ
فأَنت كالدَّهْرِ مُمْساهُ ومُصْبَحِهِ : ... لنا ضُحاكَ وفي أَعدائِنا ظُلَمُكْ
ليلٌ إذا هَوَّمَتْ فيهِ عيونُهُمُ ... بذِكْرِ عفوِكَ صاحَتْ فيهِمُ نِقَمُكْ
وإن تَخَيَّلَ خَيْلاً منكَ حُلْمُهُمُ ... فإِنَّ حِلْمَكَ عن جانِيهِمُ حُلُمُكْ
لِمِثْلِها أَنشأَ الرَّحْمنُ منكَ لَنَا ... نورَيْنِ عَظَّمَ من قَدْرَيْهِما عِظَمُكْ
« مُعِزَّ دَوْلَتِكَ » العُلْيَا وصَفْوَتَها : ... هذا حُسامُكَ في الهَيْجا وذا عَلَمُكْ

وإنْ تَرَدَّتْهُمَا عِطْفَاكَ يَوْمَ رِضاً ... فَذَاكَ خَاتِمُكَ الأَسْنَىٰ وَذَا قَلَمُكْ
كالنَّصْرِ والفتحِ شَمْلاً أنتَ جامِعُهُ ... لِكُلِّ خَيْلٍ وَغىً فُرْسَانُهَا حَشَمُكْ
وكالنُّهى والمنىٰ فيمَنْ شَدَدْتَ بِهِ ... للمُلْكِ عِصْمَةَ مشدودٍ بِهِ عُصُمُكْ[1]
نَجيبُ مُلْكِكَ لم تقعدْ به قَدَمٌ ... عن كلِّ سعيٍ عَلَتْ في فخرِهِ قَدَمُكْ
سَمَّيْتَهُ « مُنْذِرَ » الأَعداءِ لا عَدَمٌ ... منهُ الفتوحُ ولا البُشْرىٰ بِهِ عَدَمُكْ
ساعٍ مراتِبُكَ العليـا لهُ أَمَمٌ ... وكلُّ حظٍّ من الدنيـا بِهِ أَمَمُكْ
فَحَقَّهُ عَهْدُ من لا أنتَ مُتَّهِمٌ ... منهُ السَّدادَ ولا الإيثـارُ مُتَّهِمُكْ
عبدٌ غَدَا يومَ عاشوراءَ شاهِدَهُ ... في كُلِّ سمعٍ مطاعٍ عندَهُ كَلِمُكْ
للهِ من بَيْعَةٍ قادَ القلوبَ لهـا ... رشادُ حُكْمِكَ أوما أبدَعَتْ حِكَمُكْ
وقرَّ عيناً بمـــا أقْرَرْتَ أَعْيُنَنَا ... ما شاكَهُ اسْمَ الحَيَا واسْمَ الحياةِ سِمُكْ[2]
في دولةٍ للعلاَ أيامُهـا خَدَمُكْ ... وجنةٍ للمُنىٰ أثمارُهـا شِيَمُكْ
غَنَّاءَ مِمَّا تَغَنَّىٰ في حَدائقِهـا ... طيورُ يُمْنِكَ تَهْمِي فوقَهَا دِيَمُكْ
وأُعْلُ ولا زالَتِ الأملاكُ قاطِبَةً ... تعلو على الشُّمِّ من أطوادِها أَكَمُكْ
ولا خَلَتْ منك تاجاً للعِنانِ يَدٌ ... ولا تَخَلَّى ركابٌ حَلْيُهُ قَدَمُكْ

---

(١) جمع عصام: وهو الحبل ، ويمكن أن تكون بكسر العين وفتح الصاد أي جمع عصمة .

(٢) السم (بكسر السين وضمها) : لغة في الاسم .

وله يعزيه عن ابن له صغير توفي

[من المتقارب]

عزاءٌ وأَنت عَزَاءُ الجَميـع ... ومَنْ ذا سِواكَ لِجَبْرِ الصُّدوعِ؟
/ ومَنْ ذا سواكَ لرُزْءٍ جليلٍ ... تُسَلِّيـهِ أَو لمقـامٍ فَظيعٍ؟ [١٣٠ب]
ولولاكَ ما كانَ بالمستَطاعِ ... جَوىً ما لأَدناهُ من مُسْتَطيعِ
لَهَبَّ العويلُ هبوبَ الرِّياحِ ... فَعَفَّى السُّلُوَّ عَفـاءَ الرُّبوعِ
وفُلَّتْ ظُبىٰ كلِّ عَضْبٍ صقيلٍ ... وهُبَّتْ(١) ذُرىٰ كلِّ سُورٍ مَنيعِ
وأَقبَلَتِ الخيلُ من كلِّ أَوْبٍ ... تَجُرُّ أَعِنَّـةَ ذُلِّ الخضوعِ
لِنَجْمٍ تَلأْلأَ للآمِلينَ ... فَغَوَّرَ عنَّا بُعَيْـدَ الطُّلوعِ
وغَيْمٍ تَدَفَّقَ للرّاغِبينَ ... فأَقْشَعَ عندَ أوانِ الهُمُوعِ
فيا صَدْرُ هاتِ زفيرَ الضُّلوعِ ... ويا عَيْنُ هاتِي غزيرَ الدُّموعِ
لِأُسْعِدَ فيـهِ بُكاءَ السماءِ ... بِذَوْبِ الهجيرِ وصَوْبِ الرَّبيعِ
كَصَوْبِ خوافِقِهِ في الحَبيكِ(٢) ... وصَوْتِ مَغافِرِهِ في الدُّروعِ

---

(١) فعل « هب » (بتشديد الباء) إذا كان متعديا فإن معناه قطع أو شق .
(٢) أي القتال الشديد .

وأَجنادِهِ في فضاء[1] الثُّغورِ ... تَرُوعُ الأعادِيَ مِنْ كُلِّ رِيع[2]

بِسُمْرٍ تُفَجِّرُ من كُلِّ صَدْرٍ ... مَقَرَّ النفوسِ وَدَرَّ النَّجيعِ

وبِيضٍ تفيضُ عَلى المُلْحِدِينَ ... بموتٍ ذُعافٍ وسُمٍّ نَقيعِ

وجُرْدٍ يُنَفِّضْنَ أعْرَافَهُنَّ ... عَلَى كُلِّ مَصْرَعِ غاوٍ صَريعِ

فَفُزْ يا « مُظَفَّرُ » مِمَّنْ شَجاكَ ... بأَكْرَمِ ذُخْرٍ وأَزْكى شَفيعِ

تُصافِحُهُ عندَ بابِ الجِنانِ ... وتعلُو بِهِ في المَحَلِّ الرَّفيعِ

وفي ذِمَّةِ اللهِ أَصْلٌ كريمٌ ... يُسَكِّن من فقدِ بعضِ الفُرُوعِ

بِطُولِ بقاءٍ يَفِي بالزَّمانِ ... وصَفْوِ حياةٍ تَفِي بِالجَميعِ

— ١٤٨ —

وقال في المنصور منذر بن يحيى عند ابتناء ابنه
يحيى بن منذر رحمه الله

[من الطويل]

كَذَا ينتهي البَدْرُ المنيرُ إلى الشَّمْسِ ... وتَمْتَزِجُ النفسُ الكريمةُ بالنَّفْسِ

وتَلْتَحِمُ الأَنسابُ من بَعْدِ بُعْدِها ... وتدنو القلوبُ المُوحِشاتُ إلى الأُنسِ

(١) في الأصل : قضاء .
(٢) الريع : هو المرتفع من الأرض ، أو هو الطريق المنفرج في الجبل .

وتُجْمعُ شملَ الوَصْلِ من فُرْقَةِ القِلىٰ ... ويُرْفَعُ بَنْدُ الوَصلِ من مَصْرَعِ النُّكْسِ
كجمعِ «سُلَيْمانَ» النبيِّ بِصِهْرِكُمْ ... ذوي يَمَنٍ والشامِ والجِنِّ والإِنْسِ
وتأليفِ «ذِي القرْنَيْنِ» إذ هُدِيَتْ له ... كَرِيمَةُ «دارَا» دَعْوَةَ الرُّومِ والفُرْسِ
[١٣١ ب] / فأهلاً بذاتِ التَّاجِ من سَلَفِ العُلاَ ... إلى ابْنِ ذَوِي التِّيجانِ في سالِفِ الحَرْسِ(١)
إلى وارِثِ الأَحسابِ هُوداً وتُبَّعاً ... وباني العُلاَ بالدِّينِ سَمْكاً عَلَى أُسِّ
ولابِسِ حِلْمٍ قد تناهىٰ مَدىٰ النُّهىٰ ... وحاجِبِ مُلْكٍ قد عَلاَ حاجِبَ الشَّمْسِ
ويا رُبَّ حَرْبٍ أَسْمَعَتْهُ دعاءَها ... بِهِنْدِيَّةٍ عُرْبٍ وأَلْسِنَةٍ خُرْسِ
فكم سَلَّ من كَرْبٍ وأَنْقَذَ من عَمىً ... وَرَوَّحَ من رُوحٍ ونَفَّسَ مِنْ نَفْسِ
وأَسْبَلَ من غَيْثٍ ومَلَأَ من يَدٍ ... وكم فَكَّ من غُلٍّ وأَطْلَقَ من حَبْسِ
زَكا فَرْعُها في آلِ «ذِي النُّونِ» سُنَّةً ... بها رَاقَتِ الأَثْمارُ في يابِسِ الغَرْسِ
فلِلّهِ أَكْفاءٌ تدانَوْا لِصَفْقَةٍ ... من الصِّهْرِ قد جلَّتْ عن الغَبْنِ والوَكْسِ
وذَكَّرَهُمْ يومُ التخاذُلِ يَوْمَهُمْ ... بموتِ عهودٍ كُنَّ يَحْيَيْنَ بالأَمْسِ
فأَسْمَعَهُمْ داعي «تُجِيبَ» فمثَّلُوا ... (٢) الدَّاعي إلى الجودِ والبأْسِ
فيا ذِمَّةَ الصِّهرِ الذي شَدَّ عَهْدَهَا ... بخاتِمَةِ الآياتِ من [آيةِ](٣) الكُرْسِي

---

(١) الحرس: هو الدهر.

(٢) كلمة مطموسة لم نهتد إلى وجه فيها.

(٣) في الأصل: آيات، ولا يستقيم بها الوزن.

فَمَفَتْ رسومَ الغَدْرِ من ظاهرِ الثرى وخَطَّتْ وفاءَ العهدِ في صَفْحَةِ الشَّمْسِ
وسلَّتْ من الإقبالِ والهَدْيِ والهُدىٰ صوارِمَ لا تُثْنىٰ بِدِرْعٍ ولا تُرْسِ
إذا غَنِمَتْ جاءَتْكَ بالأَمنِ والمُنىٰ وإن غضِبَتْ أَنْحَتْ عَلَى الشُّومِ والتَّعْسِ
بسَرَّاءَ مِمَّا ثَبَّتَ اللهُ أَو مَحَا وشَحْنَاءَ مما يَنْسَخُ اللهُ أَو يُنْسِي
لها أَعْيُنٌ أَهْدىٰ إلى الحَقِّ من قَطًا وأَلْسِنَةٌ بالسِّلْمِ أَخطَبُ من « قُسٍّ »(١)
وما قَصَّرَتْ عن ساعِيَيْ آلِ مُرَّةٍ
لصُلْحِ «بني ذُبْيَانَ» والحَيِّ من «عَبْسِ»(٢)
وللهِ ما زُفَّتْ « ليحيى » كتائِبٌ مُرَوَّعَةُ الإقدامِ مُرْهِبَةُ الجَرْسِ
يُضِيءُ الدُّجىٰ من عِزِّ مَنْ حَلَّ وَسْطَهَا ويُظْلِمُ عنها ثاقِبُ الوَهْمِ والحِسِّ
ويُحْجَبُ بالرَّاياتِ في مُشْرِقِ الفَلَا ويُشْرِقُ بالإعظامِ في الظُّلَمِ الدُّمْسِ
وقد رُفِعَتْ رَفْعَ الحصونِ قِبابُها عَلَى حُلَلِ الإحصانِ والطُّهْرِ والقُدْسِ
وحُلِّيَتِ البِيضَ الصَّوارِمَ والقنا عَلَى الدُّرِّ والياقوتِ لُبْساً عَلَى لُبْسِ
هِداءٌ هَدىٰ سُبْلَ الرَّغائِبِ وانْتَحىٰ يُنَشِّرُ مَيْتَ السِّلْمِ من ظُلَمِ الرَّمْسِ
ويومُ بِناءٍ قد بَنىٰ فُرْجَةَ المُنىٰ بعُرْسٍ غَدَتْ منه المكارِمُ في عُرْسِ

---

(١) يعني الخطيب العربي المشهور قس بن ساعدة الإيادي.

(٢) يريد بساعيي آل مرة حرملة بن الأشعر بن صرمة بن مرة وابنه هاشم، وكان حرملة أول من سعى في الحمالة والإصلاح بين عبس وذبيان بعد الحروب الهائلة الواقعة بينهما، ثم مات، فواصل السعي في ذلك ابنه هاشم.

وقَصْرٌ تجَلَّى فيهِ « يحيى » و«مُنْذِرٌ» صَبَاحاً لمن يُضْحِي وبَدْراً لِمَنْ يُمْسِي

/ وقد أذَّنا في الأرضِ : حَيَّ ومَرْحَباً إلى المَشْهَدِ المذكورِ والمَنْظَرِ المُنْسِي [١٣١ب]

يُريكَ النجومَ الزُّهْرَ في مَجْلِسِ القِرى من الطَّاسِ والإبريقِ والجامِ والكأسِ

وسَقْيٌ يُنَسِّي الإلْفَ رِيقةَ إلْفِهِ وطُعْمٌ لهُ وقعُ الحياةِ من النَّفْسِ

وأمْواهُ وَرْدٍ في وُرُودِ حِياضِها شفاءُ الظِّماءِ الهِيمِ من غُلَّةِ الخِمْسِ

وغَيْمٌ من العُودِ الذَّكِيِّ تراكَمَتْ أعالِيهِ حتى كِدْنَ يُوجَدْنَ باللَّمْسِ

وغالِيَةٌ تكسو المشيبَ شَبابَهُ
وتُنْبِتُ سُودَ العُذْرِ[1] في الأوْجُهِ المُلْسِ

مكارِمُ أضْحَتْ للرجالِ مغانِماً بِلا نَصَبِ المُغْزِي ولا سُنَّةِ الخُمْسِ

فإنْ حَمَلَتْ من بعدِها سَيْفَ فِتْنَةٍ يَدٌ فتَخَلَّتْ من أنامِلِها الخَمْسِ

وإنْ أوْتَرَتْ قَوْساً إلى رَمْيِ مُسْلِمٍ
فلا انفَصَلَتْ عن مَقْبِضِ العَضْمِ[2] والعَجْسِ[3]

ولا ضاعَتِ الأنسابُ بالغَدْرِ والقِلَى ولا [بِيعَتِ] الأحسابُ بالثَّمَنِ البَخْسِ

ولا زالَ ما تَرْجُوهُ أقْرَبَ من غَدٍ ولا [انفَكَّ] ما تخشاهُ أبْعَدَ من أمْسِ

---

(١) في الأصل : الغدر ، والصواب ما أثبتنا ، ويعني بالعذر العذر (بضمتين) ، وسكن للضرورة ، وهو جمع عذار .

(٢) في الأصل : العصم ، والصواب ما أثبتنا ، والعضم : هو مقبض القوس .

(٣) العجس : هو موضع السهم من القوس وهو أجل موضع فيها وأغلظه .

— ١٤٩ —

وله أيضاً في المنصور أبي عامر رحمها الله ، ولها قصة طويلة

[من البسيط]

يا حَبَّذَا خَجَلُ التُّفاحِ في طَبَقٍ ... مُنَضَّدٍ بِجَنِيِّ الزَّهْرِ مُتَّسِقِ

فيهِ عُيُونُ بهارٍ قد أَحَطْنَ بِهِ ... نَوَاظِراً بِجُفُونِ العاشِقِ الأَرِقِ

كأَنَّ ما احْمَرَّ من تُفَّاحِهِ خَجَلاً ... بَدْرٌ بَدَا [قِطَعاً من حُمْرَةِ الشَّفَقِ]

في مَجْلِسِ المَلِكِ «المَنْصُورِ» يانِعَةً ... كأَنَّما غُذِيَتْ من جُودِهِ الغَدِقِ

— ١٥٠ —

وله رحمه الله تعالى قطعة في رسالة بين رئيسين يغبطهما بصلح

[من الطويل]

وأيُّ زِنادَيْ فتنةٍ أَوْرَيَا لها ... سَنَا صُبْحِ حَقٍّ في دُجى ليلِ باطِلِ

وسيفَيْنِ رَدَّ اللهُ غَرْبَ شَبَاهُمَا ... تَلَاقٍ بصَفْحَيْ واصِلٍ لِمُوَاصِلِ

حليفَيْنِ شَدَّا عَقْدَ ما احْتَلَفَا لَهُ ... ورَدَّا عليهِ عاطِفاتِ الوَسَائِلِ

وقال يمدح المنصور منذر بن يحيى
رحمهم الله في رسالة كتب بها إليه

[من المديد]

إِزْرَعِ المعروفَ حَزْناً وسَهْلاَ ... وأحصُدِ الكُفَّارَ سَبْياً وقَتْلاَ
/ واقْتَضِ الرحمنَ فتحاً قريباً ... كُلَّمَا جَلَّ تَنَاهَى(١) أَجَلاَّ [١٣٢م]
كُفْءَ ما أَوْلَيْتَ حمداً وشكراً ... وصَدَقْتَ اللهَ قَوْلاً وفِعْلاَ
وعَمَمْتَ الخَلْقَ عُرْفاً وَجُوداً ... ووَسِعْتَ الأَرضَ حُكْماً وعَدْلاَ
وبَهَرْتَ البَرَّ والبَحْرَ خُلْقاً ... عَمَّ إفضالاً كما خَصَّ فَضْلاَ
بِجبينٍ ما تجلَّى لخطبٍ ... يُظْلِمُ الإِصباحَ إلا تجلَّى
ويمينٍ عاهَدَتْ مَنْ سَقاهُ ... لا تَمَلَّ السَّقْيَ حتَّى يَمَلاَّ
وبعَزْمٍ أَلْبَسَ الدِّينَ [عِزاً](٢) ... مِثْلَمَا قد أَلْبَسَ الشِّرْكَ ذُلاَّ
وهِلالٌ في سماءِ « تُجيبٍ » ... حازَ تِمَّ المجدِ يَوْمَ أَهَلاَّ
وغَمَامٌ لم تَكَدْ تَمْتَرِيهِ ... منكَ رِيحُ النصرِ حَتَّى اسْتَهَلاَّ

(١) في الأصل : تنايا .
(٢) في الأصل : عدلا ، وما أثبتنا أنسب المقام .

سَيْفُ ضَرْبٍ لَمْ يَرُقْهُ حُلِيٌّ   وتراهُ بالدِّمـــاءِ مُحَلَّى
وسِنانٌ ما يَمَلُّ اسْتِنانًا   لَوْ تُوَلِّيهِ الرَّدىٰ ما تَوَلَّىٰ
كَلِفٌ بالطَّعْنِ والضَّرْبِ تامَتْ   قَلْبَهُ الحربُ جَمـالاً وَدَلاًّ
فَصَبَا في جاحِمِ الحربِ نَفْساً   وعَصىٰ في حاطِمِ الزَّحْفِ عَذْلاَ
فَتَم [ـامُ الوَصْلِ] أَلاَّ يُخَلِّي   لِجسومِ الشِّرْكِ بالهامِ وَصْلاَ
[ونِظامُ الشَّمْلِ أَلاَّ] يُبَقِّي   في ديارِ الكُفْرِ لِلْكفرِ شَمْلاَ
فَأَعْمُرِ الدنيا . . . . (١)   ساوَرَ الأُسْدَ وما تَمَّ شِبْلاَ
طرد [البأْ]ساءَ حتىٰ سَقَاهَا   بِكُؤوسِ الموتِ نَهْلاً وعَلاًّ (٢)
وسَقىٰ ماءَ الفَضاءِ دِماءً   كَنَدىٰ كَفَّيْهِ سَحًّا وَوَبْلاَ
في مَكَرٍّ قالَ لِلرُّمْحِ : رِفْقًا !   ومَجالٍ قالَ للسيفِ : مَهْلاً !
وتَلَقَّتْهُ العِــدىٰ بِصدورٍ   خَطَّ بالخَطِّيِّ فيهــا وأَمْلىٰ
وقَضىٰ بالهامِ لِلْجَوِّ عُــلْواً   وعَلى الأَشْلاءِ لِلتُّرْبِ سُفْلاَ
ورأى أَنَّ صدورَ العوالي   من صُدورِ الغَدْرِ بالهامِ أَوْلىٰ
فَدَنَتْ والسُّورُ يُومِي إِلَيْهـا   ويُنادِيهِنَّ : أَهْلاً وسَهْلا !
وعيونُ الخَلْقِ تسمو إِليهِ   فَدَنَا وَهْوَ مِنَ الْبَدْرِ أَعْلىٰ
صَلِيَتْ منهُ العِدىٰ بِسيوفٍ   حَرُّ نارِ اللهِ فيهِنَّ أَصْلىٰ

(١) بقية هذا الشطر مطموسة بشكل لم نتمكن معه من قراءة شيء منها .
(٢) في الاصل : وعدلا .

[١٣٢ب] / فَبِـهِ أُعْلِيَ قحطانُ فَخْراً[1] وبِهِ زُكِّي يَعْرُبُ أَصْلاَ
وبـه عَرَّفَنـاَ اللهُ أَنَّـا[2] سَنَرىٰ في خَلْقِـهِ لَكَ مِثْلاَ

— ١٥٢ —

وقال أيضاً يمدحه رحمها الله من جملة رسالة

[من الوافر]

ويومَ كَسَوْتَهَا رَهَجَ المُصلّىٰ تُنادِيها المُنىٰ : أَهلاً وسهلا !
مُجَلَّلَةً هوادِيهـــا بعِزٍّ يجلِّلُ أوجُهَ الأَعــداءِ ذُلاَّ
إذا ضَلَّ العجاجُ بهـا هَدَاها جبينُكَ أَنْ تُعرِّجَ أو تَضِلاَّ
وقدنَشَقَتْ[3] رِياحَ النَّصْرِ تُزْجِي غمامَ الموتِ أَبْرَقَ فاسْتَهَلاَّ
شوازِبَ كالقِداحِ مُساهِماتٍ ضَرَبْتَ بها العِدىٰ حَزْناً وسَهْلاَ
وكنتَ نَصِيحَهَا سِرّاً وجَهْراً وكنتَ أَمِينَهَا قولاً وفِعْلاَ
وكنتَ وَلِيَّ حُـكْمِ اللهِ فيهـا تُنِيرُ بنورِهِ صِدْقـاً وعَدْلاَ
فحازَ الغدرُ أَخْيَبَها سِهاماً وطِبْتَ ففُزْتَ بالقِدْحِ المُعَلّىٰ
فما جَلَتِ الدُّجىٰ شمسٌ تَجَلَّتْ كوجهِكَ في الوغى لما تَجَلّىٰ

(١) في الاصل : مفخراً .
(٢) في الاصل : أننا .
(٣) في الاصل : نشفت .

ولا راقَ الحُليُّ عَلَى سيوفٍ كسيفِكَ من دمائِهِمُ مُحَلّى
إذا الْتَقَتِ الفتوحُ عليكَ تترى فأَوْلى للمصابِ [بِهِنَّ أَوْلى] (١)
وجاءتْكَ المُنى صُوَراً تَوَالى فلا تَحْزُنْكَ [صَفْحَةُ ما تَوَلّى]
ولا يُؤْيِسْكَ أبراجٌ تَسَامَتْ بأَهْمَاجٍ فإِنَّ لَدَيْكَ [أعْلى]
ورُبَّ عُقابِ شاهِقَةٍ تَعَلّى بها أَمَلٌ إلى [يَدِكُمْ تَدَلّى]

— ١٥٣ —

وقال فيه أيضاً رحمها الله ، ووقعت في بعض رسائله (٢)

[من البسيط]

إلىٰ شَجاً لا عِجٍ في القَلْبِ مُضْطَرِمِ
جاشٍ (٣) إليكَ بِهِ بَحْرٌ (٤) [مِنَ الكَلِمِ] (٥)

---

(١) قص طرف الصفحة ابتداء من هذا الموضع حتى نهاية الصفحة ، وقد ذهبت في هذا القص أواخر الابيات ، فعملنا على استكمالها بما بدا لنا من سياق الابيات ، وقد وضعنا ما أضفناه بين حواصر .

(٢) أورد ابن بسام جزءاً من هذه الرسالة وثمانية أبيات منها في « الذخيرة » ق ١ - ١ / ٤٨ - ٥٠ .

(٣) ضبطت في الاصل وكذلك في الذخيرة بفتح الشين ، ولا يستقيم الوزن بهذا الضبط إلا مع زحاف قبيح يغني عنه الضبط الذي أثبتناه ، وتكون « جاش » بذلك اسم فاعل من جشا ، وجشأ (بالهمز) وجشا (بتخفيف الهمزة) بمعنى جاش .

(٤) ذخ : مجر .

(٥) هذه الكلمات ساقطة في البتر الذي أسلفنا الإشارة إليه ، والتكملة عن الذخيرة .

وَدَمْعِ أَجفانِ عَيْنٍ قد شَرِقْنَ بِهِ حتى تَرَقْرَقَ بينَ الرِّقِّ [والقَلَمِ][1]

دَيْناً[2] لِذِي أُسْرَةٍ دُنْياً وَفَيْتُ[3] بِهِ ورَحْمَةً وُصِلَتْ مِنِّي [بذِي رَحِمِ][1]

إكرامُهُ كَرَمِي وذُلُّهُ أَلَمِي وظُلْمُهُ ظُلَمِي وَعُدْمُهُ [عَدَمِي]

إذا رَدَدْتُ سيوفَ الهندِ عَنْ دَمِهِ فإنَّما رَجَعَتْ[4] [عَنْ مُهْجَتِي وَدَمِي][1]

/ وإنْ ضَرَبْتُ رِواقاً دونَ حُرْمَتِهِ فإنَّها سُتُرى مُدَّتْ عَلَى حُرَمِي [133م]

لَهْفِي عليهِ وَقَدْ أَعْوَتْ لَهُ نُكَبٌ لا تستقِلُّ لها ساقٌ عَلَى قَدَمِ

فباتَ يُسْعِرُ بَرْدَ الليلِ من حَزَنٍ[5] ويَسْتَثِيرُ[6] دموعَ الصَّخْرِ من أَلَمِ

وما بِعَيْنَيَّ عن مثواهُ من وَسَنٍ وما بِأُذْنَيَّ عن شكواهُ من صَمَمِ

لو أنَّها كُرْبَةٌ منها أُنَفِّسُها بالمارنِ اللَّدْنِ أو بالصَّارِمِ الخَذِمِ[7]

لكنَّها كُرْبَةٌ جَلَّتْ مواقِعُها عن حَوْلِ مُتَّئِدٍ أو صَوْلِ مُنْتَقِمِ

فما هَزَزْتُ لها إلا شَبَا قَلَمٍ مُسْتَنصِرِ العفوِ أو مُسْتَصْرِخِ الكَرَمِ

---

(1) هذه الكلمات ساقطة في البتر الذي أسلفنا الاشارة إليه ، والتكملة عن الذخيرة .

(2) في الاصل « دنيا » ، وقد آثرنا قراءة الذخيرة .

(3) في الاصل « وصلت » ، ورواية الذخيرة تبدو لنا أفضل .

(4) ذخ : رفعت .

(5) ذخ : حرق .

(6) في الاصل : ويستشير .

(7) في الاصل : الخدم .

إلى(١) الذي حَكَمَتْ بالعفوِ قُـدْرَتُـهُ
لما دَعَتْـهُ المُنىٰ : اُحْـكُمْ يا أبا الحَـكَمِ !

وَمَنْ(٢) إذا ماالْتَظىٰ في صدْرِهِ حَنَقٌ ... فبارِقٌ صَعِقٌ أو مُغْدِقٌ الدِّيَمِ
مَتىٰ تَجَرَّعَهُ حَرَّ القَيْظِ(٣) مُغْتَرِباً ... فَـاُبْشِرْ لِغُلَّتِهِ بالبارِدِ الشَّـبِمِ
تَلْقىٰ الـكتائِبَ في إقدامِ مُصْطَـلِمٍ ... وعُذْرَ جانيهِ في إعراضِ مُنْهَزِمِ

— ١٥٤ —

وقال فيه أيضاً رحمها الله تعالى

[من الخفيف]

إِنَّ رَوْضاً لم تَسْقِـهِ مُنْـذُ عامٍ ... لخوفٌ عليـهِ حَرُّ الأُوامِ
[جارُكَ اللهُ](٤) كيفَ يظمَأُ رَوْضٌ ... أَنتَ جارٌ لهُ وبَحْرُكَ طَامِ
فائِـحٌ [من شَذَاكَ](٤) يوماً فيوماً ... أَنْ سَقاهُ نَدَاكَ عامــاً بِعـامِ
وَفِّـهِ [من نَدَاكَ أَوْفىٰ نصيبٍ ... فَجَزَاه](٤) الـكِرامِ رَهْنُ التَّمامِ

(١) في الاصل : إن ، ولعل الاصح ما أثبتنا .
(٢) في الاصل : يامن .
(٣) في الاصل : الغيظ .
(٤) هذه الكلمات مطموسة في الاصل لم تبق منها إلا بعض الحروف استكملنا على أساسه ما أثبتنا مع المحافظة على الوزن والمعنى .

وأَحَقُّ الرياضِ بالسَّقْيِ رَوْضٌ رَاهِنٌ شُكْرُهُ مَعَ الأَيامِ
[والأَيَادِي][1] أَهِلَّةٌ فإِذا [ما][2] تُمِّمَتْ أَشْبَهَتْ بُدور التَّمامِ
ورياضُ [الأَشرافِ] أَكْرَمُ من أَنْ تَتَبَاهَى إلا بِسَقْيِ الكِرامِ
[3] وَعِيدٌ وفَصْدٌ[4] أَلِفَا مِن سَلَامَـةٍ وسَلَامِ
وكلا الطَّالِعَيْنِ سَعْدٌ ويُمْنٌ صادِقُ الفَأْلِ جائِزُ الأَحْكامِ
راحَـةٌ فُجِّرَتْ بِتَفْجِيرِ رَاحٍ ودَمٌ صائِبٌ لِصَوْبِ مُدَامِ
وأَرى العيدَ يقتضِي منكَ وعداً كَاقْتِضاءِ الثَّرَى[5] لِصَوْبِ الغمَامِ
ودَوَاءٌ مُضَمَّنٌ لِشِفَـاءٍ وسُرورٌ مُيَسَّرٌ بِـدَوَامِ

---

(١) هذه الكلمات مطموسة في الأصل لم تبق منها إلا بعض الحروف استكملنا على أساسه ما أثبتنا مع المحافظة على الوزن والمعنى.

(٢) إضافة يقتضيها الوزن، ويمكن كذلك أن يكون البيت على هذه الصورة:

والايادي أهلة فاذا تـ (ـمَّ) متها أشبهت بدور التمام

(٣) لم نستطع تبين شيء من هذا الموضع.

(٤) في الاصل: وقصد، ونظنها تحريفا لـ«وفصد» التي أثبتنا، وذلك لأن هذه القطعة كما يبدو من سياقها إنما قيلت في منذر بن يحيى تهنئة له بعيد أتى موافقا لشفائه بعد قيامه بالفصد، ويدل على ذلك قوله بعد:

راحة فجرت بتفجير راح ودم صائب لصوب مدام

(٥) في الاصل: كاقتضاك الثوى، ولعل الصواب ما أثبتنا.

[١٣٣ب] / وقال يمدح مباركاً ومظفراً صاحبَيْ بلنسية وقد دُعِيا إلى ولاية طليطلة أعادها الله تعالى

[من الطويل]

أُهَنِّيكُماَ ما يَهْنِيء الدِّينَ مِنكُماَ هُدىً وندىً فلْيَسْلَمِ الدِّينُ واسْلَماَ
وشهرٌ تولىَّ راضياً قد بلغْتُماَ مداهُ كِراماً قُوَّمَ الليلِ صُوَّما
وفِطْرٌ تحلىَّ بالصلاةِ إلى الَّذِي دَعَوْناهُ ألاَّ يُوحِشَ الأَرْضَ مِنكُماَ
فأَسْفَرَ عن وجْهٍ تجلىَّ سَناكُماَ وصدقٍ تجلىَّ بالسلامِ عَلَيْكُماَ
وأَكْرِمْ به فِطراً يُبَشِّر بالمنىٰ وعِيداً مُعَاداً بالسرورِ لَدَيْكُماَ
ولم أَرَ يوماً كان أَبْهَجَ مَنْظَراً وأَسْنىٰ وأَسْرىٰ في القلوبِ وأَكْرَمَا
وأَكْبَرَ أَقْماراً عَلَوْنَ أَهِلَّةً وعالَيْنَ في جَوٍّ من النَّقْعِ أَنْجُماَ
ولا مَلِكاً قد عظَّمَ اللهُ قَدْرَهُ أَقَلَّ اختيالاً منكُماَ وتَعَظُّماَ
يُضَاحِكُ فيه الشمسُ دُرًّا وجَوْهَراً ويحسُدُ منهُ الرَّوْضُ وَشْياً مُنَمْنَماَ
وخُطَّابُ أَمرِ الثَّغْرِ قد صَدَقَتْهُمُ عيونٌ يُعَفِّينَ الحديثَ المُتَرْجَماَ
خَلَتْ لكُماَ من كلِّ بَعْلٍ(١) ومالِكٍ ونادتْكُماَ للنَّصْرِ فَذًّا وتَوْأَماَ

(١) في الاصل : فعل .

دواليْكُماَ إنَّ الرَّمايا لِمَنْ رَمىٰ ... ودُونَكُماَ إنَّ العزيزَ لِمَنْ حَمىٰ
فإنَّ جَنِيَّ الباسقاتِ لمَنْ جَنىٰ ... وإنَّ سماءَ المكرُماتِ لِمَنْ سَماَ
وما تَيِّمَ(١) الأخطارَ والرُّتَبَ العُلىٰ ... كَمَنْ باتَ [مَشْغُوفاً بِهِنَّ] مُتَيماَ
ومَنْ رَفَعَ الأعلامَ في السِّلْمِ والوغىٰ ... لِيجعلَها للحقِّ والعدلِ سُلَّماَ
ومنْ ليسَ يرضىٰ الفضلَ إلا مُبادِئاً ... ولا يصنَعُ المعروفَ إلا مُتَمِّماَ
ومن لا يرى نَيْلَ المراتِبِ مَغْنَماً ... لِمَنْ قد يَرىٰ بَذْلَ الرَّغائِبِ مَغْرَماَ
ومن حَدَّ ألاَّ يُورِدَ الماءَ خيلَهُ ... غداةَ الوغى حتّىٰ يخوضَ بها الدَّما
ومن ليسَ يرضىٰ حُكْمَ يُمْناهُ في العِدىٰ
إذا لم يَكُنْ فيه النَّدىٰ مُتَحَكِّماَ
ومن يَسَّرَ الإسلامَ بالسِّلْمِ قادِماً ... وأنذرَ حِزْبَ البغْيِ بالسيفِ مُقْدِما
مكارِمُ تعتامُ الكِرامَ فلا تَبِتْ ... كريمةُ هذا الثَّغْرِ منهنَّ أيِّما
فَشُدَّا لها مِيثاقَ مَهْرٍ مُؤَجَّلٍ ... وسُوقَا إليْهَا المَهْرَ مَهْراً مُقَدَّما
/ فقد لَبِسَتْ بُرْدَ الوفاءِ وَقَلَّدَتْ ... ترائِبَها عِقْدَ الوفاءِ مُنَظَّماَ [١٣٤م]
وقد أشرَقَتْ مِنْ فوْقِ «تاجُو» مُنيفَةً ... بتاجِ هِلالٍ قد تَكَلَّلَ أنجُماَ
وأَنَّىٰ بها عن كُفرِها ومَلِيكِها ... وبالهائِمِ المُشْتاقِ عَنْهاَ وعَنْكُما
وفِلْذَةُ قَلْبِي في حِماها رَهِينَةً ... وإنسانُ عَيْنِي في ذَرَاها مُخَيِّماَ

(١) في الأصل : يتم .

تَقَسَّمَ رَيْبُ الدَّهْرِ والنَّأيِ شملَنا	وقلباً غدا للبَيْنِ نَهْباً مُقَسَّما
فمـا نأتَسِي إلا أسىً وتعَزِّياً	وما نَلتقِي إلا كَرىً وتَوَهُّمَا
لياليَ كالإعدامِ طَوَّلَها الأسى	وطاوَلْتُهَا حَوْلاً وحَوْلاً مُجَرَّمَا
أَسَهْماً رماهُ عن قِسِيِّ جَوانِحِي	فِراقٌ فَوَالى منـهُ قَلْبِيَ أَسْهُمَا
بِذِكراكَ شاجَيْتُ الحَمامَ فَلَوْ وَفَى	لأَنباكَ عن شَجْوِي إذا ما تَرَنَّما
وإنْ يَرْعَ لِي وَكْفُ الحيا حَقَّ مُسْعِدٍ	يُخَبِّرْكَ عن دَمْعِي إليكَ إذا هَمَى
فَكَمْ عُذْتُ من لَيْلِ الهموم بِلَيْلَةٍ	تركتُ بها الأجفانَ حَسْرَى وَنُوَّما
فأَسْرَيْتُها بِالشِّعْرَيَيْنِ مُفَرَّطاً	وأَفْنَيْتُها بالقلبِ عنها مُخَيِّما
وَكم ليلَةٍ ليلاءَ وافَيْتُ صُبْحَها	أَذَرَّ عَلى عيني ظلاماً وأَظْلَمَا
دُجىً مثل جِلْبابِ السماءِ اسْتَمَرَّ [بي] (١)	فَقَنَّعَ فَوْدَيَّ المشيبَ وَعَمَّمـا
وصبحاً كسا الآفاقَ نُوراً وبهجةً	ووَجْهِيَ قِطْعاً من دُجى الليلِ مُظْلِما
وكم لُجَّةٍ خضراءَ من [لُجَجِ الرَّدَى] (٢)	ركبتُ لهـا في الليلِ أَظْلَمَ أَدْهَمَا
كسا الصُّبْحُ [أَعلاهُ مُلاءً مُهَدَّباً](٢)	وأَسفلَهُ الإظلامُ بُرْداً مُحَمَّما
إذا رَقْرَقَتْ رِيحُ الصَّبَا من جَناحِهِ	تَحَمَّلَ أُكْمَ الموتِ غَرْقَى وعُوَّما

(١) زيادة يقتضيها الوزن .
(٢) مطموسة في الأصل لاتبدو إلا بقايا من حروفها .

فأَهْوِ بِهِ في مُفْرَجِ الموتِ حَيَّةً ... وأَعْلِ به في هَضْبَةِ الحَيْنِ أَعْصَمَا

خطوباً لبستُ الصَّبْرَ حتىٰ جَعَلْتُها ... لِمَرْقى أَيادِي العامِرِيِّينَ سُلَّمَا

فأَصْبَحْتُ نَجْماً في سماءِ كَرامَةٍ ... مُحَيّاً مُفَدَّىً بالنُّفوسِ مُعَظَّمَا

مَليكَيْ زمانَيْنا وجارَيْ دِيارِنَا ... « بِزاهِرَةِ » (١) المُلْكِ التي أَنْجَبَتْهُمَا

بِعِزٍّ لواءٍ يبلُغُ النَّجْمَ إِنْ عَلاَ ... وبَحْرِ عَطاءٍ يَرْغَبُ الأَرْضَ إِنْ طَمىٰ

وخيلٍ تَهُدُّ الأَرضَ تَسْرِي وتَغْتَدِي ... تقودُ ملوكَ الأَرْضِ أَسْراً ومَغْنَمَا

أَماوالقُصورِ البِيضِ منها وما حَوَتْ ... من الصِّيدِ كالآسادِ والبِيضِ كالدُّمىٰ

/ وما عَمَرَتْ منها الليالِي وغَيَّرَتْ ... وشَيَّدَ أَمْرُ اللهِ فيها وهَدَّما [١٣٤ب]

وعافٍ قُصورٍ من قصورٍ بَلاقِعٍ ... إِذا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فيهِنَّ أَظْلَمَا

لقد سُلِّيَتْ عنها بِلادٌ حَوَتْكُما ... وقد عُوِّضَتْ مِنها جُفونٌ رَأَتْكُما

فَآواكُما ذُو العَرْشِ في ظِلِّ أَمْنِهِ ... ولا حَلَّ عَقْدَ النَّصْرِ منهُ عَلَيْكُمَا

جَزَاءً لِما أَوْلَيْتُمَا وكَفَيْتُمَا ... وآوَيْتُما من غُرْبَةٍ وكَنَفْتُمَا

---

(١) يقصد بالزاهرة الضاحية التي بناها المنصور بن أبي عامر بقرطبة ، ويشير بذلك إلى كون مبارك ومظفر ممدوحيه من موالي الدولة العامرية .

وقال يمدح المظفر يحيى بن منذر رحمهم الله تعالى

[من المتقارب]

هَرَبْنَـا إِليـكُمْ فآوَيتمُونا ... وخِفنـا الحُتُوفَ فـأمَّنتمُونا
وشَرَّدَنَا السَّيفُ من أَرْضِنَا ... سِراعـاً إِلَيـكُمْ فآسَيتمُونا
وهَوَّنَ أَقْـدارَنا الاغْـتِرابُ ... على كُلِّ خَلْقٍ فأَكْرَمتمُونا
وأَوْحَشَنَا الدَّهْرُ في كُلِّ بَرٍّ ... وفي كلِّ بحرٍ فأَنَّستمُونـا
وكم قد دَعَوْنا قريبَ الدِّيارِ ... وأنتُمْ عَلَى البُعْـدِ لَبَّيتمُونا
وقابَلتُمُ دُونَنَـا المُعْتَـدِينَ ... ونحنُ بأَسوارِكُمْ عائِـذُونا
ولاقيْتُمُ البيضَ والسُّمْرَ عَنَّا ... ونحنُ بِعَقْوَتِـكُمْ آمِنُونا
فأَسْرَيْتُمُ الليلَ حِفظاً لَنـا ... ونحنُ عَلَى فُرُشِـكُمْ نائِمُونـا
وبالأَمْسِ وَدَّعْتمُونا كِراماً ... وأُبْتُمْ إِلَيْهـا فَبَشَّرْتمُونـا
بأَفْرَحِ بُشْرى تَسُرُّ النفوسَ ... وأَعْظَمِ فَضْلٍ يُقِرُّ العيُونـا
بأَنَّـا نَعودُ لِأَوْطانِنـا ... وقد كانَ يُحْسَبُ أَلاَّ يَكُونا
فجازاكُمُ اللهُ عن سَتْرِنا ... بأَفْضَلِ ما جُوزِيَ المُحْسِنُونا
وآواكُمُ اللهُ في ظِـلِّهِ ... مُقَارَضَةً حِينَ آوَيْتمُونـا

وقال على قافية الصاد يمدح المنصور منذراً من جملة رسالة

[من الخفيف]

ثُمَّ أَقْدَمْتَهُنَّ شُعْثَ النَّوَاصِي   يتهَادَيْنَ في فُضُولِ الدِّلاصِ
تحتَ بِيضٍ كأَنَّما صَقَلُوهَا   بالَّذي أَضْمَرُوا من الإِخْلاصِ
وظباءٍ خاضَتْ بِهِنَّ المَذَاكِي   في تِلاعٍ من الدِّماءِ غِصاصِ
/ [يَنْتَعِلْنَ الخدودَ من تحتِ حُجْنٍ](1)   قد تَلَفَّفْنَ في شُعورِ النَّوَاصِي [١٣٥ م]
بعدَ ضَرْبٍ ما قَتْلُهُ لِمُقِيدٍ   وطِعانٍ ما جُرْحُها لِقِصاصِ
وابْتِدارِ النَّجاءِ وَهْوَ غَلاءٌ   بنفوسٍ عَلَى الحتوفِ رِخاصِ
تَنْطِقُ البيضُ في الطُّلَى، والعَوَالي   في الكُلَى أَبْشِرِي بِفَوْتِ الخلاصِ!
لَوْ رَكِبْتُمْ مِنَّا الرِّياحَ فِراراً   لَتَرَدَّى بِكُمْ رُكوبُ المَعَاصِي
كَمْ دُعِيتُمْ أَنْ لاتَ حِينَ شِقَاقٍ   فأَبَيْتُمْ، فلاتَ حِينَ مَناصِ!

---

(١) هذا الشطر مطموس في الأصل طمساً شديداً، وقد اجتهدنا في قراءته بقدر ما سمح به ما بقي من حروفه.

— ١٥٨ —

وقال ـ سمح الله وعفا عنه بمنه ـ يستهدي نبيذاً من كاتب اليهود

[من الخفيف]

قَـدْ خَطَبْنَا وَقَـدْ أَجازَ الوَلِيُّ   بعدَ عِلْمٍ أَنَّ الخطيبَ كَفِيُّ

وبَعَثْنَا الصَّداقَ نَثْراً ونَظْماً   فَمِنَ الحَقِّ أَنْ تُزَفَّ الهَدِيُّ

يا أَبا جَعْفَرٍ ، أَمَا[1] بَعْدَ ظِمْءٍ   جاوَزَ الخِمْسَ أَنْ تُراحَ المَطِيُّ ؟

أَمِنَ العَدْلِ أَنْ تَجِفَّ حَشَاهَا   وبِجَمَّاتِهَا لَدَيْكَ الرَّكِيُّ[2]

— ١٥٩ —

وقال يمدح المنصور منذر بن يحيى رحمهم الله تعالى من جملة رسالة

[من مجزوء الكامل]

السيفُ أَبْهى للعُلاَ   والحَزْمُ أَبْلَغُ في المَدىٰ

وشَرَائِـعُ الحَقِّ الَّذي   يَمَّمْتَ أَهْدىٰ لِلْهُدىٰ

---

(١) في الأصل : وما .

(٢) جمع ركية (بفتح الراء وتشديد الياء) : وهي البئر .

[وعواقِبُ الأَيَّامِ] أَوْ   لى أَنْ يَفِينَ لِمَنْ وَفى
والغَــدْرُ أَقْبَحُ ما تَرَ   وَّدَ مَنْ دَنَا أَوْ مَنْ نَأَى
لو تَغْدِرُ الشَّمْسُ انْتَهَتْ   في دُونِ مقدارِ السُّهَا
أَو دَبَّ غَدْرٌ في الجِبا   لِ لَعُدْنَ أَمْثالَ الحَصى
وإِقالَةُ العَثَرَاتِ أَحْـ   ـيَا لِلنُّفوسِ مِنَ الرَّدى
نَفْسٌ إِذا أَحْيَيْتَهَا   فَكَأَنَّما تُحْيِي الْوَرى
واللهُ قد ضَمِنَ الجَزَا   ءَ لِكُلِّ مُقْتَدِرٍ عَفَا
وهُوَ الَّذِي أَوْحى بِأَ   نَّ الْعَفْوَ أَقْرَبُ لِلتَّقى
وسَلامُ من يُسْمي السَّلا   مَ عَلَيْكَ ما مَتَعَ الضُّحى

ـــ

— ١٦٠ —

/ وقال يعزي ابن خطاب المرسي[1] بابنه رحمهم الله تعالى [١٣٥ ب]

[من الطويل]

يا[2] صَفْوَةَ الأَجفانِ من عَبَرَاتِها   ومُدَّخَرَ الأَضلاعِ من زَفَرَاتِها

(١) لم نتحقق من شخصية ابن خطاب هذا ، على أن الذي نعرفه هو أن بني خطاب كانوا بيتا ذا رياسة ونباهة وشرف في مرسية Murcia بشرق الأندلس وقد كان منهم عزيز بن خطاب الذي ولي ملك مرسية في القرن السابع الهجري (انظر المغرب لابن سعيد ٢ / ٢٥٢ — ٢٥٣ والمراجع المذكورة في حاشية هذا الموضع) .

(٢) كذا ، ولعلها «أيا» ، ولو أنه من الممكن أن يكون قد لحق هذا ـ

هلمّي إلى أمّ الرّزايا فأسْعِدِي		نفوساً يضيقُ الدّهْرُ عن حَسَرَاتِها
لخطبٍ رَمى في آلِ خَطّابَ سَهْمَهُ		فَفُجِّعَتِ الدُّنيا بأسْرى سَرَاتِها
فيا عَبْرَةَ الأيّامِ بالقمرِ الّذي		بِهِ عاذَتِ الأيّامُ من عَبَرَاتِها
ويا غَمْرَةً للمَوْتِ غالَ حِمامُها		فتىً أنقَذَ الأحْرارَ من غَمَرَاتِها
ويا دَوْحَةَ العزِّ التي قادَتِ المُنى		إلى باسِقِ الأغْصانِ من شَجَرَاتِها
لَئِنْ فاتَني صَرْفُ الحِمامِ بِظِلِّها		لقد أخْلَفَتْ لي من جَنى ثَمَرَاتِها
وإن غاضَ عَيْنَيْ ماءُ دِجْلَةَ حَيْنُها		لقد أغْرَقَتْ أرْضِيَّ بَعْدَ فُرَاتِها

— ١٦١ —

وقال في يحيى بن علي بن حمود رحمهم الله يسأله الجواز
إلى الأندلس من جملة رسالة كتب بها إليه

[من البسيط]

وفي غَيَابَاتِ أطْبَاقِ الخطوبِ شَجٍ		بالبَيْنِ يَيْأَسُ أحياناً ويَنْتَظِرُ
مُظاهِرٌ بَيْنَ لَيْلَيْ كُرْبَةٍ ودُجىً		لا يُرْتَجى لَهُمَا فَجْرٌ ولا سَحَرُ

— المطلع ما يسميه العروضيون بـ «الخرم»، وهو ذهاب المتحرك الأول، وهو كثير في الشعر.

قدأُخْرِسَ الدهرُ منهُ مَنْطِقاً هتفَتْ عنهُ الرَّزايا : أَلاَ غادٍ فَمُعْتَبِرُ ؟!
لِمُعْتَلِي هِمَّةٍ بينَ النجومِ هَوَتْ بِهِ النجومُ [بِرُزْءٍ مَا] لَهُ وَزَرُ
وتلْكَ آثارُهُ بالمَشْرِقَيْنِ سَنًا للعينِ والعَيْنُ لا حَظٌّ ولا أَثَرُ
حانٍ عَلَى كَرِشٍ[1] منثورةٍ سُلُبٍ يكادُ من شَجْوِهِنَّ النَّجْمُ يَنْتَثِرُ
أَبْرَزْنَ من سُتُرِ الإِكرامِ وانسَدَلَتْ من الهوانِ علَيْنَا بعْدَهُ سُتُرُ
يُخْفِي التعفُّفُ مثْوَانَا فَلَيْسَ لِذِي أُنْسٍ إلى وَحْشِنا سَمْعٌ ولا بَصَرُ
ولا يَدٌ غيرَ أَيدِي الظُّلْمِ تَعْرِفُنا ولا بغيرِ دُموعِ العينِ [نَنْتَصِرُ]
نَرْعى الهَشِيمَ ونَمْتَصُّ الثِّمارَ وقَدْ أَظَلَّ أنهارَنَا الأغصانُ والثَّمَرُ
والأَرضُ مَضْجَعُ أَبْشَارٍ مُمَهَّدَةٍ لها الأَرائِكُ في الأَكْنَانِ والسُّرُرُ
وتحتَ أَجْنِحَةِ الإِشفاقِ حانِيَةٌ (حُمْرُ الحواصِلِ لاماءٌ ولا شَجَرُ)[2]
/ . . . .[3] [١٣٦م]
إِذا تَضَرَّمَ [بالشَّكْوَى تَحَلَّلَهُ] وَجْهٌ بماءِ الحَيَاءِ العِدِّ يَنْفَجِرُ

---

(١) الكرش عيال الرجل وصغار ولده.

(٢) هذا شطر بيت مشهور للحطيئة جرول بن أوس العبسي وأوله : « ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ » ، وهو من قطعة في استعطاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه . انظر ديوان الحطيئه بشرح أبي الحسن السكري — نشر أحمد بن الأمين الشنجيطي ص ٨٠ . وقد جاء في الديوان « زغب الحواصل ... »

(٣) هذا البيت مطموس طمسا كاملا لايكاد يتبين منه شيء.

وهلْ بسَمْعِكَ يا «يحْيَىٰ» ـ حَيِيتَ لَنَا ـ عن دَعْوَتِي زَوَرٌ أو عَنْكَ لِي وَزَرُ[1] ؟
وهَلْ بِمَدْحِكَ أَسْتَقْضِيكَ عارِفَةً ؟ بَلِ الغَمامُ بِطَبْعِ السَّكْبِ يَنْهَمِرُ
وإنَّ أَوْلَىٰ بِمُهْدٍ فيكَ مِدْحَتَهُ لو جاءَ قَبْلُ مِنَ التَّقْصِيرِ يَعْتَذِرُ
وأَيْنَ نَظْمِي ونَثْرِي من حُلَىٰ مَلِكٍ تُتْلَىٰ بِمَفْخَرِهِ الآياتُ والسُّوَرُ
وكيفَ يَبْلُغُ سَبْقِي في مَدَائِحِهِ مَدىً تقاصَرَ عنهُ الجِنُّ والبَشَرُ
لِيَهْنِكَ الفِطْرُ والأَعيادُ تَتبعُهُ في عِزِّ مُلْكِكَ ما في صفوِهِ كَدَرُ
والنَّصْرُ مُتَّصِلٌ والفَتْحُ مُقْتَبَلٌ سارٍ فَمُدَّلِجٌ غادٍ فَمُبْتَكِرُ
وقد تسابَقَتِ البُشْرَىٰ إليكَ بِما بهِ توالَتْ إلى أعدائِكَ النُّذُرُ
فالْبَسْ ثيابَ ثَنَاءٍ حَلْيُ عاتِقِها سيفٌ عَلَى الثَّغْرِ لا يُبْقِي ولا يَذَرْ
لعلَّنَا نَرِدُ الماءَ الذي صَدَرَتْ عنهُ الحوائِمُ وِرْداً ما لَهُ صَدَرُ
وتَنْجَلِي ظُلُماتُ الخطْبِ عن أُمَمٍ لا الشَّمْسُ آفِلَةٌ عنها ولا القَمَرُ
بأَوْجُهِ الفاطِمِيِّينَ التي شَهِدَتْ شمسُ الضُّحىٰ أَنَّها في وجهِها غُرَرُ

---

(١) في الأصل : زور ، ولعل الصواب ما أثبتنا.

وقال في إدريس بن علي (*) رحمهم الله تعالى بسبتة يهنئه بمولود :

[من الطويل]

أَهَلَّ عَلى الإِسْلامِ « أَللّٰهُ أَكْبَرُ » ! هِلالٌ بنورِ [السَّعْدِ والحَقِّ مُقْمِرُ]

أَغَرُّ نما [في الغُرِّ] من آلِ هاشِمٍ ووافَى بـه يومٌ أَغَرُّ مُشَهَّرُ

به زِيد [في آلِ النَّبِيِّ] مُحَمَّدٍ حسـامٌ وبَحْرٌ بالنَّدَى يَتَفَجَّرُ

(*) هو إدريس بن علي بن حمود الحسني ، وأبوه علي بن حمود الذي كان أيضاً ممن مدحهم ابن دراج هو أول من ولي الخلافة بالأندلس من الحسنيين العلويين ، أما إدريس فقد كان واليا على مالقة Málaga ، وكان أخوه يحيى والياً على سبتة ، فلما ولي عمها القاسم بن حمود الخلافة بقرطبة بعد مصرع أخيه علي في سنة ٤٠٨ (١٠١٨) اتفق إدريس ويحيى على خلع عمها القاسم ، وجاز يحيى ابن علي إلى مالقة وأناب أخاه إدريس عنه في حكم سبتة وطنجة والعدوة الإفريقية ، ويبدو أن إدريس بقي والياً على هذه المنطقة طوال خلافة أخيه يحيى الملقب بالمعتلي (وهـــو أيضاً من ممدوحي ابن دراج) حتى قتل يحيى في قرمونة سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) ، وحينئذ خاطب زعماء البربر إدريس واستدعوه ، فأجاز إلى مالقة ، وبايعه بالخلافة حبوس بن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة وغيره من أمراء البربر فضلا عن زهير العامري صاحب مدينة المرية Almeria ، وتلقب باسم « المتأيد بالله » وبقيت على طاعته سبتة ومالقة وغيرها من مدن الأندلس والمغرب حتى أدركته وفاته في سنة ٤٣١ (١٠٤٠) .

[فَأُدْرِكَتِ] الآمالُ غاياتِ سُؤْلِهَا وأُعْطِيَتِ الأيّـامُ ما تتخيّرُ
[وقامَ] سريرٌ للخـلافةِ ثابتٌ وسَرْجٌ ومِحْرابٌ وتاجٌ ومِنْبَرُ
[وما النّاسُ] إلا آمِلٌ ومُؤَمَّلٌ وما الدَّهْرُ إلا مُبْشِرٌ ومُبَشِّرُ
وأيامُ مَحْيانا حـدائِقُ تَزْدَهِي وأَوْجُهُ دنيانا كواكِبُ تُزْهِرُ (١)
فَدُومُوا لهذا الدِّينِ حِصْناً ومَوْئِلاً فأَنْتُمْ له عِزٌّ وذِكْرٌ ومَفْخَرُ

— ١٦٣ —

/ [وله(٢)] في رسالة كتبها له عن صديق من الوجُوه بسرقسطة [١٣٦ ب]
إلى ذي الكفايتين تاج الدولة ابن أبي الحسين بمصر
فيما بينه وأوضحه :

[من الطويل]

وَفِي «سُرَّ مَنْ رَا» (٣) من مَحَلِّي مَقَاصِرُ تُلاعِبُ فيهِنَّ الظِّباءَ الجَآذِرُ
وتُزْهِىٰ بها من صِنْوِ دِجْلَةَ لُجَّةٌ تَحَلَّلَ منها الرَّوْضُ جارٍ وجَائِرُ

---

(١) هذا البيت مكرر في الأصل مرة أخرى ، ولعله سهو من الناسخ .
(٢) في هذا الموضع نحو أربع أو خمس كلمات مطموسة طمسا بالغا بحيث لم نتمكن من قراءتها .
(٣) في الأصل : « سر من رأى »

حَدَائِقُ جَنَّاتٍ نَضَائِرُ زانَهـا تَقَلُّبُ أَحْداقٍ إليهـا نَوَاظِرُ
مشابِهُ حُسـنٍ ما لَهُنَّ مَشابِهٌ نظائِرُ شَـكْلٍ ما لَهُـنَّ نَظَائِرُ
ثَلاثٌ كأَطْلاءِ الظِّبـاءِ رَوَائِـعٌ ولا شَبَهٌ إلا الطُّلَى والنَّوَاظِرُ
نَمَاهَا إلى الأَرْءامِ رُومٌ وجِلَّقٌ وأَرْضَعَهـا منهم سُلَيْمٌ وعَامِرُ
لِتَـأْثُرَ عَنَّا كُلَّمـا فاهَ خاطِبٌ وأغْرَبَ رَجّازٌ وأَبْدَعَ شـاعِرُ
إذا أَجْرَتِ الأَقلامُ عَنْهُمْ بِمَنْطِقٍ أَرَتْكَ بُطُونَ الصُّحْفِ وَهْيَ أَزَاهِرُ
يُذَكِّرْنَنِي ما أنتَ عَنِّيَ مُبْلِـغٌ(١) خَوَاطِبَ أَحْياءٍ وَهُنَّ مَنَابِرُ
بِتَرْجِيعِ أَلْحَانٍ كأَنَّ حَنِينَهَا لما أَنَا من آثارِ مَجْدِكَ ذاكِرُ
ويَذْهِلُنِي عن سِحْرِ ما في جُفُونِهَا . . . . بتُفَّاحٍ . . . سَوَاحِرُ
تطارِدُها في الجَوِّ نَزْواً كأَنَّها نوازِعُ . . . . [وبَوَادِرُ]
[نُسورٌ] تَهَادَى بالسُّرورِ وإنَّنِي [لها] بالذي [يهدي السرور لزاجر]
وإنْ بُدِّلَتْ منها السَّكاكِينُ خِلْتَهَا غَمَاماً . . . . دى . . . صائِرُ
وإنْ قامَ بِاسْطُرْلابِهَا يَدُ بَعْضِهـا فـكَيوانُ أو بَهْرَامُ . . . .
يُخَبِّرُنِي أَنْ قَدْ تَبَيَّنْتَ أَنَّنِي لمعروفِ ما تُسْدِيهِ نَحْوِيَ شاكِرُ

---

(١) ورد هذا الشطر في الاصل هكذا : « يذكرني ما أنت عني مبلغ كأنها » وواضح أن الوزن لايستقيم بهذه الصورة ، ولهذا فقد حذفنا « كأنها » حتى يستقيم الوزن ، وربما كانت صحة هـذا الشطر أيضاً : « يذكرن ما بلغت عني كأنها » .

وأنَّكَ موصولُ السُّعودِ بِغِبْطَـةٍ   يُطاوِلُهـا في عُمْرِ أَمْرِكَ عامِرُ
وحُيِّيتَ مِنِّي كُلَّ يومٍ تَحِيَّةً   تسيرُ بها الرُّكْبَانُ ما سارَ [سائِرُ]
يلوحُ بها نَجْمٌ من الأُفْقِ طالِـعٌ   ويُزْجِمُهـا لِي منكَ ما غارَ غائِرُ

وقال يمدح علي بن حمود رحمهم الله تعالى من جملة رسالة :

. . . .

* * *

ملحق

بشعر ابن دراج ونثره

مما ورد في المراجع المشرقية والاندلسية
ولم يرد في هذا الديوان

« أثبتنا في هذا الملحق من شعر ابن دراج كل ما أمكننا العثور عليه في المراجع العربية المختلفة ، وذلك باستثناء ما سبق أن أثبتناه في موضعه من أبيات سقطت في بعض خروم النسخة الخطية الوحيدة التي أعتمدنا على مصورتها في نشر هـذا الديوان ، ومما رأينا أن المحافظة على وحدة القصائد يقتضي وضعها في صلب الديوان حيثما رأينا المناسبة داعية إلى ذلك ، وقد جعلنا تلك الأبيات المضافة بين حواصر ونبهنا على المواضع التي نقلناها عنها . وقد رأينا استكمالاً للفائدة من هذا الملحق أن نورد فيه كذلك جمـلة من نثر ابن دراج نقلناها عما اختاره له ابن بسام الشنتريني في كتاب « الذخيرة » . » .

— ١ —

قال من قصيدة يمدح بها المنصور محمد بن أبي عامر[1] :

[من البسيط]

ما كُفرُ نُعْماكَ من شأني فيَثْنِيني ... عَمَّنْ توالىٰ لنصرِ الملكِ والدِّينِ
ولا ثنائِي وشُكري بالوفاء بمَا ... أَولَيْتَنِي دونَ بذلِ النفسِ يكفيني
حَقٌّ عَلَى النفْسِ أن تَبْلَىٰ ولو فَنِيَتْ ... في شكرِ أيسرِ ما أضحيتَ تُوليني
ها إِنَّها نعمةٌ ما زالَ كوكَبُهَا ... إِليكَ في ظُلُماتِ الخطبِ يَهْدِينِي
تَبْأَى[2] بجوهرِ وُدٍّ غيرِ مُبْتَذَلٍ ... عِندي وجوهرِ حَمْدٍ غيرِ مكنونِ
وحَبَّذَا النَّأْيُ عن أهلي وعن وَطَنِي ... في كلِّ بَرٍّ وبحرٍ منكَ يُدْنيني
وموقفٍ للنَّوىٰ أَغلَيْتُ مُتأَدِي ... فيه وأرخَصْتُ دمع الأعينِ العينِ
من كلِّ نافرةٍ ذَلَّتْ لِقَوْدِ يَدِي ... في ثِنْيِ ما يَدُكَ العلياءُ تَحْبُونِي
والحِذْرُ يخفقُ في أحشاءِ والهَةٍ ... تُرَدِّدُ الشَّجْوَ في أحشاءِ مَحْزُونِ
أُجاهِدُ الصَّبْرَ عنها وَهْيَ غافِلَةٌ ... عن لَوْعَةٍ في الحشا منها تُنَاجِينِي
يا هٰذِهِ كيفَ أُعْطِي الشَّوْقَ طاعَتَهُ ... وهذِهِ طاعَةُ « المَنْصُورِ » تدْعُونِي؟

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ / ١٠٣ – ١٠٤ .

(٢) في الاصل : تنأى ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

شُدِّي عَلَيَّ نِجَـادَ السيفِ أَجْمَلُهُ ... ضجيعَ جنبٍ نبا عن مَضْجَعِ الهُونِ
رَضِيتُ منهاوشيكَ الشَّوْقِ لي عِوَضاً ... وقُلْتُ فيها لِلَوْعاتِ الأَسى: بِيني!
فإن تَشُجَّ تباريحُ الهوى كَبِدِي ... فقد تَعَوَّضْتُ قُرْباً منكِ يأسُوني
وإن يُمِتْ موقفُ التوديعِ مُصْطَبَرِي ... فَـأَحْرِ لي بدُنُوٍّ منك يُحْييني
أو أَفْرَطَ الحَظُّ من نُعماكَ منقلَبٌ ... من الوفاءِ بحَظٍّ فيكَ مغبونِ
وخازنٌ عنكَ نفسي في هواجِرِها ... وليس جُودُكَ عن كَفِّي بمخزونِ
وأيُّ ظِلٍّ سِوى نعماكَ يَلْحفُني[1] ... أو وِرْدِ ماءٍ سوى جدواكَ يُرْوِيني
وحاشَ للخيلِ أَن تُزْهى عَلَيَّ بها ... والبيضِ والسُّمْرِ أَن تَحْظى بها دُوني
ورُبَّما كنتُ أَمضِي في مكارِهِها ... قِدْماً وأَثْبُتُ في أَهوالِها الجُونِ[2]
من كلِّ أَبيضَ ماضِي الغَرْبِ ذي شُطَبٍ ... وكلِّ لَدْنٍ طريرِ الحَدِّ مَسْنُونِ
كذاكَ شَأْوِي مُفَدًّى في رِضاكَ إذا ... سَعَيْتُ فيهِ فـلا ساعٍ يُبَارِيني
لـكنْ سهامٌ من الأَقدارِ ما بَرِحَتْ ... عَلى مَراصِـدِ ذاكَ المـاءِ تَرْميني

* * *

يَحْمِلْنَ للرَّوْعِ أُسْداً في[3] فوارِسِها ... تَعُدُّ للطَّعْنِ أَمثالَ الثَّعابِينِ[4]

---

(١) في الأصل : يلحقني ، ولعل الصحيح ما أثبتنا .

(٢) الجون أي السود .

(٣) كذا ، ولعلها « من » .

(٤) يبدو أن هناك أبياتاً قبل هذا البيت أسقطها الثعالبي ، فهو في هذا البيت يتحدث عن الخيل ، والضمير في قوله « يحملن » يعود إليها في الغالب .

والبِيضُ تحتَ ظِلالِ النقْعِ لامِعَةٌ تغَلْغُلَ [1] الماء في ظِلِّ الرَّياحِينِ
حتىَّ يَحُوزوا لكَ الأرضَ التي اعترفَتْ بِمُلْكِ آبائِكَ الشُّمِّ العرَانِينَ [2]
حيثُ استَبوْا فارِساً والرُّومَ واعْتوَرُوا رِقَّ الأساوِرِ منهم والدَّهاقِينِ

— ٢ —

وقال من قصيدة أولها [3]

[من البسيط]

لَوْلاَ التَّحَرُّجُ لم يُحْجَبْ مُحَيَّاكِ [4]
وَحْشِيَّةَ اللَّفْظِ هل يودِي قتيلُكُمُ ؟ دمي مُضَاعٌ ، وجاني ذاك عيناكِ
إنِي أَراكِ بقتلِ النفسِ حاذِقَةً قُولِي ـ فَدَيْتُكِ ـ : مَنْ بالقَتْلِ أوصاكِ ؟
مالِي وللبَرْقِ أستسقيهِ من ظَمَأٍ ؟ هيهاتَ ، لا رِيَّ إلا مِنْ ثَنَايَاكِ
لولاَ الضُّلُوعُ لَظَلَّ [5] القلبُ نَحْوَكُمُ ضَمِي بِعَيْشِكِ فوق القلبِ يُمْنَاكِ

---

(١) أي كتغلغل .
(٢) أي الأنوف .
(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ / ١٠٤ ـــ ١٠٥ .
(٤) لم يحتفظ الثعالبي إلا بشطر هذا المطلع ؛ وقد أورد ابن خلكان من هذه القطعة بيتا واحدا ، انظر وفيات الاعيان ١ / ١٢٢ .
(٥) كذا ، وتبدو قلقة في هذا الموضع ، ولعل صحتها : لطار .

أَصْلَيْتِنِي لوعةَ الهِجْرانِ ظالمَةً رُحْمَاكِ من لوعةِ الهجرانِ رُحماكِ!
أَظَنَّ عَزْمُكِ أَن أَخفىٰ لأَسْلُوَكُمْ ؟ حُلِّي عَزِيمِيَ، إِنِّي لَسْتُ أَسْلاكِ!
حاشاكِ أَن تجْمَعِي حُسْنَ الصِّفاتِ إِلى قُبْحِ الصنيعِ بِمَنْ يهواكِ حاشاكِ!
إِن كانَ واديكِ ممنوعاً فَموْعِدُنا وادي الكَرى فلَعَلِّي فيهِ أَلقاكِ[1]
ظَبْيٌ وقلبٌ فمَنْ لي أَن أَصِيدَهُما ضاعَ الفؤادُ وقَلْبُ الظَّبْيِ أَشْرَاكِي

— ٣ —

وله أيضاً يمدح المنصور ابن أبي عامر[2]

[من الوافر]

أَصِخْ نحوي لدعوةِ مُستقيلِ يُنادي من غَيَاباتِ الخُمُولِ
رَهينةِ كُلِّ هَمٍّ مُستكِنٍّ ونُهْزَةِ كلِّ خطبٍ مُستطيلِ
ومأمونٍ علَى ظُلْمِ الأَعادي ونوَّامٍ علَى نُوَبِ الذُّحُولِ[3]
تراني منكَ في هِمَمٍ صِحاحٍ نَكَصْنَ علَى دُجىٰ خَطْبٍ عليلِ
ولكنْ رُبَّ دهرٍ ساوَرَتْني غوائلُهُ علَى نَهْجِ السَّبيلِ

(١) أورد هذا البيت ابن خلكان في الوفيات.
(٢) جاءت هذه القطعة في يتيمة الدهر للثعالبي (٢/١٠٥ - ١٠٦).
(٣) جمع ذحل وهو الثأر.

مُظَاهِرِ لَامَتَيْ بَغْيٍ ومكرٍ ... ومُصْلِتَ صارِمَيْ قالٍ وقيـلِ
ورَامٍ عن قِسِيِّ الغِلِّ نَبْـلاً ... أَصَبْنَ مقاتِلَ الأَدَبِ النَّبِيلِ
أَبًا وبَنِينَ عن عِرْضٍ منيعٍ ... لقد أَجْلَيْنَ عن أَمَلٍ قَتيلِ
فكانَ كأَنَّـهُ جَفْـنٌ سخِينٌ ... أَسالَ دمـاً عَلَى خَـدٍّ أَسيلِ
ومضطَرِمِ الحَشا داءً دَوِيـاً ... تَنَفَّسَ منهُ عن سيفٍ صَقيلِ
فَتِلكَ مَعـالِمِي عَلَمُ الرَّزايا ... وتلكَ وَسـائِلِي دَرَجُ السُّيولِ
وتلكَ مراتِبُ الأَخطارِ مِنِّي ... حمائِمُ يَنْتَحِبْنَ عَلَى هَـدِيلِ
لَعَلَّ رِضاكَ يا « منصورُ » يوماً ... يَحِلُّ بساحَتِي عَمَّـــــا قليلِ
ويقرَعُ منكَ أَسمـاعَ المعالي ... لَنـاً بِعِشارِ عَبْدٍ مُسْتَقِيلِ
إليكَ جَلَوْتُ أَبكارَ المعـانِي ... معـــــاذِيراً بَلألاءِ القَبُولِ
سوارٍ في الظَّلامِ بِلا نجومٍ ... هَوَادٍ في الفـلاةِ بلا دَليلِ

— ٤ —

وقال يصف الهلال[1]

[من الرجز]

وَمَحَقَ الشهرُ كَمالَ البَدْرِ ... فَلَاحَ في أُولَى الصَّباحِ النَّضْرِ
كأَنَّـه قُرْطٌ بِأُذْنِ الفَجْرِ

---

(١) جاءت هذه القطعة في يتيمة الدهر ٢ / ١١٦ .

— ٥ —

قال الحُمَيْدِيُّ[1] : أخبرني أبو عبد الله مالك بن محمد بن عَمْرُوس التُّجِيبيُّ أنَّ بعضَ الأدباء أرسَل إلى أبي عُمَر القسطَلِّيِّ بأبياتِ لغزٍ ، وسأله أن يُفسِّرَها ، فلم يُتْعِبْ خاطره فيها ، وكتب على ظهر الرُّقعة بديهةً :

[من الوافر]

إذا شَذَّت عن العَرَبِ المَعَاني   فَلَيْسَ إلى تَعَرُّفِهَا سَبيلُ
وما يَحْوِيهِ هذا الدَّهْرُ أنْأَى   وأبْعَدُ من شَبَا فِكْرٍ يَجُولُ
ورُبَّتَمَا بِطُولِ الفكرِ يُدْرَى   ولكِنْ عاجِلُ الفِكْرِ الرَّسُولُ

— ٦ —

قال الحميدي[2] : [في ترجمته لأبي الوليد الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء] :

. . . . . وأخبرني أبو الوليد قال : حضرت عند عمي وعنده أبو عمر القصطلي [كذا] وأبو عبد الله المعيطي ، فغنى المعيطي :

---

(١) جذوة المقتبس ص ١٠٥

(٢) جذوة المقتبس ص ١٨٠ – ١٨١ .

مروع عنك كل يوم   محتمل فيك كل لوم
ياغايتي في المنى وسؤلي   ملكت رقي بغير سوم

فأعجبنا بهذين البيتين ، فقال أبو عمر : أنا أضيف إليهما ثالثا لا يتأخر عنهما ، ثم قال :

[من مخلع البسيط]

تَرَكْتَ قلبي بغير صبر   فيك وعيني بغير نوم

قال : فسررنا بقوله ، وقلنا : لاتتم القطعة إلا به !

— ٧ —

قال الحُمَيْدِي[١] : وأنشدَني له أَبُو جَعْفَر ابن البَيْنِ في الأمير مُنْذِرِ بن يحيى التُّجِيبِيّ صاحب سَرَقُسْطَةَ :

[من الكامل]

يا عاكِفِينَ عَلَى المُدَامِ تَنَبَّهُوا   وسَلُوا لِسانِي عن مكارِمِ « مُنْذِرِ »
مَلِكٌ لَوِ اسْتَوْهَبْتَ حَبَّةَ قَلْبِهِ   كَرَماً لجادَ بها ولَمْ يَتَعَذَّرِ

(١) جذوة المقتبس ص ١٠٥ ؛ وابن دحية الكلبي : المطرب من أشعار أهل المغرب ص ١٥٦ .

— ٨ —

قالَ عبدُ الواحدِ المَرّاكُشي[1] : . . . وكُنْتُ في أيّامِ شبيبتي مُولَعاً بشِعْرِهِ [يعني ابن دَرّاج] كثيرَ الدِّراسةِ له ، فلَمْ يَبْقَ اليومَ على خاطِري منه شيءٌ أصلاً خَلا بَيْتَينِ هُما مِمّا ارْتَجَلَ في بعض مَجَالِسِهِ هُمَا :

[من الكامل]

أَجِدِ الكَلامَ إذا نَطَقْتَ فإنَّمَا   عَقْلُ الفَتَى في لَفْظِهِ المسموعِ

كالمَرْءِ يَخْتَبِرُ الإناءَ بصَوْتِهِ   فَيَرى الصَّحيحَ به من المَصْدُوعِ

— ٩ —

قال ابنُ بَسّام الشَّنْتَرِيني[2] : قال القَسْطَلّي[3] [في وَصْفِ جَوادٍ] :

[من الكامل]

سامِي التَّلِيلِ كأَنَّ عَقْدَ عِذارِهِ   في رَأْسِ غُصْنِ البانَةِ المَيّادِ

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٩ .

(٢) الذخيرة (القسم الثاني — مخطوطة بغداد) ص ٣٠٧ .

(٣) لسنا على ثقة من كون ابن دراج هو صاحب هذه الابيات ، إذ أن ابن —

يُهْدَى بمِثْلِ الفَرْقَدَيْنِ ونابَ عَنْ   رَعْيِ السِّماكِ بقَلْبِهِ الوَقَّادِ
فكَأَنَّما أَطَأُ الأَباطِحَ والرُّبَى   بعُقَابِ شَاهِقَةٍ وحَيَّةِ وَادِ
وكَأَنَّهُ من تحتِ سَوْطِيَ خارِجاً   في الرَّوْعِ شُعْلَةُ قادِحٍ بِزِنادِ

— ١٠ —

قَالَ ابنُ بَسَّامٍ (١) : قالَ أبو مُحَمَّدٍ ابنُ عَبْدُون :

[من الطويل]

وما أَسَفِي إلاَّ عَلَى فَوْتِ رُتْبَةٍ   عَهِدْتُكَ فيها نادِياً أو مُنَادِيَا
وكَوْنِ مكانِي من سَمَائِكَ عاطِلاً   ولَوْلاَ مكانِي الدَّهْرُ ما كانَ حالِيَا

ـ بسام لم يزد في نسبتها إلى « القسطلي » بيانا ، ونحن نعلم أن هناك شعراء أندلسيين آخرين كانوا يحملون هذه النسبة مثل أبي الوليد القسطلي وإدريس بن اليمان الذي الذي كان أصله من قسطلة الغرب وإن كان ينسب إلى جزيرة يابسة لطول مقامه بها على أننا نرجح أن المقصود بهذه النسبة في كتاب ابن بسام هو ابن دراج .

(١) الذخيرة (القسم الثاني – مخطوطة بغداد) ص ٤٢٩ .

قال ابنُ بَسَّامٍ : وقولُهُ « ولولا مكاني الَدهْرُ ما كانَ حالِيا »

كقَوْلِ القَسْطَلِّيِّ[1]

[من المتقارب]

غَرِيبٌ تَحَلَّتْ بآدابِهِ بِلادٌ تَوَاصَتْ بِتَعْطِيلِه[2]

* * *

قالَ ابنُ بَسَّامٍ[3] :

« جُمْلَةٌ من فصولٍ ، اقتضَبْتُهَا من كلامِهِ [يعني ابن دراج] الطَّويلِ ، فِراراً من التطويل

— ١ —

فصل له من رقعة [ص٤٥]

يا سيدي ، ومن أبقاهُ اللهُ كوكَبَ سَعْد ، في سماءِ مجد ، وطائِرَ يُمْنٍ في ،

(١) نكرر هنا ما أشرنا إليه في حاشية سابقة من صعوبة القطع بأن هـذا البيت لابن دراج ، وإن كنا نرجح ذلك إذ أنه به أشبه وإلى أسلوبه أقرب .

(٢) في الاصل : بتمطيل ، ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٣) الذخيرة ق ١ — ١ / ٤٥ — ٤٩ .

[ص٤٦] أُفناء أُمْن ، مَرْجُوّاً لِدفعِ الأُسْوَاء ، مُؤَمَّلاً في اللَّأْواء ، وكنتُ قد نشأْتُ في مَعْقِلٍ من العفَا (١) والوَفْر ، مُحْدَقاً بسُورٍ من الأَمن والسِّتْر ، حتى أَرسل إِلَيَّ سُلْطانُ الفقر ، رسولاً من نُوَبِ الدَّهر ، يريد اسْتِنْزَالي إليه ، وخُضوعي بين يديه ، فأَبيتُ من ذلك عليه ، فغزاني بكتائِبَ من النَّوائب ، تسير تحت أَلْوِيَةِ المصائب ، تَبْرُقُ بسيوفِ الرَّزَايا ، وتشهرُ أَسِنَّةَ المنايا ، يَرْمُونَ عن قِسِيِّ الأَوْجالِ ، ويضربون طبولَ الذُّعْرِ وسوءِ الحال ، بأَيدٍ باطشةٍ لا تَكَلُّ ، وبصائرَ ثابتةٍ لا تَمل ، فلم يَرُعْنِي ذلك منهم أَنْ تَلَقَّيْتُهُمْ بمن معي من جنودِ الصبر ، فافْتَتَحَ معقلي سلطانُ الفقر ، وأَخذني أَسْرا ، وطلبَ مني فداءً لا أَقوم به قَسْراً ، فأَوثقني في قيودِ الانقياد ، وشدَّني في أَغلالِ الاصْفاد ، ووَكَّل بي الحيرة والتَّبَلُّد ، وأَمرهما أَلا يُطْلِقا سبيلي إلا بالفِداء ، فضاقت بذلك مَذَاهبي ، حتى أَتى منك رسولٌ يُسَمَّى حسنَ الثناء ، فضَمِنَ لي عنك فِدْيَتي ، من يَدَيْ (٢) أَسَرَتي ، وسيدي أَوْلىٰ من وفى بِضمانِهِ ، وصِدْقِ قولِ رسولِه على لسانه .

* * *

(١) كذا ، ونظنها تحريفاً عن « الغنى » .

(٢) كذا ، ولعلها « أيدي » .

— ٢ —

وله من أخرى إلى سليمان بن الحكم أمير المؤمنين

حاشا لله أن أستشِفَّ الحِسْيَ قبل جُمُومِه، وأستكْرِهَ الدَّرَّ قبل حُفُوله، أو أتعامى عن سِراجِ المَعْذِرة، وأرغبَ عن أدبِ الله في نَظِرَةٍ إلى مَيْسَرَة؛ ولكن:

(ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ   حُمْرِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ)[1]

ما أوْضَحَ العُذْرَ لي لو أنهم عَذَروا   وأجْمَلَ الصَّبْرَ بي لو أنهم صبروا!

لكنهم صَغَرُوا عن أزمةٍ كَبُرَتْ   فما اعتذارِيَ عَمَّنْ عُذْرُهُ الصِّغَرُ؟

/ وقد قَلَّبْتُ لهم ظهرَ الأمور، ومَيَّزْتُ بين المسورِ والميسور، فما [٤٧] وجدتُ أحْسَنَ بَدْءًا، ولا أحمد عَوْدا، مِمَّا أذِنَ الله فيه لعبادِه الذين أعْمَرَهُمْ أرْضَه، وسَخَّرَ لهم بَرَّهُ وبَحْرَه، أن يمشوا في مناكِبِها ويأكلوا من رِزْقه، وحيثُ نتقلَّبُ ففي كرمِك، وأينَ نأمَنُ ففي حَرَمِك، وحيثُ لا تُوحِشُنا دعوتُكَ، ولا تفوتُنا نعمتُكَ، من مُلْكِكَ إلى مُلْكِك، ومن يمينِك إلى شمالِك.

* * *

(١) هذا البيت مشهور، وهو للحطيئة جرول بن أوس العبسي.

— ٣ —

وفي فصلٍ من أخرى

ولعلَّ مُقَلِّبَ القلوب قد قَلَّبَ قلبَكَ الكريمَ للأطفال المُشَرَّدِين ، الذين دَعَوْكَ مضطَرِّين ، أن تَحُلَّ عنهم عُقَلَ النَّوىٰ ، وتَكِلَهُمْ إلى جَبَّارِ السَّمَا ، الذي أمر عِبادَهُ أن ينتشِرُوا في أرضِه ، ويبتَغُوا من فضلِه .

* * *

— ٤ —

وله من أخرى إلى عليِّ بن حَمُّود :

حسبُكَ الله ، يا بْنَ رسولِ الله ، وعَلَى هُدىً من الله ، فيما خَفَقَتْ إليه راياتُكَ ، وصَدَقَتْ به آياتُك ، جديرٌ أن يُعِزَّ بطاعَتِهِ نَصْرَك ، كما شَرَحَ بتوفيقِهِ صدرَك ، ويُتِمَّ بتأييدِهِ أمْرَكَ ، بما أولَيْتَ أولياءهُ المؤمنين ، وأبْلَيْتَ في عبادِهِ الصالحين ، المصابين في الأموالِ والأهْلين ، أيَّامَ تَزاحَمَتْ إليهم أسبابُ القضاء ، بالبأساءِ والضَّرَّاء ، وأبْرَقَتْ عليهم [٤٨] آفاقُ السماء ، بسيوفِ

الأعداء ، تَسُحُّ بوابِلِ الدِّماء ، وتموج بأسرابِ السِّباء فسرعانَ ما هاموا ولا وَزَر ، ورَبَعُوا فلا مُسْتَقَرّ .

ونادَوْا ولاتَ حِينَ مناصٍ ولا فَوْت ، إلا مَنْ أعفاهُ الموت ، فأصبحوا أنفاضَ الجَلاَء ، وأغراضَ الفنَاء ، قد جَهِدُوا بالبلاء ، وعَيُوا بالداء العيَاء ، فلئن زُلْزِلَتْ بهم الأرضُ ، لقد سكن بهم عِزُّ سلطانِك ، ولئن تهافَتَ بهم الذُّعْرُ ، لقد اطمأنُّوا في مِهادِ أمانك .

* * *

— ٥ —

وله من أخرى إلى منذر بن يحيى

حَيَّاكَ بتحية المُلْكِ من أحيا بكَ دعوةَ الحَقِّ ، وردَّاكَ برداء الإعظام ، من أعلىٰ بكَ لواء الإسلام ، مُجْرِيَ الأقدارِ بإعلاء قدرِك ، ومُصَرِّفَ الليلِ والنهارِ بإعزازِ نَصْرِك ، ومُظْهِرَ من أطاعَكَ عَلَى من عَصاك ، ومُدَمِّرَ من عاداك ، بسيوفِ من والاك . قد جعلَ الله أوّلَ أسمائِكَ ، أَوْلىٰ بأعدائِك ، وأقْرَبَ اعتزائِك ، صفواً لأوليائك ، ثم سما بك حاجِبُ الشَّمْس ، نُوراً وأُنْساً لهذا الإنس ، ونَفَسَ حياة لكُلِّ نَفْس .

ثم أحْيَيْتَ فجرهم يا بْنَ يحيي بِسراجَيْنِ : نورِ دينٍ ودُنيا
وخَلَفْتَ السحابَ ظِلاًّ وجُوداً فَوَسِعْتَ الإسلامَ سَقْياً ورَعْيا
وتَحَلَّيْتَ من تُجيبَ سَناء كنت فيه لِلدِّينِ والمُلْكِ مَحْيا

* * *

— ٦ —

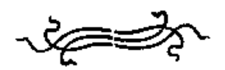
ومن كتاب له

وأكرِمْ بها أعراقاً سَرَتْ إليك ، وأخلاقاً نُظِمَتْ عليك ، وأعباءَ ملكٍ [٤٩] حَمَّلْتَ عاتِقَيْكَ ، وأعِنَّةَ خيلٍ أُسْلِمْتَ في يديك فإليكَ أَهَلَّ الدَّليل ، وأرْزَمَت الحمول ، ومن نداك سُقِيَ الغليل ، وشُفِيَ العليل ، وفي ذَرَاك بَرَدَ المقيل ، وقَصُرَ الليلُ الطويل ، وبعُلاك أَمِنَ الخائفُ وعَزَّ الذليل ، وبسناك هُدِيَ ابْنُ السبيلِ سواءَ السبيل ، إلى الظلِّ الظليل ، والأَملِ المأْمول ، فحبلُ الغريبِ موصول ، وعذرُ المسيء مقبول ، وجفاء الضيفِ محمول ، فكيف بضيفِكَ المُجْتاب ، إليك غَوْلَ القفرِ اليبَاب ، وهولَ البحرِ ذي العُباب ، يَهْدِي إليك لُبَابَ الألباب ، ويتحفُكَ بجواهرِ الآداب ، متضائِلاً في أسمالِ الاغتراب ، مكَفْكِفاً من عبَرَاتِ الاكتئاب ، يتسلّى بسلام الحُجَّاب ، واستلام الأبواب ،

إلى أن أكْرَمْتَهُ برفْعِ الحِجاب ، فيا رَوْحَ ثنائه بِكُمِّ الأَحساب ، ويافُوْحَ رياضهِ بدِيَمِ السحابِ ! ويا طيب طُوبىٰ وحسنَ مآب ! لمن نصرت وآوَيْتَ ، ووصلت وأدنَيْتَ ، ما دعاكَ حتى لبَّيْتَ ، ولا استسقاكَ حتى سَقَيْتَ ، ثانِيَ عِطفِهِ عن الشكوى إليك ، ناكِصَ طرفه عن الإدلالِ عليك ، عِلْماً بأَن الهلالَ ساعٍ إلى الكمالِ ، وأن البدرَ مُؤَدٍّ إلى الفجر ، وأن انسجام القَطْر زعيمٌ بابتسام الزهر :

إلى شجا لاعِجٍ في القلب مضطرمٍ جاشٍ إليكَ به بَحْرٌ من الكَلِمِ (1)

. . . . إلخ .



(١) أورد ابن بسام ثمانية أبيات من هذه القصيدة الملحقة بالرسالة ، وقد جاءت القصيدة كلها في الديوان (ص ٥١٦) مما يغني عن تكرار ما نقله ابن بسام منها هنا .

استدراك

كان الأستاذ الفاضل محقق هذا الديوان قد عثر بعد الفراغ من تحقيقه – كما ذكر في مقدمته – على قطعة أخرى منه في مكتبة جامع القرويين فيها سد لبعض ما في النسخة التي اعتمدها من خروم، فوافانا بذلك مشكوراً، لإلحاقه في مواضعه، إلا أنه فاتنا إلحاق ما يتعلق منه بالقصيدتين : ٤٨، ٤٩ فرأينا إعادة نشر القصيدتين في صورتها الجديدة في هذا المستدرك، مع الاستغناء عما سلف نشره من تعليقات .

« المكتب الاسلامي »

— ٤٨ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله في عيد الفطر

[من الطويل]

لَكَ الفَوْزُ مِنْ صَوْمٍ زَكِيٍّ ومِنْ فِطْرِ ... وَصَلْتَهُمَا بالبِرِّ شَهْراً إلى شَهْرِ
فَنَاطِقُ صِدْقٍ عَنْكَ بالصِّدْقِ والنُّهى ... وشاهِدُ عَدْلٍ فيكَ بالعَدْلِ والبِرِّ
فهذا بِمَا اسْتَقْبَلْتَ من صائِبِ النَّدىٰ ... وهٰذا بما زَوَّدْتَ من وافِرِ الذُّخْرِ
فكَمْ شافِعٍ في ظِلِّكَ الصَّوْمَ بالتُّقىٰ ... وكَمْ واصِلٍ في أَمْنِكَ اللَّيْلَ بالذِّكْرِ
وكم ساجِدٍ لله مِنَّا وراكِعٍ ... يَبِيتُ عَلى شَفْعٍ ويَغْدُو عَلى وَتْرِ
ووَجْهُكَ للهَيْجَاءِ من دُونِ وَجْهِهِ ... وتَسْري إلى الأَعْداءِ عَنْهُ ولا يَسْري
وظِلُّكَ ممدودٌ عَلَيْهِ وتَصْطَلي ... بِجاحِمِ نارِ الحربِ أَوْ جَامِدِ القُرِّ
خَلَعْتَ عليهِ ثَوْبَ صَوْنٍ ونِعْمَةٍ ... وظاهَرْتَ عَنْهُ بَيْنَ صِنٍّ وصِنَّبْرِ
وكم قاطِعٍ بالنَّوْمِ لَيْلاً وَصَلْتَهُ ... بغَزْوِكَ ما بَيْنَ الأَصِيلِ إلى الفَجْرِ
وأَقْدَمْتَ فيه الخَيْلَ حَتّىٰ رَدَدْتَهَا ... وآثارُهَا ثَغْرٌ لقاصِيةِ الثَّغْرِ
كَأَنَّ دُجىٰ لَيْلٍ يَمُرُّ عَلَى الضُّحىٰ ... إذا سِرْنَ أَو بَحْراً يمورُ عَلَى البَرِّ
فأَنْتَ جَزَاءُ صَوْمِنَا وصَلاتِنَا ... وفيكَ رَأَيْنَا ما ابْتَغَيْنَا مِنَ الأَجْرِ
ومِنْكَ اسْتَمَدَّ الفِطْرُ مَطْعَمَ فِطْرِنَا ... وفيك أَرَتْنَا قَدْرَهَا لَيْلَةُ القَدْرِ

وباسمِكَ عزَّتْ في الخِطَابِ منابرٌ بأسْعَدِ عيدٍ عادَ بالسَّعْدِ أَوْ فِطْرِ
ولاحَ لنا فيهِ هِلالٌ كأنَّهُ بَشِيرٌ بِفَتْحٍ مِنْكَ أشرقَ بالبِشْرِ
أَهلَّ فأَهْلَلْنَا إليهِ تمثُّلاً برُحْبِكَ جُنْحَ اللَّيلِ بالضَّيْفِ تستقري
وأسفرَ عَنْ زُهْرِ النُّجُومِ كأنَّما جَبِينُكَ أَبْدى عن خلائِقِكَ الزُّهْرِ
عَلاَ وتَدَانَى للعيونِ كما علا مَحَلُّكَ واستَدْنَيْتَ بُعْداً عَنِ الكِبْرِ
وذَكَّرَنَا عطفاً بِعَطْفِكَ حانياً على الدِّينِ والإسلامِ في البَدْوِ والحَضْرِ
هلالُ مَسَاءٍ باتَ يَضْمَنُ لِلضُّحى غَدَاةَ المُصَلَّى مَطْلَعَ الشَّمْسِ والبَدْرِ
ومِلْءَ عُيُونِ النَّاظِرِينَ كَتَائِباً كَتَبْتَ بِهَا الآفاقَ سَطْراً إلى سَطْرِ
مُخَطَّطَةً بالخَيْلِ والأُسْدِ والحُلى ومُعْجَمَةً بالبِيْضِ والبِيضِ والسُّمْرِ
وصادِقَةَ الإِقْدامِ تَهْتَزُّ لِلْوَغى وخافِقَةَ الأَعْلاَمِ تَعْتَزُّ بالنَّصْرِ
/ فَصَلَّيْتَ وَهْيَ النُّورُ في مَشْرِقِ العُلاَ وأَصْلَيْتَ وَهْيَ النَّارُ في مَغْرِبِ الكُفْرِ [٥٠م]
ولما اسْتَهَلَّتْ بالسَّلاَمِ صَلاَتُهُمْ أَهَلَّتْ إلى تَسْلِيمِهِمْ سُدَّةُ القَصْرِ
فَكَرُّوا يُعِيدُونَ السَّلاَمَ على الذي يُعَاوِدُ عَنْهُمْ في العِدى صادِقَ الكَرِّ
يُحَيُّونَ بالإِعْظَامِ مَولىً حَنَانُهُ أَخَصُّ بِهِمْ مِنْ رَأْفَةِ الوالِدِ البَرِّ
ووافَوْا سريرَ المُلْكِ يَسْتَلِمُونَهُ كَمُسْتَلِمِ الحُجَّاجِ لِلرُّكْنِ والحِجْرِ
مَشَاهِدُ غارَتْ في البِلاَدِ وأَنْجَدَتْ مُحَقَّقَةَ الأَنْبَاءِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
أَنارَتْ فَمَا بِالخُلْدِ عَنْهُنَّ مِنْ عَمىً ولا بِزَبَابِ الرَّمْلِ عَنْهُنَّ مِنْ وَقْرِ

فكيفَ بأبصارٍ أضاءتْ لهَا المُنىٰ   إليكَ وأسماعٍ صغَتْ فيكَ للجَبْرِ
ولا مِثْلَ مَجْلُوِّ النَّوَاظِرِ بالعِدىٰ   بياناً ومفتوقِ المَسَامِعِ بالذُّعْرِ
توقّىٰ فأبْلىٰ عُذْرَ نَاجٍ مُخَاطِرٍ   فَرَدَّ المنايا عنهُ مُبْلِيَةَ العُذْرِ
وآنَسَ يا «مَنْصُورُ» عِنْدَكَ نَفْسَهُ   فَجَلّىٰ لهَا تَحْتَ الدُّجىٰ نَاظِرَيْ صَقْرِ
فأهْوىٰ إلى مَثْوَاكَ أَمْضىٰ مِنَ الهَوىٰ   وأسْرىٰ إلى مَأْوَاكَ أخفىٰ مِنَ السِّرِّ
فَكَمْ جُزْتُ من سَيْفٍ لِقَتْلِيَ مُنْتَضىً   وجاوَزْتُ من لَيْثٍ لِضَغْمِيَ مُفْتَرِّ
فيا خِزْيَ ذا مِنْ سَبْقِ خَطْوِ مُخَاطِرٍ   ويا لَهْفَ ذا مِنْ فَوْتِ غِرَّةِ مُغْتَرِّ
كأَنَّ خُفُوقَ القَلْبِ مَدَّ جوانِحي   بأجْنِحَةٍ رِيشَتْ منَ الرَّوْعِ والذُّعْرِ
وتَحْتَ جَنَاحَيْ مَقْدَمِي وتَعَطُّفِي   ثَمانٍ وَعَالَتْ بِالْبَنِينَ إلى الشَّطْرِ
أَخَذْتُ لَهُمْ إصْرَ الحياةِ فأُجِّلُوا   وقد أَخَذَ الإشْفَاقُ مِنِّي لَهُمْ إصْرِي
فَحَمَّلْتُهُمْ وِزْراً ولَوْ خَفَّ مِنْهُمُ   جَنَاحِي لكانَ الطَّوْدُ أيْسَرَ مِنْ وِزْرِي
فَلِلّهِ مِنْ أعْدَادِ أنْجُمِ يُوسُفٍ   تَحَمَّلَهَا مِنْهَا أَقَلُّ مِنَ الْعُشْرِ
إلى كُلِّ مَأْوىً لِلْجَلاءِ هَوىٰ بِنَا   إلى حَيْثُ لا مَهْوىٰ عُقَابٍ ولا نَسْرِ
رَحَلْتُ لَهُ عُوجاً كَأَنَّ هُوِيَّهَا   بِنَا فِيهِ أفْلاكٌ بأنْجُمِهَا تَجْرِي
طَوَيْنَ بِنَا بُعْدَ السِّفَارِ كأَنَّهَا   لَيالٍ وأيَّامٌ طَوَيْنَ مَدىٰ العُمْرِ
ورُبَّتَمَا اسْتَوْدَعْنَنَا بَطْنَ حُرَّةٍ   هَوَائِيَّةِ الأحْشَاءِ مَائِيَّةِ الظَّهْرِ
رَحِيبَةِ مَأْوىٰ الضَّيْفِ مَانِعَةِ القِرىٰ   وغَيْرُ ذَمِيمٍ أنْ تُضِيفَ ولاَ تَقْرِي

فكَمْ لِيَ بَيْنَ اللَّوْحِ واللَّوْحِ طائراً وَأَوْكَارُهُمْ في طائرٍ غَيْرِ ذِي وَكْرِ
/وكَمْ أَسْلَمُوا لِلْعَسْفِ والخَسْفِ مِنْ حِمىً وكَمْ تَرَكُوا لِلْغَصْبِ والنَّهْبِ مِن وَفْرِ [٥٥ب]
وكَم وَجَّهُوا وَجْهاً لِبارِقَةِ الظُّبَىٰ وكم وَطَّنُوا نَحْراً لِنافِذَةِ النَّحْرِ
وكَمْ أَقْدَمُوا بَيْنَ المَنَايَا كَمَا هَوَتْ فَرَائِسُ أُسْدِ الْغَابِ لِلنَّابِ والظُّفْرِ
وكم بَدَّلُوا مِنْ وَجْهِ راعٍ وحافظٍ وُجُوهَ المنايا السُّودِ والحَدَقِ الحُمْرِ
ومن رَفْرَفِ الأَسْتارِ دُونَ حِجالِهَا تَرَقْرُقَ لَمْعِ الآلِ في المَهْمَهِ الْقَفْرِ
ومن ساجِعِ الأَطْيارِ فَوْقَ غُصُونِهَا مُرَاسَلَةَ الأَلْحَانِ في نَغَمِ الْوَتْرِ
تُنَادِي عَزِيفَ الجِنِّ في ظُلَمِ الدُّجىٰ وهَوْلَ الْتِطَامِ المَوْجِ في لُجَجِ البَحْرِ
وكم زَفْرَةٍ نَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِحَسْرَةٍ أَنَارَتْ بِنَارِ السِّرِّ في عَلَمِ الجَهْرِ
ونادَت عُيُونَ الشَّامِتِينَ إلى القِرىٰ بِأَفْلاذِ أَكبادٍ كَصَالِيَةِ الجُزْرِ
وماذا جَلاَ وَجْهُ الجَلاَءِ مَحَاسِناً تَهابُ العُيُونُ ما نَثَرْنَ من الدُّرِّ
وماذا تَلَظَّىٰ الحَرُّ في حُرِّ أَوْجُهٍ تَنَسَّمُ فيهِ بَرْدَ ظِلٍّ عَلَى نَهْرِ
وماذا أَجَنَّ اللَّيْلُ في مُوحِشِ الْفَلاَ أَوَانِسَ بالأَتْرَابِ في يانِعِ الزَّهْرِ
وماذا تَرَامىٰ المَوْجُ في غَوْلِ لُجَّةٍ بِلاَهِيَةٍ بَيْنَ الأَرَائِكِ والخِدْرِ
فإِنْ نَبَتِ الأَوْطَانُ مِنْ بَعْدُ عَنْهُمُ فلا مَحْجَرِي حَجْرٌ عَلَيْهِمْ ولاَ حِجْرِي
وإِنْ ضَاقَ رَحْبُ الأَرْضِ عَنْ مُنْتَوَاهُمُ فَرَحْبٌ لَهُمْ مَا بَيْنَ سَحْرِي إِلىٰ نَحْرِي
وإِنْ تَقْسُ أَكْبَادٌ كِرَامٌ عَلَيْهِمُ فواكَبِدِي مِمَّنْ تَذُوبُ لَهُ صَخْرِي

وإنْ تبْرَمِ الأَيْسَارُ في أَزَمَاتِهِمْ فَأَحْبِبْ بِأَيْسَارٍ قَمَرْتُ لَهُمْ يُسْرِي
فَفَازُوا بِنَفْسِي غَيْرَ جُزْءٍ ذَخَرْتُهُ لِمَا شَفَّ مِنْ خَطْبٍ وما مَسَّ مِنْ ضُرِّ
فَعَفْوٌ لَهُمْ جَهْدِي وحُلْوٌ لَهُمْ مُرِّي وصَفْوٌ لَهُمْ طِرْفِي ويُسْرٌ لَهُمْ عُسْرِي
وإنْ أَضْرَمُوا قَلْبِي فَجَمْرِي لَهُمْ نَدٍ وإنْ غَيَّضُوا شِرْبِي فَرَوْضِي لَهُمْ مُثْرِ
وَدَائِعُ نَفْسِي عِنْدَ نَفْسِي حَفِظْتُها بِمَا ضَاعَ مِنْ حَقِّي وما هَانَ مِنْ قَدْرِي
قَلِيلٌ غِنَاهُمْ عَنْ يَدِي وَغَنَاؤُهُمْ سِوى أَنَّهُمْ مِنْ ضَيْمِ كَسْبِي لَهُمْ عُذْرِي
وأَنِّي لَهُمْ في مَاءِ وَجْهِيَ تاجِرٌ أَغَنَمُهُمْ غُنْمِي وَأَرْبَحُهُمْ خُسْرِي
وأُسْلِمُ في وَخْزِ السَّفَى ثَمَرَ المُنَى وأَبْذُلُ في قَذْفِ الحَصَى جَوْهَرَ الشُّكْرِ
وإنْ نَفَقَتْ عِنْدِي بِضَاعَةُ قَانِعٍ تَقَنَّعْتُ مِنْها في خَزَايَةِ مُعْتَرِّ (1)
[ق ٦١] / [رجاءً لِضُمْرٍ (2) طَالَ ما قد عَهِدْتُهُ يُرِيني أَناةَ السَّهْلِ في المسلكِ الوَعْرِ
وخِزْياً لوجهٍ هان في صَوْنِ أَوْجُهٍ كريمٍ بهم رِبْحِي لَئِيمٍ بهم تَجْرِي
بِعِدَّةِ أَبراجِ السماءِ وما سَرَى مداها إلى صُبْحٍ يُضِيءُ ولا فَجْرِ

---

(١) سقطت في هذا الموضع من أصل المخطوطة الزيدانية الورقة رقم ٥١ التي تشتمل على آخر هذه القصيدة الرائية وأول القصيدة الميمية التالية ، على أن القطعة التي عثرنا عليها من الديوان والمحفوظة في مكتبة جامعة القرويين (وهي التي نرمز إليها بحرف « ق ») قد احتفظت لنا بما سقط في هذا الخرم كله ، وذلك فيما بين صفحتي ٦١ و ٦٤ ، فعملنا على استكمال القصيدتين منها ، ووضعنا هذه التكملة بين حاصرتين ، هذا ونذكر أيضاً أن عشرة أبيات من القصيدة الرائيه قد وردت أيضاً في كتاب « رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة » (شرح الشريف الغرناطي على مقصورة حازم القرطاجني ـ ط . القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ . ـ ١ / ٤٤) .

(٢) الضمر مثل الضمار (بكسر الضاد) وهو من الأشياء ما كان ضد العيان ومن العدات ما كان ذا تسويف ومن الدين ما كان بلا أجل .

وكيفَ وما فيهـا مُعَرَّجُ منزلٍ لشمسٍ تُجَلِّي ليـلَ هَمٍّ ولا بَدْرِ
/ ولـكنْ قلوبٌ قُسِّمَتْ وجوانِـحٌ منازِلَ مقدوراً لها نُوَبُ الدَّهْرِ [ق٦٢]
وأَنْجُمُ أنواءٍ تنوءُ بهـا النَّوىٰ وليس لها إلا دُمُوعِيَ من قَطْرِ
ولا مطلَعٌ إلا مِهادِيَ أو حِجْرِي ولا مغرِبٌ إلا ضُلوعِيَ أو صَدْرِي
إذا ازْدَحَموا في ضنكِ شُرْبِي تمثَّلُوا بأَسباطِ مُوسىٰ حولَ[1] مُنفَجَرِ الصَّخْرِ
ولو بِعَصَا موسى أُفَجِّرُ شُرْبَهُمْ ولـكن بذُلِّ الفقْرِ في عِزَّةِ الوَفْرِ
فما جَهِدُوا فُلْـكاً كما جَهِدُوا يَدِي ولا أَنْقَضُوا رَحْلاً[2] كما أَنْقَضُوا ظَهْرِي
كأَنَّ لهم وِتْراً عَلَيَّ وما انْتَحىٰ لهم حادِثٌ إلا وَفِي نفسِهِ وِتْرِي
ولولاهُمُ لم أُبْـدِ صَفْحَةَ مُعْدِمٍ ولم أُسْمِعِ الأَعداءَ دَعْوَةَ مُضْطَرِّ
ولا جُدْتُ للدنيا بخُلَّةِ واصِلٍ ولو بَرَزَتْ لي في غَلائِلِها الخُضْرِ
ولا راقَني مافي الخدودِ من الهوى ولا شاقَـني مافي العيونِ من السِّحْرِ
ولم يُلْهِني قُرْبُ الحبيبِ الَّذي دَنَا ولم يُصْبِنِي طَيْفُ الخيالِ الذي يَسْرِي
ونادَيْتُ في بيضِ النُّضارِ وصُفْرِها لغيرِيَ فابْيَضِّي إذا شئْتِ وَاصْفَرِّي !
وأَعْلَيْتُ في مُلْكِ القنـاعَةِ هِمَّتِي
وهَدْيُ الهُدىٰ حِصْنِي ونَهْيُ النُّهىٰ قَصْرِي[3]
إذا غزتِ اللَّذَّاتُ قَلْبِي هَزَمْتُها بجَيْشَيْنِ مِنْ حُسْنِ التَّجَمُّلِ والصَّبْرِ
وإنْ غَزَتِ الآمالُ نَفْسِي صَرَمْتُها بصارِمِ يَأْسٍ في يمينِ تُقىً حُرِّ

---

(١) في شرح المقصورة : عند .
(٢) في شرح المقصورة : ظهراً .
(٣) أي قصاراي .

ولكنْ[1] أَبىٰ ما في الفؤادِ من الأسىٰ وأعْضَلَ ما بين الضلوع من الجمرِ
وما لَفَّ عَهْدُ اللهِ في ثوبِ غُرْبَتي من الآنساتِ الشُّعْثِ والأَفْرُخِ الزُّعْرِ[2]
وما لاح يا مَنْصُورُ مِنْكَ لزائرٍ وأَسْفَرَ من إشراقِ وَجْهِكَ لِلسَّفْرِ[3]
وما أَرْصَدَتْ يمناكَ للضَّيْفِ من قِرىً وما بسطَتْ عَلْيَاكَ للعلمِ من بِرٍّ
وتقديرُ رَبِّ الخلقِ والأمرِ إذْ قَضى[4] بخَلْقِكَ فاسْتَصْفَاكَ للخَلْقِ والأمرِ
[ق٦٣] / فَمَكَّنَ سيفَ النَّصْرِ في عاتِقِ العُلاَ وأَثْبَتَ تاجَ المُلْكِ في مَفْرِقِ الفَخْرِ
وكَرَّمَ نفسَ الحِلْمِ عن وَغَرِ القِلى[5] وطَهَّرَ جِسْمَ المجدِ من دَنَسِ الغَدْرِ
وحَلاَّكَ في هذا الأنامِ شمائلاً أدالَ بِهِنَّ اليُسْرَ من دولةِ العُسْرِ
وسَمَّاكَ في الأعداءِ مُنْذِرَ بأْسِهِ بما أُشْتَقَّ فينا من وفائكَ بالنَّذْرِ
فلَمَّا تواقىٰ فيك إبداعُ صُنْعِهِ وقَدَّرَ أن يُعْلِيكَ قَدْراً إلى قَدْرِ
رآكَ جديراً أَنْ يباهِيَ خَلْقَهُ ويُحْيي بكَ الأملاكَ في غابرِ[6] الدَّهْرِ
بعبْدٍ حَبَـاهُ يُمْنَاكَ مُعْجِزَ رَبِّهِ واصْفَاكَ[7] منه طاعةَ المُخْلِصِ الحُرِّ

(١) في شرح المقصورة : دلكن .

(٢) في شرح المقصورة : الذعر ، والصواب ما أثبتنا ، والزعر جمع أزعر وهو من الحيوان والطير ماخف شعره أو ريشه .

(٣) أي للمسافرين .

(٤) في الأصل : إذ أقضى .

(٥) أي توقد الحقد .

(٦) الغابر : من الكلمات الأضداد التي تدل على ما ذهب أو ما بقي من الزمان ، وهي هنا بالمعنى الثاني .

(٧) في الاصل : واصطفاك ولا يستقيم الوزن ولا السياق إلا بما أثبتنا .

فأنطقَ غَرْبَيْ قلبِهِ ولسانِهِ … بتخليدِ ماسَيَّرْتَ من طَيِّبِ الذِّكْرِ

لِيُبْلِيكَ عُمْراً بالِغاً بك غَايَـةً … وعُمْرَ ثَنَاءٍ بَعْـدَ مُنْصَرَمِ العُمْرِ

ويكتُبَ لي في آلِ يَحْيىٰ وسائِلاً … تتيهُ عَلَى القُرْبىٰ وتُزْهىٰ عَلَى الصِّهرِ

وَلاءٌ لمَنْ أَعْتَقْتَ من مُوبِقِ الرَّدىٰ … ورِقٌّ لمن أَطلقْتَ من مُوثِقِ الأَسْرِ

وما رُدَّ مِنْ حَمْدِي إليكَ ومن شكرِي … ورُدِّدَ من نظمِي عليْكَ ومن نَثْرِي

وإنَّكَ ما تنفكُّ مِنِّيَ مُعْرِساً … بعذراءَ من نفسِي وغَرَّاءَ من فِكْرِي

تُهِلُّ إليها كُلُّ عذراءَ غادَةٍ … وتَخْجَلُ منها كُلُّ فَتَّانَةٍ بِكْرِ

وتشرِقُ من مَبْدَا سُهَيْلٍ إلى السُّهىٰ … وتَعْبَقُ من مجرى البُطَيْنِ إلى الغُفْرِ (١)

تَلأْلُؤَ ما أَسْدَتْ أَياديكَ في يَدِي … وتحبيرَ ما أَعلَتْ مساعيكَ من حِبْرِي

وفخرُكَ محمولٌ بحمدِيَ في الوَرىٰ … وذِكرُكَ موصولٌ بذكرِي إلى الحَشْرِ

— ٤٩ —

وله فيه أيضاً رحمهما الله تعالى

[من الطويل]

تَبيَّنَ شَمْلُ الدِّينِ أَنَّكَ ناظِمُهْ … وأَيْقَنَ حِزْبُ الشِّرْكِ أَنَّكَ قاصِمُهْ

لقد شَدَّدَ الرحمنُ أَرْكانَ دِينِهِ … فَأُيِّدَ بانِيـــــهِ وهُدِّمَ هادِمُهْ

/ وعَدّىٰ بهِ عَمَّنْ يُوالِي عَدُوَّهُ … وَوَلاَّهُ من والاهُ فَهْوَ مُلاَزِمُهْ [ق٦٤]

(١) سهيل والسهى والبطين والغفر : من النجوم ومنازل القمر .

وَمَنْ مُلْكُهُ إِنْ جَلَّ خَطْبٌ مِلاَكُهُ وأَعلامُهُ إن رابَ دَهْرٌ مَعالِمُهْ
فَسَمَّاهُ منصوراً مُصَدِّقَ جَدِّهِ وما صَدَّقَتْ أرماحُهُ وصوارِمُهْ
وتَوَّجَهُ مَثْنَى الرِّيَاسَةِ مُعْلِناً بما هُو من غَيْبِ السَّرَائِرِ عالِمُهْ
فَتىً وَلَدَتْهُ الحربُ وَاسْتُرْضِعَتْ لَهُ وقائِعُ مَنْ أَحمى[1] الهُدى ومَلاحِمُهْ
مُفَدَّىً وما غيرُ السُّروجِ مِهَادُهُ مُوَقَّىً وما غيرُ السيوفِ تمائِمُهْ]
[٥٢م] / مُجَدِّدُ مُلْكٍ أَحْرَزَتْهُ جُدُودُهُ أَعِزَّةُ أَمْلاكِ الهُدى وَأَكارِمُهْ
فَأَعْرَبَ عَنْ أَيَّامِ يَعْرُبَ وَاقْتَدَى بِمَا عَظُمَتْ أَذْوَاؤُهُ وَأَعَاظِمُهْ
وأَنْجَبَهُ لِلطَّعْنِ وَالضَّرْبِ «عَمْرُهُ» وأَخْلَصَهُ لِلجُودِ وَالحَمْدِ «حاتِمُهْ»
شُجَاعٌ وَلَكِنَّ الجِيادَ حُصُونُهُ كَرِيمٌ وَلكِنَّ المَعَالِي كَرَائِمُهْ
تَلاَقَتْ عَلَيْهِ الخَيْلُ والبِيضُ وَالقَنَا قِياماً لِمَنْ لاَ سَعْيُ سَاعٍ يُقَاوِمُهْ
وخَلَّتْ لَهُ الأَمْلاَكُ عَنْ سُبُلِ الهُدى فَلَيْسَ سِوى طِيبِ الثَّنَاءِ يُزَاحِمُهْ
مُقَسَّمُ ما يَحْوِيهِ في سُبُلِ النَّدَى وإِنْ كانَ قَدْ حَابَاهُ في الحَظِّ قاسِمُهْ
فما خابَ في يومِ النَّدَى من ينُوؤُهُ ولا فازَ في يوم الوَغَى مَنْ يُحَاكِمُهْ
ولا ادُّعِيَتْ في المَأْثُرَاتِ حُقُوقُهُ ولو أَقبلَتْ زُهْرُ النجومِ تُخَاصِمُهْ
ودَعْوَى النُّهى والحِلْمِ في غَيْرِ «مُنْذِرٍ» خيالٌ من الأَحْلاَمِ أَضْغَثَ حالِمُهْ
فَمَنْ ذَا الذي يَرْجُو من المُلْكِ غِرَّةً وما حَوَّمَتْ إِلاَّ عَلَيْكَ حَوَائِمُهْ

(١) أي جعله حمى لا يقرب .

ولا رُفِعَتْ إلاَّ إلَيْكَ عُيُونُهُ — ولا ظَأَرَتْ إلاَّ عليكَ روائِمُهْ

ولا راقَ إلا في جبينِكَ تاجُـهُ — ولا قَرَّ إلاَ في يمينكَ خاتِمُهْ

فـكَيفَ بِذِي جَهْلٍ تَعَسَّفَ مَجْهَلاً — يُبَرِّحُ واقِيـــهِ ويَحْتِمُ حاتِمُهْ

فغـــالته في غَوْلِ المَهَامِهِ غُولُهُ — وهامَتْ به في التُّرَّهاتِ هَوَائِمُهْ

أباحَ حِمىٰ الإِسْلَامِ لِلشِّرْكِ مَغْنَماً — لِتُقْسَمَ بَيْنَ النَّاهِبِينَ مَغـانِمُهْ

وفَضَّ خِتَامَ اللهِ عن حُرُمَاتِهِ — لِيُفْتَضَّ عَمَّــا تَحْتَوِيهِ خَوَاتِمُهْ

وَعَـــدَّ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ مُدَامَةً — فَـبَرَّحَ في الأَعْدَاءِ عَمَّنْ يُنَادِمُهْ

فإنْ أَلْقَحَ الحَرْبَ العَوَانَ فَحَسْبُهُ — فَوَاقِرُ ما شَالَتْ بِـهِ وَأَشائِمُهْ

وإنْ زُجَّ في جَفْنِ الرَّدىٰ فَلِحَيْنِهِ — تَخَازَرَ ســـاجِيهِ وأُوقِظَ نَائِمُهْ

غَدَاةَ دعاكَ الدِّينُ مِنْ أَسْرِ فَعْلَةٍ — وقدأوْشَكَتْ أَنْ تُسْتَبَاحَ مَحَارِمُهْ

فلَبَّيْتَهــــا فانْجَابَ عَنْهَا ظَلَامُهُ — ووافَيْتَهَا فاسْتَنْكَرَتْهَا مَظَالِمُهْ

وجاءكَ مَدُّ اللهِ من كلِّ ناصِرٍ — عَلَى الحَقِّ مَهْدِيًّا إِلَيْكَ مَقَادِمُهْ

ونادىٰ «أبُو مَسْعُودٍ» النَّصْرَ مُسْعِداً — عزائِمَكَ اللاَّتي تَلِيهَا عزائِمُهْ

بِوُدٍّ كماءِ الْغَيْثِ يَسْقِي رِياضَـهُ — وبَأْسٍ كَحَرِّ النَّارِ يُضْرَمُ جاحِمُهْ

/ على كُلِّ مَنْ حارَبْتَ فَهْوَ مُحارِبٌ — كفاحاً ومن سالَمْتَ فَهْوَ مُسالِمُهْ [٥٢ب]

وأَعْصَمَ بالإِشْراكِ قائِدُ بَغْيِها — إلى مَلِكٍ رَبُّ السَّمٰوَاتِ عاصِمُهْ

فما رَكَضُوا طِرْفاً إِلَيْكَ لِغـارَةٍ — وأَسْهَلَ إلا أَسْلَمَتْهُ قوائِمُهْ

ولا أصْلتُوا سيفًا وأنحوك حدّه فعرّج عن مثنى يمينك قائمه
ولا أشّبُوا حصنًا يردُّك عنهمُ وقابلته إلاّ تداعت دعائمه
وإن أحرزوا في قُطرِ «شنحٍ» نفوسهمُ
فغانم ما لا يحفظ اللهُ غارمه
فكم قُدْتَ في أكنافها من مُقنّعٍ نفوسُ الأعادي شربُه ومطاعمه
خميسٌ لجُنح الليلِ من أنجُم الدُّجى حُلاهُ ومن شمسِ النهارِ عمائمه
كأنَّ شعاعَ الشمسِ تحتَ عجاجِه إذا ما التقى الجمعان سِرٌّ وكاتمه
تجيشُ بِودْقٍ من جنى النبْعِ صائبٍ أساوِدُهُ نحوَ العدى وأراقمه
كما حملتْ رحلَ الدّبا عاصفُ الصَّبا أوِ انهلَّ بالوبلِ الأجشِّ غمائمه
وهدَّ هواءُ الجوِّ نحوَ بنائها هويَّ سِلامٍ حانَ من لاتُسالمه
ولو لم تُصادِمْهُ بطودٍ من القنا لأقبلَ أطوادُ الجبالِ تُصادِمه
ولو لم تُزاحمْهُ المجانيقُ لانبرتْ عليهِ نجومُ القذفِ عنكَ تُزاحمه
وليسَ ولو سامى السَّماءَ بِمُعْجِزٍ منَ المشرفيِّ والعوالي سلالمه
فسرعانَ ما أقوى الشَّرى من ضِباعِه وبربرَ في ذاكَ العرينِ ضراغمه
وطُيِّرَ عن ليلِ الأباطيلِ بُومُهُ وشُرِّدَ عن بيضِ النفاقِ نعائمه
وبدَّلتَ حُكمَ اللهِ من حُكمِ غيِّهِ فأنفذَ حُكمُ اللهِ ما أنتَ حاكمه
فيا رُبَّ أنفٍ للنفاقِ جدعتَهُ بها و«ابنُ شنجٍ» صاغرُ الأنفِ راغمه

غداةَ أطـارَ العقلَ عنه ونَفْسَهُ   بسيفِكَ يومٌ راكِدُ الهَوْلِ جاثِمُهْ
فما يَرْتُقُ الأَرْواحَ إلا رِياحُهُ   ولا يَفْتُقُ الغَمَّاءَ إلا غَماغِمُهْ
فلا نُطْقَ إلاّ أن يُفَدِّيكَ صارِخٌ   ويدعُوكَ بالبُقْيا عليهـــا أَعاجِمُهْ
فَأَبْرِحْ بيومٍ أَنتَ بالنَّصْرِ مُقْدِمٌ   وأَفْرِحْ بيومٍ أَنت بالفَتْحِ قادِمُهْ
ومَنْزِلِ مَفْلُولٍ نَزَلْتَ وخيلُنا   مرابِطُها أَجســـادُهُ وجَماجِمُه
ومُعْتَرِفٍ بالذَّنْبِ مُبْتَئِسٍ بِـهِ   دعاكَ وقد قامَتْ عليه مآتِمُهْ
/ إذا صَدَّهُ الموتُ الذي سامَ نَفْسَهُ   يـكُرُّ به العَيْشُ الذي هُوَ سائِمُهْ [٥٣م]
فتَلْقاهُ أطرافُ القَنا وَهْوَ نُصْبُها   ويَصْعَقُهُ بَرْقُ الرَّدىٰ وَهْوَ شائِمُهْ
إذا كادَ يقضِي بالأَسىٰ نَحْبَهُ قَضَتْ   له الرَّحِمُ الدُّنْيا بأَنَّكَ راحِمُـهْ
فلم أَرَ أَمْضىٰ مِنْكَ حُكْماً تَحَكَّمَتْ   عَلَى سيفِهِ يَوْمَ الحِفاظِ مكارِمُهْ
ولا مِثْلَ حِلْمٍ أَنْتَ لِلْغَيْظِ لابِسٌ   ولا مِثْلَ غَيْظٍ أَنتَ بالحِلْمِ كاظِمُهْ
فأَوْسَعْتَهُ حُكْمَ «النَّضِيرِ» وَقَدْ حَكىٰ   « قُرَيْظَةَ » منه غِلُّهُ وجَرائِمُهْ
فَوَلّىٰ وقد وَلاَّكَ ذُو العَرْشِ عَرْشَهُ   وطارَ وقد طارَتْ إِلَيْكَ قوادِمُهْ
وأُبْتَ وقد لاحَتْ سُعُودُكَ بالمُنىٰ   وغارَتْ بِهِ في الأَخْسَرِينَ عَوَاتِمُهْ
تُغَنِّي لَكَ الرُّكْبانُ بالفَتْحِ قافِلاً   وتبكِي عَلَيْهِ بالحِمامِ حَمائِمُهْ
فَمَنْ يَنْصُرِ الرَّحْمٰنُ هذِي عَزائِمُهْ   ومن يَخْذُلِ الرحمنُ هذِي هَزائِمُهْ

الفهارس

— ١ —

فهرس القوافي (*)

حرف الألف المقصورة

حرف الهمزة

(*) الأرقام المثبتة إلى اليمين هى أرقام قصائد الديوان ومقطعاته ، ومن هذه الارقام ما أضيف إليه حرف « م » ، وهي إشارة إلى ترقيم القصائد والقطع المثبتة في « ملحق » الديوان ؛ أما الارقام التي جعلت إلى اليسار فهي تدل على الصفحات .

حرف البـــاء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف السين

حرف الصاد

حرف الضاد

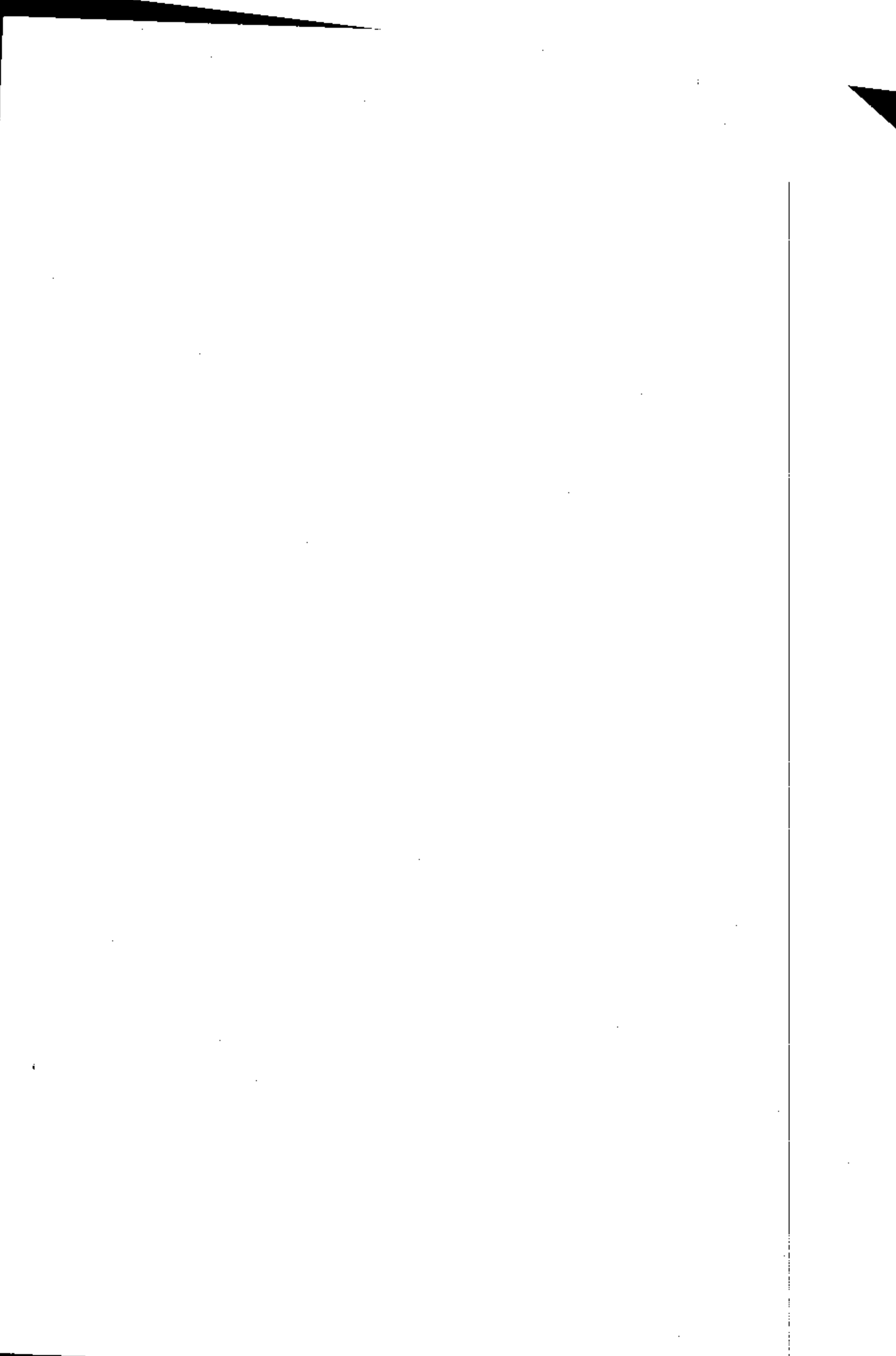
حرف العين

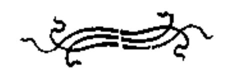
حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام





تصويبات واستدراكات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٣	٦	أيديه	يديه
	٩	يدل على أنه	يدل عليه أنه
٤٥	٩	فطنة	مظنة
٤٩	٦	ذلك المجد لم يقدر للمسلمين	ذلك المجد الذي لم يقدر المسلمين
٧٤	٨	على أن أن	على أن
٧٨	٤	مجاهد العامري	مجاهداً العامري
٩١	١٢	عل	على
	١٤	رجع	رجح
٩٢	١ ، ٤ ، ٦	الريدانية	الزيدانية
١٠	٤ (من أسفل)	ورد	وردا
١٢	١٠	مَرِيشٌ	مَرِيشٍ
١٦	٢	صَرْفِ	صِرْفِ
٢٢	١١	Barrias	Barrios
٣٣	١٥	ظُلْمِ	ظُلَمِ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٣	السطر الأخير	« ب »	« رب »
٣٦	١٣	Arraodoma	Arrodoma
٤١	١٠	المنسوخ	المنسرح
٤٣	السطر الأخير	ص ٢٠	ص ٣٢
٥٣	١٠	٣٤٨ هـ / ٩٥٠ م .	٣٤٨ هـ / ٩٥٩ .
	١٤	Rio garama	Rio Jarama
٥٧	٥	أن تعزُّ	أن تعزَّ
٦٣	٣ (من أسفل)	Rio garama	Rio Jarama
	٢ (من أسفل)	El tajo	El Tajo
٦٤	٨	لأرمنقورها	لأرمنقودها
٦٣	٤ (من أسفل)	Ermen gaid	Ermengaud
٦٦	١١	« المستعينَ »	« المستعينِ »
٧١	٩	أبناء	ابنا
٧٢	الأخير	الخِلاَفَةِ	الخِلاَفَةَ
٧٣	الأول	أَعْيُنُهَا	أَعْيُنَهَا
٩١	٩	العَزَّاء	الغَرَّاء
٩٣	٩	أصهاب	أصاب
٩٥	٦	الكاتب الرئيسي	الكاتب الرئيس
٩٩	٥	العَتَب	العَتْب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٥	٤ (من أسفل)	شوازبا	شوازيا
١٠٧	الأول	حِطارَكِ	خِطَارَكِ
١٢٢	٤	الدُّورب	الدُّروبِ
١٣٢	٩	وَعودةٌ	وَدَعْوَةٌ
١٣٨	٢	نَقَارَعُ	تَقَارَعُ
١٣٩	الأول	للصَّبا	لِلصِّبا
١٤٠	١٣	الدال	الدل
١٦٣	١٢	كانت من « فرنجة »	من « فرنجة »
	١٨	مصالحة	مصالحه
١٩٧	٤ (من أسفل)	Iérida	Lérida
	الأخير	Urlel	Urbel
١٩٨	الأخير	انظر تعليقنا على ص ٩٧)	(انظر تعليقنا على ص ١٤٨)
٢٠١	٤ (من أسفل)	في سنة ٤١	في سنة ٤١٦
٢٠٢	١٦	Yosé	José
	١٧ — ١٨	Val. I, P. Z46	Vol. I, P. 246 .
٢٠٥	١٣	ولقد خَلَعْتَ قَبْلَ دُنُوِّهِ	ولقد خَلَعْتَ عَلَيْهِ قَبْلَ دُنُوِّهِ
	١٤	الخَلَقِ	الحَلَقِ
٢١٠	٨	أُرْسِلَتْ	أَرْسِلَتْ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢١٧	٣	وَمُؤَدِّبَا	وَمُؤَوِّبَا
٢١٨	١١	البُؤْسَ	البُؤْسَىٰ
٢٢٢	١٠	وُجُوداً	وُجُوهاً (والتصويب عن « ق »)
٢٢٥	٩	زَهْرَها	زُهْرَها
٢٢٦	٨	وَنَحْوَكَ جُبْتُ لَيْلَ البِيدِ حَتَّىٰ خَفِيتُ عَلَى المَنَايَا فِي الزِّحَامِ	وَنَحْوَكَ جُبْتُ لَيْلَ البِيدِ حَتَّىٰ تَرَكْتُ دُجَاهُ مَفْضُوضَ الخِتَامِ وَزَاحَمْتُ الخُطُوبَ إِلَيْكَ حَتَّىٰ خَفِيتُ عَلَى المَنَايَا فِي الزِّحَامِ (والزيادة عن « ق »)
	١١	جِراجاً	جِراحاً
٢٢٧	٢	وعندَ حِمَاكَ أَمْسَىٰ [رَبْعُ] سِرْبِي	وعندَ حِمَاكَ أَمْسَىٰ [نَشْرُ] سِرْبِي (والتكملة عن « ق »)
٢٢٩	٣ (من أسفل)	ص ٨٧	ص ١٣٦
٢٣٧	٤ (من أسفل)	... مثل دوزى . وقد تبعنا فيما أثبتنادمن هذه الأسماء والتواريخ ما أورده المستشرق الإسباني بريتو ڤيڤس	... مثل دوزى، والمستشرق الإسباني بريتو ڤيڤس ...
٢٤١	٨	فتَشَفَّرْنا	فَتَشْفُو نَا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٤٢	٢	سرقطسة	سرقسطة
	٦	lérida	Lérida
	١٨	بين سنتي ٤١٤ و ٤١٧	بين سنتي ٤١٢ و ٤٢٧
	الأخير	Peyes	Reyes
٢٥٣	٧	شقاؤهُ	شِتاؤُهُ
٢٥٦	٢	ومُبْلِغُ	ومَبْلَغَ
٢٥٧	١٢	. . . . . . الملك ميراثُ تُبَّعٍ	[وساقَ إليه] الملكُ ميراثَ تُبَّعٍ (والزيادة عن « ق »)
٢٦٤	٤	وله	وله [فيه حين أعرس أخوه حكم ابن منذر :] (والتكملة عن «ق» ، وقد كنا علقنا على عنوان هذه القصيدة قائلين إنه يتضح منها أنها قيلت في مدح يحيى بن منذر وتهنئته بمناسبة تزويجه لإحدى بنات أسرته من أحد قرابته واسمه حكم ، والعنوان كما نقلناه عن « ق » يغني عن تلك الترجيحات ، إذ هو ينص على أن « حكماً » المشار إليه إنما هو أخو يحيى بن منذر نفسه) .
٢٦٥	٥	لِفَجْرِهِمُ	لِفَخْرِهِمُ (والتصويب عن « ق »)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٦٥	٦	بحَظِّهِنَّ	بِحِفْظِهِنَّ (والتصويب عن «ق»)
٢٦٧	١٠	لهسا	لَهَا
٢٦٨	١٠	[أَلْبَسْتَهُنَّ]	فَالْبَسْ لَهُنَّ (والتصويب عن «ق»)
٢٧٢	٦	بِنَّ	مِنَّا (والتصويب عن « ق »)
٢٧٣	٦	وفي اسْمِ المظَفَّرِ فَأْلُ الحَياةِ لِيَحْيا الغريبُ بِهِ والمُقِيمُ	[وكيفَ يُؤَمِّلُ مَوْلىً كَرِيمٌ ويُخْشَى مِنَ الدَّهْرِ خطبٌ ذَمِيمُ] وفي اسْمِ المظَفَّرِ فَأْلُ الحَياةِ لِيَحْيا الغريبُ بِهِ والمُقِيمُ (والبيت المثبت بين الحاصرتين أضفناه عن « ق »)
٢٧٤	١٢	بها	به (والتصويب عن « ق »)
٢٧٥	الأول	له	لنا (والتصويب عن « ق »)
٢٧٦	الأخير	يضاف إلى هذه الحاشية : وفي هذا البيت إشارة إلى الآية القرآنية الكريمة : « وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك » (سورة القصص ، آية رقم ٩)	
٢٧٨	الأول	سَعْيَكَ	سَعْيُكَ
٢٧٩	١٣	وَالآصالِ	والأُصالِ
٢٨٥	١٢	logroño	Logroño
	١٩	للتعرف	للتعريف

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٨	١٩	خَطًّا	خَطًّا
	١٢	عجاحاً	عجاجاً
٣٠٢	١٦	يت !	يت : بالبدر والبحر
٣٠٤	٢	يَجْرِي	يَجْزِي
٣٠٥	١٠	لإِمرِ	لأَمرِ
	٣ (من أسفل)	الرائعة	الرائية
٣١٥	٣ (من أسفل)	(ص ١٣٢) ويبدو ومن	(ص ١٩٨) ويبدو من
٣١٧	١٤	عَذْرٌ	غَدْرٌ
٣١٨	١١	يُغنيكَ	يَفْبِنْكَ (والتصويب عن «ق»)
٣١٩	٤	... وَيعذُبُ منهـــا الصَّابُ والسَّلَعُ	[طِيباً] وَيَعذُبُ منهـا الصَّابُ والسَّلَعُ (والتكملة عن « ق »)
٣٢٢	الأول	وجُرِّدَ للهُدٰى سيفٌ [صقيل]	وجُرِّدَ للهُدٰى [والحَقِّ] سيفٌ (والتكملة عن « ق »)
	١٠	عَيْبَ	غَيْبَ (والتصويب عن « ق »)
	١٢	مُسْتَـكِنّ	مُسْتَـكِينِ (والتصويب عن «ق»)
٣٣٠	الأخير	في الذخيرة : فكم	في الذخيرة : وكم
٣٣٢	٥	لِمَلَمَّاتِ	لِمُلِمَّاتِ
٣٣٣	١٤	الثَّوَاءُ	الثَّواءِ
	١٥	بَجْرِ	بَجْرِ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٣٤	١٠	يُجَامِعُهَا	بجَامِعِهَا
٣٣٦	١٨	نتتين	نتبين
	٢١	جابن	جلبت
٣٤٨	٥	وخَوْفاً ..... الوفاء	وخَوْناً ..... الوفاء
٣٥٠	١٠	للمُنىٰ	وللمُنىٰ
٣٥١	٩	عُلاً	غِلاًّ
٣٥٢	٧	خلاليل	خلاخيل
	١١	أبيان	أبيات
٣٥٣	١٢	عدِمُ	عَدِمَ
٣٥٤	١٠	وله فيه أيضاً في رحمهما الله	وله فيه أيضاً رحمهما الله
٣٥٧	١٢	جاجِبَيْكَ	حاجِبَيْكَ
٣٥٩	٢	فَمُنْتَظِرٌ	فَمُنْتَظَرٌ
	١٥	والأَجج	والأرجج
٣٦٢	١٤	كان	كانت
	١٥	فيتوجه	فتوجه
٣٦٥	١١	مُشَكَّلَةً	مُشَكَّكَةً
	١٥	أَلَيْهِ	إِلَيْهِ
٣٧٠	١٣	أَيُّ	أَيَّ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٧١	٢ (من أسفل)	Conbastela	Compostela
٣٧٤	الأخير	وكسى	وكسا
٣٧٥	١٥	Garoño	Coroño
	١٨	Cambastelana	Compostelana
		Gilmérez	Gelmiraz
	٢٢	campelo	Campelo
٣٧٩	الأول	تَقَضَّتْ	تَقَصَّتْ
٣٨٠	الأول	جَلَّ	حَلَّ
	٩	Sànchaz	Sànchez
	١٤	إخفاء	إحفاء
	الأخير	pérez	Pérez
٣٨٤	٤	وقَصَمْتَ	وفَصَمْتَ
٣٨٥	١١	Barrell	Borrell
	١٤	Manuel	Manual
	١٧	Bemondo	Regemondo
٣٨٦	٢ (من أسفل)	Iacarra	Lacarra
٣٨٧	١١	Gervera	Cervera
	١٥	Garriôn	Carriôn
	الأخير	المزيمية	المزيمة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٨٨	٧	صفائِحُ	صفائِحَ
٣٩١	٣ (من أسفل)	وهو مقال	وانظر كذلك المقال الذي
٣٩٥	١٤	البشكنس	البشكنسي
	١٧	تصغر	تصغير
٣٩٩	الأخير	على	من
٤٠٥	٣ (من أسفل)	شِئْتَ	شِئْتِ
٤٠٨	٩	Bermndo	Bermudo
	٤ (من أسفل)	Astarga	Astorga
٤١٦	١٣	اثنتين وثلاثين وثلاثمائة	اثنتين وثمانين وثلاثمائة
٤١٧	٢	غيابات	غيابات
	١٠	رأيتَ	رأيتِ
٤١٨	٤	ورأيتَ	ورأيتِ
	٥	وافَتْكَ	وافتْكِ
٤٢٨	١٣	Cineo	Cinco
٤٣٠	١٢	انظر مقال توريس بلباس السالف الذكر	انظر مقال توريس بلباس عن باب السدة السالف الذكر وعن أبواب السدة في الأندلس عامة — مجلة « الأندلس » ، المجلد ١٨ ، سنة ١٥٢ ، ص ١٦٥ — ١٧٥

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٣٢	٣ (من أسفل)	عند شلب	غند شاب
	٥	Carci - Fernálndez	Garci - Fernàndez
	٦	Fervnan - Conzàlez	Fernàn - Gonzàlez
	١٦	Gormâz	Gormáz
	الأخير	Saria	Soria
٤٤٠	الأخير	Conbostela	Compostela
٤٥٠	٥ (من أسفل)	Herández yiménez	Hernàndez - Jiménez
٤٥٢	١٠	أَسَفَاَ	أسِفَا
٤٥٤	٤ (من أسفل)	Lcyenda	Leyenda
	٢ (من أسفل)	Hsirtoia	Historia
٤٥٥	٣ (من أسفل)	San Estaban de Cormaz	San Esteban de Gormàz
٤٥٦	١٢	Carci - Fernàndez	Garci Fernàndez
٤٥٨	٩	حُكُمِكَ	حُكْمِكَ
٤٦٠	الأخير	Bermndo	Bermudo
٤٦١	١٠	Coinbra	Coimbra
	١٨	بجليقة	بجليقية
٤٦٢	٥ (من أسفل)	هذة	هذه
٤٦٤	٩	البُشُرىٰ	البُشْرىٰ
٤٨٩	١٤	سَيفكَ	سَعْيكَ
٤٩٠	١٠	فيـــــهِ	فبهِ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٩٣	٥ (من أسفل)	El Mayar	El Mayor
٤١٤	١٠	Lep	Lop
٤٩٧	١١	Lab Gonsàles	Lope Gonzàlez
	١٤	Sànches	Sánchez
٥٠٠	٥	تُوَلِّثُهُنَّ	تُوَطِّئُهُنَّ
٥٠١	٦	بِيضٍ	بِبِيضٍ
٥٠٩	الأوّل	وتُجْمَعُ شملَ	ويُجْمَعُ شملُ
٥٢٩	١١	حانِيةً	حانيةً
٥٣٧	٣	منكِ	منكَ
	٩	أَمضِي ..... وأُثْبُتُ	أَمْضَى ..... وأَثْبَتَ